البيان المغرب

في أخبار الأندلس والمغرب

لابن عذاري المراكشي

- قسم الموحدين -

تحقيق الأساتذة

محمد إبراهيم الكتاني — محمد بن تاويت

محمد زنيبر — عبد القادر زمامة

دار الثقافة

للنشر والتوزيع

الدار البيضاء

Dup

البَيانُ المُغرِب

اهداءات ٢٠٠٢

أ.د/ مصطفى الصاوى الجوينى

الاسكندرية

الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر

البيان المُغرب

في أخبار الأندلس والمغرب

لابن عذاري المراكشي

- قسم الموحدين -

تحقيق الأساتذة

محمد إبراهيم الكتاني — محمد بن تاويت
محمد زنيبر — عبد القادر زمامة

دار الثقافة
32 - 34 شارع فكتور هيكو
الهاتف 75 30.23 / 30.76.44
ص ب 4038 الدار البيضاء المغرب

دار الغرب الإسلامي
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى 1406 ـــ 1985

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام
على رسول الله ذي الخلق العظيم

تقديـــــم

وبعد ، فإن اتصالنا « الكتاني وبن تاويت » بهذا الجزء من كتاب البيان المعرب ،كان أوائل سنة خمسين أو إحدى وخمسين حينما ظهر في طبعته بتطوان غير كامل ويحمل عنوان الجزء الرابع منه بتحقيق المستشرق الأسباني «هويسي مرنده »[1] .

ومن ألطاف الله الخفيـة ، أن توقف الطبع عند تلك النهاية المضطرة ، حتى بزغ علينا فجر الأستقلال السافر ، وتحطمت الحدود الجهنمية ، فسافر منا الأستاذ محمد ابراهيم الكتاني إلى تامكروت ، التي عثر في خزانتها على مخطوطة هذا الجزء ، تضم زيادات هامة حفزتنا ـ كلينا ـ على إعادة طبع الجزء المذكور ، بضميمته هذه ، فعرضنا الفكرة على المحقق الأول ، وبشريطة المشاركة أو المساهمة في العمل ، فقبل شاكراً بعد الاطلاع على المكتشف حديثاً . وكان من ذي قبل قد

(1) أثبت المحقق اسمه آنذاك بالعربية هكذا «أمبروسيوهويسي» في طبعته تلك ، لكن لما أعدنا طبعه ، اعترض بعض المنحشرين على إثبات الهاء في «هويسي» وكأنه بسماعه من بعضهم ، دون بعض آخر ، اتخذ له سلاحاً مستعاراً ، عارضاً إياه معرض الأبطال الشداد ، والمسألة في منتهى البساطة ، فإن هذه الهاء ، صارت الاسبانية تستغني عنها ، وإن لم تتخل تماماً تماماً في كلمات ، منها مثلاً : نجد في الاسبانية تنطق في نحو هذه الكلمات : . Hierro , Huesca , Huelva , Huerfano ولا نطيل بالأمثلة المحفوظة بتاريخنا كما نجد في الفرنسية تنطق في نحو Herbert , Herbelot , Hennebique , Huart , Hudas ، الى غير هذه مما يجده في المنجد . أما الجرمانية والسكسونية ، فإنها حريصة كل الحرص عليها ، بل انها تنطقها أول الكلمة وان لم تكتب أولها مثل Where أو When في الانجليزية . ولعل العربية بدأت تسلك نفس السبيل فقالت في الأفعال «هراق» و«أراق» وفي الحروف من النداء «هيا» و«أيا» ومن التحضيض «هلا» و«ألا» وكذلك الفارسية قالت في الرابطة «هست» و«أست» فليطمئن «شقيق» العصر الصفيق .

رفض هذه المشاركة التي عرضها عليه مدير معهد مولاي الحسن آنذاك السيد عبدالله كنون ، فتولى طبعه على انفراد « وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون » .

وبهذا شرع مدير المعهد ، محمد بن تاويت والأستاذ محمد إبراهيم الكتاني ، في مباشرة العمل طيلة سنة ثمان وخمسين ، لكن في نهايتها كان الأول قد توجه إلى انجلترا وبقي الثاني يمارس العمل مع اتصال بالمستشرق المحقق إلى أن كانت نهاية سنة تسع وخمسين حيث عاد من انجلترا المتوجه اليها ، واستؤنف العمل ، كما كان من ذي قبل .

وتمَّ طبعُ هذا الجزء ، كما خرج به من بين فرث ودم ، ولظروف قاهرة في بعضها ، ومتجنبة لمشاكل تقليدية ، في جلها . وهكذا خرج إلى عالم الوجود فسر المحقق بعدما كان القنوط قد استولى عليه ، وقد سجلت مساهمتنا له ، وذلك أضعف الإيمان .

وقبيل هذا كان الأستاذ الكتاني ، قد اكتشف كذلك ، بالخزانة الملكية خمس مخطوطات لهذا الجزء وعرف بها في مجلة تطوان التي كان يتولى إصدارها زميله محمد بن تاويت ، كما نشر بالمجلة المذكورة ، أوراقا زائدة على نسخة تامكروت ، وجدت آخر إحداها . وكان العمل قد انتهى أو أوشك فلم يمكن إجراء مقارنة بين المخطوطات ، والاستفادة من بعضها ، وقلنا في نفسنا ما قاله الغزالي رحمه الله « ليس في الإمكان أبدع مما كان » . وودعنا عملنا المشترك بالكلمة التي كتبها مدير المعهد بعنوان « كلمة لا بد منها » معتذراً وآملاً في مناسبة أخرى أن تتاح الفرصة لإعادة الطبع ، على الذي أحسن مما مضى .

وحقق الله الأمل ، بعد عشرين سنة ، وقد اكتشف نسخة أخرى فيها زيادة كذلك الأستاذ عبد القادر زمامة ، كما كان الأستاذ محمد زنيبر قد بذل جهداً في تحقيق بعض النصوص ، إلى جانب ما بذله الأستاذان محمد إبراهيم الكتاني ومحمد بن تاويت من جهد جهيد . وصح العزم بعد هذا كله على إخراج نسخة قريبة من الكمال ، ساهمنا في إعدادها جميعنا ونرجو تحقيق ما استطعنا فيما يصدر بهذه الطبعة الثانية(*) .

(*) اتخذنا طبعة تطوان السابقة سنة 1960 أساساً لعملنا، فصححناها وأضفنا إليها الزيادات المكتشفة ـ من بعد ـ اعتماداً على المخطوطات التالية : =

وبعد فقد ذكرنا أن هذا الجزء ، لما طبع منه لأول مرة ما طبع اعتبر الجزء الرابع ، ولكنه لثاني مرة في الطبع اعتبر ثالثاً ، وهو الصواب كما هو مثبت بمخطوطة تامگروت المذكورة ، بل كما هو مذكور في المقدمة التي جعلت هذا الجزء يضم حتى أخبار المرابطين ، وبذلك كان في الإمكان ضم ما نشره المحقق الراحل ، من صفحات أو لوحات خمسين تتعلق بهؤلاء في مجلة « هسبريس » أوائل العقد السادس ، ولكن حيث إن الدكتور احسان عباس ، سبقنا إلى هذا ، فأعاد نشره ، فيما أعاد من نشر البيان ، وجعله أحد أجزائه الأخيرة كما هو حسب تجزئته فإننا تركنا ذلك له ، واعتمدنا على النسخ الخطية المذكورة آنفاً .

ولعله من المناسب ، أن نورد هنا ما جاء حول ابن عذارى ، وكتابه عموماً فيما نجده في « **الوافي بالأدب العربي في المغرب الأقصى** » جاء فيه :

أما ابن عذارى ، فلا نعرف له إلا ترجمة اجتهد فيها دوزى ونقلها العباس ابن ابراهيم والزركلي في إعلاميهما ، وهي لا تقول لنا أكثر من كونه مراكشيا وإن كان أصله الأول أندلسياً ، وأنه عاش حتى نهاية القرن السابع تقريباً .

هكذا قيل . ولكن المتتبع لما ورد بكتابه ، يدرك أنه عاش أوائل القرن الثامن ، حيث أدرك العقد الثاني منه . وذلك ما نجده أواخر الجزء المعني هنا .

لقد افتتح كتابه بقوله :

الحمد لله مصرف الأقدار ومحيي الآثار ، والمتعالى عن الأشباه والأنظار ، المتنزه عن تمثيل الأوهام وتكييف الأذكار ، الذي احتجب بحجاب عزته وقدرته ، «فلا تدركه الأبصار وهو يُدرك الأبصار» الذي خضعت لهيبته وعظمته رقاب الاكاسرة والجبابرة والأشرار ، العالم بالأكوان على اختلافها ، والحوادث مع تشتيت

---

1) **مخطوط تامگروت** : بالخزانة العامة بالرباط ، رقم (ق 200) في 232 ورقة وهي ناقصة . إضافة إلى ما كان اكتشفه الاستاذ محمد إبراهيم الكتاني في بعض مخطوطات خزانة القصر الملكي بالرباط ، ونشره في مجلة (تطوان) 1965 . العدد 10 (ص244.239) .

2) **مخطوطة باريس** : أهداها ج كولان للاستاذ محمد إبراهيم الكتاني . وهي مبتورة من الأول والآخر .

3) **مخطوطة الخزانة الحسنية** (الملكية) بالرباط ، رقم 336 في 459 صفحة (مقاس 19 × 29) انتسخت عام 1165 هـ .

4) **المن بالامامة** : لابن صاحب الصلاة ، السفر الثاني المصور على الورق بالخزانة العامة بالرباط .

أوصافها «وكل شيء عنده بمقدار»، مكور الليل على النهار والنهار على الليل(*) ما جرى الفلك الدوار، وجعلهما آيتين بينتين للتفكر والعظة والاعتبار، وخص الإنسان بفضل النظر والاستبصار، فقال جل وتعالى: «فاعتبروا يا أولي الأبصار»، وعلمه ما لم يكن يعلم، وكرر عليه ما لم يلحق من أنباء القرون الماضية في الأزمان والأعصار، وأراه متقلبهم في هذه الدنيا الفانية التي جعلها لهم دار انتقال، و ومفر وزوال، وجعل الأيام بينهم دولا، والاقوام بعضهم من بعض بدلا . . . إلى أن يقول: وبعد، جعلنا الله ممن نظر فاعتبر، ووعظ فازدجر، فان خير ما شغلت به الأفكار والأذكار، وتحدثت معه بالليل والنهار حفظ ما أفاد من العلوم والأخبار، وإنَّ أولى ما رضيت به النفوس البشرية مجالسة العلماء والأخيار، ومُذاكرة الأدباء ذوي الهمم وعلو المقدار، إلى أن يقول: ولما كنت كلفت بأخبار الخلفاء والأيمة والأمراء بالبلاد المشرقية والمغربية وما والاهما من الأقطار، وولعت بالمناظرة في ذلك مع الفضلاء والأجلاء ذوي الأقدار والأخطار، طلب بعضهم إليَّ ممن يجب إكرامه علي أن أجمع له كتاباً مفرداً في أخبار الملوك الغربية على سبيل الإيجاز والاختصار، فجمعت له في هذا الكتاب نبذاً ولمعاً من عيون التواريخ والأخبار، فيما مر من الأزمنة والأعصار، في بلاد المغرب وما والاها من الأقطار.. فنقلت ـ والله ولي التوفيق ـ من تاريخ الطبري والبكري والرقيق والقضاعي ومن كتاب الذيل لابن شرف ومن كتاب ابن أبي الصلت، ومن المجموع المفترق، ومن كتاب بهجة النفس وروضة الأنس، ومن كتاب المقباس والمقتبس والقبس(**) ومن مختصري عريب وابن حبيب، ومن درر القلائد وغرر الفوائد، ومن القلائد والمطمح، لابن خاقان، ومن كتاب ابن حزم، وذخيرة ابن بسام، ومن أخبار الدولة العامرية لابن حيان، ومن كتاب تقصي الأُنْبَاء في سياسة الرؤساء، ومن كتاب الأنوار الجلية في الدولة المرابطية، ومن نظم الجمان في أخبار الزمان، لابن القطان، ومن كتابي الأشيري والبيذق، وكتاب يوسف الكاتب، وكتاب ابن صاحب الصلاة أبي مروان، ومن كتاب ابن رشيق، ومن كتاب وجدته أو تعليق، ومن شيوخ أخذت الأخبار الوقتية عنهم بتحقيق.

(*) لعل الأصل كان «مكور النهار على الليل والليل على النهار» لمساوقة الأسجاع. فإن كان أراد التضمين، فقد غير فيه «يُكَوِّر» باسم الفاعل «مكور».

(**) كذا والمعروف إنما هو الثاني. فلعل غيره واقع من الناسخ، أو أنه لاختلاف الاسم أو تعدده.

وحول تصميم الكتاب يقول في المقدمة كذلك :

أما الجزء الأول فاختصرت فيه أخبار افريقية من حين الفتح الأول . . . ثم أخبار أمرائها من ولاة الخلفاء الأمويين . ومن قام بإفريقية من الصفرية والإباضية ، ثم من قام فيها بالدولة العباسية ، ومن ملكها من بني الأغلب ، وأخبار بني عبيد الشيعة ، وأخبار زناتة والصنهاجيين وغيرهم . . . الى حين انتقال العبيدية الى البلاد المصرية ، واستخلافهم صنهاجة على افريقية ثم خلع صنهاجة لهم واستيلائهم على افريقية ، ونذكر فتنة العرب وأسبابها ودخولهم إلى القيروان وحربها ، وتنقل صنهاجة إلى المهدية . . . وما اشتهر في ذلك من الأخبار عنهم ، من ملوك المناديين والحماديين ، إلى حين ظهور الموحدين . . . وذكرت أخبار المدراريين السجلماسيين ، والأمراء الادريسيين وأخبار البرغواطيين والزناتيين . . . ومن ولاة الخلفاء الأمويين الاندلسيين . . . إلى حين ابتداء الدولة اللمتونية المرابطية .

والجزء الثاني اختصرت فيه أخبار جزيرة الأندلس . . . من حين الفتح ، ثم من وليها من الأمراء للخلفاء الأمويين بالمشرق ، ثم من قام بها من العرب الفهريين ، إلى حين دخول الخلفاء الأمويين في ابتداء أمرهم . . . الى انقضاء مدتهم بعد ذكر حجابهم العامريين ومآثرهم إلى حين انقضاء الدولة العامرية وقيام الفتنة البربرية ، وذكرت فيه أخبار ملوك الطوائف . . . الحموديين والهوديين والجهوريين والعباديين وفتيان العامريين والصمادحيين والزناتيين والبكريين والأفطسيين والصنهاجيين .

والجزء الثالث اختصرت فيه أخبار الدولة المرابطية اللمتونية . . . واستيلائهم على مملكة أمراء المغرب والاندلس . . وتغلبهم على مملكة كل منهم ، وما تسنى لهم فيها من الفتوحات ، إلى حين ابتداء دولة الموحدين وظهورهم . . . ثم ما كان بين أمراء الدولتين من مقاتلات ومنازلات . . . إلى حين انقراض الدولة المرابطية . . . ثم ما تخلل بعد ذلك للموحدين من النصر والتأييد في البلاد الافريقية والأندلسية ، إلى حين انقراض دولتهم . . . وذكرت الدولة الحفصية الموحدية الهنتاتية في البلاد الافريقية والدولة الهودية المتوكلية والنصرية الاحمرية في البلاد الاندلسية ، والدولة السعيدة المرينية في البلاد الغربية . . . واستيلاء الإمارة اليوسفية المرينية على حضرتهم (أي الموحدين) المراكشية وذلك على مرور السنين الى عام 667 .

وهكذا نجد المؤلف قد وضع لكتابه مخططاً تأليفياً ، بالمعنى الدقيق ، فهو أقدم كتاب في التاريخ المغربي بين أيدينا . صحيح إنَّ كتاب المعجب سبقه إلى ذلك ، ولكن هذا الكتاب يعد كتاب أدب وتاريخ على طريقة السرد .

وبعد ما ذكر أنه جعل كتابه في ثلاثة أجزاء ، قال : وذكرت بعض البيعات والرسائل السلطانية ، وما تعلق بها ، وكان بسببها من الوقائع المذكورات ، والأمور المشهورات .

وهذه المصادر التي اعتمد عليها بعضها معروف وبعضها غير معروف ، ككتاب الأنوار الجلية . وبعضها لا توجد إلا أجزاء منها ككتابي ابن صاحب الصلاة وابن القطان والمقتبس لابن حيان . (ومن الشيوخ الذين أخذ عنهم الأخبار ابن عبد الملك) .

وإلى جانب ما نستفيده من كتابه في التاريخ ، نستفيد معلومات أدبية ونصوصا لها أهمية قلما توجد في غيره ، مما بيدنا من كتب ، وهي ظاهرة عامة نجدها في كتب المراكشيين منذ كتاب الاستبصار فالمعجب والتشوف ثم الذيل والتكملة ، لا تختلف في هذا عن مؤلفات الاندلسيين . ويلاحظ أنه ألف كتابه استجابة لطلب بعضهم منه ذلك ، وهذا ما وجدناه في مقدمات الكتب السالفة الذكر ، ما عدا التكملة منها والتشوف .

وفيما يخص أسلوب الكتاب ، فيما عدا المقدمة ، فإنه يضم أمشاجا من الأساليب ، حافظ عليها هذا المؤرخ النزيه ، ولا شك أن تحريه دفعه إلى هذه المحافظة ، التي ينساق لها المؤرخ ، بصفة خاصة ، كما نجد لذلك أمثلة في كتاب الكامل لابن الأثير وغيره ، وقد اكتفى ابن عذارى بالنص على مراجعه ومصادره عامة في المقدمة ، ولم ينص غالباً في تلك الأساليب التي أتى بها على أصحابها ، اللهم إلا ما كان فيها من نصوص أدبية ، كالرسائل والبيعات ، وإن كان بعضها قد تعرض للاختصار من قبله أو من قبل الناسخ ، كما نجد في البيعة التي كتبها ابن عميرة عن مكناسة التي كان قاضيها ، ثم البيعة التي كتبها لهم الكاتب ابن عبدون ، نعم : إن ابن عذارى قد ينص على الاختصار ، كما فعل في رسالة الأمير أبي زكرياء الحفصي إلى أهل إشبيلية .

أما ما وقع في القصائد من اختلاف أو تحريف ، فالغالب كونه من النساخ

الذين اعتوروا هذا الكتاب بعملهم ، وشاعت بهم نسخ منه .

والملاحظ أنه يكثر من النصوص الشعرية أضعافاً مضاعفة أكثر مما يفعل في النصوص النثرية . ولعل ذلك راجع الى وفرة الاولى في تلك المصادر التي استقى منها والمراجع التي استفادها بل إن وفرة المحصول الشعري من طبيعة ما يحتفظ به الأدب العربي منذ جاهليته .

ومهما يكن فان القصائد التي ذكرت في كتاب البيان، يمكن ان تملأ سفرا متوسطا ، وفيها من طوالها كثير ، مثل قصيدة أبي موسى هرون بن هرون في رثاء اشبيلية ، ووصف ما نالها من الكرب الشداد ، عند سقوطها بيد النصرانية سنة ستٍّ وأربعين وست مائة ، فهذه تقع في خمسة وستين بيتاً ، أتى الكتاب عليها برمتها ، ومطلعها :

يا حمص أقصدك المقدور حين رمى   لم يرع فيك الردى إلّا ولا ذِمَما

وفي حصارها هذا يسوق ابن عذارى وصفاً مؤثراً ، لعله مما حافظ عليه في أصله فقال :

احدقت النصارى بمدينة اشبيلية ، وحاصروها برا وبحرا ، وأذاقوا أهلها شرا ، وكان نزولهم عليها ، ووصول جموعهم اليها ، في شهر جمادى الاولى من العام المذكور ، فاشتد في هذه السنة حصارها ، وتملات منهم أنظارها وأقطارها ، وأخذوا خلقا كثيرا من أهلها ، واختطفوا في الاجفان بعض أطفالها ، وضيقوا بها غاية التضييق ، ورموا الحجارة بالمنجنيق ، وعدموا المرافق كلها ، قليلها وجليلها ، إلا ما كان في بعض ديار الأغنياء ، فانهم كانوا يحتاطون في تلك الأمور ، مثل الفقيه القاضي ابن منظور ، فإنه كان يطمع في إقلاع النصارى عن المدينة ، فأمر الناس بالقتال والرمي بالنبال والناس مع ذلك حيارى ، يمشون سكارى وما هم بسكارى ، ومات بالجوع خلق كثير ، وعدمت الأطعمة من القمح والشعير ، وأكل الناس الجلود ، وفنيت المقاتلة من العامة وأصناف الجنود ، ولما انتهى بإشبيلية شدة الحصار ، وعدموا الأنصار من الأمصار ، وصاروا قبضة في يد اعداء الله الكفار ، خاطبوا أمير المؤمنين المعتضد بالله السعيد ، وكافة المسلمين من أهل عدوة الغرب ، يستصرخونهم ويعرفونهم بما نالهم من الجهد العظيم ، والكرب الشديد الاليم ، ويرغبونهم في نصرتهم ويحرضونهم على جهاد أعداء الله الكافرين ، فمن

ذلك قصيدة يرق لها القلب القاسي ، وتأتمر لها الجبال الرواسي ، وهي القصيدة المذكورة سلفاً .

ويبدو أن هذا الوصف كان لكاتب معاصر للكارثة ، والغالب أنه كان من أهل اشبيلية آنذاك ، لما يتسم به من جزئيات ، مثل ذكر القاضي ابن منظور ، وما كان يطمع فيه من إقلاع النصارى ، ويأمر به المدافعين من قتالهم ورميهم بالنبال والناس مع ذلك حيارى .

فهذا مثال من تلك الأمثلة التي وردت في سياق الكتاب ، فاختلف بها أسلوبه من آن لآخر .

وما بيدنا من المخطوطات يختتم باختصار الخبر عن حركة الواثق بالله ، ادريس ابن أبي عبد الله بن أبي حفص عمر بن عبد المؤمن الى السوس ، وفي هذا المساق نجد عبارة « قال المؤلف اخبرني بعض العارفين » مما يدل على أنه يستعمل أسلوبه في سرد الحوادث ، وهو فيها مطيل يشبه باطالته المؤرخ ابن حيان الأندلسي ، وهذا واضح بيّن في خلافة الواثق المذكور ، حيث نجد النص على اليوم المسمى من الشهر كذلك وبالتاريخ المعين ، بل نجد النص على بكرته مثلاً من أول شوال ، ثم الثاني منه إلى الثامن فالتاسع وما كان بعد صلاة العصر ، وهكذا إلى الثالث والعشرين منه ، ثم غرة ذي القعدة إلى الثالث منه فالتاسع ، وفي خمس وستين وستمائة ، نجده كذلك يقول « أخبرني من أثق به » وبعد ذلك يأتي بقصيدة الرندي في رثاء الأندلس ، ولا يذكر منها إلا سبعة عشر بيتا ، ثم بعد صفحة ينقطع سياق الكتاب ، دون نهايته التي كانت حسب ما ورد في المقدمة سنة 667 أي بانقراض الدولة الموحدية واستيلاء الامارة اليوسفية على حضرتهم المراكشية ، كما قال .

ولا شك أنه يقصد بهذه النسبة أبا يوسف يعقوب بن عبد الحق ، الذي فتح مراكش سنة 668 بصفة نهائية ،وكان يحاصرها من قبل. ويستبعد أن يكون المقصود في المقدمة بكونه الحامل له على التأليف ، وإن كان يعقوب معروفاً بالتشجيع عليه ، وله نظم الملزوزي ـ كما هو معلوم ـ منظوماته . وربما كان ابن أبي زرع ضمن المشجعين من قبله أيضاً ، فإن ابن عذارى أهمل من تاريخ ملكهِ نحو عشرين سنة ، كانت حافلة بالانتصارات والفتوحات في الأندلس وإفريقية ، ويستغرب لم وقف المؤلف عند هذا التاريخ ، وقد عاش بعده نحو نصف قرن أو يزيد ، ربما ، فلا شك أنه قصد إلى الوقوف

عند نهاية الدولة الموحدية ، بسقوط مراكش في يد بني مرين ، وقضائهم على آخر الموحدين ، وهو أبو دبوس ادريس بن محمد بن أبي حفص بن عبد المومن الموحدي .

كما يستغرب أن يهمل ذكر ابن عذارى عند من نقلوا عن كتابه ، مثل المقري الذي يذكره ببعض مؤرخي المغرب في نفح الطيب .

والغالب أن المؤلف كان مقرباً من دولة المرينيين ، ودليلنا ما نجده في كتابه من التنويه بها والدعاء بالعز والنصر والتأييد لملوكها في كل مناسبة ، مثلاً نجد قوله « وكان ابتداء ظهور بني مرين اعزهم الله تعالى في سنة عشر وستمائة » [1] وحتى لو كان هذا مما حافظ عليه منقولا فدلالته قوية على أن ضلعه كانت معهم .

ويقول في موقعة لهم (وانصرف عثمان بن عبد الحق واخوته وعشيرته . . . ووجوههم تتهلل تهلل الاصباح ، ولم يزالوا في بلاد الغرب ظاهرين ، وبأعدائهم ظافرين . . . وذلك أنه لما نور الله بصائر بني عبد الحق . . . . فأخلصوا لله نياتهم ، التي هي رأس أعمالهم . . . [2] .

« وكان موضع نزول بني مرين أعزهم الله »[3] .

« فزاد بنو مرين . . . في الغرب علواً وظهوراً ، اذ ما زالوا فيه ظاهرين وبأعدائهم ظافرين »[4] .

« بعث . . . يغمراسن . . . . إلى أبي الحسن السعيد . . . عاهده على قتال بني مرين . . . فأبى الله ذلك ، بل مكن لهم في الأرض ، وأهلهم لأقامة السنة والفرض[5] .

« توفي الأمير أبو معرف بن عبد الحق . . . وتقدم بعده أخوه الامير المعظم أبو يحيى بن عبد الحق[6] .

---

(1) الصفحة 244 .

(2) 848 ويستمر في النص منوهاً بهم ومشيداً باعمالهم .

(3) 352 .

(4) 354.

(5) 360 .

(6) 366 .

« والأمير المعظم أبو يحيى هناك . . . وبنو مرين اعزهم الله قد اجتمعت عليهم[7] .

« وهو أول فتح بني عبد الحق اعزهم الله تعالى في تملك قواعد البلدان[8] .

« وكان أهل فاس استعدوا لقتال بني مرين أعزهم الله[9] .

«فرأى بنو عبد الحق بسديد رأيهم ونجح سعيهم[10] » .

« وذلك بما وهبه الله لهم من القوة والشجاعة والأخذ في الأمور بالعزم والحزم[11] وصل الله أيامهم ونصر أعلامهم[12] . وهكذا ينوه بهم ويرفع من ذكرهم فيما بعد هذا ويدعو لهم بالعز والتأييد .[13] .

---

(7) 371 .

(8) 391 .

(9) 399 .

(10) 403 .

(11) 404 .

(12) 420 .

(13) 454 . وعلى العكس ما كان عليه ازاء الموحدين انذاك حيث قال في بعضهم داعياً « قبحهم الله » 452.

بِسمِ اللهِ الرَحْمَنِ الرَحِيمِ
صلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وسلم

اختصار الخبر بحركة تاشفين الى الجبل برسم قتال الموحدين

فخرج تاشفين من مراكش في جمادى الأولى من عام ثلاث وثلاثين وخمسمائة في جمع كثير من الفرسان والرجال فيهم جملة وافرة من قبائل جزولة وهو يعتقد أنه يهزم كل من ناهضه ويغلب كل من عارضه ، فوصل بجمعه المجموع ، وعسكره المسموع إلى مقربة من جمع الموحدين فخرج اليه عبد المؤمن واجتمعا بين مضائق وجبال لا يكاد الفارس يتصرف فيها بقتال . فكثرت الحرب بينهم في تلك المضايق ، وبين تلك الجبال الشواهق، ثم أمر تاشفين بالرحيل فانصرفوا مبادرين ورغب اليه جزولة في الرجوع الى بلادهم فأذن لهم في ذلك وقال لهم تاشفين: لا تسلكوا تلك المسالك . وكان عبد المؤمن قد علم أن جزولة لا بد لهم من تلك الأوعار والمضايق الكبار ، فأرصد لهم عسكراً من الموحدين في تلك المضائق كامنين. ثم إن جزولة لم يسمعوا وصية تاشفين فسلكوا بين تلك الأوعار والأجبال[1] فخرج عليهم عسكر الموحدين بأعداد من الفرسان والرجال فهزموهم وقتلوهم واستاقوا خيلهم ونساءهم الى تينمل ولم يلق حرباً مع تاشفين وبعد ذلك رغب اشياخ جزولة في التوبة والدخول في طاعة الموحدين فكتب لهم بذلك ظهيرا حسنا .

(1) في م : والجبال .

اختصار الخبر بحركة عبد المؤمن الطويلة الأعوام ومقتل تاشفين امير أهل اللثام من سنة أربع وثلاثين إلى سنة اربعين .

ولما رجع عبد المؤمن من محاربة تاشفين عزم أن يخرج بجمعه الى جهة فاس وتلمسان لما قدر الله له من فتح البلدان فحشد أهل طاعته وجلبهم من كل مكان فانجلبوا من كل قبيل موحد، واستركبوا صعب وذلول منجرد، وقدم على تينمل نائباً عنه صهره موسى بن سليمان وتحرك على طرقات الجبل بخيل كثيرة العدد ورجال، ولما وصل خبره الى تاشفين بمراكش جند جنوده وحشد حشوده وخرج في طلبه فكان آخر عهده بأبيه على ما يأتي ذكره. فمشى عبد المؤمن في تلك الجبال، وعدة عسكره آلاف الرجال يغزو بهم يميناً وشمالا ويقبل عليه اهلها بالطاعة اقبالا فكان الموحدون يمشون في الجبال المانعة حيث الارزاق الواسعة وكان تاشفين ينزل البسائط بعساكره فما يجد من البرابر من يداخله ولا من يستعين به فيواصله وذلك بسبب ادباره الى أن استقر عبد المؤمن بالجبال المجاورة لجهة فاس المعروفة بكراندة ونزل تاشفين بحصن الموضع المذكور فأقام فيه شهوراً دون حطب ولا فحم حتى الجأتهم الضرورة لحرق اوتاد اخبيتهم وخشب ابنيتهم والمطر مع ذلك مستصحب دائم ولقد اخبر ابن صاحب الصلاة بسند ذكره عمن اخبره ان امرأة بعثت لتاشفين بطبق كبير عليه سبنية فظن انه فاكهة واذا فيه فحم فسر به وانتقل عبد المؤمن الى جبل غمارة فتبعه تاشفين ثم انتقل من جبل غمارة إلى جهة تلمسان فانتقل تاشفين بمحلته اليها ونزل عبد المؤمن بين الصخرتين على ما يأتي ذكره ان شاء الله تعالى . وفي أثناء مدة هذه الحركة الطويلة الاعوام اتصلت الحروب ببلاد أهل اللثام وغلت الأسعار بمراكش حتى وصل فيها الربع من الدقيق بمثقال حشمى ذهبي وتولاها[2] الجدب حتى جفت في الأرض مذانبها واغبرَّتْ جوانبها وقلت المجابي بهذه الفتن وكثرت اللوازم على الرعايا بالعدوتين وألح العدو النصراني بالضربات على جميع جهات الأندلس حين علموا عجز الامارة بالمغرب واشتغالها بحرب الثائرين المهيجين للفتن أخذ الله الحق منهم. واستولى الروم في هذا الوقت على كثير من البلاد والحصون وكثير من الثغر ثم توفى علي بن يوسف في سنة سبع وثلاثين وقد تقدم ذكره وفي خلال ذلك

---

(2) في م : وتوالى هذا .

حدثت الشحناء والمقاطعة بين قبيل لمتونة ومسوفة فخاف على نفسه يحيى بن تاكغت وبراز[3] بن محمد فوصلا الى عبد المؤمن ثم تبعهما يحيى بن اسحاق وهو ابن عمهما المعروف بانجمار الذي كان صاحب تلمسان بجميع اخوانه ورجاله فزاد الخلل في امر تاشفين وفسدت نيات اللمتونيين[4] لقبيل مسوفة وترقبوا لهم الوقائع المخوفة وتباغضوا بغضا وقتل بعضهم بعضا وضرب يحيى بن تلكغت المسوفي على موضع من نظر تلمسان فخرج اليه منها محمد بن زجو اللمتوني فقتل يحيى وابنه واجتز رأسيهما ووجه بهما الى تاشفين فأمر بحملهما الى سجلماسة حيث كانت اخت يحيى المذكور فقالت ان كان لنا رجال فسيأخذون بثأرنا ان شاء الله تعالى فبلغ الكلام عبد المؤمن فانتصر لها ووافقها على رأس تاشفين فكان ذلك كذلك. قال الكاتب ابو علي بن الاشيري التلمساني : لما كان الأمير ابو محمد عبد المؤمن نازلا على تلمسان بالجبل المعروف بالصخرتين في شهر المحرم مفتتح عام تسع وثلاثين كان اول افتتاحه على أيدي الموحدين فتحا عظيما بشرقي تلمسان هزم فيه الموحدون عساكر من عساكر تاشفين كانت خرجت لبلاد زناتة فكانت الوقيعة فيهم من اكبر الوقائع استأصلت اكثرهم فضرب عبد المؤمن الطبول في مجلسه بأعلى الجبل وكان الوالي على تلمسان ابو بكر ابن مزدلي[5] اللمتوني. قال أبو علي الأشيري : ووصلت الى تاشفين محلة صنهاجة من بجاية وكان المقدم عليها طاهر بن كباب الصنهاجي وكانوا عندما قدموا عليها برز لهم بجموعه وملأ فحص تلمسان خيلا ورجالا الا أن الإدبار كان لهم محاديا وبانقضاء دولتهم مناديا فنزل الصنهاجيون بمحلتهم فأكرمهم تاشفين واحسن اليهم ولقائدهم والموحدون عند ذلك ينظرون ما يصنعون من بروز واحتفال وكثرة خيل ورجال فما هالهم امرهم ولا هابهم كثرتهم ولما استقر الصنهاجيون ورأوا سكون تاشفين على قتال الموحدين خرجوا في بعض الأيام وطلعوا من جهة العباد مقدمين غير مهيبين فهبط عليهم الموحدون فهزموهم وقتلوهم .

قال البيذق في كتابه : لما وصلت محلة بجاية هزمهم الموحدون من

---

(3) في ت و م : برّان .

(4) في م : لمتونة .

(5) في ط : ابن مندل .

الصخرتين الى باب المدينة وبعث قائدهم لعبد المؤمن يعلمه بتوحيده سراً ويعده بفتح بجاية وغيرها فكان كذلك .

وقال ابن بجير : لما صح موت علي بن يوسف عند اشياخ لمتونة ومسوفة الذين كانوا مع تاشفين مثل براز(6)وانجمار قبل ذلك والي تلمسان وصل الموحدين براز(6) اللمتوني ويحيى بن تاكغت ثم وصل انجمار بعد ذلك عند حصار فاس وكان الموحدون في سنة سبع وثلاثين حين مات(7) علي بن يوسف اقتسموا على ثلاث فرق فرقة منهم بجبل غياثة وفرقة بجبال(8)الريف بطوية ومليلة وغمارة وفرقة مع يوسف بن وانودين وابن زجو وابن يومور وتوجهوا الى جبل مديونة وجهة تلمسان فخرج اليهم الوالي على تلمسان حينئذ محمد بن يحيى بن فانو بعسكر من زناتة وغيرهم فالتقى معهم وقتل محمد بن يحيى المذكور في [واد كان](9) هنالك وانهزم عسكره وافترقت زناتة الى بلادها وولى تاشفين أبا بكر ابن مزدلي ، وطاع بنو ومانو من زناتة لعبد المؤمن ووصلوا إليه(10) بالريف منهم بنو ماخوخ ويوسف بن يدر وغيرهم فأرسلهم مع بعض الموحدين الى ابن يومور وابن زجو فتوجهوا بعسكر الى بلادهم فطاع جميع اخوانهم ولما اتصل بتاشفين خلاف بني ومانو وجه عسكرا اليهم ومعهم قائد الروم المسمى بالربرتير واتصل ذلك بالموحدين فأدلجوا الى غياثهم فأدلج سيره القائد المذكور بالعسكر الى موضع بني ومانو فوجدهم قد تحصنوا بجبل عندهم ونزل عسكر اللمتونيين بموضعهم فهدموه وحرقوه وطلعوا اليهم بالجبل في يوم ريح عاصف فهبط عليهم بنو ومانو فهزموهم وكانْ معهم بعض قبائل زناتة ، وبعد تلك الهزيمة أغار ابن وانودين وابن زجو وابن يومور ومن كان معهم من الموحدين وبني ومانو على بلاد بني عبد الواد وبني يلومي فقتلوا وغنموا ووجهوا بالغنائم الى الامير عبد المؤمن فخرج عليهم الزناتيون وأخذوا الغنائم المتوجهة الى الامير عبد المؤمن وقتلوا كل من كان معها وكانوا نحو ستمائة رجل من بني ومانو وغيرهم وفيهم أبو بكر بن ماخوخ من بني ومانو وتحصَّنَ ابن

(6) في م : برّان ، كذلك .

(7) في م : موت .

(8) في ط : بجبل .

(9) في م : بياض .

(10) في ط : اليهم .

وانودين مع من كان معه من الموحدين بجبل هنالك ورحل عسكر اللمتونيين الى موضع منداس بلد بني يلومي من زناتة فاجتمعت عليهم قبائل بني يلومي برحائلهم مع حمامة بن مطهر وبني ينجاسن وبني ورسيفن وبني توجين وجميعهم دون رحائل معهم .

ولما قتل من قتل من بني ومانو وصل الأمير عبد المؤمن الى جهة تلمسان فنزل بين الصخرتين وهناك وصله بنو ومانو فأقلع معهم الى سيرت فاجتمع عليه بنو ومانو أجمعون ومعهم تاشفين بن ماخوخ وفي ذلك المنزل اجتمع عبد المؤمن بابن زجو وابن يومور ومن كان معهم وهناك وصلته هدية بني ومانو فصرفها عليهم ثم رحل عبد المؤمن من موضع سيرت الى بلاد بني يلومي من زناتة ، فلما حقق الأمير تاشفين وصول عبد المؤمن الى تلك الجهات واجتماعه بزناتة دخل تلمسان وجند فيها عسكراً وبعثه اليه فاجتمع معه في موضع منداس فتوجه عبد المؤمن بعسكره قاصداً محلة الربرتير قائد الروم ومن كان معهم من الجنود والحشود فقاتلهم ثلاثة أيام وفي اليوم الرابع هزمهم واحتوى على محلتهم وعلى من كان معهم من زناتة بني يلومي وغيرهم ، ثم رحل الامير عبد المؤمن عازما على النزول بين الصخرتين فرحل مع بني ومانو وكانت الغنائم التي استاقوها كثيرة زعموا أنها [كانت][11] نحو ثلاثين ألفاً من الغنم واثنا عشر ألفاً من البقر فاعترضهم قائد الروم الربرتير المذكور بالعسكر فاستنقذ من الغنائم أكثرها وقتل من كومية نحو أربعمائة رجل ووصل العسكر مع قائد الروم لتلمسان فاجتمع مع الأمير تاشفين فيها .

وكتب تاشفين منها الى البلاد يستدعيهم لنصرته فوصله عسكر سجلماسة وعسكر بجاية صحبة طاهر بن كباب وهو قائد من قواد صنهاجة بني حماد فاجتمعت تلك العساكر بتلمسان ووصل من الأندلس ابراهيم بن تاشفين بعسكر فولاه أبوه عهده[12] وقد كان وصله قبل ذلك بموضع كرانده حين مات جده فبعثه والده الى قرطبة برسم القراءة فيها ثم استدعاه منها ووصله الى تلمسان في آخر سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة ولما وصل ابراهيم بن تاشفين من الأندلس وأبوه يميز العساكر من الحشود والجنود والوفود فميزوا وبرزوا وعجب الناس من كثرة عددهم

(11) ساقطة من ط .

(12) في م : عقده .

[وعددهم] [13] واحتفالهم بالزينة حتى زعموا أنهم لم يروا مثل تلك الجموع حسنا وجمالاً وعدة وكمالاً وما من شيء كمل إلاَّ ودنا نقصُه[14] واصطفت العساكر من باب القرماديين الى الجهة المتصلة بأصل الجبل وذلك كان آخر كماله .

ذكر مقتل الربرتير وأكثر أصحابه

قال ابن صاحب الصلاة : كان هذا الرومي الربرتير من أكبر الطغاة بالأندلس نجدة وظهوراً متصلة . . فتردى في حافة عظيمة . . . . . وتغلب الموحدون على . . .[15] من قدر الله بوفاته من اللمتونيين فلما أصبح الله بالصباح هبطوا في الحافة المذكورة فوجدوا تاشفين بها على تلك الصورة في ليلة سبع وعشرين من رمضان من عام تسعة وثلاثين وخمسمائة فقطعوا رأسه ووجهه الأمير عبد المؤمن الى تينمل فعلق في غصن الشجرة التي عند مسجد المهدي .

وقال ابن بجير : كان تاشفين قد ضاقت حاله وكثرت بخارج وهران أوجاله حتى بقي عسكره أياماً دون علف في الحصن الذي بناه من أجل الحصار وكان عبد المؤمن وجه أبا حفص عمر بن يحيى الهنتاتي مع بني ومانو الزناتيين الى بلاد بني ومانو وبني توجين وبني ورسيفن، فحشدوا[16]، وغنموا غنائم كثيرة ورجعوا بها الى جهة وهران فاجتمعوا ذات يوم في الجبل المطل على وهران فصاحوا صيحة عظيمة[17] بلسان واحد «اصبح والحمد لله» ولم يكن اللمتونيون يصيحون بذلك فلما سمعهم[18] أهل عسكر تاشفين وقعت رجفة عظيمة فأمر ألا يخرج اليهم خيفة الكمين وأقام الموحدون على مضاربهم الى الظهر ثم توجهوا الى جهة عين الماء الذي يشرب منه أهل وهران فسقوا دوابهم فيه ورجعوا دفعة واحدة حتى وصلوا الى خباء تاشفين وكانت خباؤه بازاء الحصن الذي بناه، فترامى فيه مع من كان معه منهم ابن مزدلي

(13) ساقط من ط .
(14) في ط : له أودنا منه .
(15) بياضات في ت و م .
(16) في ط : فخسروا .
(17) في ط : واحدة .
(18) في ط : سمعه .

وبشير الرومي [19] ووقع القتل في أهل العسكر فلجئوا الى حمى سور وهران فأخذ الموحدون النوائل التي كانت في محلة تاشفين والحطب وغيره وقربوها الى باب الحصن وشعلوا [20] فيها النار فاحترقت أبوابه وهو على أعلى ذلك الحصن الى العتمة ولهيب النار في الزيادة فلما رأى تاشفين ذلك أيقن بالهلاك فخرج مع ابن مزدلي والعلج بشير وصندل الفتى أما بشير فاحترقت[21] لحيته وعرف فرسه وذيله وأما صندل الفتى فسقط في النار وصار فحمة وأما ابن مزدلي فدخل بين الأموات حول الحصن ثم تسلل خفية حتى لحق بسور وهران مبهوت[22] العقل فبقي مبهوتا ثلاثة ايام ومات ، ومشى تاشفين والعلج بشر الى الرحى التي على الوادي هناك فعارضه أهل الرحى فعرجا الى سباخ ورحلا[23] فنجا بشير وزهقت رجل فرس تاشفين التي كان يسميها ريحانة وسقطت في حافة عظيمة فاندق عنق الفرس ومات تاشفين من ذلك في ليلة سبع وعشرين لشعبان عام التاريخ وأما أهل دار تاشفين . . . . . التي سموها حصنا فتحصنوا فيه وكانوا نحو ثلاثمائة رجل من حشم وحشد وروم فقتلوا أجمعين إلاّ سبعة منهم فيهم ابنا[24] وطلب تاشفين فوجد ميتا وصلبت جثته على حصنه ووجه رأسه الى تينمل .

وقال الكاتب الأشيري التلمساني : لما انحصر تاشفين في الحصن الذي بناه مع نفر من أعيان لمتونة يئس من الحياة لأنه عاين عزم الموحدين عليه وما جلبوه من الحطب لاشعال النيران من كل جانب اليه فكان يأخذ ذخائره وأثوابه ويرمي بها في النار بيده وودع أصحابه واقتحم الخروج على النار من بابه والليل قد أرخى سدوله ، والجيش قد شمر للقتال ذيوله ، فوجد في صبيحة تلك الليلة ميتا لم يوجد فيه أثر طعنة ولا ضربة فقيل ان فرسه صرعه في أحد تلك الأجراف وسيق الى الموحدين فأصعدوه المصرع ، وتم لله فيه الصنع ، وذلك لليلة المتقدم ذكرها .

---

(19) في ت : الروسي .

(20) في م : وأشعلوا .

(21) في طـ : فأحرقت .

(22) في م : ملهوف .

(23) في م : ووحل . ولعل الصواب : ووحلا .

(24) في طـ : ابناء .

اختصار الخبر عن فتح وهران
[وما فتح الله للموحدين بعد قتال تاشفين][25]

ولما قتل تاشفين لجأ في تلك الليلة من سلم من تلك الوقعة إلى حصن وهران فانحصروا فيه وقد كان أهله في انحصار نحو شهرين فقطع عنهم الماء فلما رأوا أنهم عطشوا طلبوا التأمين من الموحدين فلم يجيبوهم إلى ذلك إلا على حكم الأمير فامتنعوا من ذلك حتى أجهدهم العطش فنزلوا بعد قتل تاشفين بثلاثة أيام .

قال الكاتب الأشيري : أخبرني أبو الحسن الطراز وكان ممن حصر بوهران أن العطش انتهى بالناس إلى أن مات في اليوم الواحد الثلاثون والأربعون بين نساء ورجال ولما خرجوا انطرحوا على الماء حتى مات بعضهم لما روي وبعد ذلك حكم عبد المؤمن قبحه الله بقتلهم فاستؤصلوا عن آخرهم .

وقال ابن بجير : لما اشتد القتال على أهل وهران مات أكثرهم بالعطش إلى أن خرجوا على حكم البرابر الذين يسمون بالموحدين فقتلوهم أجمعين كباراً وصغاراً بعد ثلاثة أيام من قتل تاشفين وذلك يوم عيد الفطر من سنة تسع وثلاثين وخمسمائة .

ذكر منازلة تلمسان وفتح تاجررت منها وما اتصل بذلك

وذلك أنه لما قتل تاشفين ووصل خبره تلمسان خرج من كان بها من لمتونة . وخلت تاجررت منهم وبقي فيها العامة من الحضر والسوقة فلما بلغهم خبر وهران خرج جماعة من أهل تلمسان للقاء أبي محمد عبد المؤمن وكانوا في نحو ستين رجلاً من أعيانهم فقدر الله عليهم أن لقيهم يصلاتن الزناتي بجمع عند وادي تافنا فأفناهم فيه وقتلهم عن آخرهم ووصل إلى تلمسان ما كان من قتلهم فزاد خوف أهل تلمسان من عبد المؤمن لأن يصلاتن كان تحت طاعته بجملته وجماعته .

قال الأشيري : وكان قدوم أبي محمد عبد المؤمن على تلمسان بعد فتح وهران يوم الجمعة المتوفي ثلاثين لرمضان المعظم من عام تسع وثلاثين فنزل بالمنية ونفذ حكم الله في أهل تاجررت وذلك غدوة يوم الفطر ودخلها الموحدون فرتبوا

---

(25) ساقط من ط .

مروسها[26] وقسموا دورها ثم وافاهم فتح سجلماسة والقلعة وغيرها .

وقال ابن بجير : لما وصل إلى أهل تلمسان ما جرى لأهل وهران خافوا خوفاً شديداً وفر جميع من كان فيها من لمتونة وخدامهم مع الصحراوي إلى فاس وذلك قبل وصول عبد المؤمن إلى تلمسان لأن الصحراوي كان قد نزل بخارجها عازماً أن يلحق تاشفين فبلغه خبره فتوجه إلى فاس فوقعت في أهل البلد ضجة عظيمة وضجوا خائفين على أنفسهم فلما سمعوا بإقبال عبد المؤمن إليهم تخيروا من أعيانهم ستين رجلاً كما تقدم ذكره وبعثوا بهم يطلبون العفو منهم فوقعوا في جمع كبير فقتلوهم أجمعين ولم ينج منهم إلا اثنان فزاد خوفهم وعظم أمرهم فلما قرب عبد المؤمن من تلمسان خرج إليه الطلبة والأعيان والألواح والصبيان يرغبون في العفو عنهم فجردهم الموحدون من أثوابهم وقتل يصلاتن جماعة منهم يومئذ والأمير عبد المؤمن واقف ومعه أبو إبراهيم من أصحاب مهديهم ودخل عبد المؤمن تلمسان وقتل فيها خلقاً في فندق كليلا وأقام سبعة أشهر ثم ولى عليها سليمان بن محمد بن وانودين الهنتاتي ورحل إلى منازلة فاس في ربيع الأخير من عام أربعين .

وقال ابن صاحب الصلاة : لما استقر عبد المؤمن بتلمسان بعد استشهاد من استشهد امتنعت قصبتها منه بمن فيها ممن خاف على نفسه فأقام مدة عليها ثم رحل إلى فاس وترك عسكراً يحاصرها .

ذكر فتح مدينة فاس حرسها الله تعالى

ولما رحل عبد المؤمن والموحدون من تلمسان اجتمعت عليه الوفود والحشود من كل جهة ومكان فتوجه إلى مدينة فاس في ربيع الأخير من السنة المذكورة فقدم بين يديه[27] جمعاً من الرجال للحرب والنزال ليعلم ما عند الصحراوي صاحبها من خيل ورجال فصعدوا ليلاً في الجبل فخرج إليه منها نحو ألف وخمسمائة فارس فرجعوا إلى عبد المؤمن وقد نزل بمحلته عقبة البقر وعساكره قد ملأت السهل والوعر فميزهم هنالك وكانوا في ثمانين ساقة على عدد القبائل والوفود فنشروا ما معهم من البنود وجازوا الوادي ساقة بعد ساقة والصحراوي بجبل العرض ينظر إليهم

(26) في ط : سورها . والمروس جمع مرس ، وهي من عامية المغرب تعني مطامير الحبوب وغيرها .

(27) في م : زيادة اليها .

ثم رحل عبد المؤمن من ذلك المنزل ونزل بالجبل المذكور فنشر عليه علمه المنصور وقطع بعض الأشجار وعمل بها الزروب على الدواب احتياطاً على أهل محلته واتقاء من الحرب وخدعته ثم بعث عسكراً منها لحصار مكناسة فخرج لهم منها ابن ولجوط اللمتوني فهزمهم وكان بمكناسة نحو ثلاثة آلاف فارس من الحشم والروم وغيرهم وانضاف لهم خلق من القبائل القريبة منها فتوجه الأمير أبو محمد عبد المؤمن لها برسم إغاثة عسكره وترك على حصار مدينة فاس أبا بكر بن الخير[28] مع جماعة من الموحدين فيهم أبو إبراهيم وغيره ، ولما وصل إلى مكناسة برز عليها وجد في حصارها ثم وجّه منها أبا[29] حفص عمر بن يحيى الهنتاتي ليكون مع [أبي] إبراهيم على حصار فاس ومحاولتها إلى أن جرى ما جرى بين الصحراوي صاحبها وبين الجياني مشرفها وذلك أنه طلبه بمال وضيق عليه فلم يكن في وسعه إعطاؤه إليه فكتب إلى أحد قواد الموحدين ووعده أن يمكنه من البلد فإن مفاتحها كانت تبيت عنده ودبر وجه الحيلة في ذلك فلم يشعر الصحراوي حتى عاين رجال الموحدين على السور فكسر قفل باب الفتوح وخرج منه واستولى الموحدون على [مدينة][30] فاس بعد حصارها سبعة أشهر وذلك في شهر ذي القعدة من عام أربعين فأقام بها عبد المؤمن أربعة أيام ثم رحل عنها وترك والياً عليها أبا إسحاق بن جامع ومشرفها أبا [محمد] عبد الله بن خيار الجياني المذكور وترك على حصار مكناسة أبا زكرياء بن يومور وتوجه إلى سلا .

وذكر ابن صاحب الصلاة أن الصحراوي كان تعرس بامرأة من قبيله في ليلة الثاني عشر لذي قعدة فتمكن الجياني من ماله وبعث إليه بطعام وشراب ليشغله به تلك [الليلة] فلما كان صبيحة اليوم المذكور أدخل الموحدين المدينة وفر الصحراوي إلى طنجة ثم جاز إلى الأندلس واتصل فتح فاس بالأمير عبد المؤمن وهو بمكناسة فوصل إليها وأقر أهلها إبقاء الجياني على إشرافها وذلك سنة أربعين .

وفي هذه السنة وصلت كتب أهل سبتة بالسمع والطاعة والدخول في حزب الجماعة ووصل لعبد المؤمن يحيى بن [إسحاق انجمار] في جملة من إخوانه مسوفة

---

(28) في ط : الجبر .

(29) في ط : توجه منها أبو .

(30) ساقطة من ط .

وكلهم ملثمون ثم أزالوه بظاهر فاس وصاروا في زي الموحدين ، ثم وصله عمر بن ينتان فاراً من أمير لمتونة إسحاق بن علي بن يوسف من مراكش فلقي من الكرامة ما لا مزيد عليه ثم ارتد ودخل فاساً فلما يسر الله فتحها حصل في يد الموحدين مع جملة من الناس فأمر بقتلهم وبقي هو معفواً عنه لما تقدم من وصية المهدي على ذرية ينتان .

ذكر منازلة الأمير أبي محمد عبد المؤمن مدينة مراكش وفتح مدينة سلا في طريقه

ولما فرغ أبو محمد عبد المؤمن من أشغال فاس وترتيبها ورتب على حصار مكناسة عسكراً يقيم عليها أخذ في الحركة على تودية واستعداد وعدة إلى منازلة مراكش فلما وصل مدينة سلا امتنع أهلها منه وحين وقف على مجاز هذا الوادي ألفاه بسعده في آخر مَدِّه ، فأمر عسكره أن يعبروه بأجمعهم وتغلب على سلا من ساعته وفتحها قبل راحته وأمن أهلها ورتب أحوالها وانضافت قصبتها التي كان تاشفين بناها في الرباط وكان دخوله لها في السابع من ذي الحجة من سنة أربعين ونزل بها بدار ابن عشرة وأقام بها أربعة أيام وتوجه في الحادي عشر من الشهر المذكور إلى منازلة مراكش حرسها الله تعالى .

وقال ابن بجير : كان فتحها على يد رجل يسمى يبورك وابنيه محمد وعلي وذلك أنهم أرسلوا إلى الموحدين فوصلوهم ليلاً وصنعوا السلاليم فصعدوا بها على السور وقتلوا كل من وجدوه على السور ودخلوا سلا ووجدوا فيها أناساً وهرب آخرون في حلق الوادي فرجع عليهم البحر فغرقوا فعيد فيها عبد المؤمن عيد الأضحى وولى عليها عبد الواحد الشرقي وأقامت سلا على طاعة الموحدين إلى أن ظهر الماسي المعروف بابن هود ببلاد السوس فقتل أهل سلا عاملهم وقدموا والده هودا فبقي بها إلى أن قتل ابنه[31] ودخلت البلد وعادت إلى طاعة الموحدين إلى انقضاء دولهم .

وكان الصحراوي لما فر من فاس توجه إلى طنجة مع من كان معه في لمتونة

(31) في م : وقدموا ولده هودا فبقي بها إلى أن قتل أبوه .

[وغيرهم][32] قيل أنهم كانوا في ثلاثمائة رجل فأقاموا بها خمسة أشهر في أسوء حال من شدة الضيق وغلاء السعر ثم إن قائد الأسطول علي بن عيسى وصل إلى طنجة بالقطائع من بادس فاجتمع مع الصحراوي وأظهر له النصح ولأصحابه وأن يجوزهم إلى الأندلس برسم يحيى بن غانية فتعاقدوا معه على ذلك فقذف بهم إلى مرسى شريش وغدرهم فكان من أمر الصحراوي ما يذكر إن شاء الله تعالى .

قال : وكان ولي سبتة حينئذ يوسف بن مخلوف التينملي من قبل عبد المؤمن لأن أهلها بايعوا عبد المؤمن من قبل فتح سلا ثم إن الجنود الذين ترك الصحراوي بطنجة بادروا إلى ابن الجبر [بقصر] مصمودة فزحف بهم إلى طنجة فدخلها وقتل قاضيها في جملة من قتل فيها ولما وصل الخبر إلى سبتة صرخ صارخ أن واليهم عزم على قتل قاضيهم وكان قاضيهم الإمام العالم أبو الفضل عياض رحمه الله فقتلوا واليهم ومن كان معه .

قال : وكان الأمير أبو محمد عبد المؤمن قد بعث أبا حفص عمر بن يحيى الهنتاتي بعسكر إلى برغواطة فغزاهم ثم غنمهم ثم عاد إلى عبد المؤمن فتلاقيا على الخيل[33] فقسم الغنائم على الموحدين ورحل بعساكره حتى وصل قريباً من مراكش فخرج إليه جمع كبير من لمتونة لكن قذف الله الرعب في قلوبهم ومروا لائذين بسورهم بعد ما قتل منهم خلق كثير واتصلت بعبد المؤمن الأخبار أن لمطة في فحوص مراكش بحشودهم قد أمرهم أميرهم إسحاق أن يقربوا إلى المدينة فتبعهم الموحدون فأدركوهم وقتلوهم قتلاً ذريعاً وغنموا لهم من الجمال عدداً كثيراً قيل ثمانين ألفاً ، ذكره الأشيري ، ووصل إثر هذا الفتح كتاب من أبي [محمد] عبد الله الجياني وأدرج فيه شعراً أوله [طويل] .

أضاءت لنا الأيام واتصل النجح وكانت وجوه الدهر مسودة كلح

فأجابه عبد المؤمن بن علي رضي الله عنه :

هو الفتح لا يجلو غرائبه الشرح أصاب بني التجسيم من يأسه ترح
أتتنا به البشرى على حين غفلة بمهلك قوم كان وعدهم الصبح

---

(32) ناقص من ط .

(33) في م : فتلاقى معه على إيجيسل .

وفي سنة إحدى وأربعين وخمسمائة كان نزول عبد المؤمن بجبل إجليز ولازم حصار مراكش في أول يوم المحرم من سنة إحدى وأربعين وخمسمائة فأقام عليها تسعة أشهر وثمانية عشر يوماً وكثرت العساكر لديه ووفد كبار الرجال من البلاد عليه مثل أبي الغمر ابن عزون الثائر بشريش وابن حمدين وغيرهما وكان اللمتونيون بداخل مراكش في عدة من كبارهم وبقية من أحشادهم وأميرهم إسحاق بن علي بن يوسف وكان صبياً صغيراً فأمرهم بالخروج إلى حرب النازلين عليهم فعزموا على قتالهم وخرجوا إليهم بخيلهم ورجلهم في نحو خمسة آلاف وخمسمائة من الفرسان ومن الرجال ما لا يحصى عددهم كثرة ووصلوا بجمعهم إلى محلة الموحدين وكان عبد المؤمن أمر أصحابه أن يكمنوا لهم ولا يظهر أحد منهم فلما استحر النهار وعم عسكر اللمتونيين الاغترار خرجت عليهم الكمائن فانهزموا في الحين وولوا أدبارهم والسيف يصفح رقابهم ويمحو آثارهم واتبعهم عسكر الموحدين إلى باب دكالة وأخذوا من خيلهم نحو ثلاثة آلاف وقتلوا من فرسانهم ورجالهم ما لا يحصى كثرة هكذا ذكر ابن صاحب الصلاة .

قال : فلما طال عليهم الحصار تسعة أشهر وثمانية عشر يوماً هلكوا جوعاً طول هذه المدة وضاقوا حتى أكلوا الجيف وأكل أهل السجن بعضهم بعضا وعدمت الحيوانات كلها وعدمت الحنطة بأسرها وطلب إسحاق مخازن أبيه فلم يجد فيها شيئاً ، قال أبو عبد الله بن عبيدة كاتب إسحاق المذكور : فعجزت عساكر اللمتونيين عن الدفاع والامتناع بضعف العدد والعدة وكثرة الضيق [والشدة][34] وفتحت مراكش حينئذ .

ذكر فتح مراكش حرسها الله ودخول الموحدين اليها واستيلائهم عليها وقتل اسحاق أمير لمتونة وغير ذلك

وفي يوم السبت الثامن عشر لشوال من عام أحد وأربعين وخمسمائة أمر عبد المؤمن بالدنو من المدينة فأحدقوا حواليها ورفعوا سلاليمهم[35] الى السور وطلعوا عليها فدخلوا المدينة عنوة من باب ايلان وقتلوا جميع من أدركوا من اللمتونيين

(34) ناقص من طـ . وفي م : الضيقة بدل الضيق .

(35) في طـ : سلاليمها .

وانحصر اسحاق أميرهم مع أشياخهم منهم سير بن الحاج وسير بن ينتان وجملة من أعيانهم بداخل قصبتهم المعروفة بقصر الحجر وملكها أبو محمد عبد المؤمن في ذلك اليوم ثم استولى بالغلبة على قصبتها وعلى من تحصن بها فامتنع الباقي منهم في غرفة كانت على باب دار علي بن يوسف وطلبوا العفو والأمان فلم يسعفوا، ونزلوا على حكم الأمير والموحدين فقتل منهم من حضر أجله واستحيى منهم من أراد الله نجاته وسلم من القتل أولاد ينتان لأنه كان قد قال خيراً في المهدي فأوصى عليه وعلى بنيه خيراً وأما أميرهم اسحاق البائس[36] فوجد مستخفياً في كدس فحم في احدى غرف الدار المذكورة فسيق الى الأمير فأشفق عليه وحن لصغر سنه وهو ابن ستة عشر عاماً وهم أن يعفو عنه ويسجنه لكن بعض اشياخ الموحدين عزموا عليه في قتله فضربوا رقبته رحمه الله تعالى وباد أمر أمراء اللثام وأبيحت مراكش لقتل من وجد فيها من اللمتونيين ثلاثة أيام ثم عفا عنهم أبو محمد عبد المؤمن واشتراهم من الموحدين وأعتقهم ومن عليهم وأطلقهم واستولى عبد المؤمن على ذخائر تاشفين وجميع أمراء لمتونة مما يقصر عن شرحه اللسان ، ولا يأتي على وصفه مبين البيان .

وذكر ابن الاشيري هذا الفتح المذكور مختصراً عنه قال : وكان في صدر محاصرة مراكش فتح أغمات وان الحثالة الباقية مع اسحاق بمراكش بعد أيام من النزول عليهم اغتروا وخرجوا مع أهل مراكش ورتبوا ساقتهم بفحص باب دكالة فدفع عليهم الموحدون من كل جهة فقتلوهم وهزموهم وأمر الأمير عبد المؤمن بقطع رؤوس القتلى منهم وَبِعَدِّ الخيل التي غنمت لهم فكانت ثمانمائة فرس ومن الدروع والسلاح ما لا يحصيه أحد فذل لذلك أهل مراكش وأيقنوا بالهلاك وانتقلت المحلة الموحدية الى دار الفتح وسط البحيرة في صدر شوال من سنة احدى وأربعين فلم تزل هنالك وأمر المدينة في كل يوم يزيد ضعفاً وأحوالها ترق الى أن كان يوم السبت السابع عشر من شوال ففتحت مراكش ودخلها الموحدون .

وقال البيذق : وأمر أبو محمد عبد المؤمن بعمل السلاليم للسور وقسمها على القبائل فدخلت هنتاتة وتينمل من جهة باب دكالة ودخلت صنهاجة وعبيد المخزن من باب الدباغين ودخلت هسكورة مع القبائل من جهة باب ينتان فدخلوا البلد بالسيف وبقي القتال على قصر الحجر من بكرة الى وقت الزوال .[ولم يدخل القصر حتى

(36) وفي م اليائس .

ماتت فانو بنت عمر بن ينتان ، لأنها كانت تخرج للقتال في هيئة رجل ، وكان الموحدون يتعجبون من قتالها، وكانت بكراً عذراء، فلما دخل القصر أخرجوا أولاد السلاطين][37] الذين كانوا به من ذرية علي بن يوسف الى موضع المحلة بجبل أيجليز وهم مع جملة من قرابتهم وخدمتهم وأهل دخلتهم فقتلهم ابن واجاج عن آخرهم ولم يبق[38] بن علي بن يوسف السلطان[39] وبعض الاصاغر فكان اسحاق يتضرع لأبي محمد عبد المؤمن فيقول له مالي في ألرأي شيء فيقول له غلامه اصمت أرأيت ملكاً يتضرع لملك غيره فأراد عبد المؤمن تركه وترك الاصاغر منهم فاغتاظ ابن واجاج وصاح بالموحدين وقال لهم ارتد عبد المؤمن علينا لأنه يريد أن يربي فراخ السبوعة الينا فغضب عبد المؤمن لقوله وقام من مجلسه فتبعه الموحدون الا أبو الحسن بن واجاج وابو حفص فأخذ ابن واجاج اسحاق وضرب عنقه ثم جبذ[40] طلحة ليقتله فكانت بيده سكين فضرب بها ابن واجاج ضربة قتله بها . ثم قتل طلحة من بعده في الحين واخذ أبو بكر ابن تيزمت [41] وحمل الى عبد المؤمن فقال له: ألم تعلم أني خصم لعلي بن يوسف؟ فقال له اعلم ذلك فقال له فلأي شيء تقتلني فقال له لأنك رميت يدك في الامام المهدي وحملته الى السجن فقتلتك السنة لأجل ذلك فقال لهم : وإذ عزمتم على قتلي فأخبركم ان عندي برمتين مملوتين ذهباً اخاف ان احاسب عليها ان تركتها فاختار له عبد المؤمن امناء يمشون معه وذلك اثنان من كل قبيل الموحدين فسار معهم الى داره فأدخلهم اليها واغلقها على نفسه وعليهم ، وكان بيده عكاز فيه سكين غدر فلما استأمنوا له وظنوا انه يخرج لهم ما ارتهن فيه اخرج سكين الغدر من عكازه فغدرهم به وقتلهم فلم يخرج منهم الا رجل واحد وقتل احد عشر رجلاً فدخلت عليه الدار وهو قد تحصن في غرفة فحاربهم حتى هدموا عليه وقتلوه وجروه الى جبل ايجليز وبقيت مراكش ثلاثة ايام لا يدخلها داخل ولا يخرج منها خارج وتأبى الموحدون دخولها لأن المهدي كان يقول حتى تطهروها فسيل الفقهاء عن ذلك فقالوا لهم تبنون مساجد

(37) ما بين معقوفتين تتمة من م .

(38) بياض لعل مكانه نحو « إلا إسحاق » .

(39) بياض ايضاً لعل مكانه : آنئذ .

(40) في ت : جند .

(41) في م : تيزمرت .

انتم وتجددون أخرى [أولى][42] ففعلوا ذلك . وكان لعلي بن يوسف جماعة من الولد منهم أبو بكر وهو[أول]ولد خلق له وهو ابن ست عشرة سنة وأبو بكر هذا يعرف ببكور وكان ذا مرة ونجدة وهو الذي اكبله ابوه وسجنه بالجزيرة الى أن مات وعمر الكبير وسير كان ولي عهده مات في حياته وتاشفين وتميم وابراهيم الذي حج واسحاق الذي قتل حين دخول عبد المؤمن مراكش ومحمد وباران وداود وعمر الصغير ومزدلي وينتان وهو اصغرهم . رجع الخبر قال ابن صاحب الصلاة لما كان فتح مراكش ودخلها ابو محمد عبد المؤمن رجع منها الى محلته وجعل الامناء على أبوابها مدة شهرين اثنين فاجتمع فيؤها ومالُها[43] ثم قسم ديارها على الموحدين وتوالت الفتوح اثر ذلك من كل مكان منها دخول قصبة تلمسان وذلك في الخامس عشر لشوال من السنة المؤرخة في الشهر الذي دخلت فيه مراكش كان بيهما ثلاثة ايام وحضر في المحلة مع جماعة الموحدين يحيى بن اسحاق المسوفي المعروف بانجمار وكان قد وحد وهاجر مع اخوانه من تلمسان ايام كونه أميرها فاحترمت زوجته زينب[44] بنت علي بن يوسف عن البيع وجميع عيال أصحابه واخواته واحترمت داره عن الفيء فلما استوطن عبد المؤمن بمراكش جمعت زينب[44] المذكورة جميع مالها وذخائرها ورفعت ذلك[45] الخليفة فعلها ونفذ امره الا يباع من بنات[45] لكن أخوي المهدي عيسى وعبد العزيز اخذا منهن ابنتين كرها على الخليفة . ولما توالى هذا الفتح العظيم واستوسق الأمر العزيز الكريم قام ثائر ببلاد السوس اختصرنا خبره بحول الله تعالى .

وفي هذه السنة ثار الدعي الماسي ببلاد السوس وتسمى بالهادي

وهو محمد بن عبد الله بن هود قام في الشهر الذي دخلت فيه مراكش . وكان هذا الدعي الشقي قصاراً على ضفة بحر سلا وكان أبوه دلالاً بالسوق فادعى الهداية وسمى نفسه بالهادي واستقر برباط ماسة في غرة شوال من السنة المؤرخة فأقبل

---

(42) زيادة في م .

(43) في ط : فيها مالها .

(44) في ط : زينت .

(45) بياض بالأصل في الموضعين .

الناس المغترون به من كل مكان وقبيل اليه فاجتمعوا بشقاوتهم عليه اجتماعاً طار له الذكر في الآفاق وتحدثت به الرفاق وكثروا عنده واستندوا له فقامت بدعواته جموع لا تحصى أبادهم سيف الحق وسبق لهم الحتف بغاية السبق واتته دعوته الكاذبة الغارة في جميع العدوة حتى لم يبق منها الا مراكش وفاس وارتدت سائر البلاد كلها فوجه الامير ابو محمد عبد المؤمن اليه عسكراً قود عليهم ابا زكرياء المعروف بانجمار فهزمه الشقي الدعي الماسي المذكور رجع[46] الى الخليفة خاسرا ثم خرج الشيخ أبو حفص عمر بن يحيى واشياخ الموحدين مع طائفة من الروم والرماة وغيرهم من الاجناد واستعدوا غاية الاستعداد وخرج في هذا العسكر المذكور مستخفياً في جملة الرماة الكاتب الجليل أبو جعفر بن عطية وقد كان كاتباً لاسحاق بن علي بن يوسف فالتف في جملة الناس لا يعلمه احد منهم واتصل سير الموحدين حتى وصلوا رباط ماسة حيث القائم الدعي وذلك في ذي الحجة من السنة المذكورة وكان جملة عسكر الموحدين نحو ستة آلاف فارس ومن الرجالة مثل ذلك وكان جمع الدعي الشقي سبع مائة فارس ومن الرجالة نحو الستين الفاً فالتقيا يوم الخميس السادس عشر من الشهر المذكور فهزم الدعي المذكور وعسكره المغرور وقتل في المعركة هو واكثر عسكره .

ذكر السبب في تقريب ابن عطية

وطلب الشيخ ابو حفص عمر بن يحيى كاتباً يكتب عنه بهذا الفتح الى عبد المؤمن اذ لم يكن عنده كاتب فعرف بابن عطية فأمر بحضوره فحضر وكتب عنه فأجاد واتقن ما أراد فقربه ابو حفص واحسن اليه وحصل في جملته وبعث الرسالة بالفتح الى الخليفة عبد المؤمن فلما وصلت هذه الرسالة وقريت في مجلس الخليفة استغربها الحاضرون من الطلبة والفقهاء والكتاب والنبهاء والشعراء واستحسنها الخليفة لما فيها من وصف الحال بغاية[47] الابداع وانها اخذت من الفصاحة والبلاغة والتشبيه الغريب بالقلوب والأسماع واجمع البلغاء على ابداعها غاية الابداع فكانت سبباً لسعده ورفعة قدره وجده فاستكتبه عبد المؤمن اثر ذلك ثم علا قدره

(46) الصواب : فرجع .

(47) في ط : لغاية .

وذكره . . . .[48] وحسن التوسط للموحدين وبالرعايا والجنود على ما لم يسبقه فيه[1] . . .[48] ولا ادرك خالد ولا جعفر من الفضائل ما ادرك ثم ان الدهر عدا عليه بعدوانه وطولب عند الخليفة فامضى عليه حكم ما رآه من الرأي في سلطانه بحيث لم يجب استغاثته إلا عواء الذياب او صدى تتسعر عليه نار الاكتياب فرويت الارض من دمه وبعده لم يرتسم برسمه . . . .[49] بل وجد فقد قدمه وفقد الناس حسن وساطته ، ويُمْنَ[50] ملاطفته . وسأذكر سبب موته في موضعه ان شاء الله تعالى .

ذكر حركة الشيخ ابي حفص الهنتاتي من حضرة عبد المؤمن لمحاربة المنافقين والقبائل الذين قاموا بدعوة الماسي المعروف بابن هود بعد ظفره به وقتله

لما انصرف الشيخ ابو حفص من غزوة الماسي واراح بمراكش اياماً خرج غازياً الى أهل نفيس فغلب عليهم وعلى هيلانة وقتل كثيراً منهم حتى اذعنوا بالطاعة فانصرف الى مراكش فأراح بها وخرج الى هسكورة وفتحها ثم نهض الى سجلماسة فدخلها واستولى عليها وامن اهلها ثم انصرف الى مراكش ظافراً غانماً ثم اراح بمراكش وخرج غازياً الى برغواطة فنهض اليهم فقاتلوه مدافعين لاهل عبد المؤمن متمسكين بطاعة الماسي فدام على قتالهم مدة ثم عزموا على مقاتلته فدارت بينهم دفاع وحروب ومدافعات وحملات فانهزم من كان معه وانصرف خائباً عنهم ودامت الفتنة منهم وممن يجاورهم . وفي أثناء هذه الفتن قام من أهل سبتة قومٌ على من [بالقصبة[51] حتى غلبوهم ، وأوقدوا النار عليهم بالبرج الذي تحصَّنوا فيه حتى قتلوهم وصلبوهم ، وجاز البحر عياضٌ القاضي إلى يحيى بن علي ابن غانية وهو بالخضراء ، وطلب منه والياً ، فأرسل معه يحيى بن أبي بكر الصحراوي ، وأجازه البحر إلى سبتة ، فاستولى عليها وخلعوا طاعة عبد المؤمن . وقام أهل المدينة على الموحدين فيها وقتلوا الحافظ بها يوسف بن مخلوف ، وكان قد غزا مع القاضي عياض الروم في البحر . ولما فتح الموحدون مدينة فاس واستقروا بها فر

---

(48) بياضات بالأصل في الموضعين .

(49) بياض بمقدار كلمة ، لعلها : أحد .

(50) في طـ : وعين .

(51) من هنا يبتدىء النص الطويل المفقود في طـ المكتوب بين معقوفتين .

يحيى الصحراوي صاحبها واستقر بطنجة ، ثم جاز البحر إلى الأندلس برغبته إلى قائد البحر علي بن عيسى بجزيرة قادس ، فأجازه القائد المذكور وأجاز أصحابه اللمتونيين والروم الذين كانوا معه إلى جزيرة قادس ، فاشترط القائد على يحيى هذا أنه إذا وصل قرطبة إلى ابن غانية أن يشفع في عيسى والده ويخرجه من سجنه بقرمونة ويسرحه إليه ، فضمن له ابن الصحراوي ذلك . فلما أجازه علي عزم على أن يأخذ خيلهم وما بقي عندهم من مال ورجال . وقد كان أعطاه مالاً كثيراً ، ففهم يحيى عنه ذلك ، ففر إلى ابن غانية بقرطبة فاستقر عنده ، وأطلق والد علي المذكور ، ووفى له . ثم إن ابن الصحراوي لما حصل بسبتة تحيل على القائد علي بن عيسى المذكور واستدعاه إليها وخدعه وقتله ، ثم إن ابن الصحراوي أيضاً كثرت فتنته ، ودام تخليطه ، ورام أن يحيي ما مضى من أيام آبائه ، فلم تعنه الأيام . . . . . أخذاً في العفو عند بعد وصوله إلى برغواطة حسبما أذكره .

ذكر الوفد الناهض من اشبيلية الى عبد المؤمن ، وهو أول وفد نهض من الأندلس اليه في أواخر سنة احدى وأربعين

أما فتح إشبيلية وطاعة أهلها فكان ذلك في الثاني عشر من شعبان من هذه السنة . وكان وصول هذا الوفد بالبيعة إلى عبد المؤمن ودخولهم مراكش في شهر ذي الحجة من العام المؤرخ . فأولهم القاضي أبو بكر بن العربي والخطيب أبو عمرو بن حجاج ، وأبو بكر بن الجد ، وأبو الحسن الزهري ، وأبو الحسن بن صاحب الصلاة ، وأبو بكر بن شجرة ، وولد الباجي ، والهوزني ، ومحمد بن الزاهد ، ومحمد بن القاضي شريح ، وعبد العزيز الصدفي ، وعلي بن طالب ، وعلي بن السيد ، وغير هؤلاء . فلما كان عيد الأضحى أذن لهم في السلام ، وجاوبهم بالتأمين والتسكين ، والوعد الجميل المؤذن بالفتح المبين ، ثم بعد ذلك أذن لهم بالدخول عليه في مجلسه العام بقصر الحجر ، فتقدم القاضي أبو بكر بن العربي بالكلام ، وخطب خطبة بليغة استحسنها الخليفة ، ثم تلاه أبو بكر بن الجد بخطبة ثانية فأحسنها وأجاد ، ودفعوا له بيعة أهل إشبيلية بخطوط أيديهم فيها ، فأمر بقبولها منهم . ثم إن الخليفة سأل ابن العربي عن المهدي هل رآه ولقيه في مجلس أبي حامد الغزالي أم لا ؟ فقال له : لم ألقه ، وإنما سمعت به ، وأنه كان يقول لا بد من ظهوره ثم انفصلوا من عنده بخير كثير وانعام كبير . قال أبو العباس بن

مِقدام : لما وصل هذا الوفد مراكش وارتدت القبائل بسبب قيام الماسي ، وَشَى واشٍ الى الخليفة أن إشبيلية ارتدت بمن فيها ، وشاع الخبر بذلك ولا علم عند الوفد بهم ، فلم يشعروا إلاّ والموحدون قد أحاطوا بالدار التي كانوا بها على الأسقاف بالرماح والسيوف ، فمنهم من غشي عليه ، ومنهم من بهت وظهر الموت لديه ، ورقب عليهم الرقباء ليلاً ونهاراً ، ورأوا الموت عياناً وجهاراً ، ودام ذلك ثلاثة أيام إلى أن وصل الحق ببراءة أهل إشبيلية بكتاب الشيخ أبي يعقوب بن سليمان من إشبيلية ، فاستدرك الأمير أرواحهم ، وعجل سراحهم ، فوجه إليهم أبا إسحاق بن جامع وعبد الله ابن سليمان معتذرين لهم ، فقالا لهم إنما وجه لكم الرجال اشفاقاً عليكم ونظراً حسناً إليكم لأن الأمير رضي الله عنه قال إن وصلهم خبر ارتدادهم يفرون على وجوههم فتأكلهم الطرق بمن فيها من الثائرين ، فثابت إليهم نفوسهم ، وكان لهم بعد ذلك السراح والإنعام ، وأمر لهم بالزاد الوافر على أوفى الكمال والتمام ، فأمر للقاضي ابن العربي بمائة مثقال ذهبية حشمية ، ولابن حجاج الخطيب بمثل ذلك ، ولسائر الوفود على قدر منازلهم وانصرفوا بظهائرهم من كتب ابن عطية بالانعام عليهم بصرف أموالهم وضياعهم إليهم . وكان انصرافهم من مراكش في جمادى الآخرة من سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة. وتوفي القاضي ابن العربي وهو على دابته في الشهر المذكور عند وصوله إلى مدينة فاس ، ودفنوه في روضة الجياني وعمره خمس وسبعون سنة . وسبب وصولهم إلى فاس أنهم أخذوا على طريق الجبل بسبب فتنة القبائل .

تلخيص بدخول الموحدين للأندلس أولاً

لما اتصل بالأندلس موت علي بن يوسف ومقتل تاشفين بن علي ولي عهده ودخول الموحدين مدينة فاس ، طاع علي بن عيسى بن ميمون قائد البحر المنتزي على الملثمين بقادس ، وقصد عبد المؤمن ، فوصل إليه وهو بجبل العرض . فأمر عبد المؤمن القائد المذكور أن يتوجه إلى الجزيرة المذكورة وأن يهدم الصنم الذي فيها . فانصرف وشاع خبره بجزيرة الأندلس ، وخطب له عليٌّ المذكور بجامع قادس ، وهي أول خطبة خطبت له بجزيرة الأندلس وذلك في أول عام أربعين وخمسمائة . ثم طاع أحمد بن قسي من موضع قيامه من حصن مرتلة عند غلبة سِدْرَاي بن وزير عليه . وكانت طاعته

على يد علي بن عيسى المذكور أجازه في غراب هو وأصحابه المختصون به من مرتلة إلى سبتة ، وكانت سبتة إذ ذاك في طاعة الموحدين تحت نظر الشيخ أبي يعقوب يوسف بن مخلوف ، فأعان ابن مخلوف أبن قسي في المشي لعبد المؤمن حتى وصله بجبل العرض في شعبان من العام المذكور، ثم بعثه صحبة الشيخ أبي اسحاق براز بن محمد المسوفي إلى الأندلس لحرب من بها من الثوار الملثمين بعسكر من الموحدين تنويهاً به ، وبعث معه أبا عمران موسى بن سعيد من جبل العرض أيضاً وعمر بن صالح بعسكر آخر .

وقد ذكر ابن صاحب الصلاة إجازة أبي إسحاق براز بن محمد المسوفي ، وعمر ابن صالح الصنهاجي ، وأحمد بن قسي مع البعوث معهم إلى الأندلس في تاريخ المريدين الثوار بها فقال من جملة كلامه :

لما جاز العسكران إلى الأندلس قصدا مدينة شريش أولاً وكانت تحت الطاعة . ثم جازوا وادي اشبيلية وساروا إلى لبلة ، ثم تحركوا منها إلى مرتلة وهي تحت الطاعة ، ثم تحركوا منها إلى شلب ونزلوا على أنظارها ثم فتحوها ، ونهضوا منها إلى باجة . فأطاع سدراي بن وزير وخرج إلى الموحدين فأدخلهم باجة على أيمن حال، وطاع جميع أهل الغرب والجوف من الأندلس . ثم رحل أبو إسحاق براز من باجة إلى مرتلة ، وأقام بها زمن الشتاء ، ثم أمر سدراي بن وزير أن يصل إليه إلى مرتلة بجميع العسكر الذي إلى نظره فوصله بجميع ذلك من الفرسان والرجال وتحركوا منها إلى لبلة فتلقاهم يوسف بن أحمد البطروجي صاحبها ، ومشى الجميع بعدما طاع أهل طلياطة وحصن القصر ، ووصل الجميع إلى إشبيلية فحصروها براً وبحراً ففتحها الله تعالى .

ذكر ما حدث على أهل اشبيلية من الحوادث عند فتح الموحدين لها على جهة الايجاز والاختصار

كان فتحها يوم الأربعاء الثاني عشر من شعبان المكرم من سنة إحدى وأربعين ، ذكر ذلك ابن صاحب الصلاة في كتابه فقال : فتحت عند أوان العصر وفر لمتونة منها إلى قرمونة ، وقتل من أدرك منهم ومن أتباعهم ، وقتل

أبو عمر البناقي الفقيه ، وعبد الله بن القاضي أبي بكر بن العربي عن غير قصد في باب المسجد ، وملك الموحدون المدينة وقصبتها التي كانت قصر ابن عباد .

وكان شيخ الموحدين الذي يرجعون إليه أبا إسحاق بن محمد المسوفي . وحضر هذا الفتح من رؤساء الأندلس وثوارها أبو محمد سدراي ابن وزير شيخ أهل الغرب بالأندلس ، ويوسف بن محمد البطروجي الثائر بلبلة ، ولبيد بن عبد الله قائد شنترين ، وجميع أهل الغرب بعسكرهم ورجالهم ، ودخل ..... المسوفي ، ووحَّدَ أهل طلياطة وحصن القصر وأهل الشرف ، وحين ..... إشبيلية أعلم بذلك عبد المؤمن فسر به ، وأمر بوصول الشيخ أبي يحيى بن الجبر إليها معيناً لمن فيها من الموحدين ، فوصلها ، وسد خللها ، وثقف أعمالها . واجتمع مع أبي إسحاق براز ، عن رأي واحد ، وسعد مساعد ، ناظراً في المجابي ، شريكاً في التدبير والنظر للموحدين ، ناصحاً لهم ، ثم وفد عليه وفد أهل الغرب طائعين منيبين ، ثم ترادفت الفتوح من قبل الخليفة بمراكش ، فتوجه وفد اشبيلية إليه كما تقدم ، فأمر لهم بصرف أموالهم وضياعهم ، وبعد ذلك اعترضهم أبو إسحاق في رجوعهم ، فرجعوا إلى عبد المؤمن شاكين به وبفعله ، فأمر باطلاق أيديهم ، وأمر أن يشتغل يوسف بن أحمد بالاحتساب بها ، ودامت الحال شهوراً على خيرات وبركات إلى أن وصل عبد العزيز وعيسى أخوا المهدي ومعهما يصلاتن ابن عمهما .

قال أبو عبد الله محمد بن عبد الملك : لما وصل عبد العزيز وعيسى إلى اشبيلية مع عسكر من الموحدين الغازين نظر الناس حيث ينزلونهم للسكنى ، فاتفق الرأي على حومة الجبانة من داخل إشبيلية ليكونوا قريباً من قصر ابن عباد حيث سكنه أشياخ الموحدين أبي يحيى بن الجبر وأبي إسحاق براز الناظرفي المخزن بالأمر العالي ليتصل الموحدون بعضهم ببعض . فنزلوا فيها ، فلم يحفظوا سكناها ، وابتدأوا بحرق سقفها ، وعمل أصاطب من بيوتها لدوابهم ، وكانوا قوم سوء ، ففسدت الديار في أقرب مدة ، واستطالت أيدي أتباعهم على الأندلسيين المجاورين لهم ، ففروا أمامهم ، وساءت حال أهل إشبيلية بهم ، وعبد المؤمن لا يعلم ذلك حتى رفع له به ، فأمر بالكتب

لبلاد الأندلس كلها التي كانت تحت طاعة الموحدين بتمشية العدل ورفع المظالم والجور .

وفي سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة خرج أمير المؤمنين أبو محمد عبد المؤمن بن علي لغزو القبائل الثائرة وذلك لما تفاقم نفاق برغواطة ودكالة ويحيى الصحراوي عندهم ، فدوَّخ عبد المؤمن أرضهم وبلادهم ، واستأصل طغاتهم ، وهزمهم في كل موقف ، وسباهم وفرقهم أيادي سبا ، وصيرهم أحاديث وأنبا ، حتى أذعنوا بالطاعة ودخلوا في حزب الجماعة ، وفر يحيى الصحراوي عنهم ، وتبرأ من الشيطان ومنهم ، واختفى بحيث لا يعلم ، وجعل يتضرع إلى الأمر في أن يُعفى عنه ويسلم . فرجع أمير المؤمنين إلى حضرة مراكش منصوراً ظافراً بعد ستة أشهر من خروجه منها . وبعد انصرافه توسط الأشياخ إليه في يحيى الصحراوي فعفا عنه . وبعد هذه الحركة المباركة كان الخير إليه من كل جهة يصل ، والود بطاعته يتصل .

وأتته المخاطبات في السنة بعدها من الأندلس بالرغبة في الدخول إلى الطاعة ، وطاعت سبتة ، ووصل وفدها ، وكذلك وصل إليه أهل سلا ، فأمرهم بهدم سورها ، فهدم ، وصفح عن دمائهم .

وفي سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة أمر أبو محمد عبد المؤمن بالكتب للبلدان لما استقر بمراكش مُريحاً للنظر في مصالح المسلمين وقوام أمر الموحدين . وكان رفع له أن المظالم قد ظهرت ، والقبالات في الأسواق اشتهرت ، فكتب أبو جعفر بخطه عنه كتاباً إلى الطلبة والأشياخ والحفاظ يأمرهم فيه بالمعروف وينهى عن المنكر وعن سفك الدماء ، فأجاد فيه ، وكانت الجودة في معانيه ، وذلك بتاريخ الخامس عشر من ربيع الأول من هذه السنة المذكورة ووجه منه نسخاً كثيرة لبلاد الأندلس والعدوة ، فجمعت هذه الرسالة قوانين العدل والفضل ، والسياسة والرياسة ، فكانت حجة بأيدي الناس ، ومؤمنة لهم من الباس ، ولما وصلت هذه الرسالة إلى اشبيلية بحثوا على أهل الأشغال ، المتصرفين في الأعمال ، وأخذوهم بالإقرار والاعتراف ، وبالغوا في البحث عليهم والانصاف ، فقتلوا منهم رجلين ظهر عليهما الفسوق والظلم ، والفساد والإثم والجرم ، فوجد أحدهما غير مختون ، والآخر

استرابت عليه الظنون ، وكانا يشتغلان بقبض الفطرة ، فظهر منهما الغش للخلافة والإمارة . . .

ذكر سبب كتب هذه الرسالة الى البلدان وبقية ما جرى باشبيلية وغيرها من الحوادث والأكوان

وذلك أنه لما رفع إلى عبد المؤمن ما فعل عبد العزيز وعيسى أخوا المهدي بإشبيلية من استطالة أيديهما على أهلها ، وعلى الأندلسيين المجاورين لها ، وظهر من أخوي المهدي باشبيلية مذهب في قتل الناس وإباحة الدماء ، وأخذ الأموال واتصال الاعتداء ، ثم تغيرا على البطروجي صاحب لبلة وعزما على الإيقاع به ، ففهم ذلك منهما ، ففر بنفسه عنهما ، فخرج من إشبيلية عند مغيب الشمس من اليوم الذي عزم على الفرار فيه ، فسرى ليلته وحصل في لبلة مع جماعة من أصحابه ، فثار بها وأمّن من كان بها من الموحدين وأخرجهم منها ، ووجه في الحين إلى طلياطة وحصن القصر من ثقفهما وملكهما ، وأعلن بنفاقه ، وأعاد بين لبلة وإشبيلية قبيح فتنته . واتصلت الفتنة منه ومن لمتونة أهل قرطبة على اشبيلية أعظم اتصال ، على تكرير الأيام بالغدو والآصال ، مدة سنة اثنتين وثلاثٍ وأربعين إلى سنة أربع ، واتصلت الفتن بالعدوة والأندلس . ثم خالف ابن قسي في مدينة شلب ، ونشأت الفتنة بين محمد بن علي بن الحجام وبين أمير الغرب بمدينة بطليوس ، بسبب تغلب ابن الحجام على ابن وزير وإخراجه من مدينة بطليوس ، ثم تغلب ابن غانية على الجزيرة الخضراء ، وقام أهل سبتة على الموحدين فقتلوا واليهم وأخرجوهم وثبت أبو الغمر بن عزون بشريش ورندة على طاعة الموحدين ، وارتفع السعر بها وعظمت المجاعة بها ، باتصال الفتن والتحامها . وامتنع علي بن عيسى بن ميمون القائد من توصيل الأطعمة والأقوات إلى إشبيلية في البحر ، إذ كان قائد البحر مالكاً له ، لا تجري جارية فيه خوفاً منه ، لاستباحته أموال التجار ودماءهم الذين يسوقون الأقوات ويتصرفون في مصالح المسلمين ، يقتلهم بسيفه ، ويسقيهم الموت من خوفه . وبقيت إشبيلية محصورة براً وبحراً والناس بها في شدة عظيمة من عدم القوت حتى بيعت خبزة بدرهم ونصف ، وبيع قدح القمح بستة وثلاثين درهماً ، وباع الناس أموالهم بإشبيلية بالأيسر اليسير ، واستوى الغني بها والفقير ، وبيع أصل

زيتون بالشرف بنصف درهم ، ودار تساوي مائة دينار بعشرة دراهم .

ولمـا اتصلت هـذه الأحـوال القبيحـات ، واشتـدت الكـزبـات . . . . . المجرمون عيسى وعبد العزيز ويصلاتن ابن عمهما بمن كان معهما من إشبيلية . . . . . وجميع بلاده بما عنده من الفرسان والرجال ، معيناً لهم . . . . على جهة مالقة . . . . جرير ضراً ولازموها شهوراً ، ووصلهم في البحر بالقطائع أبو محمد عبد الله بن سليمان معيناً لهم حتى فتح الله الجزيرة على يد أبي الغمر بن عزون المذكور ، وأخرج لمتونة عنها ، وقتل أتباعهم ، واستأصل أشياعهم ، واتصل حال أهل إشبيلية على ما ذكرته من الشدة . ثم رجع أخوا المهدي ويصلاتن إلى مراكش ، فبعث عبد المؤمن والياً على إشبيلية أبا يعقوب يوسف بن سليمان بعسكر من الموحدين ، وبقي أبو إسحاق براز على شغل المخزن ، فالفاها في غاية من الشدة في كل نوع ، وقد اجتمعت عليها الفتن بكل جمع . فسكن روعة أهلها بعدله وساس أعاديه بدهائه وعقله ، واجتمع ببراز الناظر في المخزن ، ففتح عليه أبواب السياسة ، وأعانه الله على نصح الخليفة في الرياسة ، واتفق رأيهم على بناء قصبة بإشبيلية وعلى ترحيل الموحدين الساكنين بالجبانة إلى القصبة بسبب تشكي الناس من ضررهم ، فعزموا على ذلك ، وحازوا موضعها الذي هي الآن فيه ، وأخرجوا أهلها عن ديارهم ، وعوضوهم في المدينة أعواضاً من ديار المخزن مما لا يرضيهم ، وكان هذا على الناس أشد من قتل نفوسهم ، وزيادة في كثرة همومهم وبوسهم ، وهدموا سور ابن عباد وبنوا بأحجاره هذه القصبة ، ولم يزل الناس يتشكون من هذا العوض مدة الخليفة الأول والثاني والثالث وهم ينظرون لهم ، إلى أن طال الزمان ، وأرضاهم الاحسان .

وخرج أبو يعقوب بن سليمان المذكور إلى لبلة ، ففر البطروجي من الغرب وجهة شلب ، مقر ابن قسي ، فعسكر الموحدون ومن تبعهم من الرؤساء الأندلسيين في فصل الشتاء والبرد ، فدوَّخ نظر يوسف البطروجي بالياطة ونظرها ، ثم انتقل إلى لبلة وأقطارها ، ثم انتقل إلى جهة الغرب وأغار على طبيرة ونظرها ، وتلقاه أهل مدينة العلياء بالتوحيد وكان بمدينة شنتمرية القائد عيسى بن ميمون والد القائد علي المذكور قبل هذا والياً عليها ، فاتصل بعسكر الموحدين وغزا معهم جهة شلب ، فتعرضت لهم جماعة من

أصحاب يوسف البطروجي ليدافعوهم عن جهة شلب ، فهزموهم واستأصلوهم ، وتمادى غزو الموحدين تلك الجهة حتى انكروا بلاد العدو غرب الأندلس ، وألزموهم عظيم الحرب والكرب ، وألح المطر عليهم فلم يمكنهم الرجوع إلى الطريق الأول لامتلاء الأودية وحملها ، وثقل الأرض ووحلها . فانصرف الموحدون على جهة بطليوس ، وعلم بهم محمد بن علي بن الحجام صاحب بطليوس في تلك الأيام ، وأوصلهم بالقوارب وأجازهم على الوادي وحياهم بالتضييف الحافل من كل جانب ، فرعي له ذلك ، وعد له أنه عهد ، وسالموه في طريقهم ، ولم يروعوا له سرباً لأجل توفية حقوقهم ، ووصلوا إشبيلية موفورين منصورين . . . . .

ووصل كتاب من الخليفة عبد المؤمن لأبي يعقوب ، يشكره على غزوته هذه جواباً على خطابه ، يذكر له فيه : وصل كتابكم الأثيل مضمناً من الإعلان ما سنى الله للموحدين من الفتح الجليل ، والصنع الجميل ، في الجملة والتفصيل . . . . . قرطبة فتغلب على يحيى بن علي بن غانية بقوته وشوكته حتى أعطاه بياسة وأبدة ، وبعث الروم على مدينة أشبونة وطرطوشة ولاردة وافراغة وشنتمرية ، واستولوا على جملة من بلاد الأندلس ، فداخل ابن غانية صاحب قرطبة براز بن محمد صاحب إشبيلية أعادها الله للاسلام .

ذكر دخول الموحدين قرطبة وقرمونة
وخروج ابن غانية عنهما ووفاته في هذه السنة

لما وقعت المداخلة والمواصلة بين الموحدين وبين يحيى بن غانية برأي أبي اسحاق براز بن محمد ونصحه واجتماعه معه باستجة ، وذلك أنه لما تسلط أذفونش على ابن غانية ولم يرض منه بما اتفق معه من الإتاوة التي كان يعطيه كل عام ، طلب منه قرطبة أن يعطيها له ، وقال له : إنما أنت عاملي عليها وأنا ملكتك إياها يوم إخراجي ابن حمدين عنها ، فأنف من ذلك ابن غانية أنفة المؤمن وراجع نفسه إلى حماية الموحدين ، فوجه إلى أبي إسحاق براز بن محمد أن يجتمع معه ، فحين وصل الخبر إلى براز المذكور ، سار إليه واجتمع معه باستجة ، وانفردا في المناجاة بينهما ، مدة يومهما فبين عليه أبو إسحاق فضل الخليفة عبد المؤمن ومذهبه في نصر

الدين بهذه الجزيرة المنقطعة وقمع الكفار عنها ، واتفق الصلح بينهما ، وضمن له أبو إسحاق براز أنه يوجد له عساكر تحمي بلاده ويكونوا أعوانه وأجناده على أن يمكن أبو زكرياء المذكور الموحدين من قرطبة وقرمونة ويسكن ابن غانية مدينة جيان عوضاً عن قرطبة وقرمونة . فاتفقا على ذلك وانفصلا على هذا الصلح والعهد ، والربط على الوفاء والعقد . وعند انفصالهما خاطب أبو إسحاق براز عبد المؤمن بوصف الحال ، وبتأدي أبي زكرياء ابن غانية إلى الطاعة ، وصفاء مذهبه في الدخول في هذا الأمر السعيد ، واستأذن أبو إسحاق في المشي إلى الحضرة يشرح الحال مشافهة فأذن له في الوصول ، فوصل مستعجلاً .

ثم صرفه عبد المؤمن معجلاً ، وخاطب معه أبا زكرياء المذكور مستدنياً ومواصلاً ، ومنجزاً له من العدات والخيرات فوق ما كان آملاً .

ولما وصل كتاب أبي محمد عبد المؤمن إلى ابن غانية المسوفي صاحب قرطبة وما يليها من البلدان ابتهج وزاد سروره ، وقوي في ذات الله عزمه وظهوره ، فتخلى له الموحدون عن مدينة جيان ، وشاع الخبر عند أذفونش والنصارى بذلك ، فجمع عسكره الذميم وخرج به محارباً لأبي زكرياء المذكور ، وطلب منه أن يعطيه جيان ، وإلا أغار عليه فيها ونازلها بأعداده ، فلم يمكن ابن غانية إلا أن ينعم له بها وهو يظهر خلاف ما يبطن ، ولم يطلع أحد على سر الله عز وجل . فاستعجل اذفونش بجمعه الذميم ونزل على ستة أميال من جيان ، وطلبه بانجاز وعده ، فعزم يحيى رحمة الله عليه على الوفاء لله تعالى في الذب عن حريمه وحرمه ، فوثب الفرسان والرجال والمشاة الأبطال على أبواب المدينة وحصن القصبة بالثقاب وأكمل عزمه . . . . اذفونش أن يوجه . . . . وبعد ذلك يصل هو . . . . بأندلس . . . . وقصدوا الموضع الذي كان فيه ابن غانية واقفاً بباب القصبة فقبض على جميعهم تقبض ملك مقدام ، فارس شهم همام ، وقيد جميعهم في الحديد والكبول ، واحتملوا . إلى سجن القصبة المانعة على أسوأ محمول ، وجاهد في الله جهاداً مبروراً ، ولقي بذلك من ربه نضرة وسروراً .

واتصل خبر هذه البطشة في الحين ، باذفونش اللعين ، فأقلع مرتاعاً فزعاً وانصرف على طريق بياسة ومنها إلى بلاده قشتالة ، وانتقض ما بينه وبين ابن غانية

من عهد ، ولم يكن بينهما اجتماع أبداً بعد . ولما كمل له بعون الله مراده ، ورجع له عند الله جهاده ، احتملهم مكبولين إلى قلعة بني سعيد وفي نيته ما ارتبط عليه من الوفاء للموحدين ، وطاعة أمير المؤمنين ، وسار منها إلى غرناطة ليجتمع مع من بها من اللمتونيين ، ويربطهم بما ارتبط ، ويشترط عليهم ما اشترط ، فأقام بغرناطة نحو شهرين ، وتوفى بها عصر يوم الجمعة الرابع عشر من شعبان المكرم من سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة ودفن بالمسجد الصغير المتصل بقصر باديس وأُلصِقَ قبره بقبر باديس بن حبوس .

ولما وصل خبر موته إلى صاحب القلعة أبي مروان بن سعيد قائد ابن غانية وأمينه دخل إلى الأقماط المسجونين عنده ، وأعلمهم بموت ابن غانية وارتبط معهم على أنه إن حلهم تكون القلعة بيده كإحدى بلاد النصارى ، فضمنوا له ذلك .

وخاطب أبو إسحاق براز بن محمد الأمير عبد المؤمن بما كان من هذه الحوادث ، فجاوبه على ذلك . ولما علم أذفونش بموت ابن غانية زاد طمعه في قرطبة وانظارها ، فحشد جميع الكفار ببلاده لمنازلتها ، وأعلم الموحدون حضرة أميرهم بذلك واستغاثوا بالله تعالى وبه ، فوجه لهم عسكراً مع أبي محمد عبد الله بن أبي بكر رحمه الله تعالى ، ثم والى نظره بعد هذا بتوجيه عسكر إثر عسكر واجتمع رأي الموحدين بإشبيلية لما تحققوا احتشاد الطاغية أذفونش لمنازلة قرطبة أن يوجهوا إليها أبا الغمر بن عزون لعلمهم بنجدته وشجاعته ، فتوجه إليها .

ولما علم بهذه الشدة يوسف بن أحمد البطروجي بلبلة رغب إلى الموحدين أن يعينهم بجملة من فرسانة يمشون مع ابن عزون إلى قرطبة لحرب الروم ومدافعتهم ، فقبل ذلك منه فوجه أربعمائة فارس من أنجاد أصحابه ، فكان له ذلك عنوان قبول ، في رجعته إلى الطاعة ومأمول ، وأعلم الموحدون الذين بإشبيلية أميرهم بمنازلة اذفونش قرطبة ، فأزعج عسكراً صحبة أبي زكرياء بن يومور . ولما وصل أبو زكرياء بن يومور بعسكر الموحدين إلى إشبيلية اجتمع مع إخوانه الذين كانوا بها ، وتشاوروا كيف يكون السلوك إلى قرطبة ، إذ العدو منازل جوانبها ، فرأوا أن يكون السلوك إليها على الجبل لكيلا يكون عند الطاغية خبر منهم بدخولها ، فاستجازوا على ذلك وسلكوا الطريق الكبير . فلم يعلم العدو بخبرهم حتى دخلوها ليلاً ثم برزوا من الغد عليه تبريزاً اذهله ، وأذهب طمعه فيها وهاله وأقام قليلاً من الأيام وأقلع خائباً لم يحظ بنيل مرام وكان بقرطبة مدة حصارها مجاعة

عظيمة أكلوا . . . . . بعد اقلاع العدو عنها واقفرت ثم . . . . ولما فرغ أبو زكرياء ابن يومور من محاربة العدو المذكور وصله خطاب يوسف بن أحمد البطروجي راغباً ثم وصل بنفسه إلى إشبيلية متطارحاً طالباً أن يشفع له عند الخليفة وأن يرجع تحت طاعته وأن يعفو عنه فيما جناه من الفتنة وكذلك رغب في أحمد بن قسي خليله وفي محمد بن عبد العزيز خدينه فخاطب فيه أبو زكرياء المذكور بما رغب فيه وأوصل الأمانة عنه بما طلب فوصل الأمر بالعفو عنه وعن صاحبيه وكان سداري بن وزير قد قبض يده مدة ارتداد الثوار عن فتنة الموحدين وأمسك نفسه عن مقابحتهم واشتغل بمحاربة ابن قسي ودفاع البطروجي ومغالبة محمد بن الحجام فلم يكن للموحدين قبله حقد ولا ثبت منهم عليه نقد فلما وصل أبو زكرياء بن يومور بالعساكر بادر بالخطاب إليه وإلى أبي إسحاق براز بن محمد بالاعتذار عن توقفه والاستغفار عن تخلفه فسعيا له أحسن السعي في ذلك كله .

وفي سنة أربع وأربعين وخمسمائة ، في آخرها ، قام سداري بن وزير إلى إشبيلية ، فبادر إليها بنفسه ، فاجتمع بهما فيها . ثم توجه منها بنفسه وأهله وماله إلى حضرة مراكش ، ولما وصل إليها قبله أمير المؤمنين أبو محمد عبد المؤمن ، وتخدم له الوزير ابن عطية حتى خف جانبه وشكر له بداره ، ثم تلاه أبو الغمر بن عزون ، ثم تابعهما يوسف البطروجي ملقياً بنفسه ، تائباً عما جناه من قبيح الفتنة في أمسه ، واجتمع الكل بحضرة مراكش . ثم نظر الأمير أبو محمد عبد المؤمن في الحركة إلى مدينة سلا . . . .

وفي سنة خمس وأربعين وخمسمائة تحرك أبو محمد عبد المؤمن من مراكش إلى مدينة سلا ليتطلع منها على أخبار الأندلس، فلما وصل إليها رأى أن يجري ماء عين غبولة إلى مدينة المهدية وهي رباط الفتح من سلا، فأمر بإحضار الفعلة ، وأجرى الماء حتى أوصله إليها في شهرين اثنين ، وأمر باستدعاء شيوخ جميع الأندلس الذين تحت طاعته ، فوصل كتابه إلى أهل إشبيلية . فخاطبوا أهل قرطبة وأهل بلاد ابن وزير والغرب وبلاد الجوف وبلاد ابن قسي والبطروجي ، فوصلوا إلى إشبيلية مسرعين مبادرين ، واجتمع الجيمع بإشبيلية ، وتحركوا منها في الخامس عشر من ذي الحجة ، وسلكوا طريقاً إلى شريش ومنها إلى طريف ، وتلك النواحي كلها مقفرة لا سكنى بها ولا عمارة لقرب الفتنة المهلكة لأهل الأندلس ، فأجازوا البحر وأخذوا الطريق إلى سلا .

قال ابن صاحب الصلاة : فمررنا في طريقنا على قصر عبد الكريم وليس فيه إلّا القليل من الناس في خيمات وحانوت واحد كان سوقهم به ، والأسود تزأر حواليه والأرض موحشة قفرة ، أخلاها تهارج الفتن . فوصلوا إليها في السابع والعشرين من ذي الحجة وهم في نحو خمسمائة فارس من الشيوخ والأجناد والقواد ومن تبعهم من رجالهم . فأمر الأمير عبد المؤمن .... على ميلين من سلا فنزلوا إليهم وسلموا .... والدعاء لهم ولخليفتهم بـما حضر من الكلام . وبعد هذا نزل جميع الوفد في الديار وأدرت عليهم الضيافات أتم إدرار ....

وفي سنة ست وأربعين وخمسمائة في أول يوم من هذا العام المؤرخ أمر أمير المؤمنين الوافدين بدخولهم إليه وسلامهم عليه ، في رحبة دار ابن عشرة وهو جالس على حصير في الرحبة المذكورة وعليه غفارة زبيبية ، وعلى رأسه عمامة صوف ، والوزير ابن عطية يقدم إليه يسميهم. فأشار ابن عطية بالتقدم في الكلام، فتقدم قاضيهم أبو القاسم بن حجام، فقال في أثناء كلامه: إن أذفونش لعنه الله بعد ما تنحنح وسعل ، ودبر وبهر ، فغلط في مقاله عوضاً عن اللعنة بالتأييد ، ثم قال إنه أضعف بلادنا وأفقرها . فعلم الخليفة أنه أخطأ ، فسكت وأعرض عنه ، وخجل جميع الوفد من مقاله ، وبهت من حاله ، فتلافى الناس في المجلس الفقيه أبو بكر ابن الَجد ، فخطب في الحين خطبة بليغة ذكر فيها أولاد الأمر العزيز والدعاء للخليفة وما يجب من البدار إلى طاعته ، والدخول في جماعته ، وتكلم رؤساء المجلس واحداً واحداً ، ثم انفصل المجلس في ذلك اليوم ، ووعد الناس بالرجوع إلى المجلس والتكرار في اليوم الثاني للمبايعة ، فحضر جميع الوفد ، ودخلوا على سبيل الدخول .

ذكر بيعة رؤساء الأندلس الوافدين على عبد المؤمن بمدينة سلا وانخلاعهم له

لما دخلوا على أبي محمد عبد المؤمن بادر أبو محمد سدراي بن وزير أولاً وبايع على الانخلاع من بلاده باجة ويابورة وأنظارهما، فشكر على فعله ذلك. وأراد البطروجي أن يتكلم فلم يقدر على النطق ، ولا شرح بيان الحق ، فنفد عليه توقفه ،وتبين تحرجه ، لكن أمير المؤمنين رفع رأسه للناس وقال مشيراً إليه : هذا أبو الحجاج صاحبنا بالشرف . فلم يشكره على ذلك ، ولا قبّل يده . ثم قام ابن

عزون وبايع على الانخلاع من بلاده ، وكذلك محمد بن الحجام ، وكذلك عامر بن مهيب صاحب طبيرة ، وكذلك بايع جميع من حضر من الثوار ، وتخلف ابن قسي وأشياخ بلده شلب عن هذا الجمع ، ولم يحضر من ينوب عنه ، فظهر للخليفة فساد مذهبه وارتداده . ثم دخل سائر الناس من الوافدين واحداً بعد واحد حتى أتموا ، وكان السبق لأهل إشبيلية . وتكلم بهذا المجلس كل من أراد أن يتكلم من الأشياخ والأجناد ومن سائرهم ، ولم يعتب أحد عليهم ولو تكلم بكلام سخيف ، أو تظلم بطلب ضعيف ، وأنشد من الشعراء من أراد . وأمر جميع الوفد بالانصراف إلى بلادهم بعد إقامتهم خمسة عشر يوماً . . .

وخاطب أبو محمد عبد المؤمن الأشياخ والطلبة الذين بإشبيلية بوصف الحال ، وبما يبلغ الآمل للآمال . وبعد انصراف هذا الوفد تحرك أمير المؤمنين راحلاً إلى مراكش حضرته ، وانصرف معه ابن وزير على أملٍ وجذلٍ وعدّةٍ كريمة مبرورة ، وخاطب أخاه أن يمكِّن الموحدين من بلاده ، فامتثل ذلك وفعل .وأمر البطروجي فصرف مهجوراً إلى مراكش . . . . لبلة من التمادي على الارتداد ما أوجب سجنه . . . الغلبة عليهم . . . بن عيسى . وفي هذه السنة حاصرت العرب . . . وضيّقت عليهم . وفيها أخذ مؤنس بن يحيى العربي مدينة باجة وأطاعه أهلها .

وفي سنة سبع وأربعين وخمسمائة شرع أمير المؤمنين عبد المؤمن في الحركة إلى بجاية وأنظارها على ما أذكره إن شاء الله تعالى .

ذكر حركة عبد المؤمن الى بجاية واستيلائه على مملكة بني حماد وبلاد متيجة وتيسير ذلك

فالعجب العجيب لما أراد الخليفة عبد المؤمن غزو بني حماد استسر ذلك مع خاصته ووزرائه ، منهم أبو ابراهيم وأبو حفص وغيرهما ، وأظهر لهم ما في طيِّ نفسه من ذلك ، فاشتغل باحتشاد قبائل الموحدين من جبالهم ، وخرج من مراكش في أواخر سنة ست الفارطة مظهراً للناس غزو الروم بجزيرة الأندلس . فلما وصل إلى سلا ، أقام بها شهرين يردِّدُ الرأي في نفسه ، ثم توصل منها إلى سبتة مظهراً للناس الاجازة إلى الأندلس . واستدعى من له من العمال بإشبيلية وأنظارها ، فوصلوا إليه ، واستوضح مسائلهم . ثم رحل منها راجعاً مظهراً الانصراف إلى

مراكش ، وأشاع الذكر بذلك للناس ، ومقصده في نفسه ونفس خاصته بجاية وبلاد إفريقية . وكان حين حركته هذه من مراكش خاطب عامله على تلمسان وهو ابن واندين يأمره بمنع التجار المسافرين من التصرف والتحرك إلى إفريقية براً وبحراً لأجل الإخبار ، بانتقال المسافرين والتجار . فامتثل ذلك والتزم الأمر في فعله هناك . ولما فصل من طنجة أخذ على قصر عبد الكريم على طريقٍ جعل فيه فاساً على يمينه ، وأخذ قاطعاً إلى الشرق ، ونادى منادي المحلة عن أمره : أيها الناس ـ من تكلم منكم بكلمة معناها أين هو المشي هل إلى الشرق أو إلى الغرب أو القبلة فجزاؤه السيف . . . ثم تحرك إلى جهة بجاية مستعجلاً في الرحيل ، على أول غرضه من التأميل ، فما شعر ابن حماد صاحب بجاية ، المعروف بالعزيز ، حتى وصل عامله بالجزائر بعد ما خرج منها ودخلها الموحدون ، فصبح بجاية في إثر ذلك . وعلم بوصوله أبو عبد الله بن ميمون المعروف بابن حمدون . وقد كان بينه وبين أبي محمد عبد المؤمن عهد على ذلك وموافقة ، ففتح له باب مدينة بجاية ، وقد كان ابن حماد حين وصله مُسْتَنَابُهُ من الجزائر نظر في قطعة من قطع البحر وركبها لعبوره ، ورآها مفزعة لذعره ، وأضاف إلى القطعة المذكورة قطعتين اثنتين ملأهما بجميع ذخائره من الجوهر والياقوت والذهب الصامت والآنية والثياب وغير ذلك ، وأدخل فيها عياله وقذفت في حينه بذلك إلى . . . وكان فيها أخوه شقيقه ، فأحس منه غدره ، فرحل عنه في البحر ، ووصل إلى مقربة من قسنطينة ، وأقام بها حتى نازله الموحدون وحاصروه بها مدة ، فرغب في الأمان . . . .

لعدله ، واثقاً بفضله ، فلقى من . . . . ما أنساه . . . وانتقل بأثقاله ، وأحمال ماله ، وجميع أهله وعياله ، مع المحلة إلى مراكش ، فأعطاه الديار والأموال ، وتمم له الآمال، ودام هو وبنوه تحت إنعام وإكرام، حتى انقرضوا بعد هذا بسنين. وبعد استقراره بمراكش ، وتوالى سيل النعم عليه من الخليفة بآلاف الدنانير والهبات الجزلة ، وإحضاره للمذاكرة في مجلسه العالي ، اشتغل بالطراد والصيد ، وتخامل وتجاهل ، واستعمل شباك الحديد لصيد الأسود الضواري ، فكان يتحيل عليها فيصيدها ويدخلها في أقفاص حديد ويسوقها إلى عبد المؤمن ويتحفه بها ، فتعقر بحضرته على معنى الملاعبة والمطاردة بين يدي الملوك ، وكان يعطيه على كل أسد يصيده ألف مثقال . واستاق ابن حماد المذكور في بعض الأيام شبل أسد صغير وأدخله إلى الخليفة في مجلسه ، فأمر بحل الشبل من عقاله ، فمشى الشبل بين

الناس يخترق الصفوف حتى وصل إلى الخليفة فربض بين يديه ، وسكن لا يتحرك من موضعه ، فعجب الناس من ذلك . وكان قد سبق إليه في ذلك المجلس زرزور فتكلم بين يديه بأنواع من الكلام . فارتجل ابو علي الأشيري أبياتاً من الشعر في صفة الحال بالمجلس المذكور وهي :

أنس الشبل ابتهاجاً بالأسد ورأى شبه أبيه فقصدْ
ودعا الطائر بالنصر له فقضى حقكم لمّا وردْ
أنطق الخالق مخلوقاته بالشهادات فكلٌ قد شهدْ
أنك القائم بالأمر له بعد ما طال على الناس الأمدْ

رجع الخبر : ولما استولى أبو محمد عبد المؤمن على بجاية وأنظارها ، وجمع أقطارها ، كان ميمون وزير ابن حماد قد فر إلى قبائل العرب بني سليم ، فكتب إليه بالأمان ، والعدل والامتنان ، فوصل من فوره ولقي ما وعد به وسعد بمذهبه .

وكتب أبو محمد عبد المؤمن رسالة فصيحة إلى أهل العدوة والأندلس ، فوصف فتح بجاية بخط أبي جعفر بن عطية أبدع فيها غاية الإبداع ، ووفى شرح هذا الفتح بما أبهج القلوب والأسماع ، وبعث بها إلى سائر الأصقاع .

ذكر سبب هجر عبد العزيز وعيسى أخوي المهدي ومقتل يصلاتن صهرهما وصلبه

وذلك أن أمير المؤمنين عبد المؤمن لم يزل من وفاة المهدي يأتلف عبد العزيز وعيسى ويحسن إليهما وإلى يصلاتن معهما بالإحسان التام ، والإنعام العام . وهذا يصلاتن يغريهما ، ويوقد نار الحسد في جوانحهما ، ويجعل نقض العهد وخلع الطاعة غذاء بجوارحهما ، وإذا دخل مجلس الأمر العالي دخل قاطباً ، وإذا خرج خرج غاضباً ، فيستريح بذم الأمر بالتصريح ، وينسب إليه كل قبيح ، حتى فشا سره وسر أصحابه ، ووضح وضوح الشمس غدره وغدر أترابه ، وتبين مكره ، فطُلب وأُخذ بعد طول أذاية وسجن . . . . فلما كان إيابه من الغزوة المذكورة . . . . عليه بإمضاء حد الحسام .

. . . على جذع بمرأى من جميع الأنام . ولما كان . . . هذا اليصلاتن

أظهرت نفوسهم الخبيثة ما في طيها من إرادة النفاق والانتكاث ، وأطمعتهم فيما لم يستحقوه أضغاث الأحلام ، فبسطت بهم بعد ذلك حوادث الأحاديث ، إنصافاً على ما كانوا طبعوا عليه من دبيب عقارب الحسد ، وكش للأمر العالي أفاعيهم بكل رصد ، فاعتقلوا بعد الهجر ، ثم سرحوا، ووصلوا إلى فاس ، وأعطوا ومنحوا فلم يقنعوا ، فكان من حديثهم ما يطول فيه البيان ، فقُتلا وصُلبا في جذعين في ذي القعدة عام ثمان وأربعين وخمسمائة على ما يأتي ذكره في موضعه .

وفي سنة سبع وأربعين وخمسمائة كان وصول أبي محمد عبد المؤمن إلى مراكش حضرته من حركة بجاية ، فلما استقر بها وفد الناس إليه من جميع بلاده مهنئين له بإيابه ، وبما منحه الله من الظفر بإعدائه ، ويسر له من طلابه مستبشرين بيمن سلامته ، وعودته إلى مقر خلافته ووفد وفد إشبيلية في جملة من وفد وورد ، وفيهم القاضي أبو موسى عيسى بن عمران رحمه الله تعالى ، فأنشد في معنى التحريض على البيعة للسيد أبي عبد الله بن الخليفة عبد المؤمن وهي :

طال انتظار العالمين لبيعة ... فقلوبهم كالنار ما لم تُعْقَدِ
فليورينك الله بعد تمامها ... عمرا يطول بنصر دين محمد
إن قيل من للأمر واحتفل الورى ... لأجاب كل بالجواب الأقصد
إن الخلافة قد تبين نورها ... للناظرين على جبين محمد
ذاك الذي أعْطَتْهُ كُنْيَتُكَ اسمه ... ليحوز أكرم غاية للسؤدد
فرع غذاه العلم من لَدُ نشأة ... حتى استوى وغدا منار مهند
ما عذر من فوق الكواكب أصله ... ألا ينال العلم أخذا باليد

فاستحسنها أمير المؤمنين، وكانت «حاجة في نفس يعقوب»، فأعربت له عن ضمائر القلوب ، وشاع قبول هذه الأبيات عند أشياخ الموحدين ؛ فتكلموا في ذلك بإجماع وإصفاق ، وقالوا إن القول قولهم على أصح اتفاق ، وبادر الناس من طلبة الحضر والأشياخ بالرغبة في . . . هذا الخبر وتوالت الرغبة يوماً بعد يوم وصرحوا أن السعد لهم في انتظامهم الأمر العزيز بالعهد الكريم . فقبل أمير المؤمنين منهم ، واستحسن القول عنهم ، ووفدت الشعراء للتهنئة بفتح بجاية ، فمنهم أبو عمر بن حربون قال من قصيدة طويلة يمدحه ويذكر وقعته في العرب :

إلى هذه كان انتهاء المطالب ... فسقيا ورعيا بعدها للمراكب

فيـا نعمـة كـانت من الله نقمـة ... على كـل مغرور عن الحق نـاكب
وصيـر بيض الهنـد حمرا كـأنهـا ... سفرن إلينـا عن خـدود الكـواعب
وقـائع غـارت في البلاد وأنجـدت ... فمـد يـدا للسلم كـل محـارب
فـأيـقن مـرتـاب وآمن كـافـر ... وثابت إلى العـاصي بصيرة تـائب
فكيف يـطيق الناس شكر جنابكم ... وأمـرهم من بعض تلك المـواهب

وفي سنة ثمان وأربعين وخمسمائة تحرك أبو محمد عبد المؤمن من حضرة مراكش إلى مدينة سلا ليشيع كبراء العرب الوافدين عليه بالطاعة مع بعض أمرائهم من إفريقية ، وفي نفسه أن يربط العهد الميمون الطاهر المصون ، فلما وصل سلا انعقدت البيعة لابنه محمد على أوفى شروطها وربوطها ، وأمر بالكتب في وصف الحال ورغبة الموحدين في البيعة المذكورة المؤذنة لهم ببسط الآمال ، وذلك من إنشاء ابن عطية ، فوصلت البيعات من كل الجهات ، ووفدت الشعراء من الأندلس للتهنئة على هذه البيعة السعيدة ، فمنهم أبو الوليد اسماعيل ابن محمد الشواش فقال في قصيدة :

أجـاب بـه داعي الحيـاة مثـوبـا ... فبـادره واستنجـد الـريـح مَـرْكبـا
إمـامُ هُدى يـدعو إلى الحق معلنـا ... فيـا فوز من لبى ويـا ويـل من أبى
خليفـة مهـديِّ الـورى وأمينـه ... تـولّاه للمحيـا ووالاه معـقبـا
حـواه أمين لـلامـامـة حـافظ ... وأدى حقـوق الله فيـه وأوجبـا
وأنجـزه في الفتـح صـادق وعـده ... فمكنـه في الأرض شرقـا ومغـربـا
لقد رَضِيَتْ فيك الخلافة مُـرتضى ... لمـا أوجبت فيك الـديـانـة مجتبى
وبـالأمن والإيمان والفـوز والرضـا ... ولايـة عهـد تـطلع السعـد كـوكبـا
ونـوجيت بالأمـر الذي قَـرَّ عِلْمُهُ ... فـأمضيت أمـراً كـان أولى وأوْجَبـا
هو الملك الميمون في مطلع الرضا ... أنـار وفي حجـر المعـالي تَـرَبَّبَـا

. . . .

ويكفيه فخرا يضمن الفضل والنهى ... بـأن كان منـك ابنـا وكنت لـه أبـا

ومدحه جماعة من الشعراء القصاد فهنؤوه بالبيعة المذكورة وغَلبته على بني حماد .

ولما كملت رغبة الموحدين بالبيعة للابن أبي عبد الله محمد ، وأخذوا بيده .

وارتبطوا بالمعاهدة ، رأوا أن العزة تابعة لهم في تولية السادات البنين ، وأن الخير لهم في ذلك وللمؤمنين ، يوالون الرغبات في تولية هاته الولايات ، فقبل منهم ما باشروا به من رغباتهم ، وأسعفهم في طلباتهم .

ذكرى ولاية السادات الأكرمين أولاد الخليفة أمير المؤمنين عبد المؤمن بن علي

ولي السيد الأعلى أبو حفص مدينة تلمسان ، •وتوجه معه أبو محمد بدو عليها ، وصهر الخليفة ، وعبد العزيز بن عباس . . . . باله ، وولي السيد أبو سعيد غرناطة ، فمشى معه الشيخ أبو عبد الله بن سليمان وأبو سعيد عثمان بن ميمون الصنهاجي ، ثم انضاف بغرناطة عند مشي السيد إليها أبو يحيى بن يخيت ، ومن الكتاب أبو الحسن بن العردوس ثم ابن طفيل ، ثم أبو بكر بن حبيش الباجي ، وتوجه السيد الأسنى أبو محمد عبد الله إلى بجاية ، وسار معه على معنى التدريب الشيخ أبو سعيد يخلف بن الحسين . وولّي السيد أبو الحسن على مدينة فاس ، فسار معه وزيراً يدربه أبو يعقوب يوسف بن سليمان ، ومن الكتاب أبو العباس بن مضاء يعلمه ويقرأ عليه .

رجع الخبر لسبب مقتل أخوي المهدي رحمه الله تعالى .

لما كملت البيعة لولي العهد أبي عبد الله واتصلت بها الولايات للسادات دبت عقارب الحسد][51] في قلوب عبد العزيز وعيسى وأصحابهما بمكان مقرهم بمدينة فاس واشتعلت نار الحسد في نفوسهم وكستهم ثياب الحقد عوضا من لبوسهم مع ما كانوا طبعوا عليه من سوء الاعتقاد وكاس الأحقاد يتكدرون للفتوح والافراح ويحسدون الأمر على الماء القراح . فشدوا[52] في الحين ليلا ونهارا الى مراكش لينتقضوا ما عقده الله في محله وامله لأهله وتواعدوا مع اصحابهم ان يجتمعوا في جامع علي بن يوسف فأخلفوهم وافردوهم وتحينوا بسوء تدبيرهم ورأيهم الفرصة في حلهم ان في الليل والنهار تكمن الآجال، وأن الأدواء تتشعب بسبب الاستعجال، فلم يعلموا ذلك بل استعجلوا انفسهم اقدار المهالك وحين بلغ الخليفة خروجهم من فاس على غير طريق ساء ظنه بهم فوجه في الحين ابن عطية ليصدهم عن تعديهم

(51) هنا ينتهي السقط في ط .

(52) في م : فسروت .

ويردهم عن التغيير الذي يرديهم فوصل ابن عطية الى مراكش في يومين فوجدهم قد احدثوا احداثاً وقتلوا واليها ابن تفراجين[53] المستناب بها فنفذ لهم من الله القضا ، وحق فيهم من الحسام الاقتضا[54]. فقتلوا وصلبوا بأعلى جذع وقتل عيسى قرب باب الدباغين وعبد العزيز بباب اغمات ثم بعد توجه الوزير ابن عطية خرج الامير ابو محمد عبد المؤمن من سلا قافلا الى حضرته مستطلعا ما حدث وما كان مستمعا حتى توسط الطريق فتلقاه الشبح[55] ، وادركه الفتح والفرج في وادي كسس فوصل مراكش ودخل داره وقر قراره فأخذ في قطع دابرهم وتحكم السيف في أولهم وآخرهم فلما اكمل غرضه واهلك الله من بغى عليه وتفرغ ذهنه وظهر له من الله عونه أمر الوزير الكاتب ابا جعفر ابن عطية بالكتب إلى جميع البلدان . فكتب بما لا يجال معه من الفصاحة والبلاغة في ميدان وشرح حالهم .

ذكر مقتل الناكثين معهما من الموحدين واصحابهما

ولما وصل الامير ابو محمد عبد المؤمن الى مراكش لم يزل يتتبع الايقاع بأصحاب الناكثين المذكورين فالفاهم في جمعهم اكثر من كل قبيل وقد خالطهم من أهل التخليط من سائر القبائل بعض نفر قليل فقبض عليهم وسجنوا ونفذ الامر بعد احضارهم واقرارهم لاخوانهم من كل قبيل ان يتولوا قتل اخوانهم بأيديهم ويكونوا . .[56] للأمر العالي ثاره وقطعوا من العدو مفصله وفقاره[57] وطلع عبد المؤمن في أعلى البرج الذي على قصر الحجر للجلوس وهو حاقد عليهم وعبوس واحضر أولئك الغادرين المنافقين المسجونين فامتثل الموحدون ما أمروا به من قتلهم في أيام وذلك يوماً بعد يوم فنشأت من الموحدين إثر ذلك بعضهم في بعض من كل مشاء بنميمة وسماع في فتنة[58] مليمة فطرقت للموحدين في هذا الوقت وحشة من الخجل والوجل ودهشة من قبيح ما ظهر من الغادرين المذكورين من نكوث العهد في السهل والجبل فتراموا على خليفتهم

---

(53) في ت و م : يفراخن .
(54) في ط : الاقضا ، وهو تحريف .
(55) في ط : الفتح (مكرر) .
(56) بياض بالأصل .
(57) في ط : وقفاره ، وهو تصحيف .
(58) في ط : فتنته .

راغبين في العفو وازالة الكدر وجلب ما تعودوه من الخلوص والظفر فقبل منهم ما أملوا وتعطف عليهم على عادته بما سألوا وكتب إلى البلدان رسالة بتغافر الموحدين من أفصح الرسائل تبين عن الأحوال المذكورة لكل مستفهم وسائل[59] من انشاء ابن عطية بتاريخ سنة ثمان وأربعين وخمسمائة وأقام عبد المؤمن بعد ذلك شهوراً موالياً إحسانه وانعامه على جميع الموحدين المتغافرين حتى اخمدوا ما كان من تلك الهيجا ، ورأوا بادرار البركات والمسرات انها خير من الدعة في الأرجا ، فضلاً منه واجمالا وطولا تابعه تألف في القلوب واشتملت عليه اشتمالا . ونظر فيما استخار الله [فيه][60] من البعوث إلى الأندلس .

وفي سنة تسع واربعين وخمسمائة

نظر ابو محمد عبد المؤمن في توجيه البعوث الى حماية الأندلس وكان ابو زكرياء يحيى بن يومور مترددا بالنظر والحماية بما أمر به من الولاية بقرطبة وإشبيلية فطرأ عليه أن الشقي الغادر علي الوهيبي غدر مدينة لبلة ليلا وجر إلى أهلها عصياناً وويلاً . أتاها ليلا وأهلها نيام فلم يشعروا إلا وقد حل بهم الداء الهيام فكان منهم قوم سبقوا الى قصبة الموحدين ودخلوا فيها فأمنوا من عادية الحادثة ودعاويها وأن الجميع ذهلوا فلم يقدروا على الوصول وحصلوا في حالة الذهول. فحين وصل الخبر إلى أبي زكرياء وهو بقرطبة خرج من فوره بعسكره وسرى ليلاً ونهاراً إلى لبلة[61] فلما قاربها تقدم سرعان الموحدين فدخلوا القصبة إلى أخوانهم فتقووا بهم وابو زكرياء على أثرهم فهرب الشقي المذكور وخرج أهل لبلة الى أبي زكرياء في صبيحة فرار الغادر معتذرين طائعين فلم يعذرهم فيما جنى لديهم بل ظلمهم وتعدى ببغيه عليهم فقتلهم اجمعين واستبد في ذلك برأيه الخسيس اللعين ولم يستأذن الأمر في حديثهم وكان معه ابو الغمر بن عزون فصوب له انفاذ السيف في برهم وخبيثهم ولم يصغ الى صوت مستغيثهم وكان هذا الشكل على أهل لبلة يوم الخميس الرابع عشر من شعبان سنة تسع واربعين وخمسمائة . ولما وصل عبد المؤمن ما فعل يحيى بن يومور في أهل لبلة بانفراده واستبداده بعث ابا محمد عبد الله إلى اشبيلية يأمره بأخذه واعتقاله بمشاركة براز بن

---

(59) في ط : وماثل .

(60) زيادة في م .

(61) هي : Niebla .

محمد فأخذاه يوم الفطر من عام تسعة واربعين وجداه بالمصلى فاجتمعا به وانهيا اليه ما أمرا به فامتثله فاعتقلاه في الحديد وأدخلاه في قطعة .

ونهض عبد الله بن سليمان به وبقي ابو اسحق اشبيلية لتثيقف أموال لبلة في المخزن فلما وصل ابن يومور الحضرة [62] أخر فدام على ذلك الى أن زار أمير المؤمنين قبر المهدي وسار المذكور في جملة الناس فعفا عنه وآمنه وبقي عليه حساب الآخرة ثم انه وجهه أمير المؤمنين الى تلمسان مع ابنه السيد ابي حفص في جملة اشياخ الموحدين الماشين صحبته وفي آخر هذه السنة وصل ابن وزير الى أمير المؤمنين [وهنأه][63] على ظهوره وغلبته واخبره بتسلط العدو ابن الرنك على الثغور وملازمته لهم لقطع زروعهم والاغارة عليهم في بسائطهم وشت شمل جميعهم فأمر بالكتب لهم بتأنيسهم وعدته بالنصر الذي كان يؤمله قبلهم ويستعده لغزو اعدائهم ويعد برفع ضرائبهم ونيل سرائهم وخاطب بذلك أهل باجة وأهل يابرة [64] وكان الكتب لهم بتاريخ الثالث والعشرين من محرم عام خمسين وخمسمائة .

وفي سنة خمسين وخمسمائة

بعث عبد المؤمن إلى إشبيلية وقرطبة والبين وكانا دون أمير من الموحدين في هذه المدة التي أوقع فيها بابن يومور دون من يدافع عليهما .

ذكر ولاية أبي محمد عبد الله بن أبي حفص بن علي على اشبيلية وأبي زيد عبد الرحمن بن يخيت قرطبة

كان وصولهما إلى الأندلس في هذه السنة المؤرخة فأقام أبو محمد بإشبيلية ونهض أبو زيد إلى قرطبة فعندما وصل إليها خرج مع الموحدين إلى حصن البطروج[65] وما يليه من الحصون التي فيها النصارى دمرهم الله تعالى وفتح الله به عليهم بهزائم شتى وصحبه النصر على ما يراد ويتأتى وهزم القمط اللعين صاحب بطروج ثم تغلب على الحصن المذكور بعد ذلك وأخذ فيه القمط المذكور وبعث به إلى مراكش

---

(62) بالأصل « اتحرة » فزعم هويسي أنها محرفة عن « الحضرة » واعتمدناه .

(63) زيادة من م .

(64) هي Evora من البرتغال . وتقدم ذكرها في الصفحة44 .

(65) في م : البطروجي . وهذا كما في الاسبانية : Pedroche .

ولما وصل هذا الفتح والنجح إلى أبي محمد بن أبي حفص باشبيلية أمر بضرب الطبول عليه سروراً بذلك ودخل أهل اشبيلية عليه مهنين فتكلم له أحد أشياخ إشبيلية بعد السلام عليه وقال له لم تجر العادة بضرب الطبول باشبيلية على فتوح أهل قرطبة فتغير لون أبي محمد المذكور وفهم ما أشار إليه فنظر في الأحشاد ونصب الأجناد وتفاوض في أمره مع أبي إسحٰق براز[66] صاحب المخزن فيما عزم عليه من الجهاد فصوب مراده وقوى اجتهاده وكتب إلى صاحب بطليوس يعلمه بما في نفسه وأمره بجمع أجناد الثغر الذي إليه وأن يكونوا على استعداد وعلى وعد صحيح بالمرصاد وخرج أبو محمد المذكور بعسكر وافر والتف[67] بالعسكر المذكور من أهل اشبيلية وأقطارها قوم كثير من المجاهدين المحتسبين إلى أن وصل بطليوس فاتفق رأي الجميع على غزو جهة من جهات ابن الرنك أهلكه الله وعزموا على ذلك فلما أجازوا قنطرة السيف[68] أسروا إلى حصن اطرونكس وكان حديث الإسكان للنصارى والبنيان فأغاروا على جهاته وجنباته وامتلأت أيدي المسلمين من نسائهم وأبنائهم ومواشيهم وأباحوا السيف في رقاب رجالهم وتقبضـوا على جميع أموالهم ثم إنهم وصلوا إلى الحصن المذكور فقاتلوه ساعة من النهار وتغلبوا على الكفرة الفجار وقتلوا جميع الرجال وسبوا النساء ونهبوا الأموال واتصل الخبر بالنصارى المجاورين لهم فاحتشدوا وجاؤ وا مسرعين راغبين لنصر وغوث أبنائهم وصلبانهم فلما تراءى الجمعان أكثر المسلمون من الصبر وتلاوة القرآن فانهزم الكفار وولوا الأدبار مستصحبين الخسار والدمار . فترادفت الغنائم وفعل الله للمسلمين خيراً من جزيل المغانم . ثم رجع أبو محمد إلى إشبيلية بنفسه وقسم عسكره والخمس من الفيء المذكور . وخاطب الحضرة بصورة الفتح وخاطب ابن يخيت من قرطبة لما اتفق من الفتح ثم توالى غزو ابن يخيت من قرطبة لبعض الحصون ونازلها وتغلب عليها منها حصن منتور وحصن المدور وغيرهما وخاطب الحضرة بجميع هذا الفتح مفسراً مبشراً فنفذ الأمر العالي لأبي محمد بن أبي حفص والي إشبيلية وإلى أبي زيد عبد الرحمن بن يخيت بالمشي إلى الحضرة وزيارتها ، فمشيا[69] ، ولما وصل الواليان المذكوران من قرطبة واشبيلية إلى الحضرة

---

(66)في م : ابن براز .

(67) في طـ : والتفت .

(68)وهي كما في الإسبانية : Alc'antra المقامة على وادي التاجه : أما حصن اطرونكس فهو Trancos (عن هويسى) .

(69) في طـ : فمشى ، وهو تصحيف .

بايعا خليفتهما وعرفاه بما فتح الله لهما بيمن نظره وجد عسكره وبرعاية أحوال الأندلس ودعاء أهلها له بالتأييد على نصره المديد. واتصل توحيد أهل اغرناطة وفتحها فتوالت على الحضرة البشائر ورغبا من الحضرة أن يشرفهما بسيد يصل معهما إلى إشبيلية وقرطبة يستندان إليه ويحترمان به وحضر أبو بكر بن الجد فرغب مثلهما وصرح في رغبته باسم السيد أبي يعقوب فقبل رغبتهم وبعثه معهم بعسكر منصور مع جملة من أبناء الموحدين أولي النجابة والظهور .

اختصار الخبر بفتح اغرناطة وأخذها من اللمتونيين وتمكين ابن يدر منها للموحدين وولايتها السيد أبا سعيد ابن أمير المؤمنين

ولما اتصل خبر هذه الفتوح المذكورة بميمون بن يدر اللمتوني الوالي على اغرناطة وصح عند اللمتونيين الذين بها [ما][70] ذكرته جزعوا من انفرادهم وقلة أعدادهم فخاطبوا الحضرة راغبين في الصلح وأن يعفا عنهم فقبل منهم وأمر عبد الله ابن سليمان صاحب الأسطول بسبتة وأبا سعيد بن أمير المؤمنين بها أن يكون جوابهم ، فأجاز البحر إلى الجزيرة الخضراء ونهض منها إلى غرناطة المذكورة فتلقاه ميمون بن يدر المذكور وإخوته الملثمون بأوفى بر واكرام وأحفى بشر واهتمام ، وقال : ادخلوها بتحية وسلام، وخرج الجميع من الملثمين راجعين مع أبي محمد المذكور إلى العدوة آمنين في نفوسهم وأهلم وأموالهم وبنيهم ووصلوا في صحبته إلى الحضرة وأنجز لهم ما وعدوا به من الخيرات والإسكان في الديار والآمال[71] في الاستقرار وكتب أمير المؤمنين إلى ابنه أبي سعيد بالإجازة إلى الأندلس وباضافة ولاية غرناطة إلى ما بيده من عمل سبتة . فأجاز البحر بجمع من الموحدين والجند المسترزقين فوصل إليها وملكها وبادر إليه من سعد من الثوار المجاورين لها كأبي مروان بن سعيد وبنيه وكأبي جعفر بن ملحان وغيرهم ولما استقر السيد الأسنى بغرناطة بعث عسكره إلى المرية[72] وليتطلع أحوال النصارى[72] فنهض العسكر وكمن على مقربة منها إلى نصف النهار ثم خرج وأغاروا على باب المرية وقتلوا من النصارى عدداً كثيراً ورجعوا من غارتهم إلى

---

(70) زيادة في م .

(71) في ط : والأموال وهو تصحيف .

(72) بياض بالأصل .

حصن برجة(73) فبادر أهل الحصن للقاء الموحدين وقالوا لهم إن النصارى بقصبة المرية في عدد قليل فنزلوا برجة وخاطبوا السيد بأغرناطة بمقالة أهل برجة ونصحهم فاحتفل السيد في الأحشاد وجمع الأجناد ونهض أهل غرناطة فوصل المرية ونازلها ونصب المجانيق عليها فاستغاث الكفرة الذين في القصبة بغويهم اذفونش فوصلهم بعسكره الذميم ووصل معه حليفه ابن مردنيش معيناً له . فلم يجدوا سبيلاً للقصبة ولا للدخول عليهم . فنزلوا على بعد وعلى حال خزي لا يقدر لهم على شيء . وكان في جملة عسكر الموحدين أحمد بن ملحان الثائر بوادي آش مع من وصل من الثوار المجاورين لغرناطة معيناً برجاله وفرسانه فجرى بينه وبين أبي محمد بن سليمان منازعة فأنف من ذلك وارتد إلى ابن مردنيش وإلى اذفونش ولحق بعسكرهما ولما عجز اذفونش وابن مردنيش عن نصر النصارى أقلعا وافترقا ولم يجتمعا أبداً ولا ارتفقا ورجع اذفونش خاسراً فعظم عليه الأمر ومات في السنة المؤرخة وخاطب السيد أبو سعيد أباه بذلك فأمر أن يتوجه أبو جعفر الوزير صحبة السيد أبي يعقوب يوسف ابن الخليفة إلى الأندلس ، ويسير إلى المرية ، وينزل النصارى من قصبتها على الأمان فكان ذلك وإذا كمل هذا يرجع أبو جعفر مع السيد أبي يعقوب إلى إشبيلية .

ذكر ولاية السيد أبي يعقوب يوسف
ابن عبد المؤمن مدينة إشبيلية وأنظارها أعادها الله

لما وصل أشياخ اشبيلية إلى الحضرة العلية في سنة إحدى وخمسين وخمسمائة رغبوا في سيد يرجع معهم إليها ويستندون إليه في مصالحها وصرح ابن الجد بطلب السيد أبي يعقوب فقال لهم عبد المؤمن أنه صغير فقالوا بل هو كبير فاسعفهم في ذلك وبعثه معهم أميراً فلما وصل إلى أشبيلية بد أولاً بغزو طبيرة(74)والثائر فيها علي الوهيبي فحصرها في البر والبحر وذلك لما رجع الوزير ابن عطية من مدينة المرية وأنزل النصارى من قصبتها على الأمان فخرج مع السيد أبي يعقوب بعسكر الموحدين فنازلوا طبيرة وعلي الوهيبي بداخلها فأقام الموحدون عليها شهرين من أول عام اثنين وخمسين وخمسمائة وكان ابن عطية وصله خبر المطالبة له في مجلس عبد المؤمن ، فتقلق للانصراف إلى الحضرة حين بلغه الوقوع في جانبه هناك ، فرأى

---

(73) هو حصن : Berja .

(74) هي Tavira في جنوب البرتغال .

الرأي في المصالحة والقنوع من الوهيبي المذكور باللفظ في الخطبة فصولح على اختياره وقنع منه بإقراره . وعند ذلك أقلع السيد بعسكره منصرفاً إلى إشبيلية بعد ما استولى على بلاد ابن وزير وقدم على شلب وبلاد الغرب يعقوب بن جبون الهزرجي[75] والحفاظ المتوجهون معه من الموحدين فكمل القبض من بلاد ابن وزير والعزل بأبدع تدبير وفي هذه الحركة خرج تاشفين اللمتوني من مرتلة[76] وضمن له عن الأمر بصناعه[77] فملكها الموحدون وكان تملكها وصرف تاشفين [78]يوم الخميس الثامن عشر من جمادى الأولى من سنة اثنين وخمسين المذكورة وهذه البلدة أعني مرتلة أول مدينة خرج عنها الملثمون وآخر[79] بلدة ثار فيها المرتدون على الموحدين وكان لما وصل السيد إلى طبيرة ونازلها وفد عليه أشياخ بلاد بني وزير وفي جملتهم الشاعر الأديب أبو بكر بن منخل فقال يمدحه ويتغزل في قصيدة طويلة أولها :

أقدك أم غصن من البان أهيف ... ولحظك أم سيف من الهند مرهف

ومنها :

فقالوا : أغزو؟ قلت : لا شك أنه ... فقالوا: فمن يغزو العدى؟ قلت : يوسف
سليل أمير المؤمنين وكفه ... وصارمه العضب الذي يتخوف

ذكر نكبة الوزير الكاتب أبي جعفر أحمد ابن عطية ومقتله رحمه الله تعالى ونبذ من آثاره ولمع من أخباره

أخبرنا أبو عبد الله محمد بن عبد الملك قال : كان أبو جعفر لما غاب هذه الغيبة تمكن أعداؤه منه وقالوا ما شاءوه عنه من قبيح المطالبة وصريح المكاتبة فلما وصل الحضرة وجد حاله قد تغيرت والمطالب في جانبه قد أثرت وعبد السلام الكومي قد استكفا بالحال وانتضى سيفه لمطالبته بأعظم نضال فلما كان بعد أيام من وصوله جمع الناس في الجامع الذي بجنب دار الحجر وسئلوا عن ابن عطية

(75) : في ت : الخزرجيّ وهو تصحيف لا محالة .

(76) هي Mertola البرتغالية .

(77) بياض وكلمة (بصناعه) في وسط البياض لا توجد الا في م .

(78) بياض ولعله مكان عنها او عن ولايتها .

(79) في ط : واخذ ، وهو تصحيف .

وأحواله وهو حاضر قد أزال عمامته بالأمر عن رأسه، وبقي حاسراً بعد التعميم خاملاً بعد التقدم في الأمر الكريم دهشاً في نفسه مكدراً في حسه وجميع أشياخ الموحدين والطلبة وأهل الأندلس حضور، فقال ابن عمر للحاضرين: يقول لكم سيدنا من أعطى منكم شيئاً لابن عطية أو صانعه أو علم منه شيئاً من قبيح فليقله فقال كل إنسان بحسب دينه وعقله حتى وصل السؤال إلى ابن وزير فقال أعطاني فوق ما أعطيته أضعافاً وسيدنا رضي الله عنه لو جعل بينه وبين عبيده وأجناده وعماله ورعيته عبداً حبشياً يوصل له عنا كلامنا ومسائلنا لعظمناه وأملناه وهاديناه(80) . ويااليته لو رضي إلينا بالقبول فاستحسن الخليفة كلام ابن وزير وكان كلامه سبباً لرفع السؤال عنه في هذا المجلس فخرج ابن عطية إلى الموضع الذي أمر باعتقاله به فكان آخر العهد به وذلك في سنة اثنين وخمسين المذكورة . ثم بعد هذا المجلس أنفذ فيه وفي أخيه حكم الله تعالى فأخرجا من سجنهما وحملا إلى جبل [درن](81) وقتلا بموضع تاجموت قرب الملاحة وذلك في التاسع والعشرين لصفر من سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة وندم أمير المؤمنين بعد ذلك على قتله وبكى عليه بالدموع وذكر الرواة الثقات أنه لم يبلغ مبلغ ابن عطية أحد من الكتاب ولا الوزراء المتقدمين في جده ومجده وكتابته وفصاحته ونصحه وخدمته وسلوكه طرق المكارم واجتنابه للمحارم والتذاذه بقضاء المسائل وتلطفه في توصيل الرغباء من مضطر وسائل وإحسانه بالتلطف للوفود(82) والجنود لكن الدهر العثر(82) فَوَّقَ سهام الحسد بالمنايا إليه فغدره (83)من أحسن إليه ولم يرع الفضل الذي(84) بالبهتان ونبذوا ما كان له عليهم من الإحسان ونسبوا إليه كشف السر وصحبة أعداء الأمير(85) وأعظمهم له مطالبة مروان بن عبد العزيز الذي كان ثائراً ببلنسية على حسن ما سعى له ابن عطية حتى خلصه من سجن ميورقة فكان هو في هذا المجلس أكبر أعدائه وسبباً في موته وفنائه فإنه قال فيه شعراً رماه في المجلس يحرض فيه على قتله والإيقاع به وهو :

---

(80) في ط : واملنا وهديناه ، وهو تصحيف .

(81) زيادة في م .

(82) بياض في الموضعين .

(83) في ط : فقدره .

(84) بياض في ت ، ومحله في م : بره .

(85) في م : الامر ، والاول اوضح .

قــل لــلإمــام أدام الله مــدتــه قــولا تبين لـذي لب حقــائقــه
إن الــزراجين قــوم قد وتــرتهم وطـالب الثـأر لم تؤمن بــوائقـه
ولـلوزيــر إلـى آرائـهـم مــيــل لـذاك مـا كثـرت فيهم عـلائقــه
فبـادر الحـزمْ في إطفـاء نـورهم فـربمـا عــاق عن أمـر عــوائقـه
الله يـعـلم أنـي نــاصــح لـكـم والحق أبلج لا تخفى طــرائقــه
هــم العــدو ومـن والاهم كـهـم فاحذر عدوك واحذر من يصـادقه

وكان هذا من أكبر الطالبين له غدراً ومكراً قال محمد بن عبد الملك حدثني القاضي أبو العباس ابن الصقر بحضرة مراكش قال كان الناس يزورون ابن عطية لمعنى المنفعة [به][86] فينفعهم ولم يطلبوا له . وكنت ممن يختص به فكتبت له أبياتاً فيها مخادعة الزائرين منها :

وعــاملوك بــزورات مــزورة فالود في الصدر لا في المشي بالقدم

ويرحم الله أبا الحسن المسعودي حيث قال لو لم يكن لأبي العتاهية إلا هذه الأبيات التي أبان[87] فيها عن صدق الأخوة والوفاء لكان مبرزاً على غيره ممن كان في عصره وهي :

إن أخاك الصدق من يسعى معك ومـن يضـر نـفســه لـيـنـفـعــك
ومن إذا ريب زمــان صــدعــك شتت شمــل نفســه ليجمـعــك

قال وهذا في زماننا معدوم ومستحيل وجوده ومتعذر[88] كونه فكيف بزماننا اليوم وحكى أبو عبد الله بن داودوش قال : سئل أبو العباس الجراوي عن الوزير الكاتب أبي جعفر بن عطية فقال : كان من الخليفة بحيث علم من الاختصاص ولطف المحل فتذاكرنا سبب الإيقاع به فقال اختلف الناس في ذلك والأشهر أنه خرج بسر أوثر به ، فحبس مدة ثم دفع إلى رجل من كومية يعرف بيوسف بن عبد المؤمن فحمله مع أخيه إلى موضع يعرف بتينيسكت من طريق تينمل فقتلهما بذلك الموضع بأشياء غير محصلة ثم أخبرني أنه كتب قبل قتله إلى الخليفة وهو محبوس كتباً يتضمن نظماً ونثراً ودفعه

---

(86) « به » مثبتة في م ساقطة من غيرها .
(87) بالاصل « أمال » باللام ولا معنى له .
(88) بالاصل « معتذر » ولا معنى له

إلى المقرب عبد السلام فأمسك الكتب عند نفسه ولم يدفعه إلى الخليفة بغياً منه عليه حتى جرى القدر بما جرى والنظم هذا :

عطفا علي أمير المؤمنين فقد ... بان العزاء لفرط البث والحزن
قد أغرقتنا ذنوب كلها لجج ... ورحمة منكمُ أنجى من السفن
وصادفتنا سهام الدهر في غرض ... وعطفة منكم أوقى من الجنن
هيهات للخطب أن تسطو حوادثه ... بمن أجارتْه رحماكم[89] من المحن
فالثوب يطهر بعد الغسل من درن ... والطرف ينهض بعد الركض في سنن
أنتم بذلتم حياة الخلق كلهم ... من دون مَنٍّ عليهم لا ولا ثمن
وصبية كفراخ الورق من صغر ... لم يألفوا النوح في فرع ولا فنن
قد أوجدتهم أياد منك سابقة[90] ... والكل لولاك لم يوجد ولم يكن

والنثر منها: تالله لو أحاطت بي كل خطيئة ولم تنفك نفسي عن الخيرات بطيئة حتى سحرت من بالوجود وأنفت لآدم من السجود وأبرمت لحطب نار الخليل حبلاً وبَرَيْتُ لِقُدَارِ ثمود نبلاً وحططت عن يونس شجرة اليقطين وأوقدت مع هامان على الطين وافتريت على العذراء البتول وقذفتها وقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها وكتبت صحيفة القطيعة بدار الندوة ، وظاهرت الأحزاب من العدوة ثم جئت بطوله وحلمه لايذا[91] ، وبه رضي الله عنه عائذاً لقد آن لمقالتي أن تسمع وتغفر لي هذه الخطيئات أجمع .

فعفوا أمير المؤمنين فمن لنا ... بحمل قلوب هدها الخفقان

---

(89) كذا في م وفي غيرها بالزاي ولا معنى له . وسقط بعده بيت مذكور في الإحاطة وغيرها ، وهو :

من جاء عندكم يسعى على ثقة ... بنصره لم يخف بطشاً من الزمن

وبعد تاله :

ونحن من بعض مَنْ أحيث مكارمكم ... كلتا الحياتين من نفس ومن بدن

(90) لعلها : سابغة .

(91) في ت « لائذا » بالهمزة وهو متناسب مع « عائذا » والا فينبغي أن يترك الهمز في هذه للمناسبة كذلك ، والغالب أن ذلك كذلك ، لأننا نتجنب هذا الهمز ما استطعنا انطلاقاً من قراءتنا القرآنية كما في « الأرض » .

وفي سنة اثنين وخمسون وخمسمائة

كانت وقعة زغبولة على مقربة من إشبيلية على السيد أبي يعقوب يوسف بن الخليفة وذلك أن النصارى أهلكهم الله غنموا نظر إشبيلية فأمر السيد أبو يعقوب بوصول ميمون بن حمدون الوالي على شلب والبلاد التي كانت بيد ابن وزير ويستعجل بعسكر الغرب فوصل إليه فاستعجل السيد إلى حربهم ومقارعتهم وبرز إليهم بعسكر إشبيلية فلقي النصارى بحصن زغبولة(92) فدارت الحرب بين الكفرة والمسلمين فمال الناس وأجفلوا عن مواقفهم وانهزموا عن السيد بجمعهم واستشهد في المعركة ابن عزون ومحمد بن علي [بن](93) الحجام وجملة من أشياخ الموحدين واستشهد الحافظ ميمون صاحب الغرب واستخلص أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن بدليل من الأدلة أخرجه من الملحمة في الغبار وطار به أي مطار وفر ابن وزير بجواد معار من أحد قراباته وأسر من عامة إشبيلية بشر كثير وذلك في ربيع الأول من السنة فوصل الخبر إلى عبد المؤمن فنظر في استجلاب العرب وحماية الجزيرة من الحرب والنوب .

وفي سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة

تحرك أبو محمد عبد المؤمن من حضرة مراكش في أول شوال من هذه السنة المؤرخة إلى رباط الفتح المسمى بالمهدية عدوة سلا وكان قد استوزر بعد ابن عطية عبد السلام بن محمد الكومي واستكتب عبد الملك ابن عياش القرطبى فأمر بالكتب إلى قبائل الموحدين بالنفر للجهاد والاستعداد(94) في الزاد وأمر أهل(95) البلاد البحرية بإنشاء الأساطيل والأجفان لحمل جميع(96) وأمنيته من ذلك وسالت العساكر تابعة(97) . الموحدين وسائر(98)العساكر بالإنعام وأسبل عليهم ملاءات العطاء التام واستخلف

---

(92) (كذا) بالاصل ، وعلق على هذه « هوسي فيرندا » بانه غير معروف وتقدم آنفاً .

(93) سقطت من م .

(94) في ت « واستعداد » والصواب ما أثبتنا من م .

(95) في م . و ت . لأهل .

(96) بياض في ت بمقدار نصف سطر .

(97) بياض في الاصل بمقدار ثلثي سطر .

(98) في ت « وسار » والصواب ما أثبتنا من م .

مكانه على بسائط العدوة الشيخ [المذكور][99] المرحوم أبا حفص عمر بن يحيى ليتطلع أمر البلاد الغربية ونظر في الحركة إلى أفريقية برسم منازلة المهدية في سنة أربع وخمسين وخمسمائة حسبما أذكره إن شاء الله تعالى .

ذكر حركة أمير المؤمنين أبي محمد عبد المؤمن إلى بلاد أفريقية ومنازلته مدينة المهدية وتملكها

لما استوفت العساكر من سائر البلاد برسم الجهاد استخلف أبا حفص كما ذكرنا واستخلف يوسف بن سليمان على مدينة فاس وأنظارها وأمر بحضرة مراكش ابنه أبا الحسن علي وأمر بإشبيلية ابنه السيد الأسنى أبا يعقوب على أول ولايته لها. وترك عبد الله ابن أبي حفص بإشبيلية وترك ابن يخيت بقرطبة وأمر بغرناطة ابنه السيد أبا عثمان فلما تحقق كمال بغيته وأمنيته تحرك من موضع معسكره بمدينة سلا فكان خروجه منها في العاشر من شهر صفر من عام أربعة وخمسين وخمسمائة فاستصحب السير والنصر أمامه والظفر ملازم أعلامه حتى وصل مدينة المهدية مقر النصارى من أهل صقلية ونازلها وتلاحق الأسطول إليه فيها بالآلات والمجانيق والعدد وغيرها وحضر الفعلة لها ، فأمر لها بقتال الكفرة ورماهم بالحجارة نهاراً وليلاً وأرسل عليهم من سحائب السهام وابلاً وأسال عليهم المنايا من كل جانب سيلاً ودام حصاره لهذه المدينة المنيعة في المعاقل الرفيعة فدام حصار الموحدين لها سبعة أشهر حتى يسر الله فتحها على صلح من النصارى وطلبوا الخروج بأمان إلى بلادهم فمن عليهم بمرادهم وأخرجهم منها وطهر الله بها صقع أفريقية والزاب وتخلد له عنده جزيل الأجر والثواب وفي أثناء هذا ظهر من العرب بني سليم القائمين بتعديهم على مدينة قابس ما أوجب استدعاءهم واستدناءهم فخاطبهم أبو محمد عبد المؤمن بشعر طويل من قول القاضي ابن عمران يستدعيهم فيه ويستدنيهم فمنه هذا :

اسليم دعــوة ذي اخـاء مــرشـد	هــاد الى الحق المبين المسعـد
ومـذكـر مــا كـان أســلاف لكم	فضلوا بــه أفعــال كــل مســدد
بجهــاد أعـداء الإلــه ونصـرهـم	لــرســول ربهم النبي محمــد
وتـعــرفــوا أنــا عليـكم صبـر	حتى يعـود جـواب هـذا المنشـد

(99) سقطت من م .

وكتب أيضاً شعراً ثانياً من قول ابن طفيل معيداً عليهم بالاستدعاء وتوجهت هذه الأشعار إلى شيوخ العرب إلى جميع أفريقية وصبر عليهم في رد جوابهم على هذا النظم وقد كانوا تغلبوا على مدينة قابس فجرد إليهم عسكراً وأقام هو على مدينة المهدية فلم تكن إلا أيام ووصل الفتح بهزيمتهم وبقتلهم[100] . . . . . . يوسف الوالي على إشبيلية يعرفه بالهزيمة المذكورة ويشرح له أمرها المذكورة[101] فقال في نص كتابه أعزكم الله وجعلنا وإياكم من الشاكرين لنعماه إن من الواجب المحتم والمفرض الحزم[102] على من لزمه شكر النعم لمسديها أن يقرر أولاً النعمة بكمالها ويعمر خاطره[103] بتفصيل إجمالها ويحضر في ذهنه بهجة جمالها حتى يفيض على باطنه[104] نور إشراقها ويهمي ببادع مقوله هاطل غيداقها وتتبارى له نفحات الشكر في ميدان استياقها وهو الفتح الذي برز في الإعجاز والإغراب وأضحى نسيج وحده في الأشباه والأتراب يتأكد بمحله وجوب الاعتبار . ولا يزال موقعه يعظم بزيادة الاستيضاح والاختبار . وهي طويلة نظماً ونثراً أضربنا عنها للاختصار ولما وصل هذا الكتاب انشرحت صدور الموحدين وتحققوا نصر الله بأوفى اليقين وقرىءعلى المنابر وتكررت المسارُّ في الرعايا والعشائر .

وفي سنة أربع وخمسين وخمسمائة

خرج محمد بن مردنيش من مدينة مرسية بعسكره مع أصحابه النصارى وبجمعه . المفسد منتهزاً الفرصة في ظنه ،ومتخيلاً بما أفسدته الخمر من ذهنه ، أنه بمغيب أمير المؤمنين يتغلب على الموحدين حتى نزل مدينة جيان وفيها محمد بن علي الكومي فصادف عنده من النكث للبيعة قبولاً لمراده واعجله الشوم في رأيه بارتداده فظن ابن مردنيش أن ساير الموحدين [يجد][105]عندها وعند أهلها ما وجد عند الكومي المذكور من العناد والفساد فوصل قرطبة ونازلها ودمر زرعها وعفى ربعها وكان بها أبو زيد ابن

---

(100) بياض في الأصل بمقدار سطر .

(101) كذا بالأصل وهو غير واضح .

(102) كذا ورد « والمفرض الحزم » ولعله « والمفروض المقدم » ونحوه .

(103) كما في م ، وفي ت : خاطرها وهذا تحريف .

(104) كذلك ، وفي ت ، حتى على بطنه ، وهو تصحيف مشوه .

(105) ساقط من م .

يخيت والياً عليها فدافعه مدافعة الأبطال وأهل الوفاء في كل حال ودام حصاره إلى أن اجتمع القاضي أحمد بن إدريس مع أبي زيد المذكور وتحيلا بحيلة من حيل الحرب على لسان ابن وزير من إشبيلية الى ابن مردنيش وهو يقول له: عَجِّلْ بالاقلاع عن قرطبة[106] وسر الى اشبيلية وأنا ضامن لك دخولها، فحين قرأ الكتاب أمر بالإقلاع والإسراع فوصل ابن مردنيش بجمعه إليها ونزل على ميل منها فبقي عليها ولم يسر شيئاً من أمر الكتاب فعلم أنها خدعة فأقلع خاسراً عنها ولقيت إشبيلية عظيم الخطب وعميم الرعب وحل بأهلها كرب وحرب وضبطها السيد أبو يعقوب بحزمه وجده وبمن كان معه من الموحدين وأشياخ إشبيلية وأعيانها المخلصين يسمرون طول ليلهم على الأسوار ويقفون بأبواب المدينة طول النهار ويتعوذ الجار من [شر][107] الجار وساء ظن الموحدين بالناس فسجن منهم من اتهم وأمضى السيف على من صح عنه أنه غش الأمر[108] وأجرم وسلم من لازم الطاعة واستسلم وتمادى ذلك كله حتى ورد الكتب المبشر بالفتح المؤرخ بالثاني من ذي الحجة من السنة المذكورة من ظاهر المهدية .

وفي سنة خمس وخمسين وخمسمائة

فتح الله تعالى مدينة المهدية ونزل النصارى عنها وملكها المسلمون فجلس عبد المؤمن مجلس التهنئة والشكر لله على ذلك وأمر بالكتب بوصف الفتوح والجذل الممنوح شرح فيه . . .[109]

ولما قضينا بالمشارق أمرنا ... وتمَّ مرادُ الله في كل مطلب[110]
وأشرقت الشمس المنيرة فوقنا ... وأصبح وجه الحق غير محجب
وطهر هذا الصقع من كل كافر ... وعاد به الإسلام بعد تقلب
وكسرت الصلبان في كل بيعة ... ونادى منادي الحق في كل مرقب
أشرنا[111] بأعناق المطي إليكم ... فطار بها شأو السرور بمغرب

(106) في م « من » .
(107) ساقط من م ، وفي ت « البحار من البحار » وهو تحريف .
(108) كذا بالاصل ولعله « الأمير » .
(109) بياض بمقدار ثلاثة اسطر .
(110) هذا البيت ضمن ما احتواه البياض ، واستدركناه من المن بالامامة .
(111) بالأصل « أخبرنا » والمطلع مع هذا ناظر الى قول يزيد بن الطثرية أو كثير عزة :
ولما قضينا من منى كل حاجة ... ومسح بالاركان من هو ماسح =

فـابشـر أبـا حفص بنصـر مؤزر   كفيـل بما تبغيـه في كل مـذهب
ولا بـد من يـوم أغـر محجـل   يسيل دماء الكفـر في كل مـذنب
وتشفي صـدور المؤمنين بغـزوة   تكون على حكم الحسام المذرب
ويغـزو بلاد الـروم جيش عرمـرم   تُخيِّـر[112] من قيس وأبناء يعـرب
يصول به من عصبة الحق معشر   بجملة مـا يلقاه خيـر مجـرب
فيَدمَغُ[113] بالصمصام كل مجاهر   ويقـطع بـالبـرهـان كـل مشغب
فـطوبى لأهل الغـرب ماذا يـرونه   من النصر والفتح المبين المقرب

فأمر السيد أبو يعقوب أن يكتبها الطلبة بإشبيلية ويحفظونها وذكر لهم أنها من إنشاء أبيه فامتثل الناس ذلك وأمر السيد بقرع الطبول على هذه المسار التي[114] استلذت بها النفوس وكان قرع الطبول مع الإطعام متصلاً ، واليسر مستمراً مشتملاً والشعراء ينشدون أشعارهم بالتهاني ويتمنون الثلج[115] بصحيح الأماني فلما وصل السيد من أبيه ما ذكرته من المسرات جاوبه على كتابه بما يوجب الحال من التهنئة والدعاء والتأميل وطلب منه إغاثته[116] الأندلس وجاوبه أيضاً بشعر على معنى الواصل إليه ذكر أنه من قول أبي العباس بن سيد المالقي يذكر فيه حال الفتنة وأحوال ابن مردنيش وغيره فقال من قصيدة أولها :

هـو الأمـر أمـر الله لـيس لـه رد   يـؤيـده أيـد ويـسـمـو بـه حـد
وقـد وضـحـت آيـاتـه وأنـاتـه   وقـد أفحمت رغماً بـه[117] ألْسُنٌ لد
ومـا اشتبهت مـذ حم إلا لـزائـغ   عـقيـدتـه كـفـر وإقـراره جحـد
فمن يبـغ فيهـا الغي بعـد اجتلائـه   فـإن حسـام الهنـد فيـه لـه رشـد
وهذي رماح ريحها[118] عصفت بهم   فصاروا كعاد حين جللها الرمد[119]

= أخـذنـا بـاطـراف الأحـاديث بيـنـنـا   وسـالـت بـأعنـاق الـمـطي الأبـاطـح

(112) بالاصل « بخيل » وهو تحريف .

(113) بالاصل « فيدفع » والصواب ما اثبتناه من المصدر المذكور .

(114) في م : الذي وهو تحريف لا يناسب « المسار » جمع مسرة .

(115) الثلج : اطمئنان النفوس .

(116) في م اغاثة .

(117) كذا في م ، وفي ط زعمائه ، وهو تصحيف .

(118) في م ، ريح ، وفي الأصل « ريحه » ولا يستقيم الا بما أصلحناه .

(119) كذا بالأصل« حللها الرفد » ، والرمد : الهلال ؛ والذي أصاب عاداً هو رماد رمدد .

ولم ينجهم حصن حصين إذ انزووا ... ولم يغنهم ذاك العديد ولا العد
ولم يجدوا النصر العتيد بزعمهم ... من اللات بل ردوا حديثاً كما رد[120]
وكانت سبيل الرشد واضحة لهم ... فما منهم فيها رَسِيم ولا وخد
ولا سلكوا فيها سلوك تعذر ... ولا انتضحت فيها الشكايم واللبّد
ولكنهم مالوا إلى الكفر ميلة ... فصالت بهم منكم يَدٌ ولَهَا الأيد[121]
إليكم أمير المؤمنين توجهت ... بنا الرغبات الجم يحثُّها جهد
لعل عيانا منكم لعبيدكم ... وقربا لكم منهم يدال به البعد
فقد عضهم ناب من الكفر منغص[122] ... ودانوا لكم دهراً وأنيابه درد
بكم يعصم الله العلي جميعهم ... بكُمْ تعظم الآمال بل يكثر الرفد
بكم يعتلي الإسلام شرقا ومغربا ... فلله فيها دائباً ولك الحمد

ونهض الرقاص بالجواب بهذا الشعر ، وابن مردنيش يلح بالفتنة والضر ويستعين بالنصارى أهل الكفر واشبيلية في مثل الحلقة من الفتن إلى أن سنى الله وصول الجواب من ظاهر قسطنطينة بتاريخ ربيع الأول من العام المؤرخ يعرف به بصحيح الاياب . [وما ثنى فيه من أعنة خيل الله لهذه الاسقاع][123] وحماية ذلك الجواب ويذكر فيه فتح قفصة وركب الرقاص بالجواب من بجاية ، فساعدته الريح وخرج في المرية ووصل اشبيلية في أقرب وقت من تاريخه ، ثم وصل كتاب آخر مبشراً بتمادي السير والانصراف فارتفعت[124] المسار المؤذنة ببسط الأرجاء والأكناف يأمر فيه ببناء مدينة بجبل طارق في التاريخ المذكور فتوجه السيد أبو سعيد من غرناطة بنفسه وعسكره إلى الجبل المذكور ، فنزلوا فيه وابتدأوا البناء في الموضع الذي وقع عليه الوفق والاتفاق من نواحيه فزادت به آمال الأندلس وتحققوا نيل الأمل وايقنوا بالفتح والنجح ببنيان هذا الجبل . وكان من اشتغال[125] السيد أبي يعقوب بإشبيلية يزعج الفعلة والرجال للبناء المذكور ويرتقب وصول الأخبار بقرب والده من هذه الأقطار

(120) كذا ولعلها « أُرْدُوا » من الأرداء .
(121) الشطر الأخير ساقط من مخطوطات البيان ، ومن ط ، وقد أثبتناه من المن بالامامة .
(122) في م « منغص » وهو من انغص ، كنغص بالتضعيف . وفي المن : « معضل » .
(123) سقط ما بين معقوفين من م و ت .
(124) في ت : فارتعدت .
(125) في م ، «من اشتغال » .

فوصله الخبر بالتحقيق من إيابه، والتحقق برجعته وانقلابه وأنه في القرب من أحواز فاس وقد استاق من العرب ما لا يحصى فعزم السيد أن يخرج من إشبيلة إلى التبرك بلقياه فلما كان يوم عزمه وصله الخبر بغدر أصحاب ابن همشك مدينة قرمونة وأن الموحدين الذين فيها احتصنوا بقصبتها فكان باقي ذلك اليوم يوماً عصيباً أحدث هذا الخبر فيه حوادث سوء وخطوباً فامتنع السيد من سفره ورجع إلى مقره ووجه عسكراً إليها وتكدرت الأحوال من حينها .

ذكر أخبار عبد السلام في وزارته
إلى حين الإيقاع به فيها ومنيته

لما خرج عبد المؤمن من مراكش إلى غزوة المهدية في شوال سنة ثلاث وخمسين استوزر هذا عبد السلام الكومي ، فعند وصوله الى تلمسان امر ابنه السيد ابا حفص ان يصحبه في غزاته وكان واليا عليها [فامتثل ذلك ، ولما وصل بجاية كان ابنه السيد أبو محمد عبد الله والياً عليها][126] فتغلب عبد السلام المذكور على جميع الأمور في هذه الغزاة وطالب السادات ونسب اليهم عند أبيهم قبائح الأفعال من الراحات والبطالات وأنهم يشربون الخمر وقرر عنده ذلك وكرر المطالبة لهم هنالك فتأثر الخليفة لقوله وبحث عليهم وبعث شيوخ الموحدين اليهم فدخلوا موضعهم ومجتمعهم دون اذن ولا مشورة فوجدوهم يأكلون الطعام وبين أيديهم مشروب مطبوخ من رُبٍّ حلال[127] فرجعوا اليه وشهدوا بالحال وزوروا كلام كل طالب محتال فتيقن والدهم تحامله عليهم ولم يظهر له شيئا فلما نزل المهدية وأقام عليها المدة المذكورة وخاطبه أهل قابس بالتوحيد بعث عبد السلام المذكور بعسكر من الموحدين مقدما عليهم فأعجلوا السير الى المدينة المذكورة فانهزم من كان في جوانبها من العرب القاطنين بها وقتلوا واستؤصلوا واستبد عبد السلام بجمع الغنائم والاموال وتنفيل ما شاءه من الأنفال فنسب اليه الاحتجان في الأموال والانكار لها والكتمان كما[128] نسب هو لابن عطية[129] الباطل والبهتان وكما تدين تدان ، وفي مدة مغيبه تكلم اشياخ الموحدين في حالة

---

(126) ما بين معقوفين تتمة في م ، وساقط فيما عداها .

(127) في ت « الحلل » وهو تصحيف .

(128) في غير م « لما » .

(129) لعل « من » ساقطة هنا .

واستعلائه عليهم وتقصيره بأولاد أمير المؤمنين ومطالبته لهم بعد تشكيهم بحالهم اليهم فاجتمعوا مع الخليفة ورغبوا ان يكون ابنه أبو حفص يوصل كلامه اليهم فأجابهم الى ذلك واستوزر ابا حفص في ذلك [اليوم فاستبشر الموحدون بذلك][130] فلما استقامت للموحدين الأمور ووصل عبد السلام المذكور وفتح الله المهدية ورحل الموحدون عنها إلى إفريقية وهزم العرب واستاقهم أمير الموحدين معه كان عبد السلام المذكور يماشى على ظاهر من حاله الى أن وصل عبد المؤمن تلمسان فتشكى أهل العدوة بعمال عبد السلام من حملهم على الرعية وظلمهم وتعديهم ومن كومية اخوانه ووصفوهم باحتجان الأموال والجباية في جميع الأعمال وأطنبوا في التشكي والتبكي وأضافوا ذلك كله إلى عبد السلام فأمر عبد المؤمن بجمع المشتكين وحضور أشياخ الموحدين وطلبة الحضر والقاضي لسماع أقوالهم وتبين احوالهم وتشكيهم بما كلفوا من أثقالهم فبينوا أمرهم وقالوا فيه القليل والكثير ووصل كلامهم على ابين التوصيل فتغير عبد المؤمن وتأثر وقال عجبا من هذا الأمر وسعته وقلة ما عندنا من المال على كثرة جمعته . . كانت لمتونة انما يملكون إلى تلمسان هذه وكانوا[131] ينصفون اجنادهم ونحن الآن قد ملكنا ذلك وزائدا وليس عندنا ما نعطي الموحدين هذا من اعجب العجب وكان عبد السلام واقفا يسمعَ كلامه ، فقال له عبد الحق بن وانودين يا أمير المؤمنين ذلك لتضييع المخازن والدين ، فقال له عبد المؤمن ما معنى والدين فكرر عليه الدين مرة بعد مرة فقام أمير المؤمنين من مجلسه ذلك مغضبا فبادر عبد السلام لتقويم نعله[132] فتركهما له ولم يلبسهما ودخل حافيا الى موضعه فلما كان في ظهر ذلك اليوم قبض على عبد السلام وسجن في موضع مجلسه ووصل السادات والموحدون اربهم فيه فلما أقلع عبد المؤمن من تلمسان تركه مسجونا بها فتحيل في قتله بأن أمر السجان فعمل له ثردة مسمومة فأكلها ومات في حينه وكان السبب الذي كثر ادلال عبد السلام الكومي على الأمر، أن كان والد عبد المؤمن تزوج والدة عبد السلام فولدت له ابنة تسمى بنذة[133] فكان يرى لنفسه حقا ولم يعلم أن الملك عقيم وان مسراته هموم .

---

(130) ما بين هلالين وارد في م ، دون غيرها .

(131) كذا في م ، وفي غيرها اقحام « وان » بين هذه وكانوا .

(132) الصواب نعليه بالتثنية ، بدليل ما بعده كما في القرآن « فاخلع نعليك » .

(133) كذا بالاصل معجمة الذال ومهملته، وفي البيدق : فندة بالفاء واهمال الدال .

[رجع الخبر][134] ولما وصل الخبر إلى اشبيلية بغدر قرمونة [135] تكدرت الأحوال بها وببلاد الأندلس الموحدية الى أن وصل الخليفة من افريقية وعبر البحر إليها ، وفي تلك الأيام[136] باشبيلية ورد من قرطبة خبر كاذب ان ابن همشك صهر ابن مردنيش نازل قرطبة ودمر زروعها وان ابا زيد بن يخيت استشهد عليها وذلك ان ابن همشك لما اقلع من منازلتها أكمن بخيله ورجله على[137] مقربة منها فخرج أبو زيد المذكور ليتطلع على تلك الأمور فخرج عليه الكمين فقتل رحمه الله تعالى .

ذكر جواز عبد المؤمن الى الأندلس من سبتة بعد ايابه من غزوة المهدية وفتح افريقية

كان جوازه في شهر ذي القعدة من عام خمسة وخمسين وخمسمائة ليجتمع بالموحدين بالأندلس وبرؤسائها وينظر كيف يكون غزو الروم المحاربين لها فبرز اليه يوم جاز البحر من النظارة عالم لا يحصيهم الا خالقهم وكان يوماً مذكوراً مشهوراً ، وكان السيد ابو يعقوب قد وصل من إشبيلية بجملة أصحابه من الموحدين ومن الرؤساء الأندلسيين ونفر عند مشي هذا السيد من إشبيلية من شيوخها وطلبتها واعيانها وقضاتها[138] ابي بكر الغافقي وابي بكر بن الجد وسائر أهل النباهة باشبيلية من الكبراء والشعراء وكذلك من أهل قرطبة وجميع الأقطار والأنظار التي تحت طاعة الموحدين ووصل هذا الجمع الى الجبل المذكور جبل طارق فأمر الوزير السيد ابو حفص ان يجمع الوفود للسلام فدخلوا وسلموا سلام جماعة وأقروا له بالسمع والطاعة وأذن للشعراء في الانشاد فأوردوا ما نظموه من أفكارهم بمحضر الوارد فقال ابو بكر بن منخل من قصيدة طويلة :

فتحتم بلاد الشرق فاعتمدوا الغربا ... فـان نسيم النصر بـالفتـح قـد هبـا
اصـرتم اليـه الخيـل وهي اجـادل ... فسالت بكم بحراً وطارت بكم شهبا[139]

---

(134) سقط ما بين معقوفين من غير م .

(135) بالأصل « مرقونة » وهو تصحيف .

(136) بياض في الاصل بمقدار ثلاث كلمات .

(137) لقد وقع في ط سقوط « اكمن » و « على » وقبلهما الضمير من « منازلتها » .

(138) بالاصل « قاضيها » والصواب التثنية او الجمع .

(139) في غير ت . « وطالت بم شعبا » ولا يبدو لها معنى . ولا شك أن « بم » تصحيف .

وانشد القرشي المعروف بالطليق قصيدة أولها :

ما للعدى جنة أوقى من الهرب كيف المفر وخيل الله في الطلب
لو بدلوا قَدَمَاً زَلَّتْ بقادمة لأصبح الكل طيارا من الرعب

وانشد ابو عبد الله ابن صاحب الصلاة من قصيدة أولها :

تلألأ من نور الخلافة بارق اضاءت به الآفاق والليل غاسق
واشرقت الدنيا به فكأنها من البشر في كل الجهات مشارق
بسعدك يبري السيف ما عز قطعه وينفذ حد السهم ما هو راتق
ولا زال أمر الله للدين هاديا وانت لدين الكفر ماح وماحق

قال أبو القاسم ابن ابي هارون كنت واحدا من جميع الوفد فأقمنا بجبل طارق نحو عشرين يوما تحت انعام واكرام الى أن عيدنا عيد الأضحى فرتب اموره وجهز عساكره وحصن ما حصن من البلاد الأندلسية وحينئذ اذن للناس بالانصراف الى مواطنهم فانصرفوا .

وفي سنة ست وخمسين وخمسمائة

كان صدور امير المؤمنين من(140) وذلك بعد أن أقام بجبل الفتح وبعث منه عسكرا جراراً إلى بلاد العدو برسم الغزو وتقدم بين يديه وقدم على(140) القبائل ابن الشرقي وعلى الأندلسيين ابن صناديد فوصلوا الى فحص بلقون(141) فوجدوا طاغية الروم قد استعد للقائهم فالتقىٰ معهم فكان بين الفريقين حرب شديد نصرالله فيه المسلمين على اعدائهم الكافرين وكانت هزيمة لم يعهد مثلها وقفلوا إلى الأمير عبد المؤمن فوجدوه قد قفل إلى حضرته لأمور حدثت بعده في حيالها(142) ولم ينفصل من الأندلس حتى مهدها ورفق برعيتها فاستقامت بذلك الأمور للموحدين وقمع الله المعتدين ومن قول ابي العباس الجراوي في ذلك مادحاً لأمير المؤمنين عبد المؤمن :

اعليت دين الواحد القهار بالمشرفية والقنا الخطار

---

(140) بياض بالاصل في السطرين .

(141) علق عليه « هويسي» بانه غير معروف .

(142)في م : جبالها .

ورأى بـك الاسـلام قـرة عينـه ... وغـدت بـك الغـراء دار قـرار
وسلكت من طرق الهداية لاحبا ... طوبى لمن يمشي على الآثار
وجرت معاليكم الى الامد الذي ... بعدت مسافته على الاسفار
وقفت على ما قد اردت سعادة ... وقفت عليها خدمة الاقدار
لا تخلق الأيام جدة ملككم ... ابدا ولا تبلى على الأعصار
لا غرو ان كنت الأخير زمانه ... فالفضل للآصال والاسحار
وافيت اندلسا فأُمِّنَ خائف ... وسما لأخذ الثأر رب الثار
وحللتمُ جبل الهدى فحللتمُ ... منه عقود عزائم الكفار
جبل الهدى والفتح والنصر الذي ... سبقت بشائره الى الأمصار
لو بدلوا اقدامهم بقوادم ... طاروا عن الأوطان كل مطار
لو راء موسى ما فعلت وطارق ... زريا بما لهما من الآثار
اتممت ما قد املوه ففاتهم ... من نصر دين الواحد القهار
بعراب خيل فوقهن اعارب ... من كل مقتحم على الأخطار
اكرم بهن قبائلا إقلالها ... في الحرب يغنيها عن الاكثار
وانظر اذا اصطفت كتائبها الى . ... ما تحمد الكتاب في الأسطار
لو انها نصرت عليا لم ترد ... خيل ابن حرب ساحة الأنبار
هم أظهروه مع النبي وواجب ... ان يتبعوا الاظهار بالاظهار
ملك الملوك لقد انفت الى العلى ... ونظرت من فوق الى الأقدار
انت السبيل الى النجاة فكلنا ... لولاك كان على شفير هار
وجريت في نصر الاله الى مدى ... يكبو وراءك فيه كل مجار
قد ضاق ذرع الكفر منك واهله ... بموفق الايراد والاصدار
متأهب للأمر قبل أوانه ... مطلع على[143] رار
متحمل اعباء كل عظيمة ... [144] بالنفع والاضرار
مليت به الدنيا صفاء بعدما ... مليت من الأقذار[145] والاكدار
الخليفة المهدي دمت مؤيدا ... بالله منتقما من الكفار

---

(143) الكلمتان واردتان في م ولعل أولاهما « متطلع »، ثمّ بياض .

(144) بياض لعل محله « متكفل » كما سيأتي له في اخرى « متكفل بالنقض والابرام » .

(145) في ت الاقداء ، وفي غيرها الاقدار ، والصواب الاعجام ، فيهما .

ترمي شياطين الأعادي في الوغى ... بـرجـوم خيـل من سمـاء غبـار
روعـت كـل مـروع وحفظت كـ ... ـل مضيـع وحميت كـل ذمـار

ومن قوله أيضاً رحمه الله يمدحه ويذكر افريقية حين كان بها على المهدية :

كـانت محـل أنـاس قبلنـا فخلوا ... عنهـا وآثـارهم فيهـا مقيمـاتُ
تـالله لـو علمت مقـدار وارثهـا ... هبت اليـك ربـاهـا والقـرارات
قـالوا العـطيات احيـاها فقلت لهم ... بل لم تكن قبل ان كـان العطيات
امـا سمعتم جـريـرا عن هنيـدتـه ... يثني يـرى انها في الجـود غايـات
واين من حسبـه الآلاف من ذهب ... هـنيـدة مـن سـواه او هنيـدات
وان[146] من قيس غيـلان ارومتـه ... وقـيس غيـلان امـلاك وسـادات
ومن يكن من أمير المؤمنين فقد ... قـامت على فضله منـه الشهـادات
اهنـأ امامُ الهـدى فـالعـدل منبسط ... والـدين منتـظم والكفـر اشتـات
اعيت مـآثـركم من أن تنـال وكم ... شنت عليهـا من الأقـوال غـارات
وكم ارادت ولاة الشعـر تحصـرهـا ... فـأخفقـت دونهـا منهـم ارادات
هـذي أُبَيَّـاتُ عبـد مخلص لكم ... محض اعتقـاد ومـا تغني الابيـات
الأمـر اعـظم مقـدارا وارفـع من ... أن قـد تحيط بـه منـا مقـامـات
دمتم ودام لكم اسعـاد سعـدكـم ... ما دامت الأرض والسبع السماوات

ومن قوله ايضا رحمه الله في فتح المهدية ويمدح الخليفة عبد المؤمن .

لـمن الـخيـول كـأنـهـن سـيـول ... غـصـت بـهـن سبـاسـب وهـجـولُ
طـويت لهـا الـدنيـا فـأبعـد مـا انتحت ... دان وأبـطأ سـيـرهـا تـعـجـيـل
يـغـزو اديم الأرض مـن صهـلانـهـا ... مـثـل اسمهـا حـتى تـكـاد تـزول
فـصهـيلهـا مـحض الثنـاء وان يكـن ... لا يفهم الـمستمعـون صـهـيـل[147]
تـثـني عـلى الـمـلك الـذي أيـامـه ... سـتـر عـلى هـذا الـورى مـسـدول
عـم الـبـسـيـطة مـلكـه فـكـأنـه ... سـيـل عـلى كـل الـبـلاد يـسـيـل
جهـل النصـارى أنـه الـمـلك الـذي ... يـرث الـبـلاد وعـذرهـم مـقـبـول

(146) لعل صوابها « أين » والا فإن الخبر غير مذكور لها ، وقد سمع ذلك ولا يقاس عليه .
(147) لعل صوابه «لا تفهم الاسماع منه صهيل» . وبدونه لا يستقيم المصراع وزناً .

أهــل الجهــالــة هم فكيف الـومـهم	وعـلـمت أن الـطـبـع لـيس يـحــول
لم ينـزلوا طـوعا ولا [كـرهاً ولكن][148]	وراء الـصـيــن مـنــه مـهــول
ودرت نــفــوسهــمُ بــأنــك ظــافــر	فــأتــت تـقـدم [مــا] الـيــه تـؤول
فـعفـوت عـفـو القـادريـن تكـرمـا	عـنـهـم وعـفـو الـقـادريـن جـمـيـل
شـكـر الـبـلاد مـع الـعبـاد خـليفـة	هــو بـالـبـلاد وبـالـعبـاد كـفـيـل
لـو تـنـطق الـمـهـديتان لـقـالـتـا	في الشكـر مـا لا يـدرك التحصيـل
بـالامس يمـلأ سمعهـا نـاقـوسـهم	والـيـوم يمـلأ سمعهـا التـهـليـل

وكان وصول ابي محمد عبد المؤمن الى مدينة مراكش من هذه الغزوات المتقدمة الذكر في شهر ربيع الأول من سنة ست وخمسين المذكورة .

ذكر فتح قرمونة واخذها
من يد ابن همشك

لما وصل السيد ابو يعقوب بن عبد المؤمن الى اشبيلية من وداع ابيه في أول عام ستة وخمسين وخمسمائة رتب السيد أبو يعقوب حرب أهل قرمونة يغادونهم ويراوحونهم فعم جهتهم الحصار، ومن ظهر منهم الإسار، ومنَّ الله أن أمكن الموحدين من الغادر الذي غدر قرمونة ومكن منها ابن همشك وهو عبد الله بن شراحيل وسيق اسيراً مكبولاً إلى السيد أبي يعقوب باشبيلية ، فقتله وقتل اتباعه واشياعه . وفي أثناء هذا وصل يوسف بن سليمان بعسكر ضخم الى اشبيلية جهزه عبد المؤمن حين وصوله الى مراكش فاتصلت آمال الناس عند وصولهم واتصلت المسرات بحلولهم وقويت بهم اشبيلية ودخلت الأقوات والميرة الى قرطبة وتوجه السيد ابو يعقوب الى مراكش لزيارة ابيه واستخلف على حرب قرمونة أبا محمد عبد الله بن أبي حفص فسار اليها ونزل عليها حتى ضاق من في داخلها من الرعية والشرذمة الشقية[149] ويئسوا من نصرة ابن مردنيش لهم وقيض الله لهم رجلاً من المسلمين فداخل الموحدين وطلب منهم الأمان في نفسه وماله ورعية بلده فأجابوه لذلك فأجمع أصحابه وفتح باب المدينة ودخلها الموحدون بعدما طال حصارها مدة من سنة وكان فتحها يوم الجمعة الخامس عشر

(148) هنا بياض في ط والبيت مدور عند لام « لكن » والمصراع الثاني من تاليه لا يستقيم .

(149) بالأصل « الشرقية » .

لمحرم من عام سبعة وخمسين وخمسمائة . وكان تغلب ابن همشك عليها يوم الجمعة الخامس عشر لربيع الأول من عام خمسة وخمسين وخمسمائة .

وفي سنة سبع وخمسين وخمسمائة

رحل السيد ابو يعقوب من مدينة اشبيلية الى حضرة ابيه برسم زيارته وكذلك توجه أيضاً السيد ابو سعيد ابن الخليفة لزيارة ابيه فغدر ابن همشك بعده مدينة اغرناطة حسبما اذكره .

ذكر غدر ابن همشك مدينة اغرناطة وملكه لها

وذلك ان ابن ابراهيم بن همشك لم يزل في كل صايفة يفسد زرع قرطبة ويضر بجنباتها وربوعها مدة الأعوام التي كان عبد المؤمن بافريقية وأنه استولى بغدره على قرمونة وغيرها ولم يبق من البلاد المجاورة لاشبيلية إلا قليل منها فلما كان اياب عبد المؤمن وعبوره البحر الى جبل الفتح ثم انصرافه الى مراكش لازمت العساكر من الموحدين[150] حصار قرمونة حتى فتحها الله كما ذكرنا ، فأسف [151]عليها ابن همشك وهو على مدينة جيان فاضطرمت الفتنة في[152] قلبه وأَجَنَّ في خاطره الفاسد ان يغدر مدينة اغرناطة اذ هي بمقربة منه فداخل من بها من اليهود لعنهم الله وارتبط معهم على أن يجتمعوا بالليل ويعدوه بليلة معينة يصلهم فيها الى باب الربض فيكسرون الباب ويدخلونه ، فكان ذلك كذلك ودخلها في هذه السنة وكان واليها السيد ابو سعيد قد نهض لزيارة ابيه بالحضرة المراكشية كما تقدم ذكره فمشى ابن هود سرا من ابن همشك الى اليهود وارتبط معهم على دخوله المدينة وكانت القصبة محصنة بالرجال الأبطال مملوءة بالأقوات والآلات فوصل الغادر في الليلة الموعودة وقد اجتمعت الكفرة اليهود فكسروا قفل الباب وبادروا بالصياح للأصحاب فلما تسامع الناس بذلك بادر من كان هنالك ممن له ولاء واعتقاد في الدين فلما أصبح الصباح من تلك الليلة وقد ملك ابن همشك المدينة خاطب اميره ابن مردنيش بمرسية يعلمه بما اتفق له وأطمعه أنه اذا وصل بعسكره ينزل طوعا من في القصبة من الموحدين فاحتشد ابن مردنيش من ببلاده

---

(150) في ت و م بياض مكان « العساكر من الموحدين » .

(151) سقط من ت .

(152) سقط من ت ، « فاضطرمت الفتنة في » .

واستدعى النصارى اصحابه ووصلوا اليه وخرج في جمعه الذميم طامعا فيما ضمن له ابن همشك وكان ابن همشك عند دخوله شرع في قتال من بالقصبة وعذب من حصل في يده منهم ، وعبث فيهم ورماهم بالمنجنيق وأعان الله المحصورين بالقصبة بما كان عندهم من الأقوات والآلات فأعدوها مع عون الله عدهم[153] وشاع خبر تجلدهم وتثبتهم وبلغ الخبر أمير المؤمنين عبد المؤمن فتحرك من حضرته لجواز البحر الى الأندلس .

ذكر حركة أمير المؤمنين برسم الجواز إلى الأندلس حين بلغه غدر ابن همشك أغرناطة

لما خرج أبو محمد عبد المؤمن من مراكش على عادته من فخامة هيئته وضخامة جيوشه برسم الغزو لبلاد الأندلس تمادى مشيه على تلك الهيئة المعهودة فلما كان في بعض الطريق وصله الخبر بغدر أغرناطة فساءه ذلك وتأثر له فلما وصل سلا تقدم منها السيد أبو سعيد ابنه بمن كان معه وأسرع السير إلى الأندلس لعله يدخل قصبة أغرناطة مقر ابن همشك وكان السيد قد قرر له أن ابن همشك في جملته المعلومة له وإذا بابن مردنيش قد وجه عسكراً من الروم في ألفي فارس ورجالة كثيرة فلما وصل السيد مالقة استدعى منها أبا محمد عبد الله بن أبي حفص الوالي على اشبيلية أن يتصله بعسكرها فنهض أبو محمد المذكور والتقى بالسيد أبي سعيد وتجمعوا بأجمعهم وتقدم السيد بالموحدين والجند الأندلسيين ونزلوا فحص أغرناطة حيث السواقي الجارية فخرج إليهم ابن همشك بالنصارى وأصحابه ودارت الحرب بينهم في الموضع المذكور فانهزمت جموع الموحدين وفروا أجمعين فقطعت بهم تلك السواقي عند فرارهم فسقطوا فيها بخيلهم وكانت من أقوى أسباب انهزامهم وقتلهم واستشهد في ذلك اليوم الشيخ أبو محمد بن أبي حفص المذكور وتخلص السيد أبو سعيد ووصل[154] مدينة مالقة واستشهد في ذلك اليوم العصيب كثير من [155]الموحدين والأندلسيين وكان رزءاً عظيماً وخطباً جسيماً وثبت الله الموحدين المحصورين بقصبة أغرناطة إذ كان الخطب بمرأى منهم ينظرون من أعلى القصبة لقتل إخوانهم وانصرف

---

(153) لعله « عدتهم » .

(154) في ت ، بياض مكان « ووصل » .

(155) سقط من ت « واستشهد في ذلك اليوم العصيب كثير من » ومحله بياض .

ابن همشك من هذه الوقيعة مع أصحابه النصارى إلى القصبة الحمراء بأغرناطة وأسرى الموحدين بين يديه يقتلهم ويعبث فيهم على مرأى من إخوانهم . ولما وصل خبر هذه الو قعة إلى رباط الفتح وكانت العساكر قد تلاحقت بأمير المؤمنين على نية ما تحركوا إليه من الغزو لبلاد الأندلس اختار منهم عسكراً ضخماً من أعيان كل قبيل من أهل الشهامة والنجدة وأمر عليهم ابنه السيد أبا يعقوب فتحركوا من رباط الفتح إلى أن وصلوا بحر الزقاق فجازوا منه إلى الجزيرة الخضراء واستوفت العساكر وتلاحقت وتبادرت في الإجازة وتسابقت وتحركوا منها إلى مالقة فاجتمعوا بالسيد أبي سعيد وتحرك الجميع .

ذكر حركة السيدين ابني الأمير
عبد المؤمن من مالقة إلى أغرناطة وهزيمة ابن همشك

فتحرك السيدان أبو يعقوب وأبو سعيد من مدينة مالقة إلى أغرناطة وابن مردنيش قد وصل بمحلته من المسلمين والنصارى طمعاً في ملك أغرناطة فنزل في الجبل المتصل بقصبة أغرناطة وابن همشك بالحمراء معه نحو ثمانية آلاف فارس من النصارى دون عسكريته وابن مردنيش في أكثر من هذا العدد وهم ينظرون كل يوم وصول العساكر ويظنون ظنونهم والموحدون يمشون في طريقهم على تؤدة حتى وصلوا وادي شنيل فلما كان يوم الخميس الخامس والعشرين لرجب ركب السيدان وركب جميع العساكر بعدما علفوا خيولهم بعد صلاة العصر من يومهم وعزموا أن يسيروا ليلهم وقدموا الأدِلَّاءَ أمامهم وتسنموا الجبل إلى أعلاه الذي على وادي شنيل المتصل بالقصبة الحمرا حيث محلة النصارى وصاحبهم ابن همشك ومشوا طول ليلتهم على توادة[156] في الجبل المذكور على شواهقه وأحجاره وقد سهله الله عليهم على وعره وكانت ليلة مقمرة فلما برق ضوء الفجر اطلعوا على محلة الكفرة فبدروهم بالكفاح في مضابعهم[157] وأعجلوهم عن ركوبهم فما قدروا أن يركبوا خيلهم إلا وقد أحان الله حينهم ثم كانت منهم بعد مواقفات وحملات ومدافعات ثم أذهلهم الله وأعماهم فظنوا أن الأرض متصلة إلى محلة ابن مردنيش وكانت بوادي حداره[158] منفصلة عنهم

(156) في ت « تودة » بالتسهيل لتؤدة .

(157) في ط مضاجعهم . والصواب ما أثبتنا من ضَابَعَ المقاتلُ خصمَه إذا استلّ كلُّ منهما سيفه فمده اليه .

(158) EL DARRO .

فولوا أدبارهم عند الدفاع والانهزام وتردوا في وادي حداره عند إظلام الظلام فتقطعت في حافات ذلك الوادي أجسامهم وحان في ذلك الصباح السعيد حمامهم وقتل في تلك المعركة قائد النصارى وحز رأسه وسيق إلى قرطبة بعد أيام وعلق بباب القصر وتردى في الوادي صهر ابن مردنيش وقواده الأكابر وفرسانه المشاهير وكان ابن مردنيش في الجبل المتصل بأغرناطة يرى قتل إخوته فيتفطر كبده بحسرته ودخل الموحدون مدينة أغرناطة وسط النهار على أتم النصر والإظهار وخرج الموحدون المحصورون بالقصبة في الحين قاتلين لمن في المدينة من الأشقياء القاطنين وأقلع ابن مردنيش منهزماً من موضع محلته[159] بباقي شرذمته وترك أخبيته وأسلابه كما أفرد في ذلك اليوم أصحابه[160] فاقتفى الموحدون أثره وقتلوا من أدركوه من قومه وانتسب هذا الفتح بالعدوة الأندلسية إلى سعد السيد أبي يعقوب واستقر في النفوس ذلك وعند أشياخ الموحدين وكان ذلك سبباً في نيله الأمر العزيز وأعلم السيدان المذكوران حضرة الخليفة بالفتح فسر بذلك سروراً تاماً وشكر الله تعالى شكراً عاماً ولما أكمل الله هذا الفتح العظيم الشأن تحرك العسكر لحصار ابن همشك بمدينة جيان وأن يستأصل في جميع جنباته من فيها من أهل النفاق والعصيان وأن يخص[161] هو بالنكاية والانتقام منه بأوفى الخسران فنزل الموحدون بساحل كديته المذكورة الظالم أهلها السابق أخذها بما اقتضاه جهلها فلاذ هو ومن فيها من الأشقياء والكفار بالجدرات والآكام وأصبحوا بأسوارهم راضين بحالة الضيم والاهتضام ظانين بأنهم مانعتهم حصونهم وأنى لهم من الامتناع والاعتصام فانتسف ما حواليها فخرب عامرها ودام ذلك إلى أن وصل الأمر إلى السادات[162] باستيطان قرطبة .

ذكر ارتحال السيدين من أغرناطة وقدومهما على قرطبة وذلك في شوال من السنة المؤرخة

ولما وصل السيدان أبو يعقوب وأخوه أبو سعيد إلى قرطبة خرج أهل قرطبة للقائهما بجهة باب القنطرة وكان أعيان قرطبة الذين أبقتهم الفتنة على أقدامهم بارزين

---

(159) في ت ، بياض مكان « من موضع محلته » .

(160) في ت بياض تضمن « أصحابه » .

(161) بالأصل « يحصن » ولا معنى له ، فأصلحناه بما أثبتناه .

(162) في ط : السادان .

مع النظارة من العامة وذلك في نحو ثمانين رجلاً خاصة بجلايهم من الفتنة على البلاد وما كان حل ببلادهم من القفر بثغورها وإنجاد[163] وقد ظهر على هيئاتهم وصورهم البؤس واستمر على بلدهم وعليهم من الفتنة الدرس فلقد ذاقت قرطبة وأهلها من سوء هذه الفتنة الأندلسية ما لم يذقه أحد من أوائلهم في الفتنة الحمودية بإلحاح ابن همشك وقساوته العجمية ولما استقر السيدان بقرطبة أمرا ببناء قصورها وحماية ثغورها وانجلب إليها أهلها في أقرب مدة وتجددت آمالهم وصلحت أحوالهم وكان مقام السيدين بقرطبة نحو أربعة أشهر .

وفي سنة ثمان وخمسين وخمسمائة

وصل الأمر إلى السيد أبي يعقوب بالحركة إلى الحضرة فتوجه إلى اشبيلية ولم يقم بها إلا ستة أيام وواصل سيره إلى الحضرة تأميلاً أن يصير له الأمر وولاية العهد بخلع أخيه المخلوع واتفاق الموحدين على تقديمه للإمامة وأقام السيد أبو سعيد بأغرناطة على الحالة التي أمر بها فزادها تمصيراً ويسر خيراتها تيسيراً وانضافت إشبيلية ونظرها في الاشغال إليه .

ذكر سبب خلع السيد أبي عبد الله ابن أمير المؤمنين عبد المؤمن في ولاية عهد أبيه

لما تحرك عبد المؤمن في هذه السنة إلى زيارة الإمام المهدي كان ذلك في فصل الشتاء والبرد فزار وودع وانصرف وقد ظهر في تلك الحركة من جرحة محمد المخلوع وعند الانصراف منها في[164] الطريق ما أوجب عليه إثر ذلك الخلع من شرب الخمر وظهور السكر عليه وذلك[165] أنه[166] تقيأ[167] يوما على ثيابه وأطنابه وهو راكب على فرسه في المحلة على مرأى من أشياخ الموحدين والعام من الناس الزائرين فصح عند أبيه نكره وتخليطه وسكره فأسقط هو بفعله من الأمر نفسه وكسف بالنهار شمسه

(163) لعله « والنجاد » .

(164) بياض في ت بقدر ما يحتوي « وعند الانصراف منها في » .

(165) بياض في ت محل تمام اسم الاشارة .

(166) بياض بقدر كلمة ، لعلها « كان » .

(167) في ت يتقيا ولا يظهر معنى لكلمة « ما » بعده . فأصلحناه بيوم وأثبتناه .

وتكلم الناس بعد ذلك بأقاويل شنيعة أنيات[168] عن خلعه وحتفه على ما يذكر إن شاء الله تعالى .

ذكر حركة أمير المؤمنين عبد المؤمن من حضرة مراكش إلى رباط الفتح [بسلا][169]

كان خروجه من مراكش يوم الخميس الخامس عشر من ربيع الأول من السنة المؤرخة على نية الغزو والجهاد والنظر في الآلات والاستعداد فاتصل سيره وعزمه على عادته من المشي الرفيق ومراحله إلى منازله المبنية في الطريق والعساكر المتقدمة معه على الوفور والكمال والظهور والإقبال حتى وصل إلى رباط الفتح من سلا فأراح بها منتظراً لاستيفاء المتأخرين من العساكر فتلاحقوا واستوفوا بجموعهم وتسابقوا مبادرين بحسن الطوع الذي بين ضلوعهم وبعد ذلك مرض أبو محمد عبد المؤمن .

ذكر وفاة عبد المؤمن رحمه الله

لما مرض وأخذه وجعه الذي توفي منه دام به أياماً والناس ينتظرون شفاءه والأطباء كل يوم يدخلون عليه فلما تمادى المرض به أمر بإسقاط اسم ابنه محمد من الخطبة الذي كان ولي عهده وفهم الناس أن الجرحة الموصوفة قد مضى بها وأسقط اسمه بسببها وقيل إنه أمر بقتله ودخل عليه الشيخ أبو حفص وأوصاه ووعى منه السر الذي وعاه واستوثق بوصيته أيضاً لابنه أبي حفص بتقديم أخيه شقيقه يوسف وكان أبو حفص المذكور قد ملك جميع الأمور، جعل له أبوه ذلك. ولم يزل الوجع يشتد به وهو يذكر الله تعالى والأطباء يدخلون عليه فلما كان ليلة الخميس العاشر من جمادى الآخرة من السنة توفي رحمه الله فحمل إلى تينمل ودفن بجنب قبر المهدي وكان له من السنين على ما رواه أبو عبد الله ابن عبد الملك برواية أبي يحيى زكرياء ابن يحيى بن سنان ثلاث وستون سنة وقيل أربعة وسبعون .

ذكر بعض أخباره على الجملة وسيره رحمه الله

نسبه: هو عبد المؤمن بن علي بن علوي بن يملي بن مروان بن نصر بن علي بن

---

(168) (كذا) ولعلها « أنبأت » وهو الظاهر لنا .

(169) الزيادة من م .

عامر بن الأمتر بن موسى بن عون الله بن يحيى بن ورجايع بن سطفور بن يعفور بن ملطاط [بن هود بن قيس بن غيلان بالغين المعجمة وعيلان اسم رمكة سمي بها فعبد المؤمن[170] بن قيس عيلان] [171]ابن مضر، هكذا أثبت نسبه جماعة من المتقدمين له وأصله منقول من خط أبي محمد عبد الواحد حفيده وفي ذلك خلاف وكانت خلافته ثلاثاً وثلاثين سنة وثمانية أشهر وخمسة وعشرين يوماً أولها يوم الخميس الرابع عشر لرمضان سنة أربع وعشرين وخمسمائة وآخرها يوم الثلاثاء ثامن جمادى الآخرة سنة ثمان وخمسين وخمسمائة ، عمره ثلاث وستون وقيل غير ذلك كما تقدم ، وكان الذي تولى حمله إلى تينمل السيد علي ابنه. كاتبه أيام خلافته : ميمون الهواري أبو محمد عبد الله بن جبل[172] وأبو جعفر ابن عطية وعقيل بن عطية وأبو الحسن بن عياش . وزراؤه : ابن عطية وعبد السلام الكومي وأبو حفص ابنه وأبو العلا إدريس بين يدي ابنه أبي حفص. قضاته : أبو موسى صهره من أهل تينمل وحجاج بن يوسف. بنوه : الخليفة بعده يوسف شقيقه أبو حفص أبو عبد الله المخلوع أبو محمد عبد الله صاحب بجاية أبو سعيد عثمان صاحب أغرناطة أبو علي الحسن[173] أبو الربيع سليمان أبو زكرياء يحيى أبو إبراهيم إسماعيل أبو إسحاق إبراهيم أبو يوسف يعقوب أبو الحسن علي أبو زيد عبد الرحمن أبو سليمان داود أبو موسى عيسى أبو العباس أحمد، البنات : صفية وعائشة. ومن مكارمه وإنصافه من نفسه وانبساطه في مجلسه ما حدث الثقة أنه سمعه يحدث الشيوخ من أهل الجماعة وأهل خمسين وبعض الطلبة من الحضر قال في بعض كلامه كنت في تلمسان طالباً أقرأ أصول الدين وكان لي صاحب بها فرحل عني من تلمسان يريد الشرق فوصل بجاية فخاطبني منها يعرفني في كتابه أنه وصل إلى هذه المدينة فقيه عالم بالعلم الذي تطلبه فلتنتقل إليه فعند وصول كتابه إلي رحلت إلى بجاية فلقيت المهدي . وحدث أبو الحسن ابن حمدين قال حضرت معه في غزوة بجاية فلما توسطنا نظر تلمسان نظر في طريقه إلى قرية كثيرة الدور فأمر بوقوف العساكر وحث السير منفرداً على فرسه حتى وصل القرية فوقف عند أحد أبواب دورها ساعة يسائل أهل الدار ثم انصرف إلى العسكر فلما نزلت المحلات ونزل هو في مضاربه أمر

---

(170) لعل الصواب : من .

(171) سقط ما بين معقوفين من م .

(172) في ت بياض يحتوي « أبو محمد عبد الله بن جبل » كما سقط من م « أبو » .

(173) في ط ، « الحسين » والصواب ما في م ، لأن الحسن مشهور بهذه الكنية منذ الحسن بن علي .

باحضار أهل الدار المذكورة فسألهم عن أبيهم فقالوا: إنه توفي وترك أولاداً أربعة. فأسهمهم أرضاً واسعة لاحترائهم وأعطى كل واحد منهم ألف رأس من الغنم ومثلها من البقر وأربعة آلاف دينار وكتب إليهم ظهيراً بالعز والأمان والبر والإحسان وأن يكونوا حكاماً على قبيلتهم. وذكر ابن صاحب الصلاة أنه كان ساكناً بتينمل أيام المهدي وكانت له جارة فأهدت له عنزاً عند إيابه[174] من إحدى حركاته فقبلها منها وانصرفت الأيام له بالسعود والظهور حتى ملكه الله عز وجل فوجه للمرأة ألف دينار وقال لها [هذا][175] جزاء على هديتك العنز. ولما استقر بعد الفتح بمدينة مراكش وفد إليه من كان يواليه من طلبة[176] الحضرة [177]واستقروا عنده فدخل عليه يوماً أبو محمد المالقي فرآه دون ثياب ترضيه فقال لأشياخ الموحدين: هؤلاء الطلبة عرايا ضعفاء فنرى أن ندفع لهم مالاً نقارضهم به ويتجرون فيه فقالوا نعم فأسلف من مال المخزن لكل واحد منهم ألف مثقال فاكتسوا منها واصلحوا بها على أنفسهم ولم يأخذها منهم أبداً. ومن جده وظهور سعده ما أخبرني أبو عبد الله ابن عبد الملك قال حدثني أحد أشياخ الموحدين بحضرة مراكش قال كان عبد المؤمن في أيام طلبه قد سافر من تلمسان إلى مدينة فاس يريد الإقامة بها لطلب العلم ولقاء أهل الفضل فصحب في طريقه تلك تاجراً من أهل الاسكنَدرية ذا رحل كبير ومال[178] قال التاجر فرأيت فتى حسن الوجه فاستدعيته للصحبة معي فأبى فلم أزل أرغبه حتى أجاب فتمادى السير معه إلى فاس فطلب الكريّ من التاجر أجرة دوابه فدفع له ما حضره ونقصه خمسة عشر درهماً فأسلفها له عبد المؤمن.ثم إن التاجر طلبه بفاس فلم يجده ولا وجد لمن يعطي الدارهم فكتب اسمه في زمامه وارتحل التاجر إلى الاسكندرية وبلاد الشرق فغاب نحو ثلاثين سنة وكان طول تجارته يشتري بتلك الخمسة عشر درهماً سلعة بناحية ويجعلها مع رحله ثم يبيعها وجعل الله فيها البركة بقوة سعده حتى نمت.ثم إنه بعد طول السنين المذكورة وزوال الفتنة رجع إلى بجاية بجميع رحله فوجد [عبد][179] ابن سليمان قد ولى إمارة

(174) في ط غزايا به « وفيه سقوط » عند « وتصحيف واضطراب فيما يليه » .
(175) سقط من ط .
(176) في ط الطلبة ، والتصحيح من م .
(177) في م الحضر ، وما أثبتناه أظهر .
(178) بياض بالأصل في قدر كلمتين .
(179) سقط من ط ، وهو مثبت في ت و م .

البحر بها من قبل عبد المؤمن وأمره أن يثقف أموال التجار الواصلين من الاسكندرية حتى يستعلم أحوالهم فثقف مال التاجر المذكور [وأخذ أزمته بجميع المكتوب فيها، ووجهها لعبد المؤمن، وسجن التاجر][180] فلم يزل يرغب حتى أخرج من السجن فاستعجل بنفسه بالوصول إلى الحضرة فالتزم لقاء عبد المؤمن وتعرض له وذكر له مسألته معه فأحضر عبد المؤمن زمام التاجر وفتش ما ذكره فوجد مالاً غير مكتوب وعدد الدراهم الخمس عشرة وأن المجتمع في الربح ألف دينار. فجزاه على أمانته وما ادعاه من رؤيته خيراً وكتب له ظهيراً بالأمان في أهله ونفسه وماله وأمر بصرف رحله ومتى شاء ينصرف إلى محله. أخبرني أبو الحسن بن أبي محمد قال وفي صدر من دولته جاز إلى الأندلس ونزل بجبل الفتح فشرع في بناء الحصن الكائن فيه الآن وبعث ثمانية عشر ألف فارس إلى بلاد العدو برسم الغزو وتقدمة بين يديه وقدم على أصناف القبائل ابن الشرقي وعلى الأندلسيين ابن صناديد. فوصلوا الى فحص بلقون[181] فوجدوا طاغية الروم قد استعد للقائهم والتقى معهم فكان بين الفريقين حرب شديد نصر الله فيه المسلمين وكانت على الكفار هزيمة لم يعهد مثلها وقفلوا راجعين فوجدوا عبد المؤمن قد رجع إلى حضرته لأمور حديثت بعده في جبالها[182] ولم ينفصل من الأندلس حتى مهدها ورفق برعيتها فاستقامت بذلك الأمور للموحدين وملكوا الأندلس ما عدا مرسية وبلنسبة وأنظارهما فإنهما لابن مردنيش مع تلك الجهات كلها إلى أن رجعت بعد ذلك لطاعة الموحدين على ما يأتي.

انتهى ما اختصر من أخبار عبد المؤمن رحمه الله تعالى.

---

(180)

(181) تقدم أن هوسي علق عليه أنه غير معروف كما في الصفحة 70.

(182) انظر ما تقدم ص 70 حاشية 142.

خلافة أمير المؤمنين أبي يعقوب يوسف
ابن الخليفة عبد المؤمن رحمهما الله تعالى

نسبه: قد تقدم في خلافه أبيه. بويع في الليلة التي توفي فيها أبوه بتقديم أخيه أبي حفص شقيقه إليه في ولايته وحمايته وخلع ابنه محمد الآخر فرضي بخلعه وتسليم الأمر لأخيه فانبسطت الآمال في أيامه بسعادة أعلامه وكثرت البركات منه للموحدين والأجناد في اعطياته واتصل الإحسان منه بمواساته وقد كان توقف الأخوان أبو محمد وأبو سعيد عن بيعته وعن البدار لحضرته واستبد السيد الأعلى أبو حفص بالأوامر السلطانية على ما كان مع أبيه والشيخ أبي حفص وجميع الموحدين وأشياخ القبائل على الرضى به والتيامن بمقدمه[1] والاستسعاد بفضايله فنفذ الأمر منه بكل تأنيس للناس وبهدايات من العدل باديات الأنوار والاقتباس. ثم نفذ الأمر بانصراف العساكر المجتمعة إلى مواضعهم وتأخير العزم إلى وقت يأذن الله فيه باجتماعهم وكملت البيعة بأكمل خلوص السرائر وطيب الوفاء في الضمائر وتسمى لنفسه باسم الأمير واستقل بما صار إليه من التأمير وبعد إكمال هذا الترتيب انصرف من سلا إلى مدينة مراكش مع أخيه والموحدين فملك دار الخلافة وأنافت به السعادة أكرم انافة. ووعظ الشيخ أبو حفص عمر بن يحيى الناس أعني الموحدين على طبقاتهم ومراتبهم وذكرهم بما يجب عليهم في دينهم وصلاح يقينهم ولما يجب عليهم من فروضهم ومسنونهم وبحق البيعة وذلك قبل أن يعلم الناس بالوفاة، ولما توفي الخليفة أظهر الشيخ أبو حفص عمر بن يحيى من بطانة النصح والوفاء والدفاع بالحماية على أكمل[2] الاستيفاء ما وطد

---

(1) في ت بمقدمته، ثم بياض يتضمن «والاستسعاد بفضائله فنفذ الأمر».

(2) في ط «كل» وهو تحريف.

الأحوال ومهد الآمال برأيه السديد وسعيه الحميد ولازم الحضور بنفسه واقتدى الموحدون به في حسه فاستقامت الأحوال وتحققت الآمال وتوالى استبداد السيد أبي حفص على معنى الوزارة والإمارة بإنفاذ[3] الأوامر السلطانية عن أمره على ما كان عليه عند أبيه علي رضي من الأمير أبي يعقوب أخيه واتفاق واجماع من شيوخ الموحدين وإصفاق فكانت بينهما أخوة مبرورة وكان ابن جامع بين أيديهما يتصرف في رفع الرفوعات[4] والمسائل وتوصيل رغبة الوافد ومسئلة السائل وكان هذا إدريس نشأة دار أمير المؤمنين وابن أميرهم الأمين .

ذكر الأخوة

كان السيد ابو الحسن علي بن عبد المؤمن حاضراً ليلة وفاة ابيه والبيعة لأخيه فسار الى تينمل وحمل اباه ودفنه ورجع من مشيه وفى نفسه علة من دخول الحسد موذنة له في الدارين بطول الكمد فأقام مكموداً فريداً يظهر اخاء في طيه حقوداً فلم تمهله علته ولا طالت به مدته حتى فاظت[5] نفسه في تلك الأيام وغابت شمسه بليل الحمام . واما السيد ابو محمد فأقام ببجاية بعد الحال يقدم رجلاً ويؤخر اخرى ويرى الرأي ويكرره مع من يختص به ولم تزل مخاطبة الأمير اليه بالاستعطاف والاستدعاء والجواب منه بالعدة في الرحيل الى تلك الارجاء فمطل نحو سنة ونصف واعتذر عن الوصول ثم عزم وتحرك من بجاية وظاهره جمع الشمل الموصول فلما استقلت به المراحل ادركته منيته وفاتته امنيته وذلك في عام ستين فوصل خبر نعيه الى أخيه ابي يعقوب بمراكش فتفجع له وآوى جملته واهله ونظر في تثقيف بجاية وانظارها ريثما وجه لها من اختاره لحماية اقطارها واما السيد ابو سعيد فتوجه اليه الى قرطبة ابو عبد الله بن أبي ابراهيم وابو يحيى بن ابي حفص فتمارض عند وصولهما واعتل وارتبط لهما ثم انحل . فرجعا من عنده بمواعيده فلما استقر بمراكش تكلم الناس المرجفون وزخرف في حديثه المزخرفون . ثم ثبت الله الحق وذلك انه لما التوت حال السيد المذكور في الاعتذار وتلوم له بالانتظار وبعد المدة التي ذكرتها[6] عزم

---

(3) في ألأصل « بانقياد » فأصلحناه « بإنفاذ » .

(4) في ط « الربوعات » والتصحيح من م .

(5) بالأصل « ماضت » وهو تصحيف فاظت التي أثبتناها .

(6) سقط في م « وبعد المدة التي ذكرتها » .

السيد[7] الاعلى ابو حفص على المشي اليه واستدعائه[8] بالتأنيس والقدوم الى جبل الفتح يبغون اجتماعهما عليه فكان خروج هذا السيد من مراكش في ربيع الاول من سنة ستين . وتحرك هذا السيد ابو حفص الى اخيه السيد أبي سعيد في جملة من اعيان الموحدين كأبي يحيى بن أبي حفص ، وأبي يعقوب بن يخيت ، وإسحاق ابن جامع ويوسف بن وانودين ومن اشياخ ثوار الاندلس المختصين به كأبي محمد سدراي بن وزير وصاحب لبلة ابن الفخار ومن اشياخ لمتونة ومسوفة جماعة منهم علي بن محرز ابن زياد فوصل السيد المذكور بعسكر موفور الى طنجة وركب منها البحر الى سبتة منفرداً مع خاصته الخاصين به وكاتبه عبد الملك بن عياش وامر بمشي الناس على البر الى القصر ومنه الى سبتة. فلما كان في اليوم الثاني من وصوله الى سبتة عبر غراب الى الجزيرة الخضراء ليعلم من فيها بوصول السيد ابي حفص الى سبتة وعبوره في أثره . وكان السيد أبو سعيد قد احتل بجبل الفتح مع خاصته وخدمته . وعبر السيد ابو حفص البحر ذلك اليوم في عدة عظيمة من نشر البنود وقرع الطبول والسرور بالوفود واتصل الشمل بذلك الوصول وكان يوماً شهيراً كله سروراً . وبرز ايضاً السيد أبو سعيد بجبل الفتح براياته وببشر ملاقاته ما ابهت الحاضرين وسر الناظرين واجتمعا خير اجتماع، وارتفع الارجاف اجمل ارتفاع، وعم الخير جميع الجهات والاصقاع ، ووفد أهل الاندلس من اشياخ اشبيلية وقرطبة واغرناطة مع الشعر للتهاني باتصال المسرات والاماني ودامت الاقامة بالجبل مدة من خمسة عشر يوماً في مسرة متصلة ومبرة مشتملة وانشد الشعراء أشعارهم وقضوا فيما وردوا به اوطارهم فمن قول أبي عمر ابن حربون[9] :

قــد حصحص الحق لا ريبٌ ولا فنــد ... هذي[10] الفتوح التي كانوا بها وعـدوا
خــذوا بـحـظكـم يـا أهــل أنــدلس ... فمــا لغــاوٍ نـبــا من بـعــدهــا رشــد
واستمسكـوا بعرى الأمـر الـذي بهـرت ... آيــاتـــه كـــل مــن يـغـلو ويـقــتـصــد

(7) بياض في ت مقدر نصف سطر تضمّن « الأعلى » وما كان بعدها من كلمات نحو خمس أو ست .

(8) بياض في ت ، تضمن « بالتأنيس » .

(9) في ت « عمرو ابن » وما أثبت هنا ، هو ما في المن المطبوع .

(10) في ت بالدال المهملة ، وهو مناسب للذي بعده ، وعلى تكلف في التعبير ، وإلا فإن « التي » أحق بهذي وهو ما في المن المطبوع مع اختلاف ، ، وفيه ذكر القصيدة كلها ، وأول البيت الخامس « هذا » بدل « هو » ولعله الأصح ، مناسباً لما بعده ، ولصنيع ابن هانيء الأندلسي .

اليوم صم صدى الغاوي بأرضكم والكلب ينبح ما لم يزأر الاسد
هو الذي وعد الله العباد به قد انجز الوعد حقاً وانتهى الامد
هذا سليل إمام الحق بينكم لا المال مدخر عنكم ولا الولد
فقد ظفرتم بفياض مواهبه تحصى الحصى قبل أن يحصى لها العدد
انظر الى مجمع البحرين كيف حوى من الفضائل ما لم يحوه بلد
لاقى الكليم على الشاطي به خضرا وفيه لاقى اخاه السيد الصمد
صنوين ما اجتمعا في ارض أندلس الا ليحمّيَ فيها دينه الأحد

وقال أيضاً عند جوازه البحر :

تجشمتُ هول البحر في طلب البحر ولم أشك صرف الدهر الا الى الدهر
فقل للدياجي أَغْدِفي[11] أو تكشفي فها أنا قد امسيت في ذمة البدر
لعمرك ما القى أبا حفص الرضي وأشكو الليالي[12] ما تطاول من عمر
همام إذا ما همّ نال مراده ولو أنه امسى على قنة النسر
هو ابن أمير المؤمنين وشبهه وحسبك[13] من فرع وحسبك من بحر

فاستحسن هذه الابيات مع تقدم القصيد وما ذكر فيها من المقصود ، ثم نفذ امره بالانصراف وعبور البحر الى العدوة والانعطاف وسرح اشياخ بلاد الاندلس الوافدين والعمال والاجناد القاصدين وجاز السيد ابو حفص والسيد ابو سعيد واكثر الجلة الخاصين به ولم يقم السيد بسبتة الا ثلاثة ايام الى أن عادت المراكب والقطائع بالعبور اليهم فأجاز الجميع اليه واستقروا بين يديه[14] وتحرك السيد الاعلى من سبتة واجتاز في سيره على فاس ثم أعجل الطريق الى حضرة مراكش ومعه ابو سعيد الى أن وصل فتلقاه الامير ابو يعقوب خارج مراكش على أوفى الاستبشار والسرور باجتماعهم والاستظهار ، ووصل السيد مراكش في أول رجب الفرد من عام

---

(11) بالأصل « أغرني » ، وهو ما في . م . وفي المن : « أغدقي » ؛ وأغدف الليل : أقبل وأرخى سدوله .
(12) سقط ما بعده في ت .
(13) في ت و م « وناهيك » وما أثبتناه هو ما في المن الذي نقل هنا عنه ابن عذاري النص .
(14) نقل هذا كلّه ابن عذاري عن المن ، وليس فيه إلا اختلاف طفيف وحذف قليل كما في « وأكثر الجملة الخاصة ولم تستكمل المراكب » إلخ .

ستين وخمسمائة وانشد الشعراء اشعارهم بالتهاني والمدائح فأجادوا وأحسنوا وخطب الخطباء فأفصحوا في ذلك بالسحر الحلال وبينوا ، فقال الاستاذ ابو الوليد الشواش الشلبي في ذلك المجلس مهنئاً للأمير أبي يعقوب بالقدوم الميمون المعلن بالالفة والنظام من قصيدة اولها :

وضحت بأنوار الهدى نسماته ... وأبانت الهديَ القديم سماته
ملك الملوك مؤيد لكنه ... غلبت عليه من التُّقَى[15] ملكاته
دانت له الدنيا وكافة أهلها ... فعفا وعف وسامحت[16] عطفاته
ابدى لنا بسنائه وهنائه[17] ... عجبا وظاهر حسنه حسناته
كثرت فضائله فكاثرت الحصى ... عدا وقد قلت له سنواته[18]
ومضت ببرق غُيُومه[19] صفحاته ... ومضت مضاء صفاحه عزماته
وافاده دهرا مفيداً[20] منعما ... وصلت بباهر خيره خيراته
نجل الخليفة يقتدى برشاده ... وسداده وتبين فيه سماته
ورد الزلال العذب في ينبوعه ... صفواً معيناً لم تشبه قذاته
فهناك أسس بالتُّقَى بنيانه ... وهناك شيد بالهدى حجراته
وتقيل الخلق الرضيَّ فأينعت ... اضحاؤه وتيسرت طلباته
يا خير من ملك الورى ودعاهم[21] ... لله فابتدرت له دعواته
جوزيت بالحسنى اذا ما محسن ... في فعله جزيت له فعلاته
من يُصْفِ حبك اسعدت احواله ... ومآله وتُقُبِّلَتْ قرباته
من يقتدى بسناكَ يُهْدَ[21ب] ومن يرم ... سبل النجاة فانتم منجاته
نجل الهدى واخوك عزت نسبة ... والمجد تقصر دونها غاياته

---

(15) في الأصل « التقوى » ولا يستقيم وزناً .

(16) بالأصل « وما محت » وهو تصحيف .

(17) في المن بالإمامة : بشبابه ومنابه .

(18) بالأصل سقواته ، تصحيفاً .وتقدم لابن حربون « تحصى الحصى قبل أن يحصى لها عدد » . وردد هذا الجراوي كثيراً .

(19) بالأصل عيونه ، والصواب : غيونه ، وهو بمعنى غيومه .

(20) بالأصل « بعيداً » .

(21) بالأصل « ورعاهم » .

(21) ب : في الأصل يقتدي بك يهتدي ؛ وهو مضطرب .

في الله أعمل سعيه فحوت له | جمع الفضائل والعلى مسعاته
انتم لاهل الأرض اوثق عصمة | وبأمركم عطفت عليه حياته
لا زلتمُ للمكرمات وللعلى | شملاً ولا يقضى عليه شتاته
واستقبلوا في الدهر عمراً باقياً | ما واصلت غدواته روحاته

وفي سنة ستين وخمسمائة تحرك السيد ابو حفص بأمر أخيه الى قتال ابن مردنيش

قال ابن صاحب الصلاة: واقام السيد أبو حفص بمراكش بعد انصرافه من جبل الفتح ومعه اخوه ابو سعيد بقية شهر رجب الفرد وشعبان المكرم وكان ابو سعيد بن الحسين وابو عبد الله بن يوسف قدتقدما بعسكر العرب وبعثوا منهم عند وصولهم اشبيلية نحو خمسمائة فارس الى مدينة بطليوس لحماية صيفيتها فيسر الله تعالى غزو شرذمة كبيرة من النصارى اهل شنترين فهزمهم المسلمون وغنموهم واستأصلوهم قتلاً وسبياً ، فكان ذلك عنوان الفتح ثم ان أبا سعيد وابا عبد الله خرجا من اشبيلية بالعسكر الى مدينة قرطبة لدفع المحاربين الأشقياء عن جهاتها فالتقوا على غير ميعاد ولا معرفة بعسكر مجتمع معد من عسكر ابن مردنيش بحصن لك[22] فكانت بينهم مدافعات وكرات عظيمة ظهر فيها من اقدام ابي عبد الله بن يوسف ومن أعيان العرب وصبر أهل العسكر ودفاعهم ما لم يظهر مثله في الزمان الاول اتصلت الحرب بينهم بطول يوم كامل على شرب الماء بوادي لك المذكور وانفصلت الحرب بينهم مكافاة فوصل كتاب أبي سعيد وابي عبد الله الى الأمير ابي يعقوب بمراكش مستغيثين ومعرفين بهيئة حربهم وطول مواقفهم [23] وذلك في أول يوم من رمضان من السنة المؤرخة فغار السيد ابو حفص وعسكر في يومه ذلك وامر الموحدين والعرب بالاسراع والنفوذ اليه بما لديهم وخرج من مراكش في العشر الاول من شهر رمضان المذكور من العام ، وخرج معه ابو سعيد عثمان وهي غزوته الأولى الى ابن مردنيش الفاتحة للموحدين في عدوهم فأزعجهم السير حتى اجاز البحر ووصل اشبيلية واجتمع بالموحدين المذكورين وتذاكروا وتشاوروا وخرجوا من اشبيلية مصممين الى

---

(22) LUQUE .

(23) في م « موافقهم » .

بلاد ابن مردنيش وذلك في أول ذي القعدة من العام ، فأول حصن نازلوه اندوجر(24) لقربه من قرطبة ففتحوه في يوم نزولهم عليه وبادر اهل الحصون المجاورين له بدخولهم في الطاعة وشن الغارة بالعساكر المنصورة على نواحيها فاستاقوا الغنائم وامتلأت أيدي الموحدين من السبي والفيء وازدادوا نعماً الى نعمهم وشفيت قلوبهم وانعم السيد عند كمال هذا الفتح الميسر على الموحدين بزاد وبركة زادها لهم ولما كان الفراغ من فتح الحصن المذكور وثقف من وجب تثقيفه وسبى من سبى وتحكمت في ذلك رماحه وسيوفه اقلع منها قاصداً الى بلاد ابن مردنيش وتسامع ابن مردنيش ان العزم عليه فاحتشد جميع أهل شرق الاندلس وكل من له عليه طاعة واستدعى احلافه النصارى من طليطلة وانظارها فوصلوا اليه بجمع كبير ذميم حقير تسابقوا لاجابته وحماية غوايته ، فخرج بهم من مرسية مقره واعترض الموحدين وهم بمدينة لورقة(25) واقبل بجمعه اليهم وجلس مضيقاً في الطريق عليهم لا يمكنهم النفوذ الا بعد مقارعة فعدل الموحدون عن ذلك المضيق الى حصن واسع في افسح طريق واتوا لورقة من غربها والشقي مع عسكره بقربها ثم انهم رحلوا من نحوها وتوجهوا في طريقهم قاصدين مرسية فأقلع ابن مردنيش من موضعه بجمعها وتماشى يومهم ذلك عسكر الموحدين في جانب الجبل عن سمت الطريق ، وعسكر ابن مردنيش على يسرة الطريق في الجبل الآخر داما على ذلك يومهم كله فلما كان يوم الجمعة السابع من ذي الحجة من عام ستين المذكور وصلوا اول فحص مرسية على عشرة أميال منها ألح عسكر ابن مردنيش بالدفاع والقراع فعبأ الموحدون عساكرهم ورفعوا راياتهم ونهوا قبائل العرب الذين معهم وقبائلهم وتعاهدوا على الثبات والصبر على اعدائهم فدفع ابن مردنيش بعسكره فيهم وبأصحابه النصارى ثلاث دفعات الاولى في العرب والاثنتين في الموحدين فثبتهم الله وانجدهم وقوى قلوبهم فعظم الغبار والقتام ورجع شمس النهار في اظلام وتماسّت الركب بالركب وعظم الطعن والضرب الى أن فتح الله للموحدين وولى الكفرة مدبرين فقتلوا قتلاً ذريعاً، وخر اكثرهم صريعاً ، وفر ابن مردنيش مهزوماً وقد عاين مصارع اصحابه واحزابه ، واستند الى جبل قريب من المعركة فضرب فيها قبة خباء على معنى خدعة الحرب مع فله المهزوم في ذلك ساعة من بقية اليوم الى أن ستره الليل وقد أحدق

(24) ANDUJAR .

(25) LORCA .

به الثكل والويل وركب من حينه وفر الى مرسية مهزوماً ذليلاً ملوماً ثم ان الموحدين اقلعوا في بكرة غدهم في اتباعه فنزلوا ساحة مرسية واقاموا بها وعيدوا بظاهرها وتتبعوا تلك الاصقاع بالتدمير والغارة على جنباتها فاستاقوا نعم أهلها وتحكموا بالتطاول في وعرها وسهلها مدة ايام كثيرة بالأمن لهم في الاقامة والتعقيب بالغارات في كل نظر واجتلاب الغنائم على أوفى السلامة وخاطبوا الخليفة ابا يعقوب بوصف هذا الفتح وشرح الحال فوردت البشرى بحضرة مراكش في الثالث وعشرين من ذي الحجة من العام ، ودخل الفرسان للموحدين وبأيديهم علامات ابن مردنيش منكوسة وضربت الطبول واتصل السرور والمأمول وامر الأمير في الحين بقراءة الكتب فقرأه الفقيه ابو محمد ابن المالقي وكان من انشاء الكاتب ابي الحسن ابن عبد الملك[26] ابن عياش وقد ذكر نصه ابن صاحب الصلاة في تاريخه اغنى ذلك عن ذكره هنا وبعث السيد في طي هذا الكتاب مدرجاً فيه قصيدة طويلة أولها:

لقد بلغت جيادكم مداها ... ونالت ما ارادت من عداها
وها هي فاسألوا الاصباح عنها ... بحمد الله قد حمدت سراها
تعد رضاكم عزاً وجاهاً ... فما تشكو على حال وجاها
تهيم بحب طاعتكم فتطوي ... بساط القفر حتى قد طواها
كان قَطَا المفاوز حين ثارت ... تعلمت[27] الهداية من قطاها
لقد شنت بأرض الشرق حتى ... أباحت بعد منعتها[28] حماها
فبورك للخليفة في رجال ... أطاعوا الله فيمن قد عصاها
هو النور الذي بهرت ولاحت ... به شمس الهداية في ضحاها[29]
حباه به الخليفة عن إمام ... قد انتاش البرية من عماها
أبا يعقوب ان بنا اليكم ... كما بالحائمات يرى صداها
ودونكم تحية مستهام ... يطيب الجو من مسرى شذاها
ولا عدمتكم العليا فمهما ... رعاكم ذو الجلال فقد رعاها

---

(26) بالأصل « الله » .

(27) بالأصل « تعلمه » ولا معنى له ، والتصويب من المن ، وفيه « سارت » بدل ثارت » .

(28) بالأصل « محنتها » ، والتصويب مما سلف .

(29) أتى هذا البيت بعد إسقاط خمسة عشر بيتاً ، وبعده خمسة ثم بعد تاليها ستة .

وفي هذه السنة المؤرخة اختص الامير ابو يعقوب بوزارته ابا العلى ادريس بن جامع وقربه واحبه فظهرت في هذه المدة للناس في احوالهم منه وبه دلائل اليمن واتصال العدل والفضل والامن يسير الراكب حيث شاء من بلاد العدوة في طرقها من جبلها وسهلها آمنا في نفسه وماله لا يخاف الا الله تعالى وأحسن لمن وفد إليه واستغاث به من اجناد الأندلس المضاعين والمأسورين ففداهم بماله واعطاهم الخيول وآلات الحرب والكسوة الرفيعة واوصل البركة للموحدين وللناس المقيمين معه وطلبة الحضرة الوافدين عليه في كل شهر على التوالي والاستمرار واستبان فضله وعدله في الاقطار نورا من الانوار .

وفي سنة احدى وستين

عيد السيدان ابو حفص وابو سعيد ابناَ أمير المؤمنين عبد المؤمن بظاهر مرسية عيد الأضحى على أثر التعييد بالنصر والظفر بعدوهم ثم انعطفا آخذين في الانصراف الى الحضرة فلما وصلا إلى قرطبة أقام أبو سعيد فيها برأي مقدم من الأمير واتفاق على حالته الأولى وانفصل السيد ابو حفص عنه الى اشبيلية منصرفا الى الحضرة واجاز البحر مستعجلا للدخول حتى وصل قرية مكول فكتب الى أخيه شعرا من إنشاء ابن حربون فمنه :

عللوا العيش باقتراب الديار	وانظروا هل بدا لها من مزار
هذه حضرة الامام فحطوا	عندها الرحل فهي دار القرار
فاشكروا للركاب أن جمعتكم	بالأمير[30] الأجل فرع نزار
بمليكٍ[31] عند المليك مكين	قد كساه ثوب التقى والفخار
نصر الله دينه من لدنكم	بجيوش جاست خلال الديار

واعتمل السير متشوقا فكان وروده حضرة مراكش في الثاني[32] عشر من ربيع الآخر من السنة المؤرخة ، ثم نزل الأمير عن فرسه والتقيا فتصافحا وتسالما ثم

(30) بالأصل الكلمة مصحفة ، وصوابها ما استظهرناه ، فأثبتناه ، وهو ما وجدناه بعد بالمن .

(31) بالأصل « فالمليك » ولعل الصواب ما أثبتناه من المن ، وهو من أبيات به ، وكذا ما قبلها وما بعدها من نثر ، مأخوذ منه .

(32) بالمن : « الحادي » .

سلم الناس على الأمير وعلى من حضر وركبوا ودخلوا القصر بعد صلاة العصر واجتمعا خير اجتماع وكان من السرور ما أبهج الناظرين بغاية الاختراع . وفي اليوم الثاني من هذا الوصول صنع للواصلين والمقيمين الأطعمة والأشربة الحلال المدارة على المسار السارة مدة خمسة عشر يوماً ثم انعم عليهم بالكسوة التامة والعطاء الجزيل فاجتمع لجميع الناس السرور والمال الحاضر الموفور. وبعد هذا الأنعام والاتصال العام . . رجع الناس إلى قبائلهم للاستقرار بعد نيل الغزو والأجر في هذه الأسفار وخمدت نار الفتنة من ابن مردنيش مدة من خمسة اعوام الى أن حدث بينه وبين صهره ابن همشك الشنآن الذي اذكره بعد ان شاء الله تعالى فنظر امير المؤ منين في غزوه .

ذكر ابتداء الولايات من الامير ابي يعقوب لاخوته السادات والحفاظ من أشياخ الجماعات

قال الراوية ولما كمل الإطعام والإنعام ميز الناس على جميع طبقاتهم بهيئاتهم وخيلهم ورجلهم فكتبت اسماؤ هم على الاستيفاء وخرجت لهم البركات على الذي كتبوه ورتبوه ونظر الأمير أولاً مشورة اخيه ابي حفص في ولاية بجاية وأقطارها وجميع جهاتها وأقطارها ، اذ كانت دون والٍ وعلى حالة اغفال فاختاروا لها من الاخوة السيد ابازكرياء يحيى بن عبد المؤمن فتوجه اليها من الحضرة غرة جمادى الأولى من سنة إحدى وستين في جملة متعينة من أبناء الحفاظ والموحدين . ونظر أيضاً في حديث اشبيلية اذ كانت تحتاج الى والٍ فاختار لها الشيخ ابا عبد الله ابن أبي إبراهيم وعقد له الأمير رايتين في مجلسه الكريم واختار جملة وافرة من أهل النجدة والتقديم وعين له وزيراً يسوس احواله وينظر أعماله وأشغاله وهو ابو زكرياء ابن سنان وأمر لـه بأربعة من الطبول فضربت يوم خروجه اهتبالا به واعلاما برفعته ورتبته . فتحرك من مراكش غرة جمادى الآخرة من سنة إحدى وستين المذكورة . قال ابن صاحب الصلاة فخرج برايتيه الاثنين[33] من دار الخلافة على وسط مراكش وديارها إلى باب فاس مستقبلا طريق الاندلس فتمادى مشيه الى سبتة[34] وعبر البحر في قطعتين الى

(33) كذا والصواب « الاثنتين » وفي ت « براياته الاثنين » وهو في منتهى السقم .

(34) وورود سبتة هنا غريب ، فلعله «قصر مصمودة» وهكذا نجد في المن الذي نقل عنه «ووصل إليه في المجاز بقصر مصمودة . . . ابن جامع صاحب سبتة » فلا شك أن الاختصار ابتسر سبتة من هنا وجعلها نهاية لتمادي =

طريف ثم سار الى مدينة اشبيلية فخرج اليه الحفاظ والاجناد والاشياخ منها والاعيان والتقوه ودخلوا معه مسرورين لقدومه فوجدوه فوفّوه سلامه ودخل اشبيلية في رجب من عام احدى وستين المذكور وبعد ثلاثة ايام من وصوله الى اشبيلية سافر مع الحفاظ الواصلين معه الى قرطبة للقاء السيد الاسنى ابي سعيد بها والسلام فوصل اليه وأقام عنده ثمانية ايام تحت بر واكرام ووصل الى اشبيلية وضربت جملة ذميمة من نصارى شنترين على جهة اشبيلية فخرج في اتباعهم عسكر اشبيلية فأدركوهم وانقذوا الغنائم منهم وهزموهم وساقوا من سبيهم مائة فارس وجملة اعلاج وعرف الامير ابو يعقوب بهذا الفتح فشكر اجتهاده وجهاده واقام على شغله منفردا بأشغال اشبيلية وانظارها الى أن وصل السيد أبو ابراهيم حسبما اذكره . وولى السيد ابو ابراهيم ابن الخليفة عبد المؤمن من اشبيلية فكان وصوله اليها وقدومه عليها في ذي الحجة من سنة احدى وستين وكان أمر في هذه الايام للسيد أبي سعيد ابن الخليفة عبد المؤمن بالارتحال عن قرطبة والمشي الى الحضرة فخرج مبادراً للأمر الذي أمر به وخطر على اشبيلية في الثامن من ذي القعدة والتقى بأخيه ابي إبراهيم بقصر مصمودة وخرج الشيخ الحافظ أبو عبد الله بن أبي ابراهيم للقاء السيد ابي إبراهيم فالتقى به في جزيرة طريف وانصرف في صحبته الى اشبيلية وقد وصل له الأمر أن يقيم معه شيخاً له على ما كان يشتغل به فيها وشغل العسكرية على يديه والامور كلها راجعة اليه والسيد المذكور يختص به غاية الاختصاص ويشتمل عليه بالود والاخلاص الى أن وصله الامر بولاية اغرناطة .

وفي سنة اثنين وستين وخمسمائة

وصل الأمر الى السيد ابي سعيد بن الخليفة عبد المؤمن بولاية غرناطة في شعبان العام فنظر في الحركة اليها من اشبيلية في أول رمضان وأقام بغرناطة والياً معدّاً[35] مجتهداً الى جمادى الأولى من عام أربعة وستين على ما سيأتي ذكره إن شاء الله تعالى ونهض بالاستدعاء هو وجميع الولاة بالأندلس والسيدان أبو ابراهيم وأبو إسحاق صاحب اشبيلية وقرطبة إلى حضرة مراكش وأقام بها بقية عام اربعة وستين على ما [سيأتي][36] ذكره ونهض واصهر الى السيد الأعلى ابي جعفر على ابنته،وتمادت

= مشيه ، وهو لا يتناسب مع القصد إلى طريف .

(35) في ط « صعداً » ولا معنى له ، والتصحيح من م .

(36) تصحفت سقط من ط .

اقامته بمراكش الى أول شهر ذي القعدة من عام خمسة وستين وسافر في صحبته السيد ابو حفص غازياً معه إلى ابن مردنيش بمرسية وجميع شرق الأندلس ثم بعثه(37) السيد المذكور الى مدينة بسطة بعسكر موفور ففتحها الله علىٰ يديه وانصرف الى السيد ظافراً وأقام(38) معه في هذه الغزوة إلى أن انصرف السيد المذكور وانصرف بانصرافه إلى اشبيلية واستقر بها في حضرة الخليفة أمير المؤمنين ابي يعقوب كما جاز إلى الأندلس في ست وستين وغرناطة في هذه المدة كلها تحت حكمه وبيده وفيها رجاله وعياله وحين استقراره باشبيلية نهض السيد ابو سعيد الى غرناطة والياً عليها بالأمر عوضه ووصله رجاله وعياله منها الى اشبيلية ثم قدمه ابو يعقوب على تمييز الحفاظ اجمع في أول ربيع الأول عام سبعة وستين وحضر الغزوة الكبرى مع أمير المؤمنين ببلاد الروم وحضر غزوة الطاغية ابي البرذع المسن(39) وناب في هذه الغزوات المناب (40) الحميد ثم لازمه الاعتلال نحو سنة ونصف فتوفى في السابع والعشرين لرمضان من عام تسعة وستين وخمسمائة وله من العمر ست وثلاثون سنة رجع الخبر .

ذكر الاتفاق على كتب الأمير أبي يعقوب العلامة بخط يده

ثم وقع الاتفاق على أن يكتب امير المؤمنين العلامة بيده التي هي الحمد لله وحده وتنفذ الأوامر العلية على أمره وحده فلما كمل ذلك أمر بكتب رسالة الى جميع بلاده يأمر فيها بالعدل والنهي عن المنكر وكتب بها أولاً إلى أخيه السيد أبي سعيد وكان بقرطبة في الثالث من رمضان المعظم من عام احد وستين وامر أن يكثر منها نسخاً إلى البلاد فوصلت نسخة منها إلى اشبيلية وهي أول أوامره العلية من إنشاء الكاتب أبي الحسن ابن عياش أمر فيها بالعدل والنهي عن المنكر وفي هذه السنة وهي سنة اثنين وستين تحركت في جبال غمارة وغيرها فتنة بضلال جهال من البربر مفسدين ناعقين بالفتنة واعظمهم في جبال غمارة المتصلة بسبتة فإنه نعق فيها مفسد

---

(37) في ط « تبعه » ولا تحل له هنا . وبسطة هي Baza في الإسبانية مشهورة باسمها العربي .

(38) في ط « وأدام » ولعل الصواب ما أثبتناه .

(39) في ت « بردع المسمى » .

(40) في ط و ت « أنياب » ولا معنى له والتصويب من م .

غويّ اسمه سبع بن منعقاد. فانه شق عصا الطاعة وفارق الجماعة وقطع الطريق وفرق الفرق وسبا الرفاق وادخل في قلوب القاطنين بقصر كتامة[41] وتلك الجهات الروع والفزع وتفاقم أمره وتعاظم شره وامتنع في جبل الكواكب واستفحل فيه بالأذاية وتمادى الغواية في بشر كثير من قوله هم من عدم الفهم كسائمة البهم صحبتهم الجهالة واستهوتهم الضلالة وفشا ضرهم وساء أثرهم. فاتفق رأي الموحدين أن يحسموا شر هؤلاء المارقين فنظروا في تجهيز عسكر ووجه أبو سعيد يخلف بن الحسين الى بلاد صنهاجة من جهة القلعة وقد كان الشيخ المرحوم ابو حفص تقدم قبله بمن كان معه في جهة اخرى فلما عظم شر هذا الشقي سبع بن منعقاد اهلكه الله بحركة الأمير اليه .

ذكر حركة الأمير ابي يعقوب ابن الخليفة عبد المؤمن رحمهما الله ومقتل سبع بن منعقاد

لما عظم أمر هذا الشقي تحرك اليه الخليفة بنفسه وعساكره واخيه أبي حفص وابي سعيد ونهضوا الى جبل غمارة فنازلوا فيها الشقي الغوي في أعلاها وأحاطوا على أعدائهم في ذراها وسبوهم واستأصلوهم وأجلوهم وغزوهم غزوا شافياً وفتح الله لهم ارضهم وملكهم عقارهم وعرضهم وقتلوا الشقي المذكور واتصل لهم الفتح في جبل غمارة وصنهاجة بالمناب وكان الانصراف من الجميع بالنجح وحسن الانقلاب وسعيد الإياب ولما كان الإياب من هذه الغزوة المذكورة أمر الأمير أبو يعقوب بإعلام الفتح الشامل ومقتل الشقي وصلبه . ولما انصرف الأمير أبو يعقوب من فتح جبال غمارة غالبا منصورا الى حضرة مراكش انشده الشعراء يهنونه باستيلائه على اعدائه فقال أبو عمر بن حربون من قصيدة :

بلغت بكم حجج الكتاب المنزل ... ونصرتم نصر النبي المرسل
وجلوتمُ غمرات كل دجنة ... لو أن صبحا رامها لم تنجل
فرقيتم منها مراقي لم تكن ... ترقى بها قدم الصبا والشمأل
ووطئتم جبل الكواكب وطأة ... خَرَّتْ لصعقتها مناكب يذبل

---

(41) لعلّه « مصمودة » والنص منقول من المن ، وفيه كذلك « قصر كتامة » وهو القصر الكبير المعروف .

والتاح[42] نور الله يشرق فوقه … من غرة الملك الأجل الأفضل
فتبرأت تلك المعاقل منهمُ … والعقل لو رزقوه امنع معقل
ما غرهم بخليفة الله الذي[43] … ما لامرىء عن امره من معدل
ضرب الشقاء وجوههم بضلالة … تاهت بهم في جوز ليل أليل
واستعجلوا أمر الاله فجاءهم[44] … والويل كل الويل للمستعجل
عجبا لها من فتنة قد سولت … لمطوقات الايك صيد الأجدل
فسطت بهم كف الردى لما أبوا … أن يقبلوا عفو الصفوح المفصل[45]
وغدا غويهمُ برأس منيفة … يهوي الى درك الجحيم الاسفل
رضي الاله عن الامام المجتبى … وسقته انواء السحاب الهطل
ألقى لسيدنا الخليفة عهده … فزع الهمام الى الحسام المنصل
وقضى لنجلهم الكريم بحفظها … حتى الى اليوم العماس[46] الاهول
فالآن قد هدأت وقر قرارها … عند التقي الزاهد المتبتل
قرت به عين الخلافة اذ رأت … قِسْطاسَهَا بيد الامام الاعدل
ان الخليفة ان تأخر عصره … فقد احتوى خلق الزمان الأول
شرخ الشباب ودولة قد اقبلت … يا حسنه من مقبل في مقبل
ملك تسح على الورى بركاته … فتعم سائلها ومن لم يسأل
هنيت مولانا ابا يعقوب ما … خولت من فتح اغرّ محجل
قلدت جيد الملك منه تميمة … ما إن يبيت لها بليل الأوجل
قد جاءت الدنيا اليك بوفدها[47] … واستقبلتك بوجهها المتهلل
والحضرة العلياء يرقب طرفها … منكم سنا البدر المنير الأكمل
حصر اللسان وتاه في أوصافكم … فاليكموها عذرة المتجمل

وفي هذه السنة بعد غزوة جبال غمارة كان الشيخ ابو سعيد يخلف قد توجه

---

(42) بالأصل « والتاج » بالجيم وهو تحريف لفعل التاح بالحاء المهملة .

(43) بالأصل « التي » وهو تحريف ظاهر . والعبارة قرآنية ﴿ ما غرَّك بِرَبِّكَ الْكَرِيم ﴾ .

(44) بياض في ت محل « فجاءهم » .

(45) كذا بالأصل ولعله « المفضل » بالضاد .

(46) « اليوم العماس » أي الشديد . وقد تصحفت الكلمة في ط والتصحيح من م .

(47) في ط «بوفرها» والصواب ما أثبتناه من م. والقصيدة واردة بتمامها في المن، وعنه نقل المؤلف.

بعسكر من الموحدين الى جهة المرتدين من صنهاجة وكان الشيخ أبو حفص الهنتاتي بمن معه من عساكر الموحدين بجهة اخرى من بلاد صنهاجة المذكورين ورسم لهم من العمل ما ودعوا عليه فنهضوا[48] واجتمعوا وجدوا في غزوهم وسعدوا فلما فتح الله جبال غمارة واتصل خبر هذا الفتح بصنهاجة ومن جاورهم من أهل الجبال سقط ما في أيديهم ورغبوا بأجمعهم وتطارحوا على الموحدين في قبول التوبة فقبل ابو حفص رغبتهم واعلم الأمير بذلك فصفح عنهم فحين انصرف الأمير ابو يعقوب من غمارة انصرف الشيخ ابو حفص وابو سعيد بمن كان معهما من العساكر واعلموا بما اتفق من الطوع وما كان من الظفر فقال ابو بكر بن حربون [49]من قصيدة :

وجد النسيم ثناءكم فتعطرا ... ورأى الوشيج مضاءكم فتفطرا[50]
وتبسمت ايامكم عن انعم ... سمع الغمام بذكرها فاستعبرا
وجرى لها فلك السعادة بالتي ... حميت[51] على كسرى وفلت قيصرا
فالدين والدنيا معاً قد رديا ... برداته الفاروق والاسكندرا
جمع الإلهُ بهِ[52] الورى في واحد ... فتبارك الرحمن ماذا قدرا
واتى به الزمن الأخير مقدما ... فكأنما الفلك المدار [53] تقهقرا
ملك تضعضعت الملوك لبأسه ... وغدا له الزمن العنود مسخرا
أبشر فكل صباح يوم انما ... يأتيك بالفتح المبين مبشرا
وأصخ لذكر اليوسفية. إنها ... منعت مغاني الشّعب[54] من أن تذكرا
جلت علاكم أن يحاط بوصفها ... حتى تساوى من اطال وقصرا

وفي هذه السنة تحرك السيد الأعلى ابو حفص بعسكر من الموحدين الى غزو المنافقين المرتدين فسهل الله له وفتح عليه وانصرف منصورا ظافراً . وفي هذه الغزوة أمر السيد أبو حفص أبا عمر ابن حربون ان يصنع قصيدة شعر على لسانه

(48) في ط (فنهض » .
(49) في م « أبو بكر بن حزمون » وهو تحريف .
(50) في المتن المطبوع « فتأطرا » وهو أظهر ، والوشيج : شجر الرماح .
(51) في المتن « جثمت » .
(51) سقط « به » من الأصل .
(53) بالأصل «ما للفلك الدوار»وهو سقيم ولا يستقيم الوزن به، فأصلحناه بما وجدناه في المتن موافقاً له .
(54) بالأصل تحريف ، والصواب ما أثبتناه، وهو يشير إلى رائيّة المتنبي في ابن العميد«مغاني الشعب» .

يتشوق فيها الى اخيه ابي يعقوب فقال أبو عمر المذكور في ذلك :

سلام أيها الملك الهمام — على ناديك دام لك السلام
ولا زالت لك الأيام سلما — وصب على اعاديك السِّلام[55]
فأنت امام هذا الخلق طرا — متى ما زال لا زال الامام
برأيك تكشف الغماء عنهم — وينقع غلة الأرض الغمام
ولولا دولة أيدتموها — لما عرف الحلال ولا الحرام
ولا هطلت على الأرض الغوادي — ولا سجعت عل الدوح الحمام
سهرت الليل في طلب المعالي — وقام بِيُمن[56] دعوتك الأنام
يطول بنا الزمان فكل يوم — يمر ولا نراكم فهو عام
فتبسم عنكمُ هذي الليالي — كما ابتسمت عن الزهر الكمام

أخبر[57] ابو مروان عبد الملك بن محمد قال : حدثني من حضر مجلس الخليفة أبي يعقوب قال لما أنشدت هذه القصيدة المعلنة عن صفاء الضمائر وخلوص الاخاء في السرائر من السيد ابي حفص الى حضرة أخيه رأينا وجهه قد انشرح وتهلل سرورا وبشرا وتخيلناه لنوره بدرا فقام كل من حضر المجلس فبايعه ودعا له باجزل العطاء لقائلها وانصرف السيد أبو حفص ظافرا .

وفي سنة ثلاث وستين وخمسمائة

تسمى الخليفة أبو يعقوب بأمير المؤمنين وجددت له البيعة ، اجمع الموحدون على تجديدها فجددت بخلوص الضمائر وطيب السرائر ونفذ الأمر بذلك الى السيد ابي ابراهيم ابن عبد المؤمن باشبيلية معلما بتجديد البيعة والأسمية الأمامية فأخذت البيعة له باشبيلية وسائر بلاد الاندلس التي كانت تحت طاعته كمدينة قرطبة وغرناطة ومالقة وغرب الأندلس وكتبت البيعات من كل بلد وبعثت الى حضرة مراكش .

---

(55) البيتان الأولان ساقطان من م .

(56) أصلحنا كلمات تصحفت في البيت الأول « مادبك » بـ « ناديك » والرابع وينفع بـ « وينقع » والسابع « بمن » بـ « بيمن » .

(57) في م « أخبر » أي ابن صاحب الصلاة . وفي ط أخبرني ، والنص مذكورة بالمن « حدثني من حضر » .

العفو والانعام من أمير المؤمنين أبي يعقوب «رضي الله عنه» بعد كمال هذه البيعة السعيدة على المسجونين في حقه وماله وتسريحهم بفضله[58]

لما كملت على ما ذكرت من اجماع عليها من الموحدين وسرت البشائر بها في البلاد[59] ، وتيمن بارتباطها بالعدوة والأندلس[60] جميع العباد عفا عن المسجونين[61] وحط البقايا عن العمال الخائفين وامنهم من المخاوف فيما تقيد عليهم من الدواوين ، فزاد الانبساط والنشاط عند الناس بفضله وصفحه وعدله فنمت الارزاق وعمرت الاسواق وزادت المخازن وفوراً ، ودرت الخيرات على الناس درورا ، وابتنوا بمراكش الديار العتيقة ، واغترسوا خارجها أينع حديقة ، واتصل فضله في جميع العدوة الغربية والأندلسية[62] واجتمع الحب له في جميع القلوب والأنفس ، فمدحه الشعراء وأطنبوا ، فأجزل لهم العطاء فوق ما رغبوا ، فمن ذلك قول أبي عمر بن حربون[63] من قصيدته :

جاءتك تسحب ذيلها للموعد ... زهراء طالعة بسعد الأسعد
فاصدع أمير المؤمنين بدعوة ... لم تَتْرِكْ صمما لسمع الجلمدِ
يهني الخلافة ان لبست رداءها ... وقعدت منها اليوم أشرف مقعد
ومن ارتقى في سلم التقوى رأى ... زهر الكواكب بالحضيض الأوهد
ألقت أزمتها الى من همه ... في مرهف أو مصحف أو مسجد
عَلِقَتْهُ ميمونَ النقيبة زاهدا ... لم يشتغل بددٍ ولا هو من دد
انظر اليه فان غرة وجهه ... تجلو الصدى عن قلب كل موحد
فأقام قيام السماوات العلى ... عن شأن قوام له متهجد
الحق حقك ما له من دافع ... واستشهد البيض الصوارم تشهد

---

(58) هذا العنوان ساقط في ت و م .

(59) في ت و م « ولما كملت هذه البيعات وسرت البشائر في البلاد » .

(60) في ت و م « وتيمن بارتباطهم بالأندلس والعدوة فجميع . . . .

(61) في ط سقط « أمير المؤمنين. . . جميع » وفي ت بياض يتضمن « عفا عن » وفيها أيضاً : أمير المؤمنين عن جميع . . . وكذا م .

(62) في م : والأندلس .

(63) في ت : « عمرو بن حزمون » وهو تحريف .

ان الذي قد قمت تنصر دينه   اعطاك ميراث النبي محمد
لله مشهد بيعة بويعتها   فالدين والدنيا بذاك المشهد
ان الشريعة أيدت أركانها   بموفق للصالحات مؤيد
يجلو خفيات الأمور بفطنة   قد أنبأته اليوم عما في الغد
عمرت قلوب المؤمنين بحبه   واستمسكوا بعرى المتين المحصد
فاسلم أمير المؤمنين لأمة   ما شربها اذ سستها بمصَّرد
أمنتها أهوال كل مخوفة   شردن سِرْبَ الأمن كل مشرد
لولا مقامك زلزلت زلزالها   وتضعضعت شمُّ الهضاب الصخد
لولا الذي بسط الاله بفضله   في الأرض من سُلطانكم لم يُعبَدِ[64]
حط الأنام الى ذراك وأصبحوا   من ظل عدلك في النعيم الأفرد
صفت النفوس اليك حتى انها   لو سمتها الأعمار لم تتردد
غارت معطرة الثناء وأنجدت   فرمت إليك بِمُتْهِم وبِمُنجِدِ[65]
فَاهْنَأْ برضوانية ميمونة   رمت الاعادي بالمقيم المقعد
فهي المعدة للمعاد وريبه   وهي المعاد بحسم داء المعتدي
واليكها تبغي رضاك ذخيرة   سنداً أَلُوذُ به طوال المسند
لم تنتهج سنن المديح وانما   قامت بفرض في علاك مؤكد
أخذت بأطراف الثناء ولم تطق   احصاء اوصاف الجميع المفرد
أنباء فضلك لا يقام بحقها   ولو أنها كتبت بذوب العسجد

وأمر ان يكتب الصناع في سيفه : « لأمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين » فكتب فيه ذلك فقال ابن حربون مرتجلا فيه على لسان السيف :

أنا إن جرّدتُ يوماً   كنتُ بالنصر قمينا
لأمير المؤمنينَ   ابن امير المؤمنينا[66]

---

(64) جاء في البيت الرابع التقى ، وفي الحادي عشر كذلك، وفي الثاني عشر الصالحات مزيد ، وفي الرابع عشر « المبين » بدل المتين ، وفي الخامس عشر « سرتها » بدل شربها ، وفي السابع عشر « لهم » بدل شم ، وفي الثامن عشر سلطانهم . . . يعهد ، بدل سلطانكم .

(65) في ط « أهلاً وسهلاً بالأمير المنجد » ولا معنى له ولا ارتباط بما قبله .

(66) بالأصل « المؤمنين » فأثبتناه بألف الإطلاق كما هو في تاليه .

ولما كمل البشر العام ، واليسر التام ، بتجديد البيعة الميمونة أمر ابو يعقوب ببركة عامة لجميع الموحدين والعرب القاطنين ، والأجناد الأندلسيين بحضرة مراكش ايصالا للعفو الذي تقدم وافضالا ، فنفذ امره الى السادة اخوته بالبلاد الغربية والأندلسية بالإنعام بالبركة . فعم الناس فضله ورفده واستولى بهذا الإنعام المبارك سعده وتمت الجبايات والحمارات[67] وعزمت النفوس على الغزو في الحضر والبدو واتصلت الغبطة بالبيعة والأمان .

وقدم أمير المؤمنين أبو يعقوب في هذه السنة أخاه السيد ابا اسحق الى قرطبة والياً عليها ، فوصل بعسكر ضخم من الموحدين اليها واتفق الرأي المبارك على النظر السعيد والاهتبال الحميد ، بالتوجه الى جزيرة الاندلس حماها الله ، بصرف عنان الغزو الى اعدائها على قربهم وبعدهم من ارجائها ، وخاطب الخليفة بهذا الرأي المتفق عليه بعد استخارة الله تعالى لديه الى أهل الاندلس بالنظر في الاستعداد لذلك برسم الجهاد[68] .

وفي تاريخ وصول هذه الرسالة الى والي غرناطة المذكور خرجت من جهة وادي آش جملة ذميمة من خيل جراندة من المحاربين واصحابهم النصارى الكافرين أهلكهم الله تعالى فاسروا ليلتهم ونهارهم حتى وصلوا نظر مدينة رندة كلأها الله تعالى فغنموا بعضه واكتسحوا سائمته وماشيته ، وعلم بذلك الشيخ ابو عبد الله بن أبي ابراهيم بأغرناطة فحزم في أمرهم وفي حسم شرهم ، وبعث في اتباعهم ودفاعهم عسكرا كبيرا فالتقى بالأشقياء وهم بالغنائم منصرفون الى وادي آش ، [مجتمعين][69] فحين عاينوا عسكر الموحدين أووا الى جبل شاهق فحمل الموحدون أنجدهم الله على الكافرين حملة صادقة طاردوهم فيها من أول صلاة الظهر الى أن هبت عليهم ريح النصر خلال وقت العصر ، وولى الكافرون أدبارهم وهزموهم في أعلى الجبل المذكور ، وازعجوهم فيه حتى تردوا من حافاته ، وتكسرت أعضاؤهم ، وتمزقت اجسامهم ، واستولى الموحدون عليهم بالقتل والأسر والسبي

---

(67)الصواب الخراجات .

(68) الرسالة مؤرخة بالثاني والعشرين من جمادى الآخرة عام 563 = 3 إبريل 1168 . كما في تعليق هويسي .

(69) ساقطة من م .

وانفذوا الغنائم ، وحازوا اسلابهم ودوابهم وسبوا من اعلاج النصارى ثلاثة وخمسين علجا استاقوهم الى غرناطة ، فضربت اعناقهم وكان فتحا جسيماً ، فعرف به [أبو][70] عبد الله بن أبي ابراهيم الى أمير المؤمنين ابي يعقوب رحمه الله فجاوبه على ذلك بالشكر الحفيل والثناء الجميل، ومن قول أبي عمر بن حربون من قصيدة طويلة :

أليس من الآيات ان بت نائما[71] وقيصر قد أسرى لامرك خادما
وما هو الا أن دعا بشعاركم فجدل من قد كان قرنا مقاوما
بحلفكم الميمون أضحى مؤيدا على كل من عاداك بالبسط قائما
ورثتم عن المهدي نوراً وحكمة بمه اختارك الرحمن للناس حاكما
فلا زالت الآمال من كل معشر تحث إليك الواخدات الرواسما
ولا زلتم تلقون في كل شارق بشيرا عليكم بالفتوحات قادما

وفي هذه السنة استدعى العرب وخاطبهم برسالة وقصيدة يحرضهم فيها على الجهاد ويستدعيهم الى الغزو وعلى الاستعداد ويصفهم فيها بما هم فيه من الزعامة والشهامة ويستدنيهم غاية استدناء. وفي هذه السنة شغب قوم من البربر المنافقين في جبل تاسررت وحين صح خبر تشغيبهم وعنادهم عسكر اليهم السيد ابو حفص بجمع وافر من الموحدين فغزاهم واجلاهم عن ذلك الجبل وقتلهم فيه شر مقتل واستأصلهم سبيا ونفيا ، ولم يدع في حيهم حيا وانصرف فقال ابن حربون من قصيدة طويلة :

بيمنكم نجح المطلب واعطى مقادته المصعب
وأشرقت الأرض عن نوركم فلم يبق في أفق غيهب
تركتم ديارهم بلقعا فتندب من جاءها يندب
ولا غرو أن صال ليث الشرى فراغ مخافته الثعلب[72]
فمزقتم شملهم في البلا د فَفَلُّهُمُ جمل أجرب
فيهنى الخلافة ان اصبحت بصارم سيفكمُ تضرب

---

(70) سقط من ط .

(71) بالأصل « واد » لا يستقيم وزناً ولا معنىً ، فأصلحناه بما أثبتنا ولعل الصواب « وادعاً » . وكذلك « أسرى » كانت في الأصل « اسا » . ثم إن المصراع الأول من الثالث ناقص بنحو « أضحى » .

(72) سقط من ط وثبت في م .

ووصل الى [حضرة][73] الخليفة أبي يعقوب فتح بوقعة[74] كانت على المخالفين المرتدين بالمغرب وامر ان يبدأ الشعراء فيها بالحمد لله على طريق الكناية فقال ابن حربون من قصيدة[75] :

الحمد لله مدني شاسع الأمل ... وناظم الشمل في سلك من الجذل
ثم الصلاة مع التسليم يشفعها ... على الرسول الذي استوفى مدى الرسل
على الذي تممت احكام ملته ... مكارما لم تكن في سالف الملل
ومن رضاه عن المهدي احفله ... كما هدى بسناه أرشد السبل
ثم الدعاء لمولانا وسيدنا ... خليفة الله عبد المؤمن بن علي
وللامام ابي يعقوب شبههم ... ومن تَقَيُّلهم في القول والعمل
ملك تظل ملوك الأرض تتبعه ... مستبشرين بأن عدوا من الخول
وقائعا حدقت فيها القنى مقلا ... بلا جفون واجفانا بلا مقل
فإن عموا عن سبيل الرشد ويحهم ... يَاضَلَّ من ضل في مهدية الدول
شروا بعاقبة الإنعام عاقبة ... تنوسهم بين سهل الأرض والجبل
فأصبحوا عبرة تبدو لمعتبر ... مجدلين بما راموه من جدل

وفي هذه السنة لازم الموحدون حصار طبيرة حتى افتتحوها وقد كان الأمير أبو يعقوب ايام امارته باشبيلية نازلها مرتين فعصت عليه وامتنعت بمن فيها لديه حتى فتحها الله في خلافته عقب شهر ذي القعدة وكان فيها أصناف من أهل الشر ينهبون اموال المسلمين فسر أمير المؤمنين بانقطاع نفاقها الطايل السنين اذ كان فيها من اول عام ستة واربعين الى آخر هذه السنة وهي ثلاث وستون .

وفي هذه السنة وصل فرناندة النصراني صهر اذفونش صاحب طليطلة فتحها الله الى اشبيلية حرسها الله مع اخوته راغبا ان يكون خديما لأمير المؤمنين منابذاً لشيعة الكافرين . فسار منها مع أصحابه الى حضرة مراكش مهدها الله وبقي فيها خمسة أشهر تحت انعام وامتنان وعطاء جزيل واسكان حتى كاد أن يسلم وعاهد في نصح الخليفة بالخدمة المجدة

(73) سقط من ط وفي المن : « ووصل إلى أمير المؤمنين أبي يعقوب » .
(74) في ط « وقعة » بدون باء والصواب إثباتها ، كما هي في المن .
(75) مثبتة وسابقتها بالمن ، كاملتين على طولهما .

فانصرّف تحت هذا الاحسان والصلح التام وأمر بإثبات إخوته وأَصحابه مع الموحدين في كل شهر فكان ذلك وبايعه بالصلح صهره البيبوج بن اذفونش صاحب السبطاط ورغب في المهادنة وأن يكون يدا واحدة مع الموحدين وعوناً لهم [على][76] من عاداهم وكان من أمره ما أذكره إن شاء الله تعالى .

ذكر غدر العلج جراندة الجليقي اخزاه الله لبعض بلاد غرب الأندلس وحصونها

كان هذا الكلب جراندة صاحب جرأة [ونجدة][77] فلما عاين ابن الرنك نجدته وتيقظه لغدر البلاد والحصون اعانه على ذلك برجاله وسلطه على المسلمين فكان الكلب يتسلل في الليالي المطرة الحالكة المظلمة وقد اعد الآلات من السلاليم التي تعلو سور المدينة التي يروم فاذا نام السامر المسلم في برج المدينة ألقى تلك السلاليم الى جانب البرج ورقا عليها بنفسه أولا ويقبض على السامر ويهدده ثم يقول له : تكلم على عادتك لئلا يشعر الناس بنا فاذا استوفى طلوع جملته الرومية في اعلى سور المدينة صاحوا صيحة واحدة عظيمة منكرة ودخلوا المدينة وقتلوا من وجدوه واخذوا من فيها سبيا وافيا فغدر جراندة العلج المذكور لعنه الله اولا من غدراته مدينة ترجالة سنة ستين ثم مدينة يابرة في ذي القعدة من السنة وباعها من النصارى ثم غدر مدينة قاصرش في صفر سنة احدى وستين . ثم غدر حصن منتانجش في جمادى الآخرة من السنة ، ثم غدر حصن منتانجش[78] في جمادى أيضاً من السنة ثم غدر حصن جلمانية[79] على مقربة من بطليوس وسكنه بجملته الذميمة يفاتن منه بطليوس ويؤذي المسلمين فيها حتى مكن [الله][80] سيف الخليفة منه .

وفي سنة اربع وستين وخمسمائة في أولها هدأت الفتن في المغرب وصلحت البلدان وارتفعت الحروب ورخصت الأسعار ودانت الأوطار وانقطعت فتنة الضلال الجهال اهل الجبال وتابوا وأنابوا ودعوا للجهاد فأجابوا وعاينوا الآيات البينات من

---

(76) سقط من ط . أما « السبطاط » فهي CIUDAD RODRIGO .

(77) سقطت من ط وهي مثبتة في م . و« ترجالة » هي TRUJILLO ويابرة هي : EVORA وقاصرس هي C'ACERES التي أصلها « قاع أسراس الغمارية » .

(78) هي MONT'ANCHEZ .

(79) هي JURUMENIA .

لطائف الله بنصره المبين ووصول النصارى راغبين في الصلح والخدمة صاغرين طائعين ذلك . ولما صفت لأمير المؤمنين مشارب هذه الجبال من الفتن نظر في توجيه العساكر .

ذكر غيرة الخليفة ابي يعقوب بن عبد المؤمن رضي الله عنه لله للدين بتجهيز عساكر الموحدين وبعثهم لحماية الأندلس من الكفار والمنافقين

قال الراوية ان أمير المؤمنين أجدَّ[81] نظره لغرب الأندلس ونصرتها وحمايتها وقصد العمل في ذلك بنية الجهاد لله عز وجل واشفاقا على المسلمين ودفاعا عن الدين حين رأى العـدو قد فغر عليها فما ،وأسال الدموع اهلها دما .فنظر [في][82] عسكر ضخم مبارك شهم اختاره من الموحدين ووجهه صحبة الشيخ المرحوم ابي حفص عمر بن يحيى الى قرطبة تقدمة منه لما امله في نفسه من جواز الموحدين معه فكان هذا الجيش ايمن جيش اظهر على قلوب المنافقين والكافرين من الروع اعظم طيش وتيمن اهل الأندلس بوصوله وحلوله[83] وكتب إلى أهل الأندلس رسالة كريمة معرفة عنه بوعد نصره ونظره العزيز وامره .

قال مؤلفه أخبر أبو مروان بن محمد بن صاحب الصلاة قال حدثني ابو محمد سدراي بن وزير قال كان السبب في تعجيل حركة الشيخ المرحوم ابي حفص الى الأندلس بالعسكر من مراكش وصول الخبر بغدر اللعين جراندة الجليقي مدينة بطليوس وتملك ابن الرنك الغادر صاحب قلمرية[84] لها وحصار الموحدين الذين بها في قصبتها مع حافظهم أبي علي عمر بن تيمصليت وذلك في شهر رجب الفرد من عام اربعة المـؤرخ انهم في ضيقة من الحصار وتحت ضغط من الكفار فأمر الخليفة ابو يعقوب بضرب الطبول والخروج وركب من فوره فخرج من مراكش ونزل وادي تنسيفت عازماً على الغزو الى الأندلس فأقام به ثلاثة أيام على هذه النية فاجتمع رأي الموحدين ان يتقدم أبو حفص المذكور بالعسكر. وخاطب أهل الأندلس

---

(81) في ط : « جرى » . وفي م : « جد » وهذا غير ظاهر .

(82) فسقطت من ط .

(83) في ط « وحلاله » وهو تحريف .

(84) هي : COIMBRA . وسط البرتغال .

برسالة كريمة من إنشاء ابي الحسن ابن عياش شرح فيها الأحوال المعربة[85] عن الآمال ، فكان أبو حفص على ما ذكرناه وكانت حركته في شهر ربيع الآخر من سنة أربع وستين وهو تاريخ الكتب المذكور.وكان من يمن هذا العسكر انه لما وصل الى اشبيلية صحبة ابي حفص بينما هو [عازم][86] على الحركة لدفاع العدو الغادر ابن الرنك لعنه الله عن مدينة بطليوس وحماية الموحدين المحصورين بقصبتها وهو قد اعد واستعد واذا البشير قد وصل معلما بأن البيبوج بن اذفونش المعروف بالسليطن صاحب مدينة السبطاط وآبله وليون وسمورة[87] قد وصل بخيله ورجله حاميا للمسلمين دافعا لضيقة الكافرين عن مدينة بطليوس طاعة منه الى الخليفة، وقيل انه لما وصل الى مقربة من بطليوس وجه منها رسوله الى الحافظ ابي علي عمر بن تيمصليت المحصور بالقصبة مع الموحدين واهل المدينة الأندلسيين يقول لهم :اثبتوا فإني واصل اليكم لدفاع عدوكم عنكم وانظروا في معاونتي كيف ادخل اليكم بنقب الحائط بابا في قصبة بطليوس من جهة خيفة فلما تحققوا وصول البيبوج المذكور ومناشبة الحرب بينه وبين ابن الرنك فتحوا ذلك النقب وخرجوا بجمعهم منه الى باب قريب من ابواب المدينة وفتحوه وادخلوا منه العسكر المذكور فتقاتلوا بداخل المدينة مع اصحاب ابن الرنك والموحدون المحصورون يعينون اصحاب البيبوج وهم قد سووا الصفاف ولبسوا الدروع فرأى ابن الرنك من تصميم الموحدين واصحابهم في قصدهم والاقدام عليهم واصحاب البيبوج يجدون مع المسلمين على عسكر ابن الرنك حتى انهزم وفر ابن الرنك[88] مهزوما فلما اراد الخروج من باب بطليوس وهو مزعوج وفي شدايد الحرب مدروج كان عمود باب المدينة ممدوداً وقد اعده الله من جنده معدودا فانضغط اللعين ابن الرنك في الخروج فكسر عمود الباب فخذه اليمنى فسقط مغشيا عليه فاحتمله اصحابه فاتبعه قواد البيبوج المذكور واستاقوه أسيراً إليه فقيدوه في الحديد ثم بعد ذلك اطلقه برغبة النصارى له وسرحه إلى بلاده مهزوماً ذميماً ولم يركب بعد ذلك إلى أن هلك لعنه الله ، وفر جراندة الجليقي إلى موضعه حتى مكن الله منه بعد ذلك وفتح الله مدينة بطليوس ووفى البيبوج ما عاهد

---

(85) في ط « المعرفة » وما أثبتناه من م أصوب .

(86) سقط من ط .

(87) هي هكذا على التوالي : León, Avila ، Zamora وتقدم أولها .

(88) سقط من ط « ابن الرنك » وثبت في ت .

عليه فرأى بعد ذلك كثيراً من الإحسان والانعام، وكان خروج النصارى عنها في شعبان من العام المؤرخ والحمد لله على ذلك وانصرف البيبوج بن اذفونش إلى بلاده سالما بأجناده وموصوفاً عند المسلمين والنصارى بالوفاء والانجياش إلى هذا الأمر العزيز والولاء وقد ألقى الله بينه وبين ابن الرنك العداوة والبغضاء والفتنة المتصلة الشنعاء وأورثها الإخوة منهم والأبناء وكتب الشيخ أبو حفص بوصف هذا الفتح الالاهي والنصر المتناهي فسر بذلك أمير المؤمنين وشكر الله كثيراً على لطفه وصنعه فامتدحه الشعراء على ذلك[89] الصنع الاجمل واللطف الأكمل فقال أبو العباس الجراوي من قصيدة :

نظر بكل سعادة مقرون ... نالت به الدنيا المنى والدين
تقديم من شهد الوجود بأنه ... ما زال بالتقديم فيه قمين
علق ثمين زينت الدنيا به ... وافاه علق الملك وهو ثمين
تغزو المهابة عنه كل معاند ... ولو انه اشتملت عليه الصين
وتشب حيث توجهت عزماته ... حربا كما وصفت لنا صفين
ان اصبحت وهي البرامك أمة ... ظلماً فإنّ حسامه هرون[90]
من قيس عيلان الذين سيوفهم ... ابدا تصول ظباتها وتصون
دانت لهم في الفخر كل قبيلة ... من شأنها أن لا تكون تدين
وكفاهم أن كان منهم مفخراً ... معنى الوجود وسرها المكنون
ملك إذا اضطرب الزمان مخافة ... لم يعيه التسكين والتأمين
ألقى على أهل الضلالة كلكلا ... فلهم عويل تحته وأنين
وجرى إلى الأمد الذي لم يجره ... ملك ولم تصعد إليه ظنون
عذراً أبا يعقوب إن علاكم ... قد أفنت الأمداح وهي فنون
لا يبلغ المنثور بعض مآثر ... صانت لك[91] العليا ولا الموزون
كم مدحة لك بعدها من فوزة ... تزن المدايح كلها وتزين
لو لم يسد إلا نظيرك لم يحز ... فيه الأمين مدىً ولا المأمون

(89) في م « هذا » .

(90) في ط اضطراب هكذا « في ظلما فحسامه » والمثبت من م ، وهو أوفق .

(91) بالأصل هنالك ولعل « صانت لك » صواب ، فأثبتناه استظهاراً .

قـد كـان مـا قـد قلت يـرقب حينـه حتـى أتـى ولـكـل شـيء حيـن
مـا زال امركم الـذي هو عصمـة والـعـز لا يـعـدوه والـتـمـكيـن

وقال أبو عمر ابن حربون من قصيدة طويلة[92] ثبتت في موضع غير هذا أولها :

بسعدك أضحى الدين جذلان باسما وباسمك امسى الشرك للشرك هادما
الا إنـهـا فيـمـا وعـدت لآيـة يـدين بها من كـان بـالله عـالمـا
بـراهين صـدق مـا تـزال ولم تـزل تثبت يـقـظانـا وتـوقظ نـائـمـا

ذكر حركة الشيخ أبي حفص عمر بن يحيى من إشبيلية إلى قرطبة بعد قصبة بطليوس بما وصل معه منتدباً في معونة السيد أبي اسحاق بن الخليفة على جهاد المحاربين

قال الراوي : لما وصل أبو حفص الى قرطبة زادت به فلاحا ونجاحا واغتبـاطا وصلاحا وروع الله قلوب المحاربين وقدح في نفوسهم من زناد الغلبـة عليهم قداحـا وتجلى لابراهيم بن همشك في هذه المدة من نور الهدى ما اسرج له مصباحا وابصر به التوحيد صراحا ووحد ابن همشـك المذكـور ، وكانت قـد نشأت الفتنـة بينه وبين صهره محمد بن سعد بن مردنيش والعداوة والبغضاء سراً واعلاناً وخافـه ابن همشك على نفسه فانقطع من مواصلتـه وزيارتـه زمانـاً وزاده روعاً وفـزعاً قتله لـوزيريـه ابني الجذع وبناهمـا في الحائط بمـرأى منه وقتله لابن صـاحب الصلاة الغـرناطي وغيـره بالجوع وكـانت ابنة ابـراهيم بن همشك زوجتـه فطلقهـا ابن مردنيش في هـذه المدة وطـردها الى ابيهـا مهانـة فعند ذلـك تطارح ابن همشـك على الشيخ ابي حفص في الطاعة والتوبة وان يصدق متابه بظهور النصح منه بتمكين المـوحـدين من بلاده بأوفى ود وطاعة ومحبة فوصل قرطبة في رمضان فقبـل أحسن القبول ورحب بـه وانيل كـل المأمول وكتب إلى الخليفة معلماً بمتابه ، فجاوبه بتقريبه واستجلابه واتصلت البـلاد التي كـانت بيده ببـلاد الموحـدين وأمنت من الفتنة الـطرق والـرفـاق وارتفع في تلك النواحي المرق والنفاق وعندما اتصل تـوحيد ابن همشـك بمحمد بن مـردنيش أميره سقط في يده وتحقق أن ساعده قد كسـر من عضده فحملته الآنفة والعجلة أن يـأمر

---

(92) ذكرت القصيدة في المن ، وعنه نقل المؤلف .

قواده وأجناده ان يفاتنوا بلاد ابن همشك ويحاربوهم ويضيقوا عليهم فامتثلوا ذلك فدامت الفتنة بينهم أكثر من سنة كاملة ودارت بينهم الشحناء على الاستدامة وألقى الله بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة ولم يزل ابن همشك يستغيث بالموحدين من عدوه ويستنصرهم عليه ويستصرخهم إلى غزوه ، وفي هذه السنة مدة إقامة أبي حفص بقرطبة توجه ابنه أبو يحيى والياً على بطليوس واشتغل الخليفة بحفر بير في داخل القصبة يسير إليها ماء الوادي استعداداً لما يخاف من المنازلات فسار إليها في هذه السنة جملة موفورة من الموحدين والاجناد الأندلسيين واستوطنها وأنس أهلها وسكنها وجد في حفر البير المذكورة وجلب اليها الماء فتحصنت القصبة وقرت بها النفوس آمنة .

وفي مدة اقامته فيها دارت بينه وبين جرانـدة النصراني حروب صبر فيها أبو يحيى واستبد بدفاع اللعين ودام على جهاده شهوراً الى أن احتال العلج في خدعة من الحرب صنعها وأوقعها واستدعى جملة ذميمة من النصارى أهل شنترين ووصل بهم الى موضع كمنهم فيه ومشى هو في جملته المعلومة له واغار على جهة بطليوس فركب الحائط أبو يحيى وأصحابه والأجناد معه مسرعين في اتباعه وفر أمامهم العلج مظهراً الروع وطلب النجاة في إسراعه حتى وصل موضع الكمين فخرج على المسلمين فأسروا جملة منهم الى ان فدى اكثرهم بماله . وبعد هذا انصرف عن بطليوس .

وفي هذه السنة استدعى أمير المؤمنين أبو يعقوب أخويه السيدين أبا إبراهيم الوالي باشبيلية وأبا إسحق الوالي بقرطبة واستدعى معهما الشيخ أبا عبدالله بن أبي إبراهيم الوالي بغرناطة مع حفاظهم[93] وعمال البلاد ليصلوا الى حضرة مراكش فأسرعوا إلى استدعائه وتحركوا من الأندلس في جمادى الأولى من السنة المؤرخة وأقاموا بالحضرة إلى أول سنة خمس وستين وانصرف السيدان المذكوران وصحبهما أخوهما أبو علي الحسن الوالي على سبتة وأقام الحافظ أبو عبدالله بن أبي إبراهيم بالحضرة وبقيت اغرناطة تحت حكمه حتى جاز صحبة السيد أبي حفص على ما يأتي .

(93) في م « حافظهم » .

وفي سنة خمس وستين وخمسمائة

في أول صفر منها ولى أمير المؤمنين أخاه أبا علي الحسن بمدينة سبتة وأنظارها وجميع اقطارها وجبال غمارة فتحرك إليها من الحضرة وانصرف السيدان الأجلان معه أخوه إبراهيم إلى إشبيلية وأبو اسحاق الى قرطبة على أولهما .

وفي هذه السنة خرج العدو النصراني القمط نونه من طليطلة بعسكره الذميم وأغار على رندة وجبالها وفحص الجزيرة الخضراءوجبالها [أيضاً][94] حتى وصل البحر وقتل المسلمين في تلك الأقطار وأسرهم فيها واكتسح سائمتهم[95]وفيها حدثت زلازل عظيمة عند طلوع الشمس وعند زوالها في جمادى الاولى في بعض بلاد الأندلس فكان الرائي يرى الحيطان تضطرب وتميل الى الأرض ثم ترتفع وترجع الى حالها بلطف الله تعالى وتهدمت من ذلك ديار كثيرة وصوامع مساجد بمدينة قرطبة واغرناطة واشبيلية ، وفي هذه السنة في رجب زاد ضعف مدينة بطليوس من [عدم][96] القوت فنزل الروم عليها وقطعوا جميع المرافق الداخلية إليها فنظر اليها الموحدون الذين كانوا باشبيلية في ميرة موفورة من الطعام والآلات والمحلات لتحمل إليها فاجتمع في ذلك نحو خمسة آلاف دابة موفورة بما ذكر وتقدم عليها الحافظ أبو يحيى زكرياء بن علي بعسكر إشبيلية فوصل بالميرة المذكورة والعسكر إلى مقربة من بطليوس فخرج عليهم اللعين جرانده بأهل شنترين وغيرهم فانهزم المسلمون وقتلوا وأسروا وانتهبت الميرة وذهبت بكليتها وكان ذلك في يوم الخميس السادس والعشرين من شعبان ، وفي هذا اليوم استشهد الحافظ المذكور ووصل الخبر إلى أبي حفص بقرطبة وإلى الموحدين بأشبيلية فساءهم ذلك وعرفوا به الحضرة .

وفي هذه السنة ألح ابن مردنيش بالفتنة على بلاد ابن همشك واستكفى عليه بعسكره الشرقي وحلفائه النصارى فاستغاث ابن همشك بالموحدين وكثر صراخه وشكا حاله واوجاله وكتب بذلك الشيخ أبو حفص الى الحضرة معيناً لابن همشك بكتابه ومصدقاً له فيما استغاث به من عدوه فاجتمع الرأي ان يتقدم اليه السيد أبو

---

(94) سقط من ط .

(95) في ط « قائمتهم » وهو تحريف ، والتصحيح من م .

(96) سقط من ط .

حفص من مراكش بعسكر لغزو ابن مردنيش وحلفائه النصارى الذين كانوا معه أهلكم الله تعالى .

ذكر حركة السيد أبي حفص ابن الخليفة عبد المؤمن لغزو ابن مردنيش وحصاره حتى فتح اكثر بلاده

فخرج السيد المذكور من حضرة مراكش في أول ذي القعدة من سنة خمس وستين وخمسمائة مسارعاً لنصر جزيرة الأندلس وصحبه في هذه الغزوة اخوه أبو سعيد وجماعة من أبناء اشياخ الجماعه وأهل خمسين واختص من الصنف الأندلسي[97] أبا محمد سدراي بن وزير وأخاه أبا الحسن وأشياخاً فرساناً من الأجناد الساكنين بمراكش من الأندلس انتخبهم واستصرخهم لمعرفتهم بالحروب في بلادهم ومذاكرتهم في مشاورتهم فنهض السيد بعساكره وجيوشه والسعد أمامه يقدم اعلامه حتى أجاز البحر ووصل إشبيلية في آخر عام خمسة وستين فأراح بها للنظر في الأمور الى أن وصل الشيخ أبو حفص من قرطبة وصحبه إبراهيم ابن همشك بأصحابه المختصين به فاجتمعوا خير مجتمع وأحسن مرأىً ومسمع وتشاوروا في الرأي أن يتوجه السيد أبو سعيد أولاً إلى مدينة بطليوس .

وفي سنة ست وستين وخمسمائة

توجه السيد أبو سعيد الى بطليوس لإحياء رسمها بعد مماتها وإخراج النصارى عن جنباتها بعسكر من الموحدين ومن أهل الأندلس والعرب فوصلها في أيمن طالع وكان من الاتفاق الحسن أن وافق وصوله خروج البيبوج بن اذفونش السليطن بعسكره قاصداً بطليوس ليسترجعها للمسلمين لما رأى عدوه ابن الرنك قد قارب التغلب عليها بالحاح جراندة على أسوارها وصح خروجه عند السيد وأنه قد وصل بعسكره إلى الفحص المعروف بالزلاقة على مقربة بطليوس ووجه إليه السيد أبا محمد ابن وزير وأبا العلا ابن عزون وأشياخ الأجناد العقلاء الألباء للقائه واستفهامه عن خروجه وهل هو باقٍ على الصلح المربوط معه أم لا فوصلوا إليه فرحب بهم وقال إنما خرجت لحماية بطليوس وإمساكها لأمير المؤمنين فشكروه على ذلك وعرضوا عليه

(97) بالأصل « الأندلس » ولعله كما استظهرنا فأثبتنا .

تجديد الصلح فأجاب إلى ذلك حتى كمل الغرض المراد واتصل العهد والسداد وانصرف البيبوج بعسكره إلى بلاده وكان تيسيراً من الله تعالى وتحرك السيد من موضع اجتماعه بالبيبوج وصلحه إلى حصن جلمانية فافتتحه عنوة وهدمه وانصرف إلى إشبيلية في ربيع الأول من السنة المؤرخة .

ذكر تغلب السيد أبي حفص بن عبد المومن رحمه الله على بلاد محمد بن سعد بن مردنيش

وفي هذه السنة تحرك السيد أبو حفص من إشبيلية إلى ابن مردنيش وذلك بعد انصراف أخيه أبي سعيد من مدينة بطليوس على اليسر الذي صنع الله له ، ولما اجتمع السيد أبو حفص مع أخيه اعادوا نيتهم على غزو عدوهم ابن مردنيش فتحركوا من إشبيلية الى قرطبة وصحبهم ابن همشك وذلك في رجب ، فلما وصلوا قرطبة أقاموا بها أياماً ثم رحلوا عنها فأول مدينة نازلوها مدينة قيجاطه [98] فافتتحوها بعد قتال ونزال ثم اقلعوا منها مغيرين على بسايط بلاد ابن مردنيش في طريقهم مستصحبين الظفر في عدوهم حتى وصلوا مدينة مرسية فنزلوها وتغلبوا على حصن الفرج[99] الذي كان منتزه ابن مردنيش واستباحوا الرياض والبساتين وما اتصل بها من البسائط والقرى وابن همشك يدل الموحدين على عورات عدوهم وعدوه وينكيه في رواحه وغدوه وظهرت الغلبة على ابن مردنيش وعلى عسكره بالحصار وفشا الخور في احلافه الكفار وكل من استدعى من النصارى افردوه واسلموه واخلفوا وعده واستقلوا رفده فلم يصل اليه منهم الا نحو أربع مائة فارس فوجههم الى مدينة لورقة [100] لضبط قصبتها مع قائده ابن عيسى فضبطها وحصنها فلما طالت هذه النازلة ودخل الخلل في حال ابن مردنيش واعتلت نفسه بالفكر والمرض ورأى الناس ان حاله قد حالت وزالت ، قامت العامة من أهل مدينة لورقة بدعوة الموحدين فاحتصن من كان بها من رجال ابن مردنيش والنصارى بقصبتها ووثقوا بمنعتها فخاطب أهل لورقة السيد أبا حفص يعلمونه بقيامهم بدعوة الموحدين ويستصرخونه بنصره لهم على

---

(98) QUESADA .

(99) AZNALFARACHE والمراد هنا AZNAL FARACHE DE MURCIA عن هويسي .

(100) LORCA .

عدوهم فأقلع السيد عن مرسية قاصداً لهم فاحتل بمدينة لورقة وملكها واستوطن ارباضها وبسايطها وبقيت القصبة بمن فيها وعليها القائد ابن عيسى فكان من قضاء الله ان خرجت سرية من محلة الموحدين للغزو في بسايطها واتفق لهم ان اخذوا محمد بن القائد بن عيسى واستاقوه إلى السيد فأمر أن يحمل إلى أبيه بقرب من القصبة عساه يتخلى عن القصبة فامتنع من الإجابة إلى ذلك وطال الحصار على القصبة حتى نفد لهم القوت وتغلبوا على ابن عيسى بالقول والكلام حتى اذعن لهم في رأيهم فنزل ابن عيسى المذكور عن القصبة مع النصارى وأصحابه واخلوها ودخلها الموحدون ودفع الابن إلى أبيه ورجعا إلى ابن مردنيش بمرسية وانصرف الروم الى بلادهم طالبين النجاة بأنفسهم وانصرف أبو حفص والموحدون بجملتهم لحصار مرسية واستولوا على ما جاورها من البلاد : .

ولما انصرف السيد المذكور من فتح لورقة الى حصار مرسية طاع له جهل حصن ألش [101] ووصلوا اليه ثم وصل أهل الحصون المجاورين لهم ثم افتتحت مدينة بسطة [102] ودخلت في طاعة الموحدين وأمن أهلها واتصل عند أهل الشرق هذا الفتح وهذا الأمان والصلح فبادروا بالطاعة والدخول في حزب الجماعة ولم يزل ابن مردنيش في حصار في عقر داره والنكبات تترادف عليه من انقلاب [103] إخوته واصهاره وتحولهم عن طاعته وهو مكمود مفئود قد أسلمه القريب والبعيد وظهر له من أخيه يوسف التقصير وتحقق منه الانحراف والميل للموحدين فزادت كبده ألماً واتصلت نفسه سقماً فلازمته العلة المزمنة ومنها كانت منيته وقام بالمرية محمد بن مردنيش المعروف بصاحب البسيط ابن عم صاحب مرسية وصهره على اخته بدعوة الموحدين وأعانه على قيامه محمد بن هلال صاحبه وتقبضا على الوالي بها من قبل صاحب مرسية وخاطبوا بذلك السيد أبا حفص فوجه إليهم عسكراً من الموحدين معيناً لهم واتصل الخبر بابن مردنيش بمرسية فأمر بقتل أخته وقتل بنيه منها وأمر الموكل بعذاب الناس ان يحملهم إلى البحيرة [104] وكانت متصلة بالبحر فأدخلهم في قارب منها ودخل معهم فيه وغرقهم في البحيرة على

---

(101) ELCHE .

(102) PAZA .

(103) ساقطة من ت .

(104) يريد ALBUFERA DE VALENCIA .

أشنع حال وأقبح مقال واختل ذهن ابن مردنيش في اثر ذلك وقل عونه من الله ومن الناس هنالك وعاد صبحه كالليل الحالك وفزع من أذايته جميع قرابته وسائر أهله وشيعته وعند اتصال هذا الفتح والنجح واليمن الشامل والجهاد المتواصل جاز الخليفة أبو يعقوب الى جزيرة الأندلس في السابع والعشرين لرمضان من سنة ست وستين المؤرخة ووصل اشبيلية في اليوم الثاني عشر لشوال .

اختصار الخبر عن حركة أمير المؤمنين أبي يعقوب بن عبد المؤمن من حضرة مراكش وجوازه إلى الأندلس

لما تقدم أخوه أبو حفص بالمعسكر المؤيد الى الأندلس كان هو مريضاً بمراكش وكان مع مرضه وضعفه نيته في الجهاد والنظر في مصالح العباد فاستدعى العرب من إفريقية وقدم لهذه الغزوة الحافلة الصدقات وفعل الخيرات ولم يزل ينظر في الغزوة التي وعد بها الموحدين مع شدة مرضه وطوله فان مرضه كان من أول سنة خمس وستين واستقل(105) خرج إلى صلاة الجمعة في السادس عشر لربيع الأول من عام ستة وستين فكانت علته أربعة عشر شهراً وخمسة عشر يوماً لكنه كان يدخل إليه وزيره أبو العلا ادريس بن أبي اسحاق بن جامع يعلمه بالمخاطبات الواصلة والأخبار المسلية السارة المتجاملة وإذا وصلت مسرة شرح له ما اتصل جماله وغير ذلك يقع منه السكوت عليه حتى وصلت مخاطبة من السيد أبي حفص أخيه في معنى الغزو فعرفه بها وأمره بالجواب عليها واستدعاء العرب من إفريقية وخاطبهم بهذه القصيدة من قول ابن طفيل وهي :

اقيموا صدور الخيل نحو المغارب ... لغزو الاعادي واقتناء الرغائب
واذكوا المذاكي العاديات على العدى ... فقد عرضت للحرب جرد السلاهب
فلا تُقْتَنَى الآمال الا من القنى ... ولا تكتب العليا بغير الكتائب
ولا يبلغ الغايات الا مصمم ... على الهول ركاب ظهور المصاعب(106)
يرى غمرة الهيجاء أعذب مشرب ... وإن اعرضت زرقا جمام المشارب
ويأنف(107) الا مكسباً من حسامه ... ويعرض عزا عن جميع المكاسب

(105) بياض بقدر كلمة.

(106) بالأصل « فلا . . . على الجد . وما أثبتناه من المن ، لكونه أليق .

(107) بالأصل « وما الفخر » والصواب ما أثبتناه من المن .

الا فابعثوها همة عربية ... تحف [108] بأطراف القنى والقواضب
أفرسان قيس من هلال بن عامر ... وما جمعت من طاعن ومضارب
لكم قبة للمجد شدوا عمادها ... بطاعة أمر الله من كل جانب
دعوناكمُ نبغي خلاص جميعكم ... دعاء بريئاً من جميع الشوائب
نريد لكم ما نبتغي لنفوسنا ... ونؤثركم زلفى بأعلى المراتب
فلا تزهدوا في نيل حظكم الذي ... لكم فيه فوز من جميع المطالب
بكم نصر الإسلام بدءاً فنصره ... عليكم وهذا عوده جد واجب
فقوموا بما قامت أوائلكم به ... ولا تغفلوا إحياء تلك المناقب
ومن ذا الذي يسمو ليبلغ شأوكم ... إذا كنتمُ فوق النجوم الثواقب
نصحناكمُ والنصح في الدين واجب ... بما لكمُ فيه صلاح العواقب
وانتم على التخصيص اجدر من بنى ... بذروته بيتا رفيع الذوائب
فانكم قيس وفرسان ربنا ... على الأرض من قيس بغير مغالب[109]
خذوا حذركم[110] فالأمر جد وإنما ... يكون بقدر الجد قدر المناصب
وقد فاز بالتقديم منكم معاشر ... بما قدموه من حميد المذاهب
تحث بهم نحو البدار إلى العدى ... عتاق جياد أو عتاق نجائب
فطاروا إلى الداعي سراعاً كأنهم ... قداح تلقى الفوز من رمي ضارب
فخصوا من التكريم والبر بالذي ... يكون جديراً بالولي المصاقب
فنالوا محل السبق فانفسحت لهم ... رياض الأماني سائحات المذانب
وقد شاهدوا من حرمة الأمر ما قضى ... لهم بأمان من جميع النوائب
وقد كان من أقوالكم ما علمتم ... فان كان فعل فالرجا غير خائب
وليس خطيب الصدق من قال فانبرى ... ولكن فعل الحر أصدق خاطب
وما خلق الأعراب اخلاف موعد ... ولكن صدق الوعد خلق الأعارب
سنعلم من أوفى ومن خاس عهده ... ومن كان من آت إلينا وذاهب
وتظهر أحوال يروق سماعها ... فيرغب في أمثالها كل راغب

---

(108) بالأصل « تخف » بالخاء ، والأوجه ما في المن بالحاء ، كما أثبتناه .

(109) سقط بعده بيت هو « وخاطبكم عنا بيان محصحص ... يشق سناه داجيات الغياهب »
وقد حل هذا محل الثاني من الأول فيما عدا ت ، وهكذا بالمن .

(110) تعبير قرآني ، وفي م « حظكم » ولا معنى له هنا . وسقطت أبيات سبعة بعد « وقد شاهدوا » .

وإن العرب تأخروا قليلاً فخاطبهم بقصيدة من قول ابن عياش يستعجلهم وهي :

أقيموا إلى العلياء عوج الرواحل ... وقودوا إلى الهيجاء جرد الصواهل
وقوموا لنصر الدين قيمة ثائر ... وشدوا على الاعداء شدة صايل
واسروا بني قيس الى نيل غاية ... من المجد تجنى عند برد الاصائل
تعالوا فقد شدت الى الغزو نية ... عـواقبهـا مـقصـورة بـالأوائـل
هي الغزوة الغراء والموعد الذي ... تنجز في أفق الهدى بدلائل
فطيروا إليها يا هلال بن عامر ... ثقالاً خفافاً بين حاف وناعل
ولا تخدعوا عن حظكم باجابة ... تبوئكم في المجد أسنى المنازل
فما همنا الا صلاح جميعكم ... وتسريحكم في ظل أخضر هاطل
وتسويغكم نعمى ترف ظلالها ... عليكم بخير عاجل غير آجل
فلا تتوانوا فالبدار غنيمة ... وللمدلج الساري صفاء المناهل(111)

ولما وصلت الى العرب هاتان القصيدتان واوضحوا قراءتهما وتبينت لهم معانيهما وفصاحتهما وما فيهما من التحريض على جهاد الكفار أجابوا إلى الطاعة بأجمل البدار ووصلوا بجميعهم إلى السيد الأسنى أبي زكرياء يحيى بن عبد المومن ببجاية فتحرك معهم الى مراكش ووصل أيضاً العمال والأمناء أبو محمد عبد الواحد صاحب تونس وأنظارها وأبو زكرياء يحيى الهنتاتيان ومعهما النعمان وغيره بهؤلاء العرب والخيل والاموال ولما وصلوا تلمسان صحبهم السيد أبو عمران موسى بن الخليفة أيضاً بما عنده من العساكر والأموال والعمال ، وكان عدد الخيل الواصلة من إفريقية أربعة آلاف فرس ومائة وخمسين [وكان الذي وصل من تلمسان ونظرها ألف فرس وخمسين](112) حملا من المال الصامت وبلغ الخبر السار بوصول السيدين والعرب وكان أمير المؤمنين أبو يعقوب قد استقل فتمكن سروره واستقلاله وخرج الى المسجد الجامع يوم الجمعة الثامن عشر لربيع الآخر وخطب أبو محمد المالقى الخطبة المعلومة فاستبشر الناس وشكروا الله على شفائه وبعد ذلك بيومين دخل عليه أشياخ الموحدين وطلبة الحضر وسلموا عليه ودعوا له وهنوه على عافيته وخطب الفقيه القاضي أبو يوسف حجاج بن يوسف خطبة بليغة في معنى الشكر لله والدعاء بالنصر والتأييد لأمير المؤمنين وتلاه الفقيه

---

(111) في المتن أبيات أخرى لم ترد هنا . والبيت السادس من المذكورة قرآنيُّ التعبير : « ثِقَالاً خِفَافاً » .
(112) ما بين معقوفتين زيادة من م وحدها .

أبو محمد المالقي بمثل ذلك ثم أمر بعد ذلك بالصدقة والحنان والإنعام والإحسان وأمر رحمه الله لكل واحد من الخدام بما أمَّله من الإنعام ، فجزاه الله من خليفة خيراً ، ونفذ الأمر بلقاء السيدين والعرب الوافدين من إفريقية بالتبريز الكامل ضحوة يوم السبت الثاني لشهر ربيع الآخر من السنة فخرج أمير المؤمنين للقائهم وخرجت معه الجيوش والعساكر في زينتهم وفي ساقة أمير المؤمنين على قُرب أخوه أبو عبدالله المخلوع وإلى جانب أبي عبد الله المذكور سائر الاخوة الصغار وأمام العسكرية ستة عشر علما كبار من البنود المذهبة فلما وصل الفحص العريض فوق باب الشريعة والطبول قاصفة والجيوش متكاثفة أمر بضرب قبة ونزل بها مع إخوته وبنيه ولما نزلت[113] العساكر الواصلة مع العرب مع أهل إفريقية والسيدين المذكورين أشار إليهم أن تحمل العساكر الوافدة والبارزة بعضها على بعض جرياً ولعباً وفرحاً وطرباً ورأى النظارة فيهم عجباً وأمر الوافدين بالنزول والسلام وتقدم الأخوان السيدان أبو زكرياء وأبو عمران ثم أشياخ الموحدين ثم أشياخ العرب ثم أمرهم بالانصراف إلى المدينة والعرب إلى مضرب محلتهم .

ولما كان اليوم الثاني من البروز المذكور بايعه أشياخ العرب وعامتهم وأخذ العهود عليهم وخرج أمير المؤمنين أبو يعقوب الى البحيرة لمعنى اطعامهم والترحيب بالمامهم بعد صلاة يوم الجمعة الثاني والعشرين من ربيع الآخر من السنة فأطعم العرب وغيرهم مدة خمسة عشر يوماً يدخل كل يوم في البحيرة أكثر من ثلاثة آلاف رجل وقد صنع ما تقدمت به العادة وهو نهر من رب ممزوج بالماء كلما أكلت طائفة سلمت على الخليفة ونهضت إلى ساقية الرب تشرب وتطرب ورأى الناس في هذا الاطعام ما لم ير قط من الاكرام والاهتمام. ولما كان في آخر الأيام المذكورة حدث بين صبيان الموحدين وبين اتباع العرب الوافدين نزاع ودفاع بهوشة وقعت بين الفريقين ادت الى اختطاف ثياب الناس في الطريق من كل فريق فمات فيها بعض العبيد فعتب العرب بسبب جرأتهم على سوء الأدب ثم إنهم تطارحوا على العفو من قبيح ما جنوا[114] أتباعهم وعبيدهم وأشياعهم واعتذروا من فعل من لا خلاق له ، فقبل منهم عذرهم وأمر بجري اطعامهم والتمادي على اكرامهم مدة أيام ثم أمر بتمييزهم وتمييز الموحدين وغيرهم ، ولما كان يوم الأحد الثامن من جمادى الأولى

---

(113) في ت : ونزلت .

(114) (كذا) على لغة أكلوني البراغيث .

أمر بتمييز العرب الوافدين ومن وصل معهم وأن يحضروا بين يديه في رحبة قصره بدار الحجر بداخل حضرته وأمروا أن يدخلوا كل يوم بعدد معلوم من القبيل[115] المأمور به ، وكان الذي ابتدأ أول يوم قبيلة زغبة فتمادى التمييز خمسة عشر يوماً ، ولما كان غرة جمادى الآخرة ميز الموحدون على عدد قبائلهم وتسمية منازلهم وتمادى تمييزهم خمسة عشر يوماً أيضاً ثم أمر بإخراج البركة للعرب الوافدين ولجميع عساكره الموحدين وكان خروجه من مراكش يوم السبت الرابع من شهر رجب الفرد من سنة ست وستين على باب دكالة في أحسن هيئة وتعبئة وقد قدم امامه مصحف عثمان بن عفان رضي الله عنه على جمل مرتفع عليه قبة حمراء لتصونه وهو منظم بالجوهر والياقوت الأحمر والأصفر فسار على أحسن هيئة وتعبئة والعساكر وراءه قد ملأوا الأرض بالطول والعرض حتى وصل رباط الفتح فميز بها العساكر والجيوش فاجتمع في عسكر الموحدين عشرة آلاف فارس وفي عسكر العرب عشرة آلاف فارس دون المطوعة والناس وكان اكثر الجيش مع السيد الوزير أبي حفص بالأندلس محاصراً ابن مردنيش .

واتصل سير أمير المؤمنين حتى وصل قصر مصمودة وابتدأت العساكر بالإجازة في أول شهر رمضان وأجاز البحر هو مع خاصته في السابع والعشرين منه فتلقاه أشياخ اشبيلية وأهل الأندلس بجزيرة طريف ثم تحرك إلى إشبيلية فوصلها يوم الجمعة الثاني عشر من شوال بالتبريز الحفيل وخرج الناس إليه من الاسراع بما دل على حسن طاعتهم ادل دليل فأقام بها عشرة أيام ثم رحل الى قرطبة فوصلها في غرة ذي القعدة ووجه عسكرا منها إلى طليطة وقدم عليه ابن تفراجين وأشياخ من الموحدين وانصرف إلى قرطبة فعيد بها عيد الاضحى فخرج يوم العيد على عادته إلى الصلاة وصلى به الخطيب أبو محمد المالقي وانصرف الى دار الإمارة وجلس في اليوم الثاني في مجلس قصره للسلام عليه والتهنئة إليه وأدخل الوزير أبو العلا ابن جامع من تقدمت عادته بالإدخال[116] من أشياخ الموحدين الكبراء وطلبة الحضر والقضاة والفقهاء والكتاب والأولياء ودخل معهم الشعراء والأدباء بما صاغوه من اشعارهم في المديح والتهنئة فقام أبو

(115) في الأصل « القبائل » وفي م « القبيل » وهو أوفق .
(116) في م : بالدخول .

[محمد][117] عبد الله بن محمد الشلبي فأنشد :

شرف الخلافة ان ملكت زمامها	وغدوت من عقب الامام امامها
طبع الالاه لها حساما صارما	يحمي جوانبها فكنت حسامها
ورأت عداة الله ان حماتها[118]	من قيس عيلان فكنت حمامها[119]
فعلى رماحك ان تشق صدورها	وعلى سيوفك ان تفلق هامها
وعلى جيوشك ان تدوخ ارضها	وتدوس في عرصاتها أصنامها
وعلى الخلافة ان تلوذ بسيد	يجري على سبل الهدى أحكامها
قسطاس عدل لا يميل فإن رأى	ميل الشريعة أمها فأقامها
يطفي الحروب اذا توهج جمرها	ولربما خمدت فشبَّ ضرامها
واذا أسود الحرب هاج عرامها	عانى بحد المشرفي عرامها
ما البأس الا ما تضمن سيفه	لا من تضمن بعضها صمصامها
ما السعد الا ما تنال وفوده	وذر السعود فقد غدت خدامها[120]
فاهنأ أمير المؤمنين بدعوة	عقد الالاه ذمامكم وذمامها
وتكفل الرحمنُ نصرة ملككم	وامد مدة عمركم وأدامها

واقام الخليفة أبو يعقوب بقرطبة إلى آخر ذي الحجة من السنة وانصرف الى اشبيلية .

ولما دخل إشبيلية على الهيئة المعلومة من السرور والتبريز الذي لم ير الناس مثله بالأندلس في الحديث والقديم امتدحه الشعراء بما جزل لهم العطاء فمنهم ابو العباس بن سيد والجراوي وغيرهما فقال أبو العباس الجراوي من قصيدة طويلة يمدحه فيها ويذكر ابن مردنيش :

حللت من العلى اسمى ذراها	وجاريت النجوم إلى مداها
وواليت السماح فقد تناهت	أمانٍ للعفاة وما تناها

---

(117) سقط من ط .

118) في ت : « حمامها » وكذا في م ، والمن .

(119) في ت : حمامها ، وفي م : حسامها .

(120) في ط : وذوو .. طوامها ، ولا معنى له والتصويب من المن .

وجــودك نــعــمــة لله عــمــت ... وجــودك نــعــمــة أخــرى ســواهــا
أرى ذاك[121] الــزمــان وشــاء الا ... تــقــارن في الأمــور ولا تــضــاهــا
وصلت وصلت فــالامــواه تــجــري ... وغلب الأســد تحذر[122] في شــراهــا
وعــذر الشمس لــو حــســدتــك بــاد ... لأن ســنــاك اشــهــر مــن ســنــاهــا
تــنــال الــمــارقــيــن بــكــل ارض ... ولا طــارت ولا نــقــلــت خــطــاهــا
لقــد أخنى الــزمــان على الــنصــارى ... بــوطء مــؤيــد صــدعــت صــفــاهــا
وانــصف بــعــضــهــا الاســلام مــنــهــا ... وادرك في الــعــقــوبــة مــنــتــهــاهــا
خــطوب أذهــلت عــقــل ابــن ســعــد ... وذادت عــن لــواحــظه كــراهــا
وقــد كــانــت تــشــد بــهــا قــواه ... فــمــا لــغــيــبــت قــواه ولا قــواهــا
يــردد آه مــن أســف وحــزن ... ومــا تــنــجــي مــن الــغــمــرات آهــا
وهــل يــبــقــى وقــد فــغــرت إلــيــه ... مــنــيــتــه الــمــريــحــة مــنــه فــاهــا
لــقــد ولــى عــن الــخــيــر اخــتــيــارا ... ووالــى الــلات والــعــزى ســفــاهــا
وآثــر مــعــشــرا ضــلــوا ســبــيــلا ... فــمــا عــرفــوا الــنــبيَّ ولا الإلاهــا

وقال أيضاً من قصيدة أولها :

ضــربــت عليــك لــواءهــا الــعــلــيــاء ... وتــحــيــرت في وصــفــك الــشــعــراء
وقضى الــذي أعــطاك ســعــدا مقبــلا ... الا يــفــارق حــاســديــك شــقــاء
مــا شك ذو النظر الصحيح ولا امترى ... ان الــورى أرض وأنــت ســمــاء
الأمــر امــر الله لــيــس يــضــره ... مــا حــاولــت مــن كــيــده الاعــداء
والحق ابلج والــمــعــانــد عــيــنــه ... عــمــيــاء عــنــه وأذنــه صــمــاء
لــو كــانــت الــجــوزاء مــن اعــدائــه ... لــم تــنــج عــن غــاراتــه الــجــوزاء
ســاءل اذا ركــد الــدجــا وتــحيَّــرتْ ... زهــر الــنــجــوم ونــامــت الــرقــبــاء
يَهــدي ويَهــدي منعــمــا ومعــلــمــا ... لا زال مــنــه الــهــديُ والاهــداء
أوفى بــمــا تــرك الــنــبي مــحــمــد ... والــقــائم الــمــهــديّ والــخــلــفــاء[123]

(121) في ط : أرى ذلك ، والصواب ما أثبتناه من م .

(122) لعل الصواب « تخدر » بالخاء والدال المهملة ، وقد وردت في الأبيات تصحيفات أصلحناها ، ولم ننص على ذلك لوضوحها وتعددها .

(123) أصلحنا تصحيفات طفيفة لم ننص عليها .

وجلى الحقائق للورى . . . . الأموات والأحياء(124)
أوليّ عهد المؤمنين ومن به   كمل السرور وتمت النعماء
العيد أولى أن اهنيه بكم   فعليه منكم بهجة وبهاء
انتم سنا الدنيا فلولا انتم   ما فارقت آفاقها الظلماء

وعندما احتل امير المؤمنين باشبيلية عزل ابن المعلم عاملها وامر بمحاسبته والوقوف على عمله وقدم على عمله ابن جلداسن .

وفي سنة سبع وستين وخمسمائة

وصل السيد أبو حفص من غزاته المذكورة إلى إشبيلية منصوراً على اعدائه واجتمع بالخليفة بها على سرور كامل وظهور حافل وبروز لم يعهد في الأزمان الأوائل وذلك في شهر محرم من هذه السنة .

وفي هذه السنة كملت القنطرة باشبيلية فظهر له فيها من الأجر الجزيل والأثر الجميل ما لم يتقدم مثله قبله لأمير من الأمراء الخلائف ولا لملك من أهل الطوائف .

وفي هذه السنة أمر ببناء قصوره المعروفة بالبحيرة خارج باب جهور من اشبيلية وكان قد وصل مع السيد أبي حفص أعيان وفرسان راغبين في التوبة والبيعة فالتزموها على اتم حقوقها وأمر لهم بظهائر بتحرير(125) أموالهم وتقرير آمالهم فتسامع أهل الشرق(126) بما فعل معهم فجاءوا عند ذلك افواجا افرادا وأزواجاً حتى انفرد صاحبهم ابن سعد وتمادى به فكره الى القبر واللحد .

ذكر العلة التي لازمت ابن مردنيش الى أن توفي

لما طال الحصار على محمد بن سعد بن مردنيش وقل من اصحابه عونه اختل ذهنه واوقع بوزيريه ابني الجذع وفياهما وبناهما في حائط بموضع يراهما حتى ماتا

---

(124) كذا هذا البياض في جميع النسخ التي بأيدينا ، والمصراع الأول في البيت يليه سقط منه حرف متحرك بعد « أوفى » .
(125) في الأصل « بتجديد » ولا معنى له والتصويب من م .
(126) مما في م وت وفي الأصل « الشورى » .

جوعا وكذلك فعل بابن صاحب الصلاة الغرناطي عذبه وجعله في برج دون طعام ولا ماء حتى أكل ثيابه التي كانت عليه فلأجل ذلك افرده اخوه واصهاره ومن ظن انهم انصاره وكان أخوه أبو الحجاج مبادراً للطاعة والدخول في حزب الجماعة ، فلما تحقق محمد طاعة أخيه زاد عليه الذبول وفسد عقله بالذهول فاشتدت علته وحضرت منيته فتوفي في رجب من السنة فانقرضت ايامه وبادر الى الطاعة قواده وخاطب ابنه هلال مبادراً بالطاعة والدخول مع الجماعة فقبل أحسن قبول وأخذ في الحركة والوصول ونهض ابو حفص الى مرسية لثقافها وتأنيس اهلها عند طاعة هلال بن مردنيش صاحبها .

ذكر طاعة هلال بن مردنيش بعد موت أبيه ووصوله إلى حضرة الخليفة أبي يعقوب بإشبيلية

وذلك أنه لما مات محمد بن سعد بن مردنيش بادر ابنه هلال بالوصول إلى الخليفة بعد استقرار أبي حفص بمرسية وكان وصوله بجميع إخوته وأصحاب أبيه من قواده وكبراء أجناده في عقب شعبان من السنة فخرج إليه السيد أبو زكرياء وأخوه [أبو][127] إبراهيم أخوا الخليفة مع جماعة من الموحدين ودخل في صبحبتهم إلى مجلس الخليفة قرب صلاة المغرب من يوم وصوله فطلع في الحين هلال رمضان فسلم على الخليفة وبايعه فقال أبو موسى عيسى بن عمران يا سيدنا طلع علينا في هذه الليلة هلالان هلال شهر رمضان وهلال هذا فتبسم لذلك الخليفة وانصرف هلال مع أصحابه فأنزل في قصر ابن عباد وأُنزل أصحابه في الدار المتصلة به وقد أعدت لهم الفرش والمطعم والمشارب[128] وأفهموا أنهم الأقارب والأصاحب ورحبت بهم المملكة والدولة ، وفي هذه السنة أمر أبو يعقوب الخليفة بابتداء بناء الجامع باشبيلية وكان يتطلع على بنائه بنفسه فكانت مدة بنائه ثلاثة أعوام آخرها عام واحد وسبعين وأمر ببناء صومعة الجامع فلا صومعة تعدلها في مساجد الأندلس تظهر للعين على مرحلة من إشبيلية أمر ببنائها هذا الخليفة في عام ثمانين وكان تمامها[129] على يد ابنه المنصور على ما يأتي ذكره إن شاء الله تعالى .

---

(127) سقط من ط والتصويب من م .

(128) بالأصل « الطعام والشراب » وما أثبتناه من م و ت أوفق .

(129) لعله « تمامه » وإلا فالضمير عائد على بناء الصومعة .

ذكر غزوة الخليفة أبي يعقوب إلى مدينة وبدة[130] وهي الأولى من غزواته وما كان فيها من الأحداث

كان خروجه من إشبيلية في الحادي عشر من شوال من سنة سبع وستين ووصل إلى وبدة ونازلها يوم الثلاثاء السابع عشر من ذي القعدة فكانت له فيها حرب يطول ذكرها بعد ما فتح في طريقه المعقل الأشهب حصن بلج[131] القشيري وحصن « ألكرس » . ولما كان يوم الأحد الثاني والعشرين من الشهر المذكور هبت ريح عاصف مزقت أكثر الأخبية وكان تقدم أيضاً ريح أكثر من هذا ومزقت أكثر من هذا ثم جادت بمطر وابل وكان زمن الحر فكان للروم في ذلك سقي واملاء وشربوا هم ومواشيهم . ولما كان يوم الاثنين عزم الأمير أبو يعقوب على قتالهم في سورهم وأن يجتهد الناس في ذلك بنهاية مقدورهم وركب العساكر كالبحر الزاخر لا أول لها ولا آخر فجاء المطر الوابل وجادت السماء بهتان هاطل ففزع الناس وتعجبوا ورغبوا في التوبة إلى الله وانقلبوا وعجزوا عن القتال على كثرة العدد والعدة، والعزم على شدة الصبر والجلد ، وانصرف الأمير والناس أجمع فقام فيهم الشيخ أبو محمد ابن عمر خطيباً باللسان العربي تارة وباللسان البربري أخرى يعرفهم بما أوجب الله عليهم من الجهاد ويقول لهم قد كنتم بمراكش تقولون لو كنا غزونا لجاهدنا واجتهدنا ، فلما حضرتم قصرتم وجبنتم وخنتم الله عز وجل وما نصرتم . فبكى الناس عند ذلك وتابوا ، فلما أصبح الصباح من يوم الأحد التاسع والعشرين من ذي القعدة تكلم بعض الناس بالرحيل وضرب الطبل الكبير إشعاراً للناس بذلك فكأن القيامة قد قامت ، فمن رجل حائر لا يدري ما يصنع وآخر خائر قد أخذ بما يسمع وعندما عاين النصارى أهلكهم الله حركة الناس وإقلاعهم عنهم خرجوا في الحين بخيلهم ورجلهم ووصلوا إلى الوادي الذي كانوا قد منعوا الشرب منه من يوم حصارهم واشتغلوا مع الناس بالقتال واشتعلت في البيوت والدروب النيران وصار الناس في جزع وانزعاج إلى الرحيل ولا أخ يسأل عن أخيه من حال الذهول ووصل الروم إلى السوق فوجدوا فيه الضعفاء والمرضى والتحم القتال بين النصارى والمسلمين وأمر الأمير بجميع العساكر بالوقوف حتى ترفع الأخبية [فرفعت]

---

(130) هي HUETE .

(131) هو : Vilches والحصن المذكور بعده هو Alcaraz .

وتقدمت وبقيت قبته واقفة على حالها حتى رفع جميع الناس ثم أمر بضرب الطبل والحركة والناس على ترتيبهم والنصارى يقربون ثم يهربون إلى حين نزول المحلة ثم تمادى مشي العسكر بعد ذلك حتى وصل إلى مرسية فدخلها يوم الخميس من ذي الحجة من السنة .

وفي سنة ثمان وستين وخمسمائة

في أول يوم منه رغب أكثر الموحدين والعساكر في السراح إلى بلادهم وأوطانهم عند ضيقة مرسية بهم وغلاء السعر فيها بسببهم فأذن لهم في ذلك وارتحل أكثرهم وأقام أشياخُهم وكبراؤُهم ودامت الإقامة بمرسية حتى أهل شهر صفر وخرجت البركة إلى الموحدين والمرتزقين وأحضر الخليفة هلال بن مردنيش واخوته وعمه وأنسهم وأَوْلاَهُمْ[132] كل مستحسن سهل ووعدهم من بشره وسيره ما لم يبلغه مع المأمون الحسن ابن سهل وأشار إليهم أنهم سيكونون من جملة أهله [وأمرهم][133] بالارتحال معه إلى حضرته فأخذوا في النظر لذلك والعزم إلى هنالك وأمر العم أبا الحجاج يوسف بن مردنيش ببلنسية وأنظارها وعند ذلك أخذ في الانصراف ، وفي أول ربيع الأول تحرك منها وأجاز على غرناطة وترك فيها أخاه أبا سعيد ووصل إشبيلية في الثاني عشر لربيع الأول ووصل معه أبو حفص وجملة الموحدين ووجوه دولته وسائر إخوته فخرج أهل إشبيلية إلى لقائه ومعهم شيخهم أبو بكر بن الجد ودخل إشبيلية أوفر دخول وعند وصوله أمر ببناء الجامع المذكور ، وببناء البحيرة والقصور .

وفي هذه السنة[134] المؤرخة وصل وفد أهل القيروان وفقهاء تونس وإفريقية إلى مدينة إشبيلية فرحب بهم أمير المؤمنين أبو يعقوب وأنزلهم وأكرمهم حتى انصرفوا .

وفي شعبان من هذه السنة خرج من مدينة آبلة القومس المسن الضال

---

(132) في ط «وأولادهم» ولا معنى له هنا ، والصواب ما أثبتناه وهو بنصه السابق من المن ، مع اختلاف طفيف بالزيادة والنقصان .

(133) سقط من ط وفي المن : «وأمرهم بالنظر في الارتحال معه» ، ولا شك أن المؤلف اعتمد على المن في حوادث هذه السنوات .

(134) بالأرقام 566 تحققت بسنة 568 كما يبتدىء النص لابن صاحب الصلاة في كوبنهاكن ، والنقل هنا عن المن بالنص تقريباً .

المعروف بالأحدب ، مدير الحرب في الفتنة على المسلمين بالأندلس ، فكم من فتكة له في الإسلام من شن الغارات شرقاً وغرباً بجموع الكفرة إخوته يصل بهم إلى طريف والخضراء[135] ، ويسقي المسلمين كأساً مراً ، إلى أن أذن الله بهلاكه وفناء شرذمته أهل آبلة في هذا التاريخ . فخرج من آبلة يريد نظر إشبيلية على ما عهد في زمانه وحالة طغيانه ، ووصل بجمعه إلى الوادي الكبير وجازه على جهة استجة ماراً بها على تلك الجهات كلها ، فغنم فيها نحو خمسين ألف رأس من الغنم ، ومن البقر نحو ألفي[136] رأس ، وأسر خلقاً من المسلمين وأجاز غنائمه وأسراه مكتوفين مستغيثين[137] وكان الأمير أبو يعقوب قد تقدم عنده خبر هذا الطاغية وخروجه فأمر عساكره بالتأهب[138] إليه ، فلما كان ما ذكرته عنه خرج إليه العسكر من إشبيلية مع السيدين الأخوين أبي زكرياء وأبي سعيد ، فجدوا في اتباعه مسرعين ، وصفت نفوس المسلمين ، فلما كان صبيحة يوم الأربعاء التاسع عشر[139] لشعبان تأخر النصارى عن[140] شيخهم الضال عن الرحيل من موضع مبيتهم وذلك بمقربة من قلعة رباح[141] فتأهب الناس بأجمعهم والعدو الكافر يظن أن لا مقارع له ولا مدافع[142] واستعجل الكافر حين ذلك بالرحيل وقد تراءى الجمعان بكل فج وميل ، فسل الله عليهم سيفه ، وحل[143] روعه وخوفه ، فانحازوا إلى جبل شاهق واعتقدوا أنه منجاهم [ولم يعلموا أنّ بها مضاجعهم][144] ومثواهم ، فانضم عساكر المسلمين إليهم ، وصعدوا الجبل غلبة عليهم فابتدأوا معهم في ذلك الجبل الوعر في طعن

---

(135) في المن : والجزيرة الخضراء . أما « أبلة » فهي : Avilaوإستجة هي : Ecija .

(136) بل نحو « مائتي رأس » كما في المن حيث استمر ابن عذاري ناقلاً عنه .

(137) مثقفين كما في كوبنهاكن ، وفي المن « مستغيثين إلى الله تعالى » وعنه نقل .

(138) بالمسير إليه كذلك ، وفي المن : « بالتأهب إليه وانتظاره » .

(139) سقط من مدريد وكوبنهاكن ، والصواب إثباته كما في المن .

(140) (كذا) واستصوب «هويسي» أن تكون « وشيخهم » وفي المن : تأخر النصارى وشيخهم ، الضال الطاغية عن الرحيل من موضع مبيتهم » وهو الذي نقله ابن عذاري بنصه وفصه .

(141) CALAYTRAVA .

(142) في غيرت : « ولا بروز » والغالب أن « بروز » تصحف عن « مدافع » ولا وجود له بالمن .

(143) لعله « وأحل » وفي م و ت : « وحل في قلوبهم منه روعة وخوفة . وفي المن : « وحل بهم قلوبهم روعه وخوفه وأحلهم في الحين حتفه » .

(144) سقط من ط : « ولم يعلموا أن بها مضاجعهم » ولعله « به » وفي المن : : زيادة ولم يعلموا أن بها مضاجعهم ومصارعهم ومماتهم » .

وضرب ، ومقارعة وحرب فهزم الله المشركين ، ووصل المسلمون إلى اللعين الأحدب فقتلوه واحتزوا رأسه وقتلوا جميع من كان معه ولم ينج من جمعه إلا القليل وانقذوا الأسرى من المسلمين بأجمعهم والغنائم كلها وانصرفت إلى أصحابها وامتلأت أيدي الموحدين من الدروع والخيل والبغال ونالوا في ذلك الجهاد المبرور ، الغنيمة والأجور ، وجمعت رؤوس النصارى مع رأس الأحدب المذكور ، وحملت إلى إشبيلية فضربت الطبول على ذلك ، ووصل وصف مقتله في كتب من الخليفة أبي يعقوب إلى أخيه السيد أبي عمران، فكانت إحدى المسرات وباكورة الفتوحات. وكان هذا السيد أبو عمران من أولاد الخلفاء النجباء الطلبة الأدباء ، والخطباء الشعراء ، وجرت بينه وبين القاضي بمراكش حجاج بن يوسف في هذه المدة مخاطبة شهد له فيها بالسبق حتى كلف بها جميع أهل العصر وذلك أنه أصابه ضعف فغاب عن الموحدين ثلاثة أيام فكتب إليه القاضي بيتين من الشعر يتشوق فيهما إليه وهما :

يغيب البدر يوماً ثم يبدو … وأنت تغيب عن عيني ثلاثا
لئن بلغت ثلاثا لا أراكم … فلست بمدرك يوم الثلاثا

فجاوبه في الحين وما روى ، ولا بيض قرطاسا ولا سوى :

أتتنا منكم درر فحلت … محلا أوجبت منا انبعاثا
ولولا العذر من سبب قوي … لسرنا نحوكم حثاً[145] حثاثا
ولاكنا نسير بحال ود … إليكم مصبحاً يوم الثلاثا

وفي مدة إقامته بحضرة مراكش أميراً توالى القحط وامتنع الغيث مدة شهرين ، ثم منَّ الله بالغيث وتدارك سبحانه بالغوث فقال :

وغيث همى فوق متن الربى … فشبهته جود أهل السياده
أتانا على رغبة فانثنى … وقد بلغ الكل منا مراده

ومن شعره أيضاً وكتب به إلى أخيه السيد الأسنى أبي زكرياء يحيى ابن الخليفة الذي كان صاحب بجاية وهو :

من ساد وهو صغير كيف تحسبه … يبقيه ربي إذا ما كان في الكبر

---

(145) في م وت : حتماً حتاتا .

ومن يقــول أميــر المؤمنين أبي فتلكم الغـايـة القصـوى لمفتخـر
أضحت بجاية في التمثيل هالتـه وظـل يـطلع فيهـا مشبـه القمــر
بـدر بـلا كلف ، درٌّ بـلا صـدف مـاء بـلا كـدر (نـار بـلا) شـرر

ومن الشعراء المجيدين السيد أبو الربيع بن عبد الله بن عبد المؤمن له أشعار كثيرة موجودة تدل على حذقه . . أصلحه الله وعفا عنه .

وفي هذه السنة غدر النصارى أهلكهم الله مدينة باجة واتفق غدرها من البرج المستقبل بباب قصبتها المسمى عند أهلها ببرج الحمام ، وذلك لتضييع عمر بن سحنون لها ، وإهماله أمرها وحالها وقلة جده على السمار ، واكله مواساتهم المرتبة لهم على سكناهم في أبراج القصبة والمدينة وكان البرج [المذكور فيه سامر يأخذ في الليلة على سمره قيراطاً من قطع ، فأخذه له وترك البرج][146] مضاعاً دون سامر فوصل النصارى إلى السور في ليلة مظلمة وهم يتسللون على أيديهم وأرجلهم فلم يشعر أحد بهم من السمار إلى أن جعلوا السلالم في لصق البرج المذكور ، فصاحوا بأعلى أصواتهم ولغاتهم واستيقظ الطالب عمر بن سحنون من سكرته فوصل إلى باب القصبة فوجد النصارى قد تملكوه وفتحوه وأدخلوا عسكرهم في القصبة المذكورة فتردى من أعلى البرج إلى المدينة فاراً بنفسه ثم تدلى من سور المدينة إلى الفحص ، وفر إلى مرتلة[147] على قدميه واتصل الصياح وضجيج الروم بالقصبة والمدينة ، ففر الناس على وجوههم من أبوابها فقتلوا في الأبواب وأسروا في كل جناب وأسر عيال الطالب المضيع وبنوه وأخذ ماله وعيال القاضي ابن زرقاج وجملة من أصحابه ومن نساء البلاد إلا من استعجل بالخروج واستشهد فيها عند باب البرج[148] أبو جعفر بن إسماعيل بن صاحب الصلاة وعاقب الله تعالى كل من بغى فيها وسعى في شهادة الزور وشهد بها ، واجتمع عند النصارى فيها من المال شيء كثير ، وحل بأهلها مصاب كبير وكانت مدينة باجة من المدن القديمة البناء وأسوارها قد قامت وارتفعت في الهواء ثم هدمها الإمام عبد الرحمن بن معاوية الداخل بعد هزيمة العلاء بن مغيث .

(146) ما بين معقوفتين ساقط من ت .
(147) في ت . بريلة ، وهو تحريف .
(148) في م : الجامع بدل البرج .

ذكر سبب غدر النصارى مدينة باجة

وذلك انه لما كان خلع سدراي بن وزير عن باجة وجميع بلاد غرب الاندلس ولي بعده مدينة باجة حفاظ من الموحدين فنظر كل واحد منهم بحسب اجتهاده وكان اشبههم عمر بن تيمصليت التينملي فحدث مدة مقامه بها بين اعيانها وسفالها نزاع واختلاف بما طبعوا عليه في القديم والحديث من الماء والهواء ، فطالب بعضهم بعضاً وأظهروا[149] لهم عداوة وبغضاً أدى ذلك الى امساك بعض اشياخهم باشبيلية وعزل ابن تيمصليت المذكور المتحري عن تلك الامور ، وولي عليهم طالب بربري سخيف العقل اسمه عمر بن سحنون ، وكان قصير القامة صغير الهامة كوسجاً اعرج لا يفهم [ولا يفهم][150] فدخلها في أشأم طالع واعظم محنة لسامع ، واتصل به سفالها فقربهم لنفسه وادناهم من محل مجلسه[151] التباغض[152] بين عامتها وخاصتها بذلك السبب وتقاطعوا في المواصلة والنسب فقال في ذلك ابو بكر بن حبيش وخرج فاراً منها بنفسه :

ان الفرار غنيمة من باجة ... فاعمل ذميل الاينق
واحمد لفرقتها الا ..... عن قلب التق
واذا رجوت لهمها فرجا ... بالعقوق الابلق
هيهات لا فرج لديها يرتجى ولئن جرت فيها الخطوب فاقلق[153]
ان الغريب الى الغريب منغص ايود لها الرزايا مابقى[154]

واستخلص عمر بن سحنون المذكور وزيراً لنفسه وسميراً لانسه رجلاً بدوياً من سفال باجة فجرأه على سفك الدماء واخذ اموال الناس بالباطل وضربهم بالسياط على أقل الاشياء واعان معه على ذلك قاضي البلد عمر بن زرقاج ، وكان رجلاً كثير الحركة والطيش ، فصوب له ايذاءه والبطش ، وانضاف الى هذا القاضي قوم أراذل

---

(149) في ت : وأظهر .

(150) ساقط من غير ت و م .

(151) في م و ت : أنسه وهو أوفق .

(152) (كذا) ولعله سقط قبل كلمة « التباغض » فترادف أو فتراكم أو نحوهما .

(153) بالاصل « جدرت بها » فأصلحنا بما استظهرناه . ولئن جرت فيها الخُطوب فاقلق .

(154) هكذا بالأصل وهو لا يستقيم في شطره الثاني خاصة .

من شهود[155] الناس بالظلم من شهود الزور ، يشهدون له بغرضه السيء المغرور ، فكانوا يعقدون العقود بالكذب والمين ، ويثبت الحقوق البواطل بشهادة وغدين ويخاطب بذلك امير المؤمنين ، يقول ان فلاناً وفلاناً يخاطب المنافقين ، لولا عدل الخليفة رحمه الله . ثم ان عمر بن سحنون المذكور استبد مع اصحابه في تلك الامور ، وأخذ برأي الفجار ، والسفلة الاشرار ، وقتل الفقيه [الفاضل][156] أبا جعفر ابن الانصاري ظلماً وعدواناً ، وقتل معه جماعة من أهل البلد شهوة وخذلانا ، وعقد عقود زور في أمره انه أراد القيام وخلع الامام ووصلت العقود المدلسة الى الخليفة باشبيلية وكان قد وصل الى الخليفة قرابة الفقيه ابن الأنصاري المظلوم فسأل الخليفة أبا بكر ابن الجد عن أهل باجة وأحوالهم فعرفه بما علم من أفعالهم وبرأ ابن الانصاري المذكور فيما نسب اليه ، وقال معاذ الله ان يكون ذلك الذي رفع عليه ، وتكلم بكلام في تبرئة أهل باجة يجده عند الله مدخراً ، ويلقاه به مطهراً وفي أثر هذا المجلس وصل أهل الصدق والحق فسئلوا عن ذلك فأكذبوا القاضي وشهوده ، فعفا عنهم الامام ، وارتفع الباطل والملام . ورفع أبو محمد ابن وزير بعد ذلك رفعاً الى الخليفة وقال ان لي بباجة اصهاراً وهم بنو صاحب الصلاة وبنو الانصاري ورغب ان يأذن لهم في الخروج عن باجة الى اشبيلية ، فخرجوا عنها بما خف من اموالهم واحوالهم ودخلوا اشبيلية يوم الخميس الخامس وعشرين لجمادى الآخرة من عام سبعة وستين وخمس مائة .

فلم تدم الحال الا ستة اشهر وسبعة ايام وعاقب الله ابن سحنون المذكور ، والقاضي وشهود الزور ، وكان غدرها في محرم من عام ثمانية وستين ، ولما اتصل خبر غدرها بأمير المؤمنين قال له سدراي ابن وزير بيعت باجة بقيراط فقال له : ما معنى هذا ؟ فوصف له حال ابن سحنون وكيف اخذ اجرة السامر في البرج وما كان من فعله ، فامر امير المؤمنين بقتله ففر فلم يوجد ولم يمت[157] حتى عاقبه الله بالجذام . ولما اخذ ابن الرنك اللعين باجة ودخلها عاين كبرها وانها لا يمكن امتناعها لاتساعها فأخلاها وحرقها وهدم سورها وأسر أهلها الى أن انقذها الله من

---

(155) في ط : « قوم أرذال الناس » وما أثبتناه من ت . وعلى كل فلا يخلو من اضطراب مربك .

(156) ساقط من ط .

(157) في م : ولم يلبث .

الاسـر بالفـداء ومشى كثير منهم الى مـراكش وغيرهـا يطلبـون من الناس ، فـوجدوا عنـدهم الحنان بـالعطاء والاينـاس ، فانجبـروا بعد تفـرقهم ايـدي سبـا ، وبعـد أن اورثتهم الحوادث وصبا .

وفي سنة تسع وستين وخمس مائة كـان وصول العلج الـطاغي جرانـدة الذي غدر مدينة باجة وغدر الحصون والمدن وأفقـر المعمور والمسكـون ، وكان قـائد ابن الـرنك وصـاحب جيوشـه فوصـل مع اصحـابه الادلاء الى اشبيليـة حضـرة الخليفـة [سامعاً طائعاً ليكون عبداً خديماً ، ولينكي اخوته النصارى بما يكون تصديقاً له عند الخليفة](158) وتقديماً ، فقبل منه القول وانزله وامـر له بـالاحسان والكـرامات فسـاء وصوله ابن الرنك صاحب قلمرية لعنه الله ولم يزل يرسل اليه سـراً في أن يتحيل في الارتداد والغدر والمكر فظهر بعد اشهـر عليه ذلـك فتقبض عليه هنـاك ومكن الله منه أعز تمكين وقيد هـو وأصحابـه في الحديـد ، فسر بـذلك القـريب والبعيد ، وبعثـوا بجملتهم الى سجلماسة فـأقامـوا بها تحت سجن وتـرقيب ، ونكال قـريب(159) ، ثم همت نفسه فيها بـالفرار ليجـوز من أحد المـراسي فظهـر منه ذلـك فقتل وحـز رأسه وانكف عن الاسلام باسه .

وفي هذه السنة في أول شهر صفر خرج الخليفة ابو يعقوب من اشبيلية بجيشه ونزل بحصن القلعة وهو خراب مهـدوم منذ امـارة عبد الله بن محمـد الاموي هـدمه بسبب ثورة ابن حجاج فيه عليه وملك منه اشبيلية وقـرمونـة فأمـر الخليفة ابـو يعقوب ببنائه وعمارته نظراً وصلاحاً لفحص اشبيلية [فصلحت إشبيلية](160) ببنائه وعمارته . وفي هذه السنة وصل ابن مثنى مشرف تونس والقيروان بأموال خراجهما .

وفي سنة سبعين وخمس مائة أمر أبو يعقوب بغزو البيبوج ابن اذفونش، وكان قد بادر بالصلح وطلب الاستعـانة بعسكـر الموحـدين على القمط نونـه صاحب طليـطلة فأعين على ذلك ثم ظهر جده وكمل عهده في حماية بـطليوس وانقـاذها من يـد ابن الرنك الغادر لها وذكر انه انفق على عسكـره في ذلك مـالاً كثيراً فـوجه اليـه الخليفة هدية فيها منت منظوم بالجوهر وحملها له أبو محمد بن جامع وابن عزون وابوزكرياء

---

(158) ما بين معقوفتين ساقط من ت و م .

(159) في ت و م : مريب .

(160) سقط ما بين معقوفتين من ط . والقلعة المذكورة هي : Alcada de Guadaira .

الكومي فقبل الهدية بأوفى السرور وأبهَتَهُ ما عاينه فيها مما لم يعهده في ذلك الوقت وبعث معهم ارساله بهديته وشهود عليه باستمرار الصلح وتمادى على ذلك حاله الى آخر سنة تسع وستين فنكث ونقض العهد وكفر بالنعمة فعاقبه الله سريعاً بالنقمة فنظر الامير ابو يعقوب في غزوة في عقر داره ومنازلة جهاته وأقطاره فكتب الى العرب والاجناد بالوصول الى اشبيلية والتأهب للغزو فوصلوا بجمعهم وحشودهم، فتجهز السيد [أبو حفص للنهوض][161] اليه بالعساكر عوضاً من أخيه أمير المؤمنين فخرج ابو حفص من اشبيلية في الثالث من صفر الى الغادر البيبوج بمدينة السبطاط قاعدته ، فغزاه وافتتح قنطرة السيف وناضوش[162] في خبر طويل . فقال الشعراء في ذلك واطنبوا فمنهم ابو العباس الجراوي قال من قصيدة أولها :

عن امركم يتصرف الثقلان ... وبنصركم يتعاقب الملوان
وبما يسوء عدوكم ويسركم ... تتحرك الأفلاك في الدوران
جاهدتمُ في الله حق جهاده ... ونهضتمُ لحماية الايمان
وتركتم أرض العدى وقلوبهم ... في غاية الرجفان والخفقان
وغزاهم الدين الحنيفي الذي ... كتب الظهور له على الاديان
كتب الاله لكم فتوحاً في العدى ... هذا لها وسواه كالعنوان
هذا مقام المصطفى يا فوز من ... حاز النيابة فيه عن حسان
من يعرف الرحمن حقاً يعترف ... بحقوقه لخليفة الرحمان

وله أيضاً من قصيدة اولها :

بسيفك صال الدين في الشرق والغرب ... ودارت على الاعداء دائرة الحرب
وأذعن نَاءٍ[163] واستقام معاندٌ ... ولان قياداً كلُّ ممتنع صعب

وعندما يسر الله هذا الفتح لامير المؤمنين في هذه السنة على يد اخيه السيد ابي حفص وهزم النصارى في عقر دارهم حتى انجحروا تحت جدارهم رغب ابن الرنك اللعين في الصلح من أمير المؤمنين وكان أمير المؤمنين قد علم قدم باجة

(161) سقط ما بين معقوفتين من ط .
(162) علق عليه هويسي ميراندا أنه غير معروف .
(163) في ت : « نائي » بإثبات الياء .

وانها قاعدة الغرب وبما جرى فيها من النوائب والكرب فنظر بنور الله في اسكانها واسكان الحصون المجاورة لها ، فأمر بانفاذ الكتب الى جميع بلاده في استدعاء اهل باجة ووصولهم الى حضرته اشبيلية ، فأزعجوا منها ووصلوا الى اشبيلية ، واجتمعوا بها وأعلم أمير المؤمنين بوصولهم فأمر بدخولهم عليه .

اختصار الخبر عن دخول اهل باجة مجلس امير المؤمنين ابي يعقوب وما دار بينهم من الكلام

كان دخولهم اليه يوم السبت السابع لربيع الآخر سنة سبعين وخمس مائة ، وقد احتفل في حضور الوجوه من اخوته السادة ، ووجوه أشياخ الموحدين وملوك الاندلسيين من بني عزون ، وبني مردنيش ، وبني همشك ، ووجوه طلبة الحضر ، منهم أبو محمد المالقي وابو بكر بن الجد وابو موسى بن عمران ،وكان الوزير الكبير ابو العلا ادريس بن ابي اسحاق بن جامع يعرف باسم من دخل من اعيان باجة ويشرفهم ، فلما دخلوا وسلموا بما وجب عليهم ، نظر امير المؤمنين اليهم وقال : كيف حالكم فقالوا : تحت خيرات وامان وبركات في أيام سيدنا امير المؤمنين ، وخطب احدهم خطبة بليغة ابدع فيها غاية الابداع وابهج بها القلوب والاسماع ، فلما أكملها تبسم أمير المؤمنين فقال للقاضي أحسنت أيها الطالب الخطيب ، ثم قال أمير المؤمنين تمشون ان شاء الله الى بلدكم وتسكنونها بعد نظرنا لكم في زوال روعكم والتئام صدعكم ، ويرجع جند اهل بلدتكم ورعيتها ، واهل تلك الحصون المجاورة لكم للاستيطان بها كما كنتم ونتبعهم اثر هذا بقبيل من الموحدين المنجدين بفرسانهم ورجالهم يسكنون معكم بأولادهم وَعِيَالِهم(164) ، فقالوا سمعنا واطعنا يا سيدنا ومولانا وذكروا مصالحهم كلها قليلها وجليلها فأنعم عليهم بما سألوه وانصرفوا شاكرين بعدما ولّى(165) عليهم حافظاً ابا بكر ابن وزير .

اختصار الخبر برجوع اهل باجة الى بلدهم

تقدم الحافظ ابو علي ابن تيمصليت بالخروج الى شلب وجميع الغرب فحشد الرجال واعطى الاموال في الخامس لربيع الأخير من السنة المؤرخة ثم خرج ابو

---

(164) في ط : « وأعيالهم » .

(165) في ط : « شاكرين فأولى » والصواب ما أثبتناه من ت و م .

بكر ابن وزير بعده في السادس من الشهر المذكور بجميع الجند والفرسان وخرج اهل باجة في الحادي والعشرين من الشهر المذكور ووصلوا باجة يوم الخميس غرة جمادى الاولى فعاينوا منها الدمار وانكروا الاوطان والديار كما قال لبيد :

ذهبت[166] عامر فلم يبق منها   بـرياض الأعراف[167] الا الديار
وكذاك الزمان يذهب بالنا   س وتبقى الطلول والأثار

بل والله تهدمت بتداول الايام وعدوانها ، وتفرق اهلها وسكانها ، وتحكم الكفرة في أوطانها . وعند دخولهم اليها مشى كل واحد منهم الى داره وموضع قراره فأبصروا ما يشيب له الوليد اسفاً ويبكي عليه الجماد لهفاً قد حرق منها الدور ومزق المعمور ، ونزل الناس في قصبتها على ما كانت عليه من هدم سورها وخرابها وكانت جملتهم يوم خرابها نحو مائتي رجل بين شيوخ وشبان ورجال وفرسان ، فكثر عليهم الروع وبهت الجمع فصنعوا[168] باباً في الحين للقصبة من جهة المدينة ، وبنوا الباب الذي من جهة الفحص وسكنوا في القصبة المذكورة ونقل كل منهم خشب داره وجعله معه بالقصبة وخاطبوا الخليفة بدخولهم فجاوبهم بما ارضاهم .

ولما كان يوم الاربعاء السابع من جمادى الاولى من سنة سبعين المؤرخة وصل عمر بن تيمصليت من شلب وغيرها بخمس مائة رجل من الحشد والبنائين واستاقوا قواتهم في شهر كامل وجميع ما يحتاج اليه من آلة البناء واتصل العمل والاجتهاد في بناء السور الى آخر الشهر المذكور وعاد ابن تيمصليت ايضاً الى شلب وبلاد الغرب برسم حشد آخر للبناء وتمادى العمل في البناء المذكور الى شهر رمضان المعظم وقد كمل سور القصبة وشرع في بناء سور المدينة على كبره وخرابه ، ووصل الامر بوصول الحافظ ابن تيمصليت الى الحضرة العلية فوصلها اول ليلة من شوال فدخل الى الخليفة واعلمه بما صنع فشكر له منابه وأجزل ثوابه ، ثم حدثت بين أهل باجة وبين ابي بكر ابن وزير مطالبات وشهوات فعقد عقود على اعيانها بشهادة اهل الزور والأراذل واهل الفجور فرمى بها القاضي في وجوههم

---

(166) المعروف « هلكت » .

(167) في ت و ط : برياض الحرير ، وهو تحريف .

(168) في ط : « وصنعوا » وما أثبتناه من ت : أحسن .

ونجههم[169] فيما ادعوه بأفواههم . ثم ان اعيان باجة رفعوا الى حضرة امير المؤمنين بأحوالهم وما هم عليه من ابن وزير من سوء السياسة والتدبير فأمر بعزله عنهم وولى عليهم ابا علي عمر بن تيمصليت فاتصلت الغبطة بباجة وتمكن الناس بقصبتها وفي ديارهم الحديثة البنيان وتبايع الناس ارضها بينهم في خارجها وداخلها وحرثوا الارض وعمروها وبنوا الحوانيت والرباع ورفعت الى دار الاشراف باشبيلية الأزمة[170] باعشارها وكراء رباعها وسر امير المؤمنين بذلك .

وتمادى سكنى باجة على ما ذكرته الى أن رحل الخليفة عن الاندلس وترك والياً على اشبيلية اخاه أبا علي الحسن فمشى النظر على بعض ما تقدم الى أن نكث العهد اللعين ابن الرنك وخرج بجمعه الى باجة ونازلها عام ثلاثة وسبعين وبقي عليها اياماً وأفسد زروعها حتى كاد ان يتغلب عليها . ثم اقلع عنها ووصل الى جهة اشبيلية ودخل قرية طريانة ، وتغلب وحرق القطائع[171] في وادي اشبيلية وانصرف فوجد باجة البائسة قد اقفرها اهلها وخرجوا منها بأولادهم وعيالهم وتفرقت جميع اموالهم وفروا على وجوههم الى مرتلة[172] وذلك في شهر محرم من عام اربعة وسبعين وخمسمائة .

وكان السبب في ذلك ان عمر بن تيمصليت والي باجة خرج منها بجندها وفرسانها وصحبه علي بن وزير من حصن شهربة[173] واغاروا على فحص [قصر][174] ابي دانس فخرج اليهم جمع من النصارى فتقاتلوا معهم فبينما هم في القتال كذلك اذ خرج عليهم جملة من النصارى اهل شنترين في فحص القصر على غير ميعاد فانهزم ابن تيمصليت وابن وزير ووصل الخبر الى اهل باجة ففروا أجمعين واسر ابن تيمصليت وابن وزير وبعض من كان معهم من ألرجال والفرسان وقتل الباقون. أخبر أبوعبد الله بن عبد الملك قال : حدثني ابو الحسن ابن وزير قال : لما كان نفوذ القضاء عليّ وعلى ابن تيمصليت حملنا ابن الرنك لعنه الله الى قلمرية

---

(169) نجهه : ردّه أقبحح رد وبما يكره .

(170) في ط : « الخدمة » وما أثبتناه من ت و م أصوب .

(171) في ط : « الفطم » ، والمثبت من ت و م .

(172) MERTALA في غريب البرتغال .

(173) وفي ت و م : شبرية ولعلها شربة وهي SERPA بالبرتغال كذلك .

(174) سقطت « قصر » من ط : وما زال المكان يعرف في غـرب البرتغال بالقصر .

فعمل لنا تبريز عظيم واكبلنا فاما ابن تيمصليت فجعل في عنقه سلسلة من حديد وعذبه حتى مات رحمه الله . واما أنا ففداني منه امير المؤمنين رضي الله عنه بأربعة آلاف دينار حشمية .

رجع الخبر : وفي هذه السنة تعرس امير المؤمنين بابنة ابن مردنيش وكان ابتناؤه بها ليلة السبت الخامس لربيع الاول ، اخبر ابو عبد الله بن عبد الملك قال : وجه اليها ألف دينار عيناً وقال انما وجهت لها بهذا العدد تأنيساً وانما الصداق الذي امرنا به خمسون ديناراً ، ولما وصلت اليه مع نسائها وخدمها أعطى كل واحدة منهن بركة كبيرة ووهب للزوجة جميع ما اهدى اليه اخوتها عند فتحه لمرسية من الكسى والحلى والخدم وزادها من عنده ما ابهتها.وهمَّ من وصل معها من النساء بالدخول معها فقال الخليفة تدخل المباركة منفردة ، فدخلت وقبلت يده فدعا لها بخير وجامعها ، واتفق لبني مردنيش [بها][175] سعدٌ ما اتفق لاحد من ثوار الاندلس فانهم اخرجوا عما كان بين ايديهم ثم صاروا حماء لامير المؤمنين وهذا غريب وشيء عجيب .

وفي سنة احدى وسبعين وخمس ماية أمر الخليفة ابو يعقوب بنكبة محمد بن عيسى مشرف اشبيلية في جمادى الآخرة وتولى تثقيف حاله وماله للمخزن يلول بن جلداسن واستصفى ما كان عنده من المال والعقار بأنواع العذاب وأسوأ العقاب ، حتى ضرب نفسه بسكين كان في يده فلم يمت من ذلك ثم عذب وضرب حتى مات فلف في حصير وربط في وسطه بحبل ورمي به في وادي اشبيلية فقذفه الوادي بعد أيام في باب اشبيلية فأصبح عبرة لاولى الالباب، نعوذ بالله من سوء العاقبة .

ذكر حركة الخليفة أبي يعقوب من اشبيلية منصرفاً عن الأندلس الى حضرة مراكش

كانت حركته يوم الخميس الرابع عشر من شهر رمضان المعظم وقيل في شعبان من العام المؤرخ ودخل في غراب في الوادي من مرسي طليطة[176] ولم

(175) ساقط من ط .

(176) بالأصل طلطلة : والصواب طليطة وهي TEJADA وبذلك أصلحنا .

يسلم عليه [أحد][177] من أشياخ اشبيلية ولا رأوه لاستعجاله وكان قد جاز البحر الى الأندلس في الرابع والعشرين من شهر رمضان من عام ست وستين ووصل الى اشبيلية في الثاني عشر من شوال ورحل منها يوم الخميس المذكور فكان طول اقامته بالأندلس اربعة أعوام وعشرة اشهر ونصف ، ولما كان سفره الى الحضرة في اليوم المذكور خرج جميع الموحدين في اتباعه بعيالهم وأبنائهم وكذلك بنو مردنيش وبنو همشك والعمال والكتاب وغيرهم وجاز الأمير أبو يعقوب البحر الى طنجة وتربص بها منتظراً للناس حتى استوفوا عليه وكان دخوله مراكش في منتصف رمضان المعظم من السنة .

وفي هذه السنة وهي سنة إحدى وسبعين نزل الوباء والطاعون بمدينة مراكش في أول شهر ذي القعدة ولم يعهد مثله فيما تقدم من الأزمنة قبله وانتهى عدد الأموات في كل يوم [مائة][178] إلى مائة وتسعين شخصاً وأكثر من ذلك حتى إن الناس لا يستطيعون بحملهم الى الجامع للصلاة عليهم فأمر الخليفة أن يصلى عليهم في سائر المساجد رفقاً بالناس في ذلك ، فأول من مات من الأشراف السادات السيد أبو عمران ابن الخليفة عبد المؤمن ثم أخوه أبو سعيد ثم أخوهما أبو عبد الله ثم أخوهم أبو زكرياء الذي كان صاحب بجاية . ومن أشياخ الموحدين أبو سعيد[179] بن الحسن وكان الشيخ أبو حفص بن يحيى الهنتاتي بقرطبة فخرج منها مسافراً الى الحضرة العلية مراكش فمات في الطريق ودفن برباط الفتح من سلا ، واتصل روع الناس بالحضرة المذكورة حتى كاد لم يخرج منها أحد ولا يدخلها أحد وكل من خرج منها فاراً بنفسه مات[180] في الطريق ومرض الخليفة أبو يعقوب وأخوه أبو حفص مرضاً طويلاً حتى كاد أن يُرْجَفَ بهما ثم استقلا بعد ذلك ، وأما ما كان في دورهم وقصورهم من الخدم والعبيد وغيرهم فأخبر أبو مروان ابن صاحب الصلاة قال حدثني الشيخ الحافظ أبو بكر بن الجد قال : حدثني السيد أبو علي الحسن[181] ابن الخليفة عبد المؤمن رحمه الله أنه كان يموت في كل يوم في دورهم ثلاثون شخصاً

(177) سقطت من ط : وهي مثبتة من ت و م .

(178) سقطت من ط : والصواب إثباتها كما في ت و م .

(179) في م : « أبو سعد يخلف » ولعله الصواب .

(180) في ط : « مرض » والصواب ما أثبتناه من م .

(181) في ط : الحسين والصواب ما في ت و م .

حتى فني أكثر من كان في قصورهم ودورهم ودام هذا الطاعون بقية سنة احدى وسبعين [ونصف سنة اثنتين وسبعين][182] وذلك مدة سنة كاملة.

وفي هذه السنة مات القاضي أبو يوسف حجاج بن يوسف بمراكش، وكان فريد زمانه في الفضل والزهد والعدل وكان له باع واسع في الأدب. وكذلك الكاتب أبو الحكم بن هردوش المالقي وأخوه المشرف أبو الحسن وكان من الطلبة الجلة. وكذلك توفى الكاتب أبو الحسن علي بن زيد الأشبيلي ومشرف أغرناطة أبو عمرو ابن أفلح وجملة من أعيان الطلبة والموحدين رحمهم الله تعالى.

وفي **سنة اثنين وسبعين وخمس ماية**، خرج أمير المؤمنين أبو يعقوب من مراكش مع الموحدين في الرابع من شهر ذي القعدة برسم الغزو لصنهاجة القبلة، وترك بها أخاه أبا حفص والياً عليها وأميراً على الناس فلما وصل رباط هسكورة أمر الناس ببناء بيوت ودور للسكنى ورجع إلى مراكش بخاصته وقدم على العسكر المقيم بها ابنه السيد أبو يوسف وجعل[183] شيخه أبا عبد الله بن يوسف بن وانودين فكان دخوله مراكش في الحادي والعشرين لذي القعدة وبعد ذلك اذعن جبل صنهاجة بالطاعة وانصرف جميع الأجناد.

ومما وقع من الأحداث بالأندلس في هذه السنة: وذلك لما عزم أمير المؤمنين أبو يعقوب على الانصراف من الأندلس الى حضرته المراكشية ترك على قرطبة أخاه الحسن، وعلى اشبيلية أخاه أبا الحسن[184] فالزما[185] في ذلك الجد الالزم ومشيا في الثغور نظرهما الأقدام[186]، .وعند ما تحقق العلج الغادر نونه صاحب طليطلة ظهير اذفونش اخزاه الله رحلة الخليفة أبي يعقوب من الأندلس نقض العهد ورفض السلم والعقد، فخرج بجمعه الذميم ونازل مدينة كونكة فاستغاث أهلها بأمير المؤمنين وكان الناس من ضعف المرض والطاعون لا يقدرون على الحركة فوصل الأمر الى السيدين المذكورين يؤكد عليهم أن يتحركا لغزو جهات

---

(182) ساقط من ط و ت، وهو مثبت في م.

(183) في ط: «ورحل» والصواب ما أثبتناه من ت و م.

(184) في ط: أخاه أبا الحسن وعلى اشبيلية أخاه أبا علي الحسن.

(185)في م: «والتزما».

(186) (كذا) في ط: ولعل الصواب ما في ت و م: وهو «الأقوم». و «كونكة» بعد هي Cuenea.

طليطلة وطلبيرة[187] لعلَّ العدو يقلع من كونكة المذكورة .

فخرج عسكر قرطبة مع السيد أبي الحسن يوم الاثنين السادس لشوال وأغار على جهة طليطلة وانصرف سالماً غانماً وخرج بعسكر اشبيلية السيد أبو علي الحسن في أربعة آلاف فارس وأربعة آلاف راجل الى جهة طلبيرة وفتح حصناً على [ضفة][188] الوادي التاجه [189] من طلبيرة فسبى جميع من وجد فيها من النساء والصبيان وقتل الرجال ، وكان قد حلف أن يجوز وادي تاجه نكاية للنصارى أهلكهم الله فبرَّ بيمينه[190] وجازه في قارب كان قد استاقه من اشبيلية على الظهر لهذا المعنى ثم إنه أقلع بمحلته مغيراً على ضفة وادي تاجه ثم انصرف الى اشبيلية بالغنائم والأسرى سالماً غانماً .

ثم خرج بعد ذلك اللعين صاحب السبطاط الملقب بالبيبوج بجمعه الذميم فجاز في اغارته وادي اشبيلية ووصل الى نظر اركش[191] وشريش فخرج اليه عسكر المسلمين من اشبيلية فتبعهم فلحق جملة من أهل طلبيرة النصارى منصرفين الى بلـدهم فما شعروا حتى أحدق بهم عسكر الموحدين فقتلوا فيها أجمعين وانقذت الغنائم التي كانت بأيديهم من البقر والغنم وثمانين علجاً من أدلائهم فرحل العسكر المذكور الى اشبيلية بالتبريز اليهم والعلامات والطبول والنظارة من العامة مسرورين فصفت الاعلاج بين يدي السيد أبي علي الحسن بن أمير المؤمنين ثم أمر بضرب رقابهم فقتلوا أجمعين بمحضر الموحدين وبقى السيدان ببلديهما ظاهرين ظافرين في حركتهما الى أن استدعاهُما الخليفة أبو يعقوب .

وفي سنة ثلاث وسبعين وخمس مائة كان استدعاء أمير المؤمنين أبي يعقوب أخويه أبا علي الحسن وأبا الحسن علي الى الحضرة مراكش وكان خروجهما من اشبيلية يوم الثلاثاء الثامن من شهر رمضان المعظم ومشى في صحبتهما أبو داود

---

(187) هذا هو الصواب ، فإن هذه قريبة جداً من الأولى . وفي ت : وطبيرة ، وهذه في الجنوب من بلاد البرتغال تبعد عن الأولى بنحو أربع مائة كم .

(188) سقط من ط : وهو مثبت في ت و م .

(189) بالأصل «اشبيلية» ، وهو غير مستقيم ولعله «وادي التاجه» وما أثبتناه أظهر وأوقع وورد أيضاً باجه وهو تصحيف .

(190) في ط : « فبرز عن يمينه » ولا معنى له ، وكذلك هو في ت . والمثبت من م .

(191) هو : ARCOS .

يلول بن جلداسن ليتبيَّن أعمال اشبيلية وصحبهما أبو علي بن عزون وجملة من أشياخ الموحدين الإشبيليين وجدوا في السير إلى أن وصلا حضرة مراكش[193] للمفاوضة في مصالح المسلمين ومحاربة أعداء الله الكافرين ، وأمرهما بالانصراف الى بلديهما قرطبة واشبيلية فوصلا اليها في شهر محرم من عام أربعة وسبعين وخمس ماية .

وفي هذه السنة وهي سنة ثلاث وسبعين كانت السطوة بالوزراء والعمال الخدماء فمنهم ابن جامع وبنوه وغيرهم وكان لهم في الوزارة خمس عشرة سنة وأقاموا بمدينة ماردة[192]مغربين مهجورين ستة أعوام الى أن مات أبو يعقوب في غزوة شنترين ثم لما استخلف أبو يوسف عفا عنهم وعن سواهم، وممن انتقم منه أبو عبد الله محمد بن المعلم وكان مشرف اشبيلية انتقدت عليه أخبار شنيعة وأحوال فظيعة فأمر بسجنه وأخذ ما بيده فلم يبق له سبد ولا لبد وتفرقت جميع أحواله شذر مذر وضربت بعد محجنة عظيمة [194] عنقه رحمه الله . وكذلك ابن فاخر مشرف سجلماسة وأبو الحسن علي بن حنون رحمهم الله تعالى .

وفي سنة أربع وسبعين وخمس ماية بعث الخليفة أبو يعقوب ابني أخيه ابي الحسن الى بلاد الأندلس فولي أبو زيد اغرناطة وولي أبو محمد عبد الله مالقة . وفيها توفي أبو علي الحسن ابن الخليفة عبد المؤمن وكان الوالي على اشبيلية . وفيها كانت وفاة أبي العباس ابن الخليفة عبد المؤمن بمدينة سجلماسة وكان والياً عليها. وفيها توفي أبو علي ابن عزون والقاضي أبو القاسم ابن فضيل وأبو محمد المالقي شيخ طلبة الحضرة بمراكش وكان من أهل العلم والدين والحفظ لحديث رسول الله ﷺ ولم يزل عند الخليفة أبي محمد عبد المؤمن في حظوة مكينة وكذلك عند الخليفة أبي يعقوب وكان يرفع له المسائل ويتناول توصيل الوسائل ويرفع أشعار الشعراء واخراج الجزاء وتقدم[195] للخطابة والصلاة بأمير المؤمنين واذا وصل كتاب فتح أو غيره قرأه الى غير ذلك ، وكان له أدب غض وشعر في الزهد ومكفرات ولم يزل

---

(192) هي : Mérida .

(193) سقطت من ت : وفيها إثر ما قبلها : وعيداً فيها عيد الفطر مع أخيهما وأقاما معه بحضرة مراكش شهر شوال وذا القعدة وذا الحجة في المفاوضة .

(194) في ط : طويلة .

(195) لعلها « ويتقدم » .

في عز وتمكين الى أن توفى رحمه الله .

وفي هذه السنة كان سيل كثير بوادي اشبيلية خرج على جهات[196] طريانة وفيها كثر طلب العدو ابن الرنك في البر والبحر فدوخ بعض القرى في الشرف وغيره فنظر الخليفة في بعث ابنه أبي اسحاق والياً على اشبيلية في عسكر ضخم .

وفي سنة خمس وسبعين وخمس ماية اشتدت فتنة النصارى في البر والبحر فولى أمير المؤمنين غانم بن مردنيش على الأسطول بسبتة فعبر البحر أولاً غازياً مدينة اشبونة تغلب فيها على قطعتين من قطائع الروم وأنصرف الى سبتة ثم عبرت بعد ذلك جملة ذميمة من الشياطين الى سلطيش[197] فتغلبوا عليها وأسروا فيها من المسلمين خلقاً كثيراً وفك الله أسرهم[198] بالفداء منهم .

وفيها كانت وفاة السيد أبي حفص ابن الخليفة عبد المؤمن في ربيع الأول وهو الذي كرر غزواته في المنافقين حتى أذعنوا طائعين وانقذ الثغور من أيدي الكافرين ، وفيها ارتحل السيد أبو علي الحسن[199] بن الخليفة عن قرطبة بجميع أهله وولده ورجاله ثم تبعه أبناء أخيه المتوفى أبي حفص وساروا بأجمعهم الى مدينة مراكش كان اجتماعهم بها مما جدد الأنس وأبهج النفس ، ثم سألهم عن أحوال الأندلس فأخبروه أن صاحب طليطلة أظهر نقض الصلح وبالغ في الغارة والقبح فغار أمير المؤمنين لذلك وجمع أشياخ الموحدين فأعلمهم بهذا الخبر فغاروا لغيرته وتألموا من شغل باله وفكرته وأخذوا في الاستعداد وخلوص نيتهم في الجهاد ، ونظر الخليفة أبو يعقوب في استجلاب العرب من أفريقية وعزم على الغزو الى مدينة قفصة لأن يحسم عللها ويسد خللها .

ذكر حركة الخليفة الى إفريقية
وغزوته الى مدينة قفصة

قال الراوية الثقة : كان خروجه من مراكش يوم الخميس خامس عشر من

---

(196) في م : « جنبات » .

(197) في ت : « شليطين » .

(198) في ط : « أميرهم » وهو تحريف .

(199) في ت : سقطت « على » وأثبت على هامش السطر التالي مخرجه بعد « الحسن » فطار السياف بذلك « أبو الحسن علي » ولعل هذا الصواب .

شوال من سنة خمس وسبعين وخمس مابة وذكر ابن صاحب الصلاة قال حدثني أبو الحسن الهوزني أنه كان يعطي في البركة لعساكره في غزوته الى قفصة ألف ألف دينار تمادى ذلك مدة غزوته الى أن انصرف سوى العلوفات والمواسات والمرافق في كل منزل وكتب رحمه الله الى الطلبة الذين بجزيرة الأندلس معرفاً لهم بغزوته وحركته فلما عيد عيد الأضحى من السنة حض على البدار الى ما عزم عليه من الجهاد والسلوك في الآكام والمهاد[200] ، وقدم ابنه المنصور أبا يوسف فوصل تلمسان في هذه السنة المؤرخة .

وفي سنة ست وسبعين وخمس مابة في أولها استكملت العساكر الموحدية بتلمسان وعبّأ[201] أمير المؤمنين جيوشه بأحسن التعبية في الثاني عشر من شهر صفر برسم الغزو الى قفصة وبلاد القيروان حتى وصل بجاية فلما احتلها تحقق عنده أن ابن المنتصر يحرض العرب على الفتنة وأنه يواصل الممتنع بقفصة ويواليه على الشقاق والنفاق فقبض عليه ودخلت داره فوجد فيها مخاطبات العرب اليه بجوابه بما يشهد عليه ويحقق ما نسب اليه من ذلك ، فأخذ ما كان بيده من الأموال والذخائر وغير ذلك وسار أمير المؤمنين من بجاية حتى كان بقرب من قفصة وصل إليه جميع أشياخ العرب من قبيل رياح بالبدار والمسارعة إلى الطاعة طالبين للأمان في دورهم وأنفسهم واسعفوا فيما طلبوا ، واسعدوا على ما فيه رغبوا ، ونازل أمير المؤمنين أبو يعقوب قفصة محاصراً ولم يزل يقاتلهم بالمنجنيق وغيره الى أن رغبوا في العفو فأعفوا وافتتحت قفصة واسكنها بعسكر من الموحدين ونزل عنها الشقى المعروف بالطويل وذلك في شهر رمضان من عام ستة وسبعين .

ولما افتتحها رحل عنها الى تونس وخاطب أهل حضرة مراكش وأهل الأندلس وبعث مع الرسالة بقصيدة أولها :

ولما انقضى الفتح الذي كان يرتجى ... وأصبح حزب الله أغلب غالب
وأنجزنا وعد من الله صادق ... كفيل بأبطال الظنون الكواذب
وهبوا كما هب النسيم اذا سرى ... ولم يتركوا بالشرق علقة آيب

(200) لعلها « الوهاد » .

(201) كذا في ت : وهو الصواب ، وفي ط : وعبى ، وهو تحريف .

يغصُّ بهم عرض الفيافي وطولها وقد زاحموا الآفاق من كل جانب[202]
كأن بسيط الأرض حلقة خاتم بهم وخِضَمٌّ البحر بعض المذانب
ومد على رغم الصغار لسلمنا يديه عظيم الروم في حال راغب
يصرح بالرغبى وبين ضلوعه تنفس منذعور وزفرة راهب
وعى من لسان الحال أفصح خطبة وما صمتت عنه فصاح القواضب
وأصبح منخوبَ الفؤاد يحثه الى المقصد المطلوب صورة طالب
فأسعف والمطلوب ما لا يظنه ولله سر في هدون المحارب
اشرنا بأعناق الجياد اليكم وعجنا عليكم من صدور الركائب
الى بقعة قد يمن الله فضلها بمن حل فيها من إمام وصاحب
سنطوي اليها بالذميل مراحلاً ونثني اليها العزم من كل جانب

وهي طويلة من قول الكاتب المتطبب[203] أبي بكر ابن طفيل الوادي آشى وعظيم الروم الذي ذكر فيها هو صاحب صقلية والجزائر الشرقية ، ولما وصل هذا الشعر في طي الرسالة المذكورة الى مدينة اشبيلية استبشر الناس بما يسر الله لأمير المؤمنين من الفتح وكريم النجح وقابلت منها العيون لذيذ الوسن والكرى واجتمعت أشياخ اشبيلية على[204] التهنية للسيد أبي اسحاق فهنوه على ذلك وقام ابن الجد خطيباً بين يديه وانشد أبو مروان عبد الملك بن محمد في المعنى قصيدة أولها :

فتح يفوت مدارك الأوهام ويعجز الاحصاء بالاقلام
صدع الدجى صدع الرداء بنوره فأرى الغواة تقضي الأحلام
حير البشائر صوغت حمل المنى بقفول خير خليفة وامام
وافت كما ابتسم الامان لخائف وانهل إثر المحل سكب غمام
لما طوى طي السجل مشارقاً أم المغارب ناصر الاسلام
يا أيها الملك الذي في ظله أمن المروعُ حوادث الايام
وسطا وجاد وما تباطا شأوه أسد العرين ولا الغمام الهامي
وجرى على نهج الخلافة تابعاً آثارها في النقض والابرام

(202) في ت : « رحموا » ولعل أصلها « رجموا » بالجيم .
(203) في ط : « الحطيب » والمثبت من م .
(204) في ت و م : « برسم » بدلاً من « على » .

هنئتنا نعمى تجل عن المنى قدراً وقسماً ليس[205] كالأقسام

ولما انفذ الخليفة أبو يعقوب [عساكر العرب][206]إلى الغرب على ما ذكره في الرسالة التي بعثها إلى الأندلس أخذ قافلاً من إفريقية [إلى مراكش وترك][207]مستناباً على افريقية أخاه أبا علي الحسن بمدينة تونس وولى أخاه أبا موسى بجاية وأنظارها[208] وحينئذ أخذ في الانصراف والقفول الى حضرته وكان وصوله الى فاس في شهر صفر من عام ست[209] وسبعين .

وفي هذه السنة وهي سنة ست وسبعين أسر غانم بن مردنيش قائد الأسطول بسبتة وأخوه أبو العلا وجملة من أصحابه واستشهد باقي إخوانه وجماعة من المسلمين رحمهم الله تعالى واحتوى النصارى على كثير من القطائع وعلى من كان فيها من المسلمين وانصرفوا الى أشبونة وذلك في منتصف محرم فتقاطع غانم بمال عظيم وكتب لأمير المؤمنين من موضع اعتقاله بوصف أسره[210] وسوء حاله فوصل كتابه الى تلمسان في أول صفر فأمر في الحين لأبي القمر هلال بن محمد أخي غانم أن ينصرف الى حضرة مراكش لينظر في فداء أخيه وأمر بانشاء الأسطول فلما وصل أبو القمر الى مراكش حضر المال وبعث به الى اشبيلية فانصرف الفكاك به ودفعه الى النصارى[211] وانطلق غانم المذكور من الأسر وأخوه ومن كان بقي من أصحابه ثم [كثُر][212] كلب العدو في هذه السنة في البحر وكان النصارى من أهل طليطلة وشنترين طول مدة مغيب أمير المؤمنين قد ألحوا على بلاد[113] الأندلس بالنكاية وشن الغارات على القرب والبعد من بلاد الاسلام فلما وصلت البشائر بوفادة أمير المؤمنين نشطت النفوس لجهاد اعداء الله الكفار فأبلوا فيهم بلاء من أخذ بالثار .

---

(205) في ط : « التي » بدل « ليس » وهو تحريف ، والمثبت من ت و م .

(206) سقط من ط : والمثبت من ت و م .

(207) سقط كذلك من ط : والمثبت مما تقدم .

(208) في ط : « بالقيروان » والمثبت من ت و م .

(209) في م : « سبعة » .

(210) في ط : « يشكو » ثم بياض ، والمثبت من ت و م .

(211) في م : « العدو » .

(212) ساقط من غير ت .

(213) في ت : « جهات » .

وفي هذه السنة توفي أبو يعقوب ابن يخيت بغرناطة والقاضي أبو عبد الله ابن القاضي عياض وأبو الحسن ابن يربوع قاضي مالقة رحمهم الله تعالى .

وفي سنة سبع وسبعين وخمس مابة وصل البشير إلى إشبيلية بوصول الخليفة إلى الحضرة فمشى السيد أبو إسحاق منها للقاء أبيه وتهنئته ومشى [صحبته][214] ابن وانودين وغيره [من الموحدين][215] وأشياخ إشبيلية وعندما علم أشياخ قرطبة وغرناطة ومرسية ببدار أهل إشبيلية أخذوا في المشي إليه والوفود عليه فوصلوا مع السيد أبي عبد الرحمن يعقوب بن عبد المؤ من الوالي على مرسية ثم إن هذا الوفد المذكور أقام بمراكش إلى أول شهر ذي القعدة ثم انصرفوا إلى بلادهم .

وفي هذه السنة عسكر ابو عبد الله محمد بن وانودين الهنتاتي بجميع الموحدين من اهل اشبيلية [وجميع من كان فيها من الأجناد وحشد أهل الحصون من الخيل والرماة وخرج من][216] اشبيلية في غاية من الاستعداد فغنم المسلمون جميع ما وجدوه بخارج يابرة من الغنم والبقر ونازلهم[217] في يوم عاشوراء وامر بقطع ثمارها واشجارها وكرومها واعفاء رسومها وابن وانودين يقدم المسلمين كالليث الضاري ، ويستعين في جهاده بالخالق الباري ـ والكفرة اهلكهم الله قد انجحروا خلف سورهم انجحار الثعالب العاوية اذا سمعت زئير الاسود العادية ـ ولقد كان يوما في خبائه نايما في القائلة والمسلمون يغيرون في كل جهة ، فخرجت النصارى من يابرة في حين غفلة فاستيقظ من نومه، وركب من فوره، فهزمهم اجمعين حتى تساقطوا في حفير السور رجالاً دون دواب فأخذت دوابهم واسلابهم وقتل منهم خلق كثير ولم يخرج منهم بعد ذلك قليل ولا كثير وأقام ابن وانودين عليها يومين وانصرف عنها بالعسكر فصبحوا حصنا آخر للنصارى يسمى حصن قليج[218] فساء صباحهم ولم يستقيظوا من سكرتهم الا والليل قد أحاط بهم من كل جانب فتغلبوا على الحصن وفتحه ومنحه الله من المغنم ما منحه فسبى من النساء أربع مابة بين كبيرة وصغيرة ومن الرجال مابة

---

(214) ساقطة من ط .

(215) سقط من ت : « من الموحدين » .

(216) ساقط من م : .

(217) في م و ت : ونازلها .

(218) بالأصل « فنج » وهو تحريف قليج كما سينبه عليه هويسي في صفحة 151 .

وعشرين وقتل منهم خلقاً كثيراً ودخل اشبيلية في داخل محرم في تبريز وحفل عظيم وباع السبي بها وكثر عند الناس الخدم ، وامتدت النعم .

وفي هذه السنة كانت وقعة ايضا على النصارى في البحر وذلك أن قائد سبتة عبد الله بن جامع وهو المولى عليها حين اسر غانم بن مردنيش خرج منها بالأسطول وخرج القائد ابو العباس الصقلي من اشبيلية باساطيلها واجتمعوا جميعا بجزيرة قادس وقد استكملوا اربعين قطعة فنهضوا منها بجمعهم الى جهة شلب فالتقوا بأسطول أهل أشبونة بالموضع الذي أسر فيه غانم بن مردنيش في البحر وعكس فيه في المنتصف من محرم من العام الفارط فالتقوا الآن في الخامس عشر من محرم ايضاً وهذا من أغرب الأشياء فنصر الله المسلمين في هذا اليوم نصرا مؤزرا وقتل من النصارى كثيراً وأسر منهم نحو الألف وثماني ماية ولم يمت فيه من المسلمين إلا رجل واحد وأخذت لهم من القطائع نحو العشرين مع اسلابهم واسلحتهم واقتسموا الغنيمة من الأسرى وغيرهم وانصرفوا ظاهرين ظافرين الى موضعهم وبادر القائدان المذكوران ابن جامع والصقلي بغنيمتيهما[219] من الأسرى إلى أمير المؤمنين فأعطى منهم البعض في فداء غانم بن مردنيش وضربت اعناق الباقين .

وألح خيل النصارى اهلكهم الله من أهل شنترين بالضرب على بعض بلاد المسلمين بالشرف وغيره فخرج اليهم عسكر المسلمين من اشبيلية فتقاتلوا قتالا شديدا وقتل فيه من النصارى نحو ماية وسبعين ثم خرج كمينهم فانهزم المسلمون واستشهد منهم جماعة. ثم توالت خيل طليطلة بالضرب على إستجة وجهة قرطبة فخوطب بذلك الخليفة بالحضرة .

وفي سنة ثمان وسبعين وخمس مائة وقعت بالأندلس احداث قبيحة فمن ذلك ان خيل النصارى من جهة شنترين وإشبونة وصلوا الى قرية شلوقة[220]من الشرف فضربوا عليها في ألف فارس وألف راجل وقتلوا من وجدوا من المسلمين وأسروا وغنموا واغاروا على حصن القصر وغيره وانصرف هذا العدو دمره الله على طريق لبلة موفورون ، والمسلمون بين ايديهم مأسورون . وحادث أيضاً وهو خروج الطاغية العدو اذفونش الصغير أهلكه الله الى بلاد المسلمين بجمعه الذميم زاعماً أنه

---

(219) في م : بغنيمتهما .

(220) SANLUCAR .

يحتوي على الأندلس ووصل وفد إلى اشبيلية من قرطبة يعرفون ان الطاغية اذفونش ابن شانجة ملك قشتالة وطليطلة قد وصل بجموعه لحصار قرطبة فارتفع السعر بها ارتفاعا عظيما ثم ترادف الخبر بنزوله عليها وانتقاله بعساكره الذميمة اليها في الرابع من صفر فنزل بمقربة منها وشن غاراته الى جهة مالقة ورندة وغرناطة فغلا السعر لذلك وعظمت الضيقة ونظر ابن وانودين في توجيه الموحدين لضبط البلاد المجاورة لأشبيلية وشدها بالرجال ودفعوا بعض ضرر النصارى بفحص قرمونة وابو عبد الله ابن وانودين شديد العزم والحزم في النظر حول إشبيلية وخيل العدو تجول يمينا وشمالا في اكتساح وتدمير ؛ ثم نازل إستجة ولازمها حتى نقب سورها وكاد يتغلب عليها ، وكان حافظها ابو محمد ابن طاع الله الكومي فثبته الله فيها وثبت اقدام المسلمين. ولما كان يوم الخميس الثالث عشر لصفر اقلع من إستجة يريد اشبيلية فأقام العدو في فساد وتدمير وفي خلال ذلك دخل حصنا من عمل رندة بغدر يهودي دلهم على عوراتها واخذوا فيها الف نسمة واربعمائة ما بين رجل وامرأة وأحرقوا الزروع بنظر الجزيرة ورندة حتى اجتمع عندهم من المغنم من كل قطر وجهة ما لا يحيط به الوصف.

وحادث أيضاً وهو تغلب العدو على حصن شنتفيلة والمنار(221)على ما كان غليه من الامتناع والارتفاع فطمع العدو في غيره وقال لأقماطه حين أخذ شنتفيلة الآن آخذ قرطبة واشبيلية وكان تغلبه عليها في السابع عشر من صفر فأسر فيه من الرجال والنساء سبع مابة ففداهم أهل اشبيلية بألفين وسبع مابة دينار وخمسة وسبعين دينارا ذهبا ، دفع منها ابن زهر من ماله مابة دينار عينا والباقي جمعه الناس بالمسجد .

وحادث مروع أيضاً وهو تحصين العدو بشنتفيلة وإسكانها بالنصارى وجلب الأقوات اليها وتقويتها بالعدد والآلات فلما أكمل مراده أسكن فيها خمس مابة فارس وألف راجل عاهدهم على حمايتهم واعانتهم واقلع لعنه الله الى بلاده في الثالث عشر لشهر ربيع الأول من السنة ، وكان تدويخه اقطار الأندلس خمسة واربعين يوماً . ولما تحقق انصراف العدو الى بلاده اجتمع رأي الموحدين على منازلة شنتفيلة ودفع دائها العضال .

ذكر منازلة شنتفيلة التي غدرها اللعين في هذه السنة

فاستنفر السيد ابو إسحاق ابن الخليفة ابي يعقوب صاحب اشبيلية جميع

(221) هما : Almanar , Santafila .

الأجناد والحشود من بلاد الأندلس برسم الجهاد فوصلوا اجمعين فتحرك من اشبيلية غرة ربيع الآخر من سنة ثمان المؤرخة واتفق في هذا اليوم فتح استبشر الناس به وذلك ان أكثر النصارى الذين كانوا بشنتفيلة خرجوا منها واغاروا على بعض الجهات فخرج المسلمون في اتباعهم من قرمونة وغيرها فالتقوا معهم وهزموهم وقتلوا منهم سبعين فارسا وأسروا آخرين واستاقوهم مكبولين الى السيد ابي اسحاق فضرب رقابهم في الطريق .

ولما وصلت العساكر الى شنتفيلة احدقوا بها من كل جانب فضاقت حال الكفرة وعدموا الشعير لعلف دوابهم فعلفوها القمح فمات أكثرها فأقام المسلمون عليها ستة وأربعين يوما ، فلما كان السادس لجمادى الأولى وصل الخبر ان اذفونش خرج من طليطلة قاصدا لنصر اخوته الملعونين فأقلع السيد والموحدون وانصرفوا الى اشبيلية ثم وصل العدو بعد اربعة ايام من اقلاع المسلمين فخرج اليه من شنتفيلة اخوته الكفرة فميزهم فلم يجد من الخمس ماية فارس الا خمسين فارسا ومات الباقون بالقتل والوباء وعلف القمح للدواب ، ولم يجد من الرجال الا ست ماية من ألف فأمر لهم بالرحيل عنهاوالإخلاء منها في الخامس عشر لجمادى الأولى من السنة .

اختصار الخبر عن حركة الخليفة ابي يعقوب الى بلاد السوس لقطع المنافقين عن المعدن

وذلك انه لما صح عند امير المؤمنين ان المعدن الذي بجبل السوس على مقربة من بلاد.هرغة قد أخرج منه شيء لم يعهد في قديم الزمان ولا سله[222] قط أهل ذلك المكان وظهر أهل هذا الجبل بما تحصل في ايديهم منه واغتصبوه لأنفسهم دون حق منه للخليفة فعسكر في أول صفر من سنة ثمان وسبعين وخمس مائة وخرج من حضرة مراكش لتحصينه وتحصيله فوصل الى المعدن المذكور فنظر الخليفة في بناء حصن عليه واسكنه بالأجناد واستعد لتحصينه غاية الاستعداد. فلما اكمل غرضه اقلع بمحلاته عنه وسلك على مسالك المهدي وزار قبره وقبر ابيه عبد

(222) (كذا) بالأصل « سله » وهو إن صح مقصود به الاستخراج .

المؤمن واظهر الايحاش اليهما واسكب عبراته عليهما ، وامر وفود الأندلس ان يسيروا من مراكش الى زيارتهما . قال ابو مروان عبد الملك بن محمد في تاريخه وكنت في وفد اشبيلية ، فزرت القبرين المكرمين[223] بتينمل مع ابي بكر ابن زهر وابي الوليد ابن رشد وأمر طلبة الحضر أن يرثوهما ويذكروا غر فضائلهما ومآثرهما فقال الناس في ذلك واطنبوا فحباهم عليه بالعطاء الكثير فمن ذلك قول ابي مروان ابن خالد :

مجاري عيون المسلمين تسيل   دما ونجيعا والدموع همول
ألم تر ان الدهر قد عم صرفه   ففي كل دار أنة وعويل
وإن طال في الدنيا مقام لإمرىءٍ[224]   فلا بد يوما ان يكون رحيل
فيا روضة المهدي حل بك الهدى   وسر مع الأيام ليس يحول
أحقا أمير المؤمنين امامنا   محا القمر الديني منه أفول
أحقا مضى المنصور واختار ربه   فليس مدى الأيام منه قفول
مضى بعد ما احيى الأنام بهديه   وقام بأمر الله وهو كفيل
وطهر دين الله من دنس به   وأظهر هديا جاء فيه رسول
اقام بأعلى تينمال وانما   الى جانب المهدي منه نزول
هما في جنان الخلد في صفوة الرضى   مقيلهما عند الاله مقيل
مع المصطفى خير الأنام محمد   وظلهما عند الاله ظليل
فطوبى لأرض حل فيها امامه   ولله مهدي بها وخليل
ويا عجبا للقبر كيف احله   وقد كانت الدنيا اليه حلول
فحقٌ لأهل الدين سكب دموعهم   وحقٌ لكل المؤمنين ثكول
فتبكي عليه الخيل في حالة الوغى   اذا كان ضرب والبكاء صهيل
ويبكيه أهل الغرب والشرق دائما   وتندبهم شبانهم وكهول
كأن الغواني الباكيات حمائم   يهيجها عند العشي هديل
لئن كان أصل الحق في الترب قد ذوى   فإن لفرع الحق من أُصول
فألقى الى خير الخلائف عهده   اجل بنيه وهو منه سليل
الى من له في العلم اكثر مذهب   وكل كثير في علاه قليل

---

(223) في ط : « الملازمين » .

(224) (كذا) « ولا يستقيم إلا باظهار الهمز » .

الى شبهـه في الخلق والخلق والـرضى | لــه الخلفــاء الكــافحــون قبيــل[225]
هــو الـطاهــر الصــوام كِــل زمــانــه | رؤوف بـحــالات الأنــام مقيــل[226]
فــلا زال مـنـصــورا بــأمــر مــظفــر | واسـيــافــه في الـكــافــرين تـصــول

وأما الرابطتان اللتان بقرب الغار الذي في جبل ايجليز حيث كان المهدي رضي الله عنه فالواحدة منهما تسمى رابطة وانسري والاخرى رابطة الغار ، فكان الناس يأخذون التراب منهما فيتبركون به ويجعلونه على المرضى . ولما انقضت هذه الزيارة انصرف الخليفة الى مراكش وانصرف الناس معه .

وفي مدة هذه الحركة المباركة كان خروج الطاغية اذفونش لعنه الله كما تقدم ذكره الى نظر قرطبة واشبيلية واحدث فيهما من العيث ما أحدث فرأى الخليفة ان ينظر للموحدين بالأندلس بتقوية عزمهم واعمال جدهم وحزمهم وامرهم بالصبر فيسر الله سبحانه حديث شنتفيلة على ما ذكرنا ونظر ابن وانودين الآن في الغزو على ما اذكره .

ذكر غزوة ابن وانودين الى طلبيرة

ونظر ابو عبد الله ابن وانودين في الجهاد فاشتغل بحشد الأجناد فاجتمعوا باشبيلية على أكمل المراد فتحرك بالعسكر في الثامن لجمادى الآخرة سنة ثمان وسبعين ومعه الموحدون وأشياخ الأندلس وسلك بهم على [طريق قرطبة ، ثم ترك طريقها وسلك على][227] غير طريق حتى خرج الى حصن بثة [228]المنسوب لابن سعيد الخير ولما وصل اليه ميز العسكر عليه فالفى فيهم عددا وافرا فسره ذلك وتشاور مع الأشياخ فاتفق رأي الجميع أن يضربوا على مدينة طلبيرة[229] فتحرك بالجميع المذكور من حصن بثة وسار سيرا مرتفقا بالناس مدة من ثلاثة أيام وقد ستره

---

(225) (كذا) في ط : وفي ت : « الخلفا الكامحون » وفي م « الكاسحون » .

(226) في ت : « منيل » وكِلَاهُما صحيح ، فالأول بكونه مقيلاً للعثرات ، والثاني للعطايا .

(227) ما بين معقوفتين ساقط من ط : والمثبت من ت و م .

(228) في ت و م : ثبة .

(229) علق هويسي ميرندا على كلمة « طلبيرة » الواردة في العنوان والمترددة في القصة بأن المعنية هي « طبيرة » لكن المتتبع للواقعة لا ينفيها ، خصوصاً أن أهلها لم يكونوا منذ سبعين سنة قد رأوا مسلماً في تلك الأرض . أما « طبيرة » فإنها كانت بيدهم في الجنوب من البرتغال .

الله بالضباب والغيم حتى خفي على النصارى وصوله ، فلما كان بمقربة منها التقوا بسرية من النصارى نحو من عشرين فارسا فأحدقوا بهم وأخذوهم الا دليلهم فانه فر ، ولما قرب المسلمون من وادي تاجه[230] لم يجدوا مغنما فعلموا ان ذلك الفار قد اعلم بخبرهم وكشف عن اثرهم فأزعجوا في السير الى قرب طلبيرة فأغاروا على ما وجدوا من المغنم في فحصها وساروا على تعبية وترتيب وحنق على عبدة الصليب حتى وصلوا طلبيرة المذكورة في منتصف جمادى الآخرة من السنة المؤرخة .

وفي غده كانت الغزوة في الكفرة والحمد لله فنزل المسلمون في ربوة مرتفعة مجاورة للمدينة بنحو ميل وضربوا أخبيتهم ونشروا ألويتهم وباتوا بها ليلتهم احسن مبيت فأنكر النصارى ما عاينوه من الإقدام عليهم والثبوت لديهم وكانوا منذ سبعين سنة لم يروا مسلما في تلك الأرض إلا إن كان مأسورا عندهم فحشدوا جميع من في بلدهم وبعثوا عن أهل الحصون المجاورة لهم واجتمعوا كلهم وخرجوا الى الربوة المذكورة فقللهم الله في أعينهم والمسلمون قد اقلعوا منصرفين بعد ما امتلأت ايديهم من المغانم والأسرى فجد الكفرة في اتباعهم ، وعزموا على مقاتلتهم ودفاعهم الى ان اتبعوهم نحو ثمانية اميال ولم يبـقَ في طلبيرة شيخ ولا صبي الا خرج ومعهم القسيس يحرضهم على القتال ويضمن لهم الظفر وابن وانودين يقدم أصحابه ويعظهم بما لهم عند الله من الأجر والثواب على الجهاد وهو مع ذلك يطاول مع النصارى المقاتلة ويقطع الأرض [باعاً باعاً][231] ليخرج من قرب بلادهم الى أن أشرفوا على جبل يسترهم فنزل العسكر وراءه وقال لهم هذا موضع الحرب ان شاء الله ، واعلموا يا اخواننا ان أرضكم بعيدة وان الفرار يدخل النار فتثبتوا ينصركم الله ، فتوادع الناس وعزموا على الجهاد فتقدم ابو عبد الله ابن وانودين والمسلمون معه للدفاع فحملوا على الكفرة حملة اهلكهم الله فيها فانهزموا وولوا ادبارهم وقطع الله آثارهم ومات منهم في المكـان المذكور ازيد من عشرة آلاف بين فارس وراجل وقتل فيها من اليهود نحو الألف وامتلأت ايدي المسلمين من اسلابهم ودوابهم .

---

(230) بالأصل « باجة » ونبه هويسي أن المراد « تاجه »، ونرى أن كل ما ورد باسم وادي « باجة » إنما هو تحريف . لأن « باجة » لا تحاذي واديا . ويتعد عن « تاجه » بأكثر من مائة كيلومتر . وهو بالجيم في البرتغالية .

(231) ما بين معقوفتين ساقط من ط : وهو مثبت في ت .

ودخل ابن وانودين والمسلمون الى اشبيلية شاكرين مسرورين بما فتح الله عليهم وعرف امير المؤمنين بصورة هذا الفتح فسر به غاية السرور وخاطب بذلك ابن وانودين وقال في خطابه له ﴿وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى﴾ فبقي أبو عبد الله من ذلك في وجل وتحت(232) كسل . وتغير الخليفة على السيد ابي إسحاق في كونه لم(233) يحضر تلك الغزوة التي نسبت لابن وانودين وهو (234)[من جملة قواده وعاقب كل من تخلف عن الأجناد وهجر ، وحرم من العطاء حتى تاب واستغفر .

بعض أخبار يوسف بن وانودين الهنتاتي وما كان لابنه محمد من المآثر

وذلك انه لم يتقدم احد من الموحدين بالدخول في هذا الأمر وهو أمير على قبيلة إلا أبو يعقوب [يوسف](235) بن وانودين فأنه وصل معسكراً في قبيلته ومن طاوعه من اخوانه الهنتاتيين فضخم به التوحيد وعظم به التمهيد وهو الذي استاق قبيلة كزولة وجلبهم وأدناهـم لهذا الامر العالي وقربهم وكان عند الخليفة امير المؤمنين من كبار اهل خمسين ونشأ ابو عبد الله هذا احسن منشأ على الطهارة الدينية وتلاوة كتاب الله تعالى مع العقائد المهدية وعرض الموطأ في المجلس السامي بمحضر أمير المؤمنين عبد المؤمن وعلية الناس وقربه كثيراً مع صغر سنه فزادت نجابته وعلت مكانته وقدمه قائدا على العسكر واصحبه مع نفسه في الغزوات والحركات وحضر معه فتح بجاية والمهدية وسائر الفتوحات وكان بطلا شجاعا ذا نجدة وشهامة وله الوقائع المشهورة والمشاهد المذكورة . من ذلك مع عسكر ابن مردنيش وأهل شرق الأندلس وحربه معهم في سنة سبعين وهزيمته ايضا للنصارى اهل شنترين وفتحه لحصن قليج(236) وسبيه اهله وهزيمته ايضا للنصارى الذين اغاروا على حصن برجانة وقرمونة وتوصيله الميرة العظيمة الى مدينة بطليوس ومواقفه لاذفونش في اليوم المشهور في حصن الغلال(237) وتغلب المسلمين من الفرسان

---

(232) في ط : « وتحل » وهو تصحيف . والمثبت من ت و م .

(233) في ط : لا ، وهو تحريف .

(234) من هنا إلى « الحافلة الاستعداد » في العنوان التالي ساقط من م وترك محله بياض نحو ثلثي صفحة .

(235) سقط من ط : وهو مثبت في ت :

(236) بالأصل «بنج » هو تصحيف كما نبه عليه هويسي . أما حصن برجانة فهو حصن : PURCHENA .

(237) في ت : الهلال .

والرجال على أخبية محلة الطاغية اذفونش لعنه الله وانقاذهم الاسرى والمغانم من أيدي النصارى واقلاع اذفونش بالليل من ذلك الموضع فارا أمامه الى غير ذلك من مناقبه ثم بعد ذلك عدا عليه الزمان وطولب وأدب بسكناه حصن غافق من ثغور الأندلس ، ثم بعد ذلك استقر بتونس على ما يأتي .

وفي هذه السنة وهي سنة ثلاث وسبعين غلت الأسعار بمراكش والأندلس واعتل الخليفة فوفدت عليه الأطباء من الأندلس للمعالجة إلى أن وجد الراحة فامتدحه الشعراء وعمهم منه النيل والإعطاء فمنهم أبو العباس ابن عبد السلام قال من قصيدة يمدحه ويهنيه ببرئه :

ستملك أرض مصرٍ والعـراقـا ... وتجـري نحـوك الأمم استبـاقـا
إذا لـم يـتـفـقَ رأي ورأي ... أفـادا فـي محبـتـك اتـفـاقـا
صفـا لك كـل قلب غيـر صـاف ... وزحـزح عن ضمـائـره النفـاقـا
وحـقِّـكـم وحـقُّـكـمُ عـظيـم ... لقـد حسن الـزمـان بكم وراقـا
وقـد بلغ الـوجـود بكـم منـاه ... وقـد أمنت عصا الـدين انشقاقـا
تبـادرت الفتـوح إليـه تجـري ... غـرائبهـا وتـستبق استبـاقـا
أميـر المـؤمنيـن ومـن عـليـه ... سنـا الإسـلام يـأتلق ائتـلاقـا
ويـا ملكـاً أحنت[238] كـل أرض ... إلى أرض أقـام بهـا اشتيـاقـا
يـحـن إلـيـك يـوم غيـر آت ... ويشكو الذاهب المـاضي الفراقـا
شكـوتَ فـأي قلب غيـر شـاك ... وأي العيش لـم يمـرر مـذاقـا
ولـولا عـطفـة الإبـلال كـنـا ... بنـار الـوجـد نحترق احتـراقـا

وقال أيضاً يمدحه ويهنيه بالعيد :

شـملت ببقـائكـم الـنعـم ... وسمت بـرجـائكم الـهمـم
وهـمت ديـم مـن راحـتـكـم ... هيهـات تسـاجلهـا الـديم
وعـنت لـعـزائمـكم عـرب ... تشقـى بصـوارمـهـا العـجم
أسـد تـنـقـاد الأسـد لـهـا ... بـهـم تـنـقـاد لـهـا الـبـهـم
حمـدت شيـم الأيـام بكـم ... ولـكم ذمـت منـهـا الـشيـم

(238) في ت : أمنت .

بهرت أنوار خلافتكم وسماء العلم بها علم
فرأى من ليس له بصر ووعى من كان به صمم
وأناف المجد على زحل وأتى بغرائبه الكرم
أعيى البلغاء مقامكم ولو آن مقالهم حكم
العيد أحق بتهنئة فله بكمُ فخر عمم
دمتم والكل يلوذ بكم من صرف الدهر ويعتصم

وفي هذه السنة توفي قاضي الجماعة بمراكش أبو موسى ابن عمران في الخامس وعشرين لشعبان وكان فريد زمانه ديناً وعلماً وأدباً فمن قوله عند وفاته رحمه الله تعالى :

دع ذكر دار قصدها أن تخربا واعمل لدار ملكها لن يذهبا
فالله مولانا يصون[239] جميعكم لا أرتجي أرباً سواه ومطلبا
وهو الكفيل برحمتي وسعادتي هذا وإن كنت المسيء المذنبا

وفي اليوم الذي توفي فيه أبو موسى ابن عمران ولي مكانه القضاء أبو العباس ابن مضا .

وفي سنة تسع وسبعين وخمس ماية أمر الخليفة أبو يعقوب رحمه الله بتوسعة مدينة مراكش وهدم سورها الأول وإقامة سور آخر .

ذكر السبب في توسعة مراكش حرسها الله

وذلك لما دانت لأمير المؤمنين المغرب والأندلس وإفريقية وملك ملوكها وهتك شركها وشريكها واجتمع في طاعته جميع أهل العدوتين طراً - إلى أحواز طرابلس براً وبحراً - انجلى الناس إلى مراكش من كل مكان ، وتفاخروا في سكناها بحسب القدرة منهم والإمكان ، فصارت أوسع البلاد معاشاً وأكثرها خلقاً وأربحها تجارة فضاقت بالناس فلم يجدوا موضعاً للبناء ولا محلاً للسكنى وكان الأمير أبو يعقوب أمر القبائل هسكورة وصنهاجة أن يرتحلوا من بلادهم إلى سكناها بأهلهم وبنيهم فامتثلوا ذلك ووصلوا ولم يجدوا حيث ينزلوا[240] فشكوا ضيقتهم وحيرتهم

---

(239) بالأصل « يصور » ، ولعل الصواب ما أثبتناه .

(240) (كذا) بالأصل .

فنظر أمير المؤمنين في ذلك فركب السيد المنصور ابنه أول يوم ربيع الآخر ومعه شيوخ الموحدين وعرفاء البنائين ينظرون تحت نظره حيث يكون هذا الاتساع والأمر المطاع فاتفق رأيهم على زيادة مدينة متصلة من جهة القبلة فرجعوا إلى الخليفة وأعلموه بذلك فرأى رأيهم وأمضى سعيهم وأمر العبيد والرجال بهدم السوَر القديم بجهة باب الشريعة وكان الابتداء في بناء الأساس المذكور صبيحة يوم الاثنين الخامس والعشرين من ربيع الآخر من السنة المؤرخة واتصل بناء السور المذكور وبناء باب الشريعة مدة من أربعين يوماً حتى كمل وجاء على ما قدر فيه وأمل .

وفي هذه السنة كان الحادث الواصل من إفريقية إلى السيد أبي الحسن ابن الخليفة عبد المؤمن رحمه الله، كان بينه وبين العرب بني سليم حرب بمقربة من قابس وإن الموحدين لما دامت الحرب بينهم أمروا لفرسانهم أهل الرايات أن ينتقلوا من موضعهم ويأووا إلى الجبل المسمى هنالك بجبل كسرى يقفوا فيه ويمتنعوا من العرب في نواحيه فظن الناس في العسكر إن ذلك الانتقال عن انهزام فتركوا أثقالهم وانكسروا مهزومين دون قتال ومالوا عن السيد فلجأ إلى الجبل المذكور بمن معه ولم يجدوا فيه ماء فعطشوا عطشاً شديداً فدفعوا على العرب دفعة واحدة فأحدق العرب بهم وتقبضوا على السيد وعلى أصحابه .

وحين وصل هذا الحادث اشتغل بال الخليفة وخاطره وغار بذلك غيرة علم بها باديه وحاضره وبعث عن الموحدين وأعلمهم بالخبر واتفق الجميع على غزو بني سليم وجهادهم وأخذ الثار منهم وكان ورود الخبر بذلك في العاشر من جمادى الأولى من سنة تسع المذكورة ثم بعد ذلك بأيام وصل الخبر السار بالإعلام عن إطلاق السيد من أيدي العرب بمال أعطاهم في نفسه وأصحابه وأنه وصل إلى تونس في الثاني من ربيع الآخر فانبسطت النفوس ، وأضحكت الأيام بعد العبوس .

وفي هذه السنة خرج النصارى إلى بعض حصون المسلمين فقطعوا كرومها وأشجارها وحرقوا زروعها وخربوا ديارها فبادر أهلها وأشياخها إلى حضرة مراكش متضرعين إلى الله تعالى في نظر الخليفة لهم ووصفوا إليه أحوالهم وما نالهم من ضر العدو فأمر الموحدين بإشبيلية أن يحملوا إليهم الميرة من الطعام والآلات وغير ذلك ووعدوا بالنصر على أعدائهم وطب دائهم فانصرفوا عنه راضين إلى إشبيلية وعندما وصلوا إليها استظهروا بالأمر على الموحدين فجهزوا أربعة آلاف دابة بالميرة

أوصلها(241) إليهم أبو عبد الله ابن وانودين بعسكر من الموحدين والأجناد إلى بلدتهم فحيوا بعد مماتهم ونشروا بعد وفاتهم .

وفيها كانت السطوة بأبي زكرياء ابن حيون شيخ كومية وبابنه علي الذي كان مشرف تلمسان وغيره وكان كل يوم يخرج مكبولاً للحساب على عمله ، ثم أخرج ابن حيون المذكور منفياً من الحضرة إلى بطليوس وبقي علي ابنه في السجن إلى خروج أمير المؤمنين في غزوته إلى شنترين .

وفيها هرب من مراكش علي بن محمد بن رزين المعروف بالجزيري وكان على مذهب الخوارج الأزارقة في تكفير جميع المسلمين واجتمع إليه قوم من البربر يقرؤون عليه مذهبه فأغواهم وشاع خبره ومذهبه، وسأذكر مقتله في أيام المنصور إن شاء الله .

وفي هذه السنة توفي بمراكش أبو بكر محمد بن علي الحصار الإشبيلي . وفيها توفي بسبتة القاضي أبو عبد الله بن الحداد والمشرف بإفريقية ابن مثنى .

وفيها أمر أمير المؤمنين أبو يعقوب بتمييز الموحدين والعرب والقبائل للغزو وذلك في يوم السبت الخامس لجمادى الآخرة من سنة تسع وسبعين وخمس مائة .

اختصار الخبر عن حركة أمير المؤمنين أبي يعقوب من مراكش إلى غزوته الحافلة الاستعداد ، الكاملة الحشود والأجناد وما اندرج فيها من سطوته بالعمال ، وما حدث فيها من الخطوب والأهوال(242) ، وهي آخر غزواته رحمه الله

ابتدأ بتمييز القبائل والأجناد في الخامس من شهر جمادى الآخرة كما ذكرته فميزهـم قبيلاً بعد قبيل وأمر بعمل عشرة مجانيق فصنعت ورمى الرجال بالحجارة قدامه ، والسعد يعلو خلفه وأمامه ، وذلك التبريز بالبحيرة بخارج مراكش والناس ينظرون في ذلك كل يوم . دام هذا الحال شهر جمادى كله وفي شهر رجب ارتحل الخليفة عن البحيرة المذكورة إلى قصره بمراكش ودخل على الباب الجديد باب

(241) في ط : « أوصلهم » ، والصواب ما أثبتناه .

(242) في ط : « والأحوال » والصواب ما أثبتناه في م .

الشريعة وهو أول دخوله عليه وتقدم أمامه على قدميه ابنه أبو يوسف وجميع البنين وأقام بقصره يفكر في أمر الغزو وشأنه . وكان السيد أبو يوسف ابن الخليفة عبد المؤمن والياً على مرسية فوصل إلى الحضرة مراكش في شهر رجب ووصل معه جملة من أعيانها فلم يؤمر بالدخول على أخيه أمير المؤمنين لما وصله عنه وصح عنده ثم أمره بعد ذلك بالدخول مع السادات والموحدين .

وفي يوم الجمعة الحادي والعشرين من شعبان المكرم ولى أمير المؤمنين أبو يعقوب يوسف بنيه الأربعة قواعد بلاد الأندلس . صرف أبا إسحق إلى إشبيلية والياً عليها كما كان أولاً وولى أبا يحيى قرطبة برغبة أبي الوليد ابن رشد وولي أبا زيد الحرضاني[243] غرناطة وولى أبا عبد الله مدينة مرسية وأمرهم. بالحركة إليها مقدمة لحركته الحافلة وولى قضاء إشبيلية أبا المكارم ابن الحسين المصري وعزل قاضيها أحمد ابن محمد الحوفي وولى أبا الوليد ابن رشد قضاء قرطبة وولي أبا عبد الله ابن الصقر قضاء أغرناطة وأمر لجميع الموحدين المعينين للسفر مع السادة المسمين بالكسوة والزاد على مراتبهم وأقدارهم وتحرك الجميع إلى الأندلس في السابع والعشرين من شعبان بعد ما أمروا بالرفق والجري على سنن الحق .

وكانت قسمة السلاح والخيل في الخامس عشر من شهر رمضان ، فحضر الموحدون والعرب والمتجندون ، فقسمها على قدر طبقاتهم وأمر لطلبة الحضرة[244] بأربعة وعشرين فرساً وأعطى خباء لكل عشرة من الفرسان وتمادى هذا الإنعام والإحسان إلى شوال، وفي الحادي والعشرين منه أخرج البركة لجميع العساكر من الفرسان والرجال ،وفي يوم السبت الخامس والعشرين لشوال المذكور أمر الناس بالحركة فصلى أمير المؤمنين صلاة الصبح وقرىء الحزب على العادة واجتمع الناس على ما أمروا ووعدوا وركب أمير المؤمنين على عادة ركوبه من السكينة والوقار، والهيئة له في الإعلان والإسرار ودعا الناس له بالتأييد والنصر على جميع الكفار ، وقد تقدم أمامه علمه الأبيض مع الرجالة على العادة من الترتيب ومعه مصحف عثمان بن عفان رضي الله عنه على جمل أبيض مرتفع وعليه كله[245] قبة

(243) في ت : الحرصاني (بالصاد المهملة) .
(244) في ت و م: «الحضر»وقد وقع في طـ: تقديم وتأخير فيما قبل هذا صوبناه اعتماداً على مخطوطاتنا.
(245) (كذا) ولعل الصواب كلة .

حمراء تصونه وهو مرصع بنفيس الجوهر والياقوت ويليه مصحف المهدي على بغل وبنوه مع إخوته السادات خلفه وعليه رايات مختلفة الألوان وكان خروجه على باب دكالة من أبواب مراكش وأمر بإخراج علي بن حيون الكومي فأخرج مصفداً في الحديد وعليه رقباء يحرسونه في الليل والنهار فلما كان بتواقطين تحيل على رقبائه وسقاهم الخمر وأسكرهم وكسر حديده وفر على فرس أعطاه له أحد بني عمه وأعلم أمير المؤمنين بخبره فأمر بضرب رقاب الرقباء الذين كانوا يحرسونه وسجن من اتهم .

ثم أقلع أمير المؤمنين من هذا المنزل إلى أن وصل إلى رباط الفتح سلا فدخلها يوم الاثنين الثالث عشر من ذي القعدة وكان دخوله فيها من أغرب الهيئات وأتم الآلات ونزل بمدينة المهدية التي تقدم ذكرها، ولما كان يوم الاثنين الموافق عشرين من ذي القعدة وصل أبو محمد بن أبي إسحاق بن جامع من بلاد إفريقية والقيروان بجملة من الفرسان فدخل على أمير المؤمنين وأقام يسأله عن الأحوال ويستفهمه عن أحوال العرب المنافقين الجهال فعرفه أن إفريقية في نهاية العافية وأن العرب قد سمعوا بالحركة المباركة ففروا بأهليهم فلا يتقى بأسهم ولا يفارقهم نكسهم .

ثم أمر الخليفة بعد ذلك باجماع شيوخ الموحدين وشيوخ العرب والقواد بالحضور فحضر الجميع وخرج إليهم ابنه السيد أبو يوسف المنصور وشيوخ الموحدين وقال لجميع من حضر إن سيدنا أمير المؤمنين يقول لكم أنتم قد وصلتم واجتمعتم وهو يستشيركم في هذه الحركة إما لافريقية وإما للأندلس [فليتكلَّمْ](246) كل واحد منكم بمراده فقالوا بلسان واحد ليس أملنا إلا في غزو الكفار بجزيرة الأندلس وأعلم أمير المؤمنين بما وقع من كلام فقال الحمد لله على نعمه الكاملة وآلائه الشاملة .

وقد كان الخبر وصل بأيام أن العدو الغادر نكث العهد وحل العقد ونازل بعض حصون الإسلام فزادت غبطة(247) المسلمين في جهاد الكافرين وعزموا على ذلك بنية

(246) سقطت من ط ، والمثبت من ت و م .

(247) في ط : تغبطة ، وهو تحريف .

صادقة وعزيمة بالله واثقة وتقدمت العساكر للجواز على القنطرة ببحر سلا في الثامن والعشرين لذي القعدة وجاز أمير المؤمنين في المتوفي ثلاثين منه وتمادى مشيه إلى مدينة مكناسة فوصلها في السادس لذي الحجة وعيَّد عيد الأضحى في بحيرتها الكبرى (248) ورحل منها في الحادي عشر لذي الحجة ووصل مدينة فاس يوم الأربعاء الثالث عشر من الشهر المذكور فنزل بالبحيرة وارتاح بها ثلاثة أيام يستفهم الأحوال ويختبر العمال فكان من الإيقاع بهم ما أذكره إن شاء الله تعالى .

سطوة الخليفة ابي يعقوب بعمال مدينة فاس وانظارها

ولما كان يوم السبت الثالث عشر لذي الحجة اوقع بعبد الرحمن بن يحيى المشرف بمدينة فاس لما صح عنده من خيانته وحمله على الرعية واذايته فألحقه هو وأصحابه وألحق به في هذه السطوة والعقاب ابراهيم بن عبد الله الجياني الجاهل قدر نفسه ، وقبض في الحين على دورهم أجمع في كل بلد ومكان واكبلهم وسجنهم في موضع اليم النكال ثم قبض على سائر العمال وكان عددهم ثمانية عشر عاملاً اولهم مشرف فاس المذكور وخازنه على المال الذهبي وخازنه ايضاً على الطعام الطرحوقي(249) وابن عاصم ايضاً مشرف مكناسة وابن هود عاملها وابن عمر صاحب المدينة بها والمشرف برباط تازا وعلي بن مرزبن صاحب ملوية وقاضي المعدن وغير هؤلاء فاستأصل اموالهم ورد للمخزن ضياعهم ورباعهم وترك لكل رجل منهم داراً واحدة وكان الذي قاطعوه على أنفسهم ان يعطوه ويدفعوه اربعمائة الف دينار وستين الفاً يقسطونها على انفسهم وشهد العدول بذلك عليهم فجعل عليهم الرقباء حتى دفعوا المال المذكور .

ولما كان يوم الاثنين الثامن عشر من ذي الحجة امر الخليفة بتقدم قبيل هنتانة وتينمل وحركتهم من فاس الى قصر المجاز برسم الجواز الى الاندلس وكان شيوخ العرب بجميع قبائلهم قد وصلوا الى المهدية برباط الفتح سلا ايام اقامة امير المؤمنين فيها فأنعم عليهم بالكسوات العجيبة والبركات الجزيلة واشترطوا على انفسهم ان يحضروا لهذه الغزوة في مائة وثلاثين الفاً بين فارس وراجل وامر الخليفة

---

(248) في ط : الكبراء ، وهو تحريف .

(249) في ط : « الطرسوقي » . والمثبت من ت و م .

ابنه ابا حفص بالمشي اليهم والتقدم عليهم وان يحضروا معهم الجواز لبر الاندلس فخرج من فاس في الحادي والعشرين من ذي الحجة وقدم أيضاً على بعض قبائل الموحدين بعض السادات ليتقدموا الى الجواز وكتب الى من بالاندلس من الولاة ان يكونوا على هيئة للجهاد وان يستعدوا لهذا الجمع الحفيل غاية الاستعداد .

ثم كانت سنة ثمانين وخمسمائة : ففي يوم الثلاثاء الرابع من شهر محرم تحرك الخليفة ابو يعقوب من مدينة فاس على الهيئة المذكورة الى أن وصل مدينة سبتة فأقام بها شهر المحرم ثم عبر البحر يوم الخميس الخامس لصفر فحل بجبل الفتح ثم سار من جبل الفتح الى الجزيرة الخضراء الى ان برز بعساكره على اشبيلية في يوم الجمعة الثالث عشر لصفر وخرج جميع اهل اشبيلية الى لقائه والتبرك برؤيته فمن تواضعه وشرفه واعتنائه بالعلم انه لما ابصر ابن الجد رحمه الله وهو يسرع في مشيه ليسلم عليه ترجل عن فرسه وتلاقيا فترامى ابن الجد على يد امير المؤمنين وقبلها ومسح بها وجهه وقال الحمد لله الذي جمعني بك يا حبيبي وحبيب الناس فتبسم الخليفة من قوله ، وهذا من تواضعه وفضله .

قال ابو مروان ابن صاحب الصلاة وكنت حاضراً في يوم هذا اللقاء فسلمت عليه مع من تقدم من الطلبة اليه وتزاحم الناس للسلام فلم اقدر على الكلام ونزل رضي الله عنه داخل البحيرة التي له بخارج باب قرمونة فلما كان في اليوم الثاني امر باخراج السلاح والعدد وامر بتمييز العساكر والعدد ، وقسم عليهم جميع الاسلحة المذكورة وقسم الف فرس من العتاق الجياد على اشياخ الموحدين والعرب والاجناد ، وتلاحقت هذه الايام عساكر اهل الاندلس من اقطارهم وامصارهم واتى القائد ابو العباس الصقلي بأجفان غزوانيات وآلات للحرب معدات .

وفي التاسع عشر لصفر نكل الخليفة ابو يعقوب بأبي عبد الله ابن وانودين وسبب ذلك انه لما وصل الى حضرته اشبيلية كان ابن وانودين اصابه شيء من المرض فلم يقدر على الخروج للقاء فضرب فيه عند الخليفة وقيل عنه ما كان وما لم يكن ، فأمر بخروجه أسوأ خروج ، فخرج وقعد يومين فأمر أن يمشي الى غافق ليسكنه على وجه التغريب والتأديب فنهض هو وابو زكرياء يحيى بن الشيخ أبي [إبراهيم] لتخلفه عن المبيت بالمحلة ليلتين فكانا خليلين ابتليا ببليتين .

وأقام امير المؤمنين باشبيلية على ما ذكرته من تنفيذ الاوامر والنظر فيما يصلح

له ولجميع العساكر ، الى ان تحرك غازياً الى مدينة شنترين صبيحة يوم الخميس السادس والعشرين لصفر على ما عهد في حركاته وترتيب هيئاته وتمادى المشي من منزل الى منزل[250] الى حصن العرجة فوصله يوم الجمعة الرابع لربيع الاول ورحل منها وقد استكملت عليه العساكر من كل افق وقد تزيا الجميع بأحسن الزي وتبختروا في المشي وتوشحوا بالسيوف الهندية والدرق اللمطية والقسي الخطية وسالوا[251] في بطاح الارض بتبريز يسخط الكفار حتى وصلوا مدينة بطليوس فأمر بالنزول عليها وميز العساكر وامرهم بلباس السلاح فامتثلوا ذلك وجددوا ما نقصهم من الزاد وكان ادريس بـن جامع مغرباً مع بنيه بماردة وابن حيون الكومى كذلك ببطليوس فرغبوا من الخليفة ان يأذن لهم في [حضور هذه الغزوة فأذن لهم في][252] الحين ومشوا في جملة المجاهدين .

ورحل يوم الخميس العاشر لربيع الاول من بطليوس ولما وصل الى وادي تاجه امر الموحدين ان يتقدموا حتى يقفوا على باب شنترين ونهض معهم السيد ابو اسحاق الوالي على اشبيلية حتى وقفوا على باب شنترين يوم الاربعاء السادس عشر لربيع الاول الى وقت الظهر ولم يشتغل أحد بقتال ولا رمي بنبال انما كان الغرض في رؤ ية اسوارها وفهم [حال][253] كفارها ونزل امير المؤمنين بجميع عساكره بالجبل المطل على شنترين القريب اليها وامر العساكر ان يبرزوا على الكفار فتأهبوا للتبريز والمجالدة والدفاع ثم وقفوا على بابها والكفار اهلها قد انجحروا داخلها بجموعهم وحشودهم وقد ملئت قلوبهم ذعراً وحسرة وأمير المؤمنين يأمر الناس بالتكبير والتهليل وقد ضربت له القبة الحمراء وهم فرحون مستبشرون والخيرات كثيرة بكل جهة ومكان واتسع الناس في اقواتهم ووصل الشعير اثني عشر مدا بدرهم ، والقمح خمسة عشر مدا بدرهم . وقال ابو مروان بن صاحب الصلاة لقد رأيت في هذا اليوم ثوراً بيد عربي باعه بدرهم واحد ولقد اشتريت مع اصحابي بقرة سمينة بثلاثة دراهم وامتلأت المحلات على كثرتها وكبرها من البقر والغنم .

وانحصر الكفار في هذا اليوم حصاراً شديداً حتى لم يخرج احد منهم وهدم

---

(250) في ط : من المنزل إلى المنزل ، وهو تحريف .

(251) في ط : وسألوه ، وهو تحريف .

(252)ما بين معقوفتين ساقط من ط .

(253) ساقط كذلك من ط .

ربضهم المتصل بالسور واوقدت النيران فيه وطمع الناس في دخول المدينة وامر النجارين بعمل السلاليم وبات الناس احسن مبيت في ليلة الجمعة الثامن عشر لربيع الاول . ولما صلى الناس الصبح يوم الجمعة المذكورة أمر الناس بالتأهب لقتال الكفار في الاسوار فتقاتلوا[254] حيناً حتى تمكنوا من الربض المذكور ، ومن خرج من جيش النصارى هزم حتى كانوا يترجلون عن خيولهم ويطلعهم اخوانهم بالحبال من اعلى سور القصبة وعاين الكفار في هذا اليوم ما اذهلهم وهالهم ، وقرت أعين الاسلام بما نالهم ، وهدمت الكنيستان اللتان بالمدينة البرانية وخربت دورها واقفر معمورها . ولله در الرجل الصالح محمد بن ابراهيم حيث يدعو على شنترين في علته التي توفي منها فقال :

يا شنترين ولا انادي سامعا … القت عليك بلاءها الأقدارُ
ورميت عند دعائنا بحوادث … تذر الديار وما بها ديار
وتبدلت فيك العمارة وحشة … والامن خوف والغنى إقتار
وتعبثت بجهاتها اعداؤها … ومحا محاسنها البلى والنار
حتى اقول بنغمة يا بلدة … « لا أنت أنت ولا الديار ديار »

ورحم الله قائلها فلو كان حياً لرأى دعوته قد أجيبت في هذا اليوم . وبات الناس ليلة السبت على الحالة المرغوبة من الأمل[255] في فتح شنترين خربها الله . وفي صبيحة يوم السبت تأهب الناس للقتال ودام القتال بينهم الى يوم الاثنين الحادي والعشرين لربيع الاول فكانت بين المسلمين والنصارى حروب وخطوب فأمر الخليفة في هذا اليوم ان يرفع الناس ايديهم عن القتال وكان قد أمرهم ان يرحلوا من منزلهم وينزلوا في منزل آخر فتعجب الناس من هذا الرأي في الانتقال والارتحال وتعطلت في النفوس جميع الآمال وظهر الخلل في جميع الاحوال .

وكبا بابن الخليفة ابي اسحاق فرسه واعتلت قدمه وتورمت في الحين وكان يتصرف في اوامر ابيه على سرير من خشب ويحمل على الأعناق . وحدث في هذا اليوم على عسكر اهل مرسية حدث مروع وذلك انهم خرجوا للاغارة في بسائط

---

(254) في م « فقاتلوا » وهو أوفق .

(255) لعله « من الأمن والأصل » .

النصارى فخرجوا عليهم وهزموهم بعد حروب شديدة ووصلوا للمحلة مهزومين مفلولين واخذت من دواب المسلمين خمسون دابة خرجت برسم العلف وبات الناس في المحلة على حذر ،ومن الوجل في ألم وضرر .

وحدث في هذه الغزوة حدث ابهت العقول ، واذهل غاية الذهول ، وذلك ان خطيب الجماعة الذي كان يصلي بالخليفة الجمعة في حضرته وفي غزوته هذه اختل عقله عند رؤ يته شدة الحرب فركب فرسه ودخل في عسكر النصارى مستجيراً بهم فيا له من حدث مبك في الاسلام ، مُنْكٍ للانام ، ونقيصة في الدين ، ووقعة بصنفه[256] من ارض الاندلس الى ارض الصين ، وعند وصوله اليهم عرفوه وفهموا مذهبه واتهموه وقتلوه، واستشهد في هذه الغزوة جماعة من اعيان الموحدين وجماعة من اشياخ رؤساء الاندلس وغيرهم وكان في هذه الغزوة بين المسلمين والكافرين قتال ونزال يطول شرحه ووصفه الى ان اعتل امير المؤمنين فأمر بالرحيل على ما اصفه .

ايضاح الخبر عن وفاة امير المؤمنين ابي يعقوب بن عبد المؤمن في غزوته [هذه][257] رحمه الله

قال ابو الحجاج يوسف بن عمر رحمه الله لما قصد امير المؤمنين في هذه الحركة التي توفي فيها الى عدو الغرب ابن الرنك اللعين ، لسوء مجاورته وشدة اضراره بالمسلمين ، عزم على قصد مدينة شنترين امد بلاد ابن الرنك سروراً ، واكثرها حبوراً ، واكثر بلاده اجناداً ـ واقواهم استعداداً ، فبرز عليهم تبريزاً اذهل حلوم الكافرين ، وفت افئدة الدانين منهم والقاصين ، في امم لا تحصى ولا تكاثر بالرمل ولا الحصى[258] والبلد لحسن عمارته والتفاف اشجاره واتصال جناته واينا ع ثمراته ليس له مسلك الا من خلال تلك الاغصان وفي اثناء منعرجات ما احدق به من اشتباك الكروم والتفاف الغيطان ، فكانت[259] اشخاص الفرسان عند رويتهم تتوارى بالظلال ويستر ظهور حسن هيئتها فروع الاشجار واسنمة الجبال .

---

(256) في ت « يصنفه » وكلاهما تحريف .

(257) ساقطة في ت .

(258) هذا هو الصواب كما في ت لا ما في ط « تستقصي » .

(259) (كذا) في م وت . وفي ط : فكان .

وامر الخليفة الجيش خيلاً ورجلاً وبعضاً وكـلاً بنشر بيض تلك الرايات التي كانت قد اعدت لهم تلك الاوقات وكان القصد محاصرتهـا واظهار القدرة في مضايقتها . قال يوسف بن عمر: فلما استراثت من جهاتها الانباء ، وطال لغير طائل الثواء ، عزم امير المؤمنين على الارتحال ، وترويح الجيوش والنفوس من السآمة والكلال ،فأمربالرحيل ليلاً فاضطرب اقلاع الناس اضطراباً شنيعاً[260] وكثر الضجيج واختلاط الاصوات وتهولت المحلات واخذ العموم على شتى المسالك فلا ترى سميعاً ولا مطيعاً. وقد كان ثقات الخليفة تطوفوا أول الليل على الرؤوس والجموع، واوعزوا اليهم ترتيب التحرك وكيفية القلوع ، وان يكون كل قبيل من جهتهم ثابتين مرصدين حتى ترحل الحمولة والاثقال ، وتتخلص الى السعة من المضائق والاوحال ، فلم يوقف عند معاقد هذا الاعتزام ، ونثر ما عقد من ذلك النظام ، ولم يهتد لشيء من هذه الأحكام ، وتوهم الناس ان الأمير قد أقلع سحراً واحتاط لاجازة النهر مبكراً وبادروا للتقدم وما تهيبوا عواقب التحكم ولما اتضح الفجر وانقشع الظلام ولم تصح اضغاث تلك الاحلام وبطلت الظنون والاوهام بمضارب الامير في منزله ولم يقوض لها طنب ولا اوتاد ولا خلع من مركزه عماد ، فبهت من بهت ، وحمد رأيه من لزم الصبر وثبت ، فركب الخليفة وليس بساقته الا القليل غير مستعدين ولا شاكين ، اكثرهم في ثياب السلم وكما افاقوا من سكر النوم فالتأم من كل صنف من الناس من حضر ، واقبل من سمع طبل الاقلاع ، وتبصر، وانحدر الأمير من هذا المنزل وبقي ابنه المنصور في الموضع المذكور يرتب من يظاهر الروم عند ظهورهم ويقاوم دَرْءَهُمْ وما يُدِلّون به من غرورهم[261]، وهو يمد الحاضرين بشهامته ويقويهم بصرامته وانحفز المنصور باللحاق بأبيه وقد توالت منه عليه الرسل واستوحش من تأخر، ووجد اشفاق الأب على بنيه. وعندما تنفس مختنق الكفار، ووجدوا السبيل الى التفلت[262] من الاوكار، تسربوا بين تلك الاشجار ،وانحدروا من جنبات الاوعار كالسباع الجياع فحافوا على [من][263] تطرف من الحمولة وانتهزوا الفرصة في اولئك الفرسان والاتباع .

---

(260) في ت : شديداً .

(261)في ت « وما تدلو به من جرورهم » ولعل الصواب في« فحافوا » أن يكون « فخاتوا » بمعنى انقضوا على ما كان في الساقة من دواب الحمل .

(262) في ط « التغلب » وهو تحريف .

(263) سقط من ط .

واستشهد في اثناء هذا الموقف جملة من اعيان الموحدين ورؤساء الاندلسيين وبعض بني مردنيش والخطيب ابن المالقي. قال يوسف ابن عمر المؤرخ: حضرت يوم هذا الاقلاع وليله فما رأيته في تاريخ قبله، ولا يحصر واصف هوله. ولما عرف الخليفة بدنو الروم من ساقته وباجترائهم على الافتراس بأكناف ساحته، امر بضرب الطبول واشراع الالوية في النصول فأقبلوا لاصوات الطبول مهطعين، ودفع من كان بجناحي الساقة على من وجدوا من الروم منبسطين، وغادروهم في مصارعهم مجدلين، وحان لهم شر يوم ما ظنوا انه يحين، وأخذ ثار الشهداء في الحين، ونزل امير المؤمنين بعدوة الوادي، وقد بدت من جرجه البوادي، وامر بتفرق الجموع ورجوع كل واحد منهم الى قبيلته من العموم، واستقبل موسطة البلاد واباح فيها مبالغة الفساد، وامر بتخريب ما وجد من المباني وتغوير المياه واستيصال الاشجار وانتهاب الزروع وتحريق كل ما يمكن تغييره وازالة عينه بالنار، وتمادى المشي على هذا النحو الى حصن طرش فأقام بذروة جبله وامر بشن الغارات عليه وتقسيم السرايا على الجنبات الى جلب الأقوات وأمر السيد أبا زيد بن الأخ ابي حفص على معظم البعوث فاستاق من الغنائم ما وقف العجز عن سوقها ووصلوا والخليفة ملتزم الفراش وكان له أيام لم يخرج لأحد، ثم أمر بالرحيل وخرج على مطيته مضطجعاً على فراشه وتمادى القفول وضعفه يتزايد والأطباء حاضرون ابن زهر وابن مقبل وابن قاسم ملازمون له حتى جازوا وادي تاجه وضعف عن الجلوس على الدابة فصنع له سرير ورواق عليه يحجبه من الهواء والخدمة مطيفون به يتفقدون فيما يحتاج اليه من صلاح شأنه فذكر انه تفقد بعد اميال فوجد قد توفي رحمه الله وذلك في الثامن عشر لربيع الآخر من سنة ثمانين وخمس ماية.

بعض اخباره على الجملة وسيره رحمه الله تعالى

قال ابن صاحب الصلاة كان ابو يعقوب فاضلاً كاملاً عدلاً ورعاً جزلاً حافظاً للقرآن بشرحه وناسخه ومنسوخه عالماً بحديث رسول الله ﷺ حسنه وصحيحه، متفنناً في العلوم الشرعية والاصولية وكان صادقاً رأيه للموحدين بالمواساة في كل شهر وبالبركات مدى الدهر وكان راغباً في العمارة مثابراً[264] على الجهاد مشيعاً

(264) في ط. شامرا.

للعدل مقسطاً فيه اصلح العدوة وامنها وانس شاردها وسكنها وخص جزيرة الاندلس ببعوثه لها فقمعوا عاصيها وافترعوا بالفتح قاصيها واحسن لاجنادها وأمدّهم[265] بالخيل لغزو الكفار بائسين من أعدائها[266] .

ولما عقدت البيعة له باجماع واصفاق في سنة ثلاثة وستين تحرك غازياً بعسكره الضخم الشهم مرادفاً لاخيه ابي حفص وهو الذي مصر اشبيلية وامر ببناء سورها من جهة الوادي من ماله بعد هدم السيل له الخارج عن جنباتها وجهاتها عام اربعة وستين . ولما استقر باشبيلية في عام ستة وستين عقد جسراً على واديها بالقنطرة العظيمة المؤسسة لعبور الناس عليها من اهلها واهل الشرف اليها ولاجازة العساكر للغزو عليها وسبلها للمسلمين للعبور في مصالحهم دون قبالة ولا اجازة عمالة وجلب الماء في الساقية لمشرب اهلها وابتنى فيها الجامع الكبير لاتساع الناس فيه فكمل في مدة قليلة من الاعوام على عظمه وسعة جرمه وابتنى الصومعة الى نصفها وابتنى الزلالق[267] لابواب اشبيلية من جهة الوادي احتياطاً من السيل الخارج عليها وابتنى قصبتها البرانية والداخلية واسكن الثغور القفرة وابتنى جميع أسوارها واعادها للاسلام بعد اقفارها وفدى من الاسر من وجد عند الروم من اهلها وفدى علي بن وزير وغانم بن مردنيش بمال كثير وغزا الكفرة ببعوثه وعساكره المؤيدة براً وبحراً ، واذاقهم عيشاً مراً ؛ انتهى كلامه .

وقال غيره مات على ظهر دابته على طريق يابرة افتقده من كان يخدمه فوجده ميتاً وقيل إن السبب في وفاته كان من سهم أصابه وهو في خبائه [على شنترين][268] من قوس اللولب ذكر ذلك بعض المؤرخين منهم أبو الحسين بن أبي محمد الشريشي وغيره .

وكانت بيعته برباط الفتح حيث توفي والده أبو محمد عبد المؤمن ووافقت بيعته انقراض الدولة العبيدية بالمشرق ، فكانت خلافته اثنين وعشرين عاماً وعشرة

(265) في ط : وأمرهم ، وهو تحريف .

(266) في ت و م « أعدادها » ولعل هذا الصواب ، وإن كان ما قبله لا ينسجم معهما كليهما .

(267) في ت ، « الذلالق » بالذال وكلاهما غير واضح ، لكن المثبت أقرب وأنسب لما بعده ، فيكون مزلقة وسربا للماء الغامر .

(268) سقط من ط « على شنترين » .

أشهر وعشرة أيام أولها يوم الثلاثاء ثامن جمادى الآخرة سنة ثمان وخمسين وخمس مائة وآخرها يوم السبت ثامن عشر ربيع الآخر سنة ثمانين فكان عمره سبعاً وأربعين سنة وكان مولده بتينمل سنة ثلاث وثلاثين وخمس مائة وكانت أمه بنت القاضي ابي عمران وقيل إنه صلى عليه ابنه أبو يوسف مع أصحابه وأشياخ الموحدين .

وكان يوم حركته لهذه الغزوة التي توفي فيها قد حدث له حدث غريب من الفأل عندما خرج بالعلم الأبيض على باب القصبة انكسر له الرمح بالراية نصفين فتمادى الخروج بالرايات الباقيات ولما وصل الى باب دكالة عند طلوع الشمس واذا بمناد ينادي على جنازة وهو يقول[269] الصلاة على الغريب فكره ذلك وتفاءل به وقطب له وجهه .

وكان عدد أولاده ثمانية عشر ولدا ذكوراً ـ أسماؤهم : يعقوب المنصور واسحاق شقيقه . ويحيى . وابراهيم . وعبد العزيز . وادريس . وأبو بكر . وعبد الله . وأحمد . ويحيى الصغير . ومحمد . وعمر . وعبد الواحد . وعبد الحق . واسحاق . وطلحة . وعبد الرحمن . وقاد له الجيوش من إخوته أبو حفص وأخوه أبو سعيد وأخوه أبو علي الحسن وأخوه أبو زكرياء صاحب بجاية .

وكان حاجبه أبو حفص شقيقه . وزراؤه : ادريس بن ابراهيم ابن جامع الى أن أوقع به آخر أيامه ثم أبو بكر بن يوسف الكومي بين يدي ابنه أبي يوسف . قضاته : حجاج بن يوسف وأبو موسى عيسى بن عمران وأبو جعفر بن مضا وكان وزيره في أيام امارته عيسى بن مخلوف . كتابه في أيام خلافته : أبو الحسن ابن عياش القرطبي وسبب اتصاله به أنه لما كانت الفتنة الملثمة[271] المهلكة للطائفة القرطبية خرج ابن عياش هذا في جملة من خرج منها وفر عنها ورحل الى اشبيلية فقربه أبو بكر المرادي شيخ كتاب بيت الإشراف ثم انتقل لكتابة السيد أبي حفص وسار معه الى تلمسان ولم يزل في صحبته وكتابته الى أن كان الايقاع بأبي

(269) في ط ويقال « ولا يستقيم معه الكلام .

(270) في ط «الحسين» وتكرر هذا كثيراً في سلف ذكره لهذا الأمير . وفي ت : أبو يعلى الحسن » ولا يعرف « بعلي » .

(271) في م وت : الملثمية .

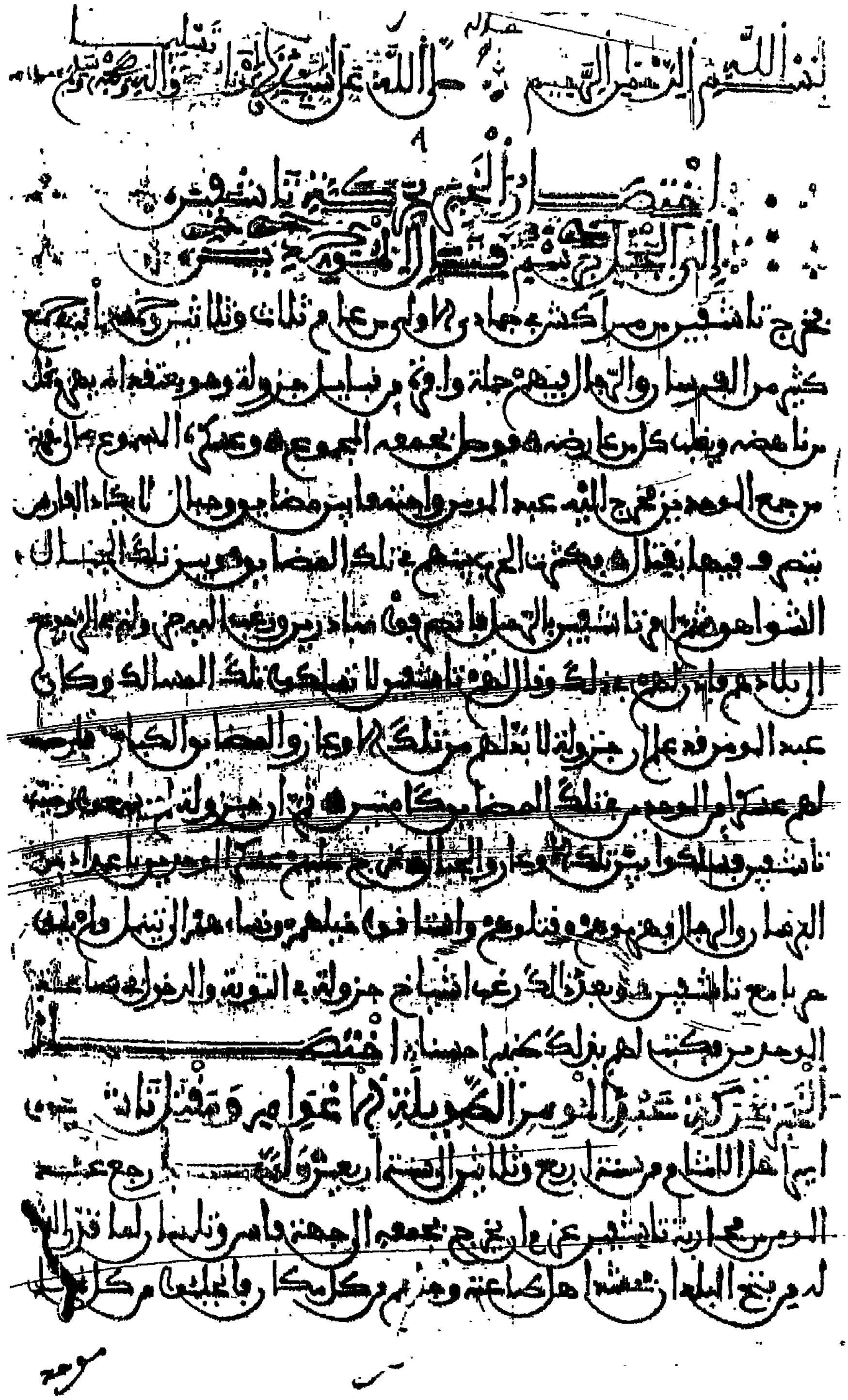
جعفر[272] ابن عطية فاستدعاه الخليفة الى حضرته وأمره بكتابته وكانت وفاته عام ثماينة وستين . وكتب له أيضاً أبو العباس طاهر المعروف بابن محشرة .

تمت الأخبار[273] .

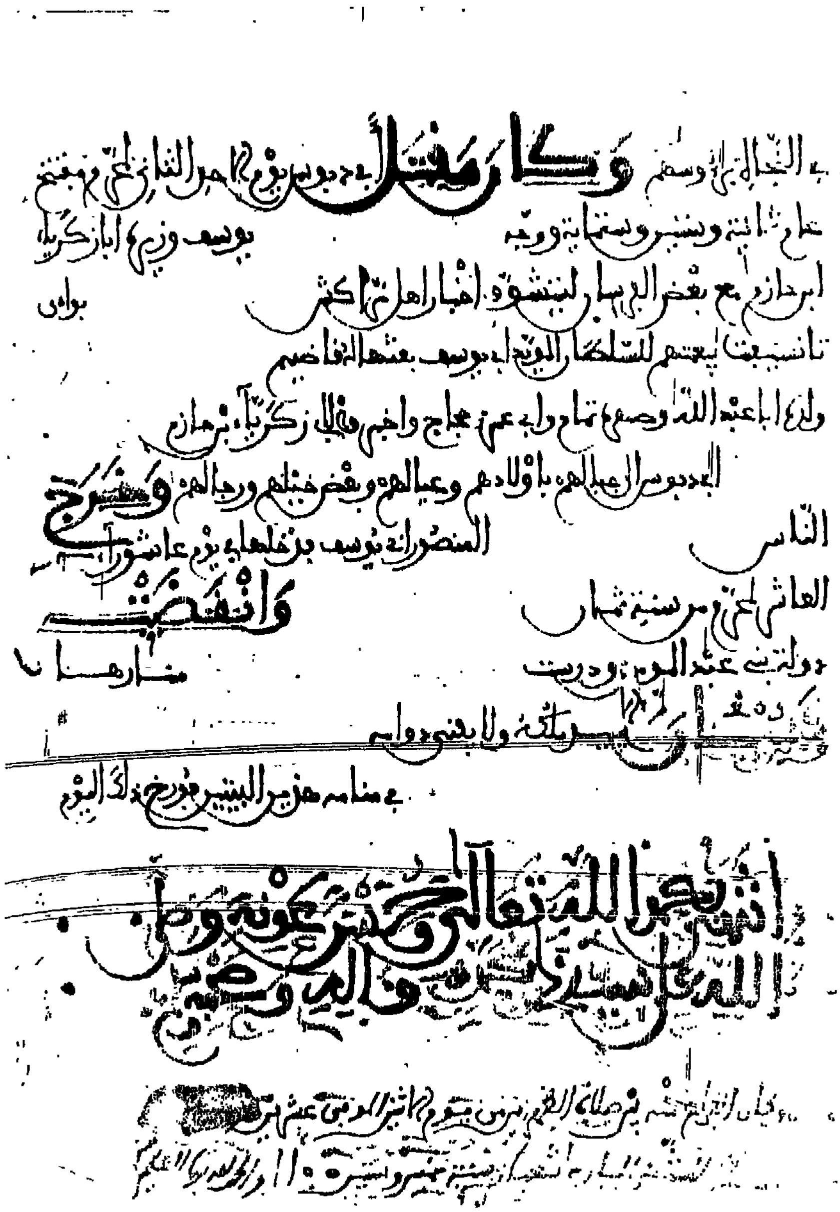
---

(272) في ط : بأبي حفص ، وهو تحريف .

(273) في م و ت « أخباره » وهو الأظهر .



أول ورقة من مخطوطة المكتبة الحسينية (الملكية) بالرباط رقم 336



ـ آخر ورقة من مخطوطة المكتبة الحسينية (الملكية) بالرباط رقم 336

ذكر بيعة أمير المؤمنين يعقوب المنصور وخلافته وضخامة دولته ومهابة سطوته رحمه الله

• نسبه : هو يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن وقد تقدم نسب عبد المؤمن . مولدهِ في العشر الآخر من ذي الحجة سنة أربع وخمسين وخمس مائة فكان عمره احدى وأربعين سنة وشهرين وأيام قلائل . وكانت خلافته أربع عشرة سنة واحد عشر شهراً وأربعة أيام . وكان بين بيعة العامة اياه وبين وفاة أبيه تأخر بسبب كتم الوفاة.

صفته : كان مربوعاً آدم اللون ضخم الهامة بوفرة الى شحمة أذنيه أعين حتى لا يرى من كان في عصره أملح عينا منه وكان أشم وسط اللحية قد غلب الشيب على مقدمها وكان معتدل الجسم متناسب الأعضاء سبط الأنامل بليغ اللسان حاضر الجواب مشرفاً على أجزاء مملكته في القرب والبعد وكان شجاعاً مقداماً عظيم الصريمة على أعدائه لا تضيع عنده فضيلة أحد من رجاله ولا يغيب عنه شيء من أحوال رعيته ولا يجترىء أحد على مخادعته . وكان يحب الصالحين ويدني مجالسهم ويستدنيهم من أقاصي طاعته .

وزراؤه : استوزر أخاه أبا عبد الله ثم أبا علي عمر بن أبي زيد الهنتاتي ثم أبا يحيى بن أبي محمد بن أبي حفص ثم أبا زيد بن يوجان . وحجبه فضيل وعنبر فتياه.

قضاته : أبو العباس بن مضا ثم أبو عبد الله ابن مروان ثم أبو القاسم بن بقي .

كتابه : أبو الفضل بن أبي الطاهر ثم أبو عبد الله بن عياش وأبو الحسن الهوزني على المجابي وديوان العسكرية ثم أبو محمد بن الكاتب ثم أبو محمد الكباشي .

نقش خاتمه : أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين . وكانت بيعته أولاً بعد وفاة أبيه يوم الأحد التاسع عشر لربيع الآخر سنة ثمانين .

اختصار الخبر عن بيعته رحمه الله

لما توفي أبوه كما تقدم ذكره أخفي خبره ومشت الدابة به على حالها حتى كان النزول بالمنزل فضربت أخبيته على جري عادته وأحدق الخدمة والفتيان به على عادتهم في سكونهم وهيئاتهم فلما تمهد النزول وتكامل الناس بالوصول بعث السيد أبو زيد من حينه عن بعض البنين الأكابر ووجوه الموحدين والأشياخ المزاوير وذكرهم وعرض عليهم مبايعة الأمير أبي يوسف وعاينوا الأمير أبا يعقوب مسجى بينهم فبايعوه من وقت الزوال الى عشية اليوم بعينه واضرب عن تعريف من اتهم في صفائه وشك في وفائه . وتمادى المشي بعد هذا والمطية على حالها يظهر الاعتناء بها وتنزل المضارب والألوية على حاله وكتم موته عن الاشاعة والتصريح وكفن وصلى عليه وادرج في تابوت وتقدم الى اشبيلية ولما كان الوصول الى اشبيلية روح أبو يوسف يعقوب المنصور بها ثلاثة أيام حتى تلاحقت الناس وتكاملت المحلات واستوفت جموع العرب وسائر أصناف الجيوش واتسق الجميع باشبيلة واكنافها فلما كان يوم الجمعة غرة جمادى الأولى ندب الناس على الخصوص والعموم للمبايعة وحضر من يجب حضوره ومن وسعته القصبة في اليوم المذكور وفي يوم السبت بعده على طبقاتهم فأفاض على قرابته وأهل بيته غامر الاحسان وخص السيد أبا زيد بعشرة آلاف دون أهل بيته لتقدمه لخدمته .

ذكر حركة المنصور من اشبيلية الى الحضرة وما نفذ من أوامره العلية الى يوم جوازه الى العدوة

لما كملت اشغال جزيرة الأندلس وعم أخذ البيعة قاصيها ودانيها أمر يوم الأحد الرابع والعشرين من جمادى الأولى بحضور أشياخ الموحدين والعرب وشيوخ الوفود من كل بلد وصرح بالحركة وانقضاء الغزو والتأهب لسمع نقر طبل الرحيل فخرج أهل المجلس وعرفوا العموم وكتب لسائر البلاد والقبائل من المجاهدين والمسافرين وقدم القائد أبا العباس الصقلي الى طريف في ثلاث عشرة قطعة وتقدمت قطعتان بالأثقال الى رباط الفتح بسلا، وامر جميع الناس من أهل الأندلس من كل طبقة أن يبكروا الى بحيرة الوادي فأسحروا في اليوم المذكور في أمم لا يحصى عددهم ولا ينقطع مددهم وزينت قطعة بازاء قبة الجلوس على شاطىء النهر وكمل سلام الجميع وقدم المصحف الكريم ودخل ضحى اليوم المذكور وقد أعد له آفراك

فنزل بقرية طريانة وتمادى مشي العساكر معه الى شريش وأقلع منها يوم الثلاثاء وتلاقى على مدينة ابن السليم بالسيد أبي زكرياء ابن السيد أبي حفص قادماً من تلمسان مع أعيان زغبة ومن انضاف اليهم من العرب وفي صحبته سبع ماية فرس معونة لأهل الأندلس وكان قد ترك منها مائتين بطنجة حسبما أمر له ثم أسرى المنصور ليلة الجمعة من عين الشمس فأصبح بحجر الأيل وقد انضم بشاطىء البحر الأسطول وقامت التهاليل والطبول فراق المنظر وراع المخبر ونزل الدار المباركة بالشريعة والسعد مصاحب والهواء موافق فشحنت من ساعتها الأجفان بالأثقال وشدت الرحال، وأسفر عن حسن وجهه اليمن والاقبال. ولما كان يوم السبت السابع لجمادى الآخرة من سنة ثمانين المؤرخة جلس بمضرب الساقة لموادعة أهل الأندلس ووادعه الولاة بها من إخوته الذين كان قدمهم[1] واسحاق وأبو يحيى وأبو زيد ودخل البحر ضحى اليوم المذكور وقدم مصحف عثمان بن عفان رضي الله عنه بأروقته ساروا به على مهلهم[2] إلى قصر مصمودة فأقام به بقية يوم الجمعة حتى استوفى للجواز الجميع فتقدم تحت جناح السلامة . ولما استقر برباط الفتح تسمى بأمير المؤمنين وكتب الى بلاد الأندلس بذلك اذ كانت كتبه تنفذ مذ بويع من الأمير يعقوب وتلقى به هناك أبو عبد الله بن واجاج مع وفود العرب وأهل فاس ومكناسة وعمالهم[3] وأخر ابراهيم بن اسمعيل عن عمل فاس وأمر سائر العمال بالوصول الى الحضرة ودفن أمير المؤمنين أبو يعقوب بالرباط المذكور بدار الخليفة .

ولما وصل الناس الى مراكش أقبلوا على التودع من نصبهم ، والانغماس في راحتهم ، وتبسطوا بالادلال ، واتصل الاغباب عن ملازمة الاشغال ، وانكر الخليفة تلك[4] الأحوال ،وأخذ في تشمير ما انسحب من الأذيال ،ورفع ذلك المنكر والاهمال.

اختصار الخبر عن تورع المنصور في قطع المناكر وبسط العدل ومباشرة الأحكام لتحقيق شرائع الاسلام

لما رأى التساوي في الانهماك والاغترار ، وسمع المجاهرة بالاستهتار ،

---

(1) بياض بقدر ما يسع كلمتين في ت .

(2) سقط من ط «ساروا به» وهو مثبت في م . وسقط من هذه قبله «بأروقته» ولعل هذا تحريف لما بعده مذكور .

(3) في م : «وعمالها» .

(4) في ط « ذلك » وهو تحريف،والتصحيح من ت و م . وفي ت ، : فأنكر الخليفة ، وهو أوفق للسياق .

والتنافس في الشهوات ونفاق سوق الغانيات الملهيات ، تنكر وغضب في الله لذلك المنكر واضرب عن القال والقيل ، وجعل الانذار والاعذار مكان السيف الصقيل، فأمر بأراقة المسكرات وقطعها ، والتحذير بعقاب الموت على استعمالها ، وانفذ المخاطبات بذلك الى كافة ولاته بالأمصار ، فاريق منها في البلاد ما يساوي أموالاً جمة وضمنت الكتب النافذة بذلك فصولاً في بسط العدل والتأكيد على العمال والولاة بتأنيس الرعية وتوخي رضاهم في اقتضاء حقوقهم وكف أيدي الظالمين عنهم واباحة جواز البحر الى المشتكين والمتظلمين فانبسطت الآمال[5] وحسنت الأحوال وتوالت له الأدعية الجميلة .

وفي اراقة الخمر يقول ابن بجير :

رضيــع ثــديِّ العلم طــال رضــاعــه ... لهــا وهي ليست تستــطيــع فصــالــه
اذا شئت تــدري في الـعلوم مـقــامــه ... فسـل عن دقيق العلم واسمـع مقــالـه
أقــام حــدود الله فــي كــل مــوطــن ... واعــمــل فيــه رعـيــه واهـتـبــالـه
فــانـهــل بــطن الأرض منــه وعــلـه ... وقــد منعت ايـدي الــورى أن تنــالـه
وبــدد منــه كــل مــا فيــه شبـهــة ... ولــم يــبــق الا حــلوه وحـلالـه
إمــام جميــع الخيــر بعض صفــاتــه ... فــلا خيــر الا وهــو مــمــا أنــالـه
يــؤمــمــه مــن ســدد الله قــصــده ... وانــجــح مــســعــاه وانــعــم بــالـه
ويـسـبــق بــالـجــود الـسـؤال لأنــه ... يــرى وجــه راجيــه فيــأبى ابتــذالـه

ذكر جلوسه للأحكام بنفسه

كان ابتداء جلوسه غرة رجب سنة ثمانين المذكورة في المسجد الجامع المجاور لقصر الحجر أياماً من صلاة الضحى الى قرب الزوال مع تأنيس الخصوم لاستدعاء ما لديهم من الأموال فارتاع الأعيان من حضوره ذلك المقام ، لما فيه من هجوم خجل وضيق مجال[6] المقال، وتطرق اليهم السفال واغرموهم جملة أموال[7] وكل من ادعى شيئاً بشبهة أو دعوى صولح بما يرضيه دفعاً للبلوى . قال يوسف بن عمر: ولقد حضرت لِأناس من السوقة والتجار ادعوا على السيد أبي زيد فمنهم من

---

(5) في ط «فانبسط الأمل» ، والمثبت أوفق وهو من م .

(6) اختلط هذا السطر في ط بالتقديم والتأخير ، والتصويب من ت و م .

(7) في ط «الأموال» بالتعريف .

قال : أهديت له فرساً وآخر جارية وشتى دعاوى فكل أرضاه ووفى له ما ادعاه ، فلما كثر تزاحم الغوغاء ، وقلت فوائد الخصماء ـ وكانوا يقصدون الى مجلس في أدنى المطالب ، وربما كانوا يقصدون رؤية السلطان لا للوصول لحق واجب ـ فقطع للعامة ذلك الجلوس ، بعد ما توطأت به بعد شماسها[8] النفوس .

وفي أيام الجلوس للأحكام وصل الى الحضرة مائة وخمسون من أسارى الروم كان قد أسرهم القائد الصقلي حين عكس أجفانهم بساحل بحر اشبيلية فأمر المنصور بغزو جميعهم . ثم أمر بقطع لباس الغالي من الحرير ، والاجتزاء منه بالرسم الرقيق الصغير ، ومنع النساء من الطرز الحفيل ، وأمر بالاكتفاء منه بالساذج القليل ، وأمر باخراج ما كان في المخازن من ضروب ثياب الحرير والديباج المذهب فبيعت منه ذخائر لا تحصى ـ بأثمان لم توف ولم تستقص ـ ثم أمر أصحاب الشرطة بقطع الملهين والقبض على من شهر من المغنين فثقف من وجد منهم بكل مكان ـ فغيروا هيئاتهم وتفرقوا على الأوطان ـ وبارت سوق القيان ـ وزهد كل الزهد في هذا الشأن .

ذكر اختطاط حومة الصالحة وادخالها في الحضرة العلية

ولما استوفت همته وجوه المحاسن وضروب الفضائل ، وفخمت المملكة وأمها كل قاصد وسائل ، ضاقت عنها مساكن سلفه بقصر الحجر فأمر باختطاط الصالحة وحشد لها العرفاء والصناع وكل من شهر بالاتقان والاطباع وحدقت مساكنها بالتكسير وارضى بالتعويض من كان له بها شيء صغير أو كبير وقسمت مساكنها وعينت لما تحتاج اليه من المنافع أوضاعها وأماكنها وجمعت لها الآلات وخوطب بامدادها الجهات ورتب لاشغالها من حفاها[9] وحفاظها وعرفائها ونظارها وأوعز اليهم وأكد عليهم ألا ينشئوا شيئاً من البنيان الا فوق الغاية من الوثاقة والاتقان فأقبلوا على العمل من غير ملل ولا كلل مواصلين مساءهم بصباحهم وموالين غدوهم برواحهم حتى كملت على أحسن الهيئات وفوق ما أمل فيها من الارادات فصارت بها حضرة مراكش مصر الأمصار وغاية في الفخامة وارتفاع المقدار وبينما الناس وادعين في ظل الأمان نائمين ملء الأجفان اذ طرأ خبر بجاية وما دار فيها من النكاية .

(8) في ط «شمالها» وهو تحريف .

(9) في ت حفارها وفي م حفازها ، ولم يبد لنا معنى فيها يتناسب .

ثم كانت سنة احدى وثمانين وخمسمائة ففيها كان دخوله ابن غانية مع الميارقة مدينة بجاية وتحرك السيد أبو زيد ابن عم الخليفة المنصور بالجيوش من حضرة مراكش ورجوعها له[10] على أحسن حالاتها وما اندرج في أثناء ذلك من الحوادث والمحن وغير ذلك .

اختصار الخبر عن دخول ابن غانية بجاية

كان أبو يعقوب رحمه الله وجه القائد أبا الحسن علي بن الربرتير الى جزيرة ميورقة بعد هلاك اسحاق بن غانية ليعرض الطاعة على من بها من بني اسحاق المذكور ، وليقدم الأعذار والانذار ، على جري العادة فيمن خالف الجماعة من الثوار ، فركب أبو الحسن المذكور ظهر البحر من سبتة على ما اقتضته صريمته من الجد ، ولما وصلها وسع نزله وأكرم في الظاهر مثواه ، ووصل بالدوام على الخير قواه وقد أضمروا ما كانوا بنوا عليه من [نية خرو]جهم وغدرهم ، وبدا من محاولته ما لم يخف على أبي الحسن في سرهم وجهرهم ، وكان عند حلوله بساحتهم واشتغاله بمجادلتهم ، بعثوا الى مراكبه من أنزلها من الركاب والعمائر البحرية ، وطلع فيها من العمائر الميورقية وجروها الى دار عددهم ، فلم يكن لأبي الحسن محيد عن الاستسلام ، والصبر على ما فجأه من الآلام .

وتمادى امساكهم للقائد المذكور ومطاولتهم له ومواعدته حتى اتصل بهم وفاة أمير المؤمنين أبي يعقوب فتحركت أحلامهم الضعيفة الى التدبير الذميم ، واستهواهم تسويل شيطانهم الرجيم واغواهم غويهم المريد ، وضالهم الرومي رشيد، فاعتقلوا أبا الحسن في دار انزاله ووكلوا به من الحرس والرقباء ما أمنوا به من مكره واحتياله ، وخرج المذكور رشيد بقطائعهم الى بجايه ، وقد بلغوا من احتفالهم الغاية ، وظل الهدنة في تلك البلاد ممدود ، وماء العافية بها مسكوب ومورود[11] والعيش كالأحلام والدنيا تحية وسلام ، فوصل الأعداء الى بحرها ، وقدموا زورقاً الى حريم أسوارها ، واستوثقوا بالاستفهام من جلية أخبارها ، فأشرف عليهم من أهل البلد من سألهم عن شانهم ، وما اضطرهم الى الهجوم من غير استئذانهم ، فأخبروا أنهم غزاة

---

(10) في ط «وانفصاله» بدل «ورجوعها له» ويبدو أن هذا كان كأنه عنوان للحادث الذي جاء في ط «تحرُّك السيد أبي» بزنة المصدر .

(11) سقط من ط .

يطلبون مرافق السواحل ، وهم بين مخادع ومخاتل ، وكان السيد أبو موسى قد حلها من أفريقية مجتازاً بها مع أصحابه والسيد أبو الربيع على مقربة منها راحلاً الى الحضرة والكل من هؤلاء غير مستعدين ، وعلى بعد من الفتنة من سنين ، واقبل العدو من الغد على تعبية واستعداد ، وتأهب وامتداد ، قد تكفنوا في ضروب اسلحتهم ، وتعلقوا من الغربان بصدورهم واجنحتهم ، وانضموا الى السواحل والأسوار انضمام الطير إلى الأوكار ، وجنحوا الى أحد الجهات ، بأسرار تقدمت قبل من المكاتبات ، فتدلى لهم قوم من السوقة والفساق وأسروا اليهم بعورات البلد وغفلة أهله وقلة المقاتلة من أهل النجدة به فقويت بذلك آمالهم وامتدت أطماعهم ، وهبط لمحاربتهم أخلاط من الناس من غير قائد يجمعهم، كُشُفٌ من العدة ، كسالى من الضعف والوحدة ، وقد كان في البلد من أرباب الأمر ما لو شاء الله لمنعوهم من الاستيلاء ، ولا مدافعة مع محتوم القضاء . وعندما اجتمعت تلك المقاتلة في البر ورأت القطع كالمضربة عنهم ، والمبدية النهب منهم ، ثم أوجفت اليهم ايجافاً ، وتساوت في احتماء المقاذف[12] والاسراع نحوهم ثقالاً وخفافاً ـ وأرسلوا عليهم سحاباً من القسيِّ العاقرة ـ وحراباً كالمنايا الماطرة ، فشقتهم عن آخرهم وتفرقوا كالفراش المبثوث لا ينظر أولهم الى آخرهم ، فمد الأعداء مطالع الطرائد وولايتها ، وخرج الفرسان مستلئمين كأن اللجة كانت طريقها ، وحين تكاملت أعداد خيلهم ورجلهم ، وارتفع ما أوجسوا في نفوسهم من خيفتهم ووجلهم ، طلعوا الى ثلم السور قاصدين ،بتجسيس تقدم من أولئك الفاسقين فسهلوا بالحديد توعرهم ،ورأوا في الحين تيسرهم ، فاستولوا على البلد بأسره ، وقبضوا على السيد أبي موسى وذويه وأهله ، وثقف من يتعين من الخدمة والموحدين ، وصيروا في ديار مراقبين[12 م] .

وكان دخول البلد في التاسع عشر لصفر من سنة احدى وثمانين وخمس مائة وترك يحيى بن غانية أخاه بالبلد مع رشيد الرومي مولاه وخرج من فوره ليلحق بالسيد أبي الربيع فالتقى معه بموضع يعرف بيلميلول فانخزلت العرب الى العدو وانطوت الى حزبه ، ورجعت معه على السيد وحربه ، فخلع عن محلته ، واستولى العدو على ما كان فيها من أمواله وعياله وثقلته ، ووجه بالجميع الى بجاية لنظر رشيد وثقافه ، وانهزم السيد أبو الربيع واستشهد بعض رجاله وتخلى الى الجزائر فوجدها غير

(12) في ط «المقادف» والتصحيح من ت و م .

(12 م) في . ط . وت . مرقبين . ولعل الصواب ما أثبتناه .

حصينة فانحدر منها الى تلمسان واستقر بها مع السيد أبي الحسن فريداً من جنده ، عارياً إلا من أدبه ومجده .

واقتفى الشقي آثاره فأخذ الجزائر وقدم عليها يحيى بن أخيه طلحة وانتهى الى مليانة فأخذها وقدم عليها يدر بن عائشة ووقف بها فنكص على عقبيه ورأى أن الذي حصل له فوق قدره ومطلبه فرجع الى بجاية ووقف مع مسجدها الجامع وأخذ الناس بمبايعته والدخول تحت طاعته ، ونشر رايته السوداء ، وانحشر اليه الغوغاء ، فبايعه من اقتاده الشقاء بأزمته ، وتوقف من توكل على الله وأخذ بسنته ثم أخذ ما أخذ من مخازن بجاية من المال والثياب والعدد وكسا أوباش العرب ومن انضاف اليهم ولاذ به من أتباعه وضم جمعه من أولئك الأخلاط المؤلفين وترك ببجاية أخاه يحيى ورشيداً وتحرك الى قسنطينة ونازلها في جمع من المؤلفة لا يحصى عديده ، وعنها كان تفريقه وتبديده .

قال أبو الحجاج يوسف بن عمر: أخبرني القاضي أبو عبد الله بن ابراهيم قال لما قيمت (كذا) رايته المذكورة بازاء المنبر اشتغلواعنها بما كانوا فيه من النظر خرت على وجهها ، واندق من القناة قائمها فتفاءل الناس بانذارها ـ بقصر مدته وزوال دولته .

ذكر حركة السيد ابي زيد إلى بجاية

ولما وصلت هذه الكائنة الى حضرة مراكش على كيفيتها ، وبيان ما انطوت عليه النفوس في موالاة العدو من خبث سرائرها ونفاقها وفساد طويتها ، فاهتز المنصور اهتزاز أمثاله ، وصبر صبر المتوكل على صالح اعماله ، وشرع في تكثيف كتائبه وتكشيف[13] عماله ، وانتقاء رجاله وشجعانه وأبطاله ، وأباح التمكن من الآلات ، واعطى الجزيل من البركات وأمر السيد أبا زيد بن السيد أبي حفص على الجيوش وفوض اليه التفويض التام ، فخرج في اعداد وافرة، وجموع وعدد متكاثرة، وتحركت الأساطيل من سبتة على احتفال من اشكالها وانتقاء من قوادها ورجالها ، وعليها ابو محمد بن ابي اسحاق بن جامع وابو محمد بن عطوش الكومي والقائد ابو العباس الصقلي ومن دونهم من الرؤساء الأعيان ، والأنجاد الشجعان ، والكل تحت رعي الشيخ أبي محمد ابن جامع وإلى نظره وتحت ما يراه من نهيه وأمره ، ومشى

(13) في ط : «وتكثيف» ولعل الصواب ما أثبت ، وسقط من م و ت ثم ما أضيف اليه .

الجميع على تواعد من تضافر البر والبحر ، وتلاقي الفريقين على الفتح والنصر ، فارتجت الأرض براً وبحراً ، وملأت الأنباء مسامع الخافقين خبلا وذعراً ، ووصل الموحدون بجملتهم الى مدينة فاس فأمسكهم بها ترادف الأمطار ، وتعذر الطريق بالوحل ومدود الأنهار ، حتى صحت السماء وجفت الأنواء ورحل السيد من فاس وتدرج بالجيش الى تلمسان والسيد ابو الحسن بن السيد أبي حفص واليهـا وقد شيد اسوارها وشد بالرجال انظارها ، والسيد أبو الربيع قد استقر بها من هزيمته ، مستوحش النفس كاسف البال حليف افكار واوجال يتنسم ريح النصر ، ويستوهب الدعاء في استنقاذ اهله من قبضة الأسر .

وخيل يدر بن عائشة صاحب مليانة تضرب الى مازونة ونواحيها وقد اضرم نار الفتنة في بطون تلك الجبال واعاليها ، فأخذ الناس من تلمسان أهبتهم ، واستوفوا منها اقواتهم وازودتهم ، وقد كان ابو يوسف المنصور اتبع أمراء الجيوش البرية والبحرية كتبا لأهل سائر البلاد المغلوب عليها بالأمن والأمان والصفح والاحسان، ولما دنت من البلاد دسوا بالكتب جواسيس دخلوا بها ليلا الى البلاد واجتمعوا بها مع من يوثق به للأمن فلما وقفوا عليها ورأوا أنهم قد أمنوا غوائل العذاب ، وأن العفو والرحمة لهم مفتحة الأبواب ، وثبوا على من كان عندهم من الاعداء ، وارصدوا لفرارهم بالمضايق وقبضوا على اكثرهم بتلك المخانق وسبقت الأساطيل ففتحت الجزائر قبل وصول أهل البر وضربت الطبول في يوم واحد على فتح الجزائر ومليانة وقبض على يحيى صاحب الجزائر وحواشيه واتباعه وغواشيه .

وكان يدر بن عائشة صاحب مليانة قد اسرى منها فاقتفى اهلها اثره فلحق بالقرية المعروفة بأم العلو وعرض عليه النزول على وجه التضبيف ، ثم قبض عليه بأطراف النهر بعد معاركة ومحاربة وسيق جمعهم مصفدين وأمر السيد ابو زيد على وادي شلف بغزو الباقين وتقدم القائد ابو العباس الصقلي بقطعة واحدة مع بعض أهل البلد ودسوا لهم كتبا بما وراءهم من الأسطول والجيوش الواصلة فلما وصلت [كذا] الأسطول الى بجاية ضجت العامة وفتحت الأبواب ودخلت عمائر الاساطيل فأنتهبت كثيراً من البلد فتلافى الحال الشيخ ابو محمد ابن جامع بالاشتداد والاجتهاد ووضع السيف على من عثر عليه من أهل الاعتداء والفساد ، فحميت نار الالتهاب وسكن العموم عما كانو فيه من الانتهاب ، وخرج السيد ابو موسى ومن كان معه من الموحدين تحت الثقاف وخرج يحيى بن غانية في عدد قليل عن بجاية ولحق بأخيه

بقسنطينة وهو محاصر لها وقد كان بلغ اهلها من الحصار ، إلى حال مؤذنة بالدمار ، وانتهوا من الجد والتضييق الى ما اغصهم بالريق ، وضاق بهم من كل طريق فجاءهم من الفرج والتنفيس ما وجدوا بركته في الحين ، والله مع الصابرين ، وعند وصول ابن غانية اضرم النيران في الآلات المنصوبة عليها وترك الأعداء اثقالهم وكراعهم من غير اختيار وخاب سعيهم وما بنوا عليه من التأميل وتفرقوا ايدي سبا بكل سبيل .

ووصل السيد ابو زيد بالمحلات الى منزل تيكلات[14] بعد اقلاع العدو عن قسنطينة بثلاثة ايام فوقع الاتفاق ، وتلاقى الاجماع والاصفاق ممن تعين من اشياخ الموحدين وحضر تلك الحركة من أهل البصائر والدين وأجمع رأيهم على الترويح بالمجلس المذكور ريثما يجرد الناس اثقالهم ويجددون ازودتهم ويتأهبون الى اتباع الأعداء إلى ما لا نهاية له فأقاموا به يومهم ذلك وثانيه ولحق طلبة بجاية ووجوه اهلها صحبة السيد أبي موسى فتهانوا بالسلامة ، وشكروا الله على ما خولهم من النعمة السابغة والكرامة ، واتصل سلامهم بوداعهم وانصرفوا على ادراجهم . وسيق كل من قبض عليه ببجاية ونظرها ممن ميز من المرتدين وقبض عليه ممن جاز من ميورقة من المتجندين فأمن[15] من جاز من ميورقة من الأجناد ، وقتل كل من نزع عن هذا الأمر وأظهر نفسه في الارتداد ووزع على الموحدين كل ما كان بدار الشقي من الاماء، احتياطاً لضياعهم [كذا] بطول الثواء ورحل الموحدون في اليوم الثالث في اتباع الاعداء يتقصون أنباءه ويقفون آثاره ويطوون عليه المراحل ، ويعضون على فوته الأنامل ، والعدو قد القى أعباءه وخفف رحله وفرق رجله وشمر للفرار ذيله واتخذ الليل جملا ، وان رأى غير شيء ظنه رجلا فتعذر على الموحدين لحاقه ، وارتفع عنه في هذا الوقت محاقه ، لكثافة الجيش واتساع اثقاله ، وأن لا محيد عن رحيل الانسان بمرافقه وجماله ، فرجع الجميع الى بجاية بعد ستة اشهر لم يكتحلوا تحت جدار بمنام ، ولا برحوا عن الاسراج والالجام ، والجيش وافر العدة ظاهر السلاح[16] ، غير مفلول ولا مقصوص الجناح ، وعرف المنصور ابو يوسف بتيسير هذه الحركة وما كان من أمر الأسطول في فتح بجاية فهنىء بالحضرة بمراكش فقال ابو العباس ابن عبد

---

(14) تيكلات وكتبه هويسي ميرندا هكذا : Tiklat و Takulat .

(15) ط فمن جاز وأسر .

(16) في ط «الصلاح» .

السلام[17] في ذلك :

لواؤك منصور وسعدك غالب … وحزبك للأعداء عنك محارب
لقد ثكلت أم المناوي وغررت … مبادى من احواله وعواقب
سما لاستراق السمع من وهداته … ودون سماء الملك شهب ثواقب
تلاقى عليه البر والبحر ترتمي … سفين الى استيصاله وكتائب
غريق بغرقى مثله متمسك … وموج المنايا مثلهم متراكب
هوت بهم الأطماع في هوة الردى … وغرتهمُ جهلا بروق خوالب
أطاعوا غويا لم تقيده شرعة … ولم تره وجه الصواب التجارب
مغيب وجه الرأي والوجه حائر … يرى حاضرا في أمره وهو غائب
دعاهم الى آجالهم فتهافتوا … كما جمع الأعواد للنار حاطب
تصامم عن وعظ الزمان بقلبه … وأعرض عن وجه الهدى وهو لاحب
تخيل أن الناصرية داره … يطاعن عن ساحاتها ويضارب
وفي الغيب من انجاد طائفة الهدى … ونصر امير المؤمنين غرائب
هو الأمر أمر الله ليس يفوته … مناو ولا ينأى عليه مناصب
وما هارب منه ولو بلغ السها … بناج وهل ينجو من الله هارب
بناصرها المنصور تاهت خلافة … تناسبه في حسنه ويناسب
إمام له فضل على الخلق باهر … ومرتبة تنحط عنها المراتب
مناقبه مثل الكواكب كثرة … ونوراً ألَا لله تلك المناقب
هي الدوحة الشماء في الأرض اصلها … وقد زاحمت منها السماء الذوائب
له نسبة قيسية قرشية[17م] … تقر لها بالمعلوات المناسب
حقيق بميراث النبوة والهدى … ولا عجب ان المزايا مواهب
بقيتم امير المؤمنين وسعدكم … تهز قنى منه وتنضى قواضب

ذكر استقرار السيد ابي زيد ببجاية
وما جرى مدة اقامته بها من الاحداث إلى حين انفصاله

لما وقعت الفتنة ببجاية وانظارها وخف قطينها وعمارها ، وانتهبت زروعها

---

(17) يعني الجراوي شاعر الخلافة الموحدية .

(17 م) : في بعض السطور (قدسية) .

وغلاتها ، وقلت خيراتها وعدمت مرافقها واقواتها ، وألم بالرعية الحيف ، وتقسمهم الجلاء والسيف ، اعتصم من نجا منهم بقنن الجبال والأوعار ، واحتمى من ركن منهم الى احياء العرب بالجوار ، فأقفرت من بجاية بسائطها وقلت مادتها وغلت اسعارها ، وتعذرت الجباية ، وجاوز تقتيرها النهاية ، فتسلل من القبائل خيلا ورجلا معظم سوادهم ، وتسربوا مع الأيام فرارا من الاعدام الى اقطارهم وبلادهم ، ولم يبق الا من يعرف بعينه واسمه ، ولا ساغ له الرحيل عن قومه ، وكل من كان يصل الى الحضرة يلقي في جانب السيد الأقوال الخبيثة ، والأحوال السيئة الرثيثة فاوغر صدر امير المؤمنين على السيد المذكور وصرفه صبره وتقاه عن معاقبته فخاطبه معاتبا على ما قيل فيه وزور ، وبسط له من العدل المحض ما خف على ما نقل عنه وصور ، فأقام السيد على هذه الحال والمجاعة تشتد والوباء يزيد حتى عم الموتان ، وبطرت معيشتها الرخم والعقبان وانحصر المسلوبون والمغنومون الى البلد في أمم لا يحصى عديدهم ولا ينادى من الاقتار وليدهم ، وعجز اهل البلد عن تكفين الموتى وعن مواساة الأحياء ، فكانوا يصبحون في الخرب وفي سكك المدينة زمرا أمواتا ذكورا واناثا .

وانفصل الأسطول الى المغرب وساءت حال المنافقين ووصل غزي الصنهاجي من قبل الشقي ابن غانية بجملة من جنده ووفر من عدده ، فحصر مدينة اشير وتغلب عليها وقتل حافظها فاقتضى نظر من ببجاية توجيه أبي حفص عمر ابن السيد المذكور بجماعة من الموحدين وأبي الظفر بن مردنيش بمن كان معه من الأجناد فالتقوا بغزي واصحابه ودار بينهم امض القتال ، وتسنموا لهم ظهور الجبال ، فترجل العسكر بجملتهم واقتحم عليهم في منعتهم واوقعوا بهم أي إيقاع وانزعج فلهم الى أطراف تلك البقاع ، وأسرع برأس غزي الى بجاية ايما إسراع ، واستولى ابو الظفر ابن مردنيش على منازلهم وحريمهم وحواشيهم ومواشيهم وسباها وانصرف من غزاته وجعل ذلك الغنم زاده وثوابه ، وشغب(18) عبد الله بمكان غزي اخيه فاستهواه القاضي أبو العباس ابن الخطيب واستنزله فصلب ببجاية بازاء رأس اخيه .

وفي هذه السنة قتل ابنا القائد ابن حملة ، وكان تغريب بني حمدون عن بجاية الى سلا وجبرهم على بيع اموالهم وديارهم بثمن بخس .

---

(18) الكلمة مكررة في : ت . وفي : م . و . ط . شعب بالعين المهملة ولعل الصواب ما أثبتناه .

وفيها قتل بعض من شارك في تلك الفتنة من أهل بجاية ممن خلع طاعة المنصور ولزم خدمة ابن غانية .

وفيها قتل رشيد الرومي ونزار بن الزميلي الحكيم وفيها حمل على بقية بني القائد وأصهارهم وذويهم في بيع املاكهم وديارهم وكان اهل البلد بعقب فتنة مبيرة وجائحة من المجاعة مغيرة فبيعت بثمن بخس اكثره غير مقبوض وخرجوا على وجوههم وما منهم الا منطو على فؤاد مرضوض [وجمع مفضوض][19] واستقر جميعهم بمدينة سلا حائرين ، وبأثواب الضيعة مشتملين .

وبعد هذا وصل الى السيد ابي زيد كتاب كريم ببسط نفسه واسترجاع نافر انسه وتزوير ما نسب اليه من الغفلة وقدومه على الخليفة بكل ما ألف وعهد من الأثرة وقدم على البلد السيد ابو عبد الله بعد تأخره على الوزارة وانصرف السيد في جمرة الشتاء وصدق الأنواء[20] ووصل السيد بمن معه على مشقة من الأهواء الى الحضرة فلقي من الخليفة أكرم ما وعده والبر الذي الفه منه وتعوده .

ولم تزل همة المنصور تتبع جزئيات المملكة بالتفخيم ، ويجيل النظر فيما بقى منها للتكميل والتتميم ، فرأى أن الدينار القديم يصغر عن مرأى ما ظهر بالمملكة من المنازع العالية ، وأن جرمه يقل عما عارضه من المناظر الفخمة الجارية ، فعظم جرمه ورفع قدره بالتضعيف وسومه ، فجاء من النتائج الملوكية والاختراعات السرية ، جامعا بين الفخامة والنماء والطيب وشرف الانتماء . فتكلمت في ذلك الشعراء فقال ابو العباس الجراوي من قصيدة :

بجـد عـزمـك نـال الـدين مـا طلبـا — واحجم الشـرك عن اقـدامـه رهبـا
وايـقـنـت مـلة الاسـلام ان لـهـا — بـك الـظهـور على الاعـداء والغَلَبـا
وأن كـل بـعـيـد عـنـدهـا كـثـب — ولـو تـطالب في افـلاكهـا الشـهبـا
وأن امـرك مـسـتـول عـلى أمـد — من السعـادة فـات العجم والـعـربا
ان الخـلافـة نـالت من محـاسنكـم — أوفـى الحـظوظ فأبـدت منظرا عجبـا
أعلى المـراتب من بعـد النبـوة قـد — حبـا بهـا الله أعلى الخـلق وانتـخبـا

(19) العبارة ساقطة من : ط : وفي . م . و . ت . ودفع معصوض . . ولعل الصواب ما أثبتناه . .

(20) في : ط . وم . وت . حمرة الشتاء وصدف الأنواء : ولعل الصواب ما أثبتناه .

سينظم السعد مصرا في ممالكه
حتى تدوخ منها خيلُهُ حلبا
الى العراق الى أقصى الحجاز الى
اقصى خراسان يلقي[21] جيشه الرعبا
هو الذي كانت الدنيا تؤمله
وكل عصر له ما زال مرتقبا
هل ابن اسحاق الا كالذين جروا
الى مصارعهم من قبله خببا
عن شر منقلب تجلى عواقبه
وقل ما حمد المغرور منقلبا
راق النضار عيون الناظرين وقد
غدا اسمك المعتلي اعلاه مكتتبا
قد حار في وصفها تِبْرِيَّةً[22] جُددا
رب ناظماً شعراً ومختطبا
ما ارتاب مبصرها في كف ذاك وذا
أن النجوم استحالت للورى ذهبا
نداك عم بني الدنيا والبسهم
في الشرق والغرب أثواب الغنى القشبا
خليفة الله رحماكم لمغترب
ناء وما إن نَأى[23] دارا ولا اغتربا

وفي هذه السنة كان استبداد القائد ابي الحسن ابن الربرتير بقصبة ميورقة وتغلبه عليها وتتبعه بالقتل من وجد بها من لمتونة وحواشي زناتة وتملكه لاحوالهم وديارهم وأموالهم .

ذكر تغلب القائد أبي الحسن على قصبة ميورقة

قد تقدم خبر وصوله اليها وتثقيف ابن غانية له عند عزمه على الخروج الى بجاية واستيلائه عليها وذلك انه لما خلت الجزيرة منهم وخرج معه شوكة اجنادهم ورجالهم وانجادهم خلا لأبي الحسن[24] المذكور وجهُ نظره وأمكنته الفرصة في إعمال الحيلة في تخلصه من ثقافه ونَصْره[25] وكان الاعلاج جل حاشيتهم وناشيتهم والمتطلعين على اسرارهم وكان أكثرهم على اديانهم يرومون الانتقال الى أوطانهم فاستمالهم القائد المذكور مدة اعتقاله استمالا مواليا أخذ بعقولهم واستهواهم وبسط

---

(21) في : ط و . م وت يتلو ، ولعل الصواب يلقي .

(22) في : ط . جاز . تربية . في الشطر الأول . وكذلك في : م وفي : ت . خطأ ونقص . حيث سقط البيت الذي بعده . وجعل شطره الثاني عجزاً للبيت الأول . ولعل الصواب في قراءة البيت ما أثبتناه .

(23) في : ط . نثا .

(24) في : ط . خلا الجوّ لأبي الحسن المذكور وجه نظره . . . وفي م : وت . بإسقاط كلمة : الجوّ وهو الصواب .

(25) في : ط . و . ت . و . م . وتبصره . ويظهر أن المراد : ونصره ، بمعنى أظهر بيعته ونصره .

لهم في المواعيد ومناهم ، وعهد اليهم عند تمكينه من مراده ، وإعانتهم[26] له على ما يرومه من استيلائه واستبداده ،أن يجهزهم الى بلادهم ويخلي سبيلهم بأهليهم وأولادهم .

ولما تم له تدبيره ، وتحصل له من خلوصهم ما تيقنه ضميره ، وعدوه بأن ذلك يكون في جمعة عند افتراق الناس الى طهارتهم واشتغالهم بالتأهب لفرض صلاتهم فوصلوا الميعاد وخرجوا معه من فورهم وغلقوا ابواب القصبة وتعلقوا بالاسوار، وفتحوا بيوت الاسلحة وأخذوا منها فوق المقدار وأحالوا على رجال القصبة من لمتونة ومسوفة وحواشيهم واستأصلوهم بالقتل الى آخرهم فما اجتمع أهل البلد إلا وقد اعضل داؤهم وَأعيا دواؤهم وغلب الاستيلاء على القصبة فأنحشر اليهم أهل البلد والجزيرة ونصبوا عليهم المجانيق والآلات ، واحاطوا بقتال القصبة من كل الجهات ، فكلما سددوا اليهم سهاما وارسلوا عليهم حجارة أو اشرعوا لهم سنانا رفع ابو الحسن على السور شخصا من ذرية اسحاق بن غانية يعارض به ويتقي السهام والاحجار وأكثر ما كان يعمل ذلك بأم علي ابن غانية وابنائه وخاصته واخوانه ، فكان أهل البلد يكفون عن القتال ويرغبون في الاستنزال وتمادت الممانعة اياما وصرفوا بينهم أثناء ذلك اليوم عهودا مؤكدة وايمانا .

وكان ابو عبد الله بن اسحاق بن غانية تحصن باقصى الجزيرة من سجن اخوته على ما كان أراده من الخروج من الجزيرة الى الأمر وتقدم هجرته فوصلت المصالحة والمهادنة بين أهل البلد وبين القائد ابي الحسن على وصول ابي عبد الله وارتباطه معه ونزوله وتخليه عن البلد له فسيق ابو عبد الله المذكور فنزل ابو الحسن له بعد ما استصفى دَ أخذه من ديارهم وما فدوا به أنفسهم من ذخائرهم وسرح كل من كان ن الروم المجندين والمتملكين بأموالهم وأهليهم وأولادهم[27] وجهز جمي ما وعدهم الى بلادهم وخرج ابو الحسن المذكور ولحق بالحضرة مع أبي ـ لله بن اسحاق مبادرا بالطاعة ، فبلغ من الكرامة أمله ورأى من الاحسان فوق ه له ، وبقيت الجزيرة في حكم الموحدين ، والخطبة

---

(26) في : ط . وعانتهم . وفي : ف . م . ما أثبتناه .

(27) في : ط . أولاهم .

باسم المنصور أمير المؤمنين حتى يقع نظره فيمن يوجهه اليها والياً[28] عليها .

وفي أثناء النظر لها ركب عبد الله بن غانية من افريقية الى صقلية وأعين منها[29] بجفن يجهز فيه الى ميورقة وانضم الى بعض قرى في أطرافها وخدع بعض الرعية باستمالتها واستلطافها فخرج عندهم واعانوه بدواب ورجال وسار الى البلد فدخله بتلطف واحتيال ، ولم يزل علي بن إسحاق بعد اقلاعه من قسنطينة وخلعه عن البلاد التي كان اخذها وانقطاعه بأطراف طرابلس وما وراءها يألف[30] ذؤبان العرب وأوباشهم ، ويستميل همجهم[31] وفراشهم ، ويناهش الأطراف القصية ، وينتهز بسرية وبغير سرية ، والشيخ ابو محمد ابن واسجور بمدينة تونس مطل عليه اطلال العقاب الكاسر والاسد الهاصر ، والمنصور بحضرته يستقرىء اخباره ، ويتربص به الدوائر[32] التي احلها به فحسمت[33] علله ومحت آثاره .

وفي سنة اثنين وثمانين وخمس مائة تحرك المنصور إلى قفصة وذكر ما كان فيها من الأنباء والحوادث .

لما دخلت السنة المذكورة وتوالت على الحضرة الأنباء الشنيعة بتضييق الميارقة على بلاد الجريد ،وتغلبهم على ما تطرف منها في الثغر الأقصى والشأو البعيد ، شرع في الحركة اليها وألقى كلكل التصميم عليها واستنفر القبائل من البسائط والجبال ، وكاثر بها اعداد الحصباء والرمال .

وفي هذه الحركة اخترع افراك المعد لنزوله في غاية الحسن والجمال وقدم الارتقاء الى تينمل لزيارة قبر المهدي على جري عوائد سلفه في تيمنهم بتقديمه وقضاء حقه وتعظيمه وشرع في أثناء زيارة قبر أمامه في نظر مصالح البلاد ، فشدها

(28) في : ت . سقطت العبارة ، وفي : ط . وال عليها . ولعل الصواب ما أثبتناه .

(29) في : ط منّا ، وفي : ت . منها .

(30) (كذا) في : ط . ولعلّه : يؤلف .

(31) في : ط . همجتهم . ولعله : همجهم كما أثبتناه .

(32)في : ط ـ الدائر . ولعله : الدوائر .

(33) في : ط . فجسمت .

بالولاة والأجناد ، ثم جاء عيد الفطر بعد هذه الزيارة فلما قضى فرض الصلاة[34] خرج من مراكش في الثالث من شوال واستخلف على مراكش السيد ابا الحسن شيخ بني العم وكبيرهم وجعل له النظر في تتميم ما بقي من بناء الصالحة ووكلها الى اعمال خاطره والاستبداد برأيه ودقيق نظره ، وتمادى المشي بعد الخروج من الحضرة من غير ترويح الى رباط الفتح فجدد العزم بها وقدم ما يجب من المخاطبات وودع من كان حضر من أهل الأندلس وجهات الحضرة من الولاة فقالت الشعراء في ذلك الوداع فقال ابو بكر بن محمد (كذا) .

ليت الحـوادث عن عيـاني تـغفـل   فـأشـاهـد الفتـح الـذي يستـقبـل

واضرب المنصور عن استصحاب عرب المغرب وتجنيدهم في حركته تلك الا بعضا من أشياخ رياح كبني زيان رعيا لقدم هجرتهم ، وتيقنا بنصيحتهم وأكد على سائر العمال الذين بالمنازل وأمهات الطرقات بتبليغ المكاتبات ووضوح المخاطبات باصلاح المسالك وتوطية السبل وتمهيدها ونصب الجسور في أماكنها ، واعداد الأقوات وترغيدها ، وتيسير المرافق وتوفير العلوفات ، وأن لا عذر لهم فيما يحتاج اليه الجيش من الموجودات . وكان الناس يمشون كأنهم في أحسن مساكنهم وينتقلون من الترفه والتمتع بما لم يعهدوه في معايشهم ولا اقتدروا عليه في اماكنهم.

ولما وصل المنصور الى مدينة فاس روح بها اياما عديدة ، وبرهة من الزمان مديدة ، لكونها قاعدة المغرب وأم القرى وعاملها إذ ذاك ابو موسى بن ومـزّين[35] فأقام الناس بها في تضييف خرق العوائد بتنافس الرعايا في ذلك على الأعياد يأتون بجفان تحمل الواحدة منها عدة من الرجال عليها عدة جُزُر[36] يأكل منها جموع فلا يأتون لها على انتهاء، فجدد الناس بها ازودتهم، وتفقدوا اسلحتهم وعدتهم، وبساط العدل مبسوط ، ونظام الاحكام حيث ما حل الامام محكم مربوط ، فرفع الى المنصور أن أبا القاسم ابن الملجوم بنى غرفة في داره يشرف منها على بعض جيرانه وجعلها متنزها له ولاخوانه - فأمر بوقوف أهل البصر عليها فلم تشرف الا على

(34) (كذا) في : ط . وت . وم : فرض الصلاة . . . ومن المعلوم . أن صلاة العيد سنة . . .

(35) في ط : وما زير . وهو ما في : ت . و . م . ويظهر أن المراد : ومزين . وهو من الأعلام الشهيرة . وإلى الآن . . . وسيأتي ص 207 .

(36) في : ط . جزور . وكذلك في : ت بصيغة الإفراد . ولعل الصواب جزر بصيغة الجمع كما أثبتناه .

صحن[37] حمام وسطح بعض اقوام ، فأمر المنصور بهدمها وتغيير رسمها وتتبع بالعدل قضايا العباد ، ومشى البحث عن المتظلمين بكل منزل وبكل واد ، ووقع الرحيل بعد هذا الاجتهاد والنظر في الاستعداد .

ولما كان النزول برباط تازى التفت المنصور الى ساقته فرأى اكثر القرابة من الاخوة والعمومة قد اصطفوا واختصوا بلباس[38] الغفائر الزبيبية والبرانيس المسكية ، فانكر عليهم ملازمة ذلك الزي لكونه من زي الخليفة في حالتي ركوبه وجلوسه في كل موطن فجمعهم السيد ابو زيد اذ كان اقربهم الى الخليفتين ابي يعقوب وابي يوسف بالايثار والتقديم والمؤمر عليهم في الحديث والقديم فجمعهم وذكرهم بعوائد الامر والمحافظة على آدابه وان يتجنبوا أفعال الخليفة المختصة به ، فلم يعد احد منهم بعد ذلك للباس تلك الالوان، المختصة بالسلطان .

وتمادى السير واليسر يسهل كل عسير ولطف الله يدني كل قصي وينيل كل خطير .

ولما أطل[39] الموحدون على ارض قسنطينة وما اتصل بها من الصحراء تبادر الاشقياء من الميارقة والاغزاز وتالبوا وضموا جموعهم الذميمة وتحزبوا واستهووا شرذمة من سليم لصوصاً واوباشاً وكلاباً هراشاً ، فبرزوا بفضاء القيروان ، وتراءت طلائعهم للعيان فعزم المنصور على الهجوم عليهم قبل تمكن استعدادهم واخذهم في تدبيرهم ومرادهم ، فتفاوض مع اشياخ المجلس والوزراء ، وبرزت نتائج الآراء ، فصوب الجلوس بتونس وان يجدد منها العزم للاعداء فاتصل المشي اليها وروح الناس بها ، والعدو أثناء ذلك قد اخذ أهبته ، وشد للشر حوبته وتراخى تهيبه وروعه وقويت شوكته[40] وجمعه .

وفي هذه السنة توفي ابو الحجاج ابن مردنيش بمدينة بلنسية .

وفي سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة كانت وقعة عمرة وكيفية الخدعة فيها على الموحدين وانهزامهم وقتلهم واستيلاء ابن غانية على خيلهم ورجلهم على ما اذكره ان شاء الله تعالى .

---

(37) في : ط . حصن . وفي : ت . صحن وهو الصواب .

(38) في : ط . اختصوا لباس . وكذلك في : ت . ويظهر أن الصواب ما أثبتناه .

(39) في : ط . ظل . وفي : ت . طال . . . ولعل الصواب أطل .

(40) في : ط . شكوته . وفي . ت شوكته وهو الصواب .

ذكر وقعة عمرة وهزيمة الموحدين

وذلك انه لما وضع الناس بمدينة تونس اثقالهم واخذوا من البلد منازلهم ورتبوا لمن نصبوا من الخيل والحشم مؤنهم ولوازمهم ، امر ابو يوسف المنصور السيد ابا يوسف بن ابي حفص على عسكر الموحدين وخرج من تونس في جمع حفيل ، وجيش من كل قبيل[41] ، فقصدوا الى العدو بجملتهم واثقالهم حتى اشرفوا على ارضه ، فرموا بنافلة العزم وفرضه ، ولما كان ليلة البيات وعولوا على اللقاء والثبات ، اسحروا من الغد كما كانوا بجملتهم ، وحمولتهم واثقالهم ، وذلك يوم الجمعة منتصف ربيع الآخر سنة ثلاث وثمانين المذكورة[42] .

ولما تراءى الجمعان ، وتقاسما مساحة الميدان ، وكاد يتنازل الفريقان ، تشتت الآراء ، وكثر التواكل[43] والالتواء ، واعجل الناس عن استعدادهم . . ولم يمكنوا من مرادهم ، واسروا وساروا على ريقهم معظم طريقهم معيين غير شاكين والحمولة ناحية منهم موسقة بأثقالهم لم يحط بها حزام ، ولم يرخ لراحلة منها زمام[44] ، وعموم القبائل قد وقفوا بالاطراف بحيث لا تطيش لهم السهام ، وناشب الاغزاز القتال ، وحميت حفائظ الرجال ، فدفع القائد ابو الحسن ابن الربرتير بجملته ، واهل الجد والثقة من شيعته ، فغشيه واصحابه سحائب سهام ، اكبت منهم جماعة لوجوههم كسقوط الانعام ، وقبض على ابي الحسن بعد ارجاله عن مركوبه وصرع اصحابه من مطعون ومضروب، واقتفى اثره أبو علي ابن يومور بحشد العرب وهم غير محاربين ، ولا بالنجدة مرتسمين ، فنكلوا لاول حملة عن دفاعه ، وخلوا بينه وبين اعدائه ولم يصبروا على ارتجاعه فقبض عليه وقد اثخنته الجراح ، وكشفت الحرب عن ساقها وكثر الضجيج والصراخ والتحم نسج الفريقين ، واستحر القتل بين الفئتين ، وحمي الوطيس وجهدت النفوس ، وفل الحسام وكل السنان ، وأصيبت جملة من الأعيان ، وعظم الكرب وتخاذلت جموع العوام ، ودنا الليل

---

(41) في : ط . في جميع خيل جيش . . . وفي . ت . كذلك . . . ويظهر أن الصواب : في جمع حفيل ، وجيش من كل قبيل . . . .

(42) في : ط . المذكور . . . وكذلك في ت .

(43) في : ط . و ت . التراكل .

(44) في : ط . منهم زمان . . . ا وفي : ت . منها زمام . وهو الصواب .

وغشي وحش الظلام ، وانضمت الاطناب على قلب الساقة وخرج الاحتمال عن وسع الطاقة ، وكانت تغشاهم سحائب السهام كسحاب الغمام ، وهم في مثل الحلقة من الازدحام ، وفي ليل بهيم من ظلم القتام ، يتوقعون المنايا من كل الجهات ، ويتدافعون على مثل ظهر القنفذ مِنْ قَصَد القنا واشلاء الأموات[45] فحينئذ القى اليقين من صبر الناس بيد التسليم ، وافلتوا من غمرات المنون ، وفي حُنَين اسوة للمسلمين .

وأخذ السيد واصحابه في الفرار على كل طريق وسروا ليلتهم بكل فج عميق ، واشتغل العدو بالسلب والنهب فلم يقدموا على الاتباع ، ولا امنوا غوائل الارباع ، وبقي بالمعترك اكثر الرجالة ممن لم يقدر على الفرار من جريح وظمآن وانضموا الى قفصة ودخلوا البلد وغصت بهم سككه فتغافل عنهم قراقش واصحابه وخلي سبيلهم فنادى عليهم ابن غانية وأشاع بمخادعة الاستدعاء ، وروى[46] لهم باظهار وجه الاعتناء فاجتمع جميعهم بنفوس سليمة ، فأمر عليهم ابن غانية فقتلوا اجمعين .

وجلس ابن غانية بخباء الساقة المأخوذ للسيد ابي حفص وجمع اثاث المنهزمين واسلاب الموحدين وقسمها على شيعته واغتر بخيالات الدهر وخدعته ، وكان أبو الحسن ابن الربرتير قد حصل في أسر العدو وطمع في النجاة والفوز وسقط الخبر إلى ابن غانية المذكور فبعث عن الذين ارتبط معهم على افلاته فاعطاهم مالاً على ان يغدروه فأسلموه اليه وخانوا فيما كانوا وعدوه ولما مثل بين يديه امر بتعذيبه نفعه الله بشهادته وكذلك ابو علي ابن يومور قتله وعلقه على باب قفصة وفقد في هذه الحركة كثير من اعيان الموحدين واشياخهم واتباعهم واصبح من بقي منهم يوم الوقيعة حيث هوى به عنانه وزمامه ، وطاوعته نهضة جواده واعتزامه[47] وضلوا باقطار تونس وهم طلحاء موعوكون ، والى الوصول الى البلد راهبون ، وبادر الى تونس سرعان المنهزمة واكثر عبيد الخدمة ، وكثر التحدث وفشت الانباء وكثر بالمنصور

---

(45) العبارة قلقة مضطربة في : ط . و . م . وت . . . وربما كان صوابها هكذا :

« يتدافعون على مثل ظهر القنفذ من قصد القنا . وأشلاء الأموات . . . » .

والْقَصَد في اللغة (بفتح الصاد) الشجر الشائك . . .

(46) (كذا) في ط . وت . و . م . ويظهر أن المراد : وورَّى . من التورية .

(47) في : ط . واهزامه . . . وفي ت . واعتزامه ويظهر أنها الصواب .

قلقه وطال أرقه[48] ، وحرض الناس على تجديد نيتهم وضاعف لهم جبر ما تلف في حربهم من اسلحتهم فاهتزت الجيوش من كل مكان ، وترادف عليهم الافضال والاحسان فتضاعفت الاعداد وتوالت الامداد وخرج من تونس بجيشه ليباشر[49] الحرب بنفسه .

ذكر حركة المنصور أبي يوسف من مدينة تونس لحرب الميارقة والعرب واشياعهم والأغزاز واتباعهم وهزيمة يوم الحمة عليهم وما ظهر في ذلك اليوم من جزالته وصرامته واستفتاحه ما غصب له من البلاد في التاسع من شعبان سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة

وذلك انه لما جرى على الموحدين ما جرى بفتح عمرة من نظر قفصة على ما تقدم من اختصار خبره ، وايراد اثره ، لم يلبث المنصور بعد الكائنة بتونس إلا ريثما استنفر عساكره وميز رجاله واستوفى اشغاله وتحرك من تونس في صدر رجب فنفر الناس خفافاً وثقالاً ، وترادف الوصول خيلاً ورجالاً ، وهال منظر العساكر بانتظام الساحات ، وتقدم روعها الى كل الجهات ، والعدو في أثناء ذلك يحشد حشوده ، ويجمع من كل سحيق جنوده حتى صلبت شوكته ، وثقلت على البلاد وطأته .

ولما انتهى المشي الى مدينة القيروان ، ونوافح الفتح تهب من كل مكان ، قدم المنصور الاعذار والانذار فخاطب الاعداء بعرض الدخول في الطاعة ، والانضواء الى حزب الجماعة ، فلم يرعوا[50] سمعاً لهذه المخاطبة ، ولا اظهروا لها مخيلة انابة ولا مجاوبة ، ولما وصل المنصور الى مدينة القيروان تشوق الى رؤية ما ابقت منها حوادث صروف الزمان فوصل المدينة ونظر اليها والحوادث قد اخلقت جدتها ومحت بهجتها، فاخترق سككها يلتفت تعجبا واعتبارا، ويتأوه تفكرا وتذكارا ، حتى انتهى الى الجامع العتيق البناء، الانيق الصنعة في كل الاجزاء، فنظر اليه وقد طمس التقادم مرآه ، ومحا الجديدان نوره وضياه فطير الى شرق الاندلس ، بنسج كساه ، واستعجال[51] في توجيه فرشه وحلاه .

---

(48) في : ط . وطار أرقه ، وكذلك في : ت ، ولعل الصواب ما أثبتناه .

(49) في : ط . ليبشر . والعبارة ساقطة من : ت .

(50) (كذا) في : ط . و . ت . ولعل الصواب فلم يعيروا .

(51) وفي : ت . والاستعجال .

ثم استمر المشي اياماً حتى تراءى الجمعان ، وتلاقى من الطلائع سرعان ، وكاد يتميز العيان بالعيان ، فنزل الناس على فرسخين من الحمة والعدو بأكنافها لم يروع له سرب ولا هاله من النزول قرب ، فانحفز الناس تلك الليلة في الاجتماع والوصول ،وضرب الفساطيط والابنية موصولاً بموصول ،وأمر المنصور من الغد بالاقلاع والنداء والتوكل على الله والاستعانة به ، وان يلتمس الناسُ اسلحتهم ويأخذوا للقاء العدو أهبتهم ، واجتمع اشياخ مملكته ، ونصحاء خدمته وارباب دولته ، وعرضوا عليه فداءه بنفوسهم وصونه عن مشاهدة الحرب ببذل مهجهم وان يقيم بالمحلة سنداً وراء ظهورهم يلجأون اليه ويأوون لديه فكل من اخذ معه في ذلك زجره ، وسفه رأيه وضعف نظره ، وقدم على القبائل اشياخ قرابته واشداء عشيرته ، وتجلى بين يدي جيشه ومشى المزاورة المتقدمون(52) ومشى إثرهم(53) على ما احكم من النظام ، ومن طلب الاعداء بالجد والسعد لم يبعد عليه مرام . والأعداء متشوفون ولاول نباة مصيخـون ،وقد نسج الضباب ذلك اليوم على الارض كثيف شباكه وحال بين الناظر وبين ما يروم من ادراكه ، ولما خرق شروق الشمس جيب الضباب وتراءت بحور الجيوش يركب الموج فيها رَدع (54) الموج ويقفو العباب منها اثر العباب ، نفخ في وجوه الاعداء طمعهم ، واكذبتهم ظنونهم ورموا اثقالهم واسلحتهم ، وصفقوا للفرار اجنحتهم ، والتحق المتقدمون بأواخرهم ، فاستأصلوهم في معرك واحد عن اخرهم ، وسيق من قبض في المعترك من اعيانهم فقتل بين يدي امير المؤمنين المنصور ، وافلت قراقش الغزي وابن غانية تحت غسق الضباب وبين ناب السنان وحد الذباب ، وقبض بساقته على اعلاج من حاشيته وخاصة خدمته والمنصور على اثرهم من غير عجل ، والرؤ وس تداس بين يديه كرؤ وس الحنظل واذن مؤ ذن الظهر والناس على سروجهم ، لم يبرحوا من حين خروجهم ، وصلى(55) الناس متممين غير مقصريـن ونصبت القبة الحمراء مدة الصلاة فدخلها المنصور وخرج بثياب السلم وشعار الامن فهني بالفتح وما تيسر من النجح ، ووضعت الحرب اوزارها وصلي من صلي نارها .

---

(52) (كذا) في . ط . وفي : ت .

(53) في : ط . أثارهم .

(54) في الأصول : ودع ؛ والصواب ما أثبت .

(55) في : ت . وصل .

وامر المنصور بالركوب وأَغَذَّ [56] السيرَ الى جهة قابس فغشي الليل على مقربة منها وبات الناس آمنين وببرد النصر والعافية مرتدين ، وبالاثقال والحمولة بموضع النزول بالامس وانفذ المنصور عند وصوله الى قابس جملة من خيل ورجال ورماة وابطال يحرسون من فيها من الاعداء عن الفرار ، ويطوفون بها الى حين لحوق العساكر مع طلوع النهار .

وفي هذه السنة بعد هذه الوقعة فتح المنصور بلاد الجريد بأسرها وقضى التطواف عليها قطراً بعد قطر وما كان على اربابها البلديين القدماء من الابقاء واستيصال من كان فيها من شيع الاشقياء والقبض على الذين بها من الاغزاز واسباغ العفو عليهم وتصييرهم في جملة الأجناد [57] وما تخلل هذه الاحوال من الحوادث الغريبة [58] والاتفاقات البديعة في مدة هذا التطواف والمحاصرة الى انقضاء الاياب الى تونس وذلك في شوال من العام . واكثرت الشعراء في هذا الفتح فقال ابو بكر ابن مجبر في فتح يوم الحمة :

اسائلكم لمن جيش لهام ... طلائعه الملائكة الكرام
اتت كتب البشائر عنه تترى ... كما يتحمل الزهر الكمام
تنم ولم تفض ولا عجيب ... ايحجب نفحة البدر الختام
كأن النصر اضحكها ثغورا ... فللايام عنهن ابتسام
ويا للناس يرغب عن أناس ... لهم بالدين والدنيا قوام
امامهم اذا سلكوا سبيلا ... كتاب الله يتبعه الامام
يصاحبه فيصحبه الاماني ... ويتبعه فيتبعه الأنام
هو الملك الكريم وما اصبنا ... اذا قلنا هو الملك الهمام
فسل ما حل بالاعداء منه ... وكيف استؤصل الداء العقام
لقد برزت الى هون المنايا ... وجوه كان يحجبها اللثام
وما أغنت قسي الغز عنها ... فليست تدفع القدر السهام
غدوا فوق الجياه وهم شخوص ... وامسوا بالصعيد وهم رمام

(56) في : ط . وأعد . وكذلك في : ت والصواب أَغَذَّ بالغين المعجمة والذال المعجمة .
(57) : ط . الأنجاد . والصواب الأجناد .
(58) في : ط . الغربية . والصواب الغريبة .

هـو الأمـر الـرضى طـوبى لـنفس يكـون لهـا بـعـصـمـتـه اعـتـصـام
حـيـاة الـديـن دولـتـه فـدامـت لامـر قـد أتـيـح لـه الـدوام
سـلام الله مـن قـرب وبـعـد عليـه وحسـب من نـزل الـسـلام[59]

وقال ايضاً يمدحه ويذكر هزيمة ابن غانية والاغزاز من قصيدة :

عـدوكم بخـطوب الـدهـر مقصـود وامـركم بـاتصـال النصـر مـوعـود
رأى الـشقـاء ابـن اسحـاق احق بـه من السعـادة والـمحـدود مـحـدود
وكـيف يـحـظى بـدنيـا او بـآخـرة مُـحَـلأً عـن طـريـق الحـق مـطرود
أمـا درى لادرى عـقـبى عـداتـكـم كـل بحـد حسـام الحق محصـود
الـقى الـسـلاح وولى يـبـتـغـي امـدا ينجيـه وهـو مـروع القلب مـودود[60]
مـا مـر يـومـاً بـبـاب ظنّـه سـبـبـا الـى الـتـخـلص الا وهـو مـسـدود
وهبـه عـاش اليس المـوت أهـون من عـيش يـخـالـطه هـم وتـنـكـيـد
أنحى[61] الزمان على الاغزاز واجتهدت في قـطع دابـرهم احـداثـه السّـود
انتم سليمـان في الملك العـظيم وفي طـول التهجـد في المـحـراب داوود
قـد ابهـج الـدين والـدنيـا مقـامكم وكـيـف لا وهـو عـنـد الله مـحـمـود
جـارى منـاقبكم شعـري فقصـر عن بـلوغ ادنـى مـداهـا وهـو مـجـهـود
من ليس معتقـداً ايجـاب طـاعـتكـم فـليس يـغـنـيـه ايـمـان وتـوحـيـد
رضـاكم الـدين والـدنيـا وعـدلكم ظـل ظليـل عَلَى الأيـام مـمـدود
دمتم حيـاة مـدى الـدنيـا ودام لـكم نـصـر وفـتـح وتـمـكـين وتـأيـيـد

وفي هذه السنة حاصر المنصور ابو يوسف قفصة وفتحها في شعبان من السنة وذلك أنه لما فرغ من التبريز عليها والاستطلاع لما لديها نزل بمحلته عليها حيث نزل ابوه في محاصرته ايضاً لها ، ولم يعرض اولاً لقتالها حتّى[62] انحل قفل من اقفالها ، فلما استوسقت المواد بالوصول من البلاد وكملت العدد بالضرب والاستعداد وحرك ما لجوا فيه وأظهروه من العصيان والارتداد قلوب الجهاد ، حول

(59) في : ط . ما نزل . وفي : ت . من نزع . ولعل الصواب من نزل . كما أثبتناه .
(60) في : ط . و . ت . مودود . ولعله مفؤ ود .
(61) في : ط . انحى . وكذلك في : ت . ولعله أَنْحَى .
(62) حتى : ساقطة من : ت . و . ط ، والمعنى متوقفٌ عليها .

المنصور اماكنه ، ونقل مساكنه ونصبت له هناك بمقربة من البلد مرقبة من الخشب يشرف منها على مواضع القتال ، وعلى المتصرفين في الاشغال .

ثم قسمت على البلد جميع المجانيق والآلات ، واحاطت بهم من كل الجهات ، ودام عليهم حرج القتال والنكال ، يأخذهم باليمين والشمال ، وضم من المجانيق ارفعها اثقالاً ، واشدها خدمة ورجالاً ، وجعلت سموت احجارها على السور حتى اعادتهُ هباء منبثاً ، وصيرته مع ستارته السفلى قاعاً صفصفاً محتثاً ، واقيم برج على سبع طباق مزاحماً بذروته مراقي السبع الطباق ، فشحن بالرماة والآلات ، رجال بصفوف الاسلحة والرايات ، تحرك بالهمز ولطيف الركز فانساب انسياب الحية الرقطاء ، ومر على سمته مر الحباب على صفحة الماء ، من غير توعر ولا تغُور[63] ولا التواء ، ونفخ بداخله البوقات وصكت الطبول ، وقام بأقطار المحلة التكبير والتهليل ، ودنا من السور حتى اطل على جفن المدينة اطلال الاهرام وتحكم من اهلها بسوء الانتقام ، وكمل ردم الحفير المقابل لثلم السور حتى ساوى وجه الارض وصار مهيعاً للبلد بحيث لا يمنع فارساً ولا راجلاً ولا خارجاً ولا داخلاً .

ولما كان من الغد من وقوف البرج المذكور اخذ الموحدون اسلحتهم وابرموا عزمتهم واعدوا للقتال أهبتهم وصعدوا على الردم للبلد قاصدين الى الثلم وكان المسلك صعب المرتقى لما تراكم في صدره من ردم الاسوار وسحيق ما قذفت به المجانيق من جميع الأحجار ، فزلت فيه الاقدام ، ولم يتمكن بوحله عليهم الاقتحام ، وكمن لهم رجالة الاشقياء مع معارج الردوم ، ودرقوا ببقايا السور واستكنّوا للوثوب والهجوم ، فهبُّوا[64] عليهم من مكامن الاحجار ، واستغاثوا بما كان من ارتفاعهم من ذلك الانحدار فوافقهم بعظم النهار وانصرف الموحدون ليجددوا لهم من الغد عزمة تذهب بمواقفهم وتكب اولاهم على آخرهم .

ولما رأوا ان البلد مكسوح ، وان دم من فيه مسفوح ، تفاوض الملأ منهم بقية يومهم في اعمال رسالتهم والاحتيال لنجاتهم ، وكيفية التوصل لحياتهم ، فراجعوا بصائرهم ، وطهروا بالندم سرائرهم ، فاجمعوا على توجيه اعيان البلد واربابه واهل

---

(63) في : ط تعور . ولا تعور . ولعل الصواب : توعر ولا تغور . بالغين المعجمة في الكلمة الثانية .

(64) في : ط . فهيؤ وا . وفي : ت . فهيبوا . ولعل الصواب . فهبوا كما أثبتناه .

العقد والحل من كل فريق من اصحابه . فلما جن الليل وسكن ما بالمحلة من تموج الحركات ، وامنوا من انبساط العامة عليهم وامتدادهم اليهم بالاستطالات خرجوا من ثلم السور بعد الاذن اليهم في الوصول والاباحة لهم بالهبوط والنزول ، فوصلوا بمقربة من خباء الساقة بعد ما تحققوه على ما تقدم ذكره وجلس المنصور لتنفيذ رسالتهم والنظر فيما يكون من اجابتهم فبعث في وجوه القرابة واهل المشورة والمناصحة وتكلموا في شروطهم ورغبوا في تتميم ربوطهم ، فلم يسعفوا في تأمين الميورقيين والاوباش المنضافين فعاد القفصيون المذكورون الى بلدهم في ذلك الامان ونفذ لهم التوقيع على تأمين الاغزاز في أنفسهم وما ملكت ايمانهم وتأمين أهل البلد في أنفسهم خاصة واملاكهم ، ويأتي من كان في البلد من الحشود ينزلون على الحكم فقنعوا بهذا الالتزام وما أشار الخليفة من الأحكام ، وصدر لهم من ذلك النظام ، ورأوا أن ذلك نعمة عليهم بعدما كانوا في قبضة الهلاك ولهوات الحمام ، وانفصلوا بعد هدء من الليل إلى أصحابهم بعدما رغبوا في ترويح القتال عنهم تلك الليلة تأميناً لنفوسهم وتصديقاً لما عقده من أمانهم ، فسكنت تلك الليلة اضطراب الحركات وبات الناس ملء عيونهم من السنات بابدان رائحات وانفاس خافتات .

ولما كان من الغد لم يبق بالبلد من الشيخ الهرم الى الغلام المحتلم من غزى وميورقى وبلدي واجنبي الا وبادروا بالسلام مسرعين ، وعلى شقاء أو نعيم مقدمين ، وحين كمل استيفاؤهم ، ولم تبق بالبلد ما ظهر الا نساؤهم ، وهم وقوف يهللون ويكبرون ولما يكون من حال رجالهم مرتقبين (كذا)، ثم ميز كل صنف من صنفه وعزل منهم جميع البلديين ، وعرفوا بما شملهم من العفو والجود المعين ، ونجوا منه من الهلاك المبير والعذاب المبين وخلى سبيلهم وسابقوا الى بلدهم يعلنون بدعائهم ويتضرعون بشكرهم وعزل أشتات الجنود وأصناف الحشود الغوغاء ومن نزل على الحكم وغلبت عليهم (كذا) حكم الشقاوة وثقفوا في البرج المقام المذكور وقد حان لهم الحين المقدور وانصرف أمير المؤمنين والجمهور .

فلما فرغ من صلاة ظهر اليوم المذكور جلس في المرقبة التي تقدم ذكرها المسماة بالديدبان وأمر باخراج المثقفين وأمر بذبحهم أجمعين فكانوا يساقون الى مصارعهم زمراً زمراً ويكبون على وجوههم وجنوبهم وظهورهم وبدىء بابن شقيهم ذبحه أبو يحيى الوزير حتى اذا أتى الذبح على آخرهم جعل من خندقهم وحفيرهم بقيع قبورهم وأهل البلد ينظرون الى مصارعهم وتمكن الحديد في أوداجهم

وأخادعهم ، فَسَهِكَت الجهة من دَفْرِ جيفهم[65] وثقلت من وحشة جثثهم، فحول المنصور مضاربه ورحل الى البقعة التي نزلها أولاً ، وقسم سور قفصة على جميع من بالمحلة فتوزعه الجمهور من كل قبيل فأعيد في يومين هباء منبثاً وأضرمت النار في جميع المجانيق والآلات ورحل الناس عنها وبقيت سوداء كالليل البهيم ، وكديار عاد بعد الريح العقيم ، وطالما كانت جنة تزهر .

ودخل المنصور تونس في العشر الآخر من شوال من السنة فوصلت الوفود مهنية واكثرت الشعراء في ذلك . قال أبو العباس الجراوي يمدحهم ويذكر فتح مدينة قفصة :

فتح يطاول فتحه الاحقابا ... خضعت له فرق الضلال رقابا
واستشعر المراق منه مخافة ... ملكت عليهم جيئةً وذهابا
وغدا به ما قد صفا من عيشهم ... كدرا وما فيه الحلاوة صَابَا
لله يوم الأربعاء فانه ... أحيا النفوس وتمم الآرابا
شرف الزمان بأن تكون أبا له ... ما ان ..... ان جبابا
وسع الموالي والمعادي حكمه ... في كل أرض رحمة وعذابا
وسم ابن اسحاق على خرطومه ... خزيا ينال حديثه الأحقابا
طمح[66] الشقاء بأهل قفصة وارتقى ... بهمُ شواهق صعبة وعقابا
وأبى لهم إصرارهم من قبل أن ... رأوا العذاب إنابة ومتابا
لم يغن عنهم اذ أتاهم من عل ... أن يحرسوا الأسوار والأبوابا
طلبتهم تحت التراب وفوقها ... آجالهم فتولجوا الأسرابا
نالتهم رحمى الخليفة بعدما ... نادى الردى بنفوسهم وأهابا
آيات نصر بينات كلها ... بهرت بما جاءت به الألبابا
وسعادة عجب تهد قوى العدا ... هداً وتقصم منهم الاصلابا
خصت إماماً للبرية مجتبى ... براً تقياً خاشعاً أوابا
ملك عليه مسحة ملكية ... لبس الزمان جمالها جلبابا
بهجوا على الأبصار بهجة يوسف ... ويضيء داوود به المحرابا

(65) في : ط . فنهكت الجهة من دفن جيفهم . وكذلك في . ت ، ولعل الصواب ما أثبتناه .

(66) في : ط . طمع . وفي : ت . طمح . ولعله قريب من المعنى .

مدح الامام عبادة نرجو بها | عز الحياة وأن نفوز مآبا
ما سافرت اذهاننا في مدحه | الا وكان لها القصور ايابا
لم يدر حق مقامه من لا يرى | من دون حق مقامه الاطنابا

وفي هذه السنة كان استقرار المنصور بتونس بعد ايابه من حركة الحمة وقفصة وغيرهما وما طرأ مدة اقامته بها من الحوادث الشاردة والأنباء الواردة وتقديم السيد أبي زيد على إفريقية وحركة المنصور الى المهدية وانفصاله منها إلى المغرب بعد ربط أشغال البلاد وتأنيس من بها من العباد وذلك أنه عرف الناس بعد أيام بأن يكونوا للحركة مستعدين ولم يعين لهازماناً ولا خصص للوجهة مكاناً وشرع في أشغال الحركة وأحوالها ،وتثقيف البلاد والفحص عن أعمالها ، وتقديم حكامها وعمالها .

وفي هذه السنة وهي سنة ثلاث وثمانين المذكورة كانت حركة القائد أبي العباس الصقلي بالأساطيل المنصورة وهجموا على يابسة ودخلوها واستولوا عليها وقبضوا فيها على ابن نجاح القائد المايورقي الذي هرب عن ابن غانية للموحدين ثم نكث عليهم وقد كان خدع أهل يابسة ودخلها .

وفي هذه السنة كان استيلاء يوسف بن أيوب على ما كان بيد الروم من بلاد الشام وغلبته على بيت المقدس وصرفه للمسلمين وضبطه على ما كان به من النصارى حتى فادوه بعشرة دنانير للذكر وخمسة للأنثى وتركهم له جميع ما كان عندهم من الأسلحة وتأمينهم في أموالهم وأنفسهم على تأدية هذه الضربة من الفدى[66] .

وفي سنة أربع وثمانين وخمس مائة تحرك المنصور من تونس الى المهدية في المحرم وقد عزم على الأياب الى المغرب فقدم المخاطبات والرسائل تتضمن تتميم الحركة الشرقية والاعتناء بالبلاد الغربية والأندلسية وأقام المنصور بالمهدية ريثما ربط أشغال العرب الى قوانين يوقف عليها وتحرك المنصور من المهدية على مواصلة من التأويب والسرى آتباً على طريق تاهرت لا يعرج على معقل ولا يتلوم في منزل ، والعباس بن عطية الزناتي يطوي له المراحل وينتقي له المنازل ، حتى أطل على تلمسان في مدة قريبة من الزمان مع إراحة[67] العساكر وتيسر المرافق بكل مكان ولما

(66) مكرر : لعله : هذه الضريبة من الفِدَاء .

(67) في : ط . راحله . وكذلك في ت . ولعل الصواب ما أثبتناه .

وصل المنصور اليها وقدم عليها وكان قد تقرر عنده مدة مغيبه في غزاته هذه تواتر الأنباء وأحوال كل من تـردد في بيعته واستهواه الشيطان في نكث عقيدته والتزحزح عن طاعته وأعوذ بالله من عمى البصائر وتتبع الحسد المؤدي الى هلاك الرجال الأكابر وتلف العشائر .

نكبة السيد أبي اسحاق ابن عبد المؤمن

كان ابتداء سطوة المنصور في أوبته قبل وصوله الى حضرته ببعض قرابته الحاسدين لبيعته فأول من تلقاه بتلمسان السيد أبو اسحاق أحد الأعمام وممن كان غمر بالاحسان والانعام ، وكان تأخره بهذا القطر لاعتلال لزمه فذكر عنه أنه كان يطعن في آراء المنصور في تلك الحركة ويضعفها بحجج ضعيفة سخيفة فجاء ليسلم عليه وقعد بين يديه وسأل أبو اسحاق الخليفة عن حاله وكيفية كونه في حلوله وارتحاله ، فقال له حالنا على ما يسر المسلمين ويسوء الحاسدين . ثم أمر بقيامه فأخرج على وجهه وطردت دابة ركوبه ومشى على قدميه الى منزله والعامة تطأ أثوابه ،ولم يلبث الا يسيراً وتوفى .

نكبة أبي حفص الملقب بالرشيد
والي مرسية وأبي الربيع والي تادلا
وما ورد على المنصور من قبلهما
وكيفية مقتلهما

لما جرى بفحص عمرة ما جرى من قتل الموحدين ، وصرخ الشيطان بظهور المارقين ، خبثت سرائر الحاسدين ، وبدا على ألسنتهم ما أصروا عليه من النفاق على تراخي السنين ، وفشا على ألسنة الركبان شنيع الكلام وسرى ذلك ببلاد المسلمين . فلما رد الله الكرة على الأشقياء واجتث الفتح أصلهم من جميع ما كانوا أخذوه من تلك الجهات والانحاء ، استحالت الأضغاث وسكنت الزعازع والأحداث، وقد كانت الأنباء تصل إلى تونس فيطوي للأعداءِ عليها كشح الحليم، ويعدها[68] ليوم عظيم .

---

(68) في : ط . ويعدها . وفي : ت وبعدها . . . .

فكان ممن وصل الى أفريقية في أثناء تلك الحال ، وتموج تلك الأهوال العامل ابن اللحاف ، منشىء الارجاف ، ومسعر الشتات والخلاف. فذكر عن الرشيد أشياء تنافر التوفيق والرشاد وتحرك لمنكرها الجماد ، وتنتج الخلاف والارتداد وتصطك منها المسامع، ولا يمكن مدافعة قبحها المدافع وأنه مذ اشهر يضمر حيله ويقطع بالأرجاف الشنيعة ليله ونهاره[69] وأن الواصلين من الأندلس تحدثوا بموالاته اذفونش ومحالفته معه بأكيد المخاطبات والمكاتبات على التعاضد في النفاق ، والتآلف على ذلك والاتفاق . وكان هذا الرشيد قد استولى على الناس بضروب العدوان ، وتسبب الى أخذ أموال التجار واذاية الجيران وغالب العمال على بيوت الأموال ، وكلفهم المؤ ن الثقال ، ثم قبض على ابن رجا مشرف مرسية وثقفه وطلب منه احضار تقييدات المحابي وأزمتها المجتمع فيها بجملتها ، فعجز الرجل عن تكليف المحال ، وما لا يستطاع من الأعمال، فضربه بالسوط حتى قتله رحمه الله . وفر ابن سليمان الى بلنسية وكان صاحب العمل بمرسية وكذلك الكاتب حكم بن محمد فارقه فراراً بحياته وطمعاً في نجاته ، فخاطبه الرشيد يريه الرغبة فيه، ويعده ويرجيه ، فتحرك الحائن يسعى برجله الى أجله منقاداً الى ما زور له من أمله وقد دس الرشيد الى أحد حفاظه أن ينزله عنده ويبطش به ويودعه ليلاً في ملحده فامتثل الفاجر أمره وقتله ولم يمهل وانكشفت أحوال الرشيد للناس فأوقعته غدراته ، وأوبقته سيئاته .

وفي أثناء هذه الأحوال وصله من الحضرة الاستدعاء ، وارتفع عن أهل الأندلس البلاء ، وارتحل فشيعه الناس بقبيح الثناء . وتقرر أيضاً عن ابن أبي الربيع صاحب تادلا عم المنصور ما كان تسبب فيه من كشف رأسه في النفاق وخلعه للطاعة ومجاهرته بالشقاق ، وارتهانه في مخاطباته لمن جاوره من القبائل على اجابته والارتباط معه على ذلك الاتفاق ، فسوفوه تسويف المستهزئين ورأوا أنه من الضالين الهالكين ، ثم مشى السيد أبو زكرياء في سرية وافرة فأحاط بجهاته ، وأخذ بمخنقه على المألوف من عزماته .

ولما لم يجد سليمان المذكور الى متنفس سبيلا ، ولم ير من الاعانة كثيراً ولا قليلاً ، ألقى بيد الاستسلام ، وهدم ما بنى عليه من أضغاث تلك الأحلام ، وبقي غريقاً في ورطته ، نادماً على ما فرط من فعلته الذميمة وغلطته ، فأذكيت عليه عيون

---

(69) لعل المناسب : نهاره وليله . . .

الرقباء وأكد عليه في القدوم واللقاء ، فسار يقدم رجلاً ويؤخر أخرى حتى لحق بالمحلة المنصورة حاصلاً في قبضة ما جناه من النوائب المحذورة. ولما وصل الرشيد أيضاً من مرسية أمر بنزوله منفرداً في نفر من خاصته وخدمته ثم قبض عليه وعلى أبي الربيع المذكور وتحملتهما الثقات الى رباط الفتح خيلا ورجلاً وصارا تحت الثقاف والاشراف حتى أتاهما اليقين .

ذكر موت السيدين المذكورين

ولما وصل المنصور حضرة مراكش وتمهد نزوله ، وقفل كل من كان ينتظر قفوله وتفرغ من سلام القاطنين ، ومن تضبيف الواردين ، اجتمع بالسيد أبي الحسن المستخلف بمراكش ومن كان معه من الموحدين ، فباحثهم عن أحوال أولئك المنافقين ، فقرر لديه من خبيث أقوالهم وكيفية أفعالهم ما أوجب عنده شرعاً سفك دمائهم ، بنفاقيهم واعتدائهم ، فلما أوضح ذلك عند المنصور خاطب عثمان بن عبد العزيز الكومي صاحب قصبة رباط الفتح أن يعفي آثارهم ويصيرهم في الهالكين فقدمهما فضرب رقابهما عَفَا الله عنهما ، وقتل في نكبتهما من تحقق اشتراكه في المعصية معهما وورد الشاعر المحسن أبو بكر ابن مجبر في جملة الوافدين للتهنئة بهذا القول السعيد فقال :

بعلاكمْ وهو حسب المطنب ... عرف المشرق فضل المغرب
فسح الدهر له حتى رأى ... سير ابن وأب بعد أب
فرعاها بفؤاد فطن ... وتلاها بلسان معرب
قد لعمري أبصر النور الذي ... مذ بدا أعشى عيون النوب
ورأى ما لم يكن يعهده ... فهو مشغول بطول العجب
أيها المنصور إن الدين قد ... حل من عزك أعلى الرتب
هو أمر الله في أيديكمُ ... فاجذبوا الأرض به تنجذب
رفعت قبته مضروبة ... ما لها غيركم من طنب
عارضٌ أبدى بروقاً جمة ... وهو لم يأت ببرق خلب
يقتضون الوعد بالنصر لكم ... وهو قد خط لكم في الكتب
غير أن السعي محمود ولا ... يقطع السيف إذا لم يضرب
من يكنْ مطلبه نصر الهدى ... نال عند الله نجح المطلب

قد تلافى الله أفريقية ... وهي نهب في يدي منتهب
أنتمُ أحييتم الدين وقد ... مات فيها موت من لم يعقب
أحجم الأعداء عنكم رهبة ... من رأى الموت عيانا يرهب
اهنأي يا حضرة القدس فقد ... رحت في ثوب البهاء المعجب
يا لها من أوبة محمودة ... سقت الدهر حياء الطرب

ولما تفرغ المنصور من بعد الحلول بحضرة مراكش من حركته وبلغ المرغوب في أعدائه والمطلوب من أمنيته ، نظر في انجاز ما وعد به في مخاطباته ، وضمنه في مكاتباته من مصالح البلاد الغربية ، واعانة الثغور الأندلسية فاستعد لذلك كله بعد الفراغ من نصبه ، وبلوغ الغاية من اربه بقية سنة اربع وثمانين المذكورة .

وفي سنة خمس وثمانين وخمسماية قدم السيد أبو الحسن ابن العم أبي حفص على تلمسان ومكن يده في المخازن بوجوه الإمكان(70) وقدم على اشبيلية أبو حفص يعقوب بن العم أبي حفص لتمهيدها لمثل هذه الحركات وأطلق المخاطبات بالتأكيد على العمال في ضرب الآلات ، وما تحتاج اليه الجيوش من العدد والأقوات ، ثم أشيع في الجبال القبلية والبلاد الغربية النداء بالجهاد من غير تكليف على حكم التطوع وتأتي الارادات فترادفت الأمم من الجبال والبسائط طامعين متطوعين وأتت أناس كثيرة من حبش غانية(71) وعمرة الصحارى مبادرين ، فاجتمع بالحضرة من الأحمر والأسود وشتى اللغات من الحشود والمطوعة وعموم الأعراب من الجنود من معدود وغير معدود ، ما ضاق(72) بهم رحيب الفضاء وتكاثر عن العد والاحصاء .

والعدو بالأندلس في أثناء ذلك يشن الغارات ، ويبالغ في النكايات ، حتى أخذ بمخنق غرب الأندلس براً وبحراً ، واستعان بقراقير الافرنج فأذاق المسلمين ضراً .

وفي هذه السنة كان غلبة ابن الرنك اللعين على قاعدة شلب واخراج أهلها عنها الى ان فتحها المنصور عنوة وجبرها للاسلام بحد الحسام . وكان من موافقة قدر الله وصول جملة من القراقير الرومية مجتازين على عادتهم الى بيت المقدس مذ انتزع

---

(70) في : ط . الأماكن . وفي : ت الإمكان . وهو الصواب .

(71) كذا في الأصول الخطية . ولعله يعني غانة . بدليل ما بعده .

(72) في : ط . فأضاف وفي : ت ما ضاق وهو الصواب الذي أثبتناه . .

من أهل ملتهم فيصلون أبداً في كل سنة اليه ليزيلوا عن أعناقهم بزعمهم عهداً في أديانهم ويخرجوا عن عهد ما شرط عليهم ونفذ اليهم مع رهبانهم فعقلت الأنواء القراقير المذكورة بجهة اشبونة فألفى الكافر ابن الرنك مادة لعونه على كفره ، وجيشاً ميسراً لما دبره من ختله وغدره، ووجد منهم قبولاً لجهاد المسلمين فأحدقوا بشلب من كل الجهات وبالغوا في حصارها الى أن تملكوها وأخرجوا أهلها عن . . . . بعد اشرافهم على الهلاك من الظمإ والجوع وعدم الهجوع وكان حافظها حينئذ عيسى بن أبي حفص بن علي لم تحنكه التجارب ولا ابتلي بسد الثغور فاستولى عليه الجزع ولفه الهلع ودخل في غمار المؤمنين ، وسلموا في أنفسهم وخرجوا مسلوبين واستأصل العدو حصناً من نظره يعرف بالبور وأتى القتل على كل من كان فيه من صغير أو كبير واناث وذكور ، نفعهم الله بشهادتهم يوم النشور .

وفي هذه السنة كانت وقعة حصن المنار وتغلب اذفونش عليه وذلك أن اذفونش قصمه الله بث سراياه على أكثر بلاد المسلمين فضربت على قطر قرطبة ومال جل شوكتهم على جهة اشبيلية فتهرجت اقطارها واقلعت بسائطها وأغوارها ووصلوا الى قرى الوادي واكتسحوا ما اتصل بتلك البوادي ، وأسرع الرعاة الى اشبيلية يستصرخون بالغوث فخرج جميع عسكر اشبيلية من غير أهبة وبادروا الى مصادمة العدو وقد تراءى الجمعان من غير تعبية تحفظ نظامهم ، ولا أهبة ترتب خواصهم وعوامهم ، وقد انتشروا كالسائمة بتلك البسائط والفحوص ، واختلط منهم العموم بالخصوص ، ولم يتذكروا فضل المقاتلين في سبيل الله كأنهم بنيان مرصوص .

ولما رأى العدو أمراً بدداً ، وأنهم لم يملكوا من غيهم رشداً ، اضربوا عما حصل بأيديهم من غنائمهم ومواشيهم وصعدوا على ربوة أشرفوا منها على عورات المسلمين ، وعلموا المتقدمين منهم والمتأخرين فأخذوا عزمهم ولبسوا لأمهم على ما كان من ضعف عددهم ، وبعد مددهم وانصبوا على نشزهم كقطعة ليل ، أو كجلمود حطه السيل من عل ، ووالوا عليهم الكر والاقدام ، واشرعو فيهم السنان والحسام فتخاذلت جموع الناس اجمعين وولوا للحين منهزمين واوى بعض الفل الى دفء حصن المنار فخرج عليهم صغار الولدان وعقائل النسوان ، يضربون في وجوههم بكل عار ، ويثلبونهم بقبيح الفرار ، وقد كان حضرها أعيان الموحدين، ووجوه الأجناد الأندلسيين ، واستولى العدو على من ضمه المعترك من أسير وقتيل ، وكثير من السلب وقليل ، وانقلب بغنيمة باردة ، وفائدة يا لها عندهم فائدة .

ووصلت سرية المغيرة الى حريم البحائر بشرف اشبيلية وخرج السيد أبو حفص صاحب اشبيلية في جملة خيل فلم يجاوز سور باب الفرج ، وخيل العدو مع حيطان البحائر يدلون ادلال الآمنين ، ويعبثون كما يشتهون فعادت الأندلس في تهارش واختلاط ، والناس في مثل سم الخياط ، وكان نزول ابن الرنك اللعين على شلب في ربيع الآخر من السنة المؤرخة وحاصرها بقية ربيع الآخر وجمادى الأولى والآخرة وتسعة عشر يوماً من رجب ودخلها يوم الاثنين المتوفي عشرين منه .

وفي جمادى الأولى من السنة خرج اذفونش ملك قشتالة الى أم غزالة فنازلها وخلت قبل وصوله اليها . وفي أوائل جمادى الآخرة اقلع عنها ونزل ربينة ودخلها عنوة وقتل فيها كل من اعترضه وأسر الباقي وسبى كل من كان بها وتمادى الى قلعة جابر الى حصن شلير وانصرف الى طليطلة وذلك في جمادى الآخرة من السنة فاقلق المنصور ما وصله من هذه الأنباء وانحفز في الحركة لدفع هذه الأدواء .

ذكر حركة المنصور الأولى إلى الأندلس من حركاته وما ظهر فيها من قدرته وغلبته

كان خروجه من مراكش في الرابع عشر من شهر ذي الحجة من السنة المؤرخة فأنفذ المخاطبات إلى إشبيلية وإلى سائر الجهات فتضمن التيسير باستقبال جيوش تلك البلاد وانحفازها لنصر أهلها على عدوهم وكشف ما هم فيه من الأوصاب الشداد وتمادى السير إلى رباط الفتح فتلوم به نحو الأربعين يوماً حتى استوفت الحشود وكملت أعداد القبائل والجنود وتم في كل جهة من البلاد النظر المحمود .

وفي سنة ست وثمانين وخمس مائة تحرك المنصور من رباط الفتح في أواخر محرم وتمادى السير إلى قصر مصمودة وجدد منها المخاطبات الى إشبيلية تتضمن قربه الميمون إليهم ، ووفوده في أقرب وقت عليهم ، وفي أثناء هذا بدر من بواكر الفتوحات تعكيس أجفان الروم فقتل منهم خلق وأسر آخرون فهُنىء بذلك المنصور وامتدحه الشعراء فمنهم ابن مجبر فإنه قال من قصيدة طويلة أولها :

دلائل فتح كان يذخرها الدهر   فلما أردت الغزو أبرزها النصر

فهـا هي مذ جـدت ركـابـك تنبـري سـراعاً فمن أفـراحها الشفـع والوتـر
فدونكهـا مـنـسـوقـة فـلشـد مـا تسـابق فيهـا نحـوك البـر والبحـر
هـو الفتح يـا مـولاي مـا فيـه مـريـة ولا لـليـالـي فـي تـعـذره عـذر

ومنها :

أفي الصبـح شـك أنـه لمصبـح وقد غاضت الظلماء وانفجر الفجر
أتتـك أسـارى الـروم وهي أقلهـا فمن فضـلات القتـل ينتجـع الأسـر
ومـا كان قبـل اليـوم سهـلاً مـرامهـا ولا كن علا الإسلام ما تضع الكفـر
ومـا زلت تـدنـو كـل يـوم مسـافـة إليهم ويهـوي في نفـوسهم الـذعـر

ومنها :

لقـد كان في الأحـوال عسـر فكلمـا دنـوت استمـر اليسـر فـارتفـع العسر
لعمـري لقـد سنى بـك الله غـزوة قـد افتر عن ثغـر السرور لهـا الثغـر

ومنها :

إلى غـزوات من قـريب تتـابعت ففي كـل قـطر من سحـائبهـا قـطر
لقـد أيقنت هـذي الجـزيـرة أنهـا سيجبـرهـا من لا يهـاض لـه جبـر
لئن كـان مـات الأمن في جنبـاتهـا فقـرب أميـر المؤمنيـن لـه نشـر

وتربص المنصور بقصر مصمودة وقدم بين يديه الجيوش للجواز فكان ابتداؤ ها في الخامس عشر من ربيع الأول من السنة المؤ رخة ولما انحفز الناس في جوازهم تحرك المنصور من قصر المجاز وركب البحر ضحى يوم الأحد الثالث والعشرين لربيع وروح بطريف ريثما استنفذ الجواز ووصل بعض وفود البلاد المجاورة للبحر للسلام، وضجوا بالتشكي بالولاة والحكام ، ورفعوا فيهم شنيع الأرفاع[73] بما لا تسعة شرائع الإسلام ، فأضرب المنصور عن شنيع ذلك الكلام ، وقال إنما نبدأ بغزو المفترين والمشغبين من أطراف الأنام ، ثم غلبه تقاه ، فأضرب عما كان نواه ، وأمر بطردهم وعصرهم تحت الوعيد ، وإن لم يتوبوا عن أعراض المسلمين فالموت أقرب لهم من حبل الوريد .

وتحرك المنصور من طريف غرة جمادى الأولى وتمادى مشيه إلى ظاهر أركش

(73) في : ط . الارفاء . وكذلك في : ت . ولعل الصواب الارقاع .

فوادع الناس منها وركب الى قرطبة نهج السبيل ، وعرج عن نظر إشبيلية بالرحيل ، وأخذ بتجديد العزم للحرب وتقديم الحزم وأمر السيد يعقوب بن العم الأكبر أبي حفص بالحركة من إشبيلية بعساكره من أجنادها وأعرابها وما انضوى من أهل البوادي من غرناطة والحشود والمطوعة إلى آخرها ومن تأخر من صنهاجة وهسكورة من كل الجهات والمجاهدين من سائر الأشتات . فتحرك هذا السيد وجميع من ذكر من هذه العساكر بعد انتظام السابق منهم بالآخر غرة جمادى الأولى وتمادى مشيهم حتى نزلوا بظاهر شلب .

وفي آخر الشهر المذكور وصلت الأساطيل إليهم فالتأم غزاة الرجالة البرية والبحرية ونصبت المجانيق ، والآلات الحربية ودنا من السور الحماة والكماة واضطروهم من التضييق الى ما أغصهم بالريق وبقيت تحت الحصار ينشر عليها القتال تارة ويطوي أخرى ولما كان وداع الناس من منزل أركش على ما تقدم ذكره وأحصي[74] خبره تمادى مشي المنصور أمير المؤمنين إلى قرطبة فنزل بالقصر الذي كان الأخ أبو يحيى تأنق في بنائه ومشى أثناء ذلك* للزهراء بنية الاعتبار بآثار القرون الذاهبة والأمم السالفة فأمر بقلع الصورة التي كانت على بابها وكان من الاتفاق ان ذهبت ريح عاصف بأصيل ذلك اليوم أثرت في خباء الساقة بعض التأثير وقطعت في طنبه[75] كالقطع اليسير فأرجف جهال من عوام* قرطبة أن ذلك بسبب صورة الزهراء وأنها كانت طلسماً لما ارتدعها من الأشياء واتصل ذلك بالمنصور فجعله من علوم (كذا) أهل قرطبة القديم ومن غباياتهم (كذا) وتقليدهم الذميم ، وأخذ في مهمات الجهاد ،وما يليق بالحال الحاضرة من التأهب والاجتهاد .

فصرف أرسال أذفونش إلى بلادهم ووجه السيد أبا زكرياء ابن أبي حفص إلى إشبيلية بمن تحت نظره من العرب وزناتة وأهل تلمسان ومن انضاف إليهم وأوى لديهم وأمره بالتجهز من إشبيلية رفقاً ونظراً سديداً للتمكين من الأزواد ، وأمره باللحاق به والاجتماع مع إخوته بعد ما حد له ما حد من الاستعداد . ثم إن المنصور حقق تمييز الجيوش المسترزقة ومن افترق من الأعداد الواصلة من بر العدوة[76]

---

(74) في : ط . واحصر . وفي : ت كذلك . ولعل الصواب ما أثبتناه .

(75) في ت . طبنه . وفي : ط . طنبة ، ولعل الصواب طنبه .

(76) في ط . العدة ـ والصواب العدوة .

أخذوا باقيهم المسمى بالبركة وأمر بسوق الرايات وعقدها وخرج من حينه والنصر والسعد محالفان له في حالتي حركته وسكونه فقال أبو بكر ابن مجبر من قصيدة :

بشـــراي هـذا لـــواء قـل مـــا عقـدا إلا ومـــد لـــه الـــروح الأمـين يـــدا
وأقبـــل النصـر لا يعـــدو منـــاحيـــه فحيث مـا قصـدت أربـابـه قصـــدا
واستقبلتـــه تبـاشيـــر الفتـــوح فقـــد كـــادت تكـون على أكنـــافـه لبـــدا
وقـــرب الفـلك الـــدوار بـغيـتـــه فلو تنـــاول بعض الشهب ما بعـــدا
إمـــام جـــيش أراد الله نـــصـــرتـــه فـــأرسـل المـــلأ الأعلى لـه مـــددا
إني لا حكم بـالنصـر العـــزيـز لـــه وإن سكت فـإن الـوحي قـــد شهـدا

فوصل السيد أبو زكريا إلى إشبيلية وتلوم بها ريثما تمم أشغاله وخفف أثقاله ورتب أدلته ورجاله وتحرك منها فجد سيره حتى لحق بالمنصور حيث أمر وذلك بوادي تاجُه وبه تلاقت العساكر والأعداد ، وتكاملت الحشود والأمداد .

اختصار الخبر عن فتح طرش ومحاصرة حصن المنار والاقلاع عنه

وتحرك المنصور من الوادي المذكور قاصداً إلى حصن طرش فنشر عليه ممض القتال ، واشتد على من فيها مضايقة النكال ، وغلب عليهم انقطاع الآمال ، ولما رأوا أنفسهم في قبضة الهلاك وأن قيام المسلمين عنهم عين المحال ، ألقوا بيد الاستسلام وبسطوا رغبتهم في الأمان ، وأن ينفس عنهم ريثما يصلون إلى طاغيتهم ابن الرنك في الاستيذان ، فتوجه قائدهم مع صحبة وجوه الغرب فوصلهم إلى مأمنهم ورحل المنصور بعد فتح هذا الحصن الى حصن طمان فسلك فيه ذلك المسلك من الحصار، وأخذته الجيوش بالتضييق عليه من كل النواحي والأقطار، ووافت رسل ابن الرنك راغباً في السلم وعقده ، ومتلطفاً فيما تعجله من ربطه وشده ، فأمر المنصور بترويح القتال عن الحصن المذكور ، ريثما ينعقد هذا السلم وتنضبط تلك الأمور ، وكان المنصور عزم في هذه الغزاة أن يدوخ بلاد ابن الرنك وينتهي فيها إلى أقطار قلمرية فوعك وتمادى وعكه ورأى جيشه قد أثر فيه الغلاء ونهكه ، فأخذ إلى إشبيلية قافلاً ، وكتب إلى جميع من كان بالعساكر بشلب بالإقلاع منها عاجلاً ، وتمادى المشي والأسعار ترتفع ، والمواد من جهة البلاد تنقطع، حتى كان الوصول إلى إشبيلية في الحادي عشر لجمادى الآخرة من السنة. وفي يوم هذا

الوصول نزل على إشبيلية في غاية الحفل وركب السودان علـى النجب البيض بأيديهم الدرق وعلى رؤوسهم طراطير الطيلقان الشديد الحمرة وصدور النجب منظومة بجلاجيل على شكل السفرجل والأغزاز بضروب الحلل ، فظهر مرأى تحار فيه الأبصار ـ وتذهل الخواطر والأفكار ، والملك لله الواحد القهار . وكانت مدة هذه الغيبة ثلاثة وأربعين يوماً ووصل المنصور على أتم الأمور .

ذكر وصول المنصور لاشبيلية وما طرأ من الأنباء مدة هذا الاستقرار ومشى فيها من الحوادث والأخبار

ولما استقر المنصور بهذا القرار ، وخرج من ذلك الوعك خروج البدر من السرار ، أخذ في الفحص عن شؤون الناس وأحوالهم وكيفية كونهم مع ولاتهم وعمالهم ، فاستبرئت السجون وقتل كل مستوجب القتل فيها منذ سنين بعد عرض أزمتهم على أمير المؤمنين واشتد في قطع المناكر والملهين وأمر بالقبض على ابن سنان لما رفع عنه في وقعة المنار أنه أول من بادربالفرار ، وأن الخور حمله على النزول عن فرسه واللياذ بالأوعار ، والتعلق بأهداب الأشجار ، وأعوذ بالله من التمالؤ في أوقات الادبار ، فأمر المنصور إذ ذاك باستصفاء أحواله وضم أمواله .

وفي هذه السنة ظهر الغوي الشقي علي الجزيري .

ذكر قيام الثائر الجزيري

وصل خبره وأمره إلى المنصور بإشبيلية في رجب بظهوره بحضرة مراكش وانتشار الأرجاف به ببر العدوة وكان هذا اللعين في أوليته يتعلق بأذيال الطلب ويلهج منه بحفظ المتشابهات وما يؤول منه إلى الروايات فأمر الخليفة بطرده فمشى ملفوظاً يتغرب ويتجول في الأقطار ، ويسعى في الفساد بالتكتم والاستتار ، ويلتمس أبداً جهالاً من العوام يحادثهم ويطابقهم ويلابسهم ويرافقهم إلى أن ظهر بمراكش الخبيث، وشنعت عنه الأحاديث، فأمر السيد أبو الحسن بن أبي حفص بالبحث عليه في أقطار المدينة فاختفى وخرج فاراً بنفسه ، لا يعرف يومه من أمسه ، ثم ظهر أيضاً بمدينة فاس ، وامتزج بأوباش من الناس ، فسقط الخبر عند واليها ابن ومازير فلفهم بغبارهم وقبض على من عثر عليه منهم عند انتشار أخبارهم فاستأصلهم قتلاً ونفياً وأفلت اللعين ولاذ بأوعار تلك السواحل ، وانغمس فيها انغماس اللص الخاتل ، ثم تواترت الأنباء بأنه جاز إلى الأندلس فأمر المنصور بالكتب إلى جميع الجهات بصفته

وأمارته وهيئته ، واستقرت الكتب بيد الحكام والعمال ، والمتصرفين في الأشغال ، وقد كان ذكر عنه أنه يتصور في صورة الحيوان الذي لا يعقل مثل الحمير والكلاب والسنانير وألقي في ذلك من الأخبار المستحيلة ما نسي به أخبار أبي دلامة الكذاب فصح عند المستضعفين من العوام تصحيح ذلك الكلام ، وكانوا متى رأوا سنوراً منكراً في منازلهم لم يشكوا أنه الجزيري طالباً للاختفاء والفرار ، فيلتقون ذلك الحيوان الذي يرونه حيث كان بالانكار .

وتمادى الناس على ذلك أياماً إلى أن قيل عثر عليه بمالقة وعلى أوباش من سفلة الأسواق فملئت منهم السجون ، وفيهم أخو الفاجر الملعون ، وأمر المنصور بسوقهم إلى إشبيلية فذكر أن هذا الثائر كان في جملة المسجونين ، وأن القاضي المعروف بالواني أطلقه برشوة أولئك المفسدين ، فقتل جميعهم وكانوا تسعة وتسعين رجلاً وأمر على القاضي فضرب بالسياط على عدد الدنانير التي تصيرت من قبل اللعين إليه فهلك المذكور قبل إكمالها ولحق بالآخرة وأعمالها ، وقتل بسبب هذا اللعين خلق كثير من الناس ووقع عليه البحث في كل مكان وجعل الرقباء يتصفحون الصفات بالعيان حتى قبض عليه بنظر مرسية وسيق إلى إشبيلية فأخرج إلى موضع جلوس الموحدين وطيف به على جموع الحاضرين ، فأكذب نفسه فيما نسب إليه وفيما كان يدعي ويحض عليه ، فصحح خذلاته وتمم حرمانه ثم عذب بعد هذا وصلب وقطع به أرجاف المفسدين وامتدحه الشعراء فقال الجراوي يمدح المنصور ويذكر الثائر المذكور المعروف بالجزيري من قصيدة طويلة :

قضى لك الله بالتأييد والظفر ... وبالسعادة في ورد وفي صدر
آثرت في نصرة الدين المسير على ... طيب المقام وبعت النوم بالسهر
مظفر ما لمغرور يطالبه ... في الأرض من ملجأ عنه ولا وزر
جد الجزيري في إتلاف مهجته ... حتى تورط في ورد بلا صدر
نار من الفتنة العمياء أطفأها ... سعد الإمام وحد الصارم الذكر
ما زال إبليس في الأقطار يوقدها ... وترتمي من شرار الخلق بالشرر
زاد الشقي على الخفاش مشبهه ... ضعف البصيرة إذ ساواه في البصر
جارى إلى سقر أصحابه فهووا ... فيها سراعاً ووافاهم على الأثر
إن الذي اتخذ الأهواء آلهة ... على الضلال مصرٌّ غير مزدجر

والـوعظ في النـاس مقبـول ومـطرح كالخط في الماء أو كالنقش في الحجر

وقال أيضاً :

مـا في الحيـاة لمن نـاواكم طمـع إن نـد خـوفـاً ففي أحبـولـة يقـع
عن كل قوس صروف الدهر ترشقـه فمـا لـه في سـوى التسليم منتفـع
مـا للعـدو بمـا أعـددتـه قبـل ولا بـغيـر انـقيـاد منـه تمـتـنـع
غـزاهم الرعب في جيش بـلا لجب فـأحجموا من وراء الـدرب وانقمعوا
دارت عليهم كؤوس الـذل مترعـة تسقيهمُ جـرعـاً من بعـدهـا جـرع
كـل الممالـك ملك خـالص لكم وكـل ممتنـع طـوعـاً لكـم تبـع
والبحـر تعتمـد الأنهـار مـوضعـه فـتلـتـقي فـي نـواحيـه وتـجتـمـع
والشعـر إن لم يكن في نفسه حسنـاً فمـا تحسنـه الأصحـاب والشيـع
من رام وصفـك مستـوفى فغـفلتـه يبـدي ومن فهمـه عنـد الـورى يضع
أضحت علاك مكان النجم عن مدحي مـا حيلتي وبلوغ الـنجـم ممـتنـع

وفي هذه السنة وصل ابن منقذ رسولاً عن صاحب الشام والديار المصرية يوسف بن أيوب الملقب بصلاح الدين وكان وصوله أولاً إلى أفريقية .

وفي رجب الفرد وصل إلى المنصور أمير المؤمنين مخاطبات السيد أبي زيد من أفريقية والسيد أبي الحسن من بجاية بوصول المذكور إلى تلك البلاد، وما قابلوه من المبرة وتوطئة المهاد ، والتعريف منهم بكتمانه لسبب وصوله ، ولما جاء فيه من أشغاله فروجع السادات بالشكر على ما قابلوه به من الاكرام ، وأن لا يبحث عنه بشيء من الاستفهام ، ثم قدمت المخاطبات الى من بالمغرب من الولاة والعمال، بالتوسعة له في نزله والاحتفال به ، وأن يستقر بمدينة فاس، فأقام بها إلى أن انقضت حركة المنصور ، فاستدعى الرسول المذكور ، فوصل إليه وقعد بين يديه وخلا به على اختصاص وانفراد، وأمر قبل دخوله بقصده الى المراد ، فتلقىَ الجواب من المنصور مجملاً ، وأحيل على ما يوضحه له الوزراء مفسراً ومكملاً ، ولما دنا إيابه ، وحصل على ما تمكن جوابه ، أفيض عليه من النوال الغمر والاحسان، وضروب من النعم السابغة والامتنان ، وقوبلت هداياه من العوض في نفاسة الأشخاص والأثمان ، وانصرف إلى بلاده وقد رأى ووعى في طريقه وفي مدة إقامته ما علم أن بالمغرب ملك الاسلام ومقر الايمان .

وفي سنة سبع وثمانين وخمس مائة تأهب المنصور لحركة شلب وعزم على غزو بلاد الغرب

ثم جدد المنصور عزمه وقدّم[77] حزمه بعدما سقطت جمرة المصيف وتمكن فصل الخريف شرع في التأهب للحركات والنظر في الآلات وانضمت ما تحتاج إليه منازلة البلاد ، من العدد الحربية والاستعداد ، ولما استوفى بالعمل تكملة الآلات ، وانضمت الحشود من كل الجهات ، تحرك من إشبيلية غرة ربيع الآخر على حاله من الاستقدار ، وهيئة عظيمة من الاستظهار ، وترتيب رائق لم يدون مثله في عيون الأخبار ، آية للأفكار ونزهة للأبصار .

وتمادى المشي من إشبيلية على الإحكام العجيب ، والضبط لأحوال العساكر وحسن النظام والترتيب ، حتى كان الحلول على قصر أبي دانس وتقسمت الحشود وترتبت الجنود ، وأهل الخدمة من العبيد يردمون خندق المدينة من جهاتها الأربع وطوائف من المقاتلة الانجاد قد زحفوا إلى السور يستعذبون طعم المنايا ، ويبيعون من الله أنفسهم بالرزايا ، ولما عاين المنصور صبر المسلمين على القتال ، وقد كثرت فيهم الجراحات بالحجارة والنبال ، روح القتال ثلاثة أيام ، وقصد تجديد الفكر والاعتزام ، وانتظار ما كان أعده لذلك المقام ، الى أن وصلت الأجفان البحرية بالعدد الحربية وقد تسابقت لدخول الوادي بتيسير تعجز العقول عن تكييفه ويشكر القدير سبحانه على أحكامه وتصريفه فبهت الذي كفر ، وسقط في أيدي المشركين من كل من ألقى السمع وأبصر ، فنصبت في يوم وليلة أربعة عشر منجنيقاً إذ كانت معدة بعد الفراغ من عملها فأحدق منها بالبلد منايا زاحفة وصواعق قاصفة .

ولما كان الخامس عشر لجمادى الاولى امر الجيش بأسره بأخذ الاسلحة ونشر القتال عليهم من كل الجهات ، ورمى المجانيق مرة واحدة على مر الاوقات فاشتد القتال وتضاعف عليهم النكال ، ولما رأوا انفسهم في لهوات المنون ، وانهم مع ما لديهم من اهل ومال في بحر الفوات مغرقون ، تطارحوا كالفراش على الأسوار ، ورضوا بالفرار من الرمضاء الى النار ، ونزلوا على الحكم مستسلمين لائذين بما للخليفة من الاجمال والافضال وهبطوا من البلد صاغرين ، وانسلخوا عنه اجمعين

(77) في : ط . قوم . وفي ت . قدّم . ولعلها هي الصواب .

فأودعوا بطون الجوار المنشآت، وضحكت لمناجاتهم كتب البشارات، وحملوا الى اشبيلية فكانوا عنوان الفتوحات ، وشرع المنصور في النظر في امور الحصن واحواله ، وصلاح ما ظهر من اختلاله ، وثقله بانجاد رجاله ، ورسم لسكانه رسوماً مشاهرة ومسانهة في مخازن اشبيلية وسبتة على الاستمرار والدوام ، والتيسير والتمام ، وقدم على الحصن المذكور ابن وزير .

ثم رحل عنه ونزل حصن قلمالة ، وهو من القلاع السامية الارتفاع ، الغريبة الارتفاق والانتفاع ، لا يتمكن لمنازلته جيش ولا يحسن بغيره ، بمجاورته عيش ، وقد ملأه الكافر ابن الرنك بأنجاد رجاله وكماة ابطاله ، ولما رَأَوا من جنود الله ما لا قبل لهم به القوا بيد الاستسلام صاغرين وان يتخلوا عن جفن الحصن مجردين ، فأسعفهم المنصور وقبل رغبتهم لمكان انقيادهم وطاعتهم وخلى سبيلهم الى بلادهم ، وسهم الرعب قد تغلغل صميم اكبادهم ، واتى النهب على ما كان في الحصن من أثاث وأقوات واسلحة وآلات ، ثم أمر المنصور بهدمه ، وإزلة عينه ورسمه ، فصبَّحه [78] من الجيش قبائل العبيد ، سوداء مقفرة كظهر البيد ، ينكرها العيان ، وتعمرها الغربان ، ثم استمر القصر[78] الى حصن المعدن ففتحه وأمر بهدمه وتعفية رسمه فاستوصل بالتخريب والدمار ، ومضت بهجته ورونقه ساعة من نهار ، ثم كان الاقلاع والمسير ، واستخارة اللطيف الخبير ، إلى مدينة شلب فكان الوصول اليها يوم الخميس الثاني من جمادى الآخرة فأحدقت المحجلات بأكنافها ، وأخذت بفرجها وأطرافها ، حتى لا يتنفسون الا من الهواء ، ولا يصل اليهم من ملتهم طارق من الأنباء ، فسويت خنادقهم بالردوم ، وقرعت أسوارهم بالرجوم ، والبلاء يطرقهم بالصواعق سحابه ويراوحهم ويغاديهم بضروب المنايا عذابه .

ولما كان يوم الاربعاء الخامس عشر من الشهر المذكور سها الكفار مع الصباح عن الاحتراس والانهمال ، واطمأنوا أن ذلك الوقت ليس من أوقات القتال ، والمسلمون يرقبون خدع الحرب ارتقاب هلال شوال، فتحسس بغفلتهم وبما كانوا فيه من سهوهم ونومتهم دليل من الادلاء فتسلل حتى وثب في ثلم السور ، وشد ظهره جماعة من الرجال الذكور ورفعوا به الرايات ، وصكت الطبول وملأ الجو ضجيج

---

(78) في : ط . فصبح . وفي : ت فصبحها .

(78) مكرر : لعله القصد .

التكبير والصيحات ، فلم يستيقظ الكافرون الا وهم في قبضة المنون بين مطعون ومضروب ، ولا وقفوا الا في نجيع من دمائهم مصبوب ، فبادروا ينادون بشعار الأمان[79] ، فضرب لهم أجل عشرة ايام ، فانقلبوا وقد اجاز لهم طاغيتهم طلب الامان، وشكر لهم ثبوتهم على عظيم الامتحان ، وخرجوا من قصبة شلب يوم الخميس الخامس والعشرين لجمادى الآخرة ورحل المنصور عن شلب يوم الثلاثاء الثامن والعشرين من الشهر المذكور ووصل اشبيلية في الرابع لرجب من السنة المؤرخة فانقضت هذه الغزاة الكريمة في ثلاثة أشهر .

ذكر حركة المنصور من الاندلس الى مراكش بعد انقضاء غزاته على مرغوبه وما اظهره الله تعالى من نصره والظفر بمطلوبه

ولما اكمل المنصور غزاته المشهورة وفتح ما فتح من بلاد ابن الرنك اللعين وألقت له ملوك الروم بيد الاستسلام ، وارتبطت مهادنتهم على عز كلمة الاسلام ، ورتبت اشغال البلاد ، وسدت الثغور بثقات القواد ووجوه الاجناد ، وقدم بعض القرابة في امهات البلاد ، وفوض اليهم النظر فيما يرونه من مصالحها والاخذ في ذلك بالحزم والاجتهاد ، واستوفى ذلك على ما يمكن من النظر السديد في بقية رجب الفرد وشعبان المكرم من السنة ووعد الناس بالموادعة ببحيرة الوادي اول يوم من رمضان، وعند كمال موادعة الناس رحل من اشبيلية وتمادى المشي الى البحر وكان الجواز بنصف الشهر المذكور واستمر مشيه اياماً الى حضرته وبعد وصوله اليها وتمهيد استقراره من اوبته انشده الشعراء فقال الجراوي :

ايـاب الامـام حـيـاة الامـم ... تـوالـى الـسـرور بـه وانـتـظم
وجـاد بـه الارض صـوب الـحـيـا ... وجـلـى الـظلام بـه بـدر تـم
فـشـكـرا لـخـيـل وفـلك دنـت ... بمستـأصـل الـظلم مـاحـي الـظلم
اذا حـل فـي بـلدة امـرعـت ... فـطاب جـنـاهـا وفـاح الـمـشـم
وقـام بـأقـطارهـا عـدلـه ... وصـوب نـداه مـقـام الـديـم
اذا الـخـطب جيش نـحـو الـورى ... تـصـدى لـه عـزمـه فـانـهـزم
سـل الـدهـر عن بطشـه بـالعـدى ... تـجـب مـن وراء الـدروب الـعـجـم

(79) في : ط . الامام . وفي : ت الأمان . وهو ما أثبتناه .

فتوح عظام حباها[80] الزمان   لذي همم دونهن الهمم
نصيحتكم يا ملوك الزمان   نصيحة من ليس بالمتهم
انيبوا اليه ولوذوا به   تفوزوا وألقوا اليه السلم

وبعد هذا الوصول الى الحضرة وعك المنصور الوعك المفضي الى طول الدنف ، المشرف به لولا لطف الله على التلف ، فاحتاط بحسن يقينه للمسلمين ، ونظر نظر امثاله للدنيا والدين، فعقد البيعة لابنه ابي عبد الله على ما رآه من السداد ، وكتب بذلك معرفاً الى من كان من وجوه القرابة في امهات البلاد، كالسيد ابي زيد بن السيد ابي حفص بافريقية والسيد ابي يحيى ابن امير المؤمنين باشبيلية فبادروا الى ما ندبوا اليه من توجيه عهودهم ، ودخلوا تحت ما يجب عليهم من ربوطهم وعقودهم ، ثم بعث عنه من افريقية والاندلس فسبق اهل الاندلس لقرب بلادهم ، وتأتي الاسراع لهم على مرادهم، ووصل صحبة اهل الاندلس يوسف بن الفخار اليهودي رسولاً عن ملك قشتالة في تثبيت المهادنة فألفوا المنصور قد من الله باستقلاله وتبين النجح من استبلاله فامتدحه الشعراء بالتهنئة على بُرْئِهِ فقال ابو العباس ابن عبد السلام يمدحه ويهنئه :

بـرء الامام حياة الخلق كلهم   عم السرور به وانثالت النعم
شكا فلا مقلة الا اضر بها   سهد ولا قلبَ الا شفه ألم
تجهم الدهر لما ان شكا وبدا   ببرئه وهو طلق الوجه مبتسم
صحت بصحته الآمال وانتعشت   وزاحمت زحلاً في افقه الهمم
أفاض عدلاً على الدنيا والبسها   نوراً فلم يبق لا ظلم ولا ظلم
وبث في كل اقليم هدى وندى   فليس يوجد لا جهل ولا عدم
لولا سياسته ما كان ملتئما   شعث ولا كانت الاسباب تنتظم
والله يختص اقواما برحمته   تجري بحكمته الارزاق والقسم
حاط الالاه لنصر الدين مهجته   وعوفيت تلكم الاخلاق والشيم

وفي سنة ثمانية وثمانين وخمسمائة انفصلت الوفود الاندلسية عن الحضرة ووصل السيد ابو زيد من افريقية بهدية جليلة فيها التحف الملوكية والالطاف

---

(80) في : ط . جناها . وفي : ت . حباها وهو ما أثبتناه .

السلطانية وصحبه من كان أمر[81] بوفادته من عرب سليم ورياح في جماعة وافرة من اعيانهم ووجوه انجادهم ولقي الجميع المنصور يوم خروجه من مراكش بمنزل تانسيفت في الحركة المقصود بها جهة فاس فمشى الجميع واستوفوا سلامهم وأمر بقية النهار بدخولهم مراكش واكرامهم وليعاينوا أمـاكن الخليفة واستبصارهم في قدرة الأمر وعظيم ما بها من الآثار والبناء فأقاموا بها ثمانية أيام وانحفزوا لاحقين بأمير المؤمنين وناشرين شكره بما يبقي ذكره مع الدهور والسنين .

ورحل الخليفة الى رباط الفتح ومنها الى مدينة فاس وفي اثناء الاقامة بفاس قدم النظر في اشغال افريقية وما يجب لها من الاعتناء والتقديم ، واعمال الفكر في قطع دائها الجسيم ، فصرف كل من وصل مع السيد ابي زيد مع العرب السليميين والرياحين ورفهوا بضروب الانعام ، وادخلوا تحت شروط الالتزام ، ووعدوا بمقابلة البر على وفائهم والاكرام ، وانقلب هذا الوفد الافريقي على غاية ما امل واضعاف ما طلب وسال . ثم تمكنت صحته واستقامت راحته فتروح الى رباط الفتح فاغتبط بسكناه وعزم على الانتقال الكلي اليه فأمر بتجديد القصبة المسماة بالمهدية المشبهة بمهدية بني عبيد بافريقية لاحاطة البحر بها من جميع جهاتها ولما قامت شخوص مبانيها وصورت هيئاتها رتب قوانين اشغالها .

ورحل الى مراكش في منتصف العام المذكور واقام بمراكش جارياً على حزمه آخذاً بتصميمه وعزمه في تثقيف البلاد وتجديد العدد والاستعداد .

وفي هذه المدة وصلت ارسال ملوك الروم في تجديد عهد المسلمين والمهادنة فاشتطوا في شروطهم وابتغوا الزيادة على عوائدهم في عقد ربوطهم وانف المنصور لقولهم وخلا بأهل العزم والمشورة في احوالهم وحملهم على الصريمة في العزم على غزو بلادهم في عقر[82] دارهم وازعج من كان بمراكش من ارسال الروم دون غرض مقضي لهم وانحفز النظر في اسباب الحركة .

ثم كانت سنة تسـع وثمانين وخمسمـائة ففيهـا امر المنصـور باختـطاط منزل بخارج اشبيلية يكون برسم نزول المجاهدين ورهبة في نفوس الكافرين وامر ان

---

(81) في : ط . أمره . وفي : ت أمر ولعله هو الصواب .

(82) في : ط . عقد . والصواب عقر .

يكون بتاج الشرف ليأخذ بمخنق بحرها ويكون كالطالع بين سحرها ونحرها فقامت في ادنى مدة اشخاص الاسوار ومثلت مواضع الديار وكمل القصر الكبير بمجساله المشرفة على اشبيلية وما والاها من البطاح والانظار الي منتهى نظر الابصار وكان بناؤه ذلك كله من اضخم ما عمل وفوق ما أمل والمنصور بالحضرة يتشوف الى انبائه ويوالي السؤال عما يتزيد من بنائه حتى برح به الشوق الى التشفي من صفاته والى معاينة كيفية الوضع ببيانه فوجه عن الناظر فيه فوصل اليه وعرفه بكيفيته فزاد شوق المنصور له وسماه بحصن الفرج ولقد كان قبله بنظر اشبيلية حصن يسمى بهذا الاسم قال صالح بن سيد : وفي سنة اثنين وسبعين واربعمائة جدد المعتمد على الله حصن الفرج .

وفي هذه السنة كان ظهور الاشل ببلاد الزاب وذلك ان هذا الاشل قام ببلاد الزاب ودعا لنفسه واجتمع له شرذمة من العرب وبايعه كثير من اهل تلك الجهات والتأم عليه اشتات من الناس من الجبال المجاورة له ومن كل صنف من الغوغاء والسفلة والغرباء فاستعجل امره واشتعل جمره وشاع في تلك البلاد ذكره وكان يلقي لاصحابه بالغايات لزعمه من الحدثان وضروب غير معقولة من الهذيان بأنه موعود بأمره وان الاراجيز نصت على خبره وتوالت على المنصور انباؤه وكثر في تلك البلاد ضرره واعتداؤه فخوطب السيد ابو زكرياء صاحب بجاية بالتوصل في كل حال اليه والاحتيال بكل وجه يسعه الامكان عليه فعقد السيد عسكر بجاية وجهاتها وخرج مستحسساً لاخباره ومتقصياً لآثاره واجتمعت اخلاط من عرب تلك الجهات ومنافقيها وهموا بمحاربة السيد ابي زكرياء وأكله وطمعوا في انتهاب عسكره وفله وهو يداريهم بحزمته وشهامته ويصول عليهم بنجدته وصرامته وقلق من كان معه من الموحدين والأجناد فتعب [من][83] التوغل في تلك الصحارى والبلاد ودس السيد أثناء ذلك عيوناً يتحسسون اخبار الاشل المذكور ومكان استقراره ومن استند من انجاد القبائل في جواره فتفرقوا في تلك الجهات وضرب لهم بالاياب الى ميقات وبقي مع مجموع العرب يراودهم في التمكين من الاشل المذكور ويعدهم بالثواب على ذلك مع الأجر المذخور وهم يمحلون له امره وينكرون كونه وقد طمعوا في اكل عسكره والغدر به وكشف وجوههم في محاربته والناس قد وجدوا في انفسهم خيفة منهم

(83) يظهر أنه لا بد من زيادة (من) ليستقيم المعنى ، وهي غير موجودة في : ط . و . ت .

وتوقعوا غدرهم المذكور عنهم .

وفي أثناء ذلك قفلت ثقات السيد الموجهون بخبر الاشل وتعيين مكانه وبصفته والوقوف على عيانه وكيف يختص احد الرسل حتى يتوصل اليه وهو في مجلسه مع هيئته من لبس ثياب فاخرة معتم بعمامة خضراء وسيف محلى موضوع بين يديه وقد طاف به قوم من شيعته وهو يحدثهم بلسان حصري . ولما استوفى السيد ما نص[84] الرسل من اخباره وعلم موضع استقراره ، اعمل الحيلة في ذلك وجمع بعض العرب وقال لهم قد امتثلنا ما امرنا به من البحث عن هذا الشقي ، والاجتهاد في التقصي عن موضعه الخفي ، وقد ابلينا عذراً في ذلك ، وشهادتكم كافية ان احتيج اليها هنالك ، وقد ظهر من قبائلكم جموع وافرة ، ووجوه في النجابة ظاهرة ، لو علم الأمير بمكانكم ، لزاد في احسانكم واستجلب كثيراً من اعيانكم ، ولكن نحن قد شرعنا في الاياب ، وسرعة الانقلاب . فمن وصلنا منكم عرفنا بمكانه ، ونبهنا عن عظم شانه ، فأظهروا على هذا الكلام شكره واعظموه قدره ، وهم قد نووا غدره ، فأخذ السيد بالحزم ووعد جميعهم للحضور للرحلة معه من الغد

ولما جن الليل اسرى السيد ليلته حتى اصبح على مقربة من قلعة بني حماد من عمل بجاية ثم أغذَّ السير حتى دخل القلعة بجملته ، وسائر محلته ، واصبح العرب نادمين على فواته طامعين في انجاز ما مناهم به من عداته ، وبعد استقراره بالقلعة واخذ مأمنه من عاديتهم هو وعسكره من اغارتهم ، خاطب اعيانهم ، والسيد بالقلعة ، وجوه انجادهم ، والمترعرعين من اولادهم ، لانجاز وعده لهم على زعمهم في ارادتهم ، ولما وصلوا الى القلعة احتفل في اطعامهم فلما تمكنوا اغلقت ابواب المدينة وقبض على جماعة من اولادهم واعتقلوا بالحديد ثم جمع السيد آباءهم وعشائرهم واقسم لهم بالايمان المغلظة انه لا يحل وثاقهم الا باحضار الاشل او رأسه او يحمل رؤوسهم مكان رأس المذكور الى امير المؤمنين المنصور ، فقالت العرب : ما نسلم جارنا ولا نغدر دخيلنا ولو اتى القتل على جميعنا ومضوا لسبيلهم فقام نساء العرب المذكورين من امهات الاولاد المسجونين وقالوا لآباء ابنائهم وعشائرهم ايقتل ابناؤنا برجل منافق ذي حيل سارق ؟ تباً لما رأيتموه وبئس ما فعلتموه

(84) في : ط . نص . وكذلك في : ت ـ ولعل الصواب ـ قص .

وطردوا آباءهم من بيوتهم فاختلفت القبائل على الاشل وأراد الفرار فهجمت طائفة من عشائر المتفقين عليه وعلى وزيره وأسروا به حتى اوصلوه الى القلعة فأحسن السيد الى الواصلين به واخلى سبيل المعتقلين من أجله وضرب عنقه وعنق صاحبه واحتمل رأسه الى بجاية فعلق على بابها مع ذراعه وعضده وطهرت تلك النواحي من عاديته والأمر لله سبحانه في خليقته .

وفي سنة تسعين وخمسمائة ورد على[85] المنصور مخاطبات الشيخ ابي سعيد ابن ابي حفص من افريقية باستفحال العدو بها وانبساط العرب معه وفسادها فانحفز في الحركة الى رباط الفتح مصمماً على قصد افريقية وقوي الرأي والتأهب الى العود اليها والقدوم عليها ووجه من رباط الفتح عن ولاة الأندلس ليوادعوا على اشغالهم وكافة اعمالهم فلما وصلوا اليه وقد انصرمت مدة صلح ملك قشتالة فبعث المذكور اللعين الى جميع ثغور المسلمين المجاورة له لينذرهم ويحذرهم وقد كان وجه رسله الى عقد المهادنة واظهر بعده المكيدة فأعقبه الله سوء غدره واحاق به وبال مكره ، واغتر الكافر وتأنس باشاعة الحركة الى افريقية فجمع اللعين انجاده وأقماطه وقواده وضرب لهم ميقاتاً ارتبطوا عليه في شن الغارات فضربوا بلاد المسلمين شرقاً وغرباً وعمت الفرقة العادية الواصلة الى اشبيلية جميع جهاتها، وانتشرت على انظارها وجنباتها ، فوردت هذه الأنباء الشنيعة والأحوال الفظيعة على المنصور وهو على قدم الحركة فأنفذ ولاة الأندلس عند جوازه الى عدوة سلا تصميمه على طريق الشرق ووصل مكناسة واخبار عيث العدو في الاندلس تشنع ، ومخاطبات اهل ثغورها تجمع ، فأمر المنصور ولاة افريقية بمدود الاموال وكتبه الكافية عن الكتائب والابطال ، وصرف وجه الحركة من مكناسة الى بلاد الاندلس ، فاهتزت الجبال وتلك الجهات ونشط الناس وقوي حرصهم على الغزو لقرب بلاد الاندلس وتأتي المؤن بها والاقوات .

وفي سنة احدى وتسعين وخمسمائة كان اجازة امير المؤمنين ابي يوسف يعقوب المنصور البحر الى الأندلس وذلك في يوم الخميس الموفي عشرين من جمادى الآخرة ولما دنا من البحر تسابق سرعان الناس بالجواز الى لقائه من المتشوفين المتبشرين .

---

(85) في : ط . ورد المنصور . وفي ت ورد على المنصور . وهو ما أثبتناه .

اختصار الخبر من يوم اجازة امير المؤمنين المنصور الى يوم خروجه من اشبيلية الى غزاته

كان اجازته البحر في اليوم المذكور وروح بطريف يوماً واحداً وواصل المشي من طريف ولقيه والي اشبيلية مع وجوه الناس من اهلها ثم قفا متقدماً برسم اعداد ديار النزول ، وما يجب النظر فيه للوصول . ولما وصل المنصور الى اشبيلية نزل بظاهر بحيرة باب جهور فخرج الملأ من اهل البلد اليه برسم السلام عليه من الصبي المحتلم الى الشيخ الهرم وغص بهم الفضاء وضاق بهم المتسع ثم امر الشيخ ابو بكر ابن زهر ومن كان يستعين به من اشياخ البلد لتنفيذ البراءات في الديار المنزلة ثم اذن بعد الظهر بالدخول للسادات والمتغيب من سائر الطبقات وذلك يوم الخميس السابع والعشرين من السنة وركب من الغد ومشى الى حصن الفرج فأعجب بصورة وصفه واحتفال بنائه ورجع من حينه فمشى الى الجامع الكبير وخطب ابو علي ابن حجاج بسورة ق وهي اول جمعة قرىء بها في الاندلس من السنة .

ثم خرج يوم السبت وامر بالتمييز بركب جميع العساكر بالعدد الكاملة والزي الفاخر . ولما كملت مراكبهم واستوفى بالانتظام راجلهم وراكبهم ركب المنصور ومشى مع الكتاب والوزراء ومن حضر من القرابة والابناء وطاف عليهم في مواضعهم صفاً صفاً وقبيلاً قبيلاً ، وشكر استيفاءهم واستعدادهم شكراً جزيلاً وخرجت المرتبات والبركات وانتفرت الحشود المعتادة وسائر الجيوش المنقادة .

ذكر غزوة المنصور والتأهب للعدو يوم الفتح المشهور بموضع الأرك المذكور ووصف الحال في الحرب والقتال

وذلك أنه لما استوفى المنصور من أشغاله ما أمله ، وأتم في كل غرض من مذاهبه ومقاصد عمله ، خرج لهذه الغزوة الميمونة بالأرك صبيحة يوم الخميس الحادي عشر من رجب من سنة احدى المذكورة ، وتمادى سيره على طريق النهر الأعظم ووصل قرطبة يوم الجمعة التاسع عشر من الشهر المذكور وروح ثلاثاً وخرج يوم الثلاثاء الثالث والعشرين منه فضربت سرية خيل من النصارى على قلعة رباح وما جاورها ليتجسسوا الأخبار فخرج اليهم من كان بالحصن فاقتفوا آثار اعداء الله والتحقوا بهم فكانوا عندهم كأكلة جائع أو شربة ظمآن ، وتركوهم بتلك البطاح ولائم للنسور والعقبان ، فكانت هذه السرية باكورة الفتح وتحفته وتمادى المشي وفي كل

يوم بشارة ومسرة من أنبائهم وروعهم تترى، وأحاديث من ارتكاسهم وانتكاسهم تتلى وتقـرأ ، الى أن تراءى الجمعان ، وتظاهرت النيران ، ووقع العيان بالعيان ، ولما نزل المنصور بهذا المنزل الذي أطل منه على جموع الكافرين ومحلاتهم ، وعول على غزوهم من الغد ومصارعتهم وتوكل على الحي الذي قضى بهلاكهم وإماتتهم ، أمر باجتماع الملأ من الناس من كل فريق ، فأجابوا مهطعين على كل طريق .

فلما كملت جموعهم واستقرت بهم مجالسهم قام في صدرهم الوزير أبو يحيى بن أبي محمد بن الشيخ أبي حفص وقال بصوت مسمع لكل من حضر : يقول لكم أمير المؤمنين اغفروا له فـان هذا مـوضع غفـران ، وتغافـروا فيما بينكم ، وطيبوا نفوسكم واخلصوا لله نياتكم فبكى الناس واعظموا ما سمعوه من سلطانهم ، وما جرى اليه من حسن معاملتهم ثم قال الجميع : من خليفة الله نطلب العفو والغفران ، وبيمن نيته وصدق طويته نرجو الخير من الرحمن ، وقام أبو علي القاضي ابن حجاج وخطب خطبة بليغة في التحريض على الجهاد وفضله والتنبيه على مكانه وقدره ومد القول في ذلك ما وسعه من بيانه وانفصل الناس وقد تنورت بصائرهم ، وخلصت لله ضمائرهم وسرائرهم ، وقويت أنفسهم واعتزامهم ، وتضاعفت نجدتهم وإقدامهم ، وأمرهم الوزير بلباس أسلحتهم والاستعداد من الغدو والبكور للقاء عدوهم فتركوا بالمحلة الحمولة والأثقال ومشى جميع العساكر على مهلهم ودنوا حتى صاروا من العدو بأوضح مرأى ، وكانوا منه قاب قوسين أو أدنى ، وأخذوا مراكزهم وقدموا رجالهم وترتبوا بالصفوف ووقفوا كالبنيان المرصوص ، والمنصور مع أهل بيته ومن جرت عادته من القبائل بالتزام ساقته من وراء الجميع يشد ظهورهم ، ويرى ويسمع شهودهم وحضورهم .

ولما رأى الكفار ما دهمهم من جنود الله تعالى لم يكن لهم بد من الابلاء والمدافعة فهبطوا من مركزهم كالليل الدامس والبحر الزاخر أسراباً تتلو أسراباً وأمواجاً تعقب أمواجاً الا الصهيل والضجيج والحديد على وقع العجيج ، فدفعوا حتى انتهوا الى الأعلام فتوقفت كالجبال الراسيات فمالوا على الميسرة فتزحزح قوم من المطوعة واخلاط من السوقة والرجرجة فصعد غبارهم الى الجو ، فقال المنصور لخاصته ومن طاف به : جددوا نياتكم واحضروا قلوبكم ، ثم تحرك وحده وترك ساقته على حالها وسار منفرداً من خاصته مقدماً بشهامته ونجدته ومر على الصفوف والقبائل وألقى اليهم بنفسه كلاماً وجيزاً في الهجوم على عدوهم والنفوذ اليه وعاد

الى موضعه وساقته .

ولما وقعت أعين الناس عليه ورأوا عظيم ما وصل اليه ، حميت نفوسهم وتحركت هممهم فحمل كل قبيل على من يليه ، ودفع كل موكب على من يقابله من العدو ويلتقيه ، وانضمت على الكفار الأطناب ، وسدت عليهم الأبواب ، فلم يجد أحد منهم حيث يعرج ولا وجدوا بابا للخلاص يفرج فالتحم الجمعان ، واعترك الفريقان ، وحمى الوطيس ، والتفت الأقدام والرؤوس ، واستجمعت الأصوات وارتفع التمييز والالتفات ، وخلع الكفار عن مراكزهم ونسخ الله ما أراهم من اغترارهم فولوا الأدبار ، وشملهم الإدبار ، وركبهم السيف ، وتقسمهم النهب والحيف ، من ضحى يوم الأربعاء الناسع من شعبان الى الزوال فانتهبت محلة اللعين على الفور ، فلم يلف لمضاربها ولا لشيء من أثاثها خبر على اتساعها وكثرة كراعها وحافرها ولله الحمد والشكر ، وأجلت الحرب عن حصيد من القتلى كالزرع المحصود والصخر المنضود كابين على الوجوه لغير سجود ، ومستلقين على الجنوب دون هجود ، وكما يحشرون يوم النشور اذا بعثر ما في القبور ، مسافة فرسخ في فرسخ لا يكفيهم حد ، ولا يحصرهم عد .

قال يوسف بن عمر الكاتب في تاريخه : كان عدد القتلى في هذه الغزاة زهاء ثلاثين ألفاً عبرة للناظرين وآية للسائلين ، قال واستشهد من المسلمين نحو الخمس مايه وأفلت اذفونش اللعين تحت حد السنان واجتاز على طليطلة لا يعرج على مكان في نحو عشرين فارساً قد اتخذوا الليل جملاً ، وان رأوا غير شيء ظنوه رجلاً ، واعتصم معظم الفل وكل من نجا من المعترك بحصن الأرك فأحدق بهم المسلمون حتى أشرفوا على الهلاك فصالح عليهم بيطره بن فراندس اللعين الموالي للمسلمين بفداء عددهم أسارى من المسلمين واخراجهم من دار الحرب ، وبلغ عدد حصراء الأرك المذكورين خمسة آلاف شخص بين صغير وكبير ذكراً وأنثى فأسعف في ذلك المنصور اشفاقاً وحرصاً على استنقاذ أسرى المسلمين وأخذت منهم رهائن وجه بهم الى اشبيلية ثم الى رباط الفتح وسرح الجميع منهم فكانت أعظم مكايد الكافرين وخدع المشركين .

وكان الناس يضربون الأمثال بوقعة الزلاقة ويعظمون أمرها ولا يذكرون غيرها ، وفجع أكثر المسلمين من أهل الأندلس في الزلاقة لأن الحرب دارت فيها

على ابن عباد وأهل الأندلس من قبل الفجر الى أول الزوال ، لأن لمتونة خافوا من الامتزاج بأهل الأندلس لكلام ألقي اليهم في حق ابن عباد فنزلوا على نحو الميلين من مُسْلمي الأندلس ، وغدر اذفونش اللعين وتحرك في الليل وقصد محلة ابن عباد فأتى القتل على المسلمين حتى ضحى النهار ويوسف بن تاشفين بمنزله لم يتحرك حتى وجه اليه المعتمد كاتبه أبا بكر ابن القصيرة يعرفه بهلاك المسلمين فحينئذ تحرك الى محلة اذفونش فأضرمها ناراً وقتل كل من كان بها وأضرم الناس في ابنيته وساقته وهبط في ظهره وهو يقتحم مع أهل الأندلس واستحيا ابن عباد وهو مثخن بالجراح وانضمت على اذفونش الأطراف واعيد في مثل الحلقة وخدم السيف فيهم حتى وقع الليل وقيل إنه كان في ستين ألفاً بين فارس وراجل وذلك في يوم الجمعة الثاني عشر لرجب سنة تسع وسبعين واربعمائة ولم ينج اذفونش الا في ثلاثة عشر فارساً وكان لما أخذ طليطلة في سنة ثمان وسبعين واربعمائة اشتد أمله وعزم على الهبوط الى قرطبة حتى رأى منامة الفيل وجسر بذلك على الملاقاة فأخزاه الله وأهلكه ومن كان معه ، فكانت غزوة الزلاقة مقسومة الثقل مكدرة الصفو وجاءت هذه الواقعة هنيئة الموقع عامة المسرة كأكلة جائع أو شربة عاطش فأنست كل فتح بالأندلس تقدمها ، وبقي بأفواه المسلمين الى الممات ذكرها . ولما كان هذا الفتح الجليل أخذ رحمه الله قافلاً الى اشبيلية والنصر يتهلل فوق جبينه ، والظفر يضحك مع شماله ويمينه ، فدخلها يوم الثلاثاء السابع والعشرين من شعبان المكرم سنة احدى وتسعين وخمسمائة .

ذكر استقرار المنصور باشبيلية من حركة غزوة الأرك وبعض ما كان من الأحداث مدة اقامته بها الى يوم خروجه عنها الى حركة الجوف

ولما وصل المنصور اشبيلية ووصل وفود من سائر بلاده ومنتهى طاعته بالتهاني من النظم والنثر فقال المنصور : الفتح أعظم من الإطناب في وصفه ، وأمر الكاتب أبا الفضل ابن أبي الطاهر وأكد عليه أن يوجز الكتب في هذا الفتح غاية الايجاز ولا يسلك في العبارة عنه مسلك شيء مما تقدم من أوصاف الفتوحات ، وان ينحو فيه منحى كتب الصحابة رضى الله عنهم في فتوحاتهم ، فخاطب على ما أمر به وطوى بساط الشعر ولم يحفظ عن الشعراء فيه مقال الا الكاتب الأريب الشاعر المجيد أبو العباس الجراوي فانه قال فأحسن ولم تصل اليه :

هو الفتح أعيا وصفه النظم والنثرا ... وعمت جميع المسلمين به البشرى
وأنجد في الدنيا وغار حديثه ... فراقت به حسناً وطابت به نشرا
تميز بالأحجال والغرر التي ... أقل سناها يبهر الشمس والبدرا
لقد أورد الأذفونش شيعته الردى ... وساقهم جهلا الى البطشة الكبرى
حكى فعل ابليس بأصحابه الألى ... تبرأ منهم حين أوردهم بدرا
أطارته شدات تولى أمامها ... شريداً وأنسته التعاظم والكفرا
رأى الموت للأبطال حوليه ينتقي ... فطار الى أقصى مصارعه ذعرا
وقد أوردته الموت طعنة ثائر ... وان لم يفارق من شقاوته العمرا
ولم يبق من أفنى الزمان حماته ... وجرعه من فقد أنصاره صبرا
ألوف غدت مأهولة بهم الفلا ... وامست خلاء منهم دورهم قفرا
ودارت رحى الهيجا عليهم فأصبحوا ... هشيماً طحيناً في مهب الصبا يذرا
يطير بأشلاء لهم كل قشعم ... فما شئت من نَسْر غدا بطنه قبرا
فكيف رأى المغتر عقبى اغتراره ... وكيف رأى الغدار في غيه الغدرا
وكان يرى أقطار أندلس له ... متى يرم لم يخطىء بأسهمه قطرا
فسلاه يوم الأربعاء عن المنى ... فما يرتجي مما تملكه شبرا
اذا عزلته الروم كانت نجاته ... وقد أَحرقت جمر المنايا به غدرا
فتعساً له ما دام حيا ولا منى ... وكسرا له ما دام حيا ولا جبّرا
بيمن الامام الصالح المصلح الرضى ... نضى سيفه الاسلام فاستأصل الكفرا
فلا زال بالنصر الالهي يقتضي ... بشائر تحصى قبل احصائها القطرا

وانبسط المنصور انبساط من بلغ آماله وشفى نفسه واستأصل أعداءه وتوسع في أعمال البر شكراً لله تعالى فأكد العزم في بناء الجامع الكبير وتتميم مناره وسرح الجموع والقبائل والأجناد ونبههم على أن يكونوا على أهبة واستعداد لمعاودة الجهاد ـ وتفرغ أثناء ذلك للمذاكرة والمناظرة .

وفي سنة اثنين وتسعين وخمسمائة انتقل المنصور الى حصن الفرج بتاج الشرف وكمل غرس البحيرة المحدثة تحته وأمر بعمل نواعير على شط النهر تحت الحصن لتكون تتميما لحسنه وجماله. وفي أثناء ذلك انصرمت مدة الشتاء وأطل زمن الحركة لمعاودة جهاد الأعداء واستنفر العموم من القبائل من منازلها المعلومة لترويحهم وعرفوا بالاستعداد لتمييز الجموع وتصحيحها، ووصل الجميع وميزت

الجيوش وانضمت أطراف الأشغال وانصرم شهر آذار ونيسان وحصد الزرع بكل مكان وحسن الى الغزو الترحال .

ذكر غزاة المنصور المعروفة بسنة طليطلة

ولما كمل المنصور أشغاله وحشد جنوده وميز رجاله ، تفاوض مع من يجب من أهل البصائر بالحروب من حيث يكون الدخول الى الكافر اذفونش في صميم أكباده ، واستيصال الباقي من طارفه وتلاده ، فوقع النظر على تقديم بلاد الجوف وتأميل استرجاع ما كان غلب عليه اللعين من بلاد المسلمين فكانت حركته من اشبيلية الى هذه الغزاة المذكورة يوم الاثنين منتصف رجب الفرد سنة اثنين وتسعين المؤرخة والسعد يمهد بين يديه مناهج التيسير ، ويفتح له كل مبهم ويقرب كل عسير .

وقدم الى حصن منتانجش جماعة من الأندلسيين وهو من المعاقل الشاهقة الارتفاع ، المشهورة بالتوعر والامتناع ، فأحاطت به الجماعة المذكورة ونشروا عليه الحرب يومهم ذلك ولما كان من الغد وصل المنصور الى الحصن المذكور فعند ما عاين الأعلاج جيوشه المنصورة وجموعه المظفرة المذكورة القوا بيد الاستسلام واعتقلوا بحبل الامام ، فأسعفوا فيما سألوه من الامان وأمر القائد أبا عبد الله بن صناديد بتوصيلهم الى حيث يأمنون من انحائهم وعند ما سار بهم فرسخاً من المحلة غشيهم أوباش من العرب فوضعوا فيهم الحديد واستأصلوهم قتلاً الى آخرهم وسبوا ما كان معهم من النساء والذرية فغضب أمير المؤمنين لاجتراء أولئك الأرذلين وجهلهم بعهود المسلمين فسجن منهم من عثر عليه وجمع النساء والذرية وأوصلهم القائد المذكور الى أوائل بلادهم ، وخلت أيضاً مدينة ترجالة دون منازلة وهبتَ ريح الفتح في تلك الكور المأخوذة والأقطار ، وبلغ الرعب فيهم ما لا تبلغه سمر الأسل وبيض الشفار ، وأتى عليهم الاستيصال والجلاء بالاضطرار ، وقنعوا من السلامة بالفرار ، واصطكت في هذه الحصون المذكورة دعوة الاسلام ، وتعوضت في أسبوع واحد من ملة الكفر بشريعة محمد عليه السلام ، وتمادى العمل في الاستيصال والتخريب على هذا الترتيب الى مدينة طلبيرة أكبر قواعد طليطلة وأسراها ، وأعظمها منعة وأعلاها فأمر المنصور باستيصالها ، ولحقت من التخريب والانتهاب بأمثالها .

ومر كالسيل الجاري والبحر الزاخر حتى حل بساحة طليطلة فساء صباح

المنذرين، فبرز عليهم تبريزاً أذهل عقول الكافرين ، ولم يعهد ظهوره عليها في مدة الملوك المتقدمين ، وتقسمت الجيوش على جنباتها ، وشنت الغارات على سائر جهاتها ، وأقام عليها أسبوعاً واذفونش اللعين بأطراف بلاده يتأوه تأوه المفؤود ما تنقضي عبراته ، ولا تتم زفراته ،ولما قضت نفس المنصور من هذه الوجهة أوطارها، وطوى هذه الأقاليم طي السجل ومحى اثارها ، ووفى حقوق الجهاد حقها وادخارها ، أخذ في القفول والاياب وسرعة الرجعة وحسن الانقلاب ، منصور الأعلام ، ناصر الاسلام ، فقال أبو العباس الجراوي من قصيدة طويلة أولها :

قد أصليت نارها العداة — وأنجزت فيهم العدات
وعمهم بالدمار يوم — تقصر عن وصفه الرواة
[في] مشهد لا تزل تتلى — آياته وهي بينات
فتح مفاتيحه المواضي — والعزمات المؤيدات
ردت حمى الفنش مستباحا — بيض من الهند مرهفات
ذلوا لأمر الاله قسرا — وهم أُولو نجدة أباة
وغرقت جمعهم بحار — أمواجها الخيل والكماة
رأوا لحزب الاله صبراً — والموت حفت به الجهات
فحاولوا منهم انفلاتاً — وليس للخائن انفلات
فلا تسل عن بنات ماء — ان صرصرت حولها البزاة

وفي سنة ثلاث وتسعين وخمس مائة استقر المنصور بحضرة اشبيلية لتفقد أشغاله ، وتكشفه على خدامه وعماله ، وعهد الخروج عنها الى الغزاة الثالثة وذلك أنه لما وصل المنصور من هذه الغزاة الثانية وتدويخ البلدان، وكمل التضييف للجيوش والاحسان ، تفرغ لتفقد أشغاله وعماله وربما كان قد أشعر بتفريط ومداهنة فأمر بالكشف عن الأشغال والبحث عن دقائق الأعمال فبدأ بمحاسبة أبي سليمان داود ابن أبي داود وتأخيره، وكان أمير المؤمنين قد رمي له في طريق الغزو بشعر في المذكور:

تنبه أمير المؤمنين لحادث — فأنت امام العدل فينا وقدوته
بلادك لا ترجو سواك لنظرة — وداود قد أفنى البلاد وإخوته

ذكر نكبة داود بن أبي داود

فأبرز لمحاسبته أبا محمد عبد الله بن يحيى وأبا عبد الله ابن الكاتب وقد كان

تحت نظرهما من كتاب الجهات نحو خمسين كاتباً فأقاموا في نسخ وتقييد وتبييض وتسويد ، وإكباب على بحث وتنقيب وتصديق بعض وتكذيب ، وفي كل حين يسأل المنصور عن كيفية الأشغال ، وعما يبرزه الحق من وجوه الأعمال ،وتمادى العمل على هذا الأسلوب مدة من ستة أشهر حتى تمحصت الأعمال ، وثبت الحق وارتفع المحال ، وبسط لأبي سليمان وجه العذر وأبيح له اثبات ما شاء في عمله بما يصح في كل الأحوال ، فتعين عليه بعد الرفق والالطاف ، والتمشية على طريق الانصاف، جملة من المال في خاصته وماية وخمسين ألفاً أو نحوها في عمله ، فاستصفيت أحواله وأمواله ، ولم يكشف له ستر ولا امتحن أهله ولا عياله ، حتى عفي عنه .

وفي هذه المدة أيضاً حوسب أبو علي عمر بن أيوب على ما كان تحت نظره وفي اختزانه من أموال النفقات والموقف عنده من سائر المرتبات فوقف عليه مال جسيم واستفهم عنه فلم يوجد له جواب فضم ديونه وجمع أطرافه وجمع نحو الخمسة عشر ألف دينار فقبضت منه وطلب باستيفاء الباقي فعجز عنه فاعتقل مع أبي سليمان حتى تداركهما عفو أمير المؤمنين .

وفي هذه السنة قلد أبو زيد بن يوجان أشغال البرين من الأعمال العلية والأشغال السلطانية والوزارة وما يتعلق بها من أشغال الموحدين وملازمة الخدمة فاستقل بذلك كله استقلالاً ظهر به صلاح الأحوال وترتيب الأشغال وتوفير المجابى واجتماع الأموال وقدم أبا القاسم ابن نصير على الاشراف على عمل اشبيلية .

وفي هذه السنة قدم يوسف بن عمر الكاتب المؤرخ بعد انسلاخه عن خدمة السادات بني السيد أبي حفص بن عبد المؤمن لتصيير ما كان يشتغل لهم به وينطوي عليه وعلى المستخلص بالشرف ومدينة لبلة وعلى السهام المنزوعة من أيدي الناس وتقييد ما يراه من مصالحها .

ذكر حركة المنصور الى الغزاة الثالثة وهي آخر غزواته من عمره وآخر جهاد استوفى فيه عظيم أجره

ولما استوفى باشبيلية من أشغاله وانجلت غمرة الشتاء وتمكن فصل الربيع عين الخليفة شهر الوجهة وصرح بالحركة فترادف الناس بالوصول من البلاد ، واستوفت العساكر والأجناد، حتى ضاق باشبيلية متسعها وعجزت عن تحمل المؤن والأعباء، فضرب طبل الرحيل ، ونفر كافة الناس من كل قبيل ، فكان خروج

المنصور من أشبيلية ضحى يوم الاثنين الرابع والعشرين من شهر . . . من السنة فنزل بالكرم آخذاً على طريق قرطبة وكانت سنة خصب فمشى الناس في أطيب عيش حتى كان الوصول الى قرطبة فدخلها المنصور للاستيطان وقسم الجيوش لانتجاع الخصب حيث كان ريثما يقرب أوان التحطم وتمكين وجود الأقوات في بلاد الروم .

وفي هذه السنة نكب القاضي أبو الوليد ابن رشد الحفيد وذلك انه كان نشأ بينه وبين أهل قرطبة قديماً وحشة أحدثتها أسباب المحاسدة فانتدب الطالبون للسعي أشياء عليه في تواليفه تأولوا الخروج فيها عن سنن الشريعة وايثاره فيها لحكم الطبيعة ، وحشروا منها الفاظاً عديدة ، وفصولاً ربما كانت غير سديدة ، فجمعت في أوراق وقيل إن بعضها ألفي بخطه ومشى الرافعون الى مراكش سنة احدى وتسعين فشغل عن الوقوف عليها والالتفات اليها لما كان الحال بسبيله من الاستعداد ، والنظر في مهمات الجهاد ، فنكص الطالبون على أعقابهم ، وقنعوا بسرعة ايابهم ، ولما كان هذا التلوم من المنصور بقرطبة وامتد بها أمد الاقامة وأنس الناس لمجالس المذاكرة ، تجددت للطالبين آمالهم ، وقوى تألفهم واسترسالهم ، فأدلوا بتلك الالقيات ، وأوضحوا ما احتجنوه من شنيع الهفوات ، الماحية لأبي الوليد كثيراً من الحسنات ، فلما نظرت وتأولت خرجت بما دلت عليه أسوأ مخرج ، واعربت عن سوء كل منهج ، فلم يمكن المنصور عند اتفاق الطلبة الا المدافعة عن شريعة الاسلام ، والقصد لسنة الرسول عليه السلام ، فأمر المنصور بحبس أبي الوليد وتفرق تلاميذه أيدي سبا ، وطلبوا نفقاً في الأرض أو سلماً في السماء ، وبعد ذلك غفر لأبي الوليد واستدعي الى الحضرة وتوفي بها .

ولما بلغ المنصور بقرطبة مراده واحكم تدبيره واكمل استعداده ، تحرك رحمه الله على أيمن الأقدار ، ومساعدة من خدمة الليل والنهار ، وأخذ على طريق طلبيرة وقد كان أذفونش اللعين عند إشراف المنصور على بلاده بعساكر المسلمين قدم رسله في طلب المهادنة والاستسلام والوقوف عند الأمر والالتزام ، فنظر المنصور بنور التوفيق والرشاد ألا يحل ما انعقد عليه العزم من صريمة الغزو والجهاد ، فانصرف رسله من غير جواب ، الا انتظار سنان وصارم قضاب .

وتمادى المشي على هذا الأسلوب ، وعلى ما أمل من المرغوب ، حتى كان الالمام بطليطلة فغشيها اعظم مما تقدم من الانتهاك والانتهاب ، بالاستيصال والاتلاف

والاذهاب ، ثم اتصلت الانباء أن الكافر البرشلوني أمد اذفونش برجاله وأبطاله وهم بحصن مجريط يقدمون ويؤخرون ، ويخوضون فيما لا يفعلون ، فقصد المنصور اليهم وصمم نحوهم تصميم الواثق بالعلي الكبير رجاء أن تزل اقدامهم ، وعسى أن يحركهم حمامهم ، وعندما اشرف المسلمون على الحصن المذكور ، وأحدقوا به احداق الهالات بالبدور ، وأكثروا التهليل والتكبير والتعظيم للعلي الكبير ، فكادت تنصدع لصيحتهم اكباد الصخور ويهتز لصكتها رميم اهل القبور ، فعند ذلك انصدعت جموع اذفونش واسلمه احلافه وجعل يتعلق بجباله ، لحرقه وأوجاله[86] .

ولما بلغ المنصور على حصن مجريط فوق ما أمل من القصود وضعضعت صكة وطئه قاسيات القلوب ومزقت فل الكافرين من الحشود والجنود ، وعلم الكافر انه لا يملك من امره فتيلا ، ولا يحاول في كشف ما أنزل الله سبحانه متصرفا ولا تحويلا ، استقبل المنصور بحركته وجه الشرق فأخذ من حصن مجريط على وادي الحجارة في منازل وربوع ، واشجار وزروع ، فمشى العمل فيها على ما تقدم من الترتيب في الاستيصال والتخريب ، ولما حلت العساكر بساحتها وانبسطوا على جنباتها ، تسابق بعض الناس الى البلد وقد كان الكافر شحنها بجملة رجاله وكماته ، واهل الثقة عنده من حماته ، فخرجوا الى الطايشة من اتباع المحلة وسوادهم ، فظهروا عليهم في طرادهم ، حتى توالى السابقون فأكبوهم على اذقانهم وأوردوهم بين قتيل وجريح في انقابهم وأكنافهم .

ولما كان من الغد اخذ الناس اهبتهم للتبريـز ، ووقفوا عليهم بالقبائل على مراتب التمييز ، فبهت الكافر من ذلك الملأ الحضور ويئسوا من السلامة كما يئس الكفار من اصحاب القبور ، فروح بالوادي المذكور ريثما خاطب البلاد وبشر بكيفية هذه الغزوة جميع العباد ، ثم رحل حتى وصل قرطبة فختم الجهاد بالحضور بجامع قرطبة لختم كتاب الله ليلة سبع وعشرين لرمضان ثم رحل منها ودخل اشبيلية صدر شوال من العام .

ولما استقر المنصور باشبيلية بعد هذه الغزوة الثالثة اخذ في تجديد اعمال البر وبث الصدقات في السر وأكد النظر في تتميم ما بقي بالجامع المكرم من الأطراف

---

(86) كذا في . ط . . وفي . ت . بحرقته وأوجاله . . .

واكمال فحل المنار وانتقل الى حصن الفرج بقية فصل المصيف فتمادى سكناه به ورأى حسن اشرافه واعتلائه ورقة هوائه ، ثم انتقل منه الى مدينة اشبيلية وبين يديه اكثر اهل الدولة وحماة القرابة ولم يقم بعد هذا الانتقال الا نحو اربعين يوماً ثم تحرك الى حضرته .

ثم كانت سنة اربع وتسعين وخمس مایة ففيها تحرك المنصور من الأندلس الى بر العدوة وهي كانت آخر حركاته رحمه الله ولما رأت ملوك الروم ان بلادهم ورجالهم قد أتى عليها الاستيصال والاصطلام ،وأن لا نجاة لها إلا الرغبة في الاستسلام ، وجهوا ارسالهم في طلب الصلح على ما عهد من شروط الاحكام فأسعفوا فيه على حكم شريعة الاسـلام . ثم شرع في تثقيف البلاد ، وشدها بثقات الأنجاد ، وقدم عليها الولاة والعمال ، فقدم على اشبيلية ابا زيد بن الخليفة ، وعلى بطليوس وجهاتها السيد ابا الربيع بن ابي حفص بن عبد المؤمن وعلى الغرب ابا عبد الله بن السيد أبي حفص بن عبد المؤمن وقدم على المجابي في تلك البلاد ، وأمرهم بالنصيحة والاجتهاد ، وكان خروجه من اشبيلية في العشر الوسط من جمادى الأولى وجوازه غرة جمادى الأخرى واخذ على طريق فاس وروح بها نحو عشرين يوماً واستمرت حركته الى الحضرة مراكش .

وفي هذه السنة شرك ابو مروان الباجي مع أبي الحكم بن حجاج رحمه الله في الخطبة .

وفي سنة خمس وتسعين وخمس مایة أمر المنصـور باعـذار الأطفال بمـراكش وأن يجعل في يد كل واحد منهم دينار من الذهب ودرهم من الفضة وحبة من الفاكهة الخضراء ليشتغل بها الطفل عن ألمه ويصرف الدينار في مداواته فكان يذهب في ذلك كله فوق الألف الف ما بين ذهب وفضة فكان هذا من مكارمه التي لم يسبقه احد اليها من الملوك المتقدمين .

ومن فضائله المشهورة في الوجود ما أمر به من شكلة اليهود وذلك أنهم كانوا قد علوا على زي المسلمين وتشبهوا في ملابسهم بعليتهم وشاركوا الناس في الظاهر من احوالهم فلا يميزون من عباد الله المؤمنين فجعل لهم صفة كحداد ثكلى المسلمين اردان قمصهم طول ذراع في عرض ذراع زرق وبرانيس زرق وقلانس زرق وذلك في سنة خمس وتسعين المؤرخة ولما اتصل الخبر بابن نغرالة اللعين عمل ارجوزته التي اولها :

لبس ذا الأزرق ليس فيه خسارا فافهموا يا قوم هذي الاشارا

يذكر فيها نبذا ونكتا من الحدثان ويتعرض فيها للتفاؤل بهذا الازرق للسلطان .

وفي أثناء ذلك وعك المنصور وعكه الذي توفي منه رحمه الله وربما قال اللعين اليهودي ارجوزته بعد وفاة المنصور وهو الصحيح .

بعض أخبار أمير المؤمنين المنصور على الجملة ووصيته وما ذكر الناس في موته

كان رحمه الله فاضلا عاقلا حازما عازما لا تأخذه في الله لومة لائم متواضعا لله مجاهدا في سبيل الله وذكر عنه انه لما قتل اخويه بمدينة سلا رأى بعد ذلك اباه في منامه وهما عن يمينه وشماله فقال له يا يعقوب: «انك ميت وانهم ميتون ثم انكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون » ، وذكر ابو عبد الله بن هاردوش في تأليفه ان أبا العباس الجراوي قال للمنصور لما ذكر ان اخاه كان طامعا في ولاية امرة المؤمنين وأن قوما كانوا يحدثونه ويؤملون ذلك له فقال ابو العباس يا سيدنا قد كان عبدكم يعني نفسه قد انشدكم على جهة التفاؤل لكم بذلك قصيدة أولها :

الدهر منا في مديحك افصح فعلى م يتعب نفسه من يمدح
انت المرشح للتي لا فوقها إن العظيم لمثلها يترشح

فقال له صدقت كذلك كان وأمر له بصلة جزلة في ذلك اليوم وأنشد ابو عبد الله بن هاردوش[87] ابياتا لنفسه قالها في ابن قاسم حين ورد على المنصور فلم يقم اكثر من جمعة الا وقبض المنصور رحمه الله تعالى وهي :

اذا أهمل الدهر الفتى كان جده لينجو مما ناله غير عاصم
ومن كابر الدهر استعد الى الذي يجيء به للحين شؤم ابن قاسم
اتى زائرا دار الامام كأنما زيارته والرزء ضربة لازم
اتاها فألفاها ديار مسرة فغادرها المشؤوم دار مآتم

اخبرني الشيخ الصالح ابو علي صالح بن ابي صالح قال حدثني الفقيه ابو محمد عبد الرزاق بن عمر الساكن بموضع ابي خراش ان جده ابا عمر كان من طلبة

---

(87) (كذا) في : ط . . وفي ت . داودوش .

يعقوب المنصور وحضر معه غزوة الارك قال لما رجع المنصور من تلك الغزوة ونزل بايجليز استدعى اشياخ المصّامدة فقال لهم لمن كان هذا الموضع الذي بنيت فيه مراكش فقالوا له نصفه لهيلانة ونصفه لهزميرة قال فاطلبوا لي اصحابه فأتوه بأقوام فأعطاهم ثمنه وحينئذ دخل مراكش .

ولما وعك رحمه الله الوعك الذي توفي منه من اختلاف اهوية الاقاليم ـ فقد كان بارزا لهواجرها وامطارها ازمنة متوالية فخاف على نفسه الفوات وعلم ان الكل الى الممات ـ أمر بإحضار شيوخ الموحدين ووجوه أهل بيته من صغارهم وكبارهم والأعيان من أهل خدمته ودخل الجميع اليه في مجلس مرضه بحومة الصالحة التي اختطها لنفسه ولغيره فأخذ يذكرهم بعوائد الأمر وفضائل جماعته ، ويؤكد عليهم التزام ما كانوا عليه من طاعته ، والعمل في ذلك كله بكتاب الله وسنته والوفاء بعهوده ومواثيقه وأبلغ في الوصية والتنبيه والتذكير والاستسلام لقدرة الله العلي الكبير ، وما شابه ذلك من الوصايا النافعة في حق الدين والدنيا والقيام بالأمر والعمل بما يخلص في الأولى والأخرى واورد في ذلك من الكلام البليغ ما لم تورده على الروية الخطباء ولا بلغت كنهه الأدباء حتى اجهش الحاضرون بالبكاء ، وكادت تنفطر لوصاياه أكباد الأولياء ولم يترك ذا فضيلة من رجاله ولا من أهل الدولة إلا أشار اليه ، ولا صاحب مزية إلا نبه عليه ، وانفصل هذا المجلس وقلوب من حضره قد ملئت خشوعا ووفاء وحماية وابقاء .

وها انا اذكر وصيته على نحو ما وقعت وصححه قرابته والمؤرخون لدولته وهي هذه ، لما أمر رحمة الله عليه بدخول أشياخ الموحدين عليه واستقر بهم المجلس سكن بعض سكون وشخص ببصره في الناس وعيناه قد تغرغرتا بالدموع فسأل الناس عن أحوالهم واشغالهم ثم قال : ايها الناس رحمكم الله إن هذه العلل والأمراض قد توالت علينا وهدت قوانا وهتكت جوارحنا وأظن والله اعلم بغيبه أن هذه العلة آخر عهدنا بهذه الدنيا وانها القاضية علينا فانظروا رحمكم الله واعانكم على طاعته من تقدمون على انفسكم وعلى رقاب المسلمين فخنقت الناس العبرة وتشاغلوا بالبكاء فتكلم الشيخ ابو موسى بن محمد بن الشيخ ابي حفص بن علي وقال كأنكم يا أمير المؤمنين يا سيدنا تخرسنا بهذا القول : أبعد قول قولان أو فعل فعلان انتم امير المؤمنين فان توفيتم فإلى رحمة الله تعالى والجميع صائرون ومنقلبون الى ما تصيرون اليه وكنتم قلدتمونا عهدكم الكريم لسيدنا الأمير الأجل ابي عبد الله ابنكم

وما ربطناه في حياتكم فنحن باقون عليه إلى أن تلحق نفوسنا بنفوسكم وهو خليفتكم علينا بعدكم .

ولما فتح الكلام الشيخ ابو موسى وجد الحاضرون للكلام فصلا فتكلم كل واحد على قدر وسعه في الكلام ومعرفته في الخطاب فقال لهم رضي الله عنه: كل ما ذكرتم سمعنا ولكن ما شغل نفوسنا شيء سوى صغر سنه والله ما خفي وللناس ما ظهر واذا وافقتم على ما ذكرتم فادعوا الله تعالى باليمن والاقبال والتوفيق فيما ادعيتم وعليه عولتم والله تعالى يعينكم ويعينه بكم لا رب سواه واذا كان بعون الله تعالى فلا تتركوه لرأيه حتى يتنبه ويظهر ويكمل عقله ويفعل الله بعد هذا ما يشاء . ثم التفت الى السيد ابي الحسن واخيه السيد أبي زيد ابني السيد ابي حفص وقال ان هذين الرجلين لخير هذه البينة[88] كنا قدمناهما على اخواننا وعلى بلادنا فليكونا على ما عهدناهما عليه وما ربطنا لهما في حياتنا .

ثم قال رضي الله عنه: وهؤلاء الطلبة يعني السادات إن امكنكم الا تصرفوا أحداً منهم فهو الاحق لهم ولكم وان احوجتكم الضرورة الى تصريفهم فإياكم والطبل اياكم والطبل فانه مما يخف الادمغة ويحول العقول ، ثم قال رضي الله عنه: وهؤلاء الأشياخ يعني ابا زكريا وابا محمد عبد الواحد لا تتخيلوا ان دخولهم علينا وخروجهم من عندنا كان غايته هذا اليوم فانا لهذا الوقت ادخرناهما فليكونا شيخي محمد وعونا له على الطاعة والخير ولا يصدر امر الا عن مشورتهما ورأيهما .

ثم قال رضي الله عنه: هذا الرجل ابو الغمر هو من عقلاء الناس واتمهم صيانة وعفافا وقد انقطع الينا وعول علينا فلتكونوا[89] له اعوانا وانصارا وكذلك الرجل الغائب عنا الحاضر في نفوسنا محمد بن إسحاق غرضنا فيه ان تجروه على السنن الذي اجريناه وتحفظوا جانبه وتوفوه حق انقطاعه الينا حتى يظهر عليه بركة انحياشه الى هذا الامر واياكم والتفريط واياكم والتفريط في هذين الرجلين ، ثم قال رضي الله عنه بعد أن أطرق ساعة وعيناه تذرفان دموعا وقال أوصيكم بتقوى الله تعالى وبالأيتام واليتيمة فقال له الشيخ ابو محمد عبد الواحد يا سيدنا يا أمير المؤمنين ومن

(88) (كذا) في . ت . ولعله الصواب . وفي ط . البيتة .

(89) في : ط . وتكونوا . وفي . ت . فتكونوا ولعل الصواب ما أثبتناه .

الأيتام واليتيمة قال اليتيمة جزيرة الأندلس والايتام سكانها المسلمون واياكم والغفلة فيما يصلح بها من تشييد اسوارها وحماية ثغورها وتربية اجنادها وتوفير رعيتها، ولتعلموا اعزكم الله أنه ليس في نفوسنا اعظم من همها ونحن الآن قد استودعنا الله تعالى وحسن نظركم فيها فانظروا أمن المسلمين واجروا الشرائع على منهاجها .

ثم قال رضي الله عنه: وهؤلاء الاغزاز أمرنا لهم بهذه البركة يأخذونها فاتركوها على ما رتبنا وربطنا لأن الموحدين لهم سهام يرجعون اليها وليس للاغزاز سهام . ثم قال رضي الله عنه: وهؤلاء العرب تدارونهم وتلاطفونهم وتحسنوا اليهم ومن وفد عليكم منهم تعطوه وتحسنوا اليه غاية الاحسان وتشغلونهم بالحركات ولا تتركونهم للعطلة والراحات . ثم قال رضي الله عنه وهؤلاء الطلبة - يعني طلبة الحضر - تجعلون لهم موضعاً يكون لخاصتهم يشتغلون فيه بالمذاكرة حتى يشب محمد ويكمل عقله بعقولهم . ثم قال رضي الله عنه وهذا الرجل ابو القاسم ابن بقي كنا قدمناه على القضاء لعلمنا بعفافه وطهارته ولضعف مؤونته وقلة طمعه فلتتركوه على امره حتى يقضي الله ما يشاء ثم قال رضي الله عنه وهذا عبد الرحمان بن يوجان كنا قد شغلناه بأشغالنا وصرفناه في اعمالنا فوالله ما رأينا في شغله وخدمته ما يغير نفوسنا عليه ولا ظهر لنا منه طمع ولم تكن عادة غيره كذلك فلتتركوه على شغله حتى ينفذ أمر الله .

وذكر - رضي الله عنه - قبائل الموحدين قبيلا بعد قبيل وأوصى بهم قبيلا بعد قبيل وبمزاورتهم ، ثم حول وجهه الى الحكام والأشياخ وقال لهم ترانا نذهب عنكم الى دار البقاء ونترككم في دار الفناء وقد ازلنا من اعناقنا وجعلنا في اعناقكم هذه القلادة نطلبكم بها بين يدي الله تعالى فانظروا من المسلمين واجروا الشرائع على منهاجها ومشوا أوامر الله سبحانه وسنة نبيه محمد ﷺ ، على ما يجب وإياكم والباطل وإياكم والباطل ، والله تعالى يعينكم ويعين بكم ويلهمكم لما فيه صلاحكم ، ثم دعا للناس وخرج الموحدون عنه فلم يره احد بعد ذلك اليوم رحمة الله عليه .

حدثني الشيخ ابو الوفاء عدل قال حدثني السيد ابو علي بن السيد ابي موسى بن المنصور قال خرج سيدنا امير المؤمنين المنصور ذات يوم الى رياضه الكبير وبين يديه جميع اولاده الكبير منهم والصغير وهم في نحو خمسة عشر ولدا فنظر نظرة اليهم ثم التفت مرارا يكرر عليهم الى أن قال لهم ولمن حضر معهم رأيت

البارحة في منامي سيدنا امير المؤمنين ابي وهو في هيئتي وعلى شبه صورتي هذه التي نحن فيها معكم واولاده معه كما انتم اولادي معي وكلمني كيف اكلمكم فقال لي يا يعقوب لم قتلت اخاك وعمك فما كنت . .[90] كررها علي مرارا كأنه يعتبني عتابا ، ثم قال لي انك ميت وانهم ميتون ثم انكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون ، ثم بكى المنصور حتى بلت دموعه لحيته ولما . . .[91] في ذلك اليوم بعث عجائز كن عنده صالحات مقربات الى أم اخيه والى أم عمه ـ وقيل الى زوجة[92] عمه ـ ولما سمعت ام عمه ، او زوجته ، بذكر العجائز المرسلات اليها بالاعتذار في شأن ابنها ، او زوجها ، امرت خدمها وحشمها ان ينالوا منهن وينكلوا بهن فتركها العجائز ولم يروها وتوجهوا[93] الى ام السيد ابي زيد اخي المنصور فعندما سمعت بهن ادخلتهن عليها واكرمتهن وسألتهن عن أمير المؤمنين فأبلغوها[94] سلامه وعرفوها[95] بكلامه وانه يرغب منها ان تجعله في حل من دم ابنها فذكرت خيرا وقالت ان كان ابني فهو اخوه وهو اعلم بما عمل في حق المسلمين مني وقد وهبت له مالي في دمه وغفرت له . ولما وصل العجائز الى المنصور عرفوه[96] بكلامها وشكرها وقال والله لئن افجعناها في ابنها لنرينها الأمل في أخيها ثم ولى اخاها ولاية فاس واعمالها والنظر في اشغالها وبعد ذلك اخره عنها ونقله الى ولاية مالقة فبقي والياً على مالقة مدة من ثلاثين سنة لأن المنصور أوصى عليه ابنه الناصر وأمره ان يوصي عليه لبنيه فما عزل عن ذلك[97] الولاية ولا انتقل من مالقة الى أن توفي بها رحمهم الله تعالى .

وذكروا ـ والله اعلم ـ انه من وقت تلك الرؤ يا التي رآها المنصور قام بنفسه ان يختلع عن الملك ويبقى يعبد الله حتى يموت فقدم ابنه الناصر وأوصى وصاياه وغاب واخبر الناس بموته والله أعلم بحقيقة أمره .

(90) بياض بالأصول . . . . . في : ت . و . م . و ط .
(91) بياض بالأصول . . . . في : ت . و . م . و . ط .
(92) بياض في : ت و ط .
(93) في : ت . يروها . وتوجهوا . وكذلك في : ط .
(94) في : ت . أبلغوها . وكذلك . في : ط .
(95) في : ت . وعرفوها . وكذلك . في . ط .
(96) في : ت . عرفوه . وكذلك في : ط .
(97) في : ت . ذلك . وكذلك في : ط .

وأما ما ذكر عنه من قتل اخيه وعمه فقد تضطر الملوك الى هذا : المأمون عبد الله العباسي قتل اخاه محمد الامين ـ المعتز قتل اخاه ـ عبد الله بن محمد الاموي قتل اخويه ـ ابن طولون صاحب مصر قتل اخاه ـ ابن حمدان قتل اخاه ـ ابراهيم بن زيادة الله قتل جميع اخوته ـ صاحب خراسان نصر بن احمد قتل اخاه ـ ابراهيم بن حجاج صاحب اشبيلية قتل اخاه محمداً[98] ـ عباد بن محمد قتل اخاه عبد الله ثم قتل ابنه اسماعيل الملقب بالمنصور وكان خليفته المرشح لمكانه ـ سليمان بن عبد الملك قتل ابنه سرا ـ عبد الله بن محمد الأموي بالاندلس قتل ابنيه المطرف ومحمداً ـ عبد الرحمن الناصر الاموي قتل ابنه عبد الله بسعاية الحكم ولده الآخر ذبحه يوم عيد الاضحى ـ المنصور بن ابي عامر قتل ولده عبد الله ـ ابو جعفر المنصور قتل عمه عبد الله بن علي ـ المعتضد العباسي غرق عمه ابا عيسى ـ المعتضد المذكور قتل عمه الآخر المعتمد فقيل سمه وقيل بل فتح فاه عند رقاده فأفرغ في حلقه رصاصا مذابا ـ عبد الله بن الموفق قتل ابن عمه المكتفي ـ الحكم الربضي قتل عمه سليمان ـ عبد الرحمن الناصر قتل عمه العاصي ـ يحيى بن علي بن حمود قتل ابن اخيه ادريس ـ زيادة الله بن الأغلب قتل جميع اعمامه ـ المنصور بن ابي عامر قتل ابن عمه[99] عسكلاجة وقتل اخاه وقتل ابنه وغير هؤلاء . وسياسات الملوك لا تعرض للامتحان ولا تحتمل التمحيص . . .[100]

. . . الخبر لوفاة المنصور وما ذكر فيها قيل توفي، رحمه الله ـ ليلة الجمعة الثاني عشر لربيع الأول سنة خمس وتسعين وخمسمائة ودفن بمجلس[101] سكناه حضرة مراكش ثم نقل منها إلى تينمل بعد ترتيب القراء عليه يوماً كاملاً ، فتصدعت لفقده الجمادات ، وتفطرت لمصابه القلوب القاسيات ، وكذب الكافة[102] من العامة بوفاته وصارت تصرخ حيث سارت بحياته ، فآونة يجعلونه مرابطاً (ببلاد الأندلس)[103]

---

(98) في : ت . سقطت الكلمة .

(99) في : ط. و ت. و . م : عمه. وهو خلاف المعروف في التاريخ . لأن عسكلاجه ابن عم المنصور وليس عمه . انظر «الأعلام» للزركلي ج 5 ص 350 (ط . ثانية) .

(100) بياض في الأصول الخطية وفي . ط .

(101) في : ط و ت : بمجلس ، ولعله بمحل .

(102) سقطت كلمة الكافة من ت .

(103) ما بين هلالين ساقط من : ت .

على استكتام ، وتارة يثبتونه حاجاً إلى بيت الله الحرام ، تمسكاً بحبه[104] . . . لقدره ، واتباعاً لهوى النفس في التلذذ بذكره ، أخبرني الحاج ابن مرينه قال أخبرني بعض المشارقة في بلادهم أن قبر المنصور ملك المغرب في بلاد الشام ولا ريب ولا اختلاف أن المنصور رحمه الله ، كان رجلاً صالحاً عالماً فاضلاً وثبت عند قرابته وأهل بيته أن قبره بتينمل وقال بعضهم إنه هو الذي أخرجه المليانى من قبره وزعم أنه المهدي وذلك في سنة أربع وسبعين وستمائة وهذا ما بلغنا من وفاته . تمت أخباره .

(104) كذا في . ت . وهو الصواب . وفي : ط بحبلة . . . ! بعدها بياض في : ت و ط .

ذكر بيعة أبي عبد الله الناصر لدين الله وضخامة دولته ومهابة سطوته رحمه الله

نسبه : هو أبو عبد الله محمد بن يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن بويع بيعة العامة بعد أسبوع من وفاة أبيه وذلك في العشر الآخر من ربيع الأول سنة خمس وتسعين واستوسقت له الخلافة بهذه البيعة وقد كان بويع في خلافة أبيه كما تقدم ذكره فكانت خلافته خمس عشرة سنة وأربعة أشهر وثمانية عشر يوماً أولها يوم الجمعة الثالث والعشرين لربيع الأول من سنة خمس وتسعين المذكورة وآخرها يوم الثلاثاء العشر لشعبان المكرم سنة عشرة وستمائة . ولما استوسقت القبائل بالقدوم للمبايعة ، وبلغت واجبها من المبادرة والمسارعة ، وكمل الواردون والوفود بالوصول ، وقضى من تمشية السياسة وتهدين المملكة وتطبيب النفوس كل مأمول ، ووصلت البيعات من البلاد ، وخرجت البركات للموحدين والأجناد ، أنشدت الشعراء في التهنئة بتجديد البيعة ، فمن ذلك ما قاله أبو العباس الجراوي من قصيدة :

لهجت بذكرك ألسن المداح ... وسمت بذكرك رتبة الأمداح
ازرى نداك بكل بحر زاخر ... هبت عليه عواصف الأرواح
بمحمد وزر الورى وبما لهم[105] ... في كل يوم ندى ويوم كفاح
فرع سيحكي أصله ولقد حكي ... بمقاصد قد سددت وسلاح
تأبى الخلافة من سوى أكفائها ... والجد غير مقابل بمزاح
عشيت بنوركم البلاد فمن بها ... أغنى عن الاصباح والمصباح
سكنت ببيعته القلوب ولم تزل ... تهفو من الاشفاق دون جناح

(105) كذا في : ت و . ط : .

عم السـرور بهـا البسيـطة كلهـا كـالصبـح فـاض على ربى وبـطاح
لا زلت لـلأعيـاد تـمنـح بـهجـة يـعيـي سنـاهـا أعيـن الـلمـاح
مستـوفيـا مـددا إلى مـدد بـه مـدد طـوال لا تـعـد فـسـاح
متسـربلا بـالسعـد متشحـا بـه مستفتحـا بـالـواحـد الفتـاح

وقال أيضاً في هذه البيعة من قصيدة طويلة منها :

صنـع جميـل جـل عن أن يـوصفـا يـوجـد بـه كمـالا واكتـافـا[105]
هي بيعـة أحيـى الإلـه بهـا الـورى وحمى بهـا ديـن النبي المصـطفى
سبقـت قلوب الـخلق أيـديهم بـهـا ورجـا زمـانـهـم بـهـا أن يسعـفـا
كـل يـمـد يـد الـضـراعـة راغبـا في نيلهـا مستـرحمـا مستعـطفـا
جمعت صـلاح الـدين والـدنيا معـا وغـدا بهـا شمـل العـلا متـألفـا
مـا مـن تـقـي مـؤمـن إلا وقـد سـرت لـه نفسـا وهـزت معـطفـا
لبـى مـنـاديـهـا بـقـلب مـخـلص متبـركـا بـحضـورهـا متـشـرفـا
أنسـت مـآثـره مـآثـر يـعـرب وسمت بقيس فـي العـلاء وخنـدفـا
فـت المـدايـح فـالبليـغ مقصـر ولـو أنـه نـظم الـكـواكب أحـرفـا
لا زلـت بـالمـلأ الـعلي مؤيـدا ولصـرف دهـرك كيف شئت مصـرفـا

واستوزر أبا زيد بن يوجان وشرع في مصالح البلاد ، وما يجب من النظر الصالح لحماية العباد ، فقدم السيد أبا زيد الحسن بن السيد أبي حفص على بجاية وجهاتها وسائر أنظارها وأقطارها وأمده بالرجال وبسط يده على الأموال ، وقدم أخاه السيد أبا محمد بن المنصور على إشبيلية وأخر عنها السيد أبا زيد ابن الخليفة .

وفي سنة ست وتسعين في أولها توالت عليه الأنباء من إفريقية بإجحاف العدو بأطرافها وانبساط العرب على بسائطها ، والتئامها مع من بها من الأشقياء وتغلبهم على بعض معاقلها ، فتحرك إليه السيد أبو الحسن بن السيد أبي حفص من بجاية في عسكر مشتت الآراء عديم النصحاء ، قليل أهل الغناء ، ملفق من أعراب حثالة أطماع ، وكلاب جياع ، وبقايا مكر وخداع ، فنزل بظاهر قسنطينة وترك مضاربه مشتملة على حشيشها، خاوية على عروشها ، والعدو قد عرف من جهة العرب بواطن أحوالها ، وأرصد كمائنه عن يمين السيد وشماله ، وعندما تراءى الجمعان ، وتقارب

(105) مكرر : بيت مضطرب في الأصول الخطية وفي : ط .

الفريقان ، نكص أوباش العرب على أعقابهم وكروا كالمنهزمين إلى محلة السيد لأخذ المال والأثاث على زعمهم ، فأخفق مسعاهم ، وخانهم ظنهم الكذوب ورجاهم ، وخسروا دنياهم وأخراهم ، وعند انخزال العرب المذكورين عن السيد وما كان من خذلانهم وغدرهم وعدوانهم ، ثبت السيد مع أهل الحفيظة من جماعة الموحدين وابلوا بلاء أمثالهم الصابرين ، حتى تلاحقت كمائن الأعداء فصار السيد وأصحابه بين أنياب المنون وأخذتهم كمائنه بالشمال واليمين ، فلم يجد أكفاء لمدافعتهم ولا أعواناً لمصادرتهم ، فاستسلموا إلى الانحدار منهم على مدافعة ومنهم من بادر بالفرار وانجرت الهزيمة على الموحدين أميالاً وفقدوا فيها رجالاً وأموالاً ، وانسلخ السيد أبو الحسن مع غمار الهزيمة ووصل إلى حصن قسنطينة مع الليل عارياً من كل شيء ، واتصل بالناصر ما كان في هذه المعركة واستيلاء العدو على تلك الجهة فوقع النظر على تجديد والي إفريقية .

وفي هذه السنة أنفذ الناصر لدين الله السيد أبا زيد إلى تونس والياً عليها مع جماعة من الموحدين والأجناد ليتلافى بالإمساك أرماق أهلها، ويسد ما وقع من خللها ، ويداوي ما أمكن من عللها ، فخرج من مراكش وأغذ السير حتى وصلها على طريق الساحل ودخلها تحت غرر من انتشار العدو بجنباتها فلم يغن بها غناء، ولا رفع عن أهلها عناء، وأنس العدو بضعفه وقلة دفاعه ـ واتصل عمله بـ ماعه ، وتملك الغوى حصن المهدية واتصل بأحواز قسنطينة واستفحل ضرره وقوي شره ، واشتعل بتلك البلاد جمرة ، وتوالت هذه الأنباء على حضرة الناصر واتسعت بذلك الأراجيف وشنعت الزخاريف ،فتجرد للنظر [106] وأبرم العزم وقدم الحزم في إصراخ تلك الجهات وإمدادها بعسكر وافر الأعداد ، شامل الاستعداد ، فتقدم لتمهيد ما بها من التغلغل[107] والاضطراب ، والإشراف على ما بنظر بجاية من أوباش الأعراب، وأمر على هذا الجيش الوزير ابن يوجان فخرج معتمداً على حسن عقيدته ، ومستنداً لله تعالى وكريم عادته ، واستقر بتلمسان ، ثم تدرج إلى بجاية ثم إلى قسنطينة ثم عاد إلى تلمسان فوصله الأمر بالنظر في أعمالها وجميع أشغالها ثم وصله الأمر بالانتقال إلى فاس لعمالتها وأقام بها إلى أن مشى في خدمة الناصر إلى إفريقية .

---

(106) في : ط : النظر ـ وكذلك في : ت .

(107) في : ط . التغلغل . وفي : ت . التقلقل . ولعله أقرب .

وفي سنة سبع وتسعين وخمس مائة عزل الناصر لدين الله أخاه عن إشبيلية ثم بعد ذلك فهم عنه الرغبة في ولايتها فأسعفه في رغبته .

وفيها كان السيل الشنيع بوادي إشبيلية هلك فيه أمم لا يحصيهم إلا الله وذلك بجفن إشبيلية وبكل من كان بضفتي الوادي من قرطبة إلى جزيرة قادس. وقيل إن الذي ذهب من دور إشبيلية بهذا السيل ستة آلاف دار وذكر التجار الواصلون من غرب الاندلس أنهم عثروا بالرمال الكبار على سبعمائة شخص من الغرقى ، قال ذلك يوسف بن عمر في تاريخه ، وقال الراوي إن هذا السيل بإشبيلية تقدمته سيول كثيرة حتى قال الشاعر :

لله حمص أيما بلدة ... لو أننا نأمن ثعبانها
طاف بها والريح روح له ... فابتلع الأرض وسكانها

وفي سنة ثمان وتسعين وخمسمائة تحركت أنباء الثائر الجزولي المعروف بأبي قصبة واتصل ببلاد السوس وشاع أمره وسرى شره وتأجج جمره فتحرك الناصر لدين الله إلى رجراجة ونظر في أمره وانفذ عسكراً برسمه فأخذه الله بسوء مكره فهزم عسكره وحز رأسه وسيق إلى الحضرة ، وكان أبو قصبة هذا لما وصلته العساكر إلى السوس وأخذته بالشمال واليمين وقف وقوفاً لم يذكر عن شبيب بن يزيد ولا غيره من المتقدمين حتى طحنته بطشة الموحدين فقتلوا عن آخرهم ورفع رأس أبي قصبة في عصا . والتحق بهذا الفتح في أسبوع واحد بموافقة الأحكام فتح ميورقة .

ذكر فتح ميورقة ثانية وأخذها من يد ابن غانية وذكر من وليها من لمتونة ومسوفة

كان دخول النصارى ميورقة على ناصر الدولة مبشر الصقلبي مولى ابن مجاهد في سنة ثمان وخمسمائة ثم استفتحها المرابطون ودخلها وانودين بن سير من قبل أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين فبقي بها ثلاثة أشهر ، ثم وليها من بعده أبو بكر بن تكرطات ، ثم وليها من بعده يابور بن محمد فقامت عليه الرعية وقتلوه . ثم وليها أبو بكر بن علي بن ورقا فمات بها ، ثم وليها محمد بن غانية المسوفي حتى مات مقتولاً ، ثم وليها ابنه إسحاق فأقام بها ثلاثين سنة أولها سنة خمسين وآخرها سنة ثمانين وخمسمائة ، ثم وليها علي بن إسحاق بن محمد بن غانية وخرج عنها ، ثم وليها عبد الله أخوه إلى أن مات في هذه السنة وهي سنة تسع وتسعين وخمسمائة .

رجع الخبر : كان هذا الثائر بإفريقية عبد الله بن إسحاق بن محمد ابن غانية المسوفي قد اغتر بما اتفق له في أوقات وحركات من موافقة أقدار وأغاليط الزمان من مشيه إلى صقلية ودخوله منها إلى ميورقة بعد خروج أبي عبد الله بن إسحاق والقائد أبي الحسن بن الربرتير عنها وافتراصه الجزائر ودخوله إياها ونيله كل المستنال منها وفله للشيخ أبي زكرياء بساحل ميورقة فأنس بما كان من هذه الأحوال المقدرة والاتفاقات المتصورة . ولما تمكن فصل الشتاء وارتج البحر ومنع ركوبه ، وتعذر على كل متصرف فيه مطلوبه ، تحرك ابن غانية المذكور في اسطوله إلى جزيرة يابسة ليكيدها بفرصه ، ويجريها على ما تقدم له من تلصصه ، فلم يصرف أهلها بالاً لما أمل لديهم ، ولا أرعوا سمعاً بندائه إليهم ، وظفر ابن ميمون له بطريدتين فأضرمهما ناراً ورجع ابن غانية خائب الوجهة ، ثم جدد حالاً ولج ضلالاً ، ونازل منورقة والأنواء قد صدقت بأمطارها ، ومنعت عن التصرف حتى الطير في أوكارها ، وحاصرها اللعين حتى لجأ أهلها إلى أكلِ الميتة وضعفوا عن كل مدافعة وحمية وسلموا له البلد وتملكه وثقفه وترك فيه رجلاً منهم يعرف بابن نجاح ، ولما خفت الأنواء وحسن الهواء أسرى إليه السيد أبو العلى واسطول سبتة وصبحهم فساء صباحهم وبطش بهم الأسطول قبل التئام أحوالهم وترتيب قتالهم فدخل البلد عنوة وقبض على ابن نجاح وصير مع أصحابه إلى الحضرة فهلك بها ، وأكثرت الشعراء في هذا الفتح فقال الجراوي من قصيدة طويلة أولها :

لك النصر حزب والمقادير أعوان ... فحسب أعاديك انقياد وإذعان
فبعداً وسحقاً لابن إسحاق إنه ... مطيع لأحلام الكرى وهو يقظان
سواء لديه من غباوة طبعه ... هلاك ومنجاة وربح وخسران
فمن حيث رام العز جاءته ذلة ... ومن حيث رام الحظ لاقاه حرمان
وهل هو إلا من أناس تهافتوا ... فراشا على أسنانكم وهي نيران
عصوا دعوة المهدي وهي سفينة ... فأغرقهم طغيانهم وهو طوفان
لقد ألبس الله الخلافة بهجة ... بملك به يزهى الوجود ويزدان
سعودك من يرتاب فيها وللورى ... عليها دليل كل يوم وبرهان

وقال أيضاً يهنئه بفتح ميورقة المذكورة :

شاء الالاه حماية الإسلام ... فأعز نصرته بخير أمام

بسمي خير الخلق والنور الذي ... كفلت بدايته إلى الإتمام
جمعت ببيعته القلوب على الرضى ... واستبشرت بمنال كل مرام
وسرى السرور بها وصار مواصلاً ... للجد في الانجاد والإتهام
واعتز دين محمد بمؤيد ... ماضي العزائم للشريعة حام
لولا انتظام أمورنا بوجوده ... لغدت مبددة بغير نظام
أضحت خلافته السعيدة للورى ... وزرا من الأعداء والأعلام
ذخر الزمان من الفتوح غرائباً ... لزمانه المتهلل البسام
لا مثل فتح ميورقة فهو الذي ... أبقى السرور لمنجد وتهام
مطلت به الأيام حتى استنجزت ... بسنان خطيٍّ وحد حسام
وبعزمة منصورة وعصابة ... مشهورة التصميم والاقدام
جمح ابن غانية فكف جماحه ... يوم أدار عليه كأس حمام
ناهيك من يوم أغر محجل ... متميز عن سائر الأيام
وعظت بمصرعه الحوادث عنوة ... ناهيك من وعظ بغير كلام
فليهنيء الدنيا وجود خليفة ... جزل المواهب سابغ الانعام
تغنيه عن قود الجيوش سعادة ... تقتاد ما شاءت بغير زمام
نيطت أمور الخلق منه بحازم ... متكفل بالنقض والابرام
سام إلى الرتب التي لا فوقها ... نجل الأكابر من سلالة سام
ورث الخلافة عن خلائف كلهم ... علم الهدى الهادي إلى العلام
لبست به الدنيا جمالاً كنهه ... أعيى على الأفكار والأوهام
فكأنها دار السلام نعيمها ... متأبد ودخولها بسلام
يا عصمة الدنيا نداء مؤمل ... صبحاً يروحه من الأيام
فارقت ما قد كنت فيه كأنه ... طيف رأته العين في الأحلام
فعسى أرى وجه الرضى فلطال ما ... أملت رؤيته مع الأعوام
بالطبع حاجتنا إليك وهل غنى ... يلفى عن الأرواح للأجسام
لا زال سعدك مسعدا متصرفا ... فيما تريد تصرف الخدام

وقال أيضاً يمدحه ويذكر فتح منورقة في التاريخ المذكور :

أطاعك صرف الدهر في مهج العدا ... وأصدر عما شئت فيهم وأوردا
بعثت أمام الجيش جيش مهابة ... أقامهمُ في كل أرض واقعدا

سعودك نبل لو قصدت بها السهى لكان على بعد المسافة مقصدا
تركت بقايا السيف خلف حصاره رمادا تهادته العواصف رمددا
جرى بهم الامهال شأوا مغربا واعمتهمُ عن رشدهم فسحة المدى
هو الفتح أعيى من أطال مرجزا وفات مداه من أطال مقصدا
قضى الله أن يحظى به أسعد الورى فكان أمير المؤمنين محمدا

وفي هذه السنة وهي سنة تسع وتسعين وصلت الأنباء بالفتنة المشتعلة بأكثر جهات إفريقية وكثر عن العرب إشاعة المكروه والمجاهرة من السيئات ، فأنف الناصر من سماعها وإشاعتها فخرج من مراكش في الرابع من جمادى الآخرة من هذه السنة وتمادى مشيه إلى مدينة فاس فأقام بها ثلاثة أشهر يعقد مصالح البلاد،وما يجب من حماية العباد ،وتأمين الطرقات وحسم علل المفسدين بها من الأشتات وفي أثناء ذلك تجدد ما تقدم من ظهور استطالة العرب على الأطراف ، وجورهم على ما والاهم من النواحي والأكناف ، فجهز إليهم عسكراً من الموحدين وشوكة من أنجاد المجاهدين ، وقصدوا إلى موضع اجتماعهم وقرارة سلطانهم ، فتقدمت لهم الرماة، ودفع عليهم الحماة ، فكانت على هلاكهم أنجد معين واجد نصير فأغزوا جميعاً بموضع قرارهم ،وجرى السيف على آثارهم .

وفي سنة ستمائة استقر الناصر بحضرته وأراح من حركته فنظر في تفقد بلاده والإشراف على جزئيات مملكته فنفذت أوامره السلطانية إلى سائر الأقطار الأندلسية بالحفز الأكيد على عمالها بالنظر في الآلات الحربية . قال يوسف الكاتب ففي شهر المحرم وصل الأمر إلى إشبيلية بضرب الآلات وشراء الدروع المحكمة ،وفي ربيع الأول ولي إشبيلية السيد أبو إسحاق ابن أمير المؤمنين أبي يعقوب وأخر عنها أبو عبد الله بن أبي يحيى وقدم على بسطة وولي أيضاً السيد أبو محمد عبد الواحد ابن أبي يعقوب مدينة شلب وبلاد غرب الأندلس . وفيها ولي أبو عبد الله بن عبد السلام الكومي قيادة أسطول سبتة وأمر له بما كان يأخذه أبو محمد بن طاع الله ، وولي أبو يحيى بن أبي سنان مدينة بطليق وجهاتها ،وأمر بالحفز في حياطتها ورفع ملماتها، ووصل إبراهيم بن الفخار وزير أذفونش ملك قشتالة الخاص برسالته في ربوط المهادنة والمصالحة .

وفي هذه السنة كانت سطوة الناصر بعرب المغرب واستأصلهم وقتلهم وغرب بعض أشياخهم إلى الأندلس ، وفيها أمر بابتداء بناء الرصيف بمدينة مراكش وفيها كان الهرج

ببلاد افريقية وما والاها من بلاد الجريد وتملك ابن غانية لحصونهاوانظارها وتغلبه على اقطارها ومحاصرته مدينة تونس ودخوله اياها عنوة على ما سيأتي .

وفي سنة احدى وستمائة تحرك الناصر الى بلاد افريقية على هيئة شامخة من البهاء والظهور

كان خروجه من مراكش على الهيئة المذكورة في العشر الوسط من جمادى الآخرة ، فعند وصوله الى رباط الفتح اتصل به ما كان باشبيلية من فتور الاحكام وتبسط حواشي السيد أبي إسحاق بالمظالم واغضائه لهم وتغافله عنهم ومشى ذلك على ألسنة الخواص والعوام فنفذ الامر بتأخير السيد المذكور عن اشبيلية وتقديم السيد ابي موسى ابن الخليفة ، ورحل الناصر من رباط الفتح وتمادى المشي والبشائر تتوالى وتطرد ، وانباء العدو تستحيل وتبعد . ولما اشرف الناصر على بلاد افريقية تخاذلت حشود ابن غانية فشمر اذياله عن امهات الاقطار ، ورأى ان لا معقل له سوى الفرار ، فأخلى الاشقياء مدينة تونس لاول وهلة دون قتال ولا محاربة ولا نزال ودخلها ابو اسحاق صاحب الاسطول اذ كان تقدم اليها فأكب في الحين عليها فأنس اهلها وسكن نافرها وثقف ما يجب تثقيفه فيها وعرف الناصر بدخوله وهروب الاشقياء منها فوجه الناصر لاشغالها وضم اعمالها داود بن ابي داود مع جماعة من الموحدين .

ولما وصل الموحدون المذكورون تونس خرج ابو يحيى بالاسطول ولحق بالمهدية نفذ له الأمر بذلك واقتفى الناصر اثر الاشقياء ، وازعجهم الى اطراف الصحراء . ولما أيقنوا بالتصميم اليهم ، وألا معرج الا عليهم ، انزعج ابن غانية بجملته ومن معه من اتباعه وشرذمته وحصن حصن المهدية وشدها بانجاد رجاله وشحنها بالعدد الحربية وترك بها اثقاله ورحل الى نواحي بلاد الجريد متمسكاً بطمعه مغتراً بخياله والناصر لدين الله جامع(108) بين استفتاح البلاد واقتفاء اثره ومستقر(109) لاخباره بقية سنة احدى وستمائة .

---

(108) في : ط . وت . جامعاً . ولعل الصواب ما أثبتناه .

(109) في : ط . و . ت . مستقرياً . ولعل الصواب ما أثبتناه .

وفي سنة اثنين وستمائة في شهر محرم نزل الناصر بجهة سفاقس وهو على صريمته في استرجاع البلاد ، وتسديد ما اورثها الاعداء من الجلاء والفساد ، وتمادى التتبع لتلك الاقطار ، وتأنيس المستوحش من اهلها من جور الفجار، وانزعاج ابن غانية بجملته عن ذلك الاقليم ، وطهر ارضها من اثره الذميم ، وقد كان القائد ابو يحيى نازل المهدية بمجموعه وانتشروا ببسائطها والاشقياء قد نزلوا بساحتهم يعملون الحيلة في افتراسهم[109] الى ان خرجوا عليهم خروج الحيات من أجحارهم فأوقعوا بهم في تلك البسائط فاستشهد من الغزاة جماعة ولاذ أكثرهم بالبحر واكتسح الاشقياء ما وجدوا من اسلحتهم وعدتهم ورفعوا رؤ وسهم في شرفات الحصن واتصل هذا النبأ بأمير المؤ منين الناصر فتحرك الى المهدية .

ذكر منازلة الناصر مدينة المهدية

ولما قضى الناصر من وجهته غرضه ومذهبه خفف ركابه الى المهدية ومنازلتها والتصميم على فتحها وحسم علتها ، فنزلت المحلات عليها من جهاتها واستوفت بالوصول امداد تلك الجهات واخذ الناس بحظوظهم من اكنافها على ضيقها وربطوا مضاربهم في تلك المسافات ، وشرع الناصر في اقامة العدد والآلات على جهة الجد والاجتهاد فقامت في ايسر مدة على اوفر عدة ورتب لها من الخدمة من يقوم بخدمتها ويستقل بحراستها والاشقياء قد تطمعوا طيب الفرصة ولذيذ الخدعة والموحدون بتكاثر اعدادهم توقفوا عن مدافعتهم وجلادهم ، واستوطنوا السكون والقرار، وأبعدوا ان يجترىء عليهم مارد في ذلك المضمار ، وربما انبعثت الاشقياء اثناء ذلك الى المجانيق والآلات انبعاث الطير من الاوكار فأضرموها ناراً فكان ذلك اغراء بالتشديد في محاربتهم وحمياً للنفوس على قتالهم ومجالدتهم ، فاشتد عزم الناصر لدين الله على جبر الآلات واقامة اضعافها فجبرت المجانيق والاكبش والسلاليم على اضعاف ما كانت وتضاعف العذاب بتضعيفها على المهدية واقيمت خلالها ابراج سامية المراقب ، مشرفة على ظاهر الحصن وباطنه اشراف النجوم الثواقب ، منذرة بروعتها لما صادمته بحلول المصائب، وتكاملت اعداد الحشود، واستنفر من بالجهات من اهل الطاعة والجنود ، وعمرت الآلات بانجاد الرجال،

(109) مكرر : لعله : افتراصهم .

وطال المقام ، وقوي الالتزام ، وصـ . . .[110] والاشقياء قد قست قلوبهم عن الانقياذ ، وصمت آذانهم عن . . . .[111] وفي اثناء هذه المحاصرة وامتداد هذه المدارعة تحرك للاشقياء . . .[112] تهم المؤدية الى مصارع آجالهم ، وارادوا تقوية نفوس المحصورين . . .[113] لهم فالتفوا وتوافقوا مع اخلاط من سليم والمرتدين من رياح . . . ومن المـ . . .[114] واتباعهم - ووافقهم غويهم على الارتحال بقضهم وقضيضهم ، وخفهم . . .[115] وكراعهم الى موضع يكون قتالهم وحربهم بين حريمهم ليكون دفاعهم احمى عن الحريم ولا يولون . . . عنهم وجروا في ذلك على سنن الجاهلية الجهلاء ، وعلى ما كانت عليه حرب داحس والغبراء ، اسباباً احكمها الباري تعالى لارزاق الموحدين ، ونصراً ادخره لامير المؤمنين ، ووصل الخائبون احواز قابس على هذا الالتزام ووصلت هذه الانباء للناصر لدين الله فأمر بتجهيز عسكر كثيف يقتطع سواد المحلات يكون مقتفياً لآثارها ، واهل الغناء والاقدام من حماتها وانصارها .

ذكر ابتداء ظهور ابي محمد عبد الواحد بن أبي حفص الهنتاتي

لما امر الناصر بتجهيز هذا العسكر قدم عليه اميراً الشيخ ابا محمد عبد الواحد ابن الشيخ ابي حفص لمكان غنائه وصحة دينه وحسن يقينه وتهيب الموحدين قدره ومسارعتهم الى بره ، فخرج من ظاهر المهدية على هيئة رائقة من الاقتدار ، وجد حاكم بمساعدة الاقدار ، والعدو بأقطار قابس قد تكاملت اعداده ، واستوفت حشوده وامداده وجاءوا بخفهم واثقالهم ، والنفيس من أثاثهم واموالهم ، وعقلوا الابل بأوقارها واوقفوا الظعائن بكراعهم بازائها ، وجعلوها كالتماثيل يقاتلون دونها وكالحصون يلجؤ ون اليها .

ولما رأى الموحدون ما مثلوه من الاشكال ، وراعوه من الاحتفال ، وان ذلك

---

(110) بياض في : ت . و : م . وط .

(111) بياض في الجميع .

(112) بياض ثالث في الجميع .

(113) بياض رابع في الجميع .

(114) بياض خامس في الجميع .

(115) بياض سادس في الجميع .

من خدع حروب القتال ، المطمعة لعقول الرجال ، سار الموحدون اليهم على تعبئة وصدقوا عليهم الدفاع ، وكشفت الحرب عن ساقها القناع ، ودارت زبوناً عمياء بين الفريقين فأجلت عن انسلاخ الاعداء عن محلتهم واهليهم واموالهم وسائر حمولتهم وامتعتهم واثقالهم ، وركب السيف ادبارهم الى الاصيل ، وغادرهم ولائم للطير بكل سبيل . واستولى الموحدون على تلك الاموال الفاخرة والاحوال الضخمة الواسعة وامتلأت ايدي الجماعة من سواد المحلة من الغطاء والوطاء وما غصبوه وسلبوه من احواز اطرابلس الى انظار بجاية منذ عشرين سنة .

وقفل الشيخ ابو محمد عبد الواحد بسبيه ونفله وخيله وكثير المغنم وقلة ، منصور الاعلام ، مظفراً في كل قصد ومرام ، وبين يديه راية سوداء من زي المسودة مرفوعة للابصار ، ورتب ذلك كله على صفوف ، وتأهب للتبريز . . .[116] بهم على المهدية على مرأى من حصرائها واصطكت الطبول وبلغ . . . والسول ، فأكثرت الشعراء في هذه الوقيعة فقال ابو عمرو وزير بن ابي خالد اللخمي من قصيدة له اولها :

. . . عرى الملك والدين ... اصاخت لها من بعدها اذن الصين
. . . . سلامها كمالها ... ترائب منّ منكم غير ممنون
فكيف بمصر والعراق وعندها ... حديث من استيلائكم غير مظنون
وما هو الا ان تعين موقف ... يقدم ما أخرتموه الى حين
وتطوى بأيديكم بلاد عريضة ... غدت نشرا ما بين غاو ومفتون

ومنها :

وأنستم بالعدل وحشة تونس ... وأمنتم من خوفها اي تأمين
والبستم ارض الجريد ملابسا ... بها جردت ثوب المذلة والهون
واقبستم نار الهدى خلف قابس ... وغبتم فسلهم حورياتها العين(؟)
وابرق منكم عارض نحو برقة ... اذا صاب لم يخصص مكاناً بتعيين
ويا طيب ما اهدته مهدية المنى ... لكم من سلام دونه مسك دارين
فدام له فخر بحسن صفاته ... على كل منصور سواكم ومأمون

---

(116) بياض بالأصول .

وكمل التبريز بالغنائم ، وفرغ من تضييف المقيم والقادم ، ومن بداخل المهدية يتجلدون على استيصال البلاء ، ويبدون التهاون بالهلاك منهم والماضي وقد يئسوا من طول البقاء ، ويسرحون الكذب في كل ما يسمعون في حق طاغيتهم من الانباء ، لا يملون حرباً ولا قتالاً ، ولا يزدادون مع الشدة والتضييق عليهم الا صبراً واحتمالاً ، والموحدون قد هجروا لذاتهم ، وامتنعوا من سناتهم ، ورأوا ان ابتذال نفوسهم وطيب مماتهم في ذات الله زيادة في حياتهم ، ورأوا الا محالة لهم ولا راحة عن هذا الحصار والالتزام ، وان رحيلهم عن الحصن من غير استفتاحه واخذه محال وحرام ، وامر الناصر لدين الله بجميع الآلات الحربية من المجانيق وغيرها على جانب واحد من السور ، وامال الحفز والعسل على الجانب المذكور ، ولما تحققوا هزيمة انصارهم ، ورأوا تهدم اسوارهم ، وانهم صائرون الى قبضة الهلاك والحيف ، او راجعون الى النزول على حكم السيف ، نادوا بشعار الامان ، ورغبوا في الابقاء عليهم والامتنان ، فأسعفت رغبتهم ونزل الحاج ومن كان معه من ذويه واشياعه وبنيه على ما اشترط من الاقتراح ، وان يترك سبيله الى السراح ، وذلك يوم السبت التاسع والعشرين من جمادى الاولى من السنة ودخل الموحدون المهدية وكمل ما كان من فتح هذا القطر الشريف ، والمعقل السامي المنيف ، فتح جميع افريقية وما اتصل بها وانضاف اليها من بلاد الجريد وغيرها وتمهد استيطان من كان بها عن التقلع والتشريد ، وانحل عنهم ما كانوا فيه من الضنك الشديد ، واكثرت الشعراء في هذا الفتح فقال ابو عمرو وزير بن خالد من قصيدة طويلة :

هذا امير المؤمنين محمد ... غيث العباد وعصمة المستسلم
قد قادها كالليل دهم كتائب ... في قادة من قومه كالانجم
زانوا سماء المعلوات وزانهم ... بكمال بدر في السماء متمم
يبدي بها البر العريض تدافعا ... كالبحر في امواجه اذ يرتمي
وتخالها روضا بدت اعلامها ... زهرا تفتح مشرقا في مظلم
بشراك سيدنا بملك الارض لا ... يبقى بها داع لملك مجسم
قد قابلتك اكفها بضراعة ... واستقبلتك وجوهها بتبسم
وتغلغلت بلقائكم آمالها ... وغدا صريح الفتح غير مجمجم
هذي مباديه الكريمة قدمت ... حييتم منها باكرم اكرم
وبكم بهاء الدين والدنيا معا ... داما لكم في غبطة وتنعم

وأقام الناصر على حصن المهدي ريثما رتب احواله وربط أشغاله ورحل في الموفي من جمادى الثانية من السنة فاستقر بمدينة تونس غرة رجب الفرد من العام المؤرخ .

اختصار الخبر عن استقرار الناصر بمدينة تونس بعد هذه الاوبة الى حين قفوله منها وانفصاله

لما وصل الناصر الى تونس واستقر بها امر بتضييف المسافرين فهنوه على أوبته القاطنون وصرف الحشود الى مواضعها واماكن مصيفها ومربعها ليستريحوا من نصبهم وتعبهم وتودع الناصر اذ ذاك تودع من استأصل الاعداء واستنفر الاولياء واسترجع البلاد وأمن السبل وحقن الدماء فكان استقراره واقامته بها بقية سنة اثنين وستمائة واكثر سنة ثلاث وستمائة .

وفي سنة ثلاث وستمائة شرع الناصر في تفقد البلاد ، واسهم الداني والقاصي منها من النظر الموفق ما تستقيم به احوالها من الصلاح والسداد ، ثم صرف نظره الى افريقية وقصد ازعاج الاشقياء من اطرافها ، وتهدين ما بقي من تقلقلها وخلافها ، وامر بتجهيز عسكر كثيف قدم عليه السيد ابا إسحاق بن المنصور فخرج من تونس في شهر صفر من العام وصاروا يضربون في ارض تلك الاقاليم غرباً وشرقاً، ويتقصون آثار المفسدين بها قطراً قطراً وأفقاً أفقاً، حتى دوخوا ما وراء اطرابلس واستأصلوا بني دمر ومطماطة وما والاها ووقفوا على آخر جبال نفوسة وجاوزوا حد عمرانها المحدود ، وشارفوا ارض سويقة بني مكود ، يقدمهم النصر والتأييد الى كل سبيل ، ويسبقهم النجح والتيسير الى كل معرس ومقيل يتفيأون مطارح الظلال تحت تنعم بالغدو والآصال، لم يعرض لهم منازع ولا اجترأ عليهم عدو وانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء ، وبعد اياب هذا البعث واستقراره ، وقضاء المرغوب من اوطاره ، اضمر الناصر الحركة الى المغرب في نفسه ، ولم يخل النظر لها في الباطن من فكره وحسه ، وامر باشاعة الاستقرار بتونس والنظر في اتخاذ المحارث والاتساع في المزارع واشغل باله بالنظر فيمن يولي افريقية .

ذكر ولاية أبي محمد عبد الواحد بن أبي حفص أفريقية

لما فرغ الناصر من جميع الأشغال نظر فيمن يولي على جميع أفريقية ويقوم

بأعبائها ويقاوم بنجدته ومهابته الطاري عليها فنثر كنانته وعجم أعوادها واجال بصيرته في سائر قبائل الموحدين وعرض عليها واحداً بعد واحد انجادها وخيارها وأجوادها فأجمع فكره وأوقف نظره الموفق وذكره على شيخ الموحدين وأكبر نجباء جماعتهم اجمعين أبا محمد عبد الواحد بن الشيخ أبي حفص عمر الهنتاتي فأصفق على هذا النظر السديد العقلاء والألباب وأعان عليه الصلحاء فبسطت يده على ما شاء وأبيح له في الجيش الانتقاء وشد ظهره بتسريب الأموال والخيل والرجال فاستقر على حالة فخمة مقضيّ لها بالاستيلاء والظهور ، والظفر الدائم مع توالي الدهور.

ذكر حركة الناصر من تونس حرسها الله الى بلاد المغرب

وتحرك الناصر لدين الله قافلاً الى بلاد المغرب بعد قضاء هذه الأوطار وتخليد ما لها من كريم الآثار في السابع من شوال العام ونزل بمقربة من باجة في التاسع منه وتمادى المشي الى تلمسان فاستقر بها في ذي الحجة فنفذ الأمر منها الى عامل قرطبة وعامل اغرناطة وعامل بسطة وعامل اشبيلية والمرية ومرسية بالنظر في الأشغال واحضار الرجال والتنبيه على التأهب والنظر في الأعمال وروح الناصر ريثما قضى السنة في أيام النحر من شهر ذي الحجة ثم رحل عن تلمسان .

وفي سنة أربع وستمائة ففي صدر المحرم منها نزل بظاهر مدينة فاس وفيها تجدد النظر في اشغال العمال ووقع البحث عما الى نظرهم من الأعمال وازدحمت على باب الخليفة قبائل من أقطار المدينة وأخلاط من الناس مشتكين بعامل فاس وكان أبو الحسن ابن أبي بكر وبعامل مكناسة أبي الربيع ابن أبي عمران فنكبا جميعاً واستصفي ما وجد لهما من أحوال وأثاث وأموال وبقي كل منهما محبوساً في بلد عمله وتجدد الخطاب الى عمال الأندلس المذكورين قبل هذا بنص ما أمروا به أولاً .

ورحل الناصر من مدينة فاس ونزل مكناسة في صفر فوعك وعكا اقتضى الاقامة بمكناسة بقية صفر وفشا خبر هذا الوعك ببلاد الأندلس فتوجعت قلوب المخلصين لمرض أمير المؤمنين الى أن طلع البشير بما من الله تعالى به من استقلاله وحل برباط الفتح في ربيع الأول ثم رحل منه فلم يتلوم في منزل ولا آوى الى معقل والعافية في كل يوم ترد عليه حتى دخل مراكش وافر الصحة شديد القوة فقال أبو العباس الجراوي يمدحه ويهنئه :

اطلع الدهر منك بدراً منيرا ... ملأ السبعة الأقاليم نورا
وأتانا الزمان منك كمالا ... لم تشاهد له العصور نظيرا
أول أنت في التقدم والسبق وان كنت في الزمان أخيرا
ملأ الله كل قلب وعين ... نظرة من كمالكم وسرورا

ومنها :

أين منك الملوك عزماً وحزما ... وندىً فائضاً وخيراً وخيرا
كنت في الغيب للخلافة أهلاً ... وخليقاً بنيلها وجديرا
شاء اسعادنا الالاه تعالى ... يوم تفويضه اليك الأمورا
انما أنت رحمة الله عمت ... ساكني الأرض منجدا ومغيرا
أوجد الله منك للدين عزا ... ومعينا وناصراً وظهيرا

ومنها :

يا إمام الهدى ملأت جمالا ... وجلالا عيوننا والصدورا
كل نور للشمس والبدر يبدو ... أنت أصل له ومنك استعيرا
دمت للدين عصمة وملاذا ... ولأعدائه مبيداً مبيرا

وقال أبو عبد الله ابن يخلفتن الفازازي :

شمس الضحى من سنا مرآه يقتبس ... فأي قصد عليك اليوم يلتبس

وقال الجراوي من قصيدة طويلة أولها :

أضاء لنا بغرتك الزمان ... والبسنا تغلبك الأمان
وجاءتنا المنى متواليات ... على نسق كما انتظم الجمان

وقال أيضاً من قصيدة طويلة أولها :

شد الالاه بكم للدين أركانا ... واذعنت لكم الأيام اذعانا
وارتاض كل جموح في عنانكم ... من بعد ما اعجز الرواض ازمانا

وقال مرتجلا أيضاً في مجلسه :

كانت من الشمس الصعاب فراضها ... عزم فرض الراسيات وذللا
لبست حداداً من دخان حريقها ... لما تخرم جمعها واستؤصلا

ولما قضى الناصر لدين الله من الاستراحة من نصب الأسفار ما قضاه، وأمضى أثناء ذلك من الأوامر والأحكام ما أمضاه ، شرع في الاشراف على الوجوه السلطانية والاشغال العملية فقدم أبا محمد عبد العزيز بن عمر بن أبي يزد على اشراف البرين وضم الأعمال وتفقد الأشغال ونظر في وصول العمال الى الحضرة بأعمالهم وكتابهم المقيدين لاشغالهم فبادر من عين الوصول لما أمر به ووصلوا مستعدين على ما جد به فشرع في تصفح بعضها تصفحاً لم يقصد فيه الى تحقيق ، ولا سلك فيه نهج الطريق ، ووصل في جملة من وصل من مشتغلين الأندلس يوسف بن عمر الكاتب المؤرخ لدولة المنصور رحمه الله وكان باشبيلية ينظر في بعض الأشغال المخزنية والسهام السلطانية فأول ما صرف بأبي الحسن بن واجاج عن ولاية اشبيلية الى ولاية مرسية وأمر لمحمد بن عبد الله بالهبوط إلى إشبيلية رجاء أن يكون أشد من أبي الحسن شكيمة في امتحان يوسف بن عمر الكاتب وأشد نكاية في جانبه وكان أول من قلد النظر في أعماله لم يزل متعطشاً للايقاع به وحاشداً للأسباب التي يعلم أنها تقدح عند الخليفة في جانبه فجعل يرتاد الأنباء ممن يصل الى الحضرة من باغ يبغي شيئاً عليه من سفلة الأسواق أو خونة العمال الفارين بالحقوق المرتبة عليهم أو المؤدبين على ما اقترفوه وجنوه تؤخذ منهم الأرقام ، وتقبل منهم الأقوال التي تجري مجرى الأحلام وتشنع وتقام مقام اليقين ومشى ذلك كله فوصل وذكر ، ومما قال فيه من يغري به :

يـا رابـع الـخـلـفـاء أنـت الأول	والـكـل منكم فـي الفـضيـلة أكمـل
أمـن السـويـة أن عـدلـك مـشـرق	والـظلم عـنـدي مـنـه لـيـل ألـيـل
ويـد ابـن عمـرو أصبحـت لـعلـيـة	تـرمـي وبيـت المـال بئس الـمعـتـل
ولـه أمـور لـيس يـمكـن شـرحـهـا	أنت الحسـام لهـا وهـذا المفـصـل

قال يوسف بن عمر المذكور عن نفسه : لما وصلت الى موضع تقطين لقيني أحد ثقات الأمير بجملة من خيل ورجل واحيط بي وبكل من كان معي من كل الجهات ونيل جميع ما وصل من الأحمال للسلطان وقيد ما كان لي رجاء أن يكون فيها شيء ينكر علي من أسباب تدل على مصانعة أو مال أو غير ذلك مما يخالف ما هو بسبيلي وأخذ ما وجد لي وثقف ما كان بيدي وما ركب عليه عيالي من أوعية وكتب وضروب وغير ذلك ووصلت مترقباً بذلك كله الى دار الاشراف وبقيت محبوساً بها ولما كان ثالث وصولي أحضر الشهود وفتحت الشدود وكتبت الشهود ذلك كله

مفسراً وعرض على المقام الإمامي فنظر بنور الله وما جبل عليه من العدل والامتنان وطبيعة الفضل والاحسان فأمر بصرف ذلك كله علي واسلامه الي : وذلك بسبب تأليفه الذي ألف في محاسن والده المنصور .

وفي سنة خمس وستمائة وصلت كتب السيد أبي الحسن والي تلمسان بثقل مرضه وتوالي اعتلاله وخوف ضياع ما لديه من الأشغال واضطراب قبائل زناتة واختلافهم وقطعهم السبل وقطع الرفاق ، عن الضرب في الأفاق ، فأعفي عن ولاية البلد وأذن له في الوصول وعومل بالبر الموصول .

ذكر ولاية السيد أبي عمران مدينة تلمسان وحركته منها لحرب ابن غانية وهزيمة عسكره ومقتله رحمه الله

فرحل لتلمسان بمن معه من عسكره وخدمته وشهوده وقاضيه وأكبر ثقاته ومشوا عن رحلهم آمنين غير محترسين والمتجسسون من زناتة المستوطنون بتلك الجهات لا يرقبون في مؤمن الا ولا ذمة ولا يرعون شريعة ولا ذمة فتسللوا الى ابن غانية وقومه واطلعوهم على عورات العسكر وما هو فيه من اضاعة الحزم وقلة الحذر وتسابقوا الى السيد من جهة أخرى. . . ويبعدون له نواحي العدو ويهونـون عليه أمـره ويحدرونه الى جهته وتارة يحرضونه على لقائه والزحف له فتحير السيد برهة ثم تأهب بعض تأهب ولم يكن الا قبل أن يلتئم جمعه وتكمل تعبئته ويأخذ أهبته ويستحذر عدته اذ غشيته أسراب العدو كالجراد المنتشر وطلعت عليه ساقات ابن غانية وكان له كالمنتظر فثبت السيد مع من كان في موكبه من خاصته ومضت الهزيمة على جناحي ساقته ، واصطلمتهم العرب قتلاً وأسراً ، وفر من أفلتته الرماح خيالاً وذعراً ، واستشهد السيد أبو عمران مع من صبر معه من خاصته وصـاروا الى فضل الله ورحمته وأسر بعض بنيه والكاتب أبو الحسن ابن عياش معهم وبعض طلبة تلمسان واستولى العدو على المحلة وأثقالها وخيلها وبغالها وسائر أحوالها وتبسطت جموعه على تلك الجهات، وعاثوا بها عيث السباع الضاريات ، فارتاع أهل تلمسان وغلقوا أبواب المدينة وأذهلهم فجأة هذا الأمر بروعته ووقف كل قبيل من جهات البلد بربوته مانعاً عن حوزته ، وأرسلت العرب في تلك النواحي جموعها ، وأخذوا ينتهكون عمرانها وينتبهون زروعها، ودامت على قطر تلمسان مضرتهم وبلغت المخنق نكايتهم واذايتهم فأسرع السيد أبو زكرياء من فاس اليها وسكن ضجتها ووطأ نفوس أهلها

وهون روعتها ووصلت الناصر كيفية هذه الوقيعة فتألم لمصاب المسلمين واشجاه فقد رجاله الأقربين ، فأمر بتجهيز عسكر وافر من أهل النجدة واليسار والقوة وقواهم بالأزودة الواسعة فأمدهم بالعدد الفاخرة وأمر عليهم الوزير أبا زيد ابن يوجان رحمه الله تعالى .

ذكر ولاية أبي زيد ابن يوجان مدينة تلمسان

لما كملت أشغال وجهته ، وعزم على حركته وخروجه من الحضرة صبح الجيش باب السلطان على سروجهم ، على المعتاد من رتبتهم في خروجهم ، ودخل الشيخ أبو زيد لموادعة الخليفة وما يتلقاه من وصاياه وأوامره . فلما استوفى ذلك من خليفته وأراد الانفصال عن موادعته ترامى عليه في استوهاب عفو العمال ، وبث الغفران لهم في العاجل والمآل ، فوجد الناصر منبسط النفس لقبول ما القى له منشرح الصدر للعفو سريع الاشتمال عليه فأمر في الحين بسراحهم وحلهم من موضع اعتقالهم وسقط الخبر في أقطار المدينة على قبائلهم وذويهم وأوليائهم فبادروا الى باب السلطان وغصت بهم الأبواب والرحاب فكان خروج ابن يوجان من موادعة الناصر وركوبه مع خروجهم من معتقلهم وسراحهم ونهض ابن يوجان بعسكره وقد حف به جميعهم مشيعين له بأدعية موكدة ، وأصوات مرددة ، فكان يوم سرور ، يبقى ذكره إلى يوم النشور ، ووصل الأمر الى اشبيلية ومن كان بها من المعتقلين على غاية اليأس من الرجاء لما كانوا فيه من الوعيد والالتواء ، فكان وصول البشير أجرى اليهم من فرج أيوب والذ مؤ نها في نفوسهم من قميص يعقوب : فازدحمت بباب المعتقلين جموع من المسلمين وأصفقوا بالحمد والشكر لله رب العالمين ووصل ابن يوجان الى تلمسان منصور الرايات مقضي الأمنيات فقدمت الى العدو مهابته وغشيته كالليل روعته وانسلخ عن أقطار تاهرت وما والاها وانزعج الى جهة طرابلس فلاذ بصحرائها فأمن الناس بجهة تلمسان وتلك الأقطار .

وفي هذه السنة قدم الناصر بعض الولاة على أعماله وأخر آخرين عن أشغاله فأخر أبا يحيى بن أبي الحسن بن أبي عمران عن الوزارة وألزمه في داره وقدم للوزارة أبا سعيد بن أبي إسحاق بن جامع وبعد أيام من ترتيب ما رتب لخدمته ووزرائه جدد نظره في أمور البلاد ، وما يجب لها من التفقد بالصلاح والسداد ، فقدم باشبيلية أخاه السيد أباإسحاق وقدم أخاه السيد أبا محمد بشرق الأندلس ومعه الوزير

أبو محمد المذكور فحسنت بهما البلاد ، وسكنت ظل عدلهما العباد ، وبعد وصول هذا السيد أبي محمد الى مرسية وتمكن استقراره ، وتعرفه كيفية أحوال البلاد وأنظاره ، انهض أبا يحيى الى بلنسية وثقف أشغالها وأصلح أحوالها وقدم الكاتبين النبيهين أبا محمد الحسن وأبا عبد الله بن منيع وكلاهما فيما انفردا به من الاحسان وصنعة الانشاء والديوان فرسا رهان ومالكا راية الاتقان والبيان ، واقتصر أبو محمد بن الحسن بن عبد العزيز على كتب التوقيعات والظهائر ، وكل ما ترتب عليه وقوع العلامة من وجوه الأوامر ، وانفراد أبو عبد الله بن منيع بديوان العسكر وما انضاف اليه من التنفيذات السلطانية وتقييد الجزيات العامة في أنواع النفقات .

وفيها وصل الامر الى اشبيلية بتأخر القاضي ابي عبد الله الباجي وولاية ابي محمد عبد الحق بن عبد الحق (كذا) قضاء اشبيلية .

وفي سنة **ست وستمائة** هزم الشيخ ابو محمد بن ابي حفص صاحب افريقية من كان بها من الميارقة مع ابن غانية ومن تبعهم من المخالفين واستولى على جميع محلتهم على ما يأتي :

ذكر السبب في حركة ابي محمد بن ابي حفص الى ابن غانية

قد تقدم ما كان من انتهاز ابن غانية من الفرصة في عسكر تلمسان ثم حمله الاغترار وازعجته الاقدار على الحركة الى جوار افريقية ومعاودة حربها وخيلت لهم ظنونهم ان البلاد قد تقلقلت بسماع تلك الوقعة وسرى فيهم أثر تلك الروعة وأن الشيخ أبا محمد صاحب افريقية ضجر بجمعهم وسرى الى رجاله نفس روعه والشيخ ابو محمد لم يُخْلِ نفسه عن استعداد واعتزام ولا عطل ركابه عن اسراج وإلجام وان الميارقة تألفت لهم من سواد العرب جموع جمة وضلال ، وفرسان من تلك الجبال ورجال ، فأتوا على تعبئة مهولة رتبوها على تدبيرهم ، وخيلوها من أسباب الظفر على تقديرهم ، خلطوا ابلهم وحمولتهم واثقالهم وقرنوا بها هوادجهم ورحالهم وتمثلوا بالبسيط كالجبل الشاهق والهيكل الباسق .

فزحف اليهم الشيخ ابو محمد عبد الواحد والموحدون ومن انضاف اليهم من سائر الطبقات والجموع ، وقد لبسوا قلوبهم فوق الدروع ، فتقابل الجمعان : والتحم الفريقان وشد عرب الأشقياء على يسار طاقة الموحدين، فانكشف من كان بها من الأغزاز وبعض الاعراب وولوا الادبار منهزمين، وثبت الشيخ ابو محمد بمركزه بقلب

الساقة مع من كان معه من اهل الحفاظ الصابرين. . . وتوهم الأعداء هزيمة اصحابهم فسووا للفرار اجنحتهم وسرحوا الى كل سحيق اعنتهم وتخلفوا على اهاليهم وحمولتهم فأوقع فيهم السيف حده وأعمل فيهم ما أمضاه الكتاب وحده واستولى الموحدون على جميع محلة الضالين بحشمهم واثقالهم وخفهم وسائر احوالهم وانصرف ابو محمد وراياته تضحك في وجوه الرماح وجياده تتسابق بين مراح وارتياح وكان معظم من هلك في هذه الوقعة وجوه رياح وانجادها ورؤ ساؤ ها المشغبة واجوادها ورعد افريق (كذا) افريقية وديارها وجميع جهاتها وانظارها ما سبى وكسح من غنائمهم وحيوانهم واثاثهم وخدمهم، واتت هذه الوقعة على اشتات المفسدين ولم تلمح لهم بعد بارقة ولا تلوح الى يوم الدين .

ووصل البشير الى الحضرة المراكشية بهذه البشارة وقرئت بجامعها الكتب السارة وجلس الناصر للتهنئات وافيضت على الواصلين بالنبأ سوابغ البركات، وقالت الشعراء في ذلك فقال ابو عبد الله ابن يخلفتن الفازازي من قصيدة :

هـذي الفتـوح تـفـتـحـت ازهـارهـا ... وتـدفـقـت مـلء الـمـلا انـهـارهـا
وتـأرجـت نـفـحـاتـهـا وتـبـرجـت ... صـفـحـاتـهـا وتـبـلـجـت انـوارهـا
وأتـت بشـائـرهـا الـيـك سـوافـرا ... عـن اوجـه يـا حـبـذا اسـفـارهـا
تـطوي المـراحـل لا يفتّـر ليلهـا ... شـوقـا الـيـك ولا يـغـب نـهـارهـا
إن الـدنـا مـهـضـوبـة آذانـهـا ... لـسـمـاعـهـا مـرفـوعـة ابصـارهـا
شهـدت بسعدك في الـورى وتمحضت ... سـنـدا ومـثـنـى عـنـدهـم آثـارهـا
مـا زلت تعنى بـالـديـانـة جـاهـدا ... ومجـاهـدا حتى استـقـل منـارهـا
واعـتـز جـانـبـهـا وايـد ركـنـهـا ... واشـتـد سـاعـدهـا وأدرك ثـارهـا
ظـنـت لـشـقـوتـهـا بـأنـك نـازح ... تـنـأى عليـك اذا سـمعـت ديـارهـا
فـرمـيـتـهـا بـكـتـائـب مـلـمـومـة ... كـالـلـيـل لكـن النـجـوم شـفـارهـا
لـم ينـج نـاجـيـهـا غـداة افـلـهـا ... إلا الـفـرار وايـن عـنـك فـرارهـا
تـركـت رؤ وس رؤ وسهـا مبـثـوثـة ... وطـفت عـلى بـحـر بـه اشـفـارهـا
ومـضـى الـشـقـي وقـد تـلبس روعـة ... يـضـفـو عـلـيـه ذلـهـا وصـغـارهـا
عصفت ريـاح جنـودكـم بـريـاحـه ... فـهـفـت جـوانحـهـا وخف مـطارهـا

ومنها :

مـولاي وصفـك ليس يحـوي كنهـه ... خـطب المـدائـح لا ولا إشعـارهـا

لكن نهايتها وان طال المدى في عجزها وقصارها اقصارها
لا زال للاسلام يمنك باقيا وعداك باق شؤمها وبوارها
وصفت ليوسف نجلك الزاكي الرضى ايامه وتباعدت اكدارها
صفو الأئمة لُبّهَا مرجوها مرهوبها مأمولها مختارها
حتى يقلده الخليفة عقدها ويُرى عليه تاجها وسوارها
وبقيت اقصى مدة مقضية اوطارها مرضية اطوارها
في عزة موصولة وسعادة لا تنقضي ابد الدنا اعصارها
ما لاح برق في متون غمامة وترنمت في ايكة اطيارها

وفي سنة سبع وستمائة وصل سير بن اسحاق ابن غانية الى حضرة مراكش وكان متبرئا من نفاق اخوته منطويا الى حزب الامير وفئته فخرج مع اخوته في حركتهم الى تلمسان فلما استوثق من بعدهم عن مقره وأمن غائلتهم في اقتفاء اثره وكان الشيخ ابو محمد عبد الواحد قد خرج الى التطوف بأقطار افريقية على عادته فأسرى سير حتى التحق به بجملته بعد ما عرفه بخبره وقصته فلما وصل سير اليه اكرم مثواه ووسع نزله وقواه واستأذن له في الوصول الى الحضرة فأذن له فيه فبلغ مقصوده ومرغوبه .

وفي هذه السنة قدم الناصر على جزيرة ميورقة ابا يحيى بن أبي الحسن بن أبي عمران وأخر عنها السيد أبا عبد الله بن أبي حفص. وفيها قدم السيد ابا عبد الله بن أبي حفص المذكور على بلنسية ثانية. وفيها قدم على مرسية ابا عمران بن ياسين الهنتاتي واخر عنها أبا الحسن بن واجاج وتوجه الى مراكش . وفيها اخر الناصر لدين الله ابا محمد بن حوط الله عن قضاء مرسية وقدم عليها قاضيا ابا الحسن القسطلي ثانية وقدم ابن حوط الله على قضاء قرطبة واخر عنها ابو علي بن ابي محمد المالقي واستدعي الى الحضرة وقدم بها على طلبة الحضر خطة ابيه واخوته . وفيها قدم ابو ابراهيم ابن يغمور على قضاء بلنسية ، وفيها قدم الشيخ ابو محمد بن أبي حفص صاحب افريقية ابا سليمان داود بن أبي داود على عمل توزر وجهاتها من بلاد الجريد وقدم اخاه ابن أبي داود على قابس وجهاتها . وفيها قدم القائد ابو عبد الله بن عيسى المرسي على قيادة شلب .

وفيها قدم ابو الجيش محارب على التقديم الى أرسال ملوك الروم والاشتغال

بانزالهم وتضييفهم والترجمة عنهم وأخر عن ذلك ابن عوبيل. وفيها قدم السيد ابو زيد علي كورة جيان وأخر عن سجلماسة وعن جيان ابو موسى بن أبي حفص . وفيها صرف السيد ابو اسحاق بن المنصور عن اشبيلية بعد استعفائه عنها . وفيها نقل عن غرناطة السيد ابراهيم بن الخليفة ابي يعقوب الى اشبيلية وقدم على غرناطة ابو عبد الله بن أبي يحيى بن أبي حفص، وفي هذه الولايات أخبار يطول ذكرها اضربنا عنها .

وفي هذه السنة كان مهلك ابن عطية الزناتي بعث اليه ابن يوجان صاحب تلمسان من اغتاله في وطنه واتاه من مأمنه . وفيها استولى العدو البرجلوني على حصون من نظر بلنسية وغلب عليها بين حصار وقتال ونزل له أكثر اهلها على الأمان فمنهم من احتمله الى بلده ومنهم من وصل الى بلاد الاندلس. وفيها تحرك السيد ابو العلاء الكبير قائد اساطيل البرين الى بلاد برشلونة بجميع اجفان العدوة والاندلس على معاندة ومنافسة من اهل البلاد في الاحتفال وتمكن من العدد الوافرة والأموال فكانت أحسن حركة للمسلمين واوحش فجيعة واعم وقيعة جرت على الغزاة البحريين واوقع حسرة كانت بقلوب الكافرين وفي إثر تلك المفسدة كان استيلاء البرجلوني على حصون بلنسية في هذه السنة المؤرخة .

وفي هذه السنة وصلت الأنباء الى الحضرة بتغليب المسلمين على كثير مما في أيدي الروم من معاقل صقلية ووصول اعيانهم ووجوههم الى مدينة تونس الى الشيخ ابي محمد بن أبي حفص واطلاق الخطبة في بلادهم بالدعوة المهدية الموحدية وانكارهم ما سواها من المقصورة على العباسية . وفيها اغار ابو محمد عبد الواحد على المنافقين والمفسدين من قبائل سليم واستاق اشياخهم بأموالهم واسترهنهم بتونس في حسم ما يبثونه من فسادهم وفي التبري مما يوالون به ابن غانية من مضايقتهم وامدادهم فشرد بحبس هؤلاء الأشرار من خلفهم وضرب محمد بن عبد السلام حافظ اطرابلس على انظار نفوسة وسلب قصراً ألفي فيه اثاثا واسبابا واثقالا للمارقين المنافقين فتهذبت في هذه المدة جهات افريقية وسكن روعها والتأم تشعيبها وصدعها .

وفي هذه السنة كان الحريق الشائع الضرر الجاري بقيسارية مراكش وما اتصل بها وذلك ليلة الخميس الثالث عشر لجمادى الأولى والناس كما أووا الى مضاجعهم وسكنوا الى هدوئهم وهجوعهم فتمكنت النار بيابس العيدان وشفوف الثياب واسرعت

كالشهاب في سقف الاسواق فما هب الأقربون اليهم من نومهم ولا تلافاهم الصريخ من نومهم الا وقد شب لهبها بين الآفاق وعلت ضجته المدينة وهتكت العامة بما والاها من الدروب المقفلة واتصل الصراخ والضجيج بالناصر لدين الله فخرج مسرعا من قصره وتخطى الى الصعود بصومعة الجامع المتصل به فعاين امرا لا مرد له ولا حيلة لمحتال الا التسليم للكبير المتعال واقتحمت النار سفلة الغوغاء وضروب الغرباء فسلبوا بعض ما الفوه مما سلم من الحريق وتسللوا به على كل طريق وامد النار احتدام الهواء وموافقة زمن الصيف فما طلع الصباح وبقي من امتعة مراكش ذبالة مصباح .

وأمر الناصر بالبحث على من وجد بشيء يذكر عليه من امتعة التجار، وعثر عليه بالتجسس والاختبار، فلقط من اخلاط الناس قوم قلائل، ومن بعض المتعلقين بالقبائل، فقتلوا عن آخرهم، وبقي البحث على سائرهم، وذهب في هذه الكائنة للتجار الواردين والقاطنين والقاصين والدانين من الاموال الجسيمة ما لا يحصى وافتقر فيها أمة من ذوي اليسار واصبحوا يتكففون الناس حيارى على الأقطار وأكد الناصر في جبر هذه الاسـواق واقامتها واعادتها الى ما كانت عليه من أحسن هيأتها فأنها كانت كالمرآة في وجه القصر تضيء به من اكنافه وكالورد العذب والمادة لتأتي مؤ نه وجميع لباناته .

وفي هذه السنة وصل الى الناصر جماعة من وجوه بلاد شرق الاندلس معرضين بآثار العدو البرشلوني في بلادهم وانتهاكه لطارفهم وتلادهم فقوي عزم الناصر على نصرهم والحركة اليهم والى غيرهم فشرع في توطية ما يحتاج اليه بما تقوم به الحركات الثقال والتكشف عما أحدثه الولاة والعمال وخوطب عمال قرطبة واشبيلية بتجديد العساكر السلطانيات وقدم بعض الخدمة لتوطية السبل واعداد العـلوفات (117) والتضييفات وذلك في جميع المراحل والمناهل على العادة الجارية قبل ذلك .

ذكر حركة أمير المؤمنين الناصر الى الأندلس

لما رتب الأشغال وسهل امرها خرج من مراكش يوم السبت الموفي عشرين

---

(117) في : ط . المعلومات . وفي ت . العلوفات ولعله هو الصواب .

من شهر شعبان المكرم وتمادى مشيه الى رباط الفتح في كنف السلامة والنجح فتلوم بها ريثما اكمل مهمات الاشغال، واجرى امـوره على اصلح الأحوال، ونفـذ ما يجب تنفيذه من شغل البرين على ما رآه واختاره من الاستيفاء والكمال، وانصرف شهر آذار وقرب نيسان وطاب الزمان ، وحسن الترحال والنزول بكل مكـان ، تحرك من رباط الفتح يوم الاثنين الثامن عشر من شوال ونفذ من المنزل المعروف بمرج الحمام المخاطبات[118] الى الاندلس بتحريض المسلمين على الجهاد، والتفرغ لما يجب من التأهب والاستعداد ، فامتثل ولاة الاندلس ما أمروا به وأعدوا الوظائف التي عرفوا بها وامتحضوا[119] النصيحة واعملوا الجد فيما كانوا بسبيله .

وتمادت الحركة الى قصر كتامة والاسعار قائمة النفاق، والبلاد قد تضيقت في كل ما يؤ ول الى الارتفاق ، وسبب سطوته بعماله في هذه السنة أن لقي الناس في هذه الحركة من تنوع المسغبة وانتشار المجاعة وتعذر الاوطار وعدم الأقوات ما لم يعهده الناس ولا علموه في اسفارهم القاصيات ولا عارضهم مثلها فيما ترددوا فيه من زمن الفتن المبيرات والناصر يتربص بانتقال المراحل لثقل الحالات ويغضي عما سمع من الهنوات الى أن استقبل المنازل التي كانت تستمد منها الرفاق وتحتقب منها الحقائب ويدخر منها الازودة المقيم والذاهب فألفاها وقد جف معينها وخف بتوالي العدوان قطينها ولم يبق منها لمخازن السلطان الوافرة اثر ولا يتضح لخازنها دليل ولا نظر واستولى على عموم المحلة الاقتار، وبلغ منهم مبلغ الهزائم المبيرة الاضرار ، وجاوز الحد بالناس وسع الاحتمال ووقف لهم العجز عن ادراك الحيلة في معايشهم على غاية الاضمحلال واحفظ الناصر ما رأى من هذا الاهمال وشدة اغفال المكلفين بالأعمال فبسط السطوة على من كان منهم بمدارج الضرر اجمعين وأوقع العقاب منهم بالمستهزئين وانفذ امره الى الشيخ ابي محمد ابن أبي علي بن مثنى صاحب الأعمال المخزنية والمفوض اليه الأشغال العملية الى القبض على عامل فاس وهو عبد الحق بن ابي داود أكبر عماله عنده والأخصين ، والطفهم منزلة كان لديه في كل حين ، فتروح بعد وصوله الى المدينة ثلاثا ليبث في نفوس المشتغلين الطمأنينة والأمان وليصلح ظنونهم في وصول ابي محمد اليهم في ذلك الأوان ثم

(118) في : ط . المخاطبة . وفي : ت . المخاطبات ولعله هو الصواب .

(119) في : ط . افتصحوا . وفي : ت . أفصحوا ، ولعل الصواب ما أثبتناه .

فجيء عبد الحق بالقبض عليه بدار الأشراف وأرسل الى منزله من ألحقه بالثقاف وبالغ في استصفاء أحواله، وتبسيط اليد بالقبض على كافة اصحابه وعماله ، ونفذ الكتب الى سائر الجهات بتثقيف من خدم في مدته وغمس يده في اشغاله ، فغشيهم الامتحان ، بكل قطر شاسع ومكان .

ولما وصل الناصر الى قصر كتامة كما تقدم كان انذاره يتضاعف ويزداد لمخالفة المعتاد ، وتغييره يتأكد لما أشرف عليه من الاهمال والفساد ، وكان عامل القصر المذكور محمد بن يحيى بن تاكغت المسوفي عامل سبتة وقد طابقت احواله احوال امثاله فقبض عليه وعلى اصحابه ووجهوا مصفدين لرئيس الأعمال بفاس وكان الناصر في هذه الحركة يقصر المراحل ويتلوم بالمنازل ليخف الناس من ساحل المجاز وحشرت المراكب من سائر السواحل الى ساحله فانتهض للجواز وتوالى الانحفاز فوصل اليه والجيش قد جاز معظمه ولم يبق الا أقله فروح بالقصر بقية ذي القعدة ريثما جازت ساقته واثقاله وحاشيته ورجاله وركب السفن يوم الاثنين اول يوم من ذي حجة من السنة المذكورة ورحل يوم السبت الى فج ابراهيم وتمادى مشيه حتى وصل الى فج اشبيلية وحل بقصور بحيرة باب جهور يوم الاثنين منتصف ذي حجة من السنة المذكورة ولما استقر الناصر بمدينة اشبيلية أمر بدخول الجيش على طبقاتهم وترتيب جماعتهم واستقر الجميع بمدينة اشبيلية آخر هذه السنة .

وفي سنة **ثمان وستمائة** امر الناصر لدين الله بأستنفار الحشود الاندلسية وبعمل الآلات الحربية وبالحفز على أهل الكور والجهات في الحضور بما لديهم من وظائف الغزاة ووصولهم مع من لهم من المشتغلين والولاة حتى اتسق نظامهم وتقوى اعتزامهم ولما استوفت العساكر من سائر البلاد واستكملت الحشود والامداد شرع الناصر في التأهب للحركة برسم الغزو والجهاد فتحرك من اشبيلية في أحسن زي وهيئة وقدرة واستعداد بعساكر وافرة من الموحدين والعرب والاجناد وطوائف غيرهم من المقاتلة والانجاد فتمادى مشيه على نية غزو الكفار وحماية الذمار فقصد قلعة شلبطرة ففتحها واخذها بعد قتال شديد وانتزعها وهو حصن عظيم نفعه شديد اذاه وضره وكتب بفتحه الى البلاد بتاريخ ثاني شهر ربيع الآخر من هذه السنة المؤرخة .

فصل من الرسالة التي وجهها الناصر لدين الله معلما بفتح حصن شلبطرة من انشاء ابن عياش

والى هذا وفقكم الله وأوزعكم شكر نعماه فان النصرانية لما طال بالقتال عهدها ، وكاد ينسى وطء الخيول غورها ونجدها ، وان السلم الذي كان بين الموحدين وبين صاحب قشتالة حان ان ينقضي أجله وحده، بلغ الينا أنها همت بأن توقد نار الحرب التي كم احرقها وقده، وكان الموحدون بعد قفولهم من الشرق لا يزالون على النية للغزو والجهاد في سبيل الله بالأعراب ومن يليهم قاصيهم ودانيهم، فأتت منهم امم لا يعلمهم إلا الله ولا يحصيهم ، وجاءوا كأمواج البحار في جيوش لا يطل على مصباحها الساري والله مجازيهم بتظافرهم وتواصيهم ، وكان أئمة الكفر الذين لا أيمان لهم ولا إيمان، ولا حجة على ما يدعونه ولا برهان ، وقد وافاهم من رومة رسول الاههم الارضي الذي له يسجدون واياه يعبدون يأمر باتفاقهم، وخلع بعضهم ما بقي من شروط الموحدين في اعناقهم، ومن نكث فإنما ينكث على نفسه وشرط الله أوثق ، وسيف الخليفة أمضى واصدق ، فبيناهم يجرون بالخـلاء ويجرون فضول الخيلاء ويدبرون ما لا يتم ويريدون ما لا يعصم من امر الله ولا يرم اذ سمعوا باجازتنا التي كانوا يرونها بعيدا ويراها الله قريباً ، وحلولنا بالاندلس التي نصر الله بها الدين الحنيف نازح الدار غريبا ، فرأوا ان الحرب قد كشفت لهم عن ساقها، وأجلبت لهم من آفاقها .

ولما كان صاحب قشتالة أقرب من تعينت حربه دارا ، وأكثرهم مما استطاع نكاية واضراراً، كان أول من نويناووجب تقديم حربه علينا وإن كنا لم نحل بالأندلس إلا وفصل الغزو قد ذهب جله ، ولم يبق إلا أقله ، ذلكم مما لقي الناس في طريقهم من المطر المتدارك، والوحل المقيد للأخامص والسنابك ، والسيول الخارقة بكل أرض وجلد ، أنهاراً ترمي غواربها الغدير بالزبد ، حتى ذهب بالجسور ، وامتنع أكثرها من العبور ، وفي النية من العزم أثناء هذه المحاولات والأمور ، ما لا يعلمه إلا الله العليم بذات الصدور، ولكن وفقكم الله مع ضيق الآناء، وكون الفصل لم تبقَ منه إلا صبابة كصبابة الإناء، رأينا أن لا نخلي العام من غزو يذل الكافرين في أرجائهم ، ويجدد عهدهم بالسيف الذي لم يجف بعد من دمائهم .

وكان المعقل المعروف بشلبطرة قد علقت به حبائل الصلبان ، وتألم ببقائه

وسط البلاد قلب الإيمان ، قد جعلته النصرانية إلى كل غاية جناحاً ، وأعدته لأبواب المدائن مفتاحاً ، تهان شعائر الله في سنامه وبطحائه ، ودين الحق عن يمينه وشماله وأمامه ووراثه ، تعتقده الكفار حجها وجهادها ، وتخدمه ملوكها ورهبانها وبلدانها، وتسرب إليه درهمها ودينارها ، وتزعم أنه يعصم دارها ويحط أوزارها ، ومن الاتفاق أن الموحدين كانوا قد جعلوه في غزوة من الغزوات معرج ركابهم ومستوقف إيابهم ، وما عسى أن يبلغ العزم وهم بسبب انقلابهم وقد قضوا من الغزو نهمتهم فأقلعوا عنه لضرب من النظر،وأملوه إلى حين وكل شيء بحكم القضاء والقدر، فازدادت فيه فتنة الكفار ولولا عادتهم في التشيد مدى الأعصار لاستغنوا فيه بمجرد الوهم عن السلاح والأسوار وما علم القوم أن أمر الله في مزيد ، وأن سعده من جديد إلى جديد ، وأنهم ينازلون في وقت تكذب فيه ظنونهم وترى ما لم تعهده عيونهم، فاستخرنا الله في منازلته،وشرعنا في الضرورة من أسباب محاولته ، وقلنا هو يمين صاحب قشتالة إن قطعت قصد منه هذا الدليل،ومظنته عن غيرته إن لم يتحرك لها فقد قام على ضعفه أدل دليل ، ثم إنا قدمنا إليه الأعراب رعيلاً فرعيلا وأطلقناهم عليه قبيلاً فقبيلا وظهر في بسيطه زهاء أربعمائة فارس فقتلوهم تقتيلا، ثم إنا تحركنا على الأثر في جيوشنا فقبل النزول من السروج ، ووضع المهند والوشيج حياهم الناس بكل ضرب وجيع ، وموت وحيّ[120] سريع ، وملكوا عليهم أرباضهم وكانت من الذروة إلى البطحاء ، وأضرموها ناراً من جميع الأنحاء. ثم أمرنا بالمجانيق فزحف بها إليه تقذف حجارة كالجبال عليه ، وأنشىء عليهم سحاب مكفهر من النبال تتكسر منه النصال على النصال ، فمن نجا من الحجارة أمثال الجبال ، لم ينج من السهام أمثال الغمام المنثال ، والسرايا مع الأيام تجوس طليطلة وأحوازها ، والرعب يملأ أطراف البلاد وأحوازها ، والنصرانية قد ضاقت على الرحب ساحتها ، وودت لو يكون في الموت راحتها ، فخرج أهل المعقل المذكور وفارقوه لمن له عقبى الدار، وعلى أثرهم طهر الله المعقل من الأقذار ، وبدل الله فيه الناقوس بالأذان،وعادت الكنيسة مسجداً على تقوى من الله ورضوان ، ورأى المسلمون قرة عين لم يروا مثلها مذ زمان ، وخلصت القلعة للموحدين في التاريخ المذكور قبل .

وفي سنة تسع وستمائة شاع الخبر بالأندلس عند. أشياخ الموحدين بمهلك

---

(120) وحي بالحاء . بمعنى سريع .

المستغلبين المعتقلين بفاس والي مدينة سبتة ووالي مدينة فاس، ووصل ابن مثنى الأمر بقتلهما في أواخر السنة الفارطة وقيل إن مقتلهما كان في أواخر ذي الحجة وقيل في أوائل محرم من هذه السنة فأخرج المذكورون (كذا) يوم جمعة بعد الصلاة بحضور الآلاف من الناس فضربت أعناقهما صبراً ، عبرة للمعتبرين وذكرى للغافلين .

وفي هذه السنة كانت وقعة العقاب التي كانت السبب في هلاك الأندلس إلى الآن ، وذلك أن أمير المؤمنين الناصر قصد بلاد العدو أذفونش اللعين في جيش عظيم من المسلمين ، فاستعد له الطاغية وجمع أهل قشتالة أجمعين وغيرهم من سائر جموع ملوك النصرانية الذين هم للجزيرة مكتنفون(121) فالتقى الجمعان بالموضع المعروف بالعقاب ، فكان الظهور أولاً للمسلمين على أن الموحدين لم يجدوا في تلك الغزوة ولا نصحوا فيها لأجل نكبة أميرهم الناصر لأشياخهم وقتله واستيصاله لهم على يد المفوض ذلك إليه ابن مثنى ، فلما ورد على أذفونش البرشلوني أخزاهما الله تعالى بثلاثة آلاف فارس ولت جموع المسلمين فمشت الهزيمة عليهم وثبت الناصر لدين الله ثبوتاً كاد يردي به ويمكن العدو منه حتى وصلت رماحهم إليه ، ثم انحاز راجعاً فسلم وذلك يوم الاثنين الثامن من صفر من السنة وذكروا أن بعض الناس كان يقول : مدها قل لابن المثنى يردها ، يعنون بذلك صاحب الأشغال الذي نكب أشياخ الموحدين ، ولا قوة إلا بالله العلي العظيم وكتب الناصر بالاعتذار عن هذه الوقعة إلى الحضرة وغيرها أذكر هنا منها بعض فصول :

فصل من ذلك وهي من إنشاء ابن عياش رحمه الله

وإلى هذا ـ وفقكم الله وأعانكم على ما يحبه ويرضاه ـ فإن صاحب قشتالة لما كان في العام السالف قد ضعف عن الانتصار ، وكاد يخفى في بلاده حتى عن الأبصار ، رأى أن يضرع لملوك أهل ملته ضراعة الأسيف ، ويصانعهم على معونته بالتالد والطريف ، ويسترحمهم عسى أن يجد عندهم رقة القوي على الضعيف ، فبث القسيسين والرهبان من برتقال إلى القسطنطينة العظمى ، ينادون في البلاد من البحر الرومي إلى البحر الأخضر غوثاً غوثاً ورحمى رحمى ، فجاءه عباد الصليب من كل فج عميق ، ومكان سحيق ، وأقبلوا إليه إقبال الليل والنهار ، من رؤوس الجبال

(121) في : ط . مكتنفين .

وأسياف البحار ، وكان أولهم سبقاً الأفرنج المتوغلون في الشرق والشمال ، ثم تابعهم البرجلوني بما عنده من العدد والرجال. وكان صاحب نبرة متعلقاً من الموحدين بذمـام ، ومنقاداً إليهم أبداً في أسمح زمام ، فسخط عليه صاحب رومة إن لم يكن لقومه معسكراً ولسواد أهل ملته مكثراً، فلحق بتلك الجموع مرهجاً، وتـوسط بحرهم المزبد ملججا ، كل ينادي الصليب ، ونحن ننادي بالسميع المجيب ، وكنا لما تحركنا بالموحدين ، ومن معهم من سائر المسلمين رأينا أن الأمة قد جد جدها ، وأرهف[122] في ذات الله حدها ، وعلمنا أن الأمة التي ليس لها في الأرض نظير ، والعصابة التي وليها الله وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير ، حزب الله الذي شرف به منقطع التراب ، وأعز به الدين الغريب في زمن الوحدة والاغتراب ، فسألنا الله أن يوفقنا إلى الرشاد ، وأن يحملنا على جادة صلاح العباد ، وضرعنا إليه في الإلهام لما فيه الخير والخيرة للإسلام .

ووصلنا إلى ظاهر جيان وأقمنا هنالك أياماً ننتظر عبور الوادي الكبير إذ كان قد طما تياره ، وأمدته من كل شمال ويمين آثاره ، مع ما كنا فيه من النظر في رعاية الأصلح ، والمحافظة على رأس المال الذي هو التجر الأربح ، والكفار طول هذا يتثالون على طليطلة انثيال الجراد في الكثرة والافساد ، وصاحب قشتالة يتودد إليهم بالصبر على انتساف بلاده ، ويتجرد إلى تابعهم ومتبوعهم بأموال رعيته وأجناده ونحن نعلم على القطع واليقين ، أنه جمـع لا يتأتى للكفار إلا بعد المئين من السنين ، فحين نضب الوادي الكبير زحفنا بالجيوش وتحركت جماهير الكفر فأرهبوا من كان في طريقهم من حصون الثغر ثم إن الفئتين قضى بتلاقيهما[123] في الموضع المعروف بالمرشة فكان بين المسلمين وبين أعدائهم يوم ذو كواكب نازعت فيه المواكب على المواكب وموقف نرجو أن يراه الله لنا وأن يقبل فيه عملنا ، اشتد فيه الكفاح ، وأرخصت فيه الأرواح ، لكن أراد الله أن يمحص المؤمنين ويبلو[124] فيه الكافرين ، فكانت عاقبة اليوم على الخصوص لأهل الصلبان ، والعاقبة المطلقة هي لأهل الإسلام والإيمان ، وتحاجز الفريقان والمسلمون عزيزة جوانبهم ، محروسة بقدرة

---

(122) في : ط . وارهب . ولعل الصواب ما أثبتناه .

(123) في : ط . بتلاكيها . والصواب أثبتناه .

(124) في : ط . يبلى . وكذلك في : ت .

الله كتائبهم ، لم تصب الحرب منهم أحداً ، ولا نقصت لهم عدداً ، وهي الحروب قضى الله أن تكون سجالاً ، وأن يجعل الله فيها لكل قوم مجالاً ، كذلك كانت في زمن النبي ﷺ والوحي غض نضير ، وجبريل من السماء إلى الأرض في كل وقت سفير ، وكذلك كانت في زمن الخلفاء رضي الله عنهم ، كل ذلك ليعلم الشاكر والصابر منهم ، وإذا كانت وفقكم الله الجيوش موفورة والرايات منشورة ، والعزائم باقية وكفايات الله واقية ، فلا تهنوا فإنا لا نهن وانتظروا الكرة على الكفار ، والإمداد عليهم بجند الله الذين هم خير الأنصار ، فما كان الله ليترك المؤمنين حتى يأخذ أعداءهم أخذاً وبيلا ، ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا ، وعرفناكم لتكون عندكم هذه الوقيعة على وجهها والنازلة على كنهها ولتعلموا أنه لم يدر للموحدين قتيل ، ولا أصيب منهم كثير ولا قليل ، والسلام وكتب في أواخر صفر سنة تسع وستمائة .

وفي **سنة عشر وستمائة** توفي أبو عبد الله الناصر رحمه الله وذلك أنه لما كانت هذه الوقعة الشنيعة أخذ في الجواز إلى العدوة واستقر بحضرته المراكشية ولم تكن له بعد ذلك حركة منها إلى أن توفي بها يوم الثلاثاء العاشر لشعبان المكرم من السنة المؤرخة ، وذكر أن بعض وزرائه أغروا به من سمه لأنهم خافوا منه أن يقتلهم فيما جنوه معهم جزاء على قبيح فعلهم والله العالم بحقيقة ذلك .

ذكر دولة المستنصر بالله ونبذ من أخباره

نسبه : هو أبو يعقوب يوسف بن محمد بن يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن بويع يوم الأربعاء الحادي عشر لشعبان من السنة ، وسنه عشرة أعوام أو نحوها ولقب المستنصر بالله وتوفي سنة عشرين فكانت دولته نحو عشرة أعوام وكان أبوه قد أوصى عليه بعض أشياخ الموحدين بحضرته فتغلبوا عليه في أيام دولته فلم تكن له حركة تشهر ولا غزوة تذكر لكن أيامه كانت هادنة ليس فيها مفاتنة وولي أعمامه وقرابته البلاد الغربية والأندلسية بعد ما وصلته البيعات من كل الجهات وكانت وفاته يوم السبت الثاني عشر لذي الحجة سنة عشرين وستمائة فكانت خلافته على ما حققه ابن رشيق وغيره عشر سنين وأربعة أشهر ويومان .

وفي **سنة إحدى عشرة وستمائة** ولي المستنصر بالله على مدينة فاس السيد أبا إبراهيم إسحاق الملقب بالأمير الظاهر ابن الخليفة يوسف بن عبد المؤمن ونقله من

أغرناطة إليها وهو أبو المرتضى رحمه الله تعالى وولى على إشبيلية وجهاتها السيد أبا إسحاق بن أبي يوسف يعقوب المنصور وهو السيد أبو إسحاق الأحول .

وفي سنة اثني عشر وستمائة قام داعي ببلاد جزولة يدعي في مذهبه بدواعي المحال ، وتبعه ناس كثيرة من الضلال والجهال ، وذكر لهم بزعمه أنه فاطمي وشاع الخبر عنه في البلاد أنه عبيدي من ذرية عبيد الله الشيعي، والموحدون في ذلك يعلمون ثقة بالله تعالى أن مآله مآل أمثاله من كل من ادعى دعواه ونحى في الباطل منحاه إلى أن مكن الله منه فقتل وعلق رأسه على باب فاس حرسها الله تعالى .

وفي هذه السنة المؤرخة وصل إبراهيم بن الفخار الإسلامي وزير ملك قشتالة رسولاً من عنده في شأن عقد السلم فأنعم المستنصر بالله بذلك ووجه كتابين اثنين أحدهما إلى السيد أبي الربيع صاحب جيان والثاني للشيخ أبي العباس بن أبي حفص والي قرطبة ومقتضاهما عقد السلم والموادعة مع ملك قشتالة أخزاه الله على جميع بلاد الموحدين بالأندلس على الشروط التي عدوها والعهود التي عقدوها فالتزم اليهودي لعنه الله ما لزم ، وأنعم بما عقد من الأمر وأبرم فصلحت البلاد الأندلسية في هذه السنة من جهة المهادنة ووليها كبراء السادة وأشياخ الموحدين وأميرهم يوسف المستنصر بالله بحضرته مقيم ، وأوامره نافذة في بلاده وأيام دولته وليست له حركة تشهر ولا غزوة غزاها بنفسه فتذكر ، ولم أتعرف له خبراً في أيام دولته إلا ما كان من ظهور بني مرين أعزهم الله .

وفي سنة ثلاث عشرة وستمائة وصل عسكر من بني مرين إلى جهة مدينة فاس فخرج إليهم واليها السيد أبو إبراهيم بمن كان معه من الأجناد بفاس فهزمه بنو مرين وقبضوه واحتملوه معهم إلى أن عرفوه فأطلقوه فتأكدت بينهم مودة إثر ذلك وسمي هذا العام بمدينة فاس عام المشغلة لأن الناس جردوا في تلك الهزيمة ودخلوا مستترين بالمشغلة. وكان ابتداء ظهور بني مرين أعزهم الله تعالى في سنة عشر وستمائة بعد مولد أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق رحمه الله تعالى بسنة واحدة وكان دخولهم إلى بلاد الغرب سنة إحدى وستمائة، وسأذكر إن شاء الله بعض مآثرهم ومفاخرهم في أيام مدتهم وأعوام دولتهم إن شاء الله تعالى .

ولم أتحقق خبراً أذكره في سنة أربع عشرة وخمس عشرة. وفي سنة ست عشرة وستمائة كان المحل العظيم والمجاعة التي شكاها الظاعن والمقيم وتناهى

الحال في مزيد السعر إلى ما لا نهاية له وكان ابتداء الحال فيه في السنتين المتقدمتين لهذه السنة المؤرخة وأما السنة الفارطة عنها فكانت قبائل المصامدة تسميها سنة وقليل وكان للمستنصر بالله في هذه السنة فعل جميل وخير جزيل وذلك أنه لما علم ما حل بالمسلمين في بلاده من المجاهدة في غلاء السعر والشدة أمر بفتح المخازن المعدة لاختزان الطعام ففتحت للعامة وفرقت عليهم فذكر أنها كانت بثمن للأقوياء وبغير ثمن للضعفاء ، وبالجملة فإنه أصدق منها شيئاً كثيراً وأعطى من الأموال عطاء جزيلاً فحسنت أحوال الناس بذلك .

وفي سنة **سبع عشرة وستمائة** في اوائلها اشتدت الحال في تناهي غلاء الاسعار بالبلاد الغربية والاندلسية الى ان فرج الله سبحانه عن المسلمين بالرخاء والعافية . وفيها امر امير الموحدين المستنصر بالله يوسف بن الناصر بالكتب الى البلاد الغربية والاندلسية بأخذ الناس باقامة الدين والحفز في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، حذا في ذلك ما فعله جده عبد المؤمن في الرسالة التي انشأها له ابو جعفر ابن عطية وبعث منها نسخاً الى قواعد بلاده وكذلك ايضاً فعله خليفته يوسف امر بانشاء رسالة اخرى في معنى ذلك .

فصل منها

والى هذا وصل الله توفيقكم فقد علمتم ان الدين هو الاساس الوثيق والبناء العتيق ، والفسطاط المضروب ، والعلم المنصوب والتجر الذي لا يبور ، والطريق الذي لا يجور ، من استمسك به فقد استمسك بالعروة الوثقى ، ومن تحصن به فقد تحصن بالمعقل الاحصن الأوقى ، فاذا وقفتم على كتابنا هذا فجددوا للناس به الذكرى ، وعرفوهم ان الدنيا مطية الى الدار الاخرى ، وحضوهم على العمل الصالح ، والتجر الرابح ،عسى ان يجعلهم الله تعالى في الدارين من الذين لهم البشرى ، وبثوا في جهاتكم كلها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تطهر من الارجاس وتتنقى الحواضر والبوادي من الادناس ، وتسلم القلوب والجوارح من الوسواس الخناس ، واستحفظوا الكافة صلواتهم فانها الكتاب الموقوف على المؤمنين،وخذوهم باعتياد المساجد فانها الشاهد الأزكى بشهادة خاتم النبيئين وسيد المرسلين،واطلبوهم بقراءة الحزب والتوحيد بالمساجد والاسواق فإنه الخير المألوف والشعار المعروف والرسم الذي عليه العمل،والعهد الذي لا يجب فيه التغيير

والخلل ، وتتبعوا شعائر الدين كلها بالاقامة ، ولا يعرض لكم في الامر بها والحض عليها عارض سآمة ، وتخولوا الناس على الدوام بالوصايا النافعة ، والمواعظ الجامعة ، وأعلموهم انه قد جاء في الاثر إذا أصلح المرء جوانيَّهُ اصْلح الله برانيه فليصلح الناس سرائرهم ، وليخلصوا ضمائرهم ، وليوقنوا بأنهم مسؤولون وانهم تشهد عليهم ألسنتهم وايديهم وارجلهم بما كانوا يعملون ، ونحن قد قلدنا الله قلادة نعلم لوازمها ، ونحفظ مراسمها ، ومن جملتها التذكير بالدين فهو الشافع الذي لا يغفل والوسيلة التي لا تضاع ولا تهمل، فاعلموا اعزكم الله هذا المقصود علماً، وكونوا في القيام به لا تخالفون يقظة ولا نوماً ، وللناس عليكم ما نأمركم به من العدل التام ، والانصاف العام ، وكف الايدي ، وقبضها عن التعدي ، وهذا خطاب قد ارشدنا فيه الى مناهج سوية ، وحضضنا فيه على امور ضرورية ، واتينا فيه بما يجب البدار اليه ، وخير العمل ما دووم عليه ، والله معينكم والسلام عليكم ، وكتب في عاشر ربيع الاول سنة سبع عشرة وستمائة .

وفي سنة ثمان عشرة وستمائة تجددت المهادنة والمصالحة بين ولاة الأندلس من السادة والموحدين بأمر امير المؤمنين المستنصر بالله وبين النصارى دمرهم الله وكتب الوزير أبو يحيى زكرياء بن أبي زكرياء لملكة قشتالة بنت ملك قشتالة وطليطلة كتاباً من انشاء ابن عياش يخبرها بالسلم الذي انعقد بينه وبين رسولهم أخزاهم الله أجمعين .

فصل من ذلك

وقد انقلب اليكم رسولاً منكم بما تعرفونه في السلم المنعقد، النير شهابه المتقد، بين الموحدين وبينكم بالمخاطبة الكريمة التي حملها اليكم وحمل نحوكم من الاتحاف ما يبلغكم على يديه الذي هو عنوان المخالصة وثمرة المواصلة وكل ما يكون من هذا بيننا وبينكم ينبغي ان يكون متقبلاً وعلى احسن المتأولات متأولاً ان شاء الله وانتم بحول الله تقفون عند حدود السلم وتحافظون عليها وتعاقبون كل من هم باذاية المسلمين فان الوفاء شعار الملوك ، وعليهم فيه يجب السلوك ، وكتب سادس رمضان سنة ثمان عشرة وستمائة .

وفي سنة تسع عشرة وستمائة قدم امير المؤمنين المستنصر بالله ابا محمد بن المنصور وهو العادل على مرسية واخره عن ولاية غرناطة .

وفي سنة عشرين وستمائة كانت وفاة المستنصر بالله بمراكش يوم السبت الثاني

عشر لذي الحجة من عام عشرين المذكور . وفي أيامه كان ابتداء ظهور بني مرين اعزهم الله فضربوا على مدينة فاس وكانوا في نحو اربعمائة فارس فخرج للقائهم وحربهم واليها السيد ابو ابراهيم والد المرتضى فهزموا جمعه واسروه عندهم ثلاثة ايام ، ثم اطلقوه وبعثوا به الى فاس مع بعض عجائزهم مكرماً معظماً بعدما سلبوا كل من كان خرج معهم اليهم من ثيابهم واخذوا دوابهم وبالغوا في تجريدهم حتى كانوا يسترون عوراتهم بالمشغلة فسمي ذلك العام عام المشغلة وهو عام ثلاث عشرة وستمائة فلم يزل السيد المذكور يواليهم بالاكرام والبر والاحترام ويعظمهم ويرضيهم في كل عام ، ويقربهم ويدنيهم من هذا العام الى عام سبعة عشر حين ظهور الامير ابي سعيد عثمان بن عبد الحق فانه استبد برأيه دون غيره الا ما كان من مراسلات بينهما ومهادنات الى آخر دولة المستنصر بالله في عام عشرين .

وفي ايام المستنصر بالله وصل القاضي ابو محمد عبد الله بن عبد الحق من اشبيلية الى مراكش حرسها الله باستدعائه اياه واعتنائه به ولم يزل عنده وعند من ولي بعده من خلفاء بني عبد المؤمن مكرماً معظماً الى ان توفي رحمه الله تعالى. ولم تكن للمستنصر بالله حركة ولا غزوة ولا خرج من حضرته الا لمدينة تينمل على العادة في التبرك بالمهدي فما وقفت له على خبر اذكره الا ما رأيت في بعض الرسائل والله يؤتي ملكه من يشاء .

ذكر بيعة ابي محمد عبد الواحد المخلوع

هو عبد الواحد بن يوسف بن عبد المؤمن ، بويع بمدينة مراكش يوم الاحد الثالث عشر لذي الحجة من سنة عشرين وستمائة وخلع يوم السبت الموفى عشرين لشعبان وخنق بعد ثلاثة ايام من خلعه وذلك يوم الاثنين الثاني والعشرين لشعبان المكرم من سنة احدى وعشرين وستمائة فكانت مدة خلافته بمراكش ثمانية اشهر وتسعة ايام ، وخالف عليه عبد الله بن أخيه يعقوب المنصور الملقب بالعادل بمرسية ونازعه في اسم الخلافة بعد شهرين اثنين من بيعته الى ان خلع وتخلص الامر للعادل بالعدوتين بعد ستة اشهر من استبداده اولها يوم الثالث عشر من صفر من سنة عشرين وآخرها يوم السبت آخر دولة ابي محمد لكونه دخل عليه القصر في هذا اليوم بمراكش وفي يوم الاحد بعده اشهد على نفسه بالخلع وتوفي ليلة الاربعاء الخامس والعشرين لشعبان من عام احدى وعشرين وستمائة .

وفي سنة احدى وعشرين وستمائة قام ابو محمد العادل بمرسية وبويع بها وطاعت له بعض بلاد الاندلس وناب اليه بعض الموحدين وبقي آخرون الى أن خلص الأمر له ووصلته بيعة الموحدين من مراكش وكتب ابو محمد العادل من مرسية الى ابي محمد بن السيد ابي عبد الله بن السيد ابي محمد البياسي حين انخلاعه عن دعوة ابن أخي جده ابي محمد عبد الواحد ودخوله تحت دعوة العادل كتاباً بالشكر والاعتناء وكان أبو محمد عبد الواحد حين خلعه الموحدون في سن الشيخوخة فنسخ الخلع امره قبل التمكن فعد في الأوامر المنسوخة فما كان الا القتل حتى تحولت الى غيره اجناده ومواكبه .

ذكر دولة العادل بن المنصور ابن الخليفة يوسف ابن عبد المؤمن

بويع بمرسية يوم الثلاثاء الثالث عشر لصفر من عام احدى وعشرين وستمائة وتوفي يوم السبت الحادي والعشرين لشوال سنة اربع وعشرين فكانت دولته ثلاثة اعوام وثمانية اشهر وتسعة ايام منها الى ان خلع ابو محمد عبد الواحد ستة اشهر وتسعة ايام ولما اصفق الناس على بيعة العادل بمرسية توجه منها الى اشبيلية وكان اخوه ابو العلا المأمون والياً على قرطبة وعبد الله البياسي والياً على اشبيلية فبايعاه بها واجتمع ثلاثتهم فيها وبها وصله البيعات من أهل الأندلس ما عدا بلنسية ودانيه وشاطبة وجزيرة شقر فانهم كانوا الى نظر السيد أبي زيد اخي البياسي المذكور وأخي ابي دبوس ثم وصله باشبيلية بيعة أهل مراكش وبلاد الغرب ولما استقر العادل بمراكش ولى اخاه أبا العلا مدينة اشبيلية وولى البياسي قرطبة وذلك في سنة اثنين وعشرين وستمائة .

وفي سنة اثنين وعشرين وستمائة استقامت الامور والاحوال لامير المؤمنين العادل بمدينة مراكش فأقر عماله على اعمالهم وخدامه على طبقاتهم في امورهم واحوالهم وجميع اشغالهم في البلاد الغربية والاندلسية وكتب عند وصوله الى الحضرة للاندلس :

فصل من ذلك

وان تعلموا رضي الله عنكم ان الموحدين اعزهم الله لم يزالوا يتعرفون في اوبتهم هذه من التيسير والتسهيل ، واستصحاب الصنع الجميل ، ما قرب لهم كل

قاص ، وذلل لهم كل عاص ، ويسر كل عسير وجبر كل كسير ، انجازاً منه سبحانه للمواعيد الصادقة ، وصلة لاسباب العنايات اللاحقة ، تنثال عليهم الخيرات انثيالاً وتوافيهم المسرات بكراً وآصالاً ، وتتلقاهم وفود الموحدين من كل جهة ارسالاً يتسابقون الى لقائهم تسابق الطير الى الاوكار ، ويتبارون في حفظ ما اخذ عليهم من الوفاء بما التزموه من العقود تباري السراة الاحرار ، وها هم بحمد الله قد انتظم شملهم واتصل حبلهم واجتمعت اهواؤهم واتفقت على اعزاز كلمة الحق آراؤهم ، وحلوا بدار الموحدين ومطلع الخلفاء الراشدين المهتدين ، حيث الجموع وافرة ، والاعداد متكاثرة وطائفة الحق متعاضدة متظاهرة ، وذلك حلول استدعاء واستنفار، لا حلول اقامة واستقرار ، عازمين على الجهاد ، والله تعالى يمضي عزائمهم ، ويجبرهم على جميل معتقداتهم على جهاد اعداء الله الكفار فاعلموا وفقكم الله على ذلكم والله يبلغكم آمالكم والسلام عليكم .

وفي سنة ثلاث وعشرين وستمائة قام عبد الله البياسي بالاندلس وكان العادل ولاه قرطبة فخلع دعوة العادل وخرج عن طاعة الموحدين واستعان بالنصارى عليهم ودلهم على عورات تلك البلاد وادخلهم قيجاطة وغيرها من بلاد المسلمين فتملكوا الاموال وقتلوا الرجال وسبوا الحريم والاولاد . ثم دخل بهم حصن باجة ولوشة وغيرهما من الحصون الاسلامية . وذكر عن هذا البياسي امور شنيعة منها انه دخل في دين النصرانية وكان شيخاً مسناً فنسأل الله العافية وحسن العاقبة .

ثم نزل البياسي المذكور لعنه الله على اشبيلية محاصراً لها وابو العلاء اخو العادل فيها محاصراً بها فخرج اليه بعسكر المسلمين فهزمه الله مع من كان معه من الكافرين في الخامس والعشرين لصفر من السنة المؤرخة وكتب ابو العلاء الى اخيه العادل من اشبيلية يخبره بهزيمة البياسي . فمن ذلك :

الحضرة الامامية الظاهرة العلية ، مقام الفضل الباهر ، ومقر العدل المشتهر في البادي والحاضر ، حضرة سيدنا الخليفة الامام العادل امير المؤمنين ابن الأئمة الخلفاء امراء المؤمنين ادام الله لها اتصال البشائر وخلد في صحف الليالي والايام ما لا يزال يجدده برحمته لها من قهر المنافر ونصر المظاهر ، عبدها الباذل في خدمتها العلية نفسه ونفائسه ، وفي الذب عن خلافتها السعيدة وامامتها الحميدة راجله وفارسه ، المشمر عن ساعد جده في مقارعة الصادين عن قصده ، بغية في العمل

المبرور تنافسه ، وعزمة من النصر الموعود عرائسه ، لما احل الله من الملمات بعدوه البائس وطائفته البائسة عبدها ادريس ، سلام كريم على المقام الامامي ورحمة الله وبركاته وبعد حمد الله الذي أبى الا ان يتم نوره ، ويصل الخليفة العادل الفاضل اعتلاءه وظهوره ، والصلاة على سيدنا محمد رسوله المصطفى الكريم ذي الدعوة المنجوزة والوسيلة المذكورة ، سيد الاولين والآخرين صفوة الصفوة وخيرة الخيرة فكتب العبد المسترق شخصه وفؤاده ، المستحق بغير الايدي والفضل والمتمادي جده واجتهاده ، كتب الله للمقام العالي من أنباء المسار ما يقترن به التواتر ، ويرتفع به التشاجر من اشبيلية .

ومنها : ولما كان يوم كتابه نزل العدو المذكور فكانت بيننا وبينه مواقفات غلب فيها باطله ، ومحي بعون الله امله ، وهو قصمه الله يحاول الانتهاض ويروم الاحتمال وبناؤه قد مال ، فولى أمام حزب الله الموحدين ما ابتلع ريقاً ولا وجه الى غير الفرار طريقاً ، تكتنف السهام اذنيه وتسبق الشفار اليه ، وتكاد عقبان المنايا الواقعة على جزعاءه وجرحاءه تقع عليه فكم خلف خلفه من قتيل مضرج بدمه وجريح عض بنان ندمه ، اردته مواعيده الكاذبة وتمويهاته العائدة عليهم وعليه بسوء العاقبة وتبعتهم اجناد الله الى مضاربه فألفوها خرقاً مصفقة بالرياح ، لا بل خلقاً ممزقة بالرماح ، قد اخلاها جزعاً وخلاها فزعا ، وأوى الى ربوة ليست ذات قرار ولا معين ، واستمسك بعروة لا تثبت مع شمال ولا يمين ، وكانت الشمس قد وجبت واسحبت والظلمة قد ازفت وازلفت فمحت الاشخاص من النواظر وعمت تلك الربوة على الاقدام والحوافر ، ولولا سواد الليل خامره السنان المؤلل ، وغادره بالأثلاث لحماً لا يظلل . ومنها :

وإن المحنة بهذا البائس قد بلغت مداها ، وانقبضت بعد البسط يداها ، وانتهى الى غاية لا يتعداها ، والحمد لله الذي أذل للخلافة العادلية أحد عداتها ، وأنصفها من منازعها بأداتها ، فكافر النعم تستحيل عليه نقماً ، وحاجب الشمس ضوءها حافظاً بين ظلام وعما ، والموحدون عازمون على اتباع هذا العدو الى أن يدعوه عقيراً أو يستثبتوه أسيراً ان شاء الله تعالى ، وكتب في ربيع الأول من عام ثلاثة وعشرين وستمائة .

وكتب أيضاً أبو العلا لأخيه العادل يخبره برجوع بلد طليطلة اليه وانتزاعها من أيدي البياسي المذكور بعد ما هزمه .

وفي هذه السنة رجع أهل حصن القصر الى والي أشبيلية أبي العلا وخرجوا عن طاعة البياسي الذي محى الله أثره عند جولته الخائبة ودعوته الكاذبة قد استمال جملة من حصون الشرف اتباعاً خفت أحلامهم وما رجحت، وخفيت عنهم سبيل الحق فما وضحت ، وتلقوه تلقي البدار، وتطارحوا عليه تطارح الفراش على النار ، وإذا أراد الله بقوم سوءاً أعمى بصائرهم ، وطوى على كفر النعم سرائرهم ، وكان لما فتح أبو العلا حصن القصر المذكور واستمر فتحه لغيره من حصون الشرف ولم يبق للبياسي منها الا الأقل .

وفي هذه السنة قامت العامة من أهل قرطبة على البياسي المذكور وقتلوه وبعثوا برأسه الى اشبيلية فبعثه السيد أبو العلا الى حضرة مراكش الى العادل وكتب عن أمير المؤمنين العادل جواباً لأخيه أبي العلا بغد ما ورد اليه كتابه مع رأس البياسي يتضمن تقديم أخيه أبي العلا المذكور على قرطبة مضافة له لاشبيلية .

وفي سنة أربع وعشرين وستمائة خالفت عرب الخلط على العادل فجهز اليهم عسكراً فهزمته الخلط وكان أول جيش جهزه العادل من عساكر الموحدين . وفيها قام بعض أشياخ الموحدين على العادل بمدينة مراكش حرسها الله ، ثم بعد ذلك قتلوه ، وكان السبب في قتل العادل على ما ذكره بعض العارفين بذلك أن الموحدين استعدوا لقتال الخلط وهسكورة ووصلت الحصص من جبالهم برسم قتالهم فاستأذنوا في ورودهم اليه وقدومهم عليه فوعدهم ليوم الخميس الآتي ثم بعد ذلك بلغهم عنه ما أغاظهم من القول الذميم لهم فبينما العادل قاعداً في القبة مع كبراء الدولة اذ أقبلوا قاصدين اليه فعندما عاينهم وفهم الشر منهم قام بعض الفتيان فقتلوا أحدهم وقتلوا للعادل ابناً صغيراً واختفى العادل حينئذ ثم بعد ذلك ظفروا به وقتلوه وكتبوا بيعتهم لأخيه أبي العلا وبعثوا بها اليه ثم نكثوا أثر ذلك عليه .

وفي هذه السنة قام باشبيلية أبو العلا المأمون ودعا لنفسه وخلع طاعة أخيه لتغلب الموحدين عليه وبويع بها في الثاني لشهر شوال على ما أذكره ان شاء الله تعالى . وكان من أول تخلص الأمر للعادل الى أن دعا أخاه لنفسه منازعاً له ثلاثة أعوام وشهر واحد وعشرة أيام أولها الثاني والعشرين لشعبان من سنة احدى وعشرين وآخرها مفتتح شوال لكون أبي العلاء بويع في الثاني منه ودخل القصر على العادل بمراكش وقيل في الثاني والعشرين منه فكانت مدة تنازعهما عشرين يوماً وكان دخول

الموحدين عليه القصر وقبضهم عليه غدوة يوم الأربعاء الثاني والعشرين المذكور وقتلوه بعد أربعة عشر يوماً من خلعه وعزموا على بيعة أخيه أبي العلا. وقيل أنهم بايعوه بكتبهم له ثم ندموا على ذلك ونكثوا عليه لكونهم خلعوا عمه ثم قتلوه ثم قبضوا على أخيه العادل وقتلوه وقدموا ابن أخيه يحيى وتركوا أبا العلا لخوفهم منه من فعلهم بعمه وأخيه الى أن أمكنه الله منهم .

ذكر بيعة يحيى بن الناصر

بويع يوم الأربعاء الثاني والعشرين لشوال على الرواية المتقدمة وتوفي يوم الأحد منسلخ شوال من سنة ثلاث وثلاثين وستمائة فكانت دولته تسعة أعوام وتسعة أيام أولها يوم الأربعاء المذكور منها من أول بيعته إثر القبض على العادل الى أول دولة الرشيد الى وفاة المبايع له بعد أخيه أبي العلا خمسة أعوام وشهران اثنان ومنها من أول دولة الرشيد الى وفاة أبي زكرياء المذكور ثلاثة أعوام وعشرة أشهر أولها يوم الأحد مفتتح شوال وآخرها يوم الأحد أيضاً منسلخ شوال من سنة ثلاث وثلاثين وستمائة وهو يوم وفاة أبي زكرياء على ما سيأتي ذكره مع بعض أخباره في دولة الرشيد ان شاء الله تعالى . وكانت دولة يحيى نكدة كلها لم يستقر له الأمر الا نحو سنتين فلما وصل أبو العلا هزمه وفر أمامه وسار يخوض في البلاد مع بعض الموحدين الى أن تحرك أبو العلا الى سبتة وحاصرها ودخل يحيى مراكش أيضاً ثانية ثم سمع عن وصول عمه فخرج منها وتبعه الرشيد بعد موت أبيه فهزمه ودخل الرشيد مراكش ثم بعد ذلك فر الرشيد هارباً أمام الخلط وهسكورة ودخلها أيضاً أبو زكرياء معهم الى أن جدد الرشيد حركته من سجلماسة والغرب ووصل مراكش فهزمه وفر أمامه فما زال بعد ذلك يخوض في البلاد الى أن غدره بعض عرب المعقل وبعثوا رأسه الى الرشيد في أوائل شهر ذي القعدة من عام ثلاثة وثلاثين حسب ما يأتي ذكره ان شاء الله تعالى .

ذكر بيعة أبي العلا المأمون ومدته وبعض أخباره مع الموحدين في دولته

هو أبو العلا ادريس بن أبي يوسف يعقوب المنصور بن أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن ، بويع باشبيلية يوم الخميس ثاني شهر شوال من سنة أربع وعشرين وستمائة وتوفي يوم السبت منسلخ ذي الحجة من سنة تسع وعشرين وستمائة فكانت

دولته خمسة أعوام وثلاثة أشهر ، منها من أول تنازعه مع أخيه العادل الى يوم دخول القصر عليه بمراكش وبيعة أبي زكرياء بن الناصر عشرين يوماً ومنها من أول دولة أبي زكرياء الى يوم وفاة المأمون المذكور خمسة أعوام وشهران اثنان وتسعة أيام أولها يوم الأربعاء الثاني والعشرين لشوال من سنة أربع وعشرين المؤرخة وآخرها يوم السبت منسلخ ذي الحجة من سنة تسع وعشرين وستمائة فكانت دولة المأمون مزدحمة كلها مع العادل ومع أبي زكرياء وسبب بيعة أبي العلا المأمون باشبيلية أنه لما قام أخوه العادل بمرسية ودعا لنفسه بها وبويع فيها وخلع الموحدون عمه عبد الواحد بمراكش وبعثوا اليه بيعتهم واستقامت له الأمور ، تحرك نفس أخيه أبي العلا المذكور لطلب الامرة والخلافة فما زال يشغل نفسه بذلك ويستميل نفوس الموحدين المستوطنين هنالك .

وكان معه باشبيلية المذكورة جملة من وجوه الموحدين وأشياخهم فلم يمكنه اظهار ذلك لهم لأنه لا يعلم ما يصدر له منهم ولا يعلم ما في نفوسهم له من القبول على مراده أو الاضراب عنه فأخذ في ذلك مع القاضي أبي الوليد بن أبي الأصبغ بن الحجاج وذلك في شهر رمضان المعظم من عام أربع وعشرين المذكور وامره أن ينشىء خطبة بليغة فذكرها يوم عيد الفطر وكان قريباً من هذا التدبير ليستروح في ذلك لذكره وليعلم ما في نفوس الموحدين من أمره فشرع القاضي في انشاء الخطبة المذكورة وخطب يوم العيد وكان مساقه لها أن بدأ بخلق السموات والأرض ثم ذكر قوله تعالى : واذ قال ربك للملائكة إنّي جاعل في الأرض خليفة ثم ذكر ما معنى الخليفة الى أن ذكر المهدي ثم ذكر عبد المؤمن الى أن وصل لذكر العادل فأخذ فيه مأخذاً حسناً وتسلل منه بلطف وتسبب لذكر أخيه أبي العلا ورقق وعرض ثم أخذ بعد ذلك بأن أشار بالتصريح لذكره والتلويح بالقيام بأمره ومع ذلك كان الخطيب المذكور وأبو العلا في غاية من الخوف والحذر اذ لم يكن علم أحد بذلك غيرهما ولا دبر ذلك الأمر أحد معهما .

ولقد عرفني من أثق به أنه شاهد رعدة الخطيب في وقوفه بحيث أنه كان قريباً من السقوط الى الأرض وكل ذلك من شدة الخوف من عاقبة الأمر ، فلما كان ثاني يوم الفطر حضر في مجلس أبي العلا أشياخ الموحدين وأشياخ اشبيلية اجمعون ووقع ذكر الخطبة واجادتها وأمر القاضي الخطيب باعادتها ليسمعها من لم يعلم القصد بها فأعاد الدعاء للخلفاء فلما وصل لذكر أبي العلا أطنب فيه فقام الحاضرون

بجمعهم اليه وأخذوا بيده وأقعدوه مقعد الخلافة وبايعوه .

ولما اتصل ذلك بالموحدين بمراكش فعلوا ما فعلوه مع العادل بعد ما كتبوا اليه وعولوا في الخلافة عليه ثم ندموا وقدموا ابن أخيه كما تقدم ذكره فهاجت نفسه لذلك واتقدت جمرته لهم هنالك فبقي باشبيلية يحاول أمره ليأخذ منهم ثأره الى أن كان ذلك على ما سيأتي ذكره ان شاء الله تعالى :

أبناؤه : أبو محمد عبد الواحد وعبد العزيز وعثمان وأبو الحسن علي . بناته أمة العزيز وصفية وعائشة ونجمة وفتحونة . وأمهات الذكور والاناث روميات وسريات . وزراؤه أبو زكرياء ابن أبي الغمر وغيره . وكتب له جملة من الكتاب منهم أبو زكرياء الفازازي وان عميرة وأبو الحسن الرعيني وأبو عبد الله بن عياش وأبو العباس ابن عمران وغير هؤلاء من الكتاب . ولما بويع أبو العلا المأمون باشبيلية طاعت له بعض بلاد الأندلس وبايعه بها السيد أبو زيد صاحب بلنسية وكتبوا بيعتهم اليه .

وفي سنة خمس وعشرين وستمائة كان ابتداء ظهور أبي عبد الله محمد بن يوسف بن هود الجذامي بشرق الأندلس على ما أذكره

وذلك أن السبب في ابتداء ظهوره ونجح أموره في رجب من هذه السنة المؤرخة هو القائد الغشتي وكان هذا الغشتي رجلاً حواساً[125] وتحت يده جماعة كبيرة من اراذل الناس السفلة الخساس وصاروا له أعواناً وجساساً ، فكان يقطع بهم المطرقات في تلك النواحي والجهات كأنهم مغاورين فيها للروم المجاورين اليها حتى اشتد ضرره هنالك بالأرض ومن عليها ، ولحق اذاه المسلمين المترددين في طرقاتهم لتجاراتهم . وكان هذا محمد بن يوسف رجلاً من أصناف الجند بمرسية وغيرها لكنه كان لأسلافه القدماء تقدم ملك تلك البلاد الشرقية الأندلسية تقلدوا حكمهاقديماً وأمرها فقيل إن بعض المنجمين كان يقول لبعض أمراء بني عبد المؤمن إن قائماً يقوم عليكم بتلك البلاد يكون من صنف الأجناد اسمه محمد بن يوسف فقتلوا بسبب ذلك شخصاً بجيان يسمى بذلك الاسم ، وظنوا امتحاء ذلك الرسم ، فوقع في النفوس من ذلك ما وقع الى أن خرج ابن يوسف هذا من مرسية الى مراكش في خدمة

(125) حواسا . بمعنى لصّ لهجة محلية . انظر معجم دوزي ، ج ١ ص 336 . ط باريس 1967 .

بمخاطبة الى أمير المؤمنين المستنصر بالله فوصل بالمخاطبة اليها واسمه مكتوب فيها فصرف بعد أيام من مراكش الى بلاده فقيل إنه لم يعط كتاباً ولا جواباً وانما خرج فاراً بنفسه خائفاً على رأسه .

فلما كان في بعض الأيام لقيه شخص منجم يدعي ذلك العلم بزعمه ويحكم بما يراه في نجمه ، وذلك كله بحكم الله سبحانه الذي سبق في علمه فنظر اليه وقال له يا أبا عبد الله أنت هو سلطان الأندلس فانظر لنفسك وانج برأسك فاني رأيت فيك علامة الملك وتصييره اليك وأنا أدلك على من يقيم لك ملكك وأشير به عليك فانهض الآن الى المقدم الغشتي ومعه يقوم أمرك وحالك وتكون جماعته خدامك ورجالك فنهض أبو عبد الله محمد بن يوسف المذكور الى تلك الجماعة ومقدمها الغشتي المشار اليه .

فلما وصل إليه وقص خبره عليه سر الغشتي بذلك سروراً عظيماً وكان محمد بن يوسف هذا على فرس ذكر أشهب ، وبه استدل المخبر له فيما زعم من علمه وذلك من العجب ، فكان هذا الحصان عند ابن هود ذا شأن وعزة فقال المقدم لابن هود ما بيني وبينك كلام في شيء من الأشياء حتى نخرجوا معك للمغاورة ونجتمعوا عليك وننسوا خروجنا إليك، فخرجوا على سعده إلى جهة من جهات الروم فاكتسحوا ما فيها من البقر والأسرى فكان قد انضاف إلى ابن هود أناس آخرون اتبعوه ثم زادوا إثر تلك الوجهة طائفة أخرى وانضافوا جميعاً مع طائفة الغشتي فنهضوا الى موضع يعرف بالصخيرات بمقربة من مرسية فبايعوه هنالك فتسامع الناس بذلك فبادروا إليه خفافاً وثقالاً فرساناً ورجالاً لعلمهم بما وقع بين الموحدين وأمرائهم من خلعهم لمخلوعهم وقتلهم لعادلهم الذي كان والي مرسية . ثم ولي بعده مرسية السيد أبو العباس بن أبي موسى بن عبد المؤمن وهو الذي خرج عليه ابن هود في هذه السنة فخرج إليه بعسكر من مرسية فهزمه ثم خرج إليه والي بلنسية السيد أبو زيد فهزمه واستولى على محلته وعاد إلى مرسية فزحف إليه بجمعه براية سوداء يدعي أنه قائم بدعوة بني العباس فبايعه فيها لفيف الناس ونبذوا طاعة الموحدين وارتفع عنهم بذلك الشك والالتباس وشاع ذكر ابن هود في الأندلس وأقطارها ، إلى أن ملك البلاد وجند الأجناد ، وعاهد لصاحبه الغشتي أنه إن ملك البلاد الأندلسية أن يعطيه القيادة الحربية فكان ذلك كما عاهده وواعده ، فلما ملك إشبيلية أعطاه قيادة أساطيلها والنظر في أحوالها ، إلى أن طاعت له سبتة فأعطاه إياها قيادة وعملاً وتنويهاً به فلما

علا سعده وكمل قام عليه أهل سبتة وأرادوا قتله ففر أمامهم وخفي أثره إلى أن تحقق بعد ذلك خبره فقيل إنه دخل في زورق صغير ليهرب فيه إلى الأندلس أمام أهل سبتة فحمل في أيدي العدو أسيراً فحمل إلى جبهة غرب الأندلس ودام في الأسر أعواماً كثيرة وشهوراً ، ولو علموا أنه الغشتي لقتلوه أو طلبوا منه مالاً كثيراً ، لأنه كان قد ضربهم في البحر وله فيهم جملة غزوات قتلهم فيها واستأصلهم وشاع ذكره في الآفاق حتى ضرب به المثل لزعامته وشهامته وخرج من الأندلس في شيخوخته وله أخبار يطول ذكرها ومات برباط أسفي رحمه الله تعالى رجع الخبر إلى ابن هود .

ذكر بعض أخبار الدولة الهودية المتوكلية وقيامها بالدعوة العباسية في البلاد الأندلسية

بويع ابن هود بمرسية غرة رمضان المعظم من سنة خمس وعشرين المؤرخة وتسمى بأمير المسلمين ومعز الدين وتلقب بالمتوكل على الله وقام بدعوة الخليفة أبي جعفر المنتصر بالله فسماه مجاهد الدين سيف أمير المؤمنين عبد الله المتوكل عليه أمير المسلمين وهكذا كان يكتب عن ابن هود في أوائل كتبه علامته توكلت على الله الواحد القهار وعلامة أخيه أبي النجا وثقت بالله وحده وكان لسائر إخوته علامات في كتبهم وألقاب يمتازون بها في رعيتهم فسمي أبو النجا سالم غماد الدولة وأبو الحسن عضد الدولة وأبو إسحاق شرف الدولة فكان يكتب عنهم من الأمير فلان. وتوفي المتوكل على الله في سنة خمس وثلاثين فكانت دولته عشرة أعوام أو نحوها قتله ابن الرميمي قيل بالسم وقيل بمخدة، وذكر الناس في سبب قتله أقوالاً وسأذكر بعض أخباره على مرور السنين .

وفي هذه السنة وهي سنة خمس وعشرين تحرك المأمون بعساكره من مدينة إشبيلية إلى مقاتلة ابن هود فالتقيا فهزم المأمون لابن هود أشنع انهزام وكتب إلى أهل إشبيلية بشرح الأحوال لهم فيها والاعلام وامتدحت المأمون أبا العلا جماعة من الشعراء فقابلهم بأجزل العطاء على هذه الهزيمة وغيرها فمنهم الكاتب أبو زيد عبد الرحمن الجزولي قال يمدحه في قصيدة طويلة منها :

كل يقول ونصركم مأمون ... واليمن منه على الفتوح ضمين
في كل محمدة على المأمون عبد الل ... له زاد أبو العلا المأمون
معنى الخلافة سرها مختارها ... مأمونها ميمونها الميمون

نصر الإمام أبي العلا جار على / حكم القضاء وانه لمكين
اللّه أيد أمره وقضى له / بالظفر بالأعداء وهو جنين
نطق الزمان به وقال محققاً / إذ ذاك أمر اللّه فهو مبين
رفعت له أيدي السعود مبانياً / من فوقها حصن عليه حصين
قامت على أسس الهداية فاعتلت / ومنارها للمتقين الدين
وسماؤها النصر العزيز وأرضها / تقوى الالاه وإنه لمعين
أضواء أسرار الخلافة كلها / بيد الخليفة حبلهن متين
اهنأ أمير المؤمنين أبا العلا / اهنأ فأمرك في العلا مكنون

ومنهم الكاتب ابو جعفر ابن الكاتب ابي عبدالله بن عياش قال من قصيدة أولها :

فؤادي بأمداح الخليفة هيمان / ففيه اعتزاز والتغزل اذعان
علوت ومقصودي الإمام أبو العلا / وفي من أياديه على المدح سلطان
قصدت أمير المؤمنين بمدحه / فأمداحه للمرء يمن وإيمان
هو الملك المأمون لله دره / نماه الى بيت النبوة عدنان
فما الأصل إلا للنبوة ينتمي / ومن طيب ذاك الأصل تنعم اغصان
فطاعته فرض على الناس كلهم / وعصيانه لا شك لله عصيان
بقيت أمير المؤمنين مؤيداً / فإنك روح والبرية أبدان
ولا زال أمر الله يعضد امركم / ويحرسه طرف من النوم يقظان

ومنهم أبو الحسن علي بن الفضل قال من قصيدة طويلة يمدحه :

ملك العليا إمام / مالك دنيا ودينا
وأتى الجامع زهداً / مع جمع الزاهدينا
عقدوا الرايات فيه / عقد عزم مخبتينا
وإلاه الناس يقضي / لهم الفتح المبينا
أيها المأمون صمم / تصطليهم أجمعينا
وجزاك الله عنا / بجزاء المحسنينا

ومنهم أبو أمية إسماعيل بن سعد السعود بن عفير فمن ذلك قوله من قصيدة أولها :

حسب الإمـامـة أنـك المـأمـون لاقـاك طـالـع سعـدك الميمـون
حسمت خلافتك الخلاف كما بدا بسنـاك نـور الحق فهـو مبيـن
فعسـاك عيسى تنجليْ بـك فتنـة دجـالـهـا بسـفـالـة مفـتـون
سيرى مطيـع هواه كيف يخـون من روح الالاه عـلى حـمـاه أميـن
لـكـن أمـر الله فـيـهـم والـذي أرجـاه مـن ميـعـاده سجـيـن
من رام يـا مـأمـون كيـدك إنمـا كـاد الالاه وذاك كـيـف يـكـون
يـا ابن الخـلائف يـا خليفتنـا الـذي نسق الـفتـوح بسعـده مضمـون
يهنيـك بـل يهني الأنـام بشـائـر يصغي العـراق لـذكـرهـا والصين
ودعـاؤ نـا عنـد الاصائـل والضحى كـلأتـك عيـن الله يـا مـأمـون

ولم تزل الشعراء تمدحه في كل وقت فيقابلهم بالبذل لا بالمقت. ولما صدر أبو العلا المأمون من حركته بعد مقابلة ابن هود وهزيمته واستقر باشبيلية حضرته وصلته بعض البيعات من بلاد المغرب ووصلته بيعة هلال بن مقدم الخلطي وانه تحت طاعته وداخل في سلكه وجماعته، وانه لا يتبع يحيى ولو سقاه بكأس المحيا فكتب له أبو زيد الفازازي عن إذن المأمون شعرا يشكره على فعله، ويعده فيه بأقصى أمله وهو:

الطعن والضرب منسوبان للعرب بـالسمهـريـة والهنـديـة القضب
والحرب تبعث منها كل معترك حفائظا تترك الأعداء في حرب
حازوا الوفاء الى الاقدام وانتسبوا الى خلال المعاني كل منتسب
تجشمت جشم نصر المعد لها أسنى الجوائز من مال ومن نشب
وجاءت الخلط المشكور مقدمها كالأسد تبدو عليها سَوْرَةُ الغضب
خفوا الى نصر حزب الله واحتفلوا فيعسكر صَخِبٍ[126] او جحفل لجب
كتائب ضاقت الأرض الفضاء بها في ظل ألـويـة منشـورة العـذب
فمن صوارم مثل النار في ضعد ومن سوابق مثل الماء في صبب
بحر على البر مرتج غواربه من فوقه قطع الرايات كالسحب
شواهد صدقت فيهم مخايلها بما لهم من صميم الدين والحسب
تذكروا منن المنصور فاعترفوا لنجله بعد كرات من الحقب
والفضل يبدو على الأحرار رونقه وليس يخفى على الباقي من الحقب

(126) في : ت لجب .

أما هلال فقد أوفى بذمته وفاء راع لحق الدين والأدب
رأى الخلافة حلت غير موضعها فأدركته عليها غيرة العرب
وقال لا سلم حتى يستقاد لها من ظلم مستلب أو جور مغتصب
وسلم الأمر للاولى الأحقِّ به بالرغم من أنف أهل الغدر والكذب
وافت مصرحة بالود بيعته طليعة بجزيل النصر والغلب
جمعا لفضلين يلقى الحسنيين به نصر الكتائب في الهيجاء والكتب
صبرا أبا النجم صبرا إنها ظلم تجلى وتمحى بفضل الله عن كثب
ودم على حالة تجنى عواقبها اذكى من المسك في أحلى من الضرب
فعند ذلك ايثار ومرتبة تنحط عنها مزايا سائر الرتب
وسوف تلقى بعون الله مأثرة تحظى براحتها من سائر التعب

ولما تحصلت هذه القصيدة بيد يحيى بن الناصر ورأى ما فيها من التحميد لهلال بن مقدم الخلطي امر الأستاذ أبا عبدالله ابن الصفار المعروف بالبرنامج ان يجاوبه عليها وينهج في هلال غير تلك المناهج فقال الأستاذ :

نسبت شر عبيد العجم للعرب جهلاً بفضل رسول الله والنسب
أصغْ لتسمع أنساب الذين هم شعاركم في الخطوب السود والنوب
كانت عبيد العصا للقرمطي فاذ وافى الموفقلاذت منه بالهرب
حلت محلاة بترا فقد رحلت عنها بنو جشم من مائها الأشب
خانتهم الخيل ريعان الشياه لها فلم تضرها وجدت بعد في الطلب
لو اعلمت وائل يوماً بدعوتها فيها لما شربت ماء من الغضب
ونيطت الخلط المزري بهم نسبا كأنها القبس الصيفي بالذنب
فان تكن في الوغى من طلحة سلمت فذا الموفق وصفا ليس باللقب
وليس من رهب ينجيهم هرب ما يبعدوا يقربوا للحين والشجب
أما هلال فقد حاق المحاق به لاقى الوبالين من حرب ومن حرب
حل الحضيض سقوطاً وهو محترق تحت الشعاع بشهب الهند لا الشهب
وغره خلب من شاعر ملق فنال صاعقة لا واكف السحب
وظل من رتب العليا على عدة فالترب يعلوه ما يرقى على الرتب
وصار يطمع في مال وفي نشب وصار منتشبا في برثن النشب

فقـل لـه لـو أراد الخير فـاز بـه الصيفَ ضيعت جهلاً حافـل الحلب
لمـا أوت عـاصم للدين واعتصمت بحبله نـالت الـدنيـا بـلا نصب
فـان يكن مهتـد منهـا بكم فكمـا تلفى خـلال رمـاد قـطعـة الـذهب
ومن عصـا منكمُ فـالمـوت يـطلبـه يمسي ويصبـح معـدوداً من النهب
والحق شمس سنـاهـا ليس يحجبـه وإن تـراكم غيـم الـزور والكـذب
يحيى خليفـة رب العـالمين ومن يجهله يعلمـه حظ السمـر والقضب
نـال الخلافـة عن خبـر وعن خبـر مـحـقـق وبـارث عـن أخ وأب
اختـاره الله فـاختـارتـه صفـوتـه من البـريـة أهـل الـدين والحسب
لم يذخروا نصحهم للدين واجتهدوا مـا كـان عن رهب منهم ولا رغب
ليست بنكث ولا كتب قـد اختلفت ولا كتـائب أهـل البغي والصلب
لم ينتصر بالنصـارى والبغاة على الـ ـمـطهـرين من الأدنـاس والـريب
خـليفـة مـرتـضى أنـصـار دولتـه أنصار أمر الهدى الباقي على الحقب
طعن الصدور وضرب الهـام عندهم مـاء الحيا شبمـاً قد شـج بـالضـرب
قبح الوغى عنـدهم حسن وراحتهم مـا نالهم في اعتـلاء الدين من تعب
وحـر جـاحمهـا بـرد العشيـة في روض عليـل نسيمـا غب منسكـب
أيـا إمـام الهـدى إن البـلاد لكم شـرقـاً وغـربـاً فنـائيها كمقتـرب
وأن يجـادلك في المنصـور ذو جدل فنجـل نوح ثـوى في قسمة العـطب
وإن يقـل أنـا عم فـالجـواب لـه عـم النـبي بـلا شـك أبـو لـهـب
وهـل يـمت بـشـيء لا تـمت بـه بل زدت فخراً ، ملأت الدلو للكَرب
إذا عصـاك مـطيـع ليس منتـفعـاً يـوم القيـامـة بـالـطاعـات والقـرب
ويـرتجى العفـو للعـاصي بـطاعتكم فـإنهـا سبب نـاهيـك من سبـب
أيـمنـح الـمـرء والقـهـار يمنعـه ويـوهب المـرء والـوهـاب لم يهب
فـدمت للديـن تحـميـه وتحفـظه من كـل بـاغ وعـاد عـابـد الصلب

وكتب يحيى بن الناصر حين ذلك يستجلب الناس لطاعته ويرغبهم في حزبه وجماعته من إنشاء كاتبه أبي الحسن السرقسطي وذلك بعد الصدر :

والذي نوصيكم به تقوى الله والاستعانة به والتوكل عليه وأن تعلموا أن أمور الرعية لا بد لها من حافظ يحفظها ويراعي حق الله فيها ويجهد في صلاح أحوالها وتلافيها ، فإنها لا تصلح إلا بسلطان يزع ، وعامل يسوس ويردع ، بهذا يكون قوام

العالم ، وينتصف المظلوم من الظالم ، وبه تكون الدعة والأمان ، وقد جاء في الشرع يزع الله بالسلطان ما لا يزع بالقرآن . ولما كانت هذه القلادة لم تزل من لدن سيدنا الإمام تنتقل من يد الإمام الى نجله وكان الأمر من مستحقيه وفي أهله ، الى أن بلغ الأمر الى المستنصر بالله أمير المؤمنين والناس في أمنة وفي تهدين ، ولو أجله الأجل ، وساعده الأمل ، لألقى هذه القلادة الينا ، وتلا قول نبيه أنا يوسف وهذا اخي قد من الله علينا، إلا أن الأمور اختلت اختلالاً ، واكتست من بعد قوة وصحة وهنا واعتلالا ، واسترسل الشر وأهله استرسالاً ، وفي أثناء ذلك كادت قواعد هذا الأمر المهدي لولا تدارك الله ان يتزعزع ، ومبانيه الوثيقة ان تتضعضع، فتلافاه الأشياخ والجلة بما شد أركانه ، وأسس بنيانه ، وأعطاه بحمد الله من كيد كايده أمانه ، واقتضى نظرهم بعد استخارة الله تعالى لهذا الأمر المؤسس على التقوى بنيانه ، وبعد شحذ العزائم ، والطيران الى الحق بعمل خفاق الخوافي والقوادم ، تحميلنا هذه الأمانة العظمى ، والقلادة الجسمى فأعطونا صفقة أيديهم وعقدوا بيعتنا بنياتهم الصادقة وايمانهم ، حرصاً منهم على لم شعث المسلمين وعناية بأمور الدنيا والدين وردعاً لمن ظن ان الفتنة أمكنت وصولاً ، وأن الاعتداء أوجد الى الاعتداء سبيلاً ، وما علم أن أمر الله محروس الجانب ، وأن الشيطان مقذوف من سماء سعادة هذه الدعوة بشهاب ثاقب وأن الدول تدوى وتُبِلّ ، ويعتريها ما يعتري الأبدان من الأدواء ثم تستقل ، ونحن قد أخذنا راية هذا الأمر باليمين ، وتلقيناها تلقي الحازمين ، فكونوا من ذلك على بينة ويقين ، واعلموا ان الله قد جاءكم بمن يسهر في مصالحكم وأنتم نائمون ، ويقوم بما يعود الأصلح عليكم وأنتم قاعدون ، ويقضي لقاصيكم ودانيكم بالدعة والهدون ، فاستقبلوا زمناً جديداً ، وتفيئوا ظل الدعة مديداً ، واعلموا أننا نستقبل المسلمين بنظر يزيدنا محبة لهم ، ويعرفهم ما لنا من الرفق والحنو عليهم ، فان مقصودنا في الأمة جميل ورأينا في تأليف موجبات الاستيصال أصيل ، فنحن نصفح عن الجانب ، ونحل قيد الجاني، ونصرف عن الوعيد الى الوعد ، ونؤثر العفو على المؤاخذة والقرب على البعد ، فكونوا على صحة من أن الأحقاد قد ذهبت رسومها ، وزالت من الأجياد وسُومُها[127] ، وإن الناس معنا في زمن شب واقتبل ، وأن الآمِلَ[128] بفضل الله مدرك الأمل ،

(127) في : ط . الأحياد وسومها . وكذلك في : ت . ويظهر أن الصواب ما أثبتناه .

(128) في : ط . وت . الأمل . ولعل الصواب ما أثبتناه .

فـادخلوا وفقكم الله فيما دخل فيه الجمهور ، وابعثوا بيعتكم بعد أخذها وثيقة الأساس ، محكمة الامراس ، في طاعة سعد ويمن الى حضرة الموحدين ، والله المنجد المعين. وقد عرفناكم بما انعقد علينا من الموحدين ومن اليهم من المسلمين فتيمنوا ، ودعونا الله في الخيرة والانجاد والعون فأمنوا. اللهم انك قلدتنا امور المسلمين ، وارتضيتنا للنظر في مصالح الدين واخترتنا للملة الحنيفية خدماء ، واسبغت علينا النعماء، فاجعلنا لانعمك من الشاكرين ولآلائك من الذاكرين ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

ولما سمع أبـو العلا بذلك كله اقلقته مبايعة يحيى بن الناصر ونكث الناكث عليه من الموحدين وغدر الغادر ، فنظر في الجواز لبر العدوة وعمر بذلك باطنه رواحه وغدوه ، فحشد الحشود وزمم الجنود ، وجمع نحو خمسمائة فارس من الروم ، لما كان يبغي من الحركة ويروم ، فلما علم بذلك ابن هود قرع الطبول ونشر البنود ، وقويت شوكته وتألفت شرذمته ، واطاعته بعض تلك الأماكن ، وتحركت ارياحه السواكن ، والمأمون اذ ذاك لم يشغل فكره الا بما عمر ، ولا انهل سحاب بأسه ولا انهمر ، فركب طرفه ، وغمض طرفه ، وأمر بالرحيل ورحل في سنة خمس وعشرين وستمائة .

وفي سنة **ست وعشرين وستمائة** استقر أبو العلا بحضرة مراكش ولما وصل اليها ونزل عليها خرج اليه ابن اخيه يحيى بن الناصر بمن كان معه من العرب والموحدين وسائر الجنود والحشود وضربت قبته الحمراء على جبل ايجليز واستعد لمقابلته ومحاربته وكان المأمون قد وصل من الأندلس بنحو خمسمائة فارس من الروم وبمن كان معه من العرب والموحدين والجنود والحشود فقصد الروم الى القبة الحمراء فمزقوها ووقعت الهزيمة على عساكر يحيى بن الناصر وهرب فارا بنفسه ، لا يعلم يومه من أمسه ، وهزمه عمه هزيمة عظيمة قتل فيها من الموحدين واتباعهم من العرب واشياعهم امما لا تحصى ، ولا تكاثر بالحصى . وأمر بتعليق رؤوسهم مع كل شرافة من سور مراكش حرسها الله تعالى حتى ملأت الرؤوس اكثر شرافات السور وفر يحيى بن الناصر يتعلق بالجبال الشواهق مع كل منافق الى ان استقر مع الموحدين في جبالهم ، وتعذرت عليهم جميع أمورهم وأحوالهم . واستقر أبو العلا المأمون بحضرته ونظر في أمور مملكته واخذ في ذلك مع خاصته

وأربـاب دولتـه فـأول مـا شـرع فيـه وبثـه مـلء فيـه مسئلة النـاكثين عليـه من المـوحـدين ومـن الهنتـاتيين والتنمليين بعـد تـأمينـهم والنـداء عليـهم بذلك بمـراكش ، فخرج من كـان فيها من المـوحدين اليـه وطلعوا بـالسلام عليـه . فـأجمع على مسـألتهم بعض الفقهاء وعـرفهم بتوجيـه مبايعتهم اليـه ثم مـا كـان من خديعتهم ونكثهم عليه وقال للفقيه القاضي المكيدي ما تقول يا فقيه في قوم بايعوا شخصاً ثم نكثوا عليه وخلعوه ثم قتلوه ، ثم بايعوا شخصاً آخر فنكثوا عليه وقتلوه ، ثم بعثوا بيعتهم هذه إلي ، ثم نكثوا أيضاً علي ؟ فقال له القاضي : وجب عليهم القتل اجمعين يا أمير المؤمنين وقرأ سورة المنافقين الى قوله تعالى :﴿ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها والله خبير بما تعملون﴾فأمر أبو العلا المأمون بضرب رقابهم فقتل منهم في ذلك اليوم نحو مائة شخص من أعيانهم وخرق لهم حفير كبير خارج باب السادة ودفنوا هنالك ووقع البحث والطلب على من بقي منهم بمراكش فمن حصل سلك به تلك المسالك حتى اخذ بعض اصاغرهم من محاضرهم وقتلوا عن آخرهم .

ومن قول أبي العلاء المأمون في قتلهم عفا الله عنهم :

أهل الحرابة والفساد من الورى ... يعـزون في التشبيـه للذكـار
ففسـاده فيـه الصـلاح لغيـره ... بـالقطع والتعليق في الأشجـار
ذكـارهم ذكرى إذا مـا ابصروا ... فوق الجذوع وفي ذرى الأسوار
لـو عم حلم الله كافـة خلقـه ... ما كان أكثرهم من آهل النـار

ومن كتبه بخط يده رسالة لأهل اندوجر يزجرهم عما فعلوه من القبيح ويصرح بقتلهم ان لم ينتهوا اي تصريح ومن ذلك بعد الخطبة والصدر :

الى الجماعة والكافة من فلانة ، وقاهم الله عثرات الالسنة وأرشدهم الى محو السيئة بالحسنة ، أما بعد فانه وصل من قبلكم كتـاب جدد لكم أسهم الانتقاد ، ورماكم من العناد بالداهية النآد ، أتعتذرون من المحال بضعف الحال ، وبقلة الرجال ، فألحقكم بربات الحجال ، كأنا لا نعرف مناحي أقوالكم ، ولا نعلم بتقلبكم في أحوالكم ، لا جرم انكم سمعتم بالعدو قصمه الله ، وقصده ذلك الموضع عصمه الله ، فطاشت قلوبكم خورا ، وعاد صفوكم كدرا ، وشممتم ريح الموت وردا وصدرا ، وظننتم انكم أحيط بكم من كل الجوانب ، وان الفضاء قد غص بالتفاف

القنا واصطفاف المقانب[129] ورأيتم غير شيء فحسبتموه طلائع الكتايب . تبا لهممكم المنحطة ، وشيمكم الراضية بأدونِ خطة ، حين ندبتم الى حماية اخوانكم، والذب بالكلمة عن مقتضى ايمانكم ، نسقتم الاقوال وهي مكذوبة ، ولفقتم الاعذار وهي بالباطل مشوبة ، لقد آن لكم ان تمدوا ذيل الحرمان الى مغازل النسوان ، وما لكم ولصهوات الخيول ، وإنما على الغانيات جر الذيول ، أتظهرون العناد تصريحاً وتلويحاً ، وتظنون إنكم إذا تفرقتم لا نجمع لكم شتاتا ولا ندني منكم نزوحاً، أين المفر وأمر الله يدرككم ، وطلبنا الحثيث لا يترككم، فأميطوا هذه النزعة النفاقية عن خواطركم قبل ان نمحو بالسيف أقوالكم وأفعالكم ، ونستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم ، ونحن نقسم بالله لو اعتسفتم كل بيداء سملق ، واعتصمتم بأمنع معقل وأحفل فيلق ، ما ونينا عنكم زمانا ، ولا ثنينا عن استيصال العزم عنكم عنانا ، فلا يغرنكم الامهال أيها الجهال ولا يعودنكم الاجتراء الا لنبذكم بالعراء، وأدواء الاهواء بالسيف تنحسم .

إذا رأيتم نيــوب الليث بـارزة فـلا تـظنـون ان الليث مبتسم

فإن كفاكم صرير الأقلام ، وإلا جفاكم ضرير الحسام ، والسلام على من استقام ، ورحمة الله وبركته .

وكتب أيضاً أبو العلا المأمون بخط يده الى بلاده كلها بزوال اسم المهدي من السكة والخطبة وذلك أنه لما قتل الموحدين أمر بقطع ذكر إمامهم المهدي من الخطبة في جميع بلاده ومحا اسمه من المخاطبات ومن النقش في السكة وقطع النداء بعد الصلاة والنداء عليها بتاصليت الإسلام وهي إقامة الصلاة باللسان البربري وكذلك سؤ دود ونادري وأصبح ولله الحمد وما أشبه ذلك مما كان العمل عليه من أول دولة الموحدين إلى هذه السنة المؤ رخة .

وهذه هي الرسالة المذكورة ، من عبدالله ادريس امير المؤمنين ابن أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين الى الطلبة والأعيان والكافة ومن معهم من المؤمنين والمسلمين اوزعهم الله شكرا أنعمه الجسام ، ولا اعدمهم طلاقة أوجه الايام الوسام ، وانا كتبناه اليكم ، كتب الله لكم عملا منقادا ، وسعدا وقادا ، وخـاطرا

---

(129) في . ت . المقانب . ولعله هو الصواب .

سليما، لايزال على الطاعة قائما مقيما ، من مراكش كلأها الله تعالى، وللحق لسان ساطع ، وحسام قاطع ، وقضاء لا يرد ، وباب لا يسد ، وظلال على الآفاق لمحو النفاق يعد ، والذي نوصيكم به تقوى الله والاستعانة به والتوكل عليه ، ولتعلموا انا نبذنا الباطل واظهرنا الحق ، وان لا مهدي الا عيسى ابن مريم ، وما سمي مهديا الا انه تكلم في المهد وتلك بدعة قد ازلناها ، والله يعيننا على القلادة التي تقلدناها، وقد ازلنا لفظ العصمة عمن لا تثبت له عصمة ، فلذلك ازلنا عنه رسمه ، فتسقط وتبت وتمحى ولا تثبت ، وقد كان سيدنا المنصور رضي الله عنه هم ان يصدع بما به الآن صدعنا وان يرقع للامة الخرق الذي رقعنا ، فلم يساعده لذلك امله ، ولا اجله اليه اجله ، فقدم على ربه بصدق نية وخالص طوية، واذا كانت العصمة لم تثبت عند العلماء للصحابة ، فما الظن بمن لم يدر بأي يد يأخذ كتابه ، أُفٍّ لهم قد ضلوا وأضلوا ، ولذلك ولوا وذلوا ، ما تكون لهم الحجة على تلك المحجة ، اللهم اشهد اللهم اشهد انا قد تبرأنا منهم تبرؤ أهل الجنة من أهل النار ، ونعود بك يا جبار من فعلهم الرثيث ، وامرهم الخبيث ، انهم في المعتقد من الكفار ، وانا فيهم كما قال نبيكم عليه السلام ﴿ ربِّ لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً ﴾ والسلام على من اتبع الهدى واستقام .

وامتدحته الشعراء حين ذلك بما يتنسم نداً ومسكاً ، وتجعله بعقد نحرك سلكاً ، فمن ذلك الكاتب الأجل أبو الحسن الرعيني قال يمدحه :

تتيه بك الدنيا ويزهو بك الملك ... ويعزى إليك الفضل والدين والنسك
وتتسق الأمداح فيك تتابعا ... يباهر أوصاف كما انتظم السلك
وتشهد أملاك الزمان إذا رأوا ... سناك الذي يجلو الدجا أنك الملك
وما ذاك إلا أن سبقت وقصروا ... وأدلجت إذ باتوا وحققت إذ شكوا
أنال بك الإسلام أقصى مراده ... وقد سعد التوحيد إذ شقي الشرك
وأظهرك الجد السعيد على العدا ... فكان لك المنجى وكان لها الهلك
أيا ابن أمير المؤمنين أبا العلا ... أصخ سمع إحسان لعبدك إذ يشكو

ومنها :

وأرجو لدى مولاي لمحة رحمة ... فانعامه ينمو وإحسانه يزكو

وقال محمد بن إبراهيم الذرة يمدح أيضاً أبا العلا المأمون :

ألا وضح التحقيق وارتفع الشك بأنك ملك لا يقاس به ملك
جبينك إصباح وكفك مزنة وبأسك طوفان ورايتك الفلك
ويمناك محيا للأنام ورحمة إذا حاق من محل الزمان بهم هلك
تنيل من الأفراس ما بان عتقه وتعطي من الابريز ما أخلص السبك
فأنتم أمير المؤمنين بعدلكم تعزز دين الله وارتفع الشك

وقال آخر في هذا المعنى :

لك الله من ملك إلى ملك يعزى يحوط العلى حفظاً ويكنفها حرزا
سما واحداً من جانبيه إلى العلى فلا يعتزي جمع إليها ولا يعزا
بعثت ثناء في نظامك عاطرا هززت له من عطف مجدك ما اهتزا
إذا كنتم لي ساعدا أنا كفه فيا ليت شعري بالفضيلة من يجزى
وأنتم بني المنصور أولى بخطة هي الملك إذ طرزتم مجدها طرزا
إلا إنما في كل حال لك العلى فدم يا أباها تكسب المجد والعزا
فأنت لها ما دمت في الأرض إنما نراك عليها من نوائبها حرزا

وإن أمداحه لكثيرة جداً لا أحصي لها عدداً والكفاية منها ما ذكرته ولاختصار الكتب اختصرته .

وفي هذه السنة وهي سنة ست وعشرين قوي أمر الأمير أبي عبد الله محمد بن يوسف بن هود بالأندلس

فأول من طاع له من بلادها أهل مرسية فخرج إليه المأمون في السنة الفارطة كما تقدم فقابله وقاتله فوقعت الهزيمة على ابن هود ، وبعد انصراف المأمون عنه إلى إشبيلية قام بدعوته ابن الرميمي بمدينة المرية ، ثم طاعت له أغرناطة ومالقة فضعف المأمون عن مصادمته لما كان قد أهمه من أمر الموحدين بمراكش ، فلما استقر المأمون بمراكش واشتغل فيها بما اشتغل اتقد نار الفتنة بالأندلس واشتعل وطاعت لابن هود أكثر بلادها ورؤسائها وأنجادها وخلعوا طاعة الموحدين عنها وقتلوهم في كل بلد منها وأجلوهم واستأصلوهم إلا من ستره الله منهم وأخفاه في ذلك الوقت عنهم .

واجتمع أهل إشبيلية في يوم الخميس ثاني عيد الأضحى من هذه السنة

بموضع يعرف بالنخيل . فتكاثر فيه القال والقيل ، إلى أن خلعوا طاعة الدولة الموحدية والتزموا طاعة الدولة الهودية وكتب عنهم أبو بكر ابن البناء كتاباً يعلمه بذلك ، وأن الله أرشدهم إلى أقوم المسالك ، فجاوبهم على ذلك أخو المتوكل على الله وهو أبو الحسن عضد الدولةمهنئاً لهم على اجتماعهم على الطاعة ، ودخولهم في حزب الجماعة ، وعلى قيامهم بالدعوة العباسية وخلعهم للدولة الموحدية وبما لهم عند أخيه من الأثرة والتقديم ، والبر والتكريم ، وذلك بتاريخ السابع عشر لذي الحجة من السنة المؤرخة .

وفي هذه السنة فارق زيان بن مردنيش السيد أبا زيد البياسي وقاطعه وضبط بلده بلنسية ولحق السيد المذكور بالنصارى وانقطع إليهم حتى مات فيهم،وأما أخوه عبد الله فكان من أمره ما تقدم مما هو مشهور مذكور نسأل الله العافية وحسن العاقبة . ومن الاتفاق الغريب أن نصرانيين وصلاه قبل ذلك بأمد قريب أعني للسيد أبي زيد فقالا له نراك تصل إلينا وتدخل في ديننا فكره ما قالاه وقتلهما صبراً فلم يكن بعد ذلك إلا قليلاً ولحق بالنصارى مرتداً وفارق أهله وولده واستوطن بينهم ، ثم سقط من أعينهم فرفضوه واطرحوه ولم يعش بعد ذلك إلا يسيراً ومات .

وفي سنة سبع وعشرين وستمائة تحرك المتوكل على الله ابن هود بجيوش عظيمة من المسلمين إلى غزو أعداء الله الكافرين فالتقى مع عساكر الروم على ماردة فدفع فيهم بنفسه بنجدته وعزمه ، ثم انهزم إلى ساقته فوجد قد ولوا منهزمين هنالك من أجل ذلك وكان من طبعه ملولاً عجولاً وكانت هذه الغزوة أول غزواته واضخمها فلم ينصر فيها .

وفي هذه السنة كانت المقابلة بين يحيى بن الناصر والمأمون بمقربة من مراكش في يوم السبت الخامس والعشرين لشهر ربيع الأول فانهزم يحيى وفر إلى الجبل وقبض المأمون على قاضيه أبي محمد ابن عبد الحق ودفعه إلى هلال بن مقدم الخلطي وحبسه حتى افتدى منه بخمسة آلاف دينار وقيل غير ذلك .

وفي شهر رمضان المعظم منها خرج المأمون من مراكش وهزم يحيى بن الناصر والموحدين بفحص واونزرت إلى لجاغة فقتل المأمون في تلك الهزيمة من أهل الجبال أعداداً كثيرة وعلق على سور مراكش من رؤوسهم نحو أربعة آلاف رأس وكان زمن القيظ فشكا الناس روايحها للمأمون فجاوب من أخبره بذلك بأن قال

إن هامات المحاربين هي إحراز لهم وروائحها عطرة عند المحبين منتنة عند المبغضين . وكتب المأمون بعد ذلك بتغيير سير الموحدين حسبما تقدم .

تلخيص الخبر بابتداء الدولة الموحدية الحفصية واستيلاء الأمير أبي زكرياء على تونس وتلك البلاد الأفريقية

وهو أبو زكرياء يحيى بن الشيخ أبي محمد عبد الواحد بن أبي حفص عمر بن يحيى الهنتاتي . وذلك لما كان من أمر ابن غانية في تلك البلاد ما كان وتغلبه عليها استطالت أيدي المعتدين والمفسدين فيها بكل مكان واستيلائه على بلاد الجريد وأقطارها وعلى تونس وأنظارها ودخوله إياها عنوة وأخذه للسيد أبي زيد صاحب تونس مع ابنه أسيران وحبسهما في ثقافه أشهراً وأياماً وكان مدة تغلب ابن غانية على تلك البلاد واقامته فيها بالعيث والفساد نحو عشرين سنة إلى أن وصل أبو عبد الله الناصر إليها واستولى بعساكره عليها ففر ابن غانية أمامه من تونس من غير قتال ولا حرب ولا نزال فبعث الناصر لها من هدن أهلها وتوجه إلى المهدية فحصرها وكان ابن غانية قد شحنها بالرماة والرجال ، والعدد والأموال .

وفي أثناء تلك الأحوال والفتن والأهوال ، ألف ابن غانية أخلاطاً من الأعراب ووافقهم على الارتحال معه بالأهل والولد والمال والعيال ثقة منه أنهم لا يولون الأدبار ، وأن الهزيمة عليهم عار ، فقدم الناصر الشيخ أبا محمد عبد الواحد على عسكر كبير من حماة الموحدين وأنجادهم منتخبين من رؤسائهم وكبارهم فخرج بالعسكر من ظاهر المهدية ، باعتقاد صادق الطوية ، وكان ابن غانية بأحواز قابس قد تكاملت أمداده ، واستوفت عليه أعداده ووصلوا إليه بخيلهم ورجلهم فقصد أبو محمد إليهم ودفع بجملته عليهم وأجلت الحرب عن انسلاخ العرب عن أموالهم وأثقالهم واستولى عسكر الموحدين على رجالهم وكراعهم بعد قتل من قتل وأسر من أسر منهم وختل ، وقفل أبو محمد عبد الواحد بالعسكر إلى الناصر منصوراً ظافراً فكان ذلك ابتداء السعود لبني أبي حفص في تلك البلاد وانجاز القدر لهم بملك إفريقية إلى الآن وذلك في آخر سنة اثنين وستماية .

فلما كان في آخر سنة ثلاث وستماية حين أخذ الناصر في القفول من تلك البلاد ، واعمل نظره فيما يحتاج إليه من الصلاح والسداد وأجال بصره وبصيرته فيمن يستخلفه فيها من كبار الموحدين وأنجادها فأجمع نظره على تقديم أبي محمد عبد

الواحد لعلمه بأنه يقوم بأعبائها ، ويقاوم بنجدته ومهابته جميع أعدائها ، فقدمه عليها تقديماً لم يعهد في الولايات قبله مثله ، وأسند أمر إفريقية كلها إليه ، واعتمد في صلاحها وسدادها وصلاح أهلها بالجملة عليه وأباح له التخيير في قبائل الموحدين وغيرهم من يريد البقاء معه من أولاد الموحدين وأنجادهم فاختار جملة كبيرة من أولادهم وأجوادهم ، فصار تحت يده جموع وافرة ، وجيوش متكاثرة ، فاستقر بتونس في حالة فخمة وولاية ضخمة اقترن بها السعد وانتجز لها بالفتوح الوعد .

ثم أيضاً ما كان من تغلبه على عسكر ابن غانية في سنة خمس وستمائة واستيلائه على جميع ما كان بمحلته وقتله لأكثر أصحابه وجملته وتشتت شرذمته ، ثم ما كان أيضاً من خروجه بعسكره من تونس مع الموحدين وبغارته معهم على المعتدين والمفسدين ، ثم خروجه أيضاً من تونس مع الموحدين بعسكره الجرار حين حمل ابن غانية الاغترار ، وأزعجته الأقدار إلى بعض أحواز إفريقية ومعاودة حربها والانحدار إلى عمرانها وقربها ، وكان ابن غانية قد ألف من العرب جموعاً جمة فزحف إليهم أبو محمد والموحدون فتقابل الجمعان والتحم الفريقان ، فانهزم بعض الموحدين والأغزاز المتجندين ، وثبت أبو محمد بمركزه في قلب ساقته ، مع من كان معه من الصابرين بنجدته وشجاعته ، ورجع على الأعداء واوقع فيهم السيف واستولى الموحدون على أثقالهم وانصرف أبو محمد إلى تونس سالماً غانماً وبقي يتطوف على تلك البلاد في كل سنة على عادته إلى أن توفي أبو عبد الله الناصر عام عشرة ، وبويع ابنه المستنصر فتلكأ عن توجيه المبايعة إليه من تونس فساءت ظنون السادة وبعض الموحدين في ذلك عليه ، ثم وصلت بيعته بعد ذلك إلى الحضرة المراكشية فتخالفت الظنون في الشيء المظنون وكان كاتبه النخيلي الكاتب الجليل ، ونال معه بتونس من الخير العميم الجزيل ، إلى أن نكبه أبو العلى الكبير واستصفى أمواله وأحواله وأعطى كاتبه القنني جميع ذلك .

ولما توطدت المملكة للمستنصر ابن الناصر وتمهدت له البلاد البادي منها والحاضر من البلاد الغربية والأندلسية والإفريقية فقدم أعمامه وبني أعمامه السادة وبعثهم لقواعد البلاد ولاة ، وقدم عم أبيه أبا العلى الكبير على مدينة تونس ليستوطن قصبتها ويكون أميرها وأن يتفقد أحوالها وأمورها وكان ذا نظر سديد ، ورأي مبارك رشيد ، وهو الذي بنى بإشبيلية حين وليها برج الذهب وبنى بسبتة بابها الجديد ، فلما وصل إلى تونس في الأجفان واستقر بقصبتها مع ما كان معه من

الأهل والولد والخدام والأعوان ، وبقي الشيخ أبو محمد على أعماله ، ناظراً في اشغاله وعماله ، لكنه على ما ذكر ضاقت بوصول السيد أحواله ، وأول ما فعل السيد من أفعاله أنه بعث إلى مراكش ببعض أولاده وهما أبو زكرياء وأبو عبد الله يتصرفان بين يدي الخليفة المستنصر بالله في ولاياته وأعماله فولاهما البلاد ، وظهر منهما في ذلك الجد والاجتهاد .

فلما توفي الشيخ أبو محمد عبد الواحد بتونس آخر دولة المستنصر تقدم ولده عبد الله على عمالة تلك البلاد الافريقة تحت نظر السيد أبي العلى المذكور ، من غير استبداد منه بالأمور ، إلى أن توفي أبو العلى وولي ابنه أبو زيد الملقب بالأسمر على عادة أبيه في الأحوال وأبو محمد عبد الله بن أبي محمد عبد الواحد ناظراً في الأشغال وجابي الأموال ، وقيل إن وفاة أبي العلى كانت بجزيرة ميورقة واستمر حال أبي محمد عبد الله بتونس على أشغاله وأعماله إلى سنة سبع وعشرين فكان من أمره ما أذكره ، وذلك أنه لما بويع بإشبيلية أبو العلا المأمون نكثوا عليه الموحدون بمراكش وبايعوا يحيى بن الناصر فكان أبو العلى الكبير عم أبي العلا المأمون وأخي أبي محمد المخلوع وعم العادل المقتول والمأمون عم يحيى بن الناصر .

فلما وصل المأمون إلى مراكش وأخذ ثار عمه وأخيه وقتل من قتل من الموحدين فيهما وبسببهما وبسبب نكثهم عليه ومبايعتهم لابن أخيه وقامت الفتن بينهم كما تقدم وكان المأمون ترك ابن عمه السيد أبا الربيع بقرطبة وقتل بها حين خالف عليه أهل الأندلس وقتلوا الموحدين وكان بعث السيد أبا عمران ابن عمه أبي عبد الله الحرضني إلى بجاية مع أبي عبد الله اللحياني وهو ابن أبي محمد ابن أبي حفص وتوجه أخوه أبو زكريا بن أبي محمد المذكور إلى تونس .

فلما استقر بها قراره وتعرف الموحدون بما كان من قتل إخوانهم بمراكش وعرفهم أبو زكريا ابن أبي محمد عبد الواحد بذلك كله وراود أخاه عبد الله المذكور على خلع بني عبد المؤمن والاستبداد بالأمر دونهم والاحتواء على ملك افريقية فأبى له من ذلك وامتنع كل الامتناع وأطال في ذلك الكلام معه ومع بعض الموحدين حتى صكته الآذان والأسماع في تلك البقاع والاسقاع ، فأمره أخوه أن لا يخرج من داره ، حيث كان استقراره فاغتاظ لذلك وعظم عليه وزاد نفاره ، ودبر في خروجه من تونس وفراره فخرج من تونس إلى قابس واجتمع مع ابن بكي شيخها ومدبر

أمرها فأقبل عليه حين وصوله إليه وشاركه في أحواله وعظم شأنه بما يجب عليه من التعظيم وكرم مثواه ووافقه على مطلبه ومناه ، إلى أن كان من أمره ما أذكره .

وفي سنة سبع وعشرين وستمائة كان استيلاء الأمير ابي زكرياء على بلاد افريقية

وذلك لما استقر بمدينة قابس وشرع مع ابن بكي في الرأي والتدبير ، خاطبه الموحدون من تونس الصغير منهم والكبير ، بالسمع والطاعة اليه ، باجتماع كلمتهم عليه ، ووافقوه على ذلك اذا خرج اخوه عبد الله من تونس برسم الحركة الى جهة القيروان ، فلما خرجوا معه ونزلت محلته بظاهر تونس طلبوا منه عادتهم التي هي البركة والاحسان فتلكأ لهم في ذلك والامير ابوزكرياءبمن كان معه بمقربة من هنالك واخوه عبد الله مستأمن في خبائه ، مؤمن من اعدائه ، فبادروا اليه للخباء ورموه بالحجارة حتى أيقن بالهلاك والفنا ففر أمامهم [أسوأ] فرار، لا يستقر به موطن قرار، فعفوا عن قتله بسبب أخيه وأهله الى ان قتل بمراكش على ما يأتي ذكره ان شاء الله تعالى .

فقعد الامير ابو زكريا من حينه مقعد الامراء وبايعه اشياخ الموحدين الكبراء ، ورحل الى تونس فبويع بها بيعة الخلفاء العظماء ، وأقعد الكتاب والوزراء وانفذ الكتب للبلدان ، ولكل جهة ومكان ، فوصلته البيعات ، من كل الجهات وطاعت له جميع تلك البلاد ، واستقامت الاحوال على أكمل البغية والمراد ، وكتب علامته بخط يده« الشكر لله وحده» وابقى الامام المهدي في الخطب وغيرها وسير الموحدين بأسرها وقبض على السيد الذي كان بقصبة تونس فانقضى امره وانقطع خبره ، وكان قبض اهل بجاية على السيد ابي زكرياء عمران ، وطلعوه في احد الاجفان فغرق في البحر ووصل ابو عبد الله اللحياني الى تونس فكان بها مع اخيه عظيم القدر في النهي والأمر .

ولما وصل خبر هؤلاء السيدين الى مراكش قتل فيها اخو الامير أبي زكرياءعبد الله وكان حين وصل اليها مكرماً معظماً لكن جرت عليه الاقدار ، بمشيئة الله الذي يقف تحت قهره الاختيار ، واستبد اخوه في تلك البلاد ، غاية الاستبداد ، وتلقاه اهلها مسارعين للطاعة بأحسن قبول ، ونشرت عليه الالوية وقرع الطبول ، وبلغه الله [من] البغية المأمول ، الى أن توفي في سنة ست واربعين فكانت مدته نحواً من عشرين سنة .

وخالف على المأمون اخوه السيد ابو موسى بسبتة ودعا لنفسه فيها وبايعه اهلها وتسمى بالمؤيد الى ان حاصره فيها اخوه المأمون على ما يأتي ذكره في سنة تسع وعشرين فخاف منه وفر الى الاندلس ودخل في دعوة ابن هود وبايع أهل سبتة حينئذ لابن هود فوجه اليهم والياً قائده الغشتي فبقي بها اشهراً وأخرجه أهلها وبايعوا الحاج ابا العباس أحمد بن محمد اليانشتي وخلعوا طاعة ابن هود . واستبد الحاج ابو العباس المذكور فيها وتسمى بالموفق بالله وكان من أكابر التجار وذوي المروءة واليسار وذلك في سنة ثلاثين وستمائة .

وفي سنة **تسع وعشرين وستمائة** كان وصول أرسال الخليفة العباسي المستظهر بالله من بغداد الى ابن هود المتوكل على الله وكتب له كتاباً يأمره فيه باقامة الدين والاجتهاد في امور الجهاد وسماه مجاهد الدين سيف امير المؤمنين ، فمن ذلك فصول منه بعد الاستفتاح والصدر والخطبة والدعاء :

والحمد لله الذي اختار من هذه الدولة العباسية الشماء ، والشجرة التي أصلها ثابت وفرعها في السماء ، اماماً للمسلمين ، وخليفة الله تعالى في الارضين ، والمفترض طاعته على الخلق اجمعين سيدنا ومولانا ابو جعفر المستظهر بالله أمير المؤمنين ، صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين . ثم قال: ولما انتهى الى علومه الشريفة ما هو عليه مجاهد الدين محمد بن يوسف بن هود من سلوك سنن الطاعة المؤسس بنيانها على تقوى من الله ورضوان، والتزم شروط الولاء الذي هو علامة متانة الدين وكمال الايمان ، اقتضت آراؤه الشريفة المقدسة النبوية الامامية الطاهرة الزكية المكرمة المعظمة المستنصرة بالله زادها الله جلالاً متألق الأنوار، وشرفاً رفيع المنار ، واقتداراً يفوق حدّه حدود [130] الأفاق والاقطار ، ان يقلد امر جزيرة الاندلس وما يجري معها من الولايات الى البلاد ويسوغه ما يفتتحه من ممالك اهل الشرك والعناد، تقليداً صحيحاً شرعياً وتشريفاً صريحاً امامياً ، وقد أمر رضي الله عنه بأوامر تهدي الى سبيل الرشاد ، وتحظيه برضى الله الذي هو نعم الذخائر يوم يقوم الاشهاد ، امره ان يتدرع شعار التقوى الذي هو خير لباس ، ويستشعر خيفته التي يجعل لها كما قال الله عز وجل ﴿نوراً يمشي به في الناس﴾ وأمره ان يجعل كتاب الله تعالى مناراً يرجع اليه في كل المشكلات، ومصباحاً يستضيء بمراشده في الأحكام

(130) في الأصل : يفوق جنوده قوود .

الشرعية المشبهات ، وامره ان يعمل بسنة النبي ﷺ في مصادر اموره وموارده ، وبـاجماع المسلمين في جميع مناحيه ومقاصده ، وامره بمجالسة الفقهاء والعلماء والفضلاء ، وامره ان يحسن السير في رعيته ، ويسكنهم ارحب كنف من حنوه وشفقته ،ويساوي بينهم في مجالس نظره وحكومته ، وامره ان يقتدي في جميع اموره بما امره الله به وان يعتقد في مجاهدة الكافرين المشركين ما أمره الله به في قوله عز وجل ﴿يايها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة﴾ الآية؛ فليكن مجاهد الدين بهذه المراشد مقتدياً ولمناهج أوامرها المطاعة مقتفياً ، فإنه اذا اتبع هداها ، وامتثل مراسمها واحتذاها، وتمسك بعصم طاعة من أوجب الله عليه وعلى الخلائق اعتقاد مفروض طاعته ، وطوق اعناقهم بالتزام شروط موالاتهم وعبودية سيدنا ومولانا خليفة الله في أرضه ، والقائم بسنن دينه وفرضه ابي جعفر المنصور المستظهر بالله امير المؤمنين ، فازت قداحه ، وتضاعفت من اقسام السعادة متاجره وأرباحه ، فإن ذلك عند ذوي الديانات المتينة احكم الاواصر واوثق العرى ، والذخر النافع الذي يجده كل موفق مسعود ﴿ يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً ﴾ والسلام .

وكتب في العشر الاواسط من ذي القعدة سنة تسع وعشرين وستماية ، وقيل بل كان في السنة التي قبلها ـ ختامه الحمد لله وصلواته على سيدنا محمد وآله وسلامه ، عنوانه : إلى مجاهد الدين وأشرف الامراء ، تاج الخواص الامير الاسفهصلار الكبير الاجل المرابط المثاغر الغازي مجاهد الدين جمال الانام نجم الدولة عز الملة معين الامة فخر الملوك قامع المشركين مذل الخوارج المتمردين زعيم الجيوش ابو عبد الله محمد بن يوسف بـن هود سيف امير المؤمنين .

ولما صدر كتاب أمير المؤمنين العباسي الى الاندلس لابن هود قرىء بمصلى اغرناطة القديم وكانت الراية السوداء بازاء المنبر وابن هود قائم وزيه السواد في نخوة بني العباس يتبختر وما قرىء من الكتاب الا يسير اسطار لأن الناس كانوا قد خرجوا للاستسقاء والاستمطار وامر ابن هود ان يكتب عنه في كتبه للبلاد ، من مجاهد الدين سيف امير المؤمنين عبد الله المتوكل على الله امير المسلمين محمد بن يوسف بن هود . ولما استقامت لابن هود احواله ، وساعدته امانيه وآماله ، ولى العهد لابنه ابي بكر ولقبه بالواثق بالله فوفدت عليه البيعات من كل البلاد من جزيرة شقر الى الجزيرة الخضراء ، مؤرخة بعام تسعة وعشرين وستمائة .

وفي هذه السنة قامت العامة من اهل اشبيلية على عماد الدولة ابي النجاء سالم بن هود الوالي على اشبيلية وانظارها من قبل اخيه المتوكل فأخرجوه من اشبيلية وبقي امرهم شورى بينهم يرجعون فيه لأمر الباجي ورأيه وكانوا ارادوا مبايعته فامتنع لهم الى أن وصلته بيعة قرمونة في السنة الآتية بعد هذه فقبلها وحينئذ مد يده الى مبايعة اهل اشبيلية فبايعوه وبقي اميرهم بها الى أن قتل في سنة ثلاث وثلاثين .

وفي هذه السنة كان ابتداء ظهور ابي عبد الله محمد ابن يوسف بن الاحمر ببر الاندلس

بويع بأرجونة وهي بلده اذ كان فيها منشأه ومولده ـ وكان بطلاً شجاعاً ، فأورثه ذلك سمواً وارتفاعاً ، وكان هذا محمد بن يوسف مطابقاً لابن هود في اسمه واسم ابيه مفارقاً له في اللقب فهذا لقبه الغالب بالله ، وذلك لقبه المتوكل على الله ، وابن هود خرج على الموحدين وابن الاحمر خرج على ابن هود ، وما اكثر ما اثر فيه اشتهار ابيه الأحمر ، فاستعمله في كل شيء وعليه في الشهرة والعلامة اقتصر ، ركب عليه وكتب فيه وتزيا به في اللباس كتزيي ابن هود بالسواد لقيامه بدعوة بني العباس .

ومن ارجونة ملك ابن الاحمر جيان ، وبويع له بها سنة ثلاثين واشتهر ظهوره في كل مكان ، ولقد جاء بها على قدر ، فقبلته وعلى حمايتها اقتدر ، واي عيش لمن بجيان يطيب ، وعهد جارتها ابدة بأخذ النصارى لها كجلسة خطيب ، ومن جيان ملك قرطبة ولا اعرف كيف كان ذلك ، ولكنه اسلك اهلها اضيق المسالك ، فعاجلوه بالاخراج كارهاً ، فخرج وقد ركب من حزمه فارها ، وهو من جأشة في اعظم جيش ، والمسلمون بتلك الجزيرة من شدة الاضطرار وكثرة الفتن في اعظم طيش ، واخرجه ايضاً اهل اشبيلية وانكروا أمره ، لما غدر الباجي وقتله ، وسأذكر بعض اخباره ان شاء الله تعالى .

وفي هذه السنة المؤرخة حاصر بعض القبائل مكناسة الزيتون ، فعرف بذلك اهله ابا العلا المأمون ، برسالة من انشاء ابن عبدون ، فنسق فيها الحال نسقاً ، واعلمه انهم في امر صير صبحهم غسقاً .

فصل منها :

فالعبيد ايدكم الله هالكون لا محالة ، وحياتهم في حيز الاستحالة ، الا أن يتدارك الله تعالى بلطفه ، ويتلافى الجميع بجزيل عطفه ، ومعروف ان هذا القطر حماه الله قفل الغرب، والبلاد معتمدة عليه اعتماد الحسام على الضرب ، فاغاثته واجبة ، وحمايته حاجبة ، فالعجل العجل قبل بلوغ الاجل ، والغياث الغياث قبل تمكن الفساد والاعباث ، وله شعر في المعنى طويل فمنه :

إمام الهدى سمعا لدعوة شاك	ثوى بين هلاك رهين هلاك
واوشك ان يغتال مكناسة الردى	وتبكي على من تحتويه بواكي
احاطت بها الاعداء من كل جانب	فقد قعدت منها بكل شراك
وقد زارها من أهل زرهون هونها	وبثوا لها التطليق بعد ملاك
وابناء فازاز لها مستفزة	فها هي تشكو كل اروع شاك

وكتب معها : رفع هذه الشكوى الى المكان الامامي الاعلى ـ ادام الله ايامه ، ونصر الويته واعلامه ـ عبيده المستجيرون بعدله اهل مكناسة تلافى الله برحمته تلافها، وتدارك بلطفه قطانها وألافها ، مستصرخين جلاله ، مسترقبين اقباله ، فالعبيد في حكم الفوات وعدد الاموات ، وعدل المقام الاعلى كفيل بتدارك ارماقهم ، وحلهم من وثاقهم ، كتب في شهر كذا من عام تسعة وعشرين وستمائة .

وفي هذه السنة وهي سنة تسع وعشرين وستمائة كانت وفاة ابي العلا المأمون رحمه الله في آخرها

وذلك انه لما توالت عليه اخبار تلك الجهات الغربية ، وما فعلته بمكناسة تلك القبائل الفازازية والمكلاتية من حصارهم اليها ، ونزولهم عليها ، وما فعله ايضاً اهل سبتة من خلافهم اليه وذمهم في كل وقت عليه ، شرع في حركة تلك البلاد ، برسم حسم ما فيها من الضرر والفساد ، فخرج من مراكش بعساكر وافرة ، وجيوش متكاثرة ، بعدما تيقن ان يحيى بن الناصر ، لم يبق له ولي ولا ناصر وانه اخذ في الفرار ، فلا يستقر له قرار ، وأن الموحدين تركوه واستقروا بجبالهم ، والذين كانوا معه من فرسانهم ورجالهم ، وانه قد توجه الى جهة درعة وسجلماسة .

وحينئذ توجه المأمون بعساكره الى جهة مكناسة ولما قرب منها ، هربت تلك القبائل المذكورة عنها ، فاستمر مشيه الى مدينة سبتة فحاصرها من جهة البر ، وأكثر

عيشهم انما هو من جهة البحر ، فكانوا في نعمة شاملة ، لم يردوا موارد الحرب ولا نالهم ولا هالهم تضييق المأمون ولا حصاره ، وان تكاثرت اعداده وانصاره ، وقد نصب عليها ثلاث منجنيقات ترمي كل يوم عدة احجار ، فما ثلمت شيئاً من السور ، ولا هدمت داراً من الدور ، فأقام عليها ثلاثة أشهر متوالية ، وأهلها في بلدهم كما كانوا في الايام الخالية لم يعدموا فيها طعاماً ولا اداماً ، ولو حاصرهم كذلك أعواماً ، الى ان وصله خبر اقلقه وأسهر جفنه وأرقه ، فأحرق المجانيق وأشعل في محلة السوق ناراً ، وأقلع عنها اضطراراً لا اختيارا، وهو ان يحيى بن الناصر دخل مراكش عنوة فقتل فيها وسبي ، واحرق الكنيسة واورث اهلها وصبا . فجد في السير للقاء يحيى ليعدمه بزعمه المحيا ، وبلغ حرق الكنيسة للنصارى اجناده ، وكانوا عمدته في اصداره وايزاده ، فتشتتت احوالهم ، وتكاثرت أوجالهم ، فزادوا ونقصوا وعزموا على مقابلة يحيى وحرصوا ، وأقسم المأمون ان يطلقهم على البلد ثلاثة ايام حتى ينتصفوا ، ولا يتأخروا عما يشفي صدورهم ولا يتوقفوا . فلما وصل المأمون مع اجناده الى وادي أم الربيع جرع كأس المنية قبل بلوغ الامنية فشرب المسلمون الخائفون من الروم سلسبيلاً ، ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا .

ولما توفي المأمون كتمت زوجته حبابة الرومية ام الرشيد وفاته الا من القواد ، وأظهرت انه في قيد الحياة الى جميع الاجناد ، وكانت أم الرشيد رومية فأول من عرفت بموته قواد الروم ، ثم عرفت اشياخ الخلط وبعض القرابة والخاصة وبقي الامر مكتوماً عن العموم ، فاجتمعوا على بيعة ابنها عبد الواحد الرشيد بيعة خاصة لا عامة وذلك ثاني يوم وفاة ابيه وهو يوم الاحد مفتتح شهر محرم من ثلاثين وستماية ، وشاع الخبر في المحلة ان امير المؤمنين مريض لا يستطيع أن يركب على مركوب مسرج ثم ادخلوه في تابوت وجعل في هودج والجيوش امامه وخلفه وقد تأهبوا للقاء يحيى وكتم القواد حتفه واعدوا السير الى أن وصلوا حضرة مراكش فخرج منها يحيى بجيش الموحدين وبمن كان معه من العرب والمتجندين فالتقى الجمعان ، ودارت بينهم كاس الحرب والطعان ، فانجلت عن هزيمة يحيى ابن الناصر ، وقتل اكثر من كان معه من العساكر ، ودخل الرشيد حضرة مراكش سالماً ظافراً ، وولى يحيى بن الناصر منهزماً خاسراً ، وسأورد كيفية دخوله ان شاء الله تعالى .

ذكر بيعة الرشيد وخلافته وما جرى من الاحداث والاخبار في دولته

نسبه: هو ابو محمد عبد الواحد بن أبي العلا ادريس المأمون ابن أبي يوسف يعقوب المنصور بن أبي يعقوب يوسف بن أبي محمد عبد المؤمن . أمه أم ولد رومية تسمى حبابة . **أبناؤه** : محمد وعثمان درجا ، ولمحمد هذا انباء في وفاته بمدينة فاس وهو في كفالة عمه أبي الحسن السعيد وذلك في عام اثنين واربعين وستماية .

اخوته الاشقاء : أمة العزيز وهي الحرة عزونة ، وغير اشقائه ابو الحسن السعيد وامه أيضاً أم ولد وعبد الله وعبد العزيز أبناء طيف أم ولد ايضاً ولهذا عبد العزيز نبأ ظريف في جنايته الشنعاء وقتل بسبتة في عام سبعة واربعين وستماية ، وعثمان أمه ظريف أيضاً ام ولد ، وصفية امها ام ولد ، وعائشة كذلك ونجمة امها ايضاً رومية وفتحونة أمها ام ولد .

صفته : أزهر اللون اشقر كث اللحية حسن القد في وجهه يسير نمش . **عمره** : اربع وعشرون سنة . **دولته** : عشرة اعوام ونحو اربعة أشهر ، **وفاته** : يوم الجمعة عاشر جمادى الآخرة من عام اربعين وستماية . **وزراؤه** : السيد ابو محمد عبد الله بن ابي سعد بن المنصور وابو زكريا بن ابي الغمر وابو عبد الله محمد بن عبد الله الجنفيسي وابو محمد عبد الله ابن ابي زكريا وأبو علي السيد ابن أبي محمد عبد العزيز ثم ابو عبد الله الجنفيسي المذكور مرة ثانية بعد تأخير له . **اصحاب اشغاله** : عبد الرحمن بن عمر بن واين الخير القبائلي ثم انضاف ذلك للسيد ابي محمد الوزير الكبير عند استلائه على المملكة ثم ابو موسى بن عطوش بعد وفاة اخيه . **كتابه** : ابو زكريا الفازازي وابو عبد الله القباجي وابو عبد الله الحسين ابن ابي عشرة وأبو عبد الله الفازازي وابو عبد الله بن سليمان وابو العلا ابن حسان وابو المطرف ابن عميرة وابو الحسن الرعيني ، وأبو القاسم القباجي وأبو عبد الله التلمساني . وهؤلاء الكتاب الذين ذكرنا منهم من كتب قبله لأبيه المأمون من اضافه الرشيد إليهم ، ومنهم أبناء كتبوا يسيراً ومنهم من مدت له الحياة الى انقضاء مدة الرشيد . **مشارفه في حضرته** : أبو محمد سعد المكنى بأبي البركات ثم ابو إسحاق السبتي ثم عبد الله بن طراوة ثم أبو

العباس بن هشام ثم ابو عبد الله بن ابي البركات . **حاجبه** : أبو الفضل مبارك التكروتي . **أصحاب شرطته** : ابـو موسى بن عطوش قبل اشتغاله ثم ابو محمد ماكسن ، ثم أبو زكرياء بن عطوش ، ثم ابو الحجاج بن مليح ، ثم عاصم الهسكوري ، ثم أبو الحسن أزلماط . وكانت مبايعته خاصة لا عامة ثاني يوم وفاة ابيه كما تقدم ذكره وهو يوم الاحد منسلخ عام تسعة وعشرين وستماية .

وفي سنة **ثلاثين وستمائة** كان استقبال الرشيد مراكش حرسها الله ، لما اتاح الله النصر على يحيى بن الناصر أمير المؤمنين وعلى طوائف الموحدين وعرب سفيان وكان شيخهم يومئذ جرمون بـن عيسى وانتهب له من الأموال والذخائر ما لا يحيط به حصر ولا حساب وفرت أعداؤه خاسرين مهزومين واستقبل مراكش وكان واليها السيد ابو الفضل جعفر بن السيد ابي سعيد بن الخليفتين أميري المؤمنين قدمه عليها اهلها فانهم تركهم المقدم عليها من قبل يحيى وهو أبو سعيد بن وانودين بغير والٍ ولا ناظر فاختاروا السيد أبا الفضل لشياخته ودينـه وكان يجلس في حـانوت للشهود بازاء باب القصر وكانت سيرته في الناس حسنة وفي تسديد أحوالهم ضبط ذلك بكل مستجاد من العمل وملاحظة للمصالح من غير خلل فكتب عقدا شهد له فيه جمهور الناس من الطلبة والأمناء يتضمن أن تقديمه لم يكن باختياره وأنه أكره عليه واجتمع الجمهور على تقديمه لمصلحة الوقت لئلا تمتد أيدي الناس إلى آخرين كل ذلك احتياط مما يتوقع من أمير المؤمنين المأمون فكفاه الله ما كان يخشاه .

ولما دنا الرشيد الى مدينة مراكش كتب لاهلها ظهيرا بتأمين كافتهم والعفو عن عامتهم وعمن كان معهم من الموحدين ورفع عنهم المغارم وجدد لهم احوالا سنية وآمالا رضية ووجه بهذا الظهير الفقيه القاضي ابا محمد عبد الحق[131] في أناس معه ، فلما دنوا من السور أنكر الناس صورهم فاستعدوا لهم وظنوهم مقدمة لجيش المأمون وازدحم الناس في السور لقتالهم فانهم كانوا ثابتين على قتال المأمون ملازمين طاعة يحيى بن الناصر لما كانوا تحققوا من الذي عزمت عليه النصارى من استيصالهم وفيئهم فتعرض ابو محمد عبد الحق لهم فما انكروه ، وتكلم مع بعض الطلبة والأمناء من جهة باب السادة فحمدوه وشكروه ولم يكن عند اهل مراكش خبر بموت المأمون وولاية ابنه الرشيد ولا بهزيمة يحيى بن الناصر بعد حلوله من الملك

---

(131) في : ط : عبد الحق بن عبد الحق : الصواب حذف = ابن عبد الحق = كما في . ت .

في قصر مشيد ، فبين لهم الفقيه ابو محمد عبد الحق كيفية ذلك وشرحه لهم وعرفهم بالظفر والنعم عليهم فوثقوا بقوله وسكنت اليه نفوسهم واطمأنت الخواطر ، وهب عليهم من المسرة ريح عاطر ، وارتفع عن الناس الالتباس ، بعد ما كانوا في أمر جل عن القياس، واعلنوا بالسمع والطاعة والدخول في حزب الجماعة لخليفتهم الرشيد أمير المؤمنين، وأضحوا به مسرورين ومنه آمنين، وأذنوا للفقيه ابي محمد ومن معه بالدخول للبلد فدخلوا من باب القصر جميعاً، وتوجه هو ومن معه مع السيد أبي الفضل ووجوه البلد سريعاً حتى وصلوا دار الخليفة ، فأدار عليهم من السرور رحيقة وسلافه وقرىء الظهير الكريم على الناس فسروا بمقتضاه ، ولا أحد منهم الا قر عينه به وارتضاه ، وكتبوا لخليفتهم بسمعهم وطاعتهم وعاد أبو محمد واصحابه ذا محيا طلق وتوجه معهم من كبراء أهل مراكش من أراد التوسل بالسبق .

ولما قدم الفقيه القاضي على الرشيد وعرفه بما كان من أمره الحميد ، تلقاه من البر بأحفله ، ومن الاعتناء بأتمه وأكمله ، ولما كان المأمون اتفق مع النصارى بما اتفق ، انحل ذلك الأمر المنتظم بوفاته وافترق ، وقيل أن أم الرشيد حبابة ارضتهم بمال بعد المأمون فحادوا عن سبيل الحرب وأغلقوا بابه ، وسلم الله المسلمين من الروم ، فقد كانت تبغي امحاقهم وتروم ، ودخل الرشيد مراكش والنصر يخدمه والسعد يصحبه ويلزمه .

دخول أمير المؤمنين الرشيد مراكش حرسها الله

ودخل أمير المؤمنين الرشيد مدينة مراكش منتصف شهر محرم من سنة ثلاثين كما تقدم ذكره واستقر بها واطمأنت نفوس المسلمين وتجددت الأحوال والآمال ، واستقل بالملك أي استقلال ، وحسم العلل ، ورفع الداء والخلل ، وعادت البلد في أسنى حلى وابهى حلل ، وكان الفى البلد قد استولت عليها أيدي العرب ، واستطاعت بكل نوع من العبث والفساد والخراب ، عند دخول يحيى اليها ، وجمع حشمه وعربه عليها ، ووصل في خدمة الرشيد من العرب الخلط شيء كبير ، واستقر جميعهم بالجهات والأنحاء وكل عين قرير ، وأمتلأت أيديهم من أموال عرب سفيان ومواشيهم ، وسروا بما أفاء الله عليهم من الظفر بأعاديهم ووصل مع الرشيد عمه السيد أبو محمد سعد وهو به كثير البر والاعتناء فكتب له ظهائر برباع وكثير من

العقار ، ولم يبد له إلا التعزز والوقار ، وكان قد ترك أبو محمد سعد أولاده بقصر عبد الكريم مع جماعة من خاصته تحت كفالة أبي زكرياء بن عطوش ثم توجه عنهم عند استقراره بمراكش آمنا من أحواله مبلغا جميع امانيه وآماله .

وفي أثناء ذلك ورد على السيد أبي محمد سعد كتاب من يحيى بن الناصر وهو يعتبه في عدولة عن بيعته الى بيعة ابن عمه بألفاظ لا يليق ذكرها فإن كاتبه اقذع فيها وجاءه بالكتاب رقاص فاعتقله ورفع الكتاب إلى أمير المؤمنين الرشيد وفاء بعهد طاعته وحق خدمته . وكان السيد ابو محمد سعد اذا وصل الى دار الخليفة يقعد في القبة التي يجلس فيها الرشيد امير المؤمنين تكريما لجانبه وتوقيرا فنهض على عادته واجتمع مع الرشيد وبعض خاصته وتفاوض معه في كتب جواب يحيى بن الناصر فوقع النظر أن يكتب له بأشنع مما كتب وكان كاتب ابي محمد سعد لم يحضر وهو ابو القاسم ابن عمران فأمر أبا عبد الله التلمساني أن يكتب له وكان صغير السن فكتب وكان في أول الكتاب المذكور بعد البسملة والتصلية :

من سعد بن الخلفاء الراشدين إلى السيء النظر القاصر ، الذي لم يصرف الله له من التوفيق والتسديد لمحة باصر ، يحيى بن الناصر سلام على من خالف عقله وحالف جهله ، ورحمة الله وبركته ثم نحا هذا المنحى الى آخر الكتاب .

ولما استقر الرشيد بحضرته ، واجتمع الناس على طاعته ، وصلته البيعات من كل الجهات ، وتجددت البشائر والمسرات ، فمن ذلك بيعة من بعض القبائل مختصرة :

بيعة مختصرة لأبي محمد عبد الواحد الرشيد أمير المؤمنين

الحمد لله الذي شيد بالامامة أركان الاسلام ، وحفظ بها دين محمد عليه السلام وجعل طاعة من استحقها ، وأدى حقها من فروض الأعيان ، ونظم بتقليد بيعة من اختاره لخلافته في أرضه ، وارتضاه لاقامة سنته وفرضه ، عقود الاعتقاد وتمم به شرائط الايمان ، والصلاة على سيدنا محمد رسوله المبعوث لخير امة في خير زمان ، وعلى آله الطيبين وصحابته الأكرمين والتابعين لهم باحسان ، والرضى عن الخلفاء الراشدين الذين كانوا يقضون بالحق وبه يعدلون في الاسرار والاعلان ، اللهم ارض عن خليفتك في براياك ، الكفيل عدله باقامة دينك القيم ورعاية رعاياك ، الامام المؤيد المبارك الاسعد أمير المؤمنين ابي محمد عبد الواحد

ابن سيدنا الخليفة الامام المأمون أمير المؤمنين أبي العلى بن الخلفاء الراشدين ، اللهم كما انبته من خير نصاب ، وأعدت به الدولة المأمونة الى عنفوان الشباب ، وجمعت بعدله ضروب الأشتات كما جمعت بفضله جميع الأسباب ، وحسمت بحسامه مواد الشرك والارتياب، اللهم اجعل كلمته العليا ، وامنحه من قسم السعادة والنعم المستزادة ما يجمع له بين سعادتي الآخرة والدنيا ، إنك كفيل بكل خير جميل . وبعد فهذا ما أجمع عليه الكافة من بني فلان ، خصوصهم وعمومهم من عقد بيعتهم الموطدة الأركان ، المؤسس بنيانها على تقوى من الله ورضوان ، لسيدنا الخليفة الامام أمير المؤمنين ابن الخلفاء الراشدين ، أعلى الله كعبه ، ونصر حزبه ، أبرموا عقدها ، والتزموا عهدها، وقلدوا اعناقهم أمانتها ، وتكفلوا حياطتها وصيانتها، واعتصموا بمتن حبلها ، واهتدوا بيمن سبلها ، وأوجبوا بها على أنفسهم طاعته ، واعتقدوا بعقدها موالاته ومشايعته ، وفاءوا الى فئته المباركة ، والتزموا مواصلة من واصله ومتاركة من تاركه ، سرورا بسعد ايامه ، وشكرا لجزيل احسانه وانعامه، وامتثالا لماضي أوامره ولحكم احكامه ، طائعين غير مكرهين ، بارعين غير نازعين، بضمائر خالصة ، وعزائم ماضية غير ناكصة ، يوالون من والاه ، ويعادون من عاداه ، ويوادون من واداه ، وفاء بعهده وميثاقه ، وابتغاء لمرضاته ووفاقه، مبايعة موثقة الاحكام ، سنية الأحكام ، أعطوا عليها صفقة ايمانهم وأكيد أليّاتهم ، واعتقدوا الوفاء بها والتمسك بسببها بصفاء من سرائرهم ، وخلوص من نياتهم وضمائرهم ، واشهدوا الله تعالى وملائكته على انفسهم بذلك وهم بحدوده عالمون ﴿ ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون ﴾ وقيدوا بذلك شهادتهم في شهر محرم سنة ثلاثين وستماية .

وفي صدر سنة ثلاثين المذكورة وصل ابن وقاريط الهسكوري من جبله بمن معه من أولاد أمير المؤمنين المأمون رحمه الله فوصل السيد أبو الحسن المعتضد بالله وإخوته إلى أخيهم الرشيد وكان هذا أبو الحسن تركه أبوه باشبيلية فقيم عليه فيها ثم اخرجه اهلها فحصل عند عمه بسبتة .

وفي هذه السنة بايع أهل اشبيلية للباجي وأهل قرطبة لابن الاحمر وعقد ابن هود السلم مع العدو بسبب اشتغاله بمحاربتهما على أن يعطي ابن هود لاذفونش ألف دينار في كل يوم .

وفيها أخذ العدو قصبة مدينة أبدة اعادها الله للاسلام .

اختصار الخبر عن وصول ابن وقاريط وسببه وذكر ما تعلق به من الاخبار به

كان ابن وقاريط هذا عازما الا يعود إلى المأمون ولا يدخل يده بوجه من الوجوه لخوف خامر عقله منه الى أن وصل للرشيد بوسيلة من استصحبه من إخوته اولاد المأمون فانبسط خاطره بعض انبساط ، وقام من الكسل إلى النشاط ، ومال بكليته الى جانب السيد أبي محمد سعد عم الرشيد وصار في الظاهر يخدمه ، فثبتت به تلك المدة قدمه ، وكان ابن وقاريط أيضاً معتنيا بالفقيه أبي اسحاق ابن الحجر غرة مصره ، ونادرة عصره ، العلم والادب والطب يعزى اليه ، فما زال مشتملا عليه وكان الفقيه ابو اسحاق خفيفا على النفوس تميل قلوب الملوك لمداعبته ، وحسن حديثه ودرايته ، واحتوائه على أخبار الدول واحاطته ، وكان للسيد ابي محمد سعد به اعتناء كثير ايضا ويخلو معه في أكثر أوقاته ، فكان ابو اسحاق المذكور يؤكد الوصلة بين السيد أبي محمد وسعد وبين ابن وقاريط ووثق ذلك كما يجب وكما اراد في حق صاحبيه ، وعمل في ذلك ما زاد استمالة نفس ابن وقاريط عليه ، ثم استقامت الأحوال في هذه السنة على السكون والدعة وابن وقاريط مصر صحبة مسعود الخلطي ومتودد له ومستكثر به الى أن حصل على مقصوده من مصافاته ، وتم له التدبير في موالاته ، وهو في الظاهر متمسك بالسيد ابي محمد سعد فلما كمل مراده فيهما سعى سعياً آخر في الأمور وتحرك لأشياء كان لها ساكنا وربما كانت معاونات في الباطن في تأخير السيد أبي محمد عن الوزارة لأمور قدرت ، ثم مرض ابو محمد سعد وانفرد بالوزارة للرشيد ابو زكريا ابن أبي الغمر وقدم ابن وين الخير على الأشغال ووافت المنية أبا محمد سعدا ولا بد من وقوع الآجال .

ذكر وفاة السيد أبي محمد سعد وحمامه وحضور أبي محمد الرشيد لدفنه وبني أعمامه

لما وافت المنية أبا محمد دفن بداره في دويرة منها تسمى دار العقبان في أحد اسطواناته(132) وحضر جنازته أمير المؤمنين الرشيد وأعمامه وأبناؤهم وقعدوا على

(132) أسطواناته . جمع أسطوان . مدْخل الدار . كلمة معروفة في المغرب والأندلس . . . . انظر معجم دوزي ج ١ ص 22 ط باريس 1967 .

القبر حتى كمل بناؤه وتكلم الناس في موته بما الله يعلم حقيقته ، فهو الذي يعلم السر ودقيقته .

ذكر السبب في انتزاء ابن وقاريط وعناده

لما توفي ابو محمد سعد رحمه الله اختل على ابن وقاريط أحد عاقدتيه واضطرب وهجست في نفسه الظنون الكاذبة وكثرت الأوهام ، ومال في كل واد وهام ، فلم يقدر على المقام بالحضرة ، وصار ذا شحوب وكان ذا نضرة ، وطلب مطالب شنيعة اسعف فيها منها محاشاة هسكورة ، وأن ينعم عليه بمجبى هزرجة وأغمات وريكة وكتب له بذلك ظهائر ولم يزد مع ذلك إلا تنافرا ، وألقى يده على هاتين الجهتين ، وكأنه في لظى وهو ما بين جنتين ، فخرج ذات يوم يريد تفقد اخوانه ، واصلاح امره وشانه ، فكان آخر العهد به وبعيانه ، وعند انفصال ابن وقاريط وعناده ، أخذ ابن وين الخير في اللحاق به لاستصلاحه واسترداده ، فأعوز الداء الدواء ، وتمكنت في نفسه الشحناء ، وكان هذا آخر سنة ثلاثين .

وفي سنة احدى وثلاثين وستمائة استقرت احوال الرشيد ، وهو يعالج الأمور وينظر الرأي السديد ، وعاد ابن عمه أبو محمد الى الوزارة وأقر عماله على أعمالهم ، وخدامه على طبقاتهم واحوالهم، وأظهر ابن وقاريط عناده وارتداده ، وأعلن بطاعة يحيى واتبع مراده ، وأصر عل الفساد والعبث في البلاد ، ثم توجه نحو يحيى وهو ببلاد مزالة ، فقرن به امانيه وآماله ، ولما علم الموحدون ميل يحيى الى ابن وقاريط واغتراره بمشايعته واصغاءه اليه نبذه أكثرهم بالعراء ، واطرحوا عهود الوفاء .

حركة الرشيد الى تادلا

وفي هذه السنة شرع الرشيد في حركته لبلاد هسكورة وما والاها ، وأبدى حالة الحزم وأجلاها ، وتحرك في جموع جنوده وحاشيته وخلف على حضرته واليا صهره السيد ابا العلى ادريس ، فضبط البلد وأحسن السيرة في العامة وأهل التدريس ، وباشر الامور بنفسه ، وطلع ببدر الفضل وشمسه ، وكان يسكن بزوجته ابنة المأمون بدار من ديار القصر ، وكان جلوسه غدوا وعشيا في مربعة الدار للنهي والأمر ، وسكنت الأحوال بهذه الحركة وانقطع الارجاف وارتفع الفساد واستمرت الحال على هذا قدر شهر أو أزيد ثم تواردت الأخبار بانقطاع يحيى ومن معه بابن وقاريط

وجموعه وانهم استنفروا هسكورة القبيلة ومزالة وجلاوة ومن في هذه الجبال من خيل ورجل لقصود مراكش والحصول عليها فهاجت النفوس واضطربت الأحوال ، وكانت بالقصر الحرة أم الرشيد ، فهالها هذا الأمر الشديد ، واشتد السيد أبو العلى في الضبط والترتيب للأمور والمباشرة لقليلها وكثيرها بين الجمهور ، وتوجهت كتب الحرة لابنها تستعطفه وتستحثه لتدارك الحال قبل انخراق الفتن وتعذر الرتق فثنى عنانه بعزم صادق ، وقصد بلاد هزرجة ، وكان المرور اليها حين قفوله على بلاد هسكورة ، فأعاد طريقه للايقاع بهم والتخريب لبلادهم ، وانسحاب الجيوش على طارفهم وتلادهم ، ولما أحس أبو زكرياء يحيى بن الناصر واشياعه بحزمه ، وقدومه بصادق عزمه ، لجأوا الى جبل يعرف هنالك واستنفروا تابعهم ومتبوعهم ، وجمعوا جموعهم ، واستعدوا للقتال ، واخذوا أهبة النزال ، والرشيد يتقدم له النصر ، وتبدو له مخايل الظفر ، لما تبين له انكماش اعدائه بالجبل المشار اليه ، وتعويلهم حقيقة عليه ، وجيوش الرشيد في استعداد ، وقوة بالله تعالى واستنجاد .

هزيمة الرشيد ليحيى ومن معه على هزرجة

ولما دنا الرشيد من يحيى ومن معه حمل عليهم فلم يلبثوا ان ولوا الأدبار ، ولاذوا بالفرار ، واعتصموا بشواهق تلك الجبال ومضايق تلك الأوعار ، وتركوا محلاتهم بمواضعها ، وأسلموا جميع ما فيها وكان توجههم في هذه الهزيمة نحو بلاد القبلة ، حليفهم الخسار ، وشعارهم الذل والصغار ، وخيم أمير المؤمنين الرشيد في موضع الفتح ومستقر النجح ، ليأخذ بحظ من الراحة ، والشكر لنعم الله المتاحة ، وليعود أهل العسكر إلى النظر في مصالحهم وأمورهم وتجديد ما يحتاجون اليه من مقابلة عدوهم واتسعت بما حصلوا عليه احوالهم وانبسطت آمالهم ، وكان ذلك بمشيئة الله الواحد ، ومصائب قوم عند قوم فوائد .

اياب الرشيد لحضرته سالما بجميع عسكريته

واستقبل أمير المؤمين الرشيد حضرته والسعد جديد ، والنصر في كل ظعن ومقام يزيد ، فتلقاه أهلها بالتهنئة والسرور ، وكان له في يوم دخلوه احتفال مشهور ، شفيت به الصدور ، واستقامت الاحوال والأمور ، واستمرت العافية للمسلمين واستشعروا ما أراد شارد قومهم لتقديرات قدروها ، وأمور توقعوها ، فانهم اجحفت بهم زلازل الداخلين عليهم مرات، فما كان منهم صغير ولا كبير الا وهو يتقطع

حسرات ، فكانت الهدنة عامة متصلة ، والعافية مستمرة مشتملة ، ولله سبحانه المن والفضل ، والقوة والحول .

وفي هذه السنة وصل الزعيم غنصله اخو شانجه بعد فتكة فتكها عند جزيرة قادس وأسر جميع من فيها بعد قتل ذريع لاهلها ، وذلك أنه لما استقبل من بلاده اجتاز على جزيرة قادس واعمل الحيلة في الإيقاع بأهلها والغدر بهم فأمكنته الحال من كمال مكره وتمام غدره ، فغدر الجزيرة ومن فيها من المسلمين واستباح كل من بها واستاق من اهلها جماعة إلى رباط أسفي فأنتدب المسلمون لافتكاكهم بالفداء فلم يبق بأيدي الروم أحد من المسلمين .

وهذه الفتكة الشنعاء كانت سببا لخراب جزيرة قادس حتى لم يبق لها رسم واستمر خلاؤ ها الى حين تملك النصارى مدينة اشبيلية وسائر بلاد الاندلس الا اقلها فملكوا قادس وغيرها .

وصول بعض الموحدين الى الحضرة

وفي هذه السنة كان وصول أبي عثمان سعيد بن زكرياء الجدميوي مبادراً من صنفه الموحدين : وسبب ذلك أنه تردد إلى جهة جدميوة بعض تجار النصارى في منافعهم ومتاجرهم وربما اجتمع أبو عثمان بشخص رومي خاص بالرومي جوان كيس وكان وكيل شانجه زعيم النصارى وصار الشخص يتحفه بتحف من مراكش قصداً في تيسير أموره في تجارته وغيرها فأظهر أبو عثمان للرومي ما ازداد به حرصاً الى خدمته فشرح حاله وفعله لموجهه الوكيل المشار اليه فتحركت نفسه الى مضايفة أبي عثمان والتودد له وتوجيه رسله اليه بأشياء غير واحدة واستمرت الحال على هذا مدة فاطمأن الوكيل من أبي عثمان وقدم عليه ليجتمع معه ويشاهد شخصه ويوفيه من بره وقصده لما أولاه من ظهر الغيب بعد ما استأذن الوكيل المذكور لضيفه واسعفه في مطلبه ، وأمره بابلاغه سلامه ، وأن حوائجه عنده مقضية ، ولما وفد على أبي عثمان تلقاه بأحسن القبول والترحيب وأحله من اعتنائه بالمحل الخصيب ، وأقبل كل واحد على صاحبه يعده ويمنيه ، ويوكد غرضه الجميل فيه ، فأجزل له أبو عثمان أجزل احسان ، وفاوضه في الدخول في الطاعة على عهد من شانجه وسعى منه في حقه ووثق بوفائه فأظهر له الوكيل المذكور ، من الفرح بذلك والسرور ، والضمان لكمال هذا المقصود ما سكن له أبو عثمان وجعله معولا فيما رامه من

السبق الى الطاعة ليكون له الشرف بذلك والمزية على اخوانه الموحدين ، وقد كانوا في أثناء هذا الحال تقلصت من يحيى أموالهم وانقطعت منه أطماعهم لاستحواذ ابن وقاريط عليه وهو عدوهم الأكبر الساعي في تفريق جماعتهم وانتساخ دولتهم ثم عاد الوكيل الرومي الى زعيمه وقص عليه ما جرى بينه وبين أبي عثمان وأطنب عليه . وكان شانجه المذكور ذا عقل ورأي وادارات مصلحية فجرد في خدمة أبي عثمان عن ساعده ،وتولاها بأحسن مساعيه ومقاصده ، ورفع القضية على وجهها ، وأوضح المصلحة فيها ، وأشار بقبوله واجابته ، واسعافه في وفادته ، ليقتدي بفعله سواه ، ويهتدي بهديه من جاوره ووالاه ، فألفى عند الخليفة الرشيد قبولاً ، وخيراً في حقه مبذولاً ،وقد كانت النفوس متشوفة الى استجلاب عصابة التوحيد ، وايصال القريب منهم والبعيد ، فكتب لأبي عثمان عهداً وثيقاً ، وأراه وجهاً طليقاً ، ونصب له من المسرة والمبرة منهجاً وطريقاً ، ولما كمل هذا المرام وتيسر ، توجه الزعيم المذكور له وما تأخر ، فسر أبو عثمان بوفود ذلك عليه وقدومه ، وأيقن بتكميل أمله وتتميمه ، ووجه من ساعته معرفاً بوفادته معلناً باخلاصه وطاعته ، ثم لم يلبث إلا مقدار ما استعد للوفادة ، واستقبل الحسنى وزيادة ، وأخذ في الوصول باخوانه وأقاربه ، ومن اتبعه في الحال من قبيله بجميع مضاربه ، وخرج للقائه الزعيم المذكور ، ووصل معه الى الدار المكرمة فتلقي بالاعتناء والاهتمام ، على أوفى التكميل والاتمام ، وتلقى من الخليفة الرشيد من جميل الوعد وطلاقة البشر وجزيل البر والخير ما أعاد انتعاشه ، واذهب ايحاشه ، وانفصل الى ما أعد له من أنواع القرى ، وانبسطت آماله أي انبساط ، وانتقل من الكسل الى النشاط ، وظفر هو ومن وفد معه بانعام الخليفة واحسانه ، والفوز بعطفه وحنانه ، واستبشر الناس بعودة الموحدين الى الطاعة أي استبشار ، وعظمت في نفوسهم هذه المنة التي استشعروا بها أي استشعار ، وصار أبو عثمان يغدو إلى الخليفة ويروح ، وأدلة المسرة المستقرة في خلده تبدو عليه وتلوح وهو في أثناء ذلك يدبر مصالحه ويستوضح الأحوال ، ويختبر الرجال ، واشتغل بمهاداته جميع الخدام ، وتوالى الفرح والبسط ودام ، وتمت له الارادة على اختياره ، وجرى طلقاً في مجال السعد ومضماره ، وتراخت له المدة ، وساعدته الأيام المعدة ، الى أن جرى عليه القدر المحتوم ووافاه ، ولا يسلم منه أحد وإن طال مداه .

محاولة أبي عثمان سعيد بن زكرياء الجدميوي في استجلاب الموحدين الى حضرة أمير المؤمنين

لما استقرت حال أبي عثمان وتصور له مراده من اصطناع رجال الدولة واستعمال ما يتحبب به اليهم واستمال نفوسهم بندى يده وسماحته واعانته لهم بمعروفه واهابته ، تهيأ له الولوج في الأمور والمفاوضة في الأشياء التي عليها النجاح يدور صنع مع الموحدين والاعتقاد بأوبتهم الى طاعة الخليفة الرشيد وأخذ في التحدث مع من يثق به ويركن الى حسن رأيه ليكشف عن البواطن في حق الموحدين ويستوضح فيهم بالخبر اليقين ، فانجلت عنه غماء الالتباس ، ولاح له من ايضاح أصحابه ما ازداد به الايناس ، فسلك في تقرير أحوالهم وتقريب مرامهم مسلكاً أورده مورد القبول ، وأتحفه بالمراد والمأمول، فحسنت في شأنهم مآخذه وتلقى الاسعاف المطلق في إباحة العفو عنهم ووصولهم الى عوائدهم ورد قوانينهم واجرائهم في الأحوال الى معتادهم فخاطبهم وقرر عندهم ما هاجت به نفوسهم ومال الكثير منهم الى الدخول في الطاعة والاتصاف باتباع الجماعة ، وشاع الخبر بذلك في الحواضر والبوادي ، وسار بهذه المسرة الرائح والغادي ، وعند ذلك ارتفع الحرج عنهم واستعمل الاغضاء عمن يشاء التزدد منهم .

وفي هذه السنة وصلت الهدية العباسية لابن هود وفيها رجعت قرطبة لابن هود بعد ما أخرجوا منها ابن الأحمر ، وفيها وقعت المقابلة بين ابن الأحمر وابن هود فهزمه ابن الأحمر .

وفي سنة **اثنين وثلاثين وستمائة** استمرت الأحوال على ما كانت عليه من الهدنة واستقرت أمور ابن وقاريط على غلوائه وسرايا فساده تسري الى الخلط وشيخهم وشوكتهم في هذا الوقت أحد شوكة والاملاء من الله سبحانه يزيدهم طغياناً وكفرا بنعمائه وجحوداً لآلائه ، واستيصالاً للبلاد ، وتسلطاً على العباد ، ليقيم عليهم حجته في أخذهم أخذة رابية وشيخهم اذ ذاك مسعود ، وهو يظن أن إغضاء الخليفة الرشيد من هناته وصبره على غصص عتوه من وهن وضعف يظن أنه غافل عنه وعزمته متيقظة تتزيد له وقوعاً في شرك الردى ، وحصولاً في يد البطش والاستيلاء عليه وإن طال المدى ، والخليفة يتلقاه ببشره ، ويعامله ببره ، ولم يشعر بما في طي ذلك من المسالك ، ولم يعلم اشارة المتنبي في ذلك :

إذا رأيـت نـيـوب الـلـيـث بـارزة فـلا تـظن أن الـلـيـث مـبـتـسـم

ولقد كان له وكيل يسمى موسى الكافر وكان من الفجور بحيث لا يجارى وكانت له استطالة بلسـانه على خدام أمير المؤمنين ورجاله وصبيانه ، لا ينهاه دين ولا فضل ، ولا يمنعه حياء ولا عقل ، وحصلت في نفوس جميعهم أمور مزعجة لا تطفى لواعجها ولا تخمد جمراتها ، وكان رجل آخر كاتب مسعود الخلطي ذو جهل وعتو ، وزيادة في الفساد ونمو .

ولما سرت سموم ابن وقاريط الى العدو الخلطي بأنواع فساده، وتحكم فيه داء عناده ، أظهر العربي تجبناً وتثاقلاً عن الوفادة على عادته تحرف عن الطاعة المستقيمة ، وحق لمن اغتر مثل غروره أن يختل عقله ، فان الأرض كادت أن تهتز لوطأته ، والجبال تميد لسطوته ، فإن أخوانه الخلط كانوا أزيد من اثني عشر ألفاً من الفرسان ومعهم من الاتباع المنقادين والحشود مثلهم، وأما رجلهم فالجراد المنتشر لا يحصي عددهم الا خالقهم الذي أبادهم بقدرته ، وما منهم فارس الا له جملة من الخيل وأعداد من كامل السلاح على أنواعه ، وأما الثياب والمال العين والآنية من الذهب والفضة والابل والمواشي شيء يقف دون حصره الأوهام ، وتكل عنه الخواطر والافهام، ولقد نظر صعلوك منهم من فتاكهم المشاهير وقد خامرته اريحية الى البحر فامتطى جواده وأخذ سلاحه وقصد البحر فدفع عليه وقال له : إن كانت لك يا بحر طاقة فبارزني ، ونعوذ بالله من هذا الاغترار ، وأما الفتك بالأحرار الأبكار واسترقاق العبيد الأحرار فأمر شائع وحكم واقع ما له من دافع عنهم ولا وازع .

وعند تناهيهم وانتهائهم الى هذه الغايات من الاستكبار في الأرض والبغي فيها بغير الحق دنا دمارهم وحان إدبارهم وأمسى سلكهم نثيراً ورسمهم محيلاً ، سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً .

وفي أثناء ذلك كله اشتغل الرشيد باستجلاب الموحدين وبسط آمالهم واستمالة قاصيهم ودانيهم واستدعائهم للفوز برأيه الجميل فيهم ، فوردت مخاطبتهم بشكر نعمة الله عليهم بالانضواء اليه والدخول في طاعته ولأبي عثمان سعيد بن زكرياء الجدميوي في هذا أثر محمود وسعي مشكور وما زال في أوقاته دائباً على كل ما فيه استصلاحهم الى أن توقدت عزائمهم على أن يفدوا على حضرة الخليفة ودار الامامة مراكش وأخذوا لذلك أهبتهم واستدعوا من كل جبل شاهق إخوتهم

وانتدب للوصول معهم موسى بن أمير المؤمنين الناصر أخو يحيى وكبيره سناً فانه كان في هذا الجانب عازماً على الطاعة والاتصال بالجماعة وانتهى الموحدون المذكورون إلى لجاغة[133] شجاعتهم فيما أمرهم وشاع خبرهم واتصل ذلك بمسعود ابن حميدان شيخ الخلط فشمخ بأنفه ، وأنف من انتظام الموحدين في تلك الطاعة وكان ذلك سبب حتفه واختلجت في صدره أمور توقعها فرأى حسم العلة بقطع ما بين أمير المؤمنين وبينهم وتمكن أسباب القطيعة بقتلهم فعين لذلك جمعاً من عربه الخلط وبعثهم للقبض على جميعهم والفتك بهم فسبق اليهم سابق الاعتناء الرباني وسابق الخبر الذي أنقذهم من لهوات المنية فرجعوا من هنالك الى جبلهم سالمين ، واستقروا به بعد الروع والذعر آمنين ، ولما اتصل هذا النبأ الفظيع بأمير المؤمنين الرشيد توقدت عزماته وهاجت وثباته وعلم أن أموره تتعذر بمخالفة الخلطى له في إرادته فأسهر في الحيلة أجفانه ، وهجر مضاجعه وأوطانه ، وساهم وزراؤه وأهل مشورته في تلافي الأمور قبل التفاقم وحسم العلل قبل تمكينها فأبرزت الحيلة وجه المكيدة بعد التفاوض أياماً ، وانتبهت لهم أعين المصلحة بعد أن كانت نياما ، واجتمع الرأي الذي أحكمه الترجيح ، وأسفر لهم عن وجه أمر نجيح إعمال حركة السيد أبي محمد الوزير الكبير بالجند كله واستدعاء الخلطي والبطش به فانه كان تخوف من القبض عليه تحول الجيش بالحضرة فلما استحكم التدبير لذلك شرع فيه بعد استخارة الله سبحانه ، ولما كمل هذا التدبير في الحركة المذكورة بالحبش شرع فيها السيد أبو محمد الوزير المذكور على غاية التأهب والاستعداد وتحرك السيد بمن معه من الأجناد الى حاحة برسم جبايتها وحياطتها ولم يبق من الجند أحد وتحرك معه والد المشرف أبي البركات خاصة الرشيد إظهاراً للاعتناء بهذه الحركة .

ذكر استدعاء مسعود بن حميدان الخلطي الى حضرة مراكش واستدنائه لحينه وحتفه

ولما توجه الوزير المذكور بالجيش الى حاحة شرع أمير المؤمنين الرشيد في التوجيه عن مسعود الخلطي فأجاب بعد لأي الى الوصول ، وهو يظن أن قد خلا له الجو ولم يبق له ما يروعه وأن سعده موصول ، فعزم على الوفادة بعد أن قال له أحد خاصته أجب هذا المسكين الذي استدعاك فانه أراد الاستظهار بعلاك ، ولم يعلم أنه

---

(133) في : ط . إلى لجاغة . وفي : ت إلى شجاعتهم ، وتقدمت الكلمة ص 289 .

صائر الى رداه ، وان حتفه حان وقرب مداه ، ولما وصل الى الحضرة وبحره يزخر ، وأسود خلطه تزأر ، تلقي بالبر والقرى الواسع ، ودان له كل أرب شاسع ، وصار يتردد الى باب الخليفة في جموعه ، وتظهر حركات في النفوس لأول طلوعه ، وكان بالحضرة معاوية عم عمر بن وقاريط يظهر الانابة والتبرؤ من ابن أخيه وفعله ، والقدح عليه في جميع أمره ، فلما وصل الخلطي وصار يعلن بمودته وموالاته فزاد اغترار معاوية بما تسنىٰ له منه ، وهذه الأخبار ترد على الخليفة الرشيد ويأتيه بها من خواص رجاله من يوضحها على وجهها فأعد لها عدتها وأخذ لها بالاحتياط والعزم وقد كان معاوية أعد طعاماً كثيراً في دار ابن تلاتيماس بالصالحة من الحضرة ليصل مسعود الخلطي اليه برسم المحالفة والمصافحة وعين لذلك يوماً أصبح في بكرته الطعام معداً حاضراً وكان لقدوم الخلطي عليه مرتقباً ناظراً ، وأحضر من وجوه اخوانه من يثق به[134] ، فلما كان في صبح اليوم المذكور اشخص أمير المؤمنين الرشيد صاحب شرطته في ذلك الوقت وهو الشيخ أبو محمد بن ماكسن وأمره بالنهوض بأعوانه الى دار معاوية والقبض عليه وتوصيله الى دار الأشراف حتى ينفذ فيه حكمه وقد كان العربي بدار الخلافة يقضي اشغاله بها ويتوجه مع اخوانه لدار الهسكوري معاوية فتوجه أبو محمد بن ماكسن لما أمر به وكان في نفسه خور فوصل الى الدار التي بها معاوية واضطرب وما اتصل به الا بعد حين وقد كاد أن يفلت وفي أثناء ذلك استبطىء فوجه عن الشيخ أبي موسى بن عطوش ليتدارك هذا الهم وينفذ ما أمر به قبل انفصال الخلطي من دار الخليفة توقياً من أن يلقاه فينزعه ويعضده فتوجه الشيخ أبو موسى مع جماعة من كومية اخوانه وغيرهم ولقى أبا محمد بن ماكسن ومعه معاوية على رمكة له من عتاق الخيل شهيرة السبق فحين عاينه الشيخ أبو موسى أشار على من معه بانزاله والمبالغة في تعنيفه وعملت عمامته[135] في عنقه واوصله الى دار الاشراف ونما الخبر في الحال الى الرشيد فنفذ أمره بضرب عنقه وذلك وقت الضحى فرويت الأرض من دمه ، واستراحت النفوس من ألمه ، وسمع مسعود الخبر فلم يرعه وقال أفسد الشيخ أبو موسى غداء الخلط وطعامهم وألزمه القيام بهم في ذلك الوقت فقام خير قيام بما أرضاهم وأرضاه فيهم ، ومضى معاوية كأمس الغابر ، والطلل الداثر .

---

(134) في : ط . ويهمه . وليست في : ت ، ويظهر أنها زائدة .

(135) في : ط . عمامة . وفي : ت ـ عمامته . ويظهر أنها أفيد .

مهلك مسعود بن حميدان وكيفية قتله مع قومه في ذلك الميدان

لما استحكم الرشيد التدبير المتقدم ذكره ووصل مسعود المذكور فاوض أهل مشورته في كيفية القبض عليه وتم له القصد في ذلك بما أشار عليه[136] ، وعين الرشيد يوماً لذلك واعد بالقصبة برياض الحزب يحيى بن عبد الرحيم رضيع[137] والده ومعه من الفتيان أعداد أهلوا لقتال مسعود بن حميدان وتجالده وجعل معهم أيضاً من العبيد الجنانين ، أعداداً كثاراً في مواضع خفية عن الأبصار وعُين صاحب الشرطة أبو محمد ابن ماكسن للجلوس بأعوانه وحرسه بمربعة أهل الدار لاصلاح البابين اللذين عليهما احدهما باب الرحبة الكبرى والثاني رحبة القباب واستعد لهذا كله بما اقتضته الحال وعرف الذين برياض الحزب بأن يماشي. بعضهم العربي إذا دخل مستدعى وحده على العادة للمثول بين يدي الخليفة الرشيد إلى موضع محدود يكتنفونه فيه عن يمين وشمال ويخرج الباقون من الجنانين وغيرهم من مواضع مكامنهم لاستيصاله والبطش به ، فلما وقر في النفوس ذلك أشعر الناس بقعود أمير المؤمنين وخرج الاذن لمسعود بن حميدان بالدخول إلى السلطان فقام من موضع جلوسه ومعه جماعة من إخوانه أبطال رجال يسحبون الزهو ، ويستعملون في مسيرهم معه الهزء واللهو ، ولما أفضوا إلى باب الرياض المذكور حيث الترتيب المشار إليه نفذ له الأمر بأن لا يدخل معه سواه فتردد في ذلك متلوماً وقال إنه لا يَدخل إلا مع أصحابه ولا يتجه له أن يفارقهم وتوقف هنالك عن الإجابة إلا إن كان مع عصبته فقيل له : إنك تعلم العادة في أن لا يدخل أحد لأول وهلة إلا بعد استيذان ولا بد من سلامهم بعد حلوله بالمجلس واستيذانهم على ذلك بحكم العادة الجارية وبعد لأي أنفذ أصحابه مع جانبي الباب ودخل وحده وسد في ظهره فظهر له ابن عبد الرحيم في نفر قليل يمشون معه فلما كان متوسطاً بالمكان المحدود لالقاء اليد فيه والفتك به بصر بجملة من الجنانين العبيد وغيرهم وأحس بالشر وبمسايرة ابن عبد الرحيم وغيره له على غير عادة ثم ألقى الملأ المذكورون أيديهم فيه وانخرط ابن عبد الرحيم في سيفه والعربي في أيدي الناس وبيده سكين في ذراعه فراعه ما رأى، ورأى الموت قد فغر نحوه فاه ، واستقبله من جهاته كلها رداه ،

(136) في : ط . أشار عليه وفي ت . أشار اليه .

(137) في : ط . وضيع والده . وفي ت . رضيع والده وهو الصواب .

فانتفض من أيديهم كما ينتفض العقاب ، وظهر منه للذين اكتنفوه ما اضطربوا له أشد الاضطراب ، فأفلت من أيديهم وضربه ابن عبد الرحيم بالسيف فلم يصبه إلا بذبابها ثم خر على وجهه صريعاً دهشاً قد استولى عليه الجزع وخامره إفراط الفزع وظهر من عدم الانتفاع به في ذلك المحل الشنيع وقلة الاصطناع ما لم يكن فيه مقدراً بحال ثم جذب العربي سكينه وقصد الباب الذي دخل منه ولو أراد قتل ابن عبد الرحيم لما منعه منه مانع ولكن حماه الأجل في بقائه واشتغل العربي بالنجاة بنفسه والافلات من الشرك الذي كان يتخبط في مهاويه . ولما استقبل الباب أعلن بصوته ليسمع من وراء الباب فكل من كان داخل الباب فر أمامه هيبة وفرقا ففتح الباب وخرج إلى جماعته في زي المحارب الذاب عن نفسه فأشهروا حديدهم وصاروا كرجل واحد وقد وسطوا بينهم شيخهم وقصدوا باب الرحبة الكبرى ليخرجوا من هنالك فاتبعهم في مدى هذه الرحبة كل من كان مختفياً بالرياض وهم يشتدون في أعقابهم فعاينهم كل من كان في الرحبة من القرابة والكتاب والخدمة والبوعديين[138] فتحققوا أن العرب هم المطلوبون فانجحر كثير من الناس في بيوت هنالك ولم يبق إلا بعض البوعديين والذين في أعقاب العرب من فتيان وغيرهم ينادونهم بأخذهم من أمامهم فكان من البوعديين في ذلك عناء وانتهاض إلا أن العرب أشد قتالاً وبأساً وهم يشتدون نحو الباب الكبير الذي يفضي بالخارج إلى مربعة أهل الدار فألفوه مسدوداً في وجوههم فأعطوا بعضهم لقتال الذين يلونهم وبعضهم لكسر الأعمدة وفتح الباب واستصعب ذلك عليهم مدة لوثاقة الباب وأعمدته ، وفي أثناء ذلك تسور البوعديون من جهة طريق باب القرابة على الجدرات واستعلوا على العرب وأتاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم والأمر يشتد والنفوس من إفلاتهم تضرم ناراً ثم تيسر للعرب فتح ذلك الباب على فخامته وقد نيل منهم النيل الشديد ودونه جملة أبواب لا قبل لهم بها ولا لغيرهم فأفضوا إلى مربعة أهل الدار وبها أبو محمد بن ماكسن بأعوانه على مقتضى الترتيب الأول ففر هو وأعوانه إلى جهة وليس لهم ورد ولا صدر ، ولا عين ولا أثر ، قد غلت أيديهم لافراط الخور ، وانجحر ابن ماكسن في تلك السقائف واستتر ، وهو يشاهد الحملات ويعاين المنايا كيف تخترم النفوس وتختطف الأرواح فلما افضت العرب

---

(138) في : ط . وت . البوعديين . . . ؟ وربما كان المراد العدويين .

إلى الباب الثاني وهو الذي يفضي بالخارج منه إلى رحبة القباب ألفوه أيضاً مسدوداً في وجوههم وخالطهم في تلك المربعة من كان يقاتلهم من باب الرياض إلى هذا المكان والبوعديون وغيرهم قد تسوروا الجدران وهم يقاتلونهم من السقف بالحجارة فلما عاين العرب ما لا قبل لهم به وأيقنوا بالهلاك وأنه لا نجاة ولا فرار توسطوا شيخهم وصاروا يموتون دونه واحداً واحداً وكان هو آخرهم قتلاً ، وعند ذلك آبت العقول وقد شردت ، وعادت النفوس وقد كادت أن تزهق أو زهقت ، والمنادي ينادي بقطع رأس العربي المذكور فقطع من فوره وحمل إلى أمير المؤمنين وهو بباب الحزب فشكر الله تعالى على ما تمم له من صنعه الجميل ، بالشكر العريض الطويل ، وفي أثناء انفلات العربي من الرياض حيث كان ابتداء أخذه فخيف من خروجه وافلاته ولو أخره الأجل وأمهله وألهمه للخروج على باب القراقين لتوصل إلى مرغوبه ولكن قضاء الله تعالى لا يرد بأسه عن القوم المجرمين فبغث أمير المؤمنين إلى كنيسة النصارى ليستصرخ من بها على قلتهم من تجارهم وضعفائهم وأولي الأعذار منهم وكان المتوجه إليهم عنبر الذي افضت إليه الحجابة بعد سنين .

قال الفقيه الكاتب أبو عبد الله التلمساني رحمه الله: ولقد كنت في احد المساجد بالقشاشين للقراءة هنالك فدخل ناس أخبروا بالقضية على غير وجهها فخرج جميع من كان به فلقيت بسوق البرذعيين الفتى المذكور وهو على فرس حالي[139] الركاب أشهب اللون من خيل الخليفة وليس على الفتى رداء ولا في قدميه إلا جلدها وكان المطر في ذلك اليوم وفيما قبله من الأيام ، متوالياً شديداً لا يفتر والأزقة والسكك قد غصت بالناس وهو قد أطلق عنان فرسه ووراءه نحو ثلاثين من فرسان النصارى وتجارهم وهو يستحثهم والطين قد علاه حتى لا يتبين لون فرسه ولا لون ثيابه وقد تشوه بما تلوث به لا يلوي على أحد ثم قصد باب القراقين بمن معه فألفوا العربي وأصحابه في مصارعهم وأبرزهم القتل إلى مضاجعهم . فعند ذلك أعطى الرشيد لجميع الناس بركة شاملة واسعة وأمر بإلقاء اليد فيمن كان بالبلد من الخلط وفي خيل الطائفة الهالكة ومتاعها وأثاثها وطيف بجثتها في المدينة فاستبشر الناس ووقع الايناس ، وقد كانت الاراجيف قد تنوعت في فنون من التشنيع والتبشيع فارتفع بذلك في الوقت الهرج ، وأقبل الفتح وجاء الفرج وحسب الرشيد ذلك فتحاً

---

(139) في : ط . خالي الركاب . وفي : ت حالي بالحاء المهملة . ويظهر أنه هو الصواب .

عظيماً لا تحيط به الأفكار ، ولا يأتي بمثله الليل والنهار ، وغنم[140] تفتخر به أيام دولته على الأعصار ، وتسمو به حضرته تيها على جميع الأمصار ، وحق لذلك أن يكون فإن الأمور قد كانت أخذت في الاختلال ، وتعطلت المجابي وساءت الأحوال ، فاقتحم بهذه العزمة ما كان في آخرها جميل العاقبة وإن كان قد ارتكب خطراً كبيراً من الأخطار ، ولكنه اقتدى بقول البغدادي :

سأعطي النفس ما طلبت فاما تهون فتحمل البلوى وإما

ولله تعالى القدرة وبه النصرة .

توجيه الرشيد عن وزيره وجيشه من حاحة

ولما فرغ من هذه الغزوة في أعدائه ، واحتوائه على أمله في ذلك واستيلائه ، أنفذ فرساناً ثقاتٍ كفاة أنجاداً بمكتوب منه بخطه لم يطلع عليه أحد إلا وزيره السيد أبو محمد وأغلق أبواب البلد ليخفي خبر الهالكين ويتأخر علمه عن جموعهم وقبائلهم توقياً من اتصال ذلك بهم فيأتون على الوزير المذكور وجيشه وحد للفرسان حداً يصلون فيه بكتابه وحذرهم من تجاوزه وجشمهم الجهد في احتماله فلم يسعهم إلا هلاك نفوسهم دون ما حذرهم منه فأتوا من ذلك بالعجب ووردوا على السيد أبي محمد بالأمر فعند وقوفه عليه أخذَ في الرحيل يستقبل الحضرة وقد كانت عنده مقدمات ذلك لاطلاعه على خفيات الأمور ومضمر التدبير ومواقيت المحاولات وتردد المخاطبات عليه مع الساعات ظاهرها في الاشغال وباطنها وجه آخر فما كان إلا انقضاء أربعة أيام من مهلك مسعود وكان وصول السيد والجيش فعظم الاستبشار بذلك وانتظم ما كان يخاف انتثاره وأنست النفوس بالعافية فاستمرت الحال في ذلك على الكمال ببلوغ الأماني والآمال . وعند تمام هذه الأغراض الخطيرة وكمال المحاولات الكبيرة شرع الرشيد أمير المؤمنين في التوجيه عن الموحدين فتيسر له من ذلك ما كان قد استصعب عليه بمخالفة العربي وانحرافه عن جميل رأيه في هذا المرام الذي قصد به الائتلاف ، ورفع الشتات والاختلاف ، ونفذت كتبه لهم ولسائر البلاد بهذا الفتح الجسيم والصنع الكريم فأخذ الموحدون في الوفادة عليه وهم يحسبون ان ذلك كله بسببهم ومن شدة بره بهم .

---

(140) في : ط . وغنم . وكذلك في ت والإعراب يقتضي وغنماً .

ذكر وصول جملة من الموحدين إلى حضرة الرشيد وإعادة ما أزاله أبوه المأمون من ذكر المهدي

ولما أخذ الموحدون في الوصول وبنوا عليه وعلى المثول بين يدي الرشيد قدموا شخصين منهم وهما أبو بكر بن يعزى التينملي ومحمد بن يرزيجن الهنتاتي رسول أبي علي بن عزوز وابن يعزى رسول يوسف بن علي بن يوسف ومن معه من أهل تينمل فتلقيا ببر واعتناء واعيدا إلى موجههما باستدعائهم فكان ذلك وخرج الناس إلى لقائهم وعاينوا ما طال به عهدهم وتمكن في نفوس الناس من الفرح بهم ما تكل[141] عن شرحه الأقلام والأفهام ، وعاين الموحدون المذكورون من أميرهم الرشيد براً واسعاً وخيراً متتابعاً وانزلوا خير إنزال ، وتلقوا بما شاءوا وأملوا من احتفال واهتبال ، وكانت لهم شروط قبل دخولهم وهي إعادة ذكر اسم الإمام المهدي في الخطبة واسمه في المخاطبات ونقشه في السكة من الذهب والفضة وإعادة الدعاء بعد الصلاة والنداء عليها بتاصليت الإسلام وهي إقامة الصلوات وما أشبه هذا مثل سودوت وناردي وأصبح ولله الحمد فهذا كله كان العمل عليه في جميع دولة الموحدين إلى أن جاء المأمون من الأندلس فكان ما كان من تغيير تلك المعالم الفاسدة والرسوم فاستمر ابنه الرشيد على رسم أبيه وجرى على قانونه فلما كان من الموحدين انتداب إلى الطاعة اشترطوا إعادة ما وقع النص عليه فأسعفوا فيه وسمعت موجبات وصولهم وانتظامهم ، ولما احتلوا منازلهم وبقوا بها أياماً ولم يعد شيئاً من تلك العوائد ساءت ظنونهم وكانوا في أمر متريح من توقع القطع بهم فيما هو عمدتهم التي عليها يعتمدون وبهديها يهتدون ونما خبر تأثرهم وتحدثهم بذلك إلى الرشيد أميرهم فسكن نفوسهم وجدد تأنيسهم بإعادة تلك العادة وإجرائها على القوانين المعلومة المستقيمة فيالله ماذا بلغ من سرورهم وما كانوا فيه من الارتياح عند سماعهم وانطلاق ألسنتهم بالدعاء إلى الله تعالى في نصر خليفتهم وتأييده ، وإعلاء أمره وتجديده ، وشملت الأفراح الكبير منهم والصغير وعم الجذل الحاضر والبادي وعند ذلك تمهدت قواعد الموحدين ، وتبينوا القصد الجميل فيهم وأشاعوه عند قاصيهم ودانيهم ، وبولغ في إدنائهم وتكريمهم وأحل أشياخهم محل أشياخ الموحدين على قدم الزمان واستبشروا بنعمة من الله ورضوان ، واستقر الموحدون

---

(141) في : ط . ما لا تكل . وكذلك في . ت . والمعنى يصح بدون لا .

بحضرة الخلافة في أحسن مستقر ، ووفد على أثرهم أبو محمد ابن أبي زكريا فلقي برأ جزيلاً ، واعتناء حفيلاً ، وصرفت على جميع الموحدين ديارهم وعقارهم وأملاكهم وسهامهم فعادوا إلى أحسن عادة ، واستشعروا النمو في أحوالهم والزيادة ، ولما ساغ للرشيد مقصده في هلاك عدوه ووصول جيشه مع وزيره أبي محمد من حاحة وانقاد له أكثر الموحدين ودخلوا في ايالته ، وأعلنوا في بلادهم بطاعته ، أخذ في استصلاح الأمور ، وسد الثغور ، وحسم الأدواء قبل إعيائها وانخراق الفتق عليه منها ، وشرع في ذلك بوجوه توفرت عليها دواعي رجاله وطائفته.

ذكر فتنة الخلط وعنادهم وحصارهم مراكش وفرار الرشيد منها أمامهم ودخولهم إليها مع يحيى بن الناصر

لما نمي إلى الخلط خبر شيخهم وإخوانهم جالوا في أنواع الفساد واظهروا الشقاق والعناد ، وخاطبوا شيخ الضلال ، ورأس الفجور والضلال ابن وقاريط المتفنن في الفتن ، الناشىء في المكايد على قديم الزمن ، واستكثروا بمداراته وآرائه ، ولم يتجدوا معيناً إلا الاستمداد به فأجابهم إلى مطلوبهم ، وأقبل على مساعدتهم واسعافهم ، وقد كان في هذه المدة السالفة منتزياً موالياً ليحيى مشتغلاً بتجديد طلل دارس ، أخنى عليه الذي أخنى على لُبد ، يحضهم على الاعلان بدعوة يحيى والاستناد إلى بيعته والذب عنه والانضواء إليه ، ووجد ابن وقاريط بذلك ما كانت الأيام تقصر عنه عنده من مراده فانتعش وقد كان اشفق لانقطاع الأمل من تجديد محال يرومه ورسم يقيمه فانتدب الخلط لمساعدته واتباع رأيه والاقتداء به ووجهوا أرسالهم وكتبهم بذلك ليحيى بن الناصر وقدموا على أنفسهم لعقد أمورهم واحكام ربوطهم يحيى بن هلال بن حميدان واضرموا للفتنة ناراً وأظهروا الخلاف والعناد واشتغلوا بتحزيب القبائل وفساد البلاد وحشدوا حشودهم واجتمعوا من كل أوب وفج واستقبلوا الحضرة معلنين بطلب ثأرهم فأحدقوا بجنباتها ، وخيموا بأحوازها وجهاتها ، وشرعوا في تدمير البحائر وقطع مياهها وشجراتها ، وقد خلت أمامهم المداشر والقرى إلا من كان لهم عليه سلطان من الرعية فإنه استقر بمكانه وعظم انتقامهم وعيثهم في الحوز فضاقت الأرض بما رحبت على الناس لانقطاع المرافق والمواد وارتفعت الأسعار وعدمت الأقوات وقل كل مرفق وأعوز وجدان[142]

(142) في : ت . وجدان . . . . الحطب . . . .

ما ينتفع به الناس من الحطب والتبن والفواكه والخضر وما يجلب من البوادي واقشعرت الجلود من هول المكابدة في طلب شيء من أنواع الحنطة وبلغت مبلغاً لا عهد بمثله حتى انتهى الربع الواحد من الدقيق اللطيف الفاسد إلى ثلاثة دنانير والناس في ازدحام على من يشعرون عنده زنة الخردلة منه أو من سواه وما أهمهم إلا إقامة الأود بما ينطلق عليه اسم الحنطة وتمام الشرح لهذه المجاعة يأتي بعد ذلك إن شاء الله تعالى بعد ذكر خروج الرشيد .

ذكر فرار الرشيد من حضرته امام الخلط

ولما انتهت هذه الاحوال الى هذه الغاية المشروح بعضها وضاق على الخليفة مجال النظر وتقلصت أحواله وأحوال أجناده وحاشيته أخذ في الحركة ليضرب يميناً وشمالاً والاجناد تفنى في هذه الشدة وتنثال على اعدائه الخلط فاتخذوها سبب الانتقام وانتهزوها فرصة في الوصول بجموعهم الكثيفة المتراكمة تراكم السحاب فأنف زعيم النصارى حينئذ غنصاله من الانحصار للعرب فجمع جموعه ورتب اموره وتأهب للقائهم بخارج الحضرة واستعد لذلك بأقصى ما في امكانه من العدة وخرج معه بعض المسلمين وقصدوا نحو وادي تـانسيفت حيث كان جموع الخلط ومخيمهم ، فلما احس العرب بهم تداعوا الى قتالهم واقبلوا من كل جهة بفرسانهم ورجالهم واجتمعوا في أمم لا يحصيها الا بارىء النسم سبحانه فكان بين الفريقين يوم عصيب، واحتدم القتل طويلاً وامداد الخلط تتزايد ومن كان منهم بعيداً ناداه صريخهم فأتى من وقته ورأت النصارى موقعاً شنيعاً ، ووردوا من عدم الرأي في حربهم مورداً فظيعاً ، وكان فيهم عبد الصمد بن يلولان الهسكوري الذي كان يضاهي ابن وقاريط ويكابره وكان من شجعان الفرسان في نفر يسير من اخوانه ، ولما عاين الجند الخارج من مراكش ذلك الامر نظروا طريقاً ليلتمسوا منه سبيلاً فلم يروا أوقى[143] جنة من قنطرة تانسيفت فاقتحموا عليها ومن معهم وضاق هنالك مجالهم وتسابق بعض الخلط الى طرفه الادنى ليمنعوهم من الخروج عليه فكان هنالك خطب شنيع ورحى الحرب تدور على زعماء من فرسان النصارى فاستحر القتل فيهم وعدم منهم عدد ثم حملوا حملة صادقة على الذين امسكوا عليهم طرف القنطرة والليل قد انسدل ظلامه فخرجوا من القنطرة وسم الخياط افسح منها مجالاً وسترهم

(143) في : ط . أوتى . وفي ت أوفى ـ . ولعل الصواب أوقى .

الليل بجلبابه ودخلوا المدينة ليلاً منهزمين خامدين[144] وبات الناس في اضطراب لما عاينوا من سوء الحال وانقلاب الاجناد وقد قتل عدد كثير من زعمائهم وعدم اكثرهم في هذه الكائنة بسلاحهم واصبح الناس يموج بعضهم في بعض وارتفعت الهيبة من السلطان وجنده وعدمت الاقوات البتة وكاد الناس يأكل بعضهم بعضاً والعرب الخلط في خفض من العيش والزرع عندهم يداس بالاقدام فامتدوا بالفساد واستدرجوا بوصولهم من مكان الى مكان وايقنوا أنهم آمنون من خروج الجيش لهم ثانية لقتلهم ابطالهم واستيلائهم على اسلحتهم وجميع ما كان لهم والاحوال تزيد ضيقاً بكل وجه ولا مدد يرتقب ولا فرج الا من تحت ظلال السيوف ينتظر ولقد وصل الخلط في احد الايام إلى الحضرة من جهة القبلة وتركوا المصلى في الاعياد وراءهم واقتربوا من السور في أمم لا تحصى فخرج العسكر كله حينئذ الى خارج المدينة وكان سطراً واحداً من غربي الصهريج الذي بين باب القصر وباب الشريعة الى مقربة من موضع مبيع البقر والغنم فعاين الناس من قلتهم ما راعهم واضعف قواهم واوهن نفوسهم وربما انضاف إليهم في ذلك الصف عبد الصمد الهسكوري واخوانه والناس على الاسوار لا ينطقون واستمرت الحال في هذا اليوم على ما ذكر من اصطفاف خاصة دون قتال الى العصر وانفصل الخلط من هنالك ودخلت الاجناد الى البلد وما مر يوم الا وله شأن من الشدة وعدم الاقوات ، فلما انتهت الامور الى أبعد غاية تمر بالاوهام من الاختلال وتوقعت المحاضرة حقيقة وانتظم الخلط بابن وقاريط واشياعه وتفاقم الامر واشتد الحال فاقتضت المصلحة النظر في وجه يكون فيه مخرج الى الفرج وحضر لذلك الموحدون وغيرهم وانبعثت الخواطر بما فيها وأعملت الافكار في اسباب النجاة ودواعيها وتفاوضت الاقوال وترجحت الآراء واستمد الكبير من الصغير ونظروا في عاقبة الامر فرأى الجمهور ان الخروج أحق وأولى قالوا إنما نحيى بخروجنا فتكون لنا الكرة او نموت فنستريح وأثروا قول القائل :

عش عزيزاً أو مت وانت كريم ... بين طعن القنا وخفق البنود

فلما اجتمعوا على هذا الرأي الناجح والقصد الصالح ،تفاوضوا في جهة يقصدونها وناحية يعتمدونها فانتدب لهم الموحدون وقالوا إن الوطأ ما اليه من سبيل وقد احدقت به الأعداء وهذه بلادنا تنجيكم ، ونحن بانفسنا واخواننا نفديكم

---

(144) في : ط . خافدين . وفي : ت خامدين . ولعله هو الصواب .

ونقيكم ، وجبـالنـا المتسعـة تحملكم دهـراً وتؤ ويكم ، واذا حللتم بعـرصـاتهـا وشواهقها وأمنتم من المكاره وبوائقها ، وأتيتم الأمور من وجوهها وطرائقها ، وتوسعتم في معرفة الاحوال وحقائقها ، وكنتم قد ملكتم قياد آرائكم ، وامنتم من كل جهة حتى من عدوكم الذي من ورائكم وعند ذلك يتأتى لكم المراد ، وتأتي الايام بالموافقة والاسعاد ، ولما قرروا ذلك استبشر الرشيد ومن معه بمقالهم وركنوا الى رأيهم واستخاروا الله سبحانه في الحركة معهم الى جهة الجبل لارتقاب الفرج المؤمل والنصر المنزل ، واخذ الرشيد ورجال دولته والموحدون في حركتهم وخففف الناس اثقالهم ببيع ما لا يحتاجون اليه وعند ذلك ظهرت الحنطة في البلد مما باعه المتحركون ولقد كان عندهم منها ما تتمشى به أحوال الناس مدة طويلة ولكن حب النفس منعهم من اخراجه والتمسك به . وشاع في الناس خبر الحركة والابواب مغلقة الا احدها عند الضرورة يفتح وانتعش الناس بظهور الزرع بعض ايام وبالبيع والشراء ومعاملة المتحركين فيما يحتاجون اليه ولم يتهيأ لهم الخروج من الحضرة حتى بعدت العرب يسيراً منها .

ذكر السبب في بعد العرب عن الحضرة وتهييء الخروج منها للرشيد بجملته واجناده

لما عزم الرشيد على خروجه من حضرته توقع ان تجلب العرب عليه بخيلهم ورجلهم فلا يجد وصولاً الى الجبل ولا غيره فأجمع رجاله على ان يبعث رقاصين بكتب مفتعلة تتضمن نصرة الرشيد على اعدائه الخلط كأنهم وصلوا بها من عند جرمون شيخ عرب سفيان وبطاعتهم له وحرصهم على الاتصال به والدخول في سلطانه واجزلوا العطية للرقاصين وامروهم بالانتماء إلى جهة معينة ثم يأتون منها قـاصـدين الحضـرة مـارين على الخلط متعـرضين لهم لكي يـأخـذوهم ويستعجلوا اخبـارهم ويـأخـذوا كتبهم ويستفهمـونهم عن مـأمهم ومتـوجههم فيخبـرونهـم بأنهم قاصدون الحضرة من عند عدوهم جرمون وأنه مستقبلهم بعرب سفيان اعدائهم وأنهم تركوه على وادي ام ربيع ثم كمل لهم هذا الغرض وجرت فيه الارادة على احسن ما قدر فيها وان الرقاصين عمدوا بالكتب ناحية الخلط فأخذوهم وكتبهم والحوا عليهم حتى اقروا لهم بأنهم ارسال جرمون فأجمعوا على ان يقصدوه وقد كانوا في أمن من جهته بأنه لا يقاومهم ولا يستطيع كفاحهم ولكنهم لما وقفوا على الكتب واستخبروا الرقاصين ظـنوا ان الامر حق واقتضت المصلحة عندهم ان يبددوا

جمعهم قبل انتظامهم بالرشيد واجتماعهم به فأخذوا في الحركة نحو وادي ام ربيع .

ذكر كيفية خروج الرشيد من حضرته بجميع جنده

لما أحس الرشيد ببعد العرب الخلط والهساكرة الذين كانوا معهم عن مراكش خرج قاصداً الى الجبل وكان لما عزم على ذلك عين يوماً له فلما كان في صبحه اشتغل بالتجهز واشتغلت خدامه بحركتهم واثقالهم وعيالهم ولم يتركوا لانفسهم بمدينة مراكش قليلاً ولا كثيراً ولا جليلاً ولا حقيراً وكان اجتماع الذين يخرجون خارج البلد لم يبعدوا عن سوره بوجه من الوجوه وجلس الرشيد بقبته مع خاصته وكل ما يخصه من اثقال واحمال وحشم وعيال قد اشتغل به الموكلون فلم يتم ذلك الا في الساعة الثالثة من النهار فلما استوفى كل واحد خدمته أشعر بذلك وادني اليه فرسه والقلوب تخشع والعيون تدمع والاصوات بالدعاء الى الله سبحانه ترتفع بنصره ، والالسنة ناطقة بشكره وتقدم للخروج على باب الكحل ووراءه اثقاله وعياله وكان عذاره لم يستكمل في خده والدموع بادية في عينيه والنهار بهذه المصيبة حالك ، ووقف خارج الباب للدعاء على العادة هنالك ، والناس يؤمنون على الدعاء ، ويرجون الاجابة من رب السماء ، واستخلف إذ ذاك على مراكش ابا محمد عبد الله بن زكريا وقصد الرشيد نحو المصلى متوجهاً لجهة الجبل فسد باب الكحل وسائر الابواب وتمشى الناس معه بعيالهم واثقالهم في الساقة وانسدل عليه حجاب الاعتناء الرباني فلم يصل اليه احد في ذلك اليوم من أعدائه ونزلت المحلة بمقربة من أغمات ، واستشعروا من ألطاف الله تعالى ما استدلوا به على كل فتح آت ، ومن كان تلوم متأخراً عن وقت خروجه وأخذ في اتباعه لحق به العرب فاستأصلوه ومن جملته ابو زيد المكادي قاضي الجماعة وابنه عبد العزيز ، فأما الولد فانه خرج سبقاً على فرسه الى نحو المدينة ونجا وأما الشيخ فلم يبق العرب له ولا لعياله ما يسترهم فضلاً عن سواه ولو علموا أنه القاضي لقتلوه ولكنهم جهلوه فتركوه لطفاً من الله تعالى فقصد على حالته تلك المحلة فأعانه كل من كان بها بكل ما يحتاج اليه فحسنت حاله بذلك .

واقام الرشيد بمحلته هنالك يوماً فاتصل بالعرب خبر خروجه من حضرته فجاءوا متحسرين يتلهفون على ما فاتهم فضيقوا على محلته اشد تضييق وبالغوا في

قتالهم بكل مضيق وفج عميق فاجتمع أهل مشورته على الرحيل من هنالك ليلاً الى أغمات برسم التحصن بها ومنها يكون طريقهم حيث يمموا فلما أرخى عليهم الليل سرادقه اغتنموها فرصة واقلعوا من حينهم إلى أغمات المذكورة فلقوا من المشاق في تلك الاوعار والمضايق ومجاري المياه والتفاف الاشجار وازدحام الناس والدواب وشدة الخوف وامتداد ايدي بعض الى بعض ما لا يوصف وما اتصل الناس بالبلد الا مع الصبح وقد اخذ منهم التعب والمشقة ما أشرفوا منه على الهلاك ولما كان من الغد أقبل الخلط في الجموع الوافرة والاعداد المتكاثرة وهم يظنون انهم ظفروا بمطلبهم وحصلوا على اوبهم فألفوا الاثر بلقعاً ولم يجدوا لهم موضعاً فشق ذلك عليهم وكبر في نفوسهم واقبلوا يتلاومون على تركهم ثأرهم وان لم يقيموا عليهم مخيمين ليلهم ونهارهم ثم انهم لم يلبثوا الا ساعة لومهم لانفسهم واخذوا في التضييق على أغمات والانتهاء الئ سورها واقاموا لها محاصرين يومين لم يجد أحد فيها شيئاً يبتاعه واحتيج الى طعام برسم زاد لدار الخليفة الرشيد فتطوف خاصته المشرف ابو البركات على الاسواق ثم على اهل الديار ثم اقتحم بعضها فلم يجتمع له الا قدر تسعين مداً من قمح .

فلم يمكن الاستقرار هنالك على الجوع فأجمعوا امرهم على الخروج الى جهة تالمقت ومنها يصعدون الجبل مأمنهم من عدوهم فكان ذلك وعميت اخبارهم عن عدوهم وطبع الله تعالى على قلوبهم وسمعهم فما أحسوا بالخروج الا بعد حصول الناس بأطراف الجبل وهناك استأذن شيخ تينمل ابو يعقوب يوسف بن علي بن يوسف على التوجه بالجند إلى جهة ويرجان من أعمال مدينة تينمل للقبض هنالك على السيد المعروف بأبي حافة وهو ابو ابراهيم ابن ابي حفص فأسعفه الرشيد الى التوجه لذلك بالجند وكان السيد المذكور من أشياخ يحيى ومن الذين يتولون الذب عنه بلسانه وقلبه ويده فلما توجه ابو يعقوب بالجند لم يبق بمحلة الرشيد أحد منهم وشاع الخبر عند العرب فاجتمعوا بقضهم وقضيضهم وكبيرهم وصغيرهم وجردوا العزم على المصادمة والمكافحة لينالوا ما يحومون عليه والله تعالى يذهب كيدهم ويخيب سعيهم ، ثم أقبلوا نحو المحلة وليس لها مانع ولا دافع ولجأ الناس إلى التوعر في مكان ضيق وقد اشتدت أحوالهم وانقطعت آمالهم وبعضهم ينظر الى بعض ، والأمر يؤول بالتقدير وقرائن الاحوال إلى اختلال ونقض فبينما هم كذلك وعدوهم فيهم طامع ، وبرق رعوده لامع ،

وعذابه بالقوم لولا دفاع الله واقع ، اذ اقبلت مقدمات لجيشهم كأنها العقبان ، وترادف العسكر من كل جهة ومكان ، فعاد الترح فرحاً ، وجررت اذيال المسرة مرحاً ، فعندما عاين الخلط تكامل الجيش من تلك الفجوج ، ايقنوا بخسار وفساد ، لما ظنوا أنه عائد بنجح وسداد ، ثم انقلبوا من هنالك ناكصين ، وولوا على ادبارهم خاسرين ، واستمر الرشيد على مسير في الجبل واشياخ الموحدين يأتون بالمرافق والتضييف ويوسعون على الناس في علوفاتهم واظهروا كل جميل من طوياتهم ، وتقدموا بين يدي خليفتهم في بلادهم وطرقاتهم ، ولم يثن عناناً عن موضع يعرف بادار من بلاد هرغة وكان مخزن مال وذخائر لأبي اسحق بن امغار ولم يكن القى بيد الانقياد انفة مما كان بينه وبين يوسف بن علي التينملي وكان في ذلك التاريخ موازراً ليحيى ومشايعاً له في جملة من الموحدين كانوا تمسكوا به ولم يخلوا بشيء من خدمته وطاعته فضبط حصن ادار الحاج ابو محمد بن الشيخ وكان تركه عمه أبو إسحاق به فقام خير قيام فمنعه فحاصره الرشيد فيه واستمر القتال عليه الى أن ألقى بيده وطلب اماناً فخرج منه وكان في الحصن اذ ذاك ابو زيد بن عبد الكريم الجدميوي وهو شاب يقرأ وكان ابو اسحاق بن امغار خاله ثم ان الرشيد ومن معه من الموحدين استقبلوا بلاد القبلة وقالوا هذه سجلماسة أمامنا وبها تتم آمالنا وتتسع أحوالنا وننسى ما كابدناه من الأهوال ونستجد عزماً ونظراً في المقارعة والنزال وإذا ملكناها ملكنا كل البلاد ، وتيسر لنا فيما نرومه المراد ، وكان بها أرقم بن يحيى بن شجاع بن مردنيش فسمع بقصد الرشيد اليه فارتعدت فرائصه وهاجت خواطره ولم ير انجح رأياً من قتاله فرتب لذلك وأخذ له أهبته وبالغ في حسم كل علة واحسن لرجاله وكان عنده جماعة من النصارى يعول عليهم ويسكن اليهم. فوسّع لهم العطاء واقام ببلده متمنعاً به والرشيد يطوي اليه المراحل وزاعج الاضطرار يستحثه. فلما نزل بخارج سجلماسة وهو يظن خيراً بمن فيها ظهر له من احوال ابن مردنيش ما دله على شقاقه وعناده فاشتدت الحال على الجند وعلى كافة اهل المحلة ولم يجدوا مرفقاً ولا علفاً ولا قوتاً وهم في صحراء فغرت فاها ان زلت بهم الاقدام أو آثروا الاحجام على الاقدام ، فعند ذلك شرعوا في المنازلة وأخذوا في المقاتلة، وعين أرقم بن مردنيش قريبه احمد بن أبي النجم لقتال الرشيد فأظهر في ذلك عناء وبلاء وحجز الليل بين الفريقين والناس من عدم الاقوات في اضطرام ، ومن غلبة اليأس عليها في استعار واحتدام ، واصبح الناس في اليوم الثاني ولا قوت في خباء أحد منهم

حتى ان الصغار من الاولاد كانوا يبكون من شدة الجوع فما يجد آباؤهم ما يسكتونهم به ثم ان النصارى الذين كانوا بالبلد مع ارقم ابن مردنيش مالت نفوسهم الى اغاثة اخوانهم وعلموا ان ذلك لا يتجه الا بالغلبة على شيطانهم ففتحوا الباب معلنين بالطاعة ولم يكن عند أرقم نبأ منهم فجاءه الخبير بذلك فتدارك امره بطلب الامان فأمن ودخل الناس سجلماسة وقد كاد الجوع ان يبيدهم فحصلوا في خفض من العيش وبلد خصيب ، متسع الخيرات رحيب ، فاستقام الحال واستقر الناس في دعة وامن وصلحت الاحوال وبها بقي الى أن جدد حركته الى مراكش على ما يأتي ذكره ان شاء الله تعالى ، رجع الخبر الى أحوال مراكش بعد حركة الرشيد منها واقبال الخلط اليها .

ذكر المجاعة التي كانت بمراكش عصم الله المسلمين من مثلها

لما توجه الرشيد في حركته المذكورة وخرج أمام الخلط من الحضرة تحير الناس وكثر فيهم الرهج وعظمت عليهم المصيبة باسلامهم وعدم الأقوات والمرافق ولم يبق لأحد سبد ولا لبد ولا طارف ولا تالد ولا ذخيرة ولا مال ولا عقار واستولت المجاعة على جمهور الناس ورأوا محناً يستعاذ بالله منها وانتهى المد الواحد من القمح الفحصي إلى سبعة دراهم كباراً من طبع . . السكة وأما الدرهم الفضة فكان يصرف في نصف درهم وكان هذا عرفاً بين السوقة بالسبعة الدراهم السكة انما تخرج من مثلي عددها ، وأما أسواق المدينة في هذه المجاعة فلم يكن بها ما ينطلق عليه اسم شيء بوجه من الوجوه والحوانيت مغلقة وما بقي بها من يلبس ثوباً يساوي عشرة دراهم الا الأطمار المتغيرة الخلقة وتغيرت الصور الجميلة وتنكرت الدنيا باستيلاء المجاعة واذا ظهر في السوق بعد أيام كثيرة شيء من خبز الشعير يحشر الناس عليه وانهم لقيام ينظرون وما يصل اليه الا الكفاة الذين لهم تجلد على الاقتحام وصبر ، ثم لا يعدم الذي يتوصل اليه أن يجتمع عليه العشرون وأكثر من الضعفاء المساكين حتى ينتزعوه منه قهراً وأما شيخ أو عجوز أو طفل أو ضعيف فانه لا يصل الى شيء ولا على لقمة منه وسائر الأيام انما يظهر في الأسواق ما يكرر طحنه من فيتور الزيتون وغيره فهو كان غذاء الناس لأنه كان كثيراً بالبوادي الخالية فتجتلبه الضعفاء ويقتاتون منه ويبيعون فضلاتهم وكذلك النارنج كان موجوداً كثيراً فصار الناس يميلون إلى شرائه وما يدرون حامضاً هو أم حلواً من سوء ما حل بهم، وكان

يباع في الأسواق خبز يعمل من تابودا[145] التي تنبت في الصهاريج وفي الأنهار والسواقي وهو شبه من القصب سم من السموم يتخير منه ما جف ويطحن كما تطحن الحنطة ويعمل منه خبز يخيل لمن يراه فاذا التمس شيئاً منه باستعماله ومذاقه لم يجد شيئاً . ومن جملة ما اقتات الناس به في ذلك الوقت عصائد تصنع من نوار الخروب وما عـدا هذا ليس له وجود البتة حتى لقد هلكت أمم لا تحصى وأبواب البلد كلها مغلقة والمصايفة قد قرب أوانها وكانت طيبة الزرع جداً وظهر في الزرع باكور لو وجده الناس لأغناهم ولكن حالت بينهم وبينه العربان والعساكر. ولما انتهت هذه الشدة بالناس الى كل غاية نزل عليهم عدوهم الشديد البأس فاشتد الحصار وتمنى الناس الإسار[146] وبلغت القلوب الحناجر وما للناس .غير الله سبحانه من ولي ولا ناصر، وأحدق العرب بالبلد من كل جهة ومكان وكان معظمهم وزعيمهم من جهة القبلة عند المصلى وحيث سوق الدواب وهم يقاتلون أهل السور[147] مداولة في كل يوم . قال أبو عبد الله التلمساني ولقد عاينت من برج مرتفع بباب دار الاشراف ليس في أبراج القصبة أعلى منه قتال العرب مع أهل السور فكانت الرجال من العرب يقفون على القنطرة التي تعرف بتوف المطرح ويرمون حجارة على برج باب الشريعة فما يمر مار بالرصيف وتنتهي حجارتهم الى فندق السكر هناك والى الممر الممرور عليه بباب نفيس وهذه مسافة لا يقطعها الا شدة[148] الساعد ولقد كان الناس يرمون بالحجارة من السور فما كانت تنتهي بوجه الا للستارة لأن الناس في ضعف أنهك القوى وأخل بالعظام والعرب في قوة وخفض من العيش والفحص وزرعه في حكمهم وهم يخوفون ويهددون ، واستمرت الحال على ذلك فكان الضعفاء يخرجون على الأبواب فان البلد ضاق بهم فآثروا الفرار بأنفسهم ولم يبق بالبلد الا الأقل ممن لا يستطيع خروجاً وبقيت هذه الحال مدة والخلط وحشودهم يستحثون يحيى وأشياعه . فتقدم منهم السيد أبو ابراهيم بن أبي حافة فنزل بمقربة من البلد وعاين الناس من نزوله هناك ما راعهم ولم يبق في الناس قوة لحماية بلدهم

---

(145) في . ط . تمودا . وفي ت ـ تابودا . وهو الصواب والكلمة مستعملة الى الآن في بعض البوادي الشمالية في المغرب . . . بالمعنى الذي ذكره المؤلف .

(146) في : ط . الإيسار . وفي : ت الإسار وهو الصواب .

(147) في : ط . يقاتلون السور . وكذلك في ت . ولعل المراد : أهل السور بزيادة كلمة : أهل .

(148) في : ط . شدة . وكذلك في : ت ولعل الصواب شديد .

فمالت نفوس الناس الى السيد المذكور لعله يمنعهم من عبث العرب فيهم ثم تسور السور وتمكن من البلد وفر الوالي أبو محمد بن أبي زكرياء ومعه يحيى بن عبد الرحيم فانه كان الرشيد تركه على من كان تخلفه بالقصر من خدم وإخوة صغار وكان فرارهما من سرب باب الصالحة وتوجهاً نحو تاماروت من بلاد هنتاتة واستقرا في أمن هنالك الى أن عادا بعودة الرشيد إلى حضرته على ما يأتي ذكره ان شاء الله تعالى .

ذكر فتح مراكش حرسها الله تعالى ليحيى بن الناصر على يد السيد المذكور عبد الله بن أبي حافة

لما نزل السيد كما تقدم ذكره بباب الشريعة سكنت إليه نفوس الناس ليحميهم من عبث العرب وفتكهم وقد كانوا تأخروا في ذلك الوقت عنها يسيراً فتمكن السيد من البلد ووجه كتبه بذلك ليحيى وضبط البلد واكتسح لنفسه كثيراً وأخذ من وجوه البلد وتجاره ما أراد واصطنعه الناس خوفاً على أنفسهم وأموالهم وكان له ولد اسمه عمر تسبب لناس بأشياء استولى بها على كثير من أموالهم وكان أثره في ذلك شنيعاً وما كان لأبيه مطيعاً في الكف عن الناس مع طمع أيضاً كان في والده توصل به هو وابنه إلى ما راما . وفي أثناء هذه الحال وجد الناس سبيلاً الى الزرع الأخضر فخرج لحصده الضعفاء وأكثر الناس منه في البلد فانتعشوا وعادت إليهم أرواح الحياة ولله الأمر من قبل ومن بعد . وقتل السيد هنالك شخصاً علجا في الأصل كان من خاصة الرشيد وكان طالب بقتله صبراً ثم اتصلت الأخبار بوصول يحيى وابن وقاريط والخلط ووصول جماعة من الموحدين مستقبلين المدينة الخائف أهلها فاشتغلت الخواطر من الذين يعلمون عواقب الأمور ومارسوا الفتن والأهوال في الدخول عليهم مرات ومر آخرون ممن هو من جانب يحيى ومن قوم لا يعقلون من السوقة الذين يأخذون أموال الناس ويدخلون الديار ويقتحمون على أهل المروآت ويحملون العرب الى قوم لهم اشتهار بمال أو بين أحد منهم وبينهم على متاع قليل تنافس فيدرك أمله في الايقاع به والنيل منه .

بـذا قـضت الأيـام مـا بـين أهـلهـا   مـصـائب قـوم عـنـد قـوم فـوائـد

ذكر وصول يحيى بن الناصر لمراكش ومن معه من الخلط وهسكورة مع ابن وقاريط

لما وصل يحيى الى مراكش واحتل بها وصل معه أشياخ العرب وعامتهم

وكبيرهم وصغيرهم واستولوا على كل سوق وجهة واقتحموا الديار ووالوا الاضرار واختاروا من الديار ما شاءوا فأخذوه ولا مانع يمنعهم ولا زاجر يزجرهم ووصل أبو إسحاق بن الشيخ وكان كالوزير الا أن رونق الوزارة قد دثر ودرس وتغير وكان أيضاً وزيراً له أبو محمد بن وانودين وأبو يحيى زكرياء بن يجلد . ووصل ابن وقاريط في أشياعه ونزل دار أبي سعيد ابن جامع ونزل على بن هلال في جميع ديار دار نفيس هو وأخوانه واقتسموا الديار والقصور العجيبة التي لا يأتي الزمان بنظائرها ولا بأمثالها وبعد أيام انقبضت الأيدي على امتداد وكفت أكف الفساد ولم يكن للموحدين كبير أثر في هذا الوقت، فأما أبو إسحاق بن الشيخ فلم يكن همه قبل احتلال يحيى بأيام ثلاثة أو أربعة الا في القبض على من بقي في القصر من أولاد المأمون ليمسكهم فيما أخذته الأيدي وانتهبته واحتمل الى الجبل من حصل منهم في يده ثم لحق بموضعه لغلبة العرب وابن وقاريط على يحيى حتى انه كان اذا جلس في القبة المعروفة لجلوس العلماء ما بقي أحد من العرب الا وهو يقتحم عليه فيها بغير اذن وما كان جلوس عامتهم مدة اقامته بالقبة الا بمقربة منه في الرحبة الكبرى وتغيرت الأحوال كلها .

وفي أثناء ذلك التاريخ أطلق ابن وقاريط ذؤابة من عمامته يقول له الناس الفشتال . قال الكاتب أبو عبد الله التلمساني رحمه الله ولقد عاينت عمامة ابن وقاريط وطرفها مع ركبته وفيه من التيه والزهو والعجب والاغترار ما لا يصفه الواصفون وقد تحصل له كل مطلوب من حلول يحيى مراكش واحتوائه على سلطانه ولعبه بعقول العرب كيف شاء واستيلائه على القبائل والبلاد وتوجيه رجاله الى كل جهة عن الأموال واقبال الرضى عليه بالمساعدة فظن أن ذلك شيء لا يفسد ولا ينقضي والأقدار منه تضحك والأيام تأتي بكبير عادتها من الكسر لكل جبار عنيد من الاملاء له والامهال .

ولما حالت أحوال الموحدين المذكورين وعلموا أنهم في قبضة ابن وقاريط أخذوا في التكاسل عن الخدمة والتثاقل ، واستمروا على ذلك صدراً من تلك الأيام حتى اضطر يحيى الى تقديم الحسن بن السيد أبي علي بن أبي عبد الله بن السيد أبي حفص وزيراً فاستمر في الوزارة يسيراً ثم أصابه مرض شديد فاستأذن على أخيه أبي ابراهيم الأصغر وكان مخالطاً لبعض الطلبة وملابساً لهم فقام مقام أخيه في التصرف ليحيى ونفقت سوقه وتغير زيه الذي كان يعرف به ثم لم يلبث الا يسيراً

وحم حمامه وأخوه الحسن على أثره وبقيت الأحوال على هرج وسكون تارة سلماً وتارة هيجا وكان المتولي على باطن يحيى والحاجب له والناظر عليه والكافل لأموره والضابط لنفقاته والمرجوع اليه في مصالحه وداره وحرمه ومملكته على تقلصها فتى اسمه بلال يكنى أبا حمامة وكان شيخاً متطلباً قرأ في زمن شبيبته وكان متوقد الخاطر متنمساً وعليه كانت تدور أحوال يحيى الى أن صار يكتب بخط مشرقي العلامة في ظهائر التي هي الحمد لله وحده وأما غيره قبل هذه المدة فلا يرتاب في أنه كان يكتب العلامة عوضاً منه حتى لقد قيل عن امرأة إنها كانت تكتبها فان يخيى كان في يده اليمنى شلل وكان هذا يظهر فيه فانه كان لا يرفع به أطناب برنوسه ولا يمسك قضيباً بيده على عادة الخلفاء، ولقد كانت مسائل الناس برغباتهم يرفع اليه منها ما لا يحصى وكلها يكتب عليه الفتى أبو حمامة بلال المذكور بما شاء وما اجراه الله تعالى على قلبه ويده وذلك بمداد يميل الى البياض بقلم رقيق وبين الحروف فسحة فيعيد يحيى على تلك الحروف بخط ضعيف وربما نسي بعض تلك التواقيع فلا يمر عليها بشيء الى أن اطلع الفتى على هذا الأمر الشنيع فستره وصار يكتب التواقيع بالمداد الأحمر المعروف للخلفاء . ولقد اضطر يحيى حين دخوله القصر الى ما ينفقه فوجه في ذلك لابن وقاريط والعرب فاكترثوا لحاله وشرعوا في توزيع المال عليهم وعلى هسكورة ثم لم يتم ذلك المحاول وبقي على اضطراره واحتياجه وتقلص مادته ثم تسلل الموحدون الذين كانوا بمراكش وتوصلوا بذلك الى أسباب دبروها وتوصلوا بها الى غاية مرغوبهم . وأوقع اذ ذاك الفتى بلال بعلي بن الناصر أخي يحيى وقال ليحيى إنه عزم على الفرار كما فرت اخوته موسى وزكرياء ليلحق بهما عند الرشيد فاقتضى نظره القبض عليه فبعث عنه غلاماً من عبيد البحايرين الفتاك الفجار فتوجه الغلام اليه مع جماعة من أشباهه فلم يلفه بداره وألفاه بحمام يعرف بحمام الفهمي ووافقه خارجاً ليركب دابته فاحتمله مرقباً الى الدار المكرية وثقف ليلته هناك وكان فتى صغير السن نحيف الجسم أصفر اللون. وشاع الخبر تلك الليلة عند الناس ورقت له النفوس لسكونه وعقله وأنه لم يصدر عنه ما كان يصدر عن أحد من اخوته ولا غيرهم فتطارح الناس على العرب في شأنه ليسلمه . ثم جلس يحيى في اليوم الثاني لتلك الليلة على عادته بقبته فدخل عليه العرب وابن وقاريط ودخل من الخلط شيخ عالي السن رفيع القدر عند اخوته مطاعاً فيهم فشفع عند يحيى في أخيه وأتى بكلام حسن في استعطافه عليه ورعي وجهه وأخوته فلم يعطف عليه ولا رق له لما وقر في نفسه من طريق حاجبه ومدبره، وقرأ العربي المذكور في ذلك المجلس في أثناء كلامه

﴿يأيها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا﴾الآية فلما انقضى المجلس أمر بقتله فقتل رحمه الله صبراً فكانت في القلوب منه فجعة . وأما ابن وقاريط وغيره فلم يكن همه انكاراً لذلك فإن مراده كان إبادة العالم عساه أن ينفرد وحده بالدنيا ولا بقاء الا لله سبحانه .

وكان دخول يحيى بمراكش في آخر سنة اثنين المذكورة وأقام بها الى صدر من عام ثلاثة وثلاثين وستماية والرشيد في هذه المدة بسجلماسة وقبلها ببلاد القبلة وبسجلماسة أقام هو أيضاً صدراً من عام ثلاثة وثلاثين المذكور، وكان ابن وقاريط في هذه المدة كلها يصطنع العرب الخلط ويصافيهم ويستميل نفوسهم ويتحبب اليهم ويحالفهم على أنه واحد منهم لا يخالفهم ولا يفارقهم في حركة ولا سكون فتهيأ له بذلك مراده وتمكن مما شاء وقدم وأخر ونهى وأمر ولم يكن عنده وعند العرب ليحيى مما يعولون عليه ورد ولا صدر واتخذ العرب ليكونوا[149] له وزراء وركناً ويكون هو مدبراً لأمورهم وقائماً على أحوالهم فانهم كانوا في قوة لم يظن أحد أنهم يبيدون لكثرة جموعهم وقوة نفوسهم وحدة شوكتهم فما كان ببلاد المغرب أقصاها وأدناها من يقاومهم فتمهدت له الدنيا وخافهم القبائل حتى جاءهم من الله ما كانوا يوعدون .

ولما حالفهم على ذلك ووثقت به نفسه رفض بلاده وهجر إخوانه وانقطع الى العرب إلا أن أمور جميعهم كانت في ادبار وخسار ، الى أن شرعوا في الحركة من مراكش عند سماعهم بحركة أمير المؤمنين الرشيد من سجلماسة في عام ثلاثة وثلاثين وستماية على ما يأتي :

بعض أخبار الأندلس

وفي هذه السنة وهي سنة **اثنين وثلاثين وستماية** كان توجه الأمير أبي عبد الله محمد بن يوسف بن نصر الى مدينة اشبيلية فدخلها بحيلة دبرها وعملها وقتل شيخها الباجي غدراً ومكراً وحصل في القصبة فسكنها شهراً فاجتمع أهل اشبيلية في ليلة عينوها لاجتماعهم ورجعوا اليه بأجمعهم فأخرجوه من القضبة وأذاقوه نكالا وشرا وطردوه بالجملة حتى رحل عنهم وجددوا للأمير أبي عبد الله محمد بن يوسف بن

---

(149) في : ط . ليكون . وفي . م ليكونوا وهو الصواب .

هود بيعة أخرى فبعث إليهم أخاه أبا النجاء سالماً والياً عليهم كما كان قبل ذلك . وفي هذه السنة حاصر المتوكل على الله محمد بن يوسف بن هود مدينة لبلة وكانت للاسلام وثار عليه بها قائدها ابن محفوظ فطال مقامه عليها وضيق باهلها ولم يقدر عليها فرحل عنها ولم يعد بعد ذلك اليها .

ذكر ما وقع عليه السلم بين المسلمين والنصارى في هذه السنة

لما اتصل بابن هود خروج الطاغية اذفنش الأحول ملك قشتالة بعساكره الذميمة اليه ، وصح عنده أنه ما عزم في حركته الا عليه ، أقلع عن حصار لبلة بجنده وعاد بهم الى بلاده فوصله رسل أذفونش فعقد معه الصلح لمدة من ثلاثة أعوام على مائة ألف دينار وثلاثة وثلاثين الف دينار فقبض منها خمسين ألفاً معجلة وباقي العدد على الأعوام المذكورة مقسطة مؤجلة.وحينئذ انصرف أذفونش الى بلاده صادراً ، وبقي ابن محفوظ لابنِ هود منافراً ، ووزع ابن هود المال المتفق عليه مع أذفونش على البلاد الأندلسية الاسلامية ثم فسد الصلح بعد سنة واحدة .

وفي سنة ثلاث وثلاثين وستماية كان دخول النصارى مدينة قرطبة أعادها الله للاسلام : نزل اذفونش اخزاه الله بعساكره الذميمة على مدينة قرطبة فحاصرها وضيق عليها وأقبلت نحوه الحشود من البلاد القاصية والدانية إلى أن ملكها وأخرج المسلمين منها وهذا من أجل مصاب واعظمه ،ولاكن الرضى بما قـدره الله وأحكم، اذ هي أم المدائن ، وقرة عين الوارد والقاطن ، فلقد حل بالأندلس من الروم ما يلين له القاسي ، وتتهد له الجبال الرواسي ، ولا قوة الا بالله العلي العظيم ،وكان أول ما أخذ العدو قصمه الله شرقيها ثم لازمها حتى استولى عليها في الثالث والعشرين لشوال من السنة فكان بين الحادث في طليطلة والحادث في قرطبة مابة سنة وست وخمسون سنة .

رجع الخبر الى امور الرشيد واحواله وكيفية قفوله من سجلماسة وانتقاله

وفي هذه السنة شاع الخبر بحركة امير المؤمنين الرشيد من سجلماسة وقصوده الى مراكش ومخاطبته الى جرمون بن عيسى والى عرب سفيان ومن والاهم

واستنصاره بهم على اعداء جميعهم الخلط فكانت بمراكش أهوال واضطربت بها أحوال وشرع يحيى في حركته منها بجموع الخلط ومن بقي معه من خدامه وكان نزوله بالمخالص وخروجه اليه من غير احتفال وخيم هنالك اياما واستعد هو ورجاله وحاشيته لها والاخبار ترد باستقبال أمير المؤمنين الرشيد والتئامه مع جرمون وسفيان وعزمهم على المصادمة والمكافحة . فتحرك يحيى بن الناصر ومعه ابن وقاريط وهسكورة والخلط وبحرهم زاخر وموجهم متلاطم وافر فقصدوا انجذام[150] ولهم صولة على الأيام ، وتصريح بأن لا غالب لهم من الأنام ، فإنهم كانوا في قوة عظيمة وشدة لا ترام .

ذكر مقابلة الرشيد ليحيى بن الناصر وانهزام يحيى مع الخلط وجميع انصاره

لما قطع أمير المؤمنين الرشيد وادي أم ربيع استقبلهم للحرب بالعزم والحزم فالقاهم بمكانهم باوجذام[151] فكان بينهم وبينه قتال شديد ، وصبر الفريقان صبرا يذوب له الحديد ، ثم كانت الحرب اخر النهار سجالا ، ولم يجل للخلط فيه مجالا ، وعاد كل فريق الى مخيمه ، فهاجت هنالك نفوس الشجعان ، والتفت مقدمات الفريقين وطلائعهم بذلك المكان ، والظهور في تلك المواطن للرشيد ويحيى في إنكار وقد بدا له ما لم يكن يحتسب وبدت منه أحوال المضطرب لم يستقر على حال ولم يزل حليف اوجال ، وفي كل يوم بين الفريقين جلاد وجدال ، فلما انقضت عشرة ايام من اليوم الأول الذي كانت فيه الخلط بصورة المنهزم تجدد للقاء الاقران شوق الفريقين وانبعثت النفوس لهيجاء طال العهد بها تصم المسمعين وتعمي العينين ، وكان بينهم من القتال ما يشيب له الولدان ، وشبت الحرب نارها بكل جهة ومكان ، وصافحت الصفاح ابطال الشجعان ، وتكسرت في النحور والصدور الذوابل والسنان ، فبينما هم كذلك والحرب بين الفريقين تضطرم ، والمنايا للنفوس تخترم ، اذ قصد النصارى أقوى جهة من جهات العدو فدفعوا عليه دفعة شنيعة قتلوا فيها خلقا كثيراً ، فولى الخلط وأميرهم ادبارهم ، وآثروا على الثبات فرارهم ، فاتبعهم الاجناد يقتلون ويأسرون ، واخرجوهم قهراً عن كل ما كانوا

---

(150) في : ط . انجذام . وفي . ت كذلك . وكتب في الصفحة الموالية أوجدام . . . .
(151) أنظر التعليق السابق .

يملكون ، وأسلموا مهجاتهم وأبناءهم وأموالهم ونساءهم ، وما انثنوا عن فرار متصل ليلا ولا نهارا ،وخرجوا عن كل نعمة كانت بأيديهم اضطرارا ، وحصل أمير المؤمنين وأجناده وعبيده على أشياء لا يحيط بها الوصف ، ولو اتى كل آت في هذا بما عسى أن يأتي من الشرح لكان مقصرا وعن مدى البلاغة في شرح هذا النبأالعظيم متأخرا ، وفر الخلط على وجوههم خاسرين ولم يفلتوا الا بما خف من أهلهم وأولاذهم ، وتركوا جميع طارفهم وتالدهم . فسبحان الذي اخذهم اخذة رابية وأوقع بهم ما لم يبق لهم من باقية .

وأقام الرشيد بتلك المعالم الفسيحة الارجاء المتسعة النعماء والنصر يكنفه من جميع اكنافه وارجائه ، والفتح العظيم الجسيم يبشره بما يستقبله من الفتوح الدالة على فضل الله تعالى واعتنائه ، وانبسطت بهذا الصنع الكريم نفوس المسلمين ، وانقبضت أي انقباض نفوس الاعداء الخاسرين ، ووثقوا بارتفاع الفتن التي غيرت آثارهم ، وأعادت ليلا نهارهم ، واعدمتهم دهرا مرافقهم وأسعارهم .وقد كان الخلط استولوا على البلاد والرعية وما كان في جهة من الجهات كلها عامل لأمير المؤمنين ولا مشتغل بمجبى من المجابي حتى انطمس رسم الخراج بالكلية وتعطل بكل مكان ودعت لهذه العلة ضرورة الاحتياج في أوقات تقدمت هذا الى توظيف مال وتعينت رجال لشدة الحاجة وتبيين احوال الأجناد وافتقارهم إلى إقامة الاود الذي عليه الاعتماد ولما كانوا دخلوا مع أمير المؤمنين المأمون بلغوا من الترفه والقوة والظهور والحصول على الأموال والذخائر ونفيس الوطاء والغطاء ما هو شائع في العالم ذكره ، فاقتضى نظر الرشيد أن يقدم عمالا على البلاد التي كان الخلط أشد استيلاء عليها وهي صنهاجة تاسغرت ودكالة ورجراجة فتخير من كفاة رجالة وخيار عماله من ارتضاه ووثق بكفايته في ضم الرعية وطلبها بالواجبات واستخراج ما كان بأيدي الخلط اعدائه فكان في ذلك ما لا تحيط به الاوهام واشغل طلبه عن طلب الجباية في ذلك الاوان ، ولله تعالى وحده الاحاطة . وكانت إقامته لذلك اياما حتى كمل عمله في هذا المهم من انفاذ عماله للبلاد وترتيب منازل عرب سفيان وتحسين أحوالهم بمسامحتهم في جميع ما تحصل بأيديهم وقد كانوا في ضيق من العيش فاتسعت احوالهم وتجددت آمالهم وكثرت جموعهم وانضاف إليهم كثير من الاصناف التي كانت من إمداد الخلط وامتلأت الارض بهم وهم فرحون بما آتاهم الله تعالى مستبشرون متيمنون بخليفتهم وله داعون .

وأخذ أمير المؤمنين الرشيد في الوصول الى حضرته ودار خلافته فبادر الناس باللقاء واعلنوا له بالدعاء وكان لدخوله يوم شهير وحفل عظيم خطير ، وحل بقصره في عزة سامية ، وسعادة بركاتها نامية ، قد بلغ امله في الأخذ بثأره وعاد الى وطن طال العهد بالحلول بقراره ، فأغضى عن كل احد وصفح وعفا وأحسن وسمح واستمرت هدنة البلاد ، وعافية العباد ، وانحسمت دواعي الفساد وأسباب العناد ، وعادت الرعية إلى الطاعة والوصول الى المشتغلين واداء الواجبات وعمرت المداشر وارتفعت عن الامة أمور من المظالم التي كانت العرب يتنوعون فيها ومطرت البلاد مطراً استشعر الناس به الانتعاش وحرثوا بنسبة الوقت وعدم الزرع فانه كان في صدر هذه المدة من صدر عام ثلاثة وثلاثين معدوما وما كان سبب وجدانه الا استخراج ما كان للخلط مخزونا في الحضرة وحوزها وجهاتها . ووصل في هذه السنة جماعة من الموحدين واشياخهم وانسوا بطاعة أمير المؤمنين وقد كان ترك أبا يعقوب يوسف بن علي بن يوسف واليا بسجلماسة وأقام الشيخ أبو علي بن الشيخ ابي محمد عبد العزيز واخوانهم هنالك برسم الاوبة إلى بلادهم وتوجه موسى بن الناصر أمير المؤمنين الى درعة ولم يتحرك من سجلماسة أحد من صنف الموحدين مع أمير المؤمنين، فأما أبو يعقوب يوسف بن علي فانه لما ثار بمقربة من سجلماسة شخص من صنهاجة ما زال يضايقه حتى اقتحمها عليه برأي من أهلها ومساعدة له فقتل واليها من قبل الرشيد ودفن في فرناج[152] الحمام وفر الموحدون من هنالك ولحقوا ببلادهم وقتل بدرعة موسى بن الناصر . ولما وصل الموحدون الى الرشيد وتمكنوا من بلادهم وسهامهم واملاكهم وبان صلاحهم اقتضت الحال اعمال الحركة الى الغرب في طلب يحيى والخلط وقد كان الخلط لما انهزموا اخذوا في تدبير مصالحهم واجمعوا امرهم على نظر المصلحة في نكث بيعة يحيى ورفضه وما زالوا يتحيلون في اخراجه من بين اظهرهم الى ان وصله بعض عرب المعقل فأوى اليهم طريدا شريدا لا يملك نقيرا ولا فتيلا فبقي عندهم يتردد بينهم الى ان جرى عليه حكم الله السابق في علمه فقتل على ما يأتي ذكره .

ولما تشاور عرب الخلط في مصالحهم واجمعوا رأيهم على أمر لا بد لهم من

---

(152) في : ط . فرناج . وكذلك في : ت ، والكلمة تعني المكان الذي يوقد فيه نار تسخين الحمام ويقال فيها أيضاً . فرناق . . انظر معجم دوزي ، ج 2 ص 262 .

اتيانه ندبهم ابن وقاريط بفجوره وغدره وزين لهم قبيح رأيه ، وحضهم على الاستنصار بابن هود داعي الاندلس والاستصراخ به ليمدهم بعسكر من عنده ويكونوا من حزبه وجنده ويقوموا في هذه البلاد بخدمته ويعلنوا بطاعته ، فاستصوب العرب رأيه واستجادوا سعية واخذوا في تعيين من يتوجه بكتبهم اليه فانتدب ابن وقاريط الى التوجه بنفسه مع احد أولاد هلال وجماعة من وجوه الخلط فكلهم شكروا بداره ، وأظهروا بره وايثاره ، وابن وقاريط بما اشتمل عليه من المكر الذي لا يدرك فيه مداه ، انما اشتغل بالتمهيد لنفسه ، والنجاة برأسه فانه لا يستقر في الغرب ولا يمكنه استيطان بلاده بمقربة من دار الامر فيكون نصب العين فاختار البعد والانقطاع في جزيرة الاندلس على صورة طلب الاقتصاد والاستمداد من ابن هود فتم له في ذلك الوقت تدبيره ، فتوجه مع جماعة من الخلط واتصل بابن هود فأقبل عليهم إقبالا عظيما وأعطاهم وانزلهم واستمرت اقامتهم هنالك الى امد القبض على ابن وقاريط في عام خمسة وثلاثين وستماية على ما يذكر في موضعه إن شاء الله تعالى بقي العرب الخلط في اختلال واضطراب أحوال وملاقاة أهوال الى ان تحرك الرشيد في هذه السنة الى الغرب ففروا امامه وهابوا قدومه واقدامه فافترقوا في البلاد وتفرقوا في القبائل عبرة لمن يعتبر وعظة لمزدجر .

ذكر حركة الرشيد الى الغرب وهي الأولى

لما اجتمع رأيه على الحركة إلى الغرب بذل العطاء الواسع للأجناد وامر الموحدين ان يعينوا له حصة منهم على قبائلهم فكتبوا له بعضا منهم لقرب عهدهم بالوصول لمراكش فأعطاهم بركات وازودة وأحسن لأشياخهم إحسانا كثيراً واستعد لهذه الحركة استعداداً ضخما واستقبلهم استقبالا فخما واظهر من القوة والعدة والأخبية ما يروق منظره وترك بحضرته واليا الشيخ ابا علي بن الشيخ ابي محمد عبد العزيز برسم القيادة وصاحب الاشغال بها ابو عبد الله بن أبي زيد بن علي بن يوسف التينملي وقاضي الجماعة ابو زيد المكادي وصاحب الشرطة حينئذ يوسف بن عثمان الهنتاتي فلم يقصر الشيخ أبو محمد في ضبط المدينة وحياطتها ومباشرة أمورها واستقل بذلك استقلالا مثله ذاتا ومنصبا والناس في دعة وسكون والسبل آمنة والخيرات آتية والنفوس وادعة مطمئنة . واستقبل الرشيد الغرب وكل تيسير يياسره وكل صنع جميل يأتيه ويبادره ، تتلقاه البلاد والقبائل ، وتحميه القنا والقنابل ، فقصد مدينة فاس فخيم بها مقيما وحل منها جنة ونعيما ، ونفوس أهلها شائقة إلى

لقائه ، وقلوبهم مجبولة على حبه ، وجوانحهم منطوية على طاعته ، لا تلقى الا داعيا بنصره ، وضارعا في اعلاء ذكره ، ووافق وصوله قرب الصائفة والبلاد تقشعر الجلود من ارتفاع السعر بها فانجلت تلك الغماء على عهد قريب وأمد يسير ، ولما ألقى بفاس عصا التسيار ، واستقر بعرصاتها القرار ، ولم يكن بد من النظر للأجناد ، وطلب المجابي التي في البلاد ، نظر في الوجوه التي يكمل بها المراد ، ورجح من الأقوال ما فيه مخيلة الاسعاد ، فاقتضى العزم ، واستجد الحزم ورأى ان الذي يشفي النفوس من صدا غلتها ويريح عاجلا من علتها ، تقديم من له قول مطاع ، وقوة واضطلاع ، وحكم يتلقى بالامتثال ، وامر يَرد فلا يُرد بتأول واعتلال ، واستمرت المفاوضة في ذلك وفي النفس ما قد تخلص ترجيحهُ من الاقتصار بهذا الخطب الكبير على وزيره السيد ابي محمد ثم خرج له بمقصوده ، وألقى له بجميع عهوده ، وحمله هذه الامانة بحسن ظنه فيه وتقديره وتصديق ما هجس في خاطره في حال تدبيره .

ذكر حركة السيد أبي محمد الى غمارة ومقتل يحيى بن الناصر رحمه الله تعالى

توجه السيد ابو محمد بن السيد أبي سعيد بن الخليفة المنصور وتوجه معه جميع الجند من المسلمين والنصارى واستخلف على الوزارة الشيخ ابا موسى بن عطوش وأقام الأشياخ من الموحدين بحضرة فاس وتوجه مع الشيخ أبي محمد مشتغلا له الشيخ أبو زكرياء ابن عطوش ومقيد أشغاله أبو العباس ابن هشام من خواص العمال ونبهائهم وجبيت القبائل الغمارية والفازازية جباية عظيمة حصل الأجناد منها على مال عظيم وكل مشتغل كذلك ، وفي أثناء هذه الحركة سيق الى حضرة فاس رأس يحيى بن الناصر أمير المؤمنين وكان لما انهزم مع الخلط سار الى الغرب في عدة قليلة ثم رفضوه وتركوه وتشاءموا باتباعه فقذفت به الايام إلى بعض عرب المعقل فأوى إليهم فاحتووا عليه ووعدوه بنصرته وطلبوا منه ظهائر باعطاء ما لا يملك وتبسطوا في المطالب طماعية في أن تعود له الدنيا المدبرة عنه فحمله سوء النظر على التوقف في تلك المطالب فامتلأت صدور ناس منهم غيظا عليه فانتدب شخص لغدره وقتله فلما كان يوم من أيام رحيله اغتاله شيطان منهم فخر صريعاً ودفن في قلعة في فحص يعرف بفحص الزاد وهو بين وادي ابي حلو ومحاض النسأ وهذه المواضع بين مدينة فاس ورباط تازا ويعرف الفحص المذكور أيضاً بمقتلة

عامر وهذا عامر هو ابن صغير من المعقل قتل هنالك في فتنة .

ولما سيق رأسه الى حضرة فاس وجه به الرشيد الى مراكش في زق عسل وصل به الى مراكش عبد الرحمن بن محمد الفكاك المعروف بابن الترجمان ولم يكن ابو محمد المذكور يعرف قديما سوى بالفكاك لقبا،ولما ورد بذلك ويكتب الخليفة الرشيد على الشيخ أبي محمد عبد العزيز المقدم على مراكش جمع الناس على طبقاتهم ومراتبهم وقرأ عليهم الكتاب الامامي والرأس في طست ثم أمر بتعليقه على باب الشريعة من أبواب مراكش فسبحان من لا يحول سلطانه ولا يرد حكمه ولا يتغير شانه فلقد كان لهذا الرجل في الدنيا من التغلب والتملك والتخلي ما لا يحيط به الافكار ، ولله سبحانه القوة والاقتدار .

وفي اثناء ذلك ورد الامر من حضرة فاس على الشيخ أبي علي المذكور بقتل حسن بن زيد العاصمي وفائد بن عامر وهؤلاء كان القبض عليهم بسعاية أبي الحسن جرمون رئيس العرب وشيخهم والاخوان المذكورين (كذا) فائد وقائد من رؤساء العرب بني جابر وأما العاصمي فرئيس إخوانه وهم شوكة سفيان ولهم الرئاسة في القديم ولكنها انتقلت الى قرة لانتقال الرئاسة الى جرمون في قديم الزمان . ولما ورد على الشيخ أبي علي الامر بقتل هؤلاء العرب وكانوا معتقلين في مخزن هو سجن امثالهم بالرحبة الكبرى من دار الخلافة فأخرج عشي اليوم الذي ورد عليه الامر فيه بضرب أعناق هؤلاء المذكورين وضرب اعناقهم بازاء قوس يجلس فيه الوزراء للخلافة وادخلوا شهوداً عاينوهم قتلى وكتب عقداً بانفاذ ما أمر به ووجهه الى أمير المؤمنين الرشيد .

وفي اثناء هذه المدة أمر الرشيد للشيخ أبي موسى مستخلف الوزير السيد أبي محمد سعد باستدعاء أشياخ الموحدين ليأخذ معهم في رد ما تصير إلى[153] رحالهم وذويهم من خيل المعقل الذين كانوا وفدوا على الحضرة واعتدوا على دواب الناس وانتهبوها بخارج فاس فوصل إليها الأشياخ من الموحدين الا أبو إسحاق بن الشيخ لانفة ادركته تغلظ بها عن اجابته وتكلم بقدح فيه واستحقره لكونه من عامة الموحدين من كومية وهو من صبيان أهل الجماعة من هرغة . ولما نمى الخبر الى

(153) في . ط . إليه ، وفي : م إلى . . ولعله هو الصواب .

الرشيد بتوقف ابن امغار المذكور عن الوصول للوزير نفذ أمره بسجن أشياخ الموحدين بموضع جلوسهم ثم عطفته الرحمة عليهم فسرحهم وأحسن اليهم فعرفهم في حال واحدة ببطشه وسطوته وباحسانه ورحمته وعلى أثر ذلك عاد الوزير ابو محمد من غمارة بالجيش الكثيف والمال الواسع .

وفي أثناء ذلك عاد الرشيد الى حضرته مراكش أم القرى بهذا الاقليم ومحل الخلفاء ودارهم وموضع قرارهم ووصل الى هذه الحضرة على اثنين وعشرين يوما من مدينة فاس وكان لهذا اليوم شأن مشهور وذكر معروف في الآفاق منثور ، وعادت الاحوال كلها الى نظامها وقوانينها واستقامت الايام ، وشفي الامام واستخلف على قواعد البلاد كلها رجاله وعماله وكان دخوله الى مراكش في صدر عام أربعة وثلاثين وستماية بعد ما قدم على الامور السلطانية طائفة من قرابته .

وفي هذه السنة كان ابو محمد بن وانودين مقدما على درعة وكان السيد ابو محمد بن عبد العزيز بسجلماسة تحيل عليها الى أن حصل بها بعد تمكن اشرار فيها عند الفتنة الناشئة بها اثر خروج الرشيد منها وقتل ابي يعقوب يوسف بن علي بها وقد تقدم شرح ذلك فما زال الشيخ أبو محمد يتحيل وينظر وجوه التمكن منها الى أن انتهز فرصة فيها ودخلها الشيخ ابو محمد بن وانودين وخرج عنها السيد ابو محمد المذكور ، ولقد كانت له فيها آثار سلك فيها مسالك الخلفاء في أمور يطول ذكرها وقام بالدعوة الرشيدية بها ابو محمد بن وانودين .

وفي سنة **اربع وثلاثين وستماية** عمر الموحدون بلادهم ومجاشرهم وضموا شركاءهم واقبلوا على اشغالهم وصلاح أحوالهم في خدمة بواديهم واطلاق سواقيهم واتسعت أحوالهم وتوفرت آمالهم وقدم منهم حفاظاً على الجهات وظهرت امورهم بادية الصلاح دالة على النجاح وترتيب أمورهم أي ترتيب وجرت الأحوال كلها على الاستقامة أحوال البعيد منهم والقريب .

وفي هذه السنة كانت حركة الرشيد الى حضرة فاس ايضا ولما اتصل بها واقام وصلته ارسال بني مرين فقام بها خير قيام وضيفهم بخارج فاس ووصلهم باحسان كثير وكسوات فاخرة ولم يكن له كبير اثر في المغرب في هذا العام وكانت الجباية بنسبتها الى ما كان في العام الفارط قليلة واستخلف عل مراكش في هذه السنة الشيخ أبا محمد بن الشيخ بن ابي ابراهيم وعامله عليها أبو يعقوب يوسف الهنتاتي .

وفي هذه السنة توفي الكاتب الجليل أبو عبد الله محمد بن أبي عشرة السلاوي رحمه الله تعالى ودفن بفاس . وفيها كان الغلاء المفرط الذي انتهى فيها الربع الواحد من الدقيق الى سبعة وثلاثين درهما ولكن الناس كانت أحوالهم تقاوم هذا الغلاء فان السلع كلها نفقت اسواقها ودرت ارزاقها وكان الدرهم الواحد أفضله عشرون درهما أو نحو ذلك والمرد هكذا في كل سوق فما كان أحد من التجار ولا من السوقة يبالي بتضاعف نفقته مع جزيل الفائدة العائدة عليه في تجاراته وأرباب الدولة قد امتلأت أيديهم بالخير الكثير وكل نفس مستعدة للحرث اذا أفاء الله تعالى على العباد بنعمته واعانهم بوابل رحمته فانه مفتاح الارزاق والسبب الموصل الى الخير، واستمرت حركة الرشيد بقية هذه السنة المؤرخة .

رجع الخبر الى بعض أخبار الأندلس

وفي هذه السنة امتدت آمال المتوكل على الله ابن هود في سلطنته بالاندلس وكتب الى ولاة البلاد يأمرهم بالاجتهاد في مصالح العباد اذكر منها هنا بعض فصولها لكثرة فروعها وأصولها فمنها بعد البسملة والصلاة والدعاء .

فصول من ذلك

أما بعد حمد الله الذي أوضح للحق سبيلاً ، ومد ظل رحمته على الخلق ظليلاً ، وجعل العدل بحفظ نظام الإسلام كفيلاً ، ونزل الأحكام على قدر المصالح تنزيلاً ، ونصب على معلم الهدى علماً لمن اقتدى ودليلاً ، وألهم إلى ما يرضاه عملاً ومعقداً وقيلا ، وصلواته الطيبة وبركاته الصيبة على سيد العالمين وخاتم النبيين محمد رسوله الذي فضله بخلته واصطفائه تفضيلاً ، وبعثه بالحنيفية السمحة فبينها تبييناً وفصلها تفصيلاً ، ورتبها كما أمره ربه إباحة وندباً وتحريماً وتحليلاً ، حتى ثبتت سنة الله فلن تجد لها تبديلاً ولا تحويلاً، وعلى آله وصحبه الذين فهموا ما جاءهم به عليه السلام نصاً وتاويلاً ، وأبقوا من سيرهم الفاضلة وأحكامهم العادلة أثراً للمقتفين جميلاً ، ومآثر تسبح الإفهام والأقلام في مجاريها سبحاً طويلاً ، وأمضوا عزائمهم[154] فيما نسخ بالحق باطلاً وبالهدى تضليلاً ، ورضوان الله يتوالى على خليفته وحامل أمانته الذي كمل الله به موجبات الإمامة تكميلاً ، وأناله من

(154) في : ط . عزانهم . وفي : م عزائمهم . وهو الصواب .

هدي النبوة أفضل ما كان للهداة منيلاً ، سيدنا ومولانا الإمام المستظهر بالله أبو جعفر المنصور أمير المؤمنين المتبوىء من راحة الشرف والجلالة شريفاً جليلاً ، والمنتخب من بحبوحة بيت الرسالة الذي وجد الوحي عنده معرساً ومقيلاً ، والدعاء لديوانه العزيز النبوي بنصر يأتي لإمداده بمدد الملائكة قبيلاً ، وفتح يأتي الإيمان من الظهور بغية وتأميلاً .

ومنها : فأول ما نوصيكم به وأنفسنا تقوى الله العظيم وخشيته في كل حال، ومراقبة أمره ونهيه عند كل انتحاء وانتحال، والوقوف عند حدود الله التي حدها وارصدها بإزاء موجباته وأعدها فإنه لا يتعداها إلا من رام تعفية رسمها وطمسه ، ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه ، والمحافظة على ما تتحفظ به الشريعة ، والملاحظة لما تضم الرعايا به حوزة الحياطة المنيعة، والمثابرة على ما تكف به أكف الاعتداء، والمبادرة إلى الائتمام بالسلف الصالح والاقتداء. والطريقة المثلى، وآيات الله التي تتلى ، وهدايته التي لأبصار البصائر تجلى ، وخفض الجناح والأخذ بالرفق والاسجاح ، وتوخي الحق الذي هو أوضح انبلاجاً من فلق الصباح ، والحلم والأناة ، والمذاهب المستحسنات ، والله الله في الدماء فإنها أول ما يقضى بين الناس يوم القيامة فيها ولا سبيل إلى استحلالها إلا بإحدى ثلاث : كفر بعد إيمان ، أو زناً بعد إحصان، أو قتل المسلم لأخيه، وقد قال مالك الخلق والأمر ﴿ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق﴾ فتثبتوا فيها فأمرها جليل، وتحريمها لا يدخله تحليل .

ومنها : ومما نأمركم به أن تبحثوا على العمال ، ولا تشغلوا منهم إلا الحسن الطريقة المرضي الأعمال ، ومن لم يكن منهم جارياً على القوانين المرعية ناصحاً لبيت المال رفيقاً بالرعية وكان في أمانته حائداً عن الجادة السوية ، قابلاً لما قبل قبله ابن اللتبية[155]، فليعوض منه غيره، وليدفع عن الجانبين ضيره، فإنه ما كانت الخيانة في بشر قط إلا أهلكته ، وما وضعت في شيء طبيعة سوء إلا ملكته ، وإنما هو مال الله الذي ترتزق منه الحماة ، وبه تسد الثغور المهمات ، فينبغي أن يختار له محتاط في اقتضائه وقبضه ، حافظ لدينه ومروءته في كله وبعضه ، فخذوا في انتقاء هذه الأصناف المسمين ، واطلبوا بهذه الأوصاف المتصرفين والمولين ، واجمعوا من

(155) هو عبد الله ابن اللتبية الأزدي ، استعمله الرسول على الصدقة .

الاجتهاد الحميد القصد والاعتماد الأثر والعين ، وأنصفوا منهم إن تظلم متظلم ، واشفوا شكوى كل مشتك وألم كل متألم ، واعلموا أن حرمة الأموال بحرمة الدماء لاحقة ، وأن إحدى القضيتين للأخرى مساوية ومساوقة ، ومن أكبر ما ورد في ذلك وأعظمه قول رسول الله ﷺ « حرمة مال المسلم كحرمة دمه » ، وليكن الناس في الحق سواء لا محاباة ولا مفاضلة ، ولا مجاوزة في تغليب قوي على ضعيف ولا محاولة ، ولا يؤاخذ أحد بجريمة أحد، ولا يجني ولد على والد ولا والد على ولد ، وكتاب الله أولى بالاتباع وأحرى، يقول الله تعالى ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾ وإذا وصلكم كتابنا هذا فقصوه على الناس مفصلاً ومجملاً ، وأظهروا لهم مضامينه قولاً وعملاً ، إن شاء الله تعالى، وهو سبحانه يديم علاءكم ويصل إعادتكم في كل محمدة وابداءكم ، ويجزل حظوظكم من السعادة وأنصباءكم بمنه وكرمه لا ربَّ سواه والسلام وكتب في الرابع والعشرين لجمادى الأولى عام أربعة وثلاثين وستماية .

وفي سنة خمس وثلاثين وستمائة توفي الأمير أبو عبد الله محمد بن يوسف بن هود

كان مقتله على يد عامله ابن الرميمي الوالي من قبله على مدينة المرية في الرابع والعشرين لجمادى الأولى فكانت دولته تسعة أعوام وثلاثة أشهر وأياماً وسبب ذلك أنه كان في ابتداء أمره عاهد زوجته ألا يتخذ عليها امرأة طول عمره فلما ملك البلاد الأندلسية وعظم فيها أمره حصلت بيده رومية من أبناء زعمائهم ومن أجمل نسائهم وقد كان عاهد زوجته ألا يتزوج عليها ولا يسوق رومية إليها ، فأودعها عند ابن الرميمي صاحب المرية ، فكانت له في ذلك المنية ، فاستحسن ابن الرميمي الرومية ومد يده إليها وضبطها لنفسه ، ودبر وجه الحيلة في الخلاص من ذلك برأسه ، ثم إن ابن هود سمع بخبر روميته فاستعمل حركته إلى المرية على عادته لينظر منها في أمور القائم عليه بأغرناطة وهو الأمير أبو عبد الله محمد بن يوسف بن نصر لأنه كان قد ملكها في هذه السنة .

ولما وصل ابن هود إلى المرية بمحلته نزل خارجها فدبر ابن الرميمي في أمره وعمل على أن يحلف عليه ليدخل معه إلى داره ليقوم بحقه فيها خير قيام ، وليخلوا بروميته بعض أيام ، فدخل ابن هود معه فعرفه بأن الرومية في الحمام ، ولما جن

الظلام عليه أدخل أربعة من الرجال إليه فقتلوه مطفياً[156] ، وبقي أمره في تلك الليلة خفياً .

قال أبو محمد البسطي : كان ابن هود من أسلم الملوك صدراً ، وغلب عليه في أكثر بلاده من جعله في أهلها صدراً ، فبالمرية أبو عبد الله الرميمي المدعو بذي الوزارتين ، قضى عليه ذات ليلة بمخدتين اقعدهما على أنفه وفيه ، وأراه بالغد كأنه مات فجأة ولا أثر فيه ، وبمالقة عبد الله ابن زنون ، أضر بها حتى الضب والنون ، وبغرناطة عتبة بن يحيى المغيلي الخطيب على ابن الأحمر بالمساوىء ومن أجله أخرج منها شمسها في الحمل والميزان ، على مقتضى لا ينتطح فيها عنزان ، العالم العلم سهل بن مالك ، ونفاه إلى مرسية في الليل الحالك ، وآثر هواه على حلمه ، وأثر فيه على خلاف معرفته وعلمه ، وبضرب الجياني ولم يجن ، وبتركه منسياً في السجن ، حتى أغاظ أمره أهل غرناطة وأضجر فتهياً محمد وأبو محمد ابنا خلف ابن ولجر في أربعين رجلاً من أهل النجدة وتواعدوا أن يصبحوا على باب القصبة أول يوم من رمضان من السنة المذكورة ، وهم بسيوفهم مشهورة ، وما ارتفع الضحى إلا وهم في القصور يعبثون ، وأفلت حافظها البغيل من رؤساء بني هود ، وقتل عتبة واليها ووجهوا لابن الأحمر ليصل إليها .

ذكر وصول الأمير أبي عبد الله بن الأحمر إلى غرناطة واستيلائه عليها

وذلك أنه لما جرى بغرناطة من قتل واليها عتبة بن يحيى ما جرى أجمع أهلها على خلع ابن هود وبيعة ابن نصر فأنشأ البيعة له أبو الحسن الرعيني وأبدع فيما كتب وأنشأ ووجهوها مع أبي بكر ابن الكاتب وأبي جعفر النمزولي وذلك في العشر الأواخر لرمضان المعظم فأقبل ابن الأحمر إلى غرناطة وما زيه بفاخر ونزل بخارج غرناطة على أن يدخلها من الغد غدوا ثم بدا له غير ذلك فدخلها مع غروب الشمس يوم نزوله .

قال أبو محمد البسطي : فعاينته يوم دخوله بشاية[157] مطلعة أكتافها مقطعة

---

(156) في : ط مطفياً . وكذلك في : ت . ـ

(157) في : ط . بشاية مطلعة . وفي ت يشايه مضلعة . والشاية تعني ـ في الأندلس ـ لباساً حربياً محشواً بالقطن لوقاية المحارب . انظر معجم دوزي ، ص1 و ص 718 .

وعندما نزل بباب جامع القصبة وحله كان مؤذن المغرب في الحيعلة والإمام به أبو المجد المرادي فغاب فدفع الأشياخ السلطان إلى المحراب فصلى بهم على هيئة سفره بفاتحة الكتاب و « إذا جاء نصر الله والفتح » و « قل هو الله أحد » ، وهو بسيفه مقلد ، ثم خرج إلى قصر باديس ابن حبوس والشمع بين الأبواب يتقد ، فدخل في خاصته كأنه العروس في مشيته ، وفي أثناء ذلك بلغه الخبر ان ابن هود أعجلته المنية وصوله إلى المرية ، وأن ابن الرميمي قاتله قام بها وضبطها لنفسه ، فزحف إليه الأمير ابن الأحمر من غرناطة فحاصره فيها حتى ضاقت حاله ، وانقطعت آماله ، فخرج منها ودخل في مركب في البحر بأهله وماله واستقر بمدينة تونس تحت كنف الأمير أبي زكريا ، وملك أبو عبد الله محمد بن يوسف بن الأحمر مدينة المرية في هذه السنة، هذا ما ذكره البسطي .

ذكر مبايعة أبي بكر محمد بن محمد ابن يوسف بن هود

وذلك أنه لما بلغ الخبر إلى مرسية بموت المتوكل على الله محمد بـن يوسف ابن هود بالمرية وشاع ذلك في تلك البلاد الشرقية ، اجتمع أهل مرسية على مبايعة ولده إذ كان ولي عهده وتسمى في الخلافة بالواثق بالله وطاعت له تلك الجهات فما قام بامور ولا قعد ، ولا صدر فيها ولا ورد ، فعافته النفوس ، وشمخت عن طاعته الرؤوس، فأقام كذلك سبعة أشهر وخلعوه وقدموا فقيههم عزيز بن خطاب وبايعوه وذلك في السنة الآتية بعد هذه .

وفي هذه السنة بايع أهل إشبيلية أمير المؤمنين الرشيد في شوال منها بعدما قدموا على أنفسهم والياً أبا عبد الله بن السيد أبي عمران فإنه كان مدة ابن هود باشبيلية مع أخويه أبي زيد وأبي موسى وذلك من حين اوبتهم في كفالة أمهم من بجاية بعد أن استشهد فيها والدهم في الدولة المامونية حين قيام أبي زكريا بن أبي حفص الهنتاتي ببلاد افريقية واستيلائه عليها . ووصل إلى الحضرة المراكشية وفد أهل إشبيلية ورفضت بها الدولة الهودية وعادت إليها الدولة الموحدية وكان لأبي عمرو ابن الجد أثر كبير في تقديم السيد عليهم فولاه الرشيد من غير استبداد بنقض ولا تدبير وإنما كان الأمر لابن الجد المذكور الذي أخذ بالحزم والعزم في تلك الأمور لينال باستبداده غاية مراده ، فأخرج بني حجاج اللخميين الإشبيليين عن إشبيلية إلى سبتة .

وكان أهل سبتة أيضاً قد خلعوا دعوة الموحدين في سنة ثلاثين كما تقدم ذكره وقدموا على أنفسهم شيخاً من أشياخهم وهو الحاج أبو العباس اليانشتي فقام بأمرهم خير قيام إلى هذه الأيام ، فهجست في نفوسهم هواجس الاستبصار ، لما أحسوا بوصول الأجفان بالوفد والبيعة من إشبيلية إلى الرشيد فاتفقوا على عودتهم وتجديد بيعتهم له في هذه السنة ، وكان وصول الوفد من اشبيلية إلى مرسى مازيغان في جفنين كبيرين من أسطول إشبيلية ، ووصل معهم أصناف من الناس فلما وصلوا حضرة مراكش وقدموا على الرشيد كان لقدومهم شأن عظيم ونالوا به التفضيل والتكريم ، وامتلأت النفوس مسرة بانتظام الدعوة بالعدوتين وشاع الخبر بما كان في سبتة أيضاً ، وقرئت البيعة الإشبيلية وأنشدت الأشعار ، وكثر الفرح والاستبشار ، وخطب الخطباء وافصح الأدباء النثر والنظم وعمت المسرة نفوس الوافدين وأنزلوا منازل الترحيب والتقريب ووردوا موارد الإحسان ، وضيفوا بأنواع التضييف على مراتبهم ومنازلهم وفرشت الديار لهم ، والبر يجمعهم ويشملهم ، وقد كان الناس طال عهدهم بهذا الفتح الأندلسي الذي تصغر عنه الفتوحات ، فشملت المسرات كبيرهم وصغيرهم ولم يبق سوق من الأسواق إلا جمع أهلها للنزاهات وابتاعوا رؤ وس البقر والغنم والفواكه وخرجوا إلى بحائر الحضرة وذلك على ترتيب الأسواق وأهل الصنائع ، وجاء الخبر بقبض أهل إشبيلية على ابن وقاريط المنتزي إليهم حسبما تقدم ذكره قصد بذلك أهل إشبيلية إظهار خدمتهم وتكفير ما كان من خروجهم عن الدعوة وتقرير حبهم في الطاعة التي قادهم إليها الاستبصار والاهتداء ، فكان أخذ ابن وقاريط من الفتح الذي أربى على فتح إشبيلية لعداوته القديمة وفتنته التي كان فيها كل الإمعان وكان أخذ عمرو بن وقاريط في سنة أربع وثلاثين حين كان بإشبيلية .

خبر غدر ابن وقاريط لمدينة سلا في هذه السنة

ولقد كان عمر بن وقاريط في سنة أربع وثلاثين حين كان بإشبيلية مع ابن هود والرشيد إذ ذاك بفاس وصهره الفقيه المكرم أبو العلى بسلا مع زوجه الحرة فاطمة بنت أمير المؤمنين المأمون أخت الرشيد فلاحت لابن وقاريط فرصة في الهجوم على سلا وأخذ السيد أبي العلى وزوجه الحرة فاطمة والاستحواذ على البلد من رباط الفتح وقرب هذا المرام البعيد في نفس ابن هود وطلب منه إعانته بجفنين

معدين ليدخل بهما وادي سلا ويتمكن بمن معه من الغزاة من مراده لعلمه بخلاء البلدين من صنف الأجناد وخصوصاً رباط الفتح حيث القصبة العظيمة واستقرار الوالي فأعانه ابن هود بما أراد وأمده بما شاء فقصد ابن وقاريط سلا وتصور له بعض مراده وحصل في الوادي وكاد أن يملك رباط الفتح ولو ملكه لحصل على معقل الدنيا ارتفاعاً ووثاقة ومنعة فاشتد الناس إليه وتكاثروا من البلدين عليه إلى أن اضطر إلى الخروج عن الحلق والتخلي عن البلدين وقد أثر بعض التأثير .

فلما سمع الرشيد هذا الخبر وطارت إليه طيارات الاستعجال به قام وقعد وعين من فتيانه وخاصته وعلوجه وبعض رجالـه أعداداً لتدارك رباط الفتح لايصال أخته وأمه إليه في جزع شديد وأمر كبير، فيسر الله مقصدهم بتوجه الحرة فاطمة إلى فاس فكان هذا السبب الحديث عهده من أشـد الأمور على ابن وقاريط حين أخذه فعظمت المسرة بالقبض عليه للانتقام منه وكان في هذا كله من التيسير ما فيه دليل على عناية الله تعالى وما أراد من المسلمين من الخير والاتصال والانتظام ، فكل ذلك يسير في قدرته . وبعد أيام وصلت بيعة أهل سبتة أيضاً وصل بها وجوه أهل سبتة وأعيانهم لمدينة مراكش للرشيد فتكاملت المسرات وترادفت الفتوحات وقبض أهل سبتة على اليانشتي وابنه وأدخل أهل سبتة السيد أبا العباس بن السيد أبي سعيد وكان مع ابن عبد الله بن أبي يالول بأحواز غمارة ووصل مع ابن أبي يالول وأدخل البلد أيضاً إبراهيم بن مسعود الكومي وأعلن أهلها بدعوة التوحيد . ولما وصل وفد سبتة بالبيعة استحضر كافة الناس لقراءتها وتكلم الناس على طبقاتهم في علومهم وآدابهم وأشعارهم وكان أيضاً من الاعتناء بهؤلاء الوافدين ما حقق رجاءهم ووسع آمالهم ، واجتمعت الوفود من أهل إشبيلية وسبتة وغمارة البحر من البلدين ووافقوا الصيف بمراكش ومزاجها الانحراف وهواؤ ها رديء بكثرة الأمطار من الجدب الذى كان تقدم أعواماً فكثرت الرطوبة وحدث الوباء فتغيرت أحوال أهلها فضلاً عمن سواهم لا سيما أهل البحر فنزل الوباء بهم وقتل منهم عدداً كثيراً ومرض الأشياخ الوافدين كلهم من أهل سبتة وإشبيلية فأوسع لهم الرشيد في العطاء وربما زاد في المال والكسى على عشرين ألفاً من الدنانير واشتد المرض على الأشياخ حتى لقد فر من السبتيين البطرني شيخ سبتة ونظائره خوف الموت فماتوا في الطريق بمقربة من الحضرة ولم يرجع من غزاة البلدين العشر الواحد فكان ذلك عبرة للمعتبرين وعظة للمزدرجين .

ذكر القبض على عمر بن وقاريط المذكور وحمله من إشبيلية إلى أزمور

ولما انقضت هذه المحاولات وانتظمت المسرات ، وعادت الاجوبة بشكر المقاصد ، وسعادة المصادر والموارد ، سيق ابن وقاريط من اشبيلية في قطعة وكان أكبر اسباب القبض عليه أبو عبد الله المومناني من أهل فاس من الفقهاء الاذكياء الذين لهم أخبار وأحوال وكان باشبيلية وله خدمة للدولة المأمونية بها فتحرك من اشبيلية الى تحريض اهلها على توجيهه وانهم ما يتحفون بتحفة اطرف منها ووصلت القطعة بابن وقاريط الى ازمور فقبضه الشيخ ابو زكرياءابن عطوش المشتغل هنالك وكان قبله بازمور الشيخ ابو محمد بن ماكسن ولكنه وجه الى سبتة وديوانها واعمالها عند وصول بيعتها لقدم له في الخدمة ووسائل كان بها مبروراً محفوظاً . وكان بازمور جماعة من الخلط مساجن ، منهم علي بن هلال ووشاح بن هلال وجماعة من أعيانهم قبض عليهم أمير المؤمنين عند قفوله من فاس في صدر هذه السنة على انهم مراهن واشتغل بالتحيل على سائرهم والقبض عليهم فإنهم ضاقت ببغيتهم الارض فلجأوا الى عفوه ولكنه عزم على استصفائهم فألحق ابن وقاريط بهم وبنى عليه في موضع سجنهم وسجنه ببيت صغير ليس له فيه تزحزح من مكانه واستوثق منه الحديد الثقيل وبقي هناك أياماً.

وفي اثناء هذه المدة استجلب أمير المؤمنين الخلط وانسهم وبسط آمالهم واستدناهم وانزلهم بتانسيفت فكان بذلك مخيمهم الى أن أحكم التدبير في أخذهم فلما عزم على ذلك وأمضى رأيه فيهم استدعى اشياخهم عن آخرهم وسجنهم ووجه الأجناد الى دواويرهم فأتوا على ما فيها وما بقي لهم مال ولا نفس وامتلأت أيدي الأجناد والناس من أموالهم وسيق النساء والذرية الى حضرة مراكش فامتلأت منهم الأسواق والسكك من كل عذراء ما تجاوزت قط خدرها وما كان في ذلك من الشناعة ما رقت النفوس به اليهم وتساوت الحرة العربية الصريحة[158] والأمة في العبودية ثم نادي المنادي بأن لا يمد يد الى امرأة ولا طفل ولا صغير وحشر النساء والذرية بدار الاشراف فضاقت عليهم وامتلأت رحاب الجامع وتعطف الناس عليهم واحسنوا اليهم وأذن لاعدائهم من سفيان وبني جابر في ستر بنات الخلط كبيرهم وصغيرهم وهذه من أكبر النكايات واعظم المصيبات .

---

(158) في : ط . الحرة العربية والأمة . وفي : ت الحرة العربية الصريحة . وهذا ما أثبتناه . . .

ذكر مقتل عمر بن وقاريط رحمه الله تعالى

ولما فعل أمير المؤمنين الرشيد ما فعل بالعرب امر بقتل من في ازمور من أشياخهم، وأن يعجل بامساخهم، فحزت رؤوسهم، وفقدت نفوسهم ، وحملت جملة الرؤوس في خرج على جمل وركب عليها ابن وقاريط عوض فرس وسرج وحمل الى مراكش على هذه الحالة ، فوصل اليها وقد قرب الله الى الاخرى ارتحاله ، فبقي ساعة بخارج المدينة والناس ينظرون إليه ، ويصبون اللعنة عليه ، ثم ادخل الى السجن فبقي به أياماً ثم أمر الرشيد بقتله وتعليقه على باب الشريعة احد أبواب مراكش ، فسبحان من لا يفنى دوامه فلقد كان ليثاً يزأر ، وبحراً يزخر فجرع كأس حمامه ، ورماه الدهر بسهامه ، فتوطدت للرشيد المملكة وترادفت المسرات، وأتته من كل جهة البشارات ، بما شاء الله من الفتح وأراه من النجح ، وكانت هذه السنة سنة خصب وخيرات وتتابع مسرات انتهى القمح بمراكش إلى ثلاثة امداد حفصية بدرهم وتنافس الناس في شراء الاسباب والثياب حتى لقد بيعت شقة بثمانين ديناراً من هذه الدراهم وذلك لاتساع الاحوال والآمال فقد كان الناس توالت عليهم أمور وأحوال يطول امرها ويثقل ذكرها ، ولكن الله سبحانه من بالفضل وامتداده ، والله لطيف بعباده .

وفي سنة ست وثلاثين وستمائة وصلت بيعة أبي عبد الله محمد بن يوسف بن نصر للخليفة الرشيد وكان يذكر اسمه في كتبه ويدعو له في خطبه فقنع منه بذلك وبقي على هذه الحالة الى سنة أربعين حين وفاة الرشيد. وولى الرشيد على سبتة ابا علي بن خلاص ، فكان ذا وفاء واخلاص .

وفي هذه السنة ثار ببلاد السوس ثائر يدعى بابن ياوجي في حصن تيوينوين واستدعى الناس اليه فأجابه كثير منهم فسمعت به عرب المعقل فاقبلوا اليه وطلبوا منه الاجتماع به ووعدوه بالنصر والاعانة على ما اخذ فيه فخاف من الخروج اليهم واستدعاهم ليجتمعوا به في الحصن المذكور وكان صاحب البلاد السوسية أبو محمد ابن ابي زكريا بن أبي ابراهيم فما زال يبذل العطاء عليه إلى أن اغتاله جزولي بدسيسة اليه وذلك انه لما دخل عرب المعقل الى الحصن نعق ناعق بأنه يريد بادخالهم التغلب على الحصن والتمكن من أهله واخراجهم منه فتقدم إليه شيخ من جزولة وضربه فقتله فسمع بمصرعه هلال فرغب ناساً في قطع يد الثائر المقتول فقطع له واحتمله سريعاً الى أبي محمد بن أبي زكرياء واخبره الخبر فضربت الطبول

على قتله فتحرك خاطر اهله وكانوا يظنون انه غير ملتفت فقطع رأسه الجزولي قاتله وجعله في قفة وتوجه به مع بعض أصحابه الى مراكش ولم يمر هذا الفريق على تارودانت لقديم عصيانهم ووفدوا على أمير المؤمنين الرشيد فهنأوه بقتله . فنظمت الاشعار وقرعت الطبول وعم السرور وعلق رأسه على باب الشريعة مع رؤوس الثوار المتقدم ذكرهم واستدعى الرشيد القفة التي سيق فيها رأس الشقي المذكور فأخرجها مملوءة دراهم لسائقه جزاء وثواباً وانصرفوا بخير كثير واسع فإن الدراهم لم تكن في أوعية انما صبت في القفة المذكورة صباً .

والحديث شجون: وذلك ان هذا الحصن على قديم الزمان مجبول من فيه من أهله على الشقاق والارتداد وقد كان في الفتح الاول في عهد الخليفة عبد المؤمن ما اشتهر خبره فانه اقام عليه زماناً وهم على طغيانهم وعصيانهم ولفتحه خبر مشهور ذكره البيذق وغيره ثم لم يزل مخيم كل من في نفسه شقاق أو نفاق وفيه خرج على الموحدين المشهور بأبي قصبة وكان مولعاً بالسحر ولم يبق من الموحدين احد في حال ثورته الا استقر بهذه البلاد في قتاله، ولقتله بعد المدة الطائلة نبأ معروف وعلق رأسه على باب الشريعة. وبعد ذلك التاريخ وصل مراكش رجل يقال له عبد الرحيم ابن الفرس من أهل الاندلس فقيه عالم ذكره ابن عبد الملك المراكشي في التكملة والذيل له لكن جرى عليه القدر الذي لا يرد وترك الناس حينئذ الرواية والأخذ عنه فكان يمر على رأس أبي قصبة وهو معلق فيندبه ويتحسر عليه ، ثم حملته الاقدار إلى هذه البلاد السوسية فثار في هذا الحصن واجتمع إليه الناس وامتنع به وأعانه أهله بأموالهم فأعملت الحيلة أيضاً في حسم علته الى ان اغتيل وقتل فسيق رأسه وعلق بازاء رأس أبي قصبة وفي هذه عبرة ودلالة على نفوذ ارادة الله بالهام ابن فرس للوقوف على رأس ابي قصبة وادامة النظر اليه الى ان جمعت القدرة بينهما ، فشأن هذا الحصن في الضلال والارتداد قديم وحديث وسيأتي بعض خبره أيضاً وخبر علي ابن يدر في أواخر هذه الدولة الموحدية ان شاء الله تعالى .

وفي هذه السنة نازل العدو ملك ارغون مدينة بلنسية وكان صاحبها زيان بن مردنيش ثم وصلت الاجفان من تونس بالاغاثة لأهل بلنسية فوجدوهم محصورين فكتبوا بذلك للامير ابي زكرياء رابع محرم من عام ستة وثلاثين وستماية. وفي ذلك اليوم بعينه بايع أهل مرسية لابن خطاب وتلقب بضياء السنة وكان فقيهاً عالماً . وكان وصل من تونس في الأساطيل المذكورة ابو يحيى بن الشهيد الهنتاتي بمال ناضّ

ليدفعه لابي جميل فلم يجد من يقبضه منه لكون ابن جميل كان محصوراً فرجعت الاساطيل المذكورة في الثاني عشر من محرم من السنة وتركوا ما سوى المال الناض من الاطعمة والاسلحة وغير ذلك بدانية .

وفي هذه السنة في يوم الجمعة السابع عشر من صفر خرج ابو جميل زيان ابن مردنيش من بلنسية بجمهور المسلمين واستولى العدو عليها ودخلها ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم . وحدث من شاهد حصارها ان القمح كان يباع بها ستة اواق بدرهم والشعير اثنا عشر اوقية بدرهم ولما اخذ المسلمون في الخروج منها بيع الدقيق بها احد عشر رطلاً بدرهم ووقع الصلح على دانية وقليرة الى مدة من خمسة أعوام وقيل سبعة أعوام .

وفيها ركب ابو عبد الله بن الأحمر من غرناطة الى موضع الحمراء واجال فيها نظره وخط اساس الحصن وجعل فيه من حفره وما تمت السنة الا والحصن مشيد البناء حصينه ، وقد جاءه من ماء الوادي برفع سد وحفر ساقية معينه .

وفيها وفد علي ابن الاحمر وجوه اهل مالقة ببيعتهم اليه فقدموا بها غرناطة عليه ، وكانت البيعة من انشاء ابن عسكر ، وكان في العلم والادب مشهوراً يذكر ، فقلده ابن الاحمر قضاء مالقة ، وسيق إليه واليها ابن زنون أشر سوق ، فأذاقه من العذاب أمر ذوق ، وكان قدمه عليها ابن هود ثم أعيد اليها بعد عذابه ونكاله فسجن بها واستصفيت احواله فذبح نفسه في سجنه نسأل الله العافية[159] من شر هذه الدنيا ومحنها ، واول مشرف قتله في حمرائه اثر بنائه أبا محمد بن عروس مشرف المرية ، ضربه بالسياط حتى وافته المنية ، وذلك تحت الاصبحية ، وكم من مشرف قتل بعده لم يحركه للابقاء عليه ريح الاريحية ، عفا الله عنا وعن جميعهم بمنه .

وفي هذه السنة يوم الثلاثاء منسلخ رجب الفرد رفع ابو عبد الله ابن الابار قصيدته السينية التي اولها :

ادرك بخيلك خيل الله اندلسا　　　ان السبيل إلى منجاتها درسا

رفعها الى حضرة الامير ابي زكرياء يستصرخه فيها لنصرة الاندلس ويصف سوء الامر بها .

---

(159) في : ط . العاقية . وفي ت العافية ، وهو مناسب .

اختصار الخبر عن كيفية روم جنوة
الذين راموا دخول مدينة سبتة عنوة

وذلك أنهم لما وصلوا إلى سبتة في مراكبهم برسم محاولات تجاراتهم ، فاجتمع منهم في ديوانها وربضها عدد كثير ، فراموا التغلب عليها بتحيلاتهم واراداتهم فخيب الله سعيهم فيما راموه من التحيلات ، واكذبتهم نفوسهم بما خيلت لهم من التخيلات ، وذلك انه لما علم بذلك صاحبها الحاج ابو العباس اليانشتي كتب الى القبائل الساكنة عليها ، والراجعة في الحكم اليها ، فعرفهم بتلك الامور ، وأمرهم بالوصول اليه ، والقدوم بجملتهم عليه، في يوم معين معلوم ، وهذا الامر عنده من الجمهور مكتوم ، فلما كان في اليوم المذكور خرج للقائهم أبو الحسن ابن اليانشتي فألقاهم في جموع لا يستطاع احصاؤهم . وعند خروج ولد صاحب سبتة اليهم ، فهم النصارى ان الدائرة عليهم ، فأبرموا امرهم طامعين فيما املوه ، وزحفوا بجموعهم الى الباب لعلهم يملكوه ، فبينما هم بمقربة من الباب يحاولون إليه المسير اذ لم يبق بينهم وبينه الا شيء يسير ، اذ أقبلت عليهم عساكر البربر داخلين على الباب فكسروهم وقتل كل واحد منهم من قتل من الروم وما صبر ولا دبر ، فقتل النصارى في ذلك اليوم قتلاً ذريعاً وقطعوا تقطيعاً ، وتحكمت السيوف والرماح من كل مفرق لهم ونحر، ومن سلم من القتل رمى بنفسه عائماً الى الاجفان في البحر ، وانتهبت اموالهم التي في فنادقهم أي انتهاب ، والتهبت النار في سلعهم وسلاحهم كل التهاب ، واحتوت البربر والسوقة وغزاة البحر وغيرهم على جميع ما كان في الفنادق من أسبابهم ، وما خلص للنيران من اموالهم ،واخذت كل يد ما ملكت من أي شيء وجدت أو عليه سلكت ، وعلم من كان في تلك المراكب من أهل ملتهم أن المنية قد نزلت بجملتهم فأخذوا في الاقلاع من مرسى سبتة ينادون الفرار الفرار ، فلما وصلوا الى اخوانهم اعلموهم بقصتهم وشأنهم فاجتمعوا في نحو ماية مركب ويمموا سبتة لحصارها ، والمبالغة في اضرارها ، فلما وصلوا اليها نصبوا المجانيق عليها فنصرها الله وعصمها منهم ، ثم وقع الصلح بينهم على ان يعطي أهل سبتة للروم مالاً معلوماً من جملة ما مضى لهم فدفعه لهم اليانشتي من مال المخزن واقلعوا عنهم وأراح الله بفضله منهم . وكان عام جنوة عند اهل سبتة مشهوراً ، وفي تواريخهم مذكوراً ،وكان ذلك عام ثلاثة وثلاثين وستماية وقيل في سنة ست وثلاثين .

وفي هذه السنة في يوم الجمعة السادس عشر لشهر رمضان المعظم دخل الامير ابو جميل مرسية على رضى من أهلها وخطب بها للامير ابي زكرياء صاحب تونس وقبض على عزيز بن خطاب وقتله ليلة الثلاثاء الموفي عشرين من شهر رمضان المعظم المذكور وانتظمت البلاد الشرقية ببر الاندلس للامير أبي زكريا من جزيرة شقر الى مرسية .

وفي سنة سبع وثلاثين وستماية

كان الغلاء المفرط والمجاعة العظيمة بمدينة سبتة حتى عدم فيها الطعام بالكلية في هذا العام وكانوا يسمونه بعام سبعة وهو مشهور عندهم يتمثلون به بينهم ومن هذا العام صار أهل سبتة يختزنون الطعام في المطامير في كل عام جيطة على أنفسهم من مثل هذه المجاعة التي لم يعهد مثلها في الاعوام الفارطة قبلها عصمنا الله من مثلها بفضله وكانت أكثر بلاد الغرب غالية الاسعار بسبب كثرة الفتن وقلة الامطار في تلك الاقطار وبسبب عدم الحماة والأنصار لتلك الجهات والامصار فقد كان اهل تلك البلاد اشتعلت بالفتن نارهم وقلت حماتهم وانصارهم حتى اشتدت حالهم وتكاثرت اوجالهم بسبب ما كان بين أمراء الموحدين من الحروب والوقائع والفتن والزعازع ، واشتغالهم عنهم بامورهم وأحوالهم في حضرتهم المراكشية في الدولة المأمونية وفي أوائل الدولة الرشيدية فكثر الغلاء والجلاء في البلاد الغربية من أجل النفاق واختلاف الكلمة في السنين الماضية حتى انقطع السبيل وعدم فيه الدليل . وكان أشد ضرراً في تلك الجهات على الناس عرب رياح بالاختلاس والافتراس لا سيما بأحواز مكناسة فاس ، وتقدم بينهم وبين زناتة حروب كثيرة ، ونشأت بينهم وبين بني مرين عداوة كبيرة ، فكانوا يحاربونهم ويقاتلونهم بجهة القصر ، وشيخهم اذ ذاك عثمان بن نصر ، الى أن ظفر بها بنو مرين ونهضوا اليهم سريعا ، وقتلوهم قتلا ذريعا ، واستولوا على دواوير عرب رياح واكتسحوا ما كان بها من دواب واسباب واثاث وسلاح ، وفرقوهم ايدي سبا ، ولم يتركوا لهم سبدا ولا لبدا ولا سببا ، واوقعوا فيهم سيوفهم وانزل الله عليهم حتوفهم . وانصرف عثمان بن عبد الحق واخوته وعشيرته وجيادهم تتسابق في مراح وارتياح ، ووجوههم تتهلل تهلل الاصباح . ولم يزالوا في بلاد الغرب ظاهرين ، وباعدائهم ظافرين ، وكانوا في اثناء تلك الاحوال ، التي كانت بين الموحدين والاهوال ، خيولهم في بلاد الغرب رائحة غادية تستأصل ما ألفته بسيوفها من المعتدين على كل حاضرة وبادية ،

وذلك انه لما نور الله بصائر بني عبد الحق وبني حمامة ، وانجز لهم ما وعدهم من الكرامة ، فأخلصوا لله نياتهم التي هي رأس أعمالهم ونووا للمسلمين خيرا في أفعالهم وقد قال عليه السلام : « انما الاعمال بالنيات وانما لكل امرىء ما نوى » فما قدموا عملا من الاعمال قبل تمهيد تلك البلاد ، والضرب على أيدي أهل الضرر والفساد ، فأمنوا السبل وسدوا الخلل، فاتسعت أحوالهم وانبسطت آمالهم فصار أهل تلك البلاد يعظمونهم غاية الاعظام ، ويعاملونهم بالبر والاكرام ، ويعطونهم مالا معلوما في العام ، فكانت السبل آمنة والحاضرة والبادية هادئة ، ونفوس أهلها بالعافية ساكنة ، الى أن وصل ابن وانودين واليا على تلك البلاد ، فاشعل نار الفتنة بعد الاخماد ، واشغل باله بالقتال معهم والجلاد .

اختصار الخبر بولاية أبي محمد عبد الله بن وانودين بلاد الغرب ، وما كان يطول مقامه بها من الحرب

وذلك ان هذا عبد الله بن وانودين كان من خيار الموحدين وكان تركه الناصر لدين الله بتونس مع الشيخ أبي محمد بن أبي حفص في جملة من ترك معه من أولاد الموحدين وهو إذا ذاك في حال الشبيبة الى أن توفي ابو محمد عبد الواحد المذكور وتبدلت الاحوال والامور ووصل الى مراكش ونزل بداره بالسبتيين وقعد مع اخوانه الهنتاتيين ثم جعل مع الوقافين ثم نقل الى مزورة العز ثم نقل الى الوزارة فاستوزره أمير الموحدين المعتصم بدين الله ابو زكريا يحيى بن الناصر وكان جاره بالسبتيين الكاتب الجليل أبو الحسن السرقسطي فعرفه به واستكتبه أبو زكرياءالمذكور فحضر معه في تلك الاحوال التي كانت بينه وبين عمه المأمون وتلك الامور وتزوج ابن وانودين السيدة بنت يوسف المستنصر بالله فساد بسببها وزاد حظوة بها الى ما كان من حظوته ومكانته فدخل مع يحيى مراكش ثلاث مرات بالحروب ورحل معه منها كذلك بالهزيمة والهروب ، واستقر بجبله مرارا ، وفر اليه فرارا، معتصما بالله وبه موطنا وقرارا ، ثم نظر بنظره السديد ، وبادر بنفسه الى خدمة الرشيد ، فولاه بلاد درعة سنة اثنين وثلاثين واعطاه الأجناد ، فظهرت خدمته في تلك البلاد ، وحاول محاولة عظيمة في أمر السيد القائم بسجلماسة أبي محمد عبد العزيز حتى اخرجه منها بعدما ثار بها وجند الأجناد والف من العرب اعداد ودخل ابن وانودين اليها فولاه الرشيد عليها الى أن وصل منها الى مراكش في سنة أربع وثلاثين .

فلما كان في اواخر سنة خمس وثلاثين حين استقامت الاحوال للامارة

الرشيدية وطاعت له سبتة وطنجة ولاه الرشيد البلاد الغربية وجعل له النظر فيها والتفقد لاحوالها ولامور ولاتها وعمالها وولاه قبائل غمارة كلها سهلها وجبلها فخرج من مراكش بعسكر كبير من الموحدين وجموع من المتجندين وحصص من العرب وغيرهم وفوض له الرشيد النظر في احوال تلك البلاد وفي اصلاح حالهم وامرهم واعطاهم طبولا وعلامات وكتب له بخط يده في جملة أوراق بعد البسملة علامات لينفذ بها الاوامر ويكتب لمن شاءه الظهائر ، وارتهن ان يستجلب عرب افريقية فكتب لهم عنه باشعار وعدة رسائل وكان كاتبه الفقيه الجليل ابو الحسن السرقسطي وكان عنده معظما مبرورا مكرما مشكورا ، وتوجه صحبته واليا على سبتة ابو علي ابن خلاص البلنسي وعلى دار الصناعة بها أبو زكرياء بن مزاحم الكومي فوصل بالمحلة اليها ونزل اياما عليها ، ثم رحل الى بلاد غمارة لينظر في اعمالها واشغالها فنفرت منه بعض قبائلها وتحصنت في موانع جبالها وكان مع بعض تلك القبائل الغماريين قد طاعوا للامير ابي سعيد عثمان بن عبد الحق ودخلوا في حرمة بني مرين وتحت طاعتهم وانقادوا لهم للمغرم وغيره .

وكان الرشيد اعطى لابن وانودين جملة احمال بالكسا الشرقية البديعة من كل نوع برسم الاعطاء لبني عبد الحق ولأشياخ بني مرين ولمن يجب اعطاؤه . فلما وصل ابن وانودين الى مقربة من بلادهم اشغل نفسه بقتالهم وجلادهم فأول فعل فعله معهم أنه وصل إلى مقربة من مواضعهم ليطلب الفارين من غمارة فوقع النزاع في ذلك وعامل بني عبد الحق بمعاملة غير صالحة وحاول امرهم بمحاولة غير ناجحة ، ووافقهم على اشياء لم يف لهم بها فكانت الحرب بينه وبينهم بسببها على ما اذكره بحول الله تعالى ، وذلك انه لما خرج ابن وانودين على بني مرين الطريق فيما كانوا توافقوا عليه واغاروا على محلته وقتلوا جملة كبيرة من اجناده وجملته فتشتت حاله وتكاثرت اوجاله ، ووصل الخبر الى الرشيد بحالهم وامرهم فاغتاظ لذلك عليه وأمره بالسكنى في تلك البلاد ، فسكنها وهو كثيب القلب والفؤاد .

وفي هذه السنة وهي سنة سبع وثلاثين وستماية استشهد الامير عثمان بن عبد الحق رحمه الله تعالى قيل ان علجا من اعلاجه غدره وضربه ضربة بخنجر قطع به اوداجه فمات من حينه وهرب العلج الى ابن وانودين فعرفه بالامر فاعطاه وارضاه ، وقيل ان ابن وانودين هو الذي حرضه على ذلك واتفق معه عليه ثم صرفه ابن وانودين بعد ذلك من عنده فلم يعلم بعد ذلك صحة خبر .

ولما توفى هذا الامير ابو سعيد كتب ابن وانودين معلما بخبره الرشيد وبعث اليه كاتبه ابا الحسن السرقسطي وما كان عنده اكبر منه ليعرفه بالحال مشافهة ولينوب في شرح ذلك عنه . وتقدم الامير ابو عبد الله محمد بن عبد الحق على قبائل بني مرين ومن انضاف اليهم من زناتة وبني ورا وغيرهم فاطاعوه وطاوعوه غير ان بني عسكر خالفت بني حمامة في الانقياد التام فكثرت بينهم الشحناء وحقنوا الدماء واغتر ابن وانودين بمنافرتهم وطمع فيهم لأجل معاقرتهم ، وذلك انه لما اتصل به ما كان بين بني حمامة وبني عسكر من المكابرة والمظاهرة والمنافسة والمنافرة ، استخلص بني عسكر لنفسه استخلاصا واخلص لهم نيته فيما زعم اخلاصا واستعطفهم واستلطفهم ، ووعدهم بأموال يعطيهم، واحوال ترضيهم ، على ان يقاتل بهم اخوانهم ، ويطرق بهم اوطانهم ، فارتبط معهم على ذلك ارتباطا ونهض معهم الى مقابلة بني عبد الحق وبني حمامة فألفاهم بمقربة من سلفات فقابلهم في تلك الجهات ، فوسع بنو حمامة ومن كان معهم الى مواضعهم بعد مقابلة ومقاتلة وفقد من فقد من الفريقين وعاد ابن وانودين مع الموحدين وبني عسكر وكان غرض بني مرين ان يتبعهم ابن وانودين بمن معه ليكمنوا لهم فيتمكنوا منهم فتركهم ورحل معهم ونزل بظاهر مكناسة فألزم اهلها وظائفا وتكالفا وابتلاهم بأنواع من المغارم والملازم ، ثم رحل ابن وانودين بمحلته إلى مدينة فاس ليوفي للعسكريين مالهم فيها فأغرم بالتعيين جملة من الناس ، ثم عاد أيضاً إلى جهة مكناسة الزيتون ، فنزل بمقربة من زرهون ، ففر أهل تلك الجهات أمامه وتركوا مواضعهم وربوعهم واسلموا للنهب مواشيهم وزروعهم .

ذكر هزيمة بني مرين لابن وانودين وعسكر الموحدين

وذلك انه لما اشتغل بفاس ومكناسة بما اشتغل من المظالم ، وفعل بأهلها ما فعل من تأدية المغارم ، اجتمع بنو مرين ومن انضاف اليهم من زناتة وغيرهم على اميرهم ابي معرف محمد بن عبد الحق ورحلوا معه بجملتهم ، ونزلوا بمقربة من مكناسة بمحلتهم ، الى ان وقعت شوافتهم[160] في اجناد الروم وقائدهم اللعين

(160) في : ط شوافتهم . وكذلك في : ت .

فقتلوهم أجمعين ، إلا من فر منهم بعد قتل قائدهم الزعيم ، أبي ضربة الذميم ، ووصل فلهم المنهزم الى ابن وانودين فعرفوه بقتل قائدهم فتفجع عليه وعلى من قتل من جماعته التي كانوا تحت يده وكان قد بعثهم لتلك الجهات يحرسونها ويتفقدونها ، وقيل ان قاتل أبي ضربة هو ابو عبد الله محمد بن ادريس بن عبد الحق وكان موضع نزول بني مرين اعزهم الله بمحلتهم على نحو ثمانية أميال من مكناسة فدبر ابن وانودين وجه الحيلة في الوصول اليهم والهجوم في ذلك الموضع عليهم مع بعض أناس من ناسه فأسرع فيما دبر وشرع ، فنهض مسرعا مع العسكريين والموحدين والعرب والمتجندين فتأهب بنو عبد الحق وبنو مرين لقتالهم واستعدوا لحربهم ونزالهم ، فلما اصطفت الصفان ، واجتمعت الجمعان(161) للضرب والطعان ، دفعت الاجناد في خيل بني حمامة لتقديرهم ان بني عسكر والعرب يدفعون معهم عليهم فأسلمهم بنو عسكر اليهم ، فصدق لبني حمامة الدفاع ، وكشفت الحرب القناع ، فتحكموا فيهم بالأسنة والمشرفية كيف شاؤ وا وكما ارادوا وقتلوا من الموحدين وغيرهم جملة كبيرة وأكثر من قتل في المعركة اجناد النصارى ومن خلصوا من القتل مع أبي ضربة وانهزموا ، ثم الآن للقتال عادوا فأهلكهم الله وبادوا ، ووقعت الهزيمة على ابن وانودين ومن بقي معه من الموحدين ، وتفرق جميع اهل العسكر ، من العرب وبني عسكر ، ودخل ابن وانودين الى مكناسة مطرودا إليها ، ووصل بنو مرين الى محلته فاستولوا عليها واحتووا على جميع ما كان بها من دواب وأسباب وأخبية وأمتعة وغير ذلك من الأشياء الخفاف والثقال ، ولم يتركوا لاحد فيها ما يساوي العقال ، ثم خرج ابن وانودين من مكناسة في الليل مع جملة من الخيل ومع ابنه ابي زكرياء يحيى فقصد الى قصر عبد الكريم حيث كان أولاده وعياله ، فانحصر فيه مع اهله ورجاله ، وكان معه ايضا محصورا في القصر ، ابو عثمان سعيد بن نصر .

وكانت مدة اقامة ابن وانودين في الغرب في ولايته فيه سنتين اثنتين او نحو ذلك وكان ولاة أهل تلك البلاد وعمالهم يخاطبون الرشيد ويشرحون له أمورهم معه وأحوالهم حتى اسندوا عنه أنه يقوم في تلك البلاد الغربية لما ظهر له فيها من الاستعداد والاستبداد وانه يفعل مثل ما فعل ابوزكرياء الحفصي في البلاد الافريقية .

---

(161) في : ط . الجمعان . الضربات . وفي ت : الجمعان للضرب وهو الصواب .

وقيل ان الرشيد اتهمه بذلك لأنه كان يترك عياله بعض الأشهر بسبتة مستوطنين وكان بينه وبين عرب افريقية مكاتبات كان الرشيد امر له بها فما كان من احد يخفيها فلما قيل له ان الرشيد صدق ما قيل له عليه وما كتب فيه اليه خرج من القصر في نحو خمسين فارسا مع رجاله وبنيه وعياله آخذاً على طريق المعدن قاصدا الى جباله فتبعه بعض خيل من بني مرين فحاربهم وتخلص منهم فما زال يجد السير ليله ونهاره إلى أن وصل جبله وحينئذ استقر قراره .

فزاد بنو مرين بهزيمته وبما كان من استيلائهم على محلته في الغرب علواً وظهوراً اذ ما زالوا فيه ظاهرين وباعدائهم ظافرين واستولى أيضا بنو مرين بعد تلك الكائنة على ما كان بجهة القصر من عرب رياح اثر تلك الهزيمة ، وغنموهم غنيمة عظيمة . والأمير المعظم ابو معرف ابن عبد الحق انقاد له جميع القبائل المرينية وبعض الغمارية وبعض القبائل المغربية فكان بنو مرين يجولون في تلك البلاد ولا مدافع لهم لقتال ولا جلاد ، ثم كانت بينهم وبين الرشيد مهادنات ومراسلات . واما ابن وانودين فبقي في جبله حتى برئت ساحته مما ذكر عنه وقبل العذر منه وعاد الى مراكش مكرما معظما ، وسأذكر أخباره في دولة الامارة المعتضدية .

وفي هذه السنة وهي سنة سبع وثلاثين في أوائل ربيع الآخر منها وصل الاسطول من تونس الى مرسى قرطاجنة وصل فيها وفود أهل شرق الاندلس المتوجهون بالبيعات وصادف وصولها اضطراب الامور على الامير ابي جميل زيان بن مردنيش والالسنة قائلة والخواطر جائلة فسكن بعض التسكين وهدن بعض التهدين ووصلت المخاطبة من الامير ابي زكرياء الى مرسية وشاطبة واوريولة ولورقة وجزيرة شقر وفيها ذكر ولاية ابي جميل على شرق الاندلس وتواريخها عاشر صفر من سنة سبع المذكورة .

وفي السابع عشر لجمادى الأولى من السنة خرج ابو جميل زيان من مرسية لما استشعر من اهلها الميل منهم الى بهاء الدولة ابن هود ودخلها ابن هود مجاولة ابن عصام صاحب أوريولة . وكان لما قام أهل مرسية على سلطانهم ابن خطاب ونكثوا عليه وقتلوه خاطبوا الامير ابا زكريا صاحب تونس وكتبوا له ببيعتهم .

وفي هذه السنة وهي سنة سبع وثلاثين كانت مبايعة الأمير أبي عبد الله ابن الأحمر للرشيد وأخذ البيعة له على أهل غرناطة ومالقة وجيان وسائر البلاد التي كانت تحت

طاعته فوصلته المخاطبات الرشيدية بالشكر له على مبادرته .

وفي سنة ثمان وثلاثين وستمائة توسعت الأحوال وامتدت الآمال ونزلت الأمطار في تلك الأقطار وظهرت الخيرات في كل الجهات وحرثت البلاد ، وأفاض الله على عباده خيره المعتاد ، وذهب ما كان من بقايا الجوع وأمن المروع ، ورخصت الأسعار . . وبنيت الديار ، فانها كانت قد خربت ودثرت بالأزمنة آثارها ، وامتحت من بعض الجهات رسومها وقرارها ، لا سيما بمراكش فقد كانت خربت بكثرة الدخلات ديارها ، فصارت في هذه السنة عامرة مبنية الدور ، وأمير المؤمنين بها في دعة وسرور ، وخراج موفور ، وكانت البلاد الغربية أيضاً قد خمدت نيرانها ، الى أن وصل جميع بني عسكر الى مكناسة ونواحيها على ما أذكره .

وفي هذه السنة وصل الى مكناسة وجهاتها كافة بني عسكر مستمدين من عرب المعقل أعظم عسكر فأحدقوا بها من كل ناحية وخيولهم عليها رائحة وغادية وذلك بسبب فتنة كانت بينهم وبين بني حمامة ، أولي التقدم عليهم والزعامة ، وكان أهل مكناسة قد وثقوا منهم ، لما كان يصدر لهم من الخير عنهم ، من الصدق والوفاء ، والاحترام لتلك الجهات والأنحاء ، وقد كانوا وافقوهم بمال معلوم في العام يعطونهم عليها ، فوصل الآن العسكريون اليها ، فضاق أهلها بهم ذرعاً ، وتيقنوا استيصال أموالهم زرعاً وضرعاً ، فبعثوا إليهم علماءهم وصلحاءهم ، راغبين في كف عاديتهم عن أنحائهم ، فما قبلوا لهم رغبة ، ولا استشعروا من الله سبحانه فيهم مخافة ولا رهبة ، بل ألزموهم أربعة آلاف دينار خفارة ، وكل منهم سرد سنانه وجرد شفاره ، ولولا والي مكناسة الذي أخذهم بالارادة لاضرمت نيرانهم ، وتوالى اضطرارهم ، وقوي بتلك الجهات شيطانهم ، لكن بنو حمامة بوفائهم وصفائهم عظم سلطانهم .

وفي سنة تسع وثلاثين وستمائة

قوي أمر الأمير محمد بن يوسف بن نصر ببر الأندلس وطاعت له أيضاً بعض بلادها ، وانقاد له أكثر رؤ سائها وأنجادها فقويت شوكته بها ولكنه يظهر أنه تحت طاعة الرشيد ومن ولايته وأنه المجدد للدولة الموحدية بالأندلس وذلك من كفايته ودهائه ونباهته ، وكان وافر العقل والدهاء ، فقنع منه الرشيد بذكره اياه في الخطب والدعاء ، ولما توفى الرشيد في السنة الآتية بعد هذه المؤ رخة وولي السعيد قطع دعوته وبايع أبا زكرياء بن أبي حفص بتونس وتوجه ببيعته التونسية أبو بكر ابن عياش شيخ مالقة وأبو

جعفر التنزولي وبعث اليه الأمير أبو زكرياء أموالاً كثيرة برسم أن يستعين بها المسلمون على الجهاد وكان قد انتقلت حالته باغرناطة عما كانت عليه فلم يقف على عين ما وجه الحفصى اليه ، وقويت عمارة اغرناطة فأراد أن يكبر جامعها ويزيد فيه ، فحلف القاضي محمد بن عياض أن مال صاحب تونس باق اشارة الى التوفية وكان يكتب بخط يده المجابي ، ولا يسرق في الانفاق ولا يحابي .

وفي هذه السنة كان مقتل السيد أبي حفص مع المومناني بمراكش وذلك أن الخليفة الرشيد كان قد ولاه ولاية عظيمة وأمره بالخروج بالعسكر الى جهة هسكورة وغيرها وكان المومناني من أجل الكتاب وله مرتبة عند الرشيد وحظوة يامر له في المواسم والأعياد بجزيل الخير والاحسان وكان ينظر بزعمه في علم الحدثان فحدثته نفسه الكاذبة بما آل أمره فيه الى السيف وسوء العاقبة ، فمن حرمانه وفجور حدثانه أنه كتب براءة بخط يده يهنىء فيها السيد أبا حفص بولايته ، وأنها إن شاء الله ابتداء لخلافة تكون أو كلام يدل على هذا، وأمر رسوله أن يدفع تلك البراءة بباب السراجين القديم الذي كان بمقربة من جامع الكتبيين من سور الحجر فغلط الرسول المذكور ودفع البراءة المذكورة بباب السراجين الذي هو الآن يعرف بباب القراقين فأخذها القائد أبو المسك ودفعها من حينه للرشيد فكان في الحين مشغولاً فلم يقرأها ولم ينظر اليها وظن أنه يطلب منه عادته معه في المواسم وكان ذلك ليلة سبع وعشرين من رمضان وقد بعث له العادة فاستشغله ولم يعرج على بطاقته فلما وصله رسوله وأخبره أنه دفعها بذلك الباب قامت قيامته واستعجلته منيته فكتب براءة ثانية يستعذر له ويستعطفه فيها فلما وصلت الى الرشيد قرأها وعلم ما فيها فطلب البراءة الأولى فلما قرأها أمر بقتل المومناني البائس والسيد أبي حفص من حينهما فذكر أن السيد المذكور حين استدعاه الموكل به خرج اليه في دراعة فطلعه بها الى القصبة ولم يمهله يرجع الى داره ليلبس ثيابه فعند وصوله كان آخر العهد به وكذلك المومناني حين حمل أمر الزمالة أن يضربوه بالمياجم على الرأس فكان ذلك والله يقي ويعصم بمنه ، ولم أتحقق تاريخ هذه المسألة هل كانت في هذه السنة أو في التي قبلها .

وفي سنة أربعين وستمائة توفي الرشيد رحمه الله

وذلك أنه لما استقامت الأحوال للرشيد بعد ما جدد دولة الموحدين ووصله منهم القريب والبعيد وأجلى جميع الخلط الى السوس وتهدنت النفوس وتمهدت البلاد

واشتغل الناس بمراكش في الرياضات بالنزاهات استعمل الرشيد سكناه برياض تدفق وبنى حوله سقائف للموحدين والمشتغلين والوقافين والرقاب والحجاب وأمر ببناء الديار هنالك للمقربين من خدمته وأرباب دولته فلما قدر الله بحين وفاته وانقضاء مدة حياته دخل في زورق في الصهريج في الرياض الكبير المذكور مع بعض جواريه برسم التنزه فانقلب بهم الزورق فقيل انه مات من حينه وقيل انه طلع منه محموماً فنقل الى قصره وذلك في يوم الثلاثاء السابع من جمادى الآخرة من هذه السنة المؤرخة وبعد ثلاثة أيام توفي وأخبرني أيضاً بوفاته أبو عمران ابن تيجا قال أخبرني أبو وكيل ميمون بن سعادة حاجبه قال حضرت لوفاة سيدنا الرشيد وذلك أنه دخل في الزورق في الصهريج برسم التفريج في ليلة باردة فأصابته فيها نزلة عظيمة وكان على راحة معتماً بعمامته فلما أزالها حم من حينه فأخرج من الزورق ورفع الى قصره فانقضى أمده في يوم الجمعة العاشر لجمادي الأولى من سنة أربعين المذكورة .

ذكر بيعة أبي الحسن المعتضد بالله المدعو بالسعيد ونبذ من أخباره

هو أبو الحسن علي بن أبي العلى ادريس بن أبي يوسف المنصور ابن أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن . بويع يوم وفاة أخيه في العاشر لجمادى الآخرة ، وتوفي يوم الثلاثاء منسلخ صفر من عام ستة وأربعين فكانت خلافته خمسة أعوام وثمانية أشهر وخمسين يوماً . ولقب لقبان المعتضد والسعيد . وزراؤه : أبو زكرياء ابن عطوش والسيد أبو إسحاق بن السيد أبي ابراهيم . وكتب له أبو الحسن الرعيني وأبو عبد الله التلمساني . ومن خواصه أبو محمد العراقي والقيجاطي وأبو زيد بن البقة ناظر في أشغاله وأحواله .

ولما اجتمع أهل العقد والحل من أشياخ الموحدين يتفاوضون في تقديم من يجب تقديمه للخلافة من بعد الرشيد واجتمع أيضا السادة من بني عبد المؤمن في بيت القرابة وفي جملتهم السيد أبو الحسن المذكور وكان أسمر اللون ذا سطوة ومهابة فلم يذكره أحد منهم فأراد بعضهم تقديم ولد الرشيد كما قدم أبوه صغيراً وقال آخرون قد اعيينا من تقدم الصبيان علينا يعنون يوسف المستنصر ويحيى أخيه والرشيد ، وكان أبو الحسن المذكور في أثناء ذلك في قلق عظيم من ذلك حتى قال لمن قال لئن لم يبرموا هذا الأمر والا أبرموه بغير اختيارهم ، فقيل أن أبا محمد عبد الله بن وانودين ترك

مفاوضة أشياخ الموحدين وقام الى السيد أبي الحسن فأخذ بيده وأقعده في موضع قعود الخلفاء أسلافه وبايعه ابن وانودين المذكور ثم تتابعت بيعة القرابة والموحدين اليه ، وبعد ذلك استوفت البيعات عليه .

ولما أقعدته الخلافة في محلها وزينته بحللها وحليها قبض على جملة من الموحدين أهل ربطها وحلها ، الكارهين لخلافته ، الخائفين من سطوته ومهابته ، فسجنهم وأغرمهم أموالاً وحبس أم الرشيد وأغرمها مالاً وضرب ابن سعادة شيخ العبيد في أيام الرشيد نحو ألف سوط على كلام قاله في جانبه قبل ذلك ووصله ، فلم يقدر الله بموته في ذلك الحال وقيل انه على ما ذكر قال لا بد أجعله يمشي قدام أخيه بأوصال .

وكان جل عرب السعيد عرب الخلط استخلصهم لنفسه ، وقربهم بعد ما استدعاهم من السوس وغيره وجلبهم ، وكان له من اجناد النصارى الذين جلب أبوه جمع كبير وتركهم بمراكش في كنيستهم وناقوسهم وأمضى ذلك لهم .

وخالف عليه بسبتة أبو علي ابن خلاص البلنسي، وبايع للأمير أبي زكرياء الحفصي ، وخالف عليه بسجلماسة عبد الله بن زكرياء الهزرجي وكتب بيعته للأمير أبي زكرياء المذكور ، فأطلق يده هناك على جميع الأمور ، فضرب السكك الأميرية السجلماسية وأعطى المال للعربان ، فأتته من كل مكان ، وسأذكر خبره في موضعه ان شاء الله تعالى . وسبب نفاق عبد الله بن زكرياء الهزرجي على السعيد أنه كان والياً على سجلماسة من قبل الرشيد فبلغ السعيد عنه حين وفاة أخيه أنه قال كيف أبايع أسود حبشياً فسرها السعيد في نفسه الى أن خاطبه عبد الله المذكور بخطابه يستعطفه فيه ويبدي له خلاف ما ذكر عنه أنه خرج على فيه ، فكان الجواب على ظهر الكتاب قد وعتها اذن واعية ، وخرج في توقيعه للكتاب ، فليمزق كتابه تمزيقاً ويبعث به اليه سريعاً فلما وصل ذلك الى ابن زكرياء حينئذ خطب للأمير ابن زكرياء كما ذكرته .

وفي هذه السنة بعث أبو يحيى يغمراسان بجملة من الفرسان الى أبي الحسن السعيد بهدية من عنده فيها جملة من الخيول العتاق وفي جملة من الدرق عاهده على قتال بني مرين وأن يأخذوهم بعساكرهم من الجانبين فأبى الله ذلك بل مكن لهم في الأرض ، وأهلهم لاقامة السنة والفرض ، وكان الأمير أبو زكرياء لما سمع بموت الرشيد وتقديم السعيد ومخالفة من خالف عليه وبالهدية التي بعث يغمراسان اليه طمع

في بلاد الغرب فأخذ في الحركة الى تلمسان على ما أذكره ان شاء الله تعالى .

اختصار الخبر عن حركة الأمير أبي زكرياء الى تلمسان لمحاربة يغمراسان بن زيان وفتحه اياها حين وصوله اليها ثم تقديمه يغمراسان بعد ذلك عليها

وذلك أنه لما اتصل بالأمير أبي زكرياء بتونس مصالحة السعيد مع أبي يحيى يغمراسان صاحب تلمسان خاف أن يصالح أيضاً للأمير أبي يحيى بن عبد الحق ويتحرك معهم الى بلاد أفريقية . وكان السعيد بزعامته وشهامته يحدث نفسه وناسه بذلك فأخذ الأمير أبو زكرياء بالعزم والحزم وجمع الأجناد وحشد الأحشاد واستوفت عليه العربان من كل جهة ومكان من أقاصي بلاد أفريقية فوصله منها كل قاص ودان وخرج من تونس بجيوش وافرة وجموع غظيمة متكاثرة في أواخر سنة أربعين المؤرخة . وذكر أنه اجتمع في تلك المحلة المنصورة من الرماة الأندلسيين والافريقيين والغربيين ما نيف على عشرة آلاف بين فرسان ورجال يرمون كلهم بالنبال وكانت محلات العرب مقسمة كل أمير بمحلته وجماعته وجملته يرحلون قوماً بعد قوم ويوماً بعد يوم لأجل قلة الماء في تلك الجهات والانحاء وتمادى المشي هكذا الى أن وصل الى تلمسان بعساكر كالطوفان فلما وصل اليها ونزل بمحلاته عليها أمر لكل من يرمي بالنبال ، أن يذيق أهلها بالرمي أشد وبال ، فلم يخرج أحد اليهم من أهل تلمسان لقتال ولا غيره من أدبار وإقبال ، من كثرة النبل المرمية عليهم الوابلة اليهم ، حتى لقد قيل ان فروجاً حصل فيه جملة من النبال ، فلقد كانت مثل سحائب الأمطار ، ولم يظل عليهم ذلك الحصار الا ثمانية أيام وما اشتد فيها القتال والرمي بالنبال إلا يوم واحد من تلك الأيام تأهب الناس فيه بجموعهم ولبسوا دروعهم ، فكانت تلك الدروع كالشمس في الشروق واللموع .

ويغمراسان إذ ذاك محصور في المدينة يبصر من داخلها لأهل المحلة وخيلها ورجلها وكان يظن أن لا منازع له ولا من يقف قبله الى أن رأى ما لا طاقة له به من كثرة المحلات النازلة عليه الواصلة برسم القتال عليه فدبر في نفسه حيلة يعملها ، فعملها لما دبرها . وذلك أنه خرج من تلمسان مع أهله وعياله وبعض خيله ورجاله وشق ما بين تلك الجموع والعساكر وفعل في ذلك بزعامته وشهامته فعلة ما يقدر أحد أن يفعلها وذكر عنه أنه ترك بتلمسان امرأة له فعاد بسببها اليها واخرجها منها بنفسه على

بغلة وقيل انه أردفها وخرج بها .

ولما سمع الأمير أبو زكرياء عن خروجه من تلمسان عفا عن أهلها ودخلها واستولى عليها ودخلوا ثقاته وأرباب دولته اليها فأقام الأمير أبو زكرياء بمحلته على تلمسان على ما ذكر سبعة عشر يوماً الى أن رأى أبا يحيى يغمراسان مع جماعة كبيرة من اخوانه في أعلى الجبل فقال هؤلاء نسور على صخور ، ولما تفاوض مع أشياخ الموحدين بعد ذلك في شخص يوليه تلمسان ويتركه أميراً هناك الى أن وقع رأيه على تقديم صاحبها عليها ورجوعه مع اخوانه اليها ليكون سداً بين البلاد الأفريقية والغربية فولاه الأمير أبو زكرياء مدينة تلمسان وأنظارها وجميع أقطارها فعاد يغمراسان الى تلمسان مع بني عبد الوادي اخوانه وحكم تلك البلاد كلها وعرها وسهلها بعد معاهدة ومعاقدة مع الأمير أبي زكرياء وشروط مشروطة وربوط مربوطة وعاد الأمير أبو زكرياء الى بلاده مع عساكره وأجناده وحصل بمدينة تونس حضرته بعد ثلاثة أشهر أو نحوها في حركته الى حين أوبته فلما شاع خبر هذا الفتح بادروا ببيعتهم بعض بلاد الأندلس وسبتة ودخلوا في طاعته .

وفي سنة إحدى وأربعين وستماية قتل السعيد السيد عزوز زوج أخته عزونة وهي كانت سبباً في تجرعه كأس منونه فذكر عنها انها وجدت عنده براءة أوقفت عليها أخاها فشكرها على ذلك وأرضاها ، ولم يعلم أحد ما كان فيها غيرها وأخيها ، فلما وقف على البراءة المذكورة أمرها بردها الى الموضع الذي فيه اصابتها فما علم زوجها أنها رأتها ، ثم أمر بعد ذلك بثقافه بدار الامارة ، فلم يعلم أحد أي وقت لقي حمامه .

ومن أخبار عبد الله بن زكرياء الهزرجي
الثائر بسجلماسة

لما استبد فيها بأمره وانقاد له أهل تلك الجهات والانحاء ووصلته العرب من جهة الصحراء وفوض له الأمور في تلك الجهات الأمير أبو زكرياء الحفصي الهنتاتي وأطمعه في استمداده بأموال وزيادة ودعا له في الخطبة بسلجماسة المذكورة فلما شاعت في البلاد أخباره ونفاقه ، وصح عند السعيد والموحدين خلافه وشقاقه ، هجست نفوس بعض الموحدين للفرار اليه والقدوم عليه لأجل خوفهم الشديد من سطوة السعيد القريب منهم والبعيد ، فلما ظهر لأبي زيد عبد الرحمن بن أبي زكرياء الجدميوي ولأخيه أبي عثمان ما ظهر لهما من تغير السلطان السعيد عليهما أشار عليه أبو زيد أعني على أخيه ابن عثمان بالفرار من مراكش والانتقال ، وقال له أشياء كانت خفية عنه فما سمع له مقال فتوافق أبو زيد المذكور مع ابن واجاج[1] وأبي سعيد العود الرطب الهنتاتي على الفرار من مراكش إلى سجلماسة وتواعدوا[2] ليوم معلوم ووافق أبو زيد لقاعد[3] مع جماعة من الروم وكان السعيد شرع في الحركة الى بلاد الغرب برسم حرب بني مرين وكانت محلته على تانسيفت .

فلما خرج السعيد من مراكش إلى محلته برسم حركته قبض هنالك على سعيد ابن زكريا[4] واعتقله وإلى مدينة فاس حمله وفيها قتله بعد ما استصفى بمراكش جميع

---

(1) في ب وت وجاج .

(2) في ط وتواعد .

(3) (كذا) بالاصل ، ولعلها : لقاءه .

(4) في ط بن زكرياء .

أمواله وأحواله وفر أخوه أبو زيد مع أصحابه وأخذوا طريق درعة فخرج عليهم في طريقهم بني[5] يعز واكلوهم بتعجيل وسرعة ، ولم يتركوا لهم سبباً من الأسباب ، لا دواب[6] ولا سلاحاً ولا قماشاً إلا ما سترهم من الأثواب ثم فر ثلاثتهم من بني يعز ومعهم دابة واحدة يتداولونها وجماعة من النصارى فتوجهوا بالليل حيارى ، فضلوا الطريق وجهلوه ، وقعدوا ذات يوم في موضع وصلوا إليه فنزلوه ، فبيناهم كذلك ليس فيهم من كثرة الخوف والجزع من يفهم ولا يعقل ، إذ أقبلت عليهم جموع من عرب المعقل ، فبادر إليهم أبو زيد بن زكرياءبالسلام ، فردوا عليه ووقع بينهم الكلام ، فقال لهم يا معشر العرب قد بلغتم الأرب[7] احبسونا في عشرة آلاف دينار نؤدِّيها[8] ، وفي أقرب وقت إليكم نعدوها ، وكان غرض العرب في الروم يقتلونهم ولا يتركونهم ، حتى سمعوا كلام أبي زيد فلما ارتبط معهم واشترط لهم من المال ، فحملوهم إلى خيامهم[9] وبالغوا في إطعامهم وإكرامهم ، وقالوا بلسان حالهم : هذه غنيمة باردة ، وأمنية علينا واردة ، وكانوا وافقوهم على ثلاثة أيام عدداً . فلما نفذ الأمد ، وطلبوا أبا زيد فيما به وعد فقال لهم ايتوني بشقف أو عظم فاتوه بكتف بعير[10] كتب فيه لخازن المال بسجلماسة اليهودي المسمى بابن شلوخة أن يدفع لحامل الأحراف إليه عشرة آلاف دينار من الدنانير العشرية السجلماسية ساعة وقوفه عليها وكتب عبد الرحمن بن زكرياء . فلما وصل العربي بالبراءة إلى سجلماسة سأل عن اليهودي المذكور فعرف به فدفع له البراءة ، وقال له أعطني ما فيها قبل أن تتمها بالقراءة ، فقال له نعم أهلاً وسهلاً بكِ يا أخا العرب ، وتوجه معه إلى صاحب سجلماسة فعرفه بما طلب ، فمثل بين يديه ، وأخبره بما جاء فيه وإليه ، فقابله بالإكرام وأمر له بالطعام وقال لليهودي أحضر له ماله ، وبقي عبد الله بن زكرياء يسأله ويختبر مقاله ، إلى أن قال له أنا راجل[11] فلان بن فلان فقال له ما يأخذ المال إلا من يستحقه من أشياخ العربان ، فصرفه وراء شيوخه ، وقصده أن يحصلوا في فخوخه ، فانصرف العربي ووصلهم ،

---

(5) كذا بالاصل . ولعلها جماعة من بني يعز .
(6) في ب لادواب .
(7) في ط الادب .
(8) في ط : نودوها .
(9) في ب : قبائلهم .
(10) في ب : معز .
(11) في ط : راجل .

وعرفهم من القول بما عرفهم ، وقال لهم إن أردتم مالكم فتمشون إلى سجلماسة فيها تبلغون آمالكم ، فتوجهوا لسجلماسة قاصدين وعلى ابن زكرياءواردين ، فعند وصولهم إليه وإقبالهم عليه ، قال لهم اخذتم اخواننا وأجنادنا وكانوا قاصدين إلينا وافدين علينا ، لن تبرحوا من هنا حتى يصلوا إلينا فما كان إلا أيام[12] قلائل حتى وصلوا إليه فأكرمهم ورفع شأنهم ومكانهم حين وفدوا عليه ثم توجه منهم أبو سعيد إلى تونس فتلقاه أميرها أبو زكرياء بالبر والتكريم ، ونال عنده الخير العميم ، وبقي أبو زيد بسجلماسة إلى أن كان من أمره ما أذكره إن شاء الله تعالى .

ذكر حركة السعيد إلى سجلماسة وظفره بالثائر عليه فيها عبد الله بن زكرياءالهزرجي

وذلك أنه لما تفاقم حال ابن زكرياء المذكور في تلك الجهات ونفاقه على السعيد وشقاقه وأظهر الخلاف والعناد ، وكتب الكتائب وجند الأجناد ، تحرك السعيد إليه وخرج من مراكش باستعجال وسرعة ، وأخذ على طريق درعة ، بعدما قدم خيلاً ورجلاً لسد تلك المسالك ، لئلا يسلكها سالك ، ويتعرف ابن زكرياءبحركته ، فيأخذ في حال أهبته . وكان عبد الله بن وانودين أمر اخوانه بني يعز بقطع الطريق هنالك ، فما كان يجوزه إلا من رمى بنفسه في المهالك ، وقدم السعيد مخاطباته إلى أشياخ سجلماسة وظهيراً كريماً بالاعتناء التام والتكريم ، فأظهر جده ونصحه أبو زيد بن أبي زكرياءالجدميوي في تلك الأمور وحاول محاولة عظيمة مع قواد الروم في أمر ابن زكرياء المذكور . فاستعمل النصارى شراً مع بعض العرب بإزاء باب القصبة داخلاً وخارجاً ودخلوا في السلاح، وقام الضجيج في البلد والصياح، فعلم عبد الله المذكور أنها عليه اداره ، فخرج على باب الغدر من القصبة ودخلها أبو زيد الجدميوي مع أشياخ سجلماسة وشحنوها بالرماة والرجال والحماة وخاطب أبو زيد السعيد معلماً بالحال ، وأن الطالب للمحال، اضمحل حاله وحال، وتوغل في الأوحال، فشكر السعيد لأبي زيد خدمته ونصيحته ونال عنده خيراً عظيماً وعفا عنه فيما جرى قبل ذلك منه . وفي أثناء ذلك قبض على عبد الله بن زكرياءواستاقه بعض العرب إلى السعيد مصفداً في الحديد ، فمثل بين يديه وقرر[13] فعله عليه ، فتكلم فيه أشياخ الموحدين إلى أميرهم

(12) في الاصل : أياما .

(13) في ل : مرر .

وذكروه ما كان من وصية المهدي امامهم على سلفه لعبد المؤمن وبنيه ، وان دماءهم حرام عليهم ، ولو وصلوا بالضرر إليهم ، فما سمع من مقالهم الذي قالوه ، بل أمر عليه بالقتل فقتلوه ، وحمل رأسه فعلق على باب الكحول[14] ، وقرعت بسببه الطبول .

ورجع السعيد قبل وصوله إلى سجلماسة ودخل مراكش مع خاصته وترك أهل محتله يقفون على مهل أثره ولم يعلم أحد من الحضر رجوعه وصدره ، لأنه دخل قصره على غير أهبة للقائه ، ولا معرفة للناس بأنبائه ، وذلك في سنة اثنين وأربعين وستماية .

وفي سنة اثنين وأربعين وستماية توفي الأمير أبو معرف محمد ابن عبد الحق رحمه الله ؛ فكانت إمارته نحو ستة أعوام وتقدم بعده أخوه الأمير المعظم أبو يحيى بن عبد الحق فبايعه القبائل المرينية وبعض الزناتية وبنو ورا وغيرهم من القبائل الغربية انقادوا لأمره بالسمع والطاعة ، وبايعوه وشايعوه بالقدرة منهم والاستطاعة ، فعظم في الغرب وشاع فيه ذكره .

وفي هذه السنة تحرك السعيد من حضرة مراكش قاصداً البلاد الغربية ومتفقداً لأشغالها وأعمالها ومستعداً لحرب العساكر المرينية وقتالها ، فتمادى مشيه من حضرته على العادة المعهودة لأسلافه وأحلافه في مراحلها المعلومة ومنازلها إلى أن استقر بمدينة فاس فتلوم بها أياماً ، فعزل عن الأشغال أقواماً ، وولى آخرين على أشغالها ، ونظر في أمورها وأحوالها ، إلى أن تخلصت أشغاله بكمالها ، وقيل انه قتل سعيد بن زكرياء فيها. وكان هذا أبو عثمان أحد أشياخ الموحدين الكبراء في طبقات الوزراء وقيل إن قتله كان في السنة الفارطة قبل قتل عبد الله بن زكرياء ورحل من فاس بعساكره الموحدية إلى جهة المقرمدة[15] فنزل بمحلته في أنحائها متعرفاً لأحوال بني مرين ولأبنائها ، فكانت بينه وبين الأمير أبي يحيى بن عبد الحق مهادنة وأرسال في مصالح الأحوال ، فعاد من ذلك المنزل من غير قتال ، وقفل راحلاً إلى مراكش حرسها الله تعالى .

---

(14) في ب : المحلول .

(15) في ب وت و م : المقرمدية .

وفي هذه السنة أمر السعيد بسجن أبي محمد ابن وانودين أحد أشياخ الموحدين وعظمائها المتصرفين في الولايات الكبار والأعمال ، فأمر عليه واعتقل بازمور بأعظم اعتقال، وسجن معه أبو زكرياء بن مزاحم وأبو زكرياء بن عطوش فسجنوا بها وعمل عليهم عشرة من الرجال إلى أن كان من أمرهم ما أذكره في السنة الآتية إن شاء الله تعالى .

وفي سنة ثلاث وأربعين وستمائة

صالح الأمير أبو عبد الله محمد بن يوسف بن نصر ملك قشتالة أذفونش الأحـول أخزاه الله تعالى على بلاد المسلمين التي تحت طاعته وفي حزبه وجماعته مدة من عشرين سنة وأعطاهم في هذا السلم المذكور مدينة جيان وما والاها من الحصون والمعاقل ، وخرج منها كل مسلم عاقل ، وسكن فيها آخرون مع النصارى مدجنين ، وكان أهل إشبيلية لم يدخلوا في هذا السلم المعقود، وكان أيضاً أهل شريش لم يدخلوا في هذا الصلح المنعقد في هذا العام لكنهم صالحوهم على أنفسهم بمال معلوم في العام إلى أن أعطوهم القصبة وأشركوا[16] المدينة معهم ثم أخرجوهم منها ووقع النفاق بينهم على ما يأتي ذكره إن شاء الله تعالى .

وأما أهل شرق الأندلس فسالموهم بمال معلوم أيضاً وبعضهم تدجنوا وأسكنوا معهم الروم ، وكان أيضاً أهل مرسية لما خلعوا أبا بكر ابن هود خليفتهم وأخرجوه من مدينتهم بادر إلى الروم المجاورين إليها فأعطوه حصناً أسكنوه فيـه فكان أشد ضرراً من الروم على أهل مرسية حتى نزلوا بمحلتهم عليها إلى أن دخلوها على ما اختصره إن شاء الله عام اثنين وستين وستماية حين وقع النفاق بين المسلمين والنصارى في أواخر هذا الصلح المنعقد في هذه السنة .

ذكر أخبار ابن وانودين وما كان من أمره وحاله وفراره من السجن بأزمور إلى جباله

وذلك أن هذا أبا محمد ابن وانودين كان من كبار الموحدين ، وهو الذي قدم السعيد بساعد جده، وأقعده مقعد أبيه وجده، بعد ما جرد بعضهم سيفه من غمده،

---

(16) في ط : واشتركوا .

إلى أن صارت الخلافة إليه ، واجتمعت كلمة الموحدين عليه ، فبذل أيضاً جده في توفية خدمته وتبليغ نصيحته ،. فلما كان في السنة الفارطة سطا عليه السعيد بسطوته ، وامتحنه بأعظم محنته، وغربه في أزمور ليذوق مرارة(17) غربته، وفراق أهله وشيعته، فكان ذلك عنده أعظم نكاله ، ولم يعلم أحد من الوزراء والكبراء السبب في اعتقاله ، فسجنه ابن ماكسن بدويرة بازايه ، وجعل عليه عشرة من رجاله يحرسونه في ليله ونهاره ، ويتسمعون من أخباره ومقاله ، وكان عليه كبل ثقيل لا يقدر أن يتحرك من أجله لثقله فدبر وجه الحيلة في أمره وحاله ، ونظر في كيفية فراره إلى جباله ،فاستخلص لنفسه شخصاً من أولئك العشرة المعينين للحفز عليه في ذلك المكان ، وأفاض عليه وعليهم الانعام والإحسان ، حتى تمكن منهم غاية الإمكان، وكان معه بتلك الدويرة أبو زكرياء ابن مزاحم وأبو زكرياء ابن عطوش وكل واحد منهم في بيته .

وكان صاحب ابن وانودين الذي اتفق معه ليدبر الحيلة شخص يقال له ابن المعلمة يتصرف إليه . ثم ان ابن وانودين بلغه أن أبا الحسن يعلو يصل إلى أزمور فخاف أن يكون وصوله برسم قتله أو حمله فأعطى لابن المعلمة خمسين ديناراً عشرية فأعطى منها لصاحب له خمسها برسم أن ييسر له في الوادي لبطيرة(18) ينتظره بها واشترى ببعضها جلابية وكان عنده أخرى يلبسها وأشاع لأصحابه أن يعلو ما يصل إلا بسراح ابن وانودين وجعلهم يطلبون له البشارة فأعطاهم من الدنانير التي كانت عنده أكثرها ووعدهم بالإحسان إليهم والانعام عليهم إذا منَّ الله بسراحه(19) فاشتغلوا طول يومهم بالأكل والشرب واللهو والطرب إلى الليل ، وكانت تلك الليلة مظلمة ، والمتصرف فيها ابن المعلمة ، وكان مفتاح بيت ابن وانودين بيده وقد جعل فيه قلة خاوية وجلابية وعليه الجلابية الأخرى قد لبسها وهو يدخل ويخرج في التصرف مرة بعد أخرى .

فلما نفد لهم الزيت وغيره قال لهم: أنا اسوقه اليكم فدخل البيت والبس ابن وانودين الجلابية واعطاه القلة وقال له: اخرج سريعاً فخرج عليهم في الظلام كأنه صاحبهم وأكثرهم رقود فخرج ابن المعلمة في اثره بجلابيته وقلة اخرى وقال لهم كنت

---

(17) في ط مرار .

(18) لبطيرة : كلمة لم نهتد إلى معناها .

(19) في ط : سرحه .

نسيت آنية الزيت فرجعت برسمها وخرجت ودخلت عليكم وأنتم رقود كلكم فكنت مجرباً لكم وانصرف فلحق بابن وانودين فأطلعه اللبطيرة وأجاز به الوادي صاحبه المتقدم ذكره وستر الله ابن وانودين تلك الليلة وفي غدها ظهر امره، فخرج ابن عطوش من بيته فلم يجد أحداً ، فعلم ان ابن وانودين قد هرب وعدا ،.فصاح على الناس فاخبرهم بخبره وأنبههم[20] ما تعدى ، فكان ذلك سبباً في خروجه ونيله من أمره رشداً . وقيل أن بعض الصلحاء الاخيار نفع الله بهم أشاروا على ابن وانودين ان يتصدق بديته ألف دينار وحينئذ يشرع في الفرار .

ولما حصل ابن وانودين في ضفة الوادي مشى مع صاحبيه فكانا في بعض الطريق يرفعانه في اصلابهما من مكان الى مكان إلى ان أصبح الصباح وقد حصلوا في الامان ، ثم وصلوا إلى دواوير سفيان فسألوا عن كانون فقيل لهم بالله لو كان ابن وانودين فما كان يخرج الآن اليه فكيف أن يخرج اليكم أو يسلم عليكم لعلمهم بمحبته في ابن وانودين وصحبته فعرفوهم انه هو المذكور فخرج اليه كانون وسر به غاية السرور ، وكان بينهما[21] مودة عظيمة وصحبة قديمة ، فأكرمه واعطاه في الحين مايةً وخمسين من الفرسان متخيرة من عرب سفيان فتوجهوا معه الى مراكش فوصلها ليلاً وضرب برمحه في أحد ابوابها وعرف بنفسه للبواب الساكن على الباب وقال له قل للسلطان ابن العنبر ترى ابن وانودين وصل الى جبله وقر في أمنع مكان ، فيعمل ما شاءه من اعماله .

وحصل ابن وانودين مستقراً في جباله ، بعدما خطر على لجاغة وغيرها وعرفهم بأمره وحاله وانذر من في تلك الجهات والاوطية من اخوانه الهنتاتيين ورجاله ، وكان كانون قد اعطاه فرساً لكونه من عتاق خيله ، وسلاحاً له ولصاحبيه في جملة ما فعل من جميل فعله ، فصرف ابن وانودين ايضاً ارساله بخير جزيل وبفعل جميل ، ولما وصل أبو الحسن يعلو إلى أزمور ضرب أرقاب الرجال التسعة الحارسين له وعلق رؤوسهم على السور ، وأمر السعيد بسراح ابن عطوش وابن مزاحم واحسن لابن عطوش واستوزره بعد ذلك .

وفي أثناء ذلك بعث السعيد لابن وانودين عشرة من وجوه الموحدين مع خاصته

---

(20) في ط : وانهم .

(21) في ط : بينهم .

مزوار الطلبة أبي محمد العراقي فاجتمعوا معه بتامزاورت وبلغوا له ما امرهم به السعيد من القول الحسن وبزوال ما كان في خاطره عليه ونقلوا[22] ذلك كله إليه ، فشكر ابن وانودين على ذلك وطلب منه ان يكون سكناه هنالك، يعني في جباله، بأولاده وعياله فأسعفه السعيد في مطلبه ومذهبه وسكن بتيفنوت طول حياته الى حين مماته . ومن العجب العجيب والاتفاق الغريب أنه قتل السعيد وكانون وابن عطوش في يوم واحد وورخ موت ابن وانودين فوجد موته قبلهم بيوم واحد ، وكان غرض السعيد قتلهم الثلاثة فقتل السعيد وكان ثالثهم . وذكر بعض العارفين باخبار السعيد وامره ، مثل الشيخ الفقيه أبي عبد الله السرقسطي وغيره ، انه كان قد هم بقتل ابن وانودين مراراً فكان ينهاه عبد العزيز المنجم سراً وجهاراً ، فإنه كان ينظر في علمه ويقول ان يومك يكون بعد يومه ، فكان ذلك كذلك . وكان مولد الفقيه أبي عبد الله السرقسطي بتيفنوت في عام اربعة وثلاثين وستماية حين كان أبوه كاتباً ليحيى بن الناصر ثم بعد ذلك لابن وانودين .

اختصار الخبر عن حركة السعيد والموحدين الى قتال الأمير ابي يحيى وبني مرين

وذلك انه لما اتصل بأبي الحسن السعيد خلاف كانون عليه واتفاقه مع الأمير ابي يحيى ان يكون مسيرهما بكبيرهما برسم القتال إليه ، وان بني مرين حشدوا حشوداً كثيرة في الغرب برسم القتال معه والحرب فخرج السعيد من مدينة مراكش حضرته ، على ما عهد من هيئته[23] بعدما أعطى للموحدين بركاتهم ، وللمتجندين أعطياتهم على جري عادتهم ، وحشد حشوداً من العربان من بني جابر والخلط وغيرهم من الفرسان . ولما اجتمعت الحشود عليه من كل جهة ومكان ، تحرك بجيوشه وعساكره على العادة المعروفة لاسلافه الامراء من بني عبد المؤمن وترتيب الاشياخ والوزراء والسادات الكبراء ، وكان وزيراه يومئذ أبا[24] زكرياء ابن عطوش الكومي والسيد أبا[25] اسحق بن الأمير الطّاهر[26] أبي ابراهيم وترك أخاه أبا زيد بن أبي ابراهيم بمراكش نائباً

---

(22) في ط : وقالوا .

(23) في ط : هيبته .

(24) في ط : أبو .

(25) في ط : أبو .

(26) في ط : الظاهر .

عنه وعوضاً منه وكان أخوهما ثالثهما أبو حفص عمر الملقب حين خلافته المرتضى والياً على اغمات وحضر معه في هذه الحركة كتابه الجلة ابو الحسن الرعيني وابو زكريا الفازازي وأبو عبد الله التلمساني ، ومزوار الطلبة أبو محمد العراقي ، وأبو محمد القيجاطي .

وتمادى مشي الجميع الى تامسنا ، والأمير المعظم ابو يحيى هنالك بمقربة من واسنات، وبنو مرين اعزهم الله قد اجتمعت عليهم جموع من بني راشد الزناتيين والوراويين والسفيانيين ونزلوا بجموعهم في تلك الجهات والجنبات ، واستعدوا للقتال مع السعيد والنزال ، وتخيروا من فرسانهم الابطال من يتشوف في تلك النواحي والاقطار ، ويطوف[27] عليها لسماع[28] الاخبار. فلما وصل السعيد بمحلته الى تلك الجهات بقرب من واسنات ، بادر أكثر أهل العسكر للماء عند وصولهم لشرب دوابهم فمنعهم بنو مرين من شربه فتجالدوا بالسيوف والرماح عليه ، والامير ابو يحيى على ربوة ناشر اعلامه ، والقتال على الماء بين الفريقين امامه ، اذ دفع قايد الروم بجهله عليه ، واقبل جمعه الذميم إليه ، فأسرع بنو مرين اليهم ، وانقضوا عليهم ، فقتلوا أكثر جماعته الذميمة ، ورفعت على من خلص من القتال منهم الهزيمة ، واخذ بنو مرين علامهم[29] ، وفر قايدهم المهزوم الى مضارب السعيد فراراً أمامهم .

فلما اتصل الخبر بالسعيد أمر بحضور القريب والبعيد من الموحدين والعرب والاجناد ، وأمرهم بالتأهب للقتال والجلاد ، فقاتلوا قتالاً شديداً وصبر الفريقان للضرب والطعان ، إلى أن جن الليل وافترق الجمعان وبعد ذلك حصل بيد الموحدين عبد من عبيد بني مرين عارفاً بأمورهم وأحوالهم فأرادوا أن يقتلوه ، فقال لهم السعيد اسألوه عن أمرهم وحالهم واعتقلوه ، فإن صدق في مقاله والا فبعد ذلك تقتلوه ، فأحضر بين يدي السعيد ، فقال ان الأمير أبا يحيى اجتمع مع أبي حديد ، وخرجا عن المحلة بنحو ميلين اثنين فقيل انهما اتفقا على القتال في اليوم الفلاني خاصة ويفترقان فلما كان صبيحة اليوم المذكور أمر السعيد بركوب الناس مستعدين للقتال ، فركبوا وتأهبوا للجلاد معهم والنزال ، وأمرهم السعيد أن يدفعوا بجملتهم دفعة واحدة فدفعوا

(27) في ط : يتطوف .
(28) في ط : لسمع .
(29) في ب : أعلامهم .

فحاربهم بنو مرين ومن كان معهم ساعات من ذلك اليوم ثم رفعوا أيديهم عن القتال ووسعوا قاصدين إلى جهة الغرب ، وذلك خدعة من خدع الحرب ، فطمع فيهم السعيد لما وسعوا أمامه .

ورجع كانون الى جهة مراكش ناشراً اعلامه ، وتبعه عرب سفيان بجموعهم ، وتابعهم ومتبوعهم ، وتبع السعيد بني مرين وجدَّ في اتباعهم فما وقفوا إليه ولا عرجوا عليه إلى أن صح عنده أن كانون كر راجعاً من الميدان مع إخوانه عرب سفيان فخاف أن يدخل مراكش كما دخلتها الخلط قبل ذلك وان على ذلك كان اتفاقه مع الأمير أبي يحيى واجتماعه . فأمر أهل محلته باقلاعهم من هنالك ورحيله وجد في اتباع كانون يقفي اثره على طريق مراكش الى أن سمع خبره ورجع الى جهة دكالة فلقيه وكان من أمره ما أذكره ان شاء الله تعالى .

ذكر دخول كانون مدينة أزمور

وذلك انه لما كرَّ كانون بن جرمون راجعاً عن السعيد وتركه مستغرقاً في الحروب مع بني مرين التي ليس لهم فيها نظير ولا قريب قصد الى أزمور فأدخله علي بن يزيمر التامردي إليها فاستولى مع عربه عليها فاستطالت ايديهم فيها على بعض حضرها الغرباء بأنواع الظلم والاعتداء ، وأغرمهم أموالاً وأغرم اليهود الساكنين بها كذلك مالاً واستأصلتهم العرب استئصالاً ، وكان واليها حينئذ ابن معنصر الكومي تركه ابن ماكسن عوضاً منه ونائباً فيها عنه فقد كان توجه المذكور مع الشيخ ابي عبد الرحمن القاسم بن زكرياءالهنائي مع جملة من بني هناء للقاء السعيد بالتضييف له الى تامسنا ، ولو حضر القاسم بن زكرياء بازمور ، لما كان احد يجسر على شيء من تلك الامور، ولما اتصل بكانون خبر رجوع السعيد خرج من ازمور وقصد الى جهة جبل الحديد وأخذ على دكالة قاصداً اليه فسمع بخبره السعيد فانقض بعسكره عليه وكان السعيد قدر على ما ذكر أنه توافق مع ابن وانودين على دخول مراكش فأسرع في طلب كانون المذكور ، حتى قطع في وجهه حين خرج من أزمور وأوقع السيف على من كان معه من العرب المعتدين والمفسدين وقضى فيهم اربه ومطلبه وفر كانون مع من خلص من عربه الى الغرب .

ولما ظفر السعيد بالعرب المذكورين وقتلهم واستأصلهم أمر بحز رؤوسهم وبعث بها إلى مراكش فعلقوا بها على السور ، وتوجه بعسكره الى أزمور ، وقيل انه

كان حلف ان يدخلها بسيفه ، وكان أهلها في أمر عظيم من خوفه ، فخرج اليه الصلحاء نفع الله بهم واخبروه بأفعال العرب وأعمالهم ، وبمن كان السبب في دخولهم ، فوقع البحث في كل الجهات على علي بن يزيمر فقبض عليه ، دخل السعيد على يمينه الى أزمور ، وسيفه كما ذكر مشهور ، وعفا الله عن أهلها فيما سلف الا على الجاني ابن يزيمر لاجل ما اقترف ، فسيق الى مراكش مصفداً في الحديد ، فأمر فيها بقتله السعيد ، بعدما عاينه القريب والبعيد .

ولما وصل الامير ابو يحيى الى جهة مكناسة وتلك الجهات ، من مقابلة السعيد على واسنات ، وراياته منصورة وجيوشه موفورة ، قامت هوشة بمكناسة وقتل العامة واليها راجل السعيد ، وقال بعضهم هو مجراز بكلام بني مرين سموه بأسماء العبيد ، فخاف خاصتهم وخاطبوا الامير أبا يحيى ووافقوه بأموال معلومة ليحول بينهم وبينه ، وكان أهل الغرب مرتقبين لوصول الامير ابي زكريا من تونس وبايعه أهل سبتة وطنجة فاقتضى نظر قاضي مكناسة ابن عميرة أن يكتب اليه هذه البيعة .

ذكر نص البيعة المكناسية لامير الحضرة التونسية

الحمد لله العلي الكبير ، اللطيف الخبير ، خالق الخلق غنياً عن المثال والنظير ومقدر الاشياء على ما اقتضته حكمته من التدبير [يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ولا اضطرار في الأمر ولا اضطراب في التقدير][30] مكور الليل على النهار ومكور النهار على الليل فتاهت العقول وفني المقول في الشاهد[31] من أسباب التكوين والتكوير[32]، وصلى الله على سيدنا [ونبينا][33] محمد المبعوث بالكتاب المنير ، المنعوت بالبشير النذير ، طلع بدراً باهر الطالع هادياً بنوره الساطع والارجاء مدلهمة بالدياجير[34] ، والجاهلية في غلوائها احتقاب مذمة الجور واحتقار لذمة[35] المجير ، فثنى الخلق عن شرودهم وسفر بين العباد ومعبودهم فكان شرف السفارة

---

(30) ساقط من ط .

(31) في ط : المشاهد .

(32) في ط : والتكوير .

(33) ساقط من ط .

(34) في ط : الدياجير .

(35) في ط : أذمة .

على قدر شرف السفير ، ومكانه عند الله كما اختاره من الرفيق الاعلى حين أتته رسالة التخيير ، صلى الله عليه وعلى آله المنتخبين من معدن التقديس والتطهير ، وأصحابه المهاجرين الفائزين من ثواب صحبته بالمقام الشهير والحظ الجليل الخطير ، والانصار الذين قاموا بنصرته عند عدم النصير ، واستأثروا به حين رجع الناس بالشاء والبعير ، صلاة تتوالى عليه وعليهم ما لاح الصباح باهر التباشير، ونثرت الرياح جواهر الغصن المطير ، ورضي الله عن المهدي المعلوم مجدد رسم الهداية ، وقد كان على خطر من التغيير ، وعلى خيرة أوليائه وأصحابه الذين استعمرهم الله ارضه فأقاموا سنة الله وفرضه مختارين من أروم الكرم والخير ، متواصين في اظهار امر الله بغاية الجِدّ ، ونهاية التشمير[36] ونرفع الدعاء في مظان قبوله ، ومواقف الرجاء في وصوله ، لمولانا الامام الاعظم والملاذ الاعصم الامير الاجل الهمام الطاهر الاسعد الاشرف الاعلى المؤ يد المنصور ناصر الدين وكافل الاسلام والمسلمين أبو زكرياء بن الشيخ المعظم المقدس المجاهد الارضي ابي محمد عبد الواحد ابن أبي حفص ولولي عهده الكريم وسليل مجده الصميم الامير الاجل الهمام المؤ يد أبي يحيى .

أما بعد فأن الله سبحانه خلق الخلق بالفطر والصور متفاوتين ، وعلى عرض هذا الادنى متهافتين ، وجعل السنة التي أعلى أعلامها وبين اكرم خلقه عليه السلام أحكامها لأمر مصالحهم ناظمة ، وعلى أخذهم بالتناصف والتعاطف قائمة ، لا يصلح الناس فوضى ، ولا يترك الغواة إذا أهملهم الولاة تقحما في الباطل وخوضا ، ومن نعم الله على الرعية هداية رعاتها ، واستقامة قادتها إلى سبيل النجاة ودعاتها ، وان يكون أهل الفضل والورع بطانتهم ويتولى الاخيار والصلحاء إنجادهم وإعانتهم ، فبهذا تتم النعماء وتسكن الدهماء ، وتحقن في أهبها الدماء ، كما أن ضد هذه الحال مؤذن بخراب العمران وتسلط حزب الشيطان ، ومن المقول المقبول يزع الله بالسلطان ما لا يزع بالقرآن ، والمشاهد في هذه المدة كان قد أحال[37] أوجه الايام وأشمت [38]الكفر بأهل الاسلام ، وما زال عدو الدين يشفي منه صدره ، ويركب أهله بما يتعاظم أحدنا ذكره ، إلى أن انقضت بحمد الله مدة الاملاء ، وأذن كسوف الاحوال بالانجلاء ، فطلع الفجر

---

(36) زيادة من م .

(37) في الاصول : حال ، والتصويب منا .

(38) في ط : وأشمست ، والتصويب منا .

على الغرب[39] من ثنيته ، ورأى بعد الشك برهان برئه من شكيته ، ينادي به الجد الذي استقال من عثاره ، وخرج قمره من سراره ، قد أمكنت الفرصة من يبتدرها من بلادك ، واصطفت الحلبة فأعد لها المُقْرَبَ من جيادك ، وهذا موقف الخبرة قد بدا ، وإنما يفوز بالخصل السباق إلى المدى . ومكناسة هي التي ولجت من هذا الباب، واسرجت وليل الخطب مرخى الجلباب ، ورأت فرجة الفرصة فنصت ، وقيد اليها في يد القهر واتراها[40] من عوارض الدهر فاقصت ، وعلم اهلها أنه لا يصلح مع التقصير غيرة[41] ولا تقبل بعد الفتح هجرة، وأن دعوة الامارة التي تزف بنات الآمال بساحتها ، ويخف ثبات الجبال عند رجاحتها ، وهي الدعوة الواقعة[42] مواقع سحبها ، اللامعة [في مطالع شهبها المبني على ضرب العدا وقسمة البأس والندى حساب كتائبها وكتبها][43] هي مطمح الهمم ومرقاها، ومجتمع الاماني وملتقاها، والمفزع من متسلط تبصر البيض منه صيدها[44] فتود أن حدها[45] منه سقاها، وتصبو لأن تصيب[46] مصيبه بأسعدها كما كان مصيب سميها اشقاها، لا جرم أنهم خلعوا طاعته خلع النجاد ، وضربوا بينهم وبينها بأوثق الاسداد ، وولوا وجوههم قبلة ترضاها عبادة الوفود ووفادة العباد ، وأبصروا فجر الحقيقة وقد أذهب الله بخيط البياض منه خيط السواد، حيث مياه الكرم مفجرة ووجوه الامم معفرة وأعاظم الرجال امثلة مصغرة وضراغم الاغيال في حومة النزال حمر مستنفرة .

وعندما أخرج الحق[47] من تلك العهدة ، وتمخض الرأي عن صريح الزبدة ، اتفق منهم العلماء والصلحاء والأشياخ والأعيان النصحاء ووجوه القبائل والعشائر[48] وكافة طبقات الناس من البادي والحاضر ، على أن بايعوا الامام الهادي الامير الاجل

(39) في ت : وطلع الفرح على المغرب .
(40) في م : وأبراها .
(41) في ط : عذرة .
(42) في ط : اليانعة .
(43) زيادة يقتضيها السياق أخذناها من م .
(44) في ط : صرها .
(45) في ط : حرها .
(46) في ط : تصف .
(47) في م : الخلق .
(48) في ط : العساكر .

أبا زكريا بن الشيخ المجاهد أبي محمد عبد الواحد بن الشيخ المعظم أبي حفص بيعة رفعت بالعدل معالمها ، ووضعت على التقوى دعائمها[49] ، وصادف وقت الحاجة بيانها ، وأسس على تقوى من الله ورضوانٍ بنيانها ، ابيضت بها وجوه المنى وكم تغيرت ألوانها ، وطلعت لها شمس الهداية من مشرقها فنفع الناس ايمانها ، ورفع البؤس قرانها الاسعد وزمانها ، أعطوا بها صفقة ايمانهم مبادرين ، وشكروا الله على نعمة القيام بها وسيجزي الله الشاكرين ، على السمع والطاعة والارتباط بلزوم الجماعة والانقياد للاوامر والزواجر بمبلغ الوسع ومجهود الاستطاعة ، في اليسر والعسر والقل والكثر ، والسراء والضراء والشدة والرخاء ، وعلى ما بايع عليه سلف هذه الامة ائمتهم ، وأعطوا بها عن بصيرة ونقاء سريرة عهودهم واذمتهم ، النيات في الوفاء بها صادقة ، والالسنة بشكر الله عليها ناطقة ، والظواهر مع البواطن في التزام أحكامها والانقياد بزمامها متوافقة متطابقة ، طوقها لهم ألزم من طوّق الحمام ، وربقتها منعقدة في اعناقهم بربقة الاسلام ، وبعد أن أبرزوا عملها في أبهى صور الاعمال ، واستوفوا عقدها بشروط الصحة والكمال ، أتبعوها بأخرى تتنزل منها منزلة السورة من الفاتحة ، وتدل على روضها النضير بنواسمها النافحة ، وهي البيعة للأمير أبي يحيى ، وفرع الدوحة العليا ، ونظام أمر الدين والدنيا ، نصر الله أعلامه ، وأسعد أيامه ، وأمضى في عدوه الماضيين القاضيين رأيه وحسامه ، على سنة البيعة لولاة العهود ، وما مضى العمل عليه في مثلها من مهمات الامور ومبرمات العقود ، وكلتا البيعتين أمضوها على أساليبها المرعية ، وقوانينها الشرعية ، بنيات كريمة وغيوب سليمة [وبصائر وجدت منهم أمضى عزيمة][50] ، أشهدوا عليها الله الذي قوله بالوفاء مرتبط بايجابه ، وأمره الذي لا تقوم السماء والارض الا به وكفى بالله شهيدا وكفى بالله عليما ، ﴿ فمن نكث فانما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسنؤتيه أجرا عظيما﴾ وكتب الملأ المذكورون بكل ما ذكر فوق هذا بخطوطهم شاهدين على أنفسهم بنصه كله ، وعاقدين منه ما لا رخصة لاحد من الاحدين في حله ، وذلك في يوم الجمعة الموفي عشرين لربيع الأول من سنة ثلاثة واربعين وستمائة .

ولما اتصل خبر اهل مكناسة بالسعيد وبما فعلوه من قتل عامله ومبايعتهم

---

(49) في ط : قواعدها .

(50) ما بين معقوفتين غير موجود في ط .

لصاحب تونس شرع في الحركة اليهم بحنق عظيم ، ثم ان اهل مكناسة بعثوا صلحاءهم وعلماءهم راغبين في العفو الأتمّ مستغفرين الله ممّا[51] اقترفوا من الاثم ، مقسمين انهم لم يوافقوا قاضيهم على كتب تلك البيعة المذكورة، وخاطبه خاصتهم وعامتهم بمخاطبات يطلبون منه العفو والرضى ، ويجرون[52] السهو فيما سلف ومضى وكتبوا مخاطبتهم ببيعتهم من انشاء ابن عبدون فقرئت عليه فعفا عما ذكر من تلك الامور .

تجديد بيعة أهل مكناسة للسعيد من انشاء ابن عبدون الكاتب المجيد

الحمد لله مقدر الامور ، ومصرف المقدور ، ومخرج عباده من الظلمات الى النور ، عالم السرائر ، ومنور البصائر ، ورافع الدرجات وواضع الخطيات ، وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ، وسع كل عاص حلمه ، واحاط بكل شيء علمه ، ونفذ في كل موجود حكمه ، لا راد لما به حكم وامر ، ولا ناقض لما أحكم وأمرّ، قدر الأشياء واتقن الانشاء ، وآتى ملكه من شاء ، واسس بالامامة مباني الديانة ، ووصل بها للرعايا اسباب الرعاية ، وامد من اهله لوراثة مقامه الاسمى ، واختاره لامانته العظمى ، بالانجاد والاعانة .

ومنها : بعد تمام الدعاء والصلاة والرضى ، اللهم ارض عن خليفتك في عبادك ، المرتسم في ديوان اوليائك وعبادك ، الامام المؤيد ، والحسام المهند الاتقى الأطهر[53] الأعلى المعتضد بالله أمير المؤمنين ابو الحسن ابن سيدنا الخليفة الامام المأمون أمير المؤمنين ابن الخلفاء الراشدين رضى يبلغه امله في الدنيا والدين ، ويحكم لدولته السعيدة ومدته الحميدة بالتمهيد والتمكين ، ويجعل كلمته الباقية الى يوم الدين. اللهم كما انتقيته من اكرم جرثومة، وسددته لاقامة حدود الله المرسومة، فضاعف اللهم في قلوب رعاياه حبه ، وايد بالملائكة والروح عصابته وحزبه .

ومنها : ومن[54] شكرت في الخدمة آثاره ، فحقيق ان تغفر زلته وتمحى آثاره ، وأن العبيد من أهل مكناسة قد اجتمعوا ووقفوا موقف الاستكانة والمذلة وقرعوا سن

---

(51) في ط : فيما .

(52) في ط : ويجبرون .

(53) في ط : الأظهر .

(54) في ب وت : وقد .

الندم على ما صدر عنهم من زلة ، واستشعروا لباس الانابة ، وبادروا لهذه الدولة المعتصمية بالاجابة، واتفقوا جميعا على أنْ[55] جددوا بيعتهم لسيدنا ومولانا الخليفة الامام المعتضد بالله أمير المؤمنين ابي الحسن بن الأئمة الراشدين ، أعلى الله يده ، ونصره وأيده ، حسبما تقدم مستوعبة الشروط ، مستوفـاة العقود والربوط ، لم يستثنوا فيها فصلا ، ولا اغفلوا من عقودها فرعا ولا اصلا ، بنفوس مغتبطة ، ونيات على الوفاء بما التزموه من عقودها مرتبطة ، واشهدوا الله وملائكته على انفسهم بذلك وهم به عالمون ، ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون ، وقيدوا عليه شهادتهم في تاسع عشر شهر ذي الحجة من عام ثلاثة واربعين وستماية .

وفي هذه السنة بايع اهل اشبيلية واهل سبتة للامير ابي زكرياء وبعث ابن خلاص صاحب سبتة هدية اليه مع ولده في غراب جديد فغرق الغراب بها وبالولد ، ولم يخرج منه احد ، وفيه كان الكاتب ابو إسحاق بن سهل ، وبعث اهل اشبيلية بيعتهم مع بعض وزرائهم وكبرائهم وكان شيخها[56] اذ ذاك وصاحبها ابو عمرو ابن الجد .

وفي سنة اربع واربعين وستماية وصلت الاجفان التونسية الى سبتة واشبيلية فوصل واليا على سبتة ابن الشهيد الهنتاتي ومشغلا بها ابن أبي خالد البلنسي ، ووصل إلى اشبيلية أبو فارس برسم ان يسكن قصبتها وكتب الامير ابوزكرياء الى اهل اشبيلية هذه الرسالة التي اذكرها هنا مختصرة ، إن شاء الله تعالى :

فصل من ذلك بعد الدعاء والصدر

وإلى هذا وَالَى الله من صنعه الجميل ما يعم مرادكم ويعصم مرادكم فانه وفد وفدكم المبارك ببيعتكم التي اسست على الرضوان قواعدها، واجاب بكم الينا داعي السعادة فلم تبط في إنجاز الاجابة مواعدها، وتبوّأ[57] بكم الى تفيُّؤ[58] الوارف من ظلها فلم تنب عن الاصغاء مواقع ندائه، ويسرتكم اليسرى لاقتفاء سبلها وبشرى لمن[59]

---

(55) في طـ : ما .
(56) في ط : شيخهم .
(57) في ط : وثوب .
(58) في ط : تفني .
(59) في ط : بمن .

يسرته لاقتفائها واقتفارها ، وبشرته بحلول ممادح تلقته من رحبها وسبلها بسفور اهل السعادة واسفارها ، حيث النجاح للساعي اصدق رائد لا يكذب أهله ، والاسجاح على كل ملكة[60] عائد بما لم يعد فيه الى الحسن سهله ، والافصاح بما يجمجم عنه الانتصار[61] لدين الله وسنة نبيه عليه السلام ، والايضاح لمناهج الادراع[62] والاستشعار بكل عزيمة ماضية في إعلاء[63] شعار الاسلام .

ومنها : فقد مهدنا لكم من النظر الصالح أوثر[64] مهاد، تنامون ملء الجفون في ذرى الامن وناميا بامنياتكم في أكناف الامتداد ، وعقدنا لكم ذمة استنصار[65] أُمِرَّتْ بيد العون الرباني موامرها[66] ، وأُقِرَّتْ من الابرام والاقرار على ما تساوت فيه بواطنها وظواهرها ، فلتوقن تلك الجنبات المكلوءة ان سمعنا بحول الله نصير، ولتشعرن من العزمات المنصورة لأية حالة حالية تصير، لا يبرح يرأبُ ثَأى ثغوركم ويرتق فتقها ويلمّ[67] شعثها ويدأب على سلك أموركم اسهل مسالك الانتظام واوعثها ، ويدرأ عن اكنافكم كل حادثة ترغم فيها أنوف النوائب، ويحسم عنكم من كل خطب مباعثه باعجاز كتبه او ببدور كتائب ، فلتثقوا بنصر الله سبحانه وامداده والنظر الصالح الذي لا يغبكم[68] تعاقبه ، والاهتمام لا يبرح بمراصده الذي يراعي تعرف احوالكم ويراقبه، فتلكم القاعدة منا بالمحل الذي لم نخله من كل نظر جميل يوجدها اتراها[69] وانضوائها، ويسعدها بالطاعة التي سلكت فيها أوضح سبيل[70] وجرت من مناهج اخلاصها على سوائها، فشايعتم الحق وتابعتم انصاره، ودافعتم عن حوزه وبقيتم على الجادة مناره ، فالله سبحانه يعيننا واياكم على كل عمل يزلف لمراضيه، ويحزل

(60) في ط : مكلة .
(61) في ط : الاقتصار .
(62) في ط : المدراع .
(63) في ط : اعلا .
(64) في ب : أوثق .
(65) في ب : الانتصار .
(66) كلمة غير واضحة .
(67) في ط : ويلوم ، وهو تحريف .
(68) في ط : يقتبكم .
(69) في ب و ت : أترابها .
(70) في ط : أوضح المسالك سبيل .

الحظ من ثوابه ويوفره، ويشفع لكم مواثيق[71] الاسعاد بماضيه، وينصر حزبكم المفلح ويظفره، بمنه ويمنه والسلام عليكم. كتب في العاشر لمحرم من عام أربعة واربعين وستماية .

ولما قفل وفد اشبيلية من تونس بعدما بايعوا الامير ابا زكرياء وجه معهم مشتغلا وعاملا وبعض رجاله فوصلوا بجملة من القطائع الى مدينة اشبيلية فاشتغلوا بما لا يصلح من الفساد ، وجرت لهم فيها امور شنيعات لا يمكن ذكرها فاخرجهم اهل اشبيلية وقتلوا ابن الجد الذي كان سببا في وصولهم اليهم ، ولما قتل ابن الجد رحمه الله كان قتله سببا في نزول النصارى مدينة اشبيلية لأن اذفونش اللعين كان مصافيا لابن الجد ومصالحا له على المسلمين فلما مات فسد الصلح بينهم فحاصروهم .

وفي سنة خمس واربعين وستماية

احدقت النصارى بمدينة اشبيلية وحاصروهم برا وبحرا واذاقوا أهلها شراً وكان نزولهم عليها ووصول جموعهم إليها في شهر جمادي الأولى من العام المذكور ، فاشتد في هذه السنة حصارها وتملأت منهم انظارها وأقطارها، واخذوا خلقا كثيرا من اهلها واختطفوا في الاجفان بعض أطفالها وضيقوا بها غاية التضييق ، ورموا الحجارة بالمنجنيق ، وعدموا المرافق كلها قليلها وجليلها إلا ما كان في بعض ديار الاغنياء فانهم كانوا يحتاطون في تلك الامور مثل الفقيه القاضي ابن منظور فانه كان يطمع في اقلاع النصارى عن المدينة فيأمر الناس بالقتال والرمي بالنبال ، والناس مع ذلك حيارى ، يمشون سكارى وما هم بسكارى ، ومات بالجوع خلق كثير ، وعدمت الاطعمة من القمح والشعير ، واكل الناس الجلود ، وفنيت المقاتلة من العامة واصناف الجنود ، ولما انتهى باشبيلية شدة الحصار ، وعدموا الانصار من الامصار ، وصاروا قبضة في يد اعداء الله الكفار خاطبوا أمير المؤمنين المعتضد بالله السعيد وكافة المسلمين من أهل عدوة الغرب يستصرخونهم ويعرفونهم بما نالهم من الجهد العظيم والكرب الشديد الاليم ، ويرغبونهم في نصرتهم ، ويحضونهم على جهاد اعداء الله الكافرين، فمن ذلك قصيدة يرق لها القلب القاسي، وتأتمر لها الجبال الرواسي، وهي :

---

(71) في ت وم : مؤتنف .

ذكر القصيدة التي نظمها ابو موسى هرون بن هرون رحمه الله تعالى يرثي اهل اشبيلية ويصف ما نالها من الكرب الشداد ويحرض المسلمين فيها على الجهاد

يا حمص اقصدك المقدور حين رمى ... لم يرع فيك الردى إلّاً ولا ذمما
جرت عليك يد للدهر ظالمة ... لا يعدل الدهر في شيء اذا حكما
ما كنت أحسب أن الحادثات إذا ... همت بك السوء لا تلقي لك السلما[72]
ولا توهمت ذاك الحسن يطمسه ... ريب الزمان ويكسو نوره الظلما
قد كان حسنك فتان الشباب فمذ ... اصبت عوضت منه[73] القبح والهرما
يا جنة زحزحتنا عن زخارفها ... ذنوبنا فلزمنا البث والندما
يا سائلي عن مصاب المسلمين بها ... اصخ لتسمع امرا يورث الصمما
لما تفرقت الأهواء واضطرمت ... نار البغاة فقامت للردى علما
ونوزع الامر اهلوه وقام به ... من لم يجد قدما فيه ولا قدما
ثارت حفائظ للتثليث فابتدروا ... وايقظوا من سنات الغفلة الهمما
وأنشروا ميت الاحقاد بينهمُ ... ولو اطاقوا لعمري انشروا الرمما
ويمموا حمص في جمع يضيق به ... ذرع الفضاء فسوى الوهد والاكما
فالبحر بالمنشآت ارتج من ذعر ... والبر بالمرهفات ارتاع[74] فاكتتما
واستوطنوا القبر[75] في الوادي وقام لهم ... جسر من الفلك لا تشكو به السأما
فكم اسارى غدت في القيد موثقة ... تشكو من الذل اقداما لها حطما
وكم صريع رضيع ظل مختطفا ... عن امه فهو بالامواج قد فطما
يدعو الوليد أباه وهو في شغل ... عن الجواب بدمع سال وانسجما
فكم ترى والها فيهم ووالهة ... لا يرجع الطرف ان حاورته الكلما
لهفي عليهم وما لهفي بمغنية ... عمن تبدل بعد النعمة النقما
إنا الى الله قد حل المصاب وما ... من حيلة في الذي أمضى وما حتما
في كل حين ترى صرعى مجدلة ... وآخرين أسارى خطبهم عظما

---

(72) هذا البيت غير موجود في ب وت وم .

(73) في الاصول : منها .

(74) في ط : الماع .

(75) في ط : القبر .

وقـد احـاطت بنـا الاعـداء فـاغـرة
أفـواهـهـا تبتغي أرواحنـا طعـمـا
عـادت سـوارا على سـور المـدينـة قـد
أفتـاه عضّـاً وكم من معصم قصـمـا
عفت يـد الشرك مـا شاد الخـلايف من
قصـر ومن مصنـع ضخم حكى إرمـا
من يبصـر المنـزل الاعلى يقـل ولهـا :
مـا خط قط لـذا اس ولا رسـمـا
أين القبـاب التي كـانت محجبـة
فيهـا الملوك تفيض الجود والكـرمـا
تمضي العزائم والاقدار[76] تسعـدها[77]
فـلا تـرد لـهـا الايـام معـتـزمـا
وكم بـطريـانـة أبقى الاسى نـدبـا[78]
في القلب يبعث وجـدا كـلمـا كلمـا
يـا حسنهـا غـرفاً[79] للحسن جـامعـة
مـا طاب قط لهـا الا النعيم حـمى[80]
كـانت معـاهـد لـلذات نعـمـرهـا
فـلا نـزاع اذا مـا هـاجـم هـجـمـا
ايـام غـض التصـافي محض طـاعتهـا
ولا تـبـالـي اذا مـا لائـم لـومـا
كم ليلة قصـرتهـا القـاصـرات فمـا
تـزال تـستـنـطق الاوتـار والـنـغـمـا
سقى عشيتهـا الغـرا التي انصـرمت
صـوب الغمـام اذا مـا أسبـل الـديمـا
عـيش تقـضـى وابـقـى بـعـده اسـفـا
كـأن مـا كـان منه في الكرى حلمـا
يا عين فابكي على حمى وقولي لها
منـك البكـاء اذا مـا تـرسليـه دمـا
فقـد اصيبت بهـا الـدنيـا وسـاكنهـا
حقـا واصبـح ركن الـدين قـد ثلمـا
سـطا بهـا الكفـر اذ قـل النصيـر بهـا
فمن معـز بهـا الاسـلام مـا سلمـا ؟
يـا أهل وادي الحمـا بـالعـدوة انتعشـوا
هـذا الـذمـاء فقـد اشفى بـه سقمـا
مـاذا يـبـطئكـم عنـا وحـق لـكـم[81]
ان تبصـروا دار قـوم اصبحـت رممـا
وحـقنـا واجـب فـالـدين يـجـمـعنـا
مـع الجـوار الـذي مـا زال منتـظمـا
وقـد دعـونـا فـأسمعنـا على كـثب
بمـا قـد استنفـد القـرطـاس والقلمـا
فـزعم اذفـونش أن[82] الحصـر يهلكهـا
والله يـكـذب مـا روى ومـا زعـمـا
ان تـنصـرونـا فـانـا منشـدون لـه
لا يـرغـم الله إلا أنـف مـن رغـمـا

(76) في ب : الايام .
(77) في ت : تسعفها .
(78) في ب : ندما .
(79) في الاصول : عرف ، والتصويب منا .
(80) في ط : جما ، وفي ب : عما . والتصويب منا .
(81) في ط : وحولكم .
(82) في ط : بأن ، والوزن لا يستقيم معها .

فتح الجزيرة مما سن اولكم ... فلتثبتوا للهدى في أرضنا قدما
كونوا[83] لها خلفا منهم وان نفُذُوا[84] ... ولا تبالوا اطال العهد ام قدما
لا عذر في تركها للكفر مسلمة ... ان الزمان وأنتم فيه ما عقما
كم صارخ فزع كان الصراخ له ... قرع الظنابيب حتى لم يدع الما
هل من مجيب لداعينا فيركبنا ... فلك[85] النجاة فبحر الحادثات طما
لم يبق فينا سوى الانفاس خافتة ... فكلنا في وجود يشبه العدما
كم نستغيث ولا إنسان[86] يصرخنا ... ونستطب لداء طال، ما حسما
وقد شقينا واشقينا وحق لنا ... بما به الكفر والاسلام قد نعما
يا حسرة الدين والدنيا لاندلس ... مهما استطال بها التثليث واجترما
لم يبق للحق في شتى مطالعها ... نور فاصبح ليل الكفر مرتكما
يا نفس لا تذهبي للحادثات أسىً ... وجاملي الصبر وارضي بالذي قسما
وان دهتك من الاحداث داهية ... دهياء[87] تترك وجه الدهر مبتسما
فالمفزع الله والذخر العتاد أميـ ... ـر المؤمنين وحسبي في النجاة هما
نعم الملاذ ونعم الذخر قد ضمنت ... نجاة من بهما في الحادث اعتصما
من مبلغ امره اني شقيت بما ... لقيت من جور دهر طال ما ظلما
خليفة الله لولا النأي عنك لما ... خُذِلْتُ في رد دهرٍ جار إذ[88] حكما
وكنتَ كاشف كرب لا انكشاف له ... وقمت دوني من الأعداء منتقما
وكنت تشفي صدور الأولياء فلا ... عدو آلا بما يرضيه قد وقما
اقسمت في حلفي بالله مجتهدا ... وحسب ذي حلف برٌّ بما قسما
ما السعد واليمن الا خادمان لكم ... ان العظيم لمن فات[89] الورى عظما
فلا مبالاة بالايام إن مطلت ... فربما ضن قطر السحب ثم هما
فاصدع بحقك ان الدهر ممتثل ... فرب دهر عبوس عاد مبتسما

---

(83) في ط : كانوا .

(84) في ط : نفذوا .

(85) في ط : ملك .

(86) في ط : انصار .

(87) في ط : دهماء .

(88) في ط : أجزت في الدهر جار اذ .

(89) في ط : مات .

وفي سنة ست وأربعين وستماية

كان استيلاء الطاغية أذفونش اللعين على مدينة اشبيلية أعادها الله للاسلام ، بعد ما جرعوا أهلها كأس الحمام ، من كثرة المجاعة وعدم الطعام ، فكل منهم في بحر المنايا غاص وعام ، مما حل بهم من الأوجال والآلام ، ما يطول في وصفه وشرحه الكلام ، ويستنفد فيه القراطيس والأقلام ، فسلموا لهم في المدينة وخرج منها الخاص من أهلها والعام ، وكان ذلك في يوم سبع وعشرين من شهر رمضان المعظم من هذا العام ، وكان نزول الطاغية عليها في شهر جمادى الأولى من العام الفارط فكان حصارهم لها مدة من عام وخمسة أشهر بعد ما كانوا يجدونها[90] قبل ذلك بعام ، وقد كانوا خاطبوا السعيد بمخاطبات ومكاتبات يحن لسماعها الجماد ، يستصرخونه ويرغبونه في سبيل الجهاد ، وبينوا له أحوالهم ، وتوغلهم في أوحالهم[91] ، وكان عازماً بزعمه على الحركة الى البلاد الشرقية التونسية والأفريقية ، التي لم يبلغ فيها ما أمله من الأمنية ، فما عرج على كتبهم ولا خطابهم . ولا رثى لحالهم ولما نابهم وأصابهم ، بل اشتغل بحركته المذكورة ، وعساكره الموفورة ، التي كانت غير مؤ يدة ولا منصورة .

اختصار الخبر عن حركة السعيد من حضرته المراكشية الى جهة البلاد التلمسانية وكيفية مقتله بها وأكل محلته هنالك ونهبها

وذلك أن هذا الأمير المعتضد أبا الحسن السعيد لم يزل يحدث نفسه من حين ولى الخلافة بعد أخيه أبي محمد الرشيد بالحركة الى البلاد الأفريقية وكان أميرها أبو زكرياء من حين دخوله تلمسان طمع في دخوله إلى البلاد الغربية ، ومن الاتفاق في الأمور أن وصلت هدية الى الرشيد من صاحب صقلية النادون ، فوجده ارساله قد مات وولي الخلافة السعيد فدفعوها اليه ووجه له السعيد أيضاً هدية من عنده مع ارساله وطلب منه الاعانة بالأجفان الصقلية اذا وصل إلى البلاد الأفريقية فكان ذلك مطلبه ومذهبه . وكذلك كان الأمير أبو زكرياء يؤ مل[92] الوصول الى البلاد الغربية في مذاهبه

(90) في ت : يجرونها .

(91) في ت : أوجالهم .

(92) في ط : يتأمل .

ومقاصده فماتا جميعاً في سنة واحدة ولم يقض الله لهما أرباً ، فيما أمّلا[93] وطلبا ، فاستعد السعيد لهذه الحركة استعداداً عظيماً لم يعهد له قبله فيما تحرك من الحركات مثله فقد كان يستعد لها من حين ولي الامارة الى هذه السنة المؤرخة فتحرك لها فما وصلها ولا رآها وكان له منجم اسمه عزوز بن عمرون نهاه عن هذه الحركة يوم خروجه عن حضرته اليها .

وكان خروجه في غرة شهر ذي حجة من سنة خمسة الفارطة عن السنة المؤرخة إلى تانسيفت فنزل بمحلته عليها وكان منجمه يرى في علمه ونجمه حمرات كثيرة تدل على وقيعة كبيرة وكان السعيد وصله كانون المكنى بأبي حديد فنزل بمحلة عرب سفيان على تانسيفت في جملة من كان بها من العربان ، وكان السعيد وكانون يقال لهما الأحمران لكونهما كانا في لونهما أسمرين[94] ، وكان بينهما فيما تقدم منازعة حين خالف كانون المذكور عليه ثم عاد في هذه السنة اليه ، واجتمع مع السعيد بمحلته بتانسيفت من العرب عساكر وأمداد[95] ، ومن قبائل الموحدين والمتجندين وعبيد المخزن آلافاً مؤلفة وأعداداً[96] فأمر ببناء المصلى وعيد هنالك عيد الأضحى ، وكثرت الدماء في المحلة من الضحايا فقال المنجم[97] هذه الحمرة التي ظهرت لك والمنايا فانبسطت آماله وانشرحت للحركة حاله وتحرك هناك في الخامس عشر من شهر ذي الحجة من عام خمسة وأربعين وستماية ، وفي تلك المحلة في أيام العيد توفي أبو زكرياء الفازازي رحمه الله تعالى ، وتوجه السعيد بمحلاته وطبوله وعلاماته الى أن استقر برباط تازا ومنها عقد صلحه مع الأمير المعظم أبي يحيى ابن عبد الحق على أن يعطيه حظه حصة من بني مرين يخدمون معه الى بلاد أفريقية ويستعين بهم على أعدائه ويستأمن ممن ترك منهم وراءه فوقع الاصفاق والاتفاق أن يتوجه معه جماعة بني عسكر ؛ فتركوا المراهين منهم بتازا وساروا معه في جملة العسكر فلما وصل السعيد الى مقربة من تلمسان بعث الى أبي يحيى يغمراسان يأمره بلقائه ،

---

(93) في ط : تأملا .

(94) في ط : أسمران .

(95) في ط : وأمداداً .

(96) في ط : آلافاً مؤلفة واعداداً .

(97) في ط : للمنجم .

وبالدخول تحت لوائه ، فوصله جوابه يعرفه أنه تحت طاعته ، وداخل[98] في جملة جماعته ، غير أنه لا يصل اليه ولا يلقاه ، لأجل ما كان معه من بني مرين أعدائه لكن يبعث معه جملة وافرة من بني عبد الوادي اخوانه وجماعته يكونون تحت رايته ، فأقسم السعيد أنه إن لم يصل بنفسه اليه وإلا نزل بمحلته عليه ، فوقعت بينهما منازعة في ذلك ومنافرة ، انجلت عن مقاتلة ومحاصرة ، فرحل السعيد بمحلته الى جهته فوسع أمامه ، حين تحقق إلمامه ، وطلع الى تامجردت جبله بعساكره وأهله فلما حصل أبو يحيى يغمراسان بجباله ، مع خيله ورجاله ، بعث الى السعيد أيضا ارساله يطلب منه المهادنة والمصالحة فامتنع وقال ليس الا المكافحة ، فتبعه بالطلوع الى تلك الجبال ، التي ليست في مسالكها للحرب في الحيل مجال ، وقد ضبط تلك المضايق من بني عبد الوادي أنجاد الرجال ، فاجتمع أشياخ الخلط في نحو ألف فارس مدرعين ، وتأخروا عن الطلوع معه ممتنعين ومجتمعين ، وقد كانوا أشاروا عليه بالرجوع حين رام الطلوع ، وقال له وزيره ابن عطوش مثل ذلك حين عاين تلك المضايق في المسالك ومنعه فما امتنع ، وبادر لنفسه بالطلوع وما ارتجع ، وقال له حين صده عن ذلك بكلامه : ادخل هنا ان انت ظننت وأشار له باحدى أكمامه ، فترجّل[99] الوزير وتقدم أمامه وقد جرد حسامه ، فرمى بنفسه في المهالك ، في مواضع لا يقدر أن يسلكها سالك ، والسعيد يقفو أثره غاضباً ، على بغلة راكباً ، وأمامه علمه[100] المنصور ، بل كان في الحين مهزوم ومكسور ، وذلك انه لما حصل في تلك المضايق وبين تلك الجبال الشواهق ، أقبلت عليه خيل ورجال وانصبت عليه كالصواعق ، فأول من مات الوزير المذكور وصاحب العلم[101] ، وقتل السعيد في الحين وجرع كأس الحمام ، وانهزم جيشه أعظم انهزام ، وتفرقت عساكره كل التفريق ، وتمزقت أحواله كل التمزيق واستولى الخلط على محلته ، في أول الحال مع بني عسكر ونهبوا فيها جملة أموال وذلك قبل أن يصل بنو عبد الوادي إليها ، وقيل انهم كانوا توافقوا مع الخلط عليها وباعوها منهم هكذا ذكر عنهم ، وتفرق أهل محلة السعيد أيدي سبا ، وقد أكلتهم الأرض نهباً ولا عاد منهم أحد الا منهوباً مفلولاً

---

(98) في ط : وداخلا .

(99) في ط : فارتجل .

(100) في ط : علامة .

(101) في ط : العلام .

مسلوباً ، وكان مقتل السعيد يوم الثلاثاء منسلخ صفر من عام ستة وأربعين ، عفا الله عنهم أجمعين . وقتل كانون كان قبل السعيد بيوم وقيل في يوم واحد وتقدم على العرب أخوه يعقوب[102] بن جرمون وبقي في خدمة المرتضى أياماً عديدة في المنزلة الرفيعة فدخل بينه وبين ابن أخيه محمد بن كانون وشاة حتى قتله ، وحكايته طويلة فطلب أخواه مسعود وعلي أخذ ثأره بالغرب فلم يمكنهما ذلك حتى احتالا عليه فرحلوا كلهم يوماً من الأيام واشتغل الناس بأخذ المنازل فطلبا أخذ الثار ذلك اليوم لامكانه اياهما لتفرق الناس للصيد والنزول فانصرفا عن عمهما وبعدا عنه حتى رأياه نزل على بئر ليتوضأ فجاءاه مسرعين مع عبد لهما يسمى مساعداً وبعض رجاله فتقدم مسعود أمامه لأنه كان يأمن غائلته ويعرف حلمه وصفحه وكان قد خلع خفه الواحد ليتوضأ فحمل عليه وقال ثأرك اليوم يا محمد فقتلوه ودخلوا[103] دخيلاً على العرب الا يعينوا عليهم فغفروهم ومنعوهم وتقدم بعد ذلك ولده عبد الرحمن فلم ينجح ثم بعد ذلك عمه عبيد الله ثم مسعود وذلك على ما يأتي ذكره ان شاء الله تعالى .

ذكر خلافة أبي حفص المرتضى رحمه الله

نسبه : هو أبو حفص عمر بن السيد أبي ابراهيم بن أمير المؤمنين أبي يعقوب يوسف بن الخليفة عبد المؤمن .

مدة خلافته : ثمان عشرة سنة وتسعة أشهر واثنان وعشرون يوماً أولها يوم الأربعاء غرة ربيع الأول من عام ستة وأربعين ، وآخرها يوم السبت الثاني والعشرين محرم سنة خمس وستين وقتل بدكالة في الثاني والعشرين من شهر صفر بعده .

وزراؤه : منهم أبو محمد بن يونس وأبو عبد الله محمد بن عبد الله الجنفيسي وأبو زيد ابن عزوز وأخوه السيد أبو إسحاق وأبو زيد بن بخيت التينملي وأبو زيد بن عبد الكريم الجدميوي وأبو يوسف بن تيجا[104] الجدميوي وأبو موسى بن عزوز الهنتاتي وأبو زيد بن يعلو الكومي وأبو محمد بن اصناج ولم يجتمعوا في وقت واحد الا بعضهم ، واختار لهم لمصاهرته أبا سعيد بن تيجا وأبا موسى بن عزوز فأعطاهم بناته .

---

(102) في ب و ت : أخاه كانون .

(103) عبارة بالعامية المغربية بمعنى أخذ العهد .

(104) في ب : يتجا .

كتابه : أبو الحسن الرعيني وأبو عبد الله التلمساني وغيرهما .

وحجابه :[105] القائد سعد وغيره .

صفته : على ما أخبر به أبو عمران بن تيجا وغيره معتدل القامة ساطع البياض عالي الأنف أسيل الخد ألحى أشيب لا يخضب بحناء ولا غيره .

ذكر السبب في بيعته

لما تحرك الخليفة السعيد الى تلمسان ترك أبا حفص المرتضى والياً على مدينة سلا بعد ما كان على أغمات والياً وترك أخاه السيد أبا زيد والياً على مدينة مراكش وكان أبو حفص رحمه الله شديد الورع قليل الطمع فلما وصل الخبر الى مراكش بوفاة السعيد وهزيمة عساكره وطائفته ونهب محلته وتفرق الموحدين اجتمع السيد أبو زيد المذكور مع من حضر من أشياخ الموحدين يتفاوضون في مصالح الأمور فأراد بعضهم أن يقدم السيد أبا زيد المذكور فامتنع وتورع وأراد آخرون تقديم غيره من بني عبد المؤمن وكان في الوقت جماعة منهم حاضرون فقام أبو عبد الله محمد بن عبد الله الجنفيسي قائماً وقال: غفلتم يا جماعة الموحدين عن السيد التقي العالم الزكي أبي حفص في رغبتكم له في الولاية عليكم أمر الخلافة وتبايعونه لطهارته[106] وصيانته فضج الموحدون بالتلبية سمعاً وطاعة مغتبطين مرتبطين طائعين مسرعين فبايع من حضر من الموحدين لأخيه أبي زيد نيابة عن أخيه وتوقف عبد الله بن يونس[107] عن بيعته حتى ذكر شروطاً أوجبت بعد ذلك قتله وكتبت البيعة لأبي حفص المرتضى بمراكش وتوجه بها الحاكم ابن اصلماط فلقى السيد أبا حفص مقبلاً من سلا مع بعض الموحدين وأشياخ العرب بتامسنا فعند وصوله اليه بادر لمبايعته وأخرج بيعة أهل مراكش فضربت خباء لاجتماع الناس على قراءة البيعة المذكورة اذ لم يكن هناك غيرها فقرئت البيعة وانتشر أمرها وبايعه من حضر ، فمن حينه نهى وأمر ، ثم وصله ابن يونس في الطريق ولم يكن عالماً بمقاله فقدمه وزيراً وقدم يعقوب بن كانون على عرب بني جابر وأقر[108] له ببلاده على بغيته ومراده، وكان يعقوب بن جرمون قد تقدم على

(105) في ط : وحجبه .

(106) في ط : لطاهرته .

(107) في ط : يوسف .

(108) في م : وأمر .

عرب سفيان كما تقدم . ثم استمر مشيه على هيئة المملكة بوزراء وأمراء من العرب وبعض المتجندين والقرابة والخدام غير أنه لم يكن بطبول ولا أعلام فلما قرب من حضرة مراكش خرج اليه أشياخ الموحدين بجهازات جميلة وكسى حفيلة وخيول وطبول وبنود وجنود فنزل بموضعه ببحيرة الطلبة ورياضها المختص به على القدم وجميع الخدمة واقفين على قدم حتى استوفت أغراضه ودخل حضرته في أجمل زي وأبهى حلى . ولما استقر المرتضى رحمه الله بحضرته واجتمع الناس على طاعته ، والدخول في جماعته ، نظر أشغاله وتفقد أحواله وعماله فأمر بالقبض على بعض خدام السعيد فقبض على حاجبه القائد أبي المسك وعلى خاصته أبي زيد ابن البقة ووقع البحث على غيرهما فعثر على من قدر الله عليه بمحنتة ونكبته وسجن الحرة عزونة أخت السعيد وأغرمها مالاً كثيراً وحلياً خطيراً ، ثم وصل السيد أبو إسحاق أخو المرتضى من سجلماسة إلى مراكش إذ كان استقراره بها من بعد الهزيمة ، بعدما رأى في طريقه مشقة عظيمة ، فأكرمه أخوه بما يجب له من الاكرام ، وعظمه غاية الاعظام ، فقد كان أكبر سناً منه فوجب له عليه التكريم والتعظيم ، وقدمه على الوزارة والنظر في الأمور وأمر قارىء[109] العشر أن يقرأ يوم .الجمعة ، ﴿رب اشرح لي صدري ويسر لي أمري﴾ الى قوله : ﴿واجعل لي وزيراً من أهلي هرون أخي . أشدد به أزري وأشركه في أمري﴾ . وكان ابن يونس وزيره حينئذ قد قال لأشياخ الموحدين حين شرعوا في كتب البيعة تشترطوا على أبي حفص ألا يقدم أخاه وزيراً فكان ذلك وغيره سبباً من أسباب تأخير ابن يونس عن الوزارة ، وخروجه من دار الامارة ، بحسن[110] التدبير والادارة ، الى حين مقتله على ما أذكره في موضع خبره وأمره ان شاء الله تعالى .

وفي هذه السنة وهي سنة ست وأربعين وستمائة استولى الأمير المعظم أبو يحيى ابن عبد الحق على رباط تازا

وهو أول فتح بني عبد الحق أعزهم الله تعالى في تملك قواعد البلدان وكان فتحها واستيلاء بني مرين عليها ودخولهم اليها على يد الأمير المعظم الأعلى أبي يوسف بن عبد الحق فهو الذي تعاهد مع أهلها وأعطاهم الأمن والأمان ، وأفاض عليهم العدل والاحسان ، وذلك لما توجه السعيد بعساكره الى جهة مدينة تلمسان

---

(109) في ط : القاري .

(110) في ط : بأحسن .

واستعمل صلحاً مع الأمير أبي يحيى ابن عبد الحق وطلب منه الاعانة بحصة من بني مرين يتوجهون معه تحت لوائه ليستعين بهم على أعدائهم بني عبد الوادي وأعدائه فتوجه معه جماعة بني عسكر على ما ذكر وتركوا برباط تازا مراهنهم وبقي بنو عبد الحق مستوطنين بجهة بلاد الريف حيث كانت مواضعهم ومساكنهم فاستامن منهم السعيد وانصرف راحلاً إلى تلمسان فكان من أمره مع يغمراسان بن زيان ، ما تقدم ذكره وكان ، فلما وصل الى الأمير أبي يحيى الخبر بهلاكه وقتله وتبدد أحواله وخيله ورجله ، وأكل العرب وغيرهم لمحلته وتبديد أموال أهله وجملته وتفريقهم وتمزيقهم حين وقعت الهزيمة عليهم رحل مع اخوانه بني عبد الحق وبني مرين ومن انضاف إليهم وتعرض لهم بجموعه على شوارع الطريق ، وقد فرق الله عسكر السعيد أي تفريق ، فكانت لهم الغنيمة الباردة العظيمة الفائدة ، من غير طعن ولا ضرب ، ولا قتال ولا حرب ، وهكذا جرت العوائد ، مصائب قوم عند قوم فوائد ، فكانوا يصلون إلى أيديهم قوماً بعد قوم ويوماً بعد يوم ، فيأخذون أثقالهم ودوابهم ، ويستأصلون أموالهم[111] وأسبابهم ، حتى امتلأت أيديهم من أموال الموحدين وأجنادهم ، ووصل بنو عسكر أيضاً الى بلادهم ، فاجتمع بنو مرين على أميرهم كبيرهم وتوجهوا الى تازا حيث كان مراهن أولاد بني عسكر وغيرهم فنزلوا بجموعهم عليها وأرسلوا ارسالهم اليها ، وكان واليها السيد أبو علي أخو السيد أبي العلا ادريس الشهير بأبي دبوس فبعث اليهم الرجل الصالح أبا علي سالماً ، وطلب الاجتماع بأبي يوسف وكان به وبمذهبه عالماً ، فاجتمع مع الأمير المعظم أبي يوسف وتعاهد معه على أنه لا سبيل أن يتعرض مريني لتازي بيمضرة فارتهن الأمير أبو يوسف له في ذلك ووافق عليه فكان كذلك ، وعاد إلى البلد أبو علي سالم وخرج السيد منها باهله سالم ، ودخل بنو مرين وبنو عبد الحق اليه ، وبايعوا للأمير أبي يحيى واجتمعوا عليه ، وطاع له قبائل تلك الجهات كلها ، وبايعه أهل ربطها وحلها ، ويسر الله فتح تازا لبني عبد الحق الكرام ، على يد الأمير أبي يوسف بتيسير مرام ، فهو كان قفل البلاد الغربية فصار مفتاحها وأول فتوحها لهذه الدولة المرينية .

ولما استقر الأمير أبو يحيى برباط تازا قرع الطبول ونشر البنود وسارت اليه من كل الجهات أشياخ القبائل بالوفود والورود ، وقد كان قبل ذلك أميراً على بني مرين

---

(111) في ط : أحوالهم .

منذ أربعة أعوام ، دون طبول ولا أعلام ، وكان قد وعد أخاه أبا يوسف أن يعطيه ذلك البلد ، فلما يسر الله فتحه على يديه انجز له فيما وعد ، فكان رباط تازا بلد أبي يوسف من حينئذ وقد كان أعطى للصالح عهده فسلم له فيها أخوه أبو يحيى وتحرك بعساكره الى مدينة فاس فنزلها وبعد مدة أشهر من فتح تازا استولى عليها ودخلها في الثامن عشر لربيع الآخر من السنة وطاعت له جميع أقطارها وأنظارها وقدم عليها المسعود بن خربش الحشمي فاستوطن قصبتها مع جملته وأهله الى أن كان ما كان فيها من حتفه وقتله على ما اختصره في السنة الآتية ان شاء الله تعالى .

اختصار الخبر عن وفاة أبي زكرياء الحفصي

وذلك أنه لما اتصل به عن أبي الحسن السعيد أنه يروم الحركة إليه والقدوم بعساكره اليه قاصداً من حضرته المراكشية الى تلك البلاد الأفريقية خرج من حضرته التونسية في سنة سبع وأربعين قاصداً أيضاً إلى جهة البلاد الغربية فقد كان يحدث نفسه بالورود عليها والقدوم بعساكره إليها فتوجه بالعزم والحزم من حضرته في غاية الاستعداد بعدما استوفت عليه الحشود من العرب والامداد ، وتآلفت عليه آلافٌ[112] من الأعداد ، فقد كانت عرب تلك البلاد ، .انقادت له أعظم انقياد ، فتمادى مشيه بتلك العرب المتكاثرة الى جهة بلد العناب وبها أصابه من الألم ما أصابه ، ونابه منه ما نابه ، وكان ولده الكبير أبو يحيى ، قد عدم ببجاية المحيا ، فزاد تألمه منه وارتيابه ، واضرب عن الحركة كل الاضراب ، وصرف أكثر ما كان معه من الاعراب ، وبقي بألمه بتلك الجهات ، متلوماً في السكون والحركات ، وللظفر أوقات وللقدر تصرفات ، الى أن قدر الله عليه بعد ذلك بالممات ، وذلك بعد نحو أربعة أشهر من موت ابنه ابي يحيى الفقيد ، فخيب الله ظنه وظن السعيد ، وماتا في طريقهما ولم يبلغا أربهما ، وقيل انه كان بين موت السعيد وموت الأمير أبي زكرياء سنة واحدة وأشهر .

ومن الاتفاق الغريب أنه لما مات ببلد العناب كان أولاده بتونس فأمر أن ينادى على قبره الصلاة على الغريب ، وكان لهذا الأمير أبي زكرياء من الأولاد الذكور أربعة منهم كبيرهم أبو يحيى الذي كان ولي عهده توفي في حياته كما تقدم ذكره فلم يتمالك

---

(112) في ط : آلافاً .

صبراً من بعده على فقده ، فقد كان قدر أنه وارث فخاره ومجده ، وكان ولده أبو عبد الله وأخوه أبو حفص بتونس وأمهما[113] رومية وأخوهما أبو إسحاق معهما وأمه عربية رياحية فلم يحضر أحد منهم وفاته ، بل كل منهم غاب عند وفاته . وكان حين توفى ولده أبو يحيى حزن عليه حزناً شديداً ، وجزع على فقده الى أن صار في أثره فقيداً ، فوجه له هذا الرثاء فيه :

الا جازع يبكي لفقد حبيبه | فاني لعمري قد أضرَّ بيَ الثكل
لقد كان لي مال وأهل فقدتهم | فأصبحت لا مالٌ لدي ولا أهل
فلهفي لقوم[114] فرق الدهر شملهم | الا راحةٌ ترجى فينتظم الشمل
سأبكي وأبكي حسرة لفراقهم | بكاء قريح لا يمل ولا يسل
وإني لأرضى بالقضاء وحكمه | وأعلم ربي أنه حاكم عدل

وكان الأمير أبو زكرياء رحمه الله ملكاً مطاعاً وبطلاً شجاعاً مشاركاً في العلم للعلماء ، ومدبراً للأمور بالمعرفة والدهاء ، مطابقاً للأدباء النبهاء ، فذاً في البلاغة والبراعة بارع النظم والنثر حسن الألفاظ في البلغاء، كثير الأدب واللغة في طبقات الشعراء، وقد أثبت هذه الرسالة النبوية ليستدل بها على فضله وبديع قوله رحمه الله تعالى :

ذكر الرسالة النبوية التي أنشأها الأمير أبو زكرياء إلى الحضرة الشريفة حضرة خير البرية ﷺ

إلى سيد المرسلين ، وسند المبسلين، الرؤوف بالمؤمنين ، الموصول من سببه متين ، الآخذ بالحجز عن النار ، الباني من طرق النجاة أرفع منار ، العاقب الحاشر الطاوي الناشر ، الكالىء الحافظ المعرض عليه الجنة والنار في عرض الحائط ، المنعوت في التورية والإنجيل ، المحمية ذراه بحجارة من سجيل ، مطلع المعجزات غرا سامية كبنات بَخْر ، سيد ولد آدم ولا فخر ، الذي نبذ الدنيا وفلَّ شباها ، وشد على بطنه الحجر ولو شاء لتبعه ذهبا وفضة أخشباها[115] ، فصال بالشرك وسطا ،

---

(113) كذا في م . وفي ط وأمهم ، وهو تحريف .

(114) في ط : ليوم .

(115) الأخشب : الجبل ، ومنه أخشبا مكة أي جبلاها .

وجعلنا الله به أمة وسطا ، ذو الخلق العظيم ، والقلب السليم ، الملقّى القرآن من لدن حكيم عليم ، أشد من رأمى ، وأسد الناس مراما ، وأصدع عند الألباس، وأشجع على حين يحمر البأس ، وأثبت والمقام دحض والموت عض ، وأبر من حملته ناقة ، وأوفى من شد إليه راحل شناقه ، أروى من عجفاء أم معبد ، وترك نور الإسلام وهو معبَّد، فجدع من خدع، وحن إليه الجذع وختم به الأزلم الجدع، والنبي لا كذب، محمد بن عبد الله بن عبد المطلب: من عبد الله يحيى بن عبد الواحد بن عمر، سلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته وعلى أنور وأكرم(116) جليلين في المحيا والممات، الثاني في الغار ، المتعلق من التصديق بالسبب المغار(117) الثابت حين جف الريق والوريق، الهاجد وكل نائم وناظره أريق، والمونس في العريش يوم النفخ المهتدي(118) حين جار هادي الطريق، فجعلها بين الفجر والبجر(119) الذي عرض عليه الإسلام فلم يتلعثم ، وسفر عنه وجه الإيمان فلم يتنقب بعد ولا تلثم ، وشرى الباقي فشار معسوله ، وانفق ماله فلم يترك لنفسه إلا الله ورسوله ، والمغضي عن العاجلة وقد حدقت إليه كل التحديق ، أبو بكر عتيق الصديق ، وعلى محلي الأعصار ومجلي الإعصار ، وممصر الأمصار ، مبيد العدو الأزرق بمزعفري الأسود ، وبني الأصفر بالكتائب السود ، منشي عمائم الفتوح كأيمن الصوب على قطن ، الذي لم ير من يفري ـ فريه حتى ضرب الناس بعطن، الساعي بغيرته على منازل عترته والليل بهيم ، المنزل القرآن بموافقته في أسرى بدر والحجاب وتحريم الخمر ومقام إبراهيم، جعل الحق على لسانه، ونور المُحَدَّثين في جنانه وإنسانه، فرد(120) عن منافقة الخطاب وأصفى خطاب الإيمان وأطاب ، أبو حفص الفاروق عمر بن الخطاب :

سلام كعرف الروض باكره القطر ... إذا ما خطا قطر تداوله قطر
تحية من قد قسم(121) الشوق قلبه ... ففي طيبة شطر وفي تونس شطر
أطارت قسيّ الشوق(122) أفلاذ صدره ... فلله ما أودى به ذلك الأطر

---

(116) في ط : أنور سمات نسمات وأكرم .

(117) السبب : الحبل ، والمغار : المحكم الفتل .

(118) في ط : السهر المهتدي .

(119) في ط : العجز ؛ وفيه إشارة لقول أبي بكر : يا هادي الطريق جرت ، إنما هو الفجر أو البجر (بالجيم والحاء) .

(120) في ط : فرح .

(121) في ط : ثلم .

(122) في ط : الشرق .

كـان النـوى لم تُضْمِ غيـر جـوانحي فـوا كبـدي لو در لي ذلـك الشـطر
وكـل يـزف الـمـجـد آمـالـه لـه ومـا لـي مـنـه لا عـروس ولا عـطر
أيقعـدني يـا خـاتم الـرسـل خـاتم من البـعـد في قـلبي لـه أبـدا فـطر
ومن لا يـذد بـالعـزم يقصـر بعجـزه لقـد بسق العيـدان واتضـع الفـطر[123]
ولـو كـنت مـختـاراً لـنفسـي مـنـيـة لمـا ناب في تـرحاليَ الـطرس والسطر
جيـادي جيـادي لا تصـومي على عمىً أمـالـك إهـلال بـطـيـبـة أو فـطر
فكم ضـامـر نـادى الغـرابُ غـرابـه إلا في سبيـل الله مـا غيـر الـخـطر
وكم سـارب يسـري لهـا سرّ بـالـه مخـافة أن يضحي وسـربـالـه فـطر[124]

تحية تواق وإن انهضته آماله بهظته أعماله ، أو دعاه باله عداه وباله ، أو جدت عقايقه ، جذت حقايقه ، فهو ذو فؤاد منخوب من الحوب، مقفر من العزائم إقفار ملحوب . ، نادم نادب على الأحيان، مومل خلوصه تخلص ثابت، من لحيان، فلو سما به العزم عن وهدة الأزم[125] لأظلته التوبة ونضحت ثوبه[126] ، ولو أعرقت مطاياه ، لما أغرقت خطاياه ، فالراغب إذا طام ضام الاهضام ، وشمخ عنه أنف الطنف وثبت له أيد الريد . وبعد أيها المبعوث للعباد من أنفسهم، الأولى بالمؤمنين من أنفسهم، فإنا ندعوك لتدفع عنا عايد هذا الخوض ، إذ كنت فرطنا على الحوض[127] ، ونستشفع بك يوم المساق والكشف عن الساق، وستجير بك من مناقشة الحساب يوم لا أنساب ، وندرأ بك هول العرض ، يوم تبدل الأرض غير الأرض ، أناديك بشرف ناديك وأياديك لعل سجلاً من أياديك :

مـعفـر لـيث الـغيـث وهـو مـزعفـر مـقلم أظـفـار الشـكـوك الخـوالـج
ومـنـقـذ مـن قـد أوبـقـتـه ذنـوبـه ولـو كـان يمليهن من رمـل عـالـج
إلى كم يصيـب السهـم غيـر مسـدد فيـا ليت شعـري هـل يرى غيـر زالـج
أأظـمـأ والـسـقـيـا إلـيـك دوالـح تـطلع عـن غـر سـوار دوالـج

(123) في م : القطر .
(124) في م : قطر .
(125) في ط : الالزم .
(126) في ط : نوبة .
(127) فرطنا : سابقنا .

وإن أحق الناس بالفوز قاصد ... يعالج أسباب السرى فوق عالج[128]
فإن خلجت تلك الذنوب فلا تنم ... لعلك تنجو قبل إظلال خالج
وتنسبني الأيام للعجز[129] جهدها ... وما لي من ذنب سوى ذنب فالج
ألا عزمة يا خاتم الرسل تنبري ... ألا نهضة تعتادني دون خالج
ومن بعد ذاك العد يصدا محليا ... فألقي بدلو بين دال ودالج
لقد خاب قدحا من تأخر قدحه ... فمن لي بقدحٍ يا محمد فالج

على أني يا رسول الله لم آل جهداً في طاعتك التي بها نهتدي، ولا أغفلت فريضة جهاد أروح عليه واغتدي، فمتى أحسست نباة بادرت إليها، فقد قلت صلى الله عليك جهاد يوم خير من الدنيا وما عليها، فإن تأخرت عن زيارتك إقداماً فقد أعملت في عضد سنتك أقداماً، وإن لم انتبه، فإني يقظ لما جئت أنت به، وإن لم أرد من تلك الشريعة، فإني بان دفاعي عن شريعتك بكل ذريعة، في بلاد تجادع[130] أفاعيها، ويصم واعيها، ولا يجاب إلى شقاق واختلاق داعيها، فقد صارت المواسط[131] تغور فتنتها وتنجد، وتركع فيها المواضي إلى محاريب السنابك وتسجد، وقد أوى كثير من بلاد الإسلام إلى ذمة الصليب، ولم يأخذ أهلها من الرأي والأناة بنصيب، فوقفت دونها لا رغبة عن مهوى أفْئدةِ العباد، ورعيت هدونها لا تثاقلا عن بيت سواء العاكف فيه والباد، ورابطت أطرافها لا عجزاً عن البيت العتيق، وبقيت أخبط في غسقها وإني لفقير إلى نور ذلك الفتيق، مدخراً ذلك تجارة لن تبور، مجيرة بك عند الله تعالى يوم يدعى الثبور، ويبعث من في القبور، ثم السلام عليك وعلى آلك وحالي جلالك ورحمة الله تعالى وبركاته.

ولما توفي الأمير أبو زكريا ببلد العناب وبويع ولده أبو عبد الله بتونس وتسمى بأمير المؤمنين المستنصر بالله، وكان والده يدعى بالأمير وعمر أبي عبد الله إذ ذاك أحد وعشرون سنة أو نحوها وتوفي سنة أربع وسبعين فكانت ولايته في خلافته سبعاً وعشرون سنة أو نحوها، وبعد سنة وأشهر من ولايته أراد بعض الموحدين أن يخلعوه

---

(128) عالج: موضع كثير الرمل.
(129) في م: للفخر.
(130) في ط: تجاع.
(131) في ت: المواسطة.
(132) في ط: القناة بصليب.

واجتمعوا عَلى عمه أبيَ عبد الله اللحياني وبايعوه بيعة الخاصة وهو قاعد في داره والموحدون معه يتفاوضون في أمره . إلى أن دخل على المستنصر علجه ظافر الكبير وأعلمه بما وقع في دار عمه من التدبير فأمره باستدعاء بعض الفرسان وحضر ابن أبي الحسين خاصته وأبي جميل زيان بن مردنيش وغيره من رؤساء الأندلسيين واجتمع من كان في القصبة من أهل الدخلة وخرجوا على باب الغدر ودخلوا على باب البلد الموالي لدار أبي عبد الله المذكور فدخلوا عليه بعد ما كاّن الأمر عندهم في المبايعة مشهوراً مذكوراً فقبضوا عليه وقتلوه وقتلوا كل من كان حضر في تلك القضية واجتمعت من رؤوس تلك الجماعة سبع وأربعون رأساً وحملت إلى القصبة وعاين المستنصر رأس عمه فتأسف عليه حين سيق إليه ثم أمر بدفنه وبتعليق تلك الرؤوس على السور فتمهدت مملكته واستقامت له الأمور .

وفي سنة سبع وأربعين وستماية ، كان استيلاء الأمير أبي يحيى ابن عبد الحق على حضرة فاس بعد حصارها مدة من السنة الفارطة وقتالها وكان لما ملكها وملك أقطار سهالها وجبالها ولى عليها المسعود[133] بن خربش الحشمي فاستوطن قصبتها بأهله وماله وولده وعياله ، وكان الأمير أبو يحيى ترك معه فيها زوجه التي إسمها فتوحة بحشمها وخدمها وكان بفاس حينئذ نحو مايتي فارس من النصارى الاجناد كانوا قد وصلوا إليها في العام الفارط حين موت السعيد ، فأقاموا بها مع قائدهم المسمى شديد ، إلى أن انحصروا فيها وقتل منهم في القتال أعداد ، وكان أهل فاس استعد بهم لقتال بني مرين أعزهم الله أي إستعداد .

فلما دخل فاس الأمير أبو يحيى حبسهم وحبسمهم من أجناده وتركهم فيها مع المسعود بن خربش فجاهر القائد المذكور عليه بخلافه وعناده وذلك أن هذا القائد استدل على المسعود وصار يدخل الدار عليه ويتردد كل حين إليه فاجتمع جماعة من أشياخ البلد معه ووافقوه على أن يقتله فدخل عليه يوماً فغدره وقتله فلما اجتمعت على قتله أشياخ فاس أهل ربطه وحله خاطبوا المرتضى مجددين بيعتهم إليه ، ومعتمدين في نصرتهم على الله تعالى وعليه ، فخاطبهم وجاوبهم ووعدهم باطلاله عليهم ووصوله

---

(133) في ط : السعود .

برايته المنصورة [وعساكره الموفورة][134] إليهم وقال لهم كونوا مرتقبين لرايتنا ومتأهبين لاطلالنا فما أطل عليهم ولا وصل إليهم ، فبقوا في انتظاره نحو تسعة أشهر من حين قتل المسعود ينتظرون منه الورود ، حتى ضاقت أحوالهم بالجوع والحصار واشتد أمرهم بطول الاضرار ، فطلبوا العفو من الأمير أبي يحيى فعفا عن عامتهم ، وأغرم أموالاً لخاصتهم ، وذلك أنه لما دخل إلى مدينة فاس جمع من أهلها ثلاث ماية رجل من وجوه الناس وأغرمهم في الخطأ ثلاثمائة ألف دينار عشرية وضرب أرقاب ستة أناس من أعيان أشياخهم وقيل إن ذلك كان في يوم الأحد السادس عشر لرجب من سنة سبع وأربعين وستماية المذكورة .

وفي هذه السنة وهي سنة سبع وأربعين قام بسبتة الفقيه العالم أبو القاسم بن الفقيه العالم أبي القاسم العزفي رحمه الله تعالى ليلة سبع وعشرين لرمضان

وكان المعين له في ذلك والمدبر له في الأمر هنالك القائد للبحر حينئذ وهو أبو العباس الرنداحي فقد كان بينهما مودة عظيمة ، وصحبة حديثة لا قديمة ، وذلك من حين ولي قيادة البحر ، وكان له فيه على الغزاة النهي والأمر ، وذلك أنه لما خالفت سبتة على السعيد ، ووصلها من تونس ابن أبي خالد وابن الشهيد فاستوطنا قصبتها وأضر ابن أبي خالد بأهلها وكان بينه وبين القائد المذكور تغير في بعض الأمور ، وكان بسبتة قائد الفحص شقاف[135] المشهور ، الذي كان السبب مع قضاء الله تعالى في دخول النصارى مدينة إشبيلية ووصل منها إلى سبتة مع جملة من الأجناد والقواد فلما توفي الأمير أبوزكرياء في السنة الفارطة وتوفي السعيد وضاق أهل سبتة غاية التضييق من جور ابن أبي خالد وتغافل ابن الشهيد ، اجتمع القائد الرنداحي مع الفقيه المعظم أبي القاسم العزفي فحرضه على القيام بأمر بلده وأن يعينه على ذلك بعده وعدده والتزم له أن يقوم بالأمر حتى يخلصه فوافقه الفقيه على ذلك وأمره بانجازه في الليلة المذكورة فاستعمل القائد المذكور طعاماً في داره وعرضه على بعض عمائر الأجفان من الرؤساء والقواد والرماة والغزاة واستدعاهم لمنزله كأنها وليمة مشهورة ولا علم أحد منهم بسره ولا كيفية أمره فاشتغل الناس عنده بالسماع والشطح في الدار ، وهو مع ذلك لا يستقر

---

(134) ساقط من ط .

(135) في ت : مثقاف .

واجتمعوا على عمه أبيٍ عبد الله اللحياني وبايعوه بيعة الخاصة وهو قاعد في داره والموحدون معه يتفاوضون في أمره . إلى أن دخل على المستنصر علجه ظافر الكبير وأعلمه بما وقع في دار عمه من التدبير فأمره باستدعاء بعض الفرسان وحضر ابن أبي الحسين خاصته وأبي جميل زيان بن مردنيش وغيره من رؤساء الأندلسيين واجتمع من كان في القصبة من أهل الدخلة وخرجوا على باب الغدر ودخلوا على باب البلد الموالي لدار أبي عبد الله المذكور فدخلوا عليه بعد ما كانّ الأمر عندهم في المبايعة مشهوراً مذكوراً فقبضوا عليه وقتلوه وقتلوا كل من كان حضر في تلك القضية واجتمعت من رؤوس تلك الجماعة سبع وأربعون رأساً وحملت إلى القصبة وعاين المستنصر رأس عمه فتأسف عليه حين سيق إليه ثم أمر بدفنه وبتعليق تلك الرؤوس على السور فتمهدت مملكته واستقامت له الأمور .

وفي سنة سبع وأربعين وستماية ، كان استيلاء الأمير أبي يحيى ابن عبد الحق على حضرة فاس بعد حصارها مدة من السنة الفارطة وقتالها وكان لما ملكها وملك أقطار سهالها وجبالها ولى عليها المسعود[133] بن خربش الحشمي فاستوطن قصبتها بأهله وماله وولده وعياله ، وكان الأمير أبو يحيى ترك معه فيها زوجه التي إسمها فتوحة بحشمها وخدمها وكان بفاس حينئذ نحو مايتي فارس من النصارى الاجناد كانوا قد وصلوا إليها في العام الفارط حين موت السعيد ، فأقاموا بها مع قائدهم المسمى شديد ، إلى أن انحصروا فيها وقتل منهم في القتال أعداد ، وكان أهل فاس استعد بهم لقتال بني مرين أعزهم الله أي إستعداد .

فلما دخل فاس الأمير أبو يحيى حبسهم وحسمهم من أجناده وتركهم فيها مع المسعود بن خربش فجاهر القائد المذكور عليه بخلافه وعناده وذلك أن هذا القائد استدل على المسعود وصار يدخل الدار عليه ويتردد كل حين إليه فاجتمع جماعة من أشياخ البلد معه ووافقوه على أن يقتله فدخل عليه يوماً فغدره وقتله فلما اجتمعت على قتله أشياخ فاس أهل ربطه وحله خاطبوا المرتضى مجددين بيعتهم إليه ، ومعتمدين في نصرتهم على الله تعالى وعليه، فخاطبهم وجاوبهم ووعدهم باطلاله عليهم ووصوله

(133) في ط : السعود .

برايته المنصورة [وعساكره الموفورة][134] إليهم وقال لهم كونوا مرتقبين لرايتنا ومتأهبين لاطلالنا فما أطل عليهم ولا وصل إليهم ، فبقوا في انتظاره نحو تسعة أشهر من حين قتل المسعود ينتظرون منه الورود ، حتى ضاقت أحوالهم بالجوع والحصار واشتد أمرهم بطول الاضرار ، فطلبوا العفو من الأمير أبي يحيى فعفا عن عامتهم ، وأغرم أموالاً لخاصتهم ، وذلك أنه لما دخل إلى مدينة فاس جمع من أهلها ثلاث مابة رجل من وجوه الناس وأغرمهم في الخطأ ثلاثمائة ألف دينار عشرية وضرب أرقاب ستة أناس من أعيان أشياخهم وقيل إن ذلك كان في يوم الأحد السادس عشر لرجب من سنة سبع وأربعين وستماية المذكورة .

وفي هذه السنة وهي سنة سبع وأربعين قام بسبتة الفقيه العالم أبو القاسم بن الفقيه العالم أبي القاسم العزفي رحمه الله تعالى ليلة سبع وعشرين لرمضان

وكان المعين له في ذلك والمدبر له في الأمر هنالك القائد للبحر حينئذ وهو أبو العباس الرنداحي فقد كان بينهما مودة عظيمة ، وصحبة حديثة لا قديمة ، وذلك من حين ولي قيادة البحر ، وكان له فيه على الغزاة النهي والأمر ، وذلك أنه لما خالفت سبتة على السعيد ، ووصلها من تونس ابن أبي خالد وابن الشهيد فاستوطنا قصبتها وأضر ابن أبي خالد بأهلها وكان بينه وبين القائد المذكور تغير في بعض الأمور ، وكان بسبتة قائد الفحص شقاف[135] المشهور ، الذي كان السبب مع قضاء الله تعالى في دخول النصارى مدينة إشبيلية ووصل منها إلى سبتة مع جملة من الأجناد والقواد فلما توفي الأمير أبوزكرياء في السنة الفارطة وتوفي السعيد وضاق أهل سبتة غاية التضييق من جور ابن أبي خالد وتغافل ابن الشهيد ، اجتمع القائد الرنداحي مع الفقيه المعظم أبي القاسم العزفي فحرضه على القيام بأمر بلده وأن يعينه على ذلك بعده وعدده والتزم له أن يقوم بالأمر حتى يخلصه فوافقه الفقيه على ذلك وأمره بانجازه في الليلة المذكورة فاستعمل القائد المذكور طعاماً في داره وعرضه على بعض عمائر الأجفان من الرؤساء والقواد والرماة والغزاة واستدعاهم لمنزله كأنها وليمة مشهورة ولا علم أحد منهم بسره ولا كيفية أمره فاشتغل الناس عنده بالسماع والشطح في الدار ، وهو مع ذلك لا يستقر

(134) ساقط من ط .

(135) في ت : مثقاف .

له معهم قرار ، وهو قد بعث زعماء رجاله بالليل بعدما كشف لهم عن الحال وأمرهم أن يسوقوا له رأس شقاف وفلان وفلان فأول ابتدائهم بشقاف المذكور فإنهم صاحوا في داره وقالوا له الوالي بعثنا إليك يريد أن يجتمع بك في بعض الأمور فلما خرج إليهم قطعوا رأسه وقتلوا كل من أمرهم بقتله ورجعوا إليه آخر الليل فأعلموه بأنهم امتثلوا كل ما أمرهم به . فاجتمع مع الفقيه المعظم وعرفه بكل ما كان من الأمر وما فعله من قتل القواد والأجناد والأندلسيين وغيرهم وأنه أمر رجاله بقتلهم فأخرجوهم بالحيلة من ديارهم وقتلوهم فلما أعلمه بذلك تركه قاعداً في اسطوانه بشمعة أمامه مع بعض إخوانه وخدامه وهو يتطاير خوفاً مما يتوقع من عاقبة الأمر ورجع القائد إلى داره والعمائر بها يشطحون ويفرحون ولا يعرفون ما وقع وهم لا يشعرون فخرج بهم من داره وتقدم إلى القصبة بعدما ضرب النفير ، فاجتمع من عمائر الأجفان الكبير والصغير وشاع الخبر عند أهل البلد فخرج السوقة والتجار واجتمعوا أجمعين على القائد والفقيه باسطوانه مرتقب لما يتزايد من الأخبار ، ومتخوف(136) مما يتوقع من تصرف الأقدار ، والرجال يسيرون إليه مرة بعد أخرى ، وأهل سبتة مجتمعون على قائدهم يطلبون رأس ابـن أبي خالد دون غيره لأنه كان أضر بهم بظلمه وجوره ، وابن الشهيد معه خائفاً أيضاً من حاله وعاقبة أمره ، إلى أن صعد الرجل على سور القصبة وظفروا بابن أبي خالد فقتلوه وقطعوا رأسه وعلقوه على السور ، وأخرج ابن الشهيد المذكور ونفي إلى الأندلس في زورق إلى أن وصل بعد ذلك إلى تونس بشهور ، واستبد أبو القاسم العزفي بملك سبتة وبقي بها مسروراً ، معظماً مبروراً(137) ، ولم يزل أهل بلده يعظمونه بغاية الإعظام ، والتوقير لجانبه والاحترام ، فهو من جلة الفقهاء الأعلام ، ومن مآثره العظام ، قيامه بمولد النبي عليه السلام من هذا العام ، فيطعم فيه أهل بلده ألوان الطعام ، ويؤثر على أولادهم ليلة يوم المولد السعيد بالصرف الجديد من جملة الإحسان عليهم والإنعام ، وذلك لأجل ما يطلقون(138) المحاضر والصنائع والحوانيت يمشون في الأزقة يصلون على النبي عليه السلام وفي طول اليوم المذكور يسمع المسمعون لجميع أهل البلد مدح النبي عليه السلام ، بالفرح والسرور والإطعام للخاص والعام ، جار ذلك على الدوام ، في كل عام من الأعوام ، وتوفي رحمه الله عام سبعة وسبعين

(136) في الاصل متخوفا وقد صححناه .

(137) في ط : ميسورا .

(138) في م : يطلبون .

فكانت مدته نحو ثلاثين سنة على ما يأتي ذكره في صلة هذا الكتاب إن شاء الله تعالى ، وفي سنة **ثمان وأربعين وستماية** وفد على المرتضى بمراكش أبو عمران موسى بن زيان الونجاسني من بني مرين أحد الفرسان الأعيان أرسله إليه أخوه علي بن زيان فأكرمه وعظمه ثم انصرف عنه مقضي المآرب ، مرضي المطالب والمذاهب ، ثم ورد عليه أبو الحسن علي بن زيان المذكور ، وأخذ معه في بعض الأمور ، فأكرمه غاية الإكرام ، وأنعم عليه بجزيل الانعام ، وعين له مالاً معلوماً في كل عام ، وكان قد وصل معه جملة من بني ونجاسن فخرج لهم ما لهم على صنهاجة في هذا العام ، وسأله المرتضى عن أمور بني مرين وأحوالهم فهون عليه الخروج إلى قتالهم ، فأمره بالتقدم إلى سلا وكان واليها ابن أبي يعلى ليكون معه هناك مع من بها من الموحدين والأنجاد[139] ليمنعوا بني مرين عبور الوادي إلى جهة تامسنا من تلك البلاد ، وكان المرتضى نظر في ضم عساكره ودبر في أمره بنواهيه وأوامره ووجه إلى الأندلس برسم أن يصله جمع من النصارى ليركبهم معه ويكونوا له أعواناً وأنصاراً فوصلوا إليه في هذه السنة وفي سنة **تسع وأربعين وستماية** تحرك المرتضى بعساكر الموحدين والأجناد ، والعرب والأحشاد ، على ترتيب سلفه المعتاد ، من التأهب والاستعداد ، والاستخارة لله تعالى في تبليغ القصد والمراد ، وتقديم الزيارة ، للأحداث[140] بتينمل على عادة سلفه بني عبد المؤمن فأمضى العزم في الابتداء صدر هذه الحركة بالزيارة المذكورة ، والافتتاح منها بالأعمال المبرورة ، والاهتداء بمن تقدمه فيما كانوا يعقدونه في بيت معاهدهم من الرايات المنصورة ، فكان خروجه من حضرة مراكش في أول يوم من شهر رمضان المعظم إلى زيارة قبر إمامه ، تبركاً بلثم ثراه واستلامه ، وتوسل هنالك بأكرم الوسائل ، وتمثل في تعظيم ذلك المكان بقول القائل :

نعظمه أن حل فيه معظم ونكرمه أن كان مثوى المكارم
ونقضي حقوقاً للهدى في زيارة تقدمها أولى الحقوق اللوازم

فلما فرغ من الزيارة على أكمل ما أمله وقصده ، قفل مستقبلاً إلى الحركة التي أمضى عليها عزمه وعقده ، فرحل عن مراكش في الخامس من شهر رمضان من السنة المذكورة ، في أبهى زي وأحسن صورة ، بعدما استوهب جميل الدعاء من

---

(139) في ت : والاجناد .
(140) لعلها للاجداث .

الصلحاء ، وتمادى مشيه على الهيئة الموصوفة والأهبة المعروفة إلى جهة سلا فتلوم بها أياماً قلائل ، إلى أن تعرف أخبار بني مرين وغيرهم ببراهين ودلائل ، فعزم على مقابلتهم ومقاتلتهم فتحرك من سلا بعساكر وافرة وجيوش متكاثرة من قبائل الموحدين ومن أصناف المتجندين فكان من أمره ما أذكره إن شاء الله عز وجل .

اختصار الخبر بظهور الأمير أبي يحيى وبني مرين على عساكر المرتضى والموحدين في الموضع المعروف بأمن ملولين[141]

وذلك أنه لما بلغ الأمير أبا يحيى وبني عبد الحق أعزهم الله تعالى استقبال المرتضى بعساكره إليهم اجتمع قبائل بني مرين وبني ورا وبعض زناتة والعرب ومن انضاف إليهم من قبائل الغرب فرأى بنو عبد الحق بسديد رأيهم ونجح سعيهم أن يخاطبوه ويكاتبوه فخاطب الأمير أبو يحيى المرتضى طالباً منه المهادنة والمصالحة فأراد المرتضى أن يصالحهم ويسامحهم لأنه كان مائلاً إلى الراحة وعدم التصرف فأبى وزراؤه من ذلك وقالوا لا يصلح في إقليم واحد ملكان فرحل إلى لقائهم بالحل والترحال وكانت الثقلة وأحمال المال على نحو أربعماية من البغال على قول من قال إن بعضها أحمال بالمال وبعضها بالأثقال ، إذ كان المال كله دراهم ليس فيها مثقال ، وكانت الثقلة فيها مضاربه وأسبابه وأفراج المختص به لسكناه على عادة خلائفه وأسلافه في حركاتهم وغير ذلك مما يدخر من أسباب الحركات لمهماتهم ، وكانت أثقال الموحدين بالنسبة إلى ذلك المحال[142] آلاف من الجمال وكانت محلة كبيرة واستعد المرتضى لهذه الحركة إستعداداً عظيماً بطبول وعلامات كثيرة فتمادى المشي على أحسن بهاء واتمه ، وأعظم استعداد وأعمه ، حتى وصلت المحلة الموحدية إلى مقربة من العساكر المرينية ، ونزلت بموضع أمن ملولين[143] ، وكان الأمير أبو يحيى ابن عبد الحق قد استعد لقتالهم وأعد بني مرين لحربهم ونزالهم فقصد علي بن زيان مع جماعته إلى جهة من جهتهم ودفع عليها وعليهم ثم دفعت عساكر الموحدين من جهة أخرى بالقتال إليهم فأعطى بنو مرين لهم ظهورهم لأن يقفوا الموحدون آثارهم

---

(141) في ط : ملولنين .

(42) في ط : الحال ..

(143) في ط : أمن ملولنين .

فقد كانوا كمنوا لهم ودبروا أمورهم وذلك خدعة من خدع الحروب ، فتعرف الموحدون أنهم كمنوا لهم في الخنادق فتوقفوا عن دفاعهم واتباعهم فلم يتبع أحد لبني مرين خيفة الكمين ، وقيل بعد ذلك ان الأمير أبا يحيى كان توافق في ذلك اليوم مع يعقوب بن جرمون فبقيت المحلة بذلك الموضع ساكنة آمنة إلى أن استظهر يعقوب بن جرمون المذكور بكتاب وصله من قبل الأمير أبي يحيى ليوقف(144) عليه المرتضى ويتكلم معه في صلاح الأمور فقنع منه بذلك المقال ، وأمر في الحين(145) بالرحيل من ذلك الموضع والانتقال ، وأقلع من غير عهد معهود ولا عقد معقود ، وشاع في المحلة من يعقوب بن جرمون ورجاله ، انعقاد الصلح وكماله ، وكان إقلاع المحلة من هنالك في ليلتهم حين ذلك فأصبحوا على ظهر راحلين وإلى مراكش قافلين ، وأوقع الله الرعب في قلوبهم فرحلوا وتركوا بعض مضاربهم وأسبابهم وقفلوا جميعاً في الروع بالقلوب ، وكان فيه لبني مرين المقصود والمطلوب ، وذلك بما وهبه الله لهم من القوة والشجاعة، والأخذ في الأمور بالعزم والحزم جهد الاستطاعة . ولما قذف الله الرعب في قلوب الموحدين وأجنادهم ، ورحلوا قافلين إلى بلادهم ، تفرقت جموعهم وخارت طباعهم فتبعتهم جيوش بني مرين وجدوا في اتباعهم فاستولوا على جملة مضاربهم وأسبابهم ، وتمكنوا من أحمالهم وأثقالهم ، وأخذوا بغال السلطان وأثقاله ، وخيله المقادة وأبغاله ، وكان بعض فرسانه ورجاله إذا ضاق حاله يرتجل عن فرسه خيفة على رأسه ، ومن تقدم لا يشتغل إلا بخلاص نفسه ، وتمادى مشيهم إلى أزمور ، وكؤوس الخوف عليهم تدور ، فلما وصل المرتضى إليها ونزل عليها جدد حركته منها ثم رحل قافلاً إلى حضرته ، فكانت عليه هذه الهزيمة من غير قتال هزيمة عظيمة ، وكان الوزير القائم فيها بالتدبير عبد الله بن يونس إلى أن كان من أمره ما أذكره إن شاء الله تعالى .

وفي سنة خمسين وستماية

أخر المرتضى وزيره ابن يونس عن وزارته حين وصل له منه(146) ما أوجب قتله بعد ذلك بحسن الادارة فاستوطن ابن يونس تامصلحت موضعه وكان يدخل مراكش في

---

(144) في ط : ليقف .

(145) في ت : في الجيش .

(146) في ت : وصله عنه .

كل يوم جمعة وكان يدخل للخليفة مع الموحدين برسم السلام لكن لا بد له أن يكلم بما شاء من الكلام واستقر بذلك الموضع مع اولاده وعياله وخدامه ورجاله وكان من جملة رجاله وخدامه ومن قبيلة بني[147] علي بن يدر فهرب الى السوس حين عزل ابن يونس عن الوزارة استقر به وكانت بينه وبين يونس مراسلات ومداخلات .

وفي سنة احدى وخمسين وستمائة جاهر علي بن يدر بعناده فبعث اليه المرتضى عسكراً من الموحدين أجناده فحاربوه فلم يقدروا عليه بشيء فقفلوا راحلين الى مراكش وكان بتارودانت أحد أشياخ الموحدين مع جماعة من اجناد[148] المسلمين والنصارى ساكنين هنالك. وفيها كانت زلزلة عظيمة في بلاد الغرب[149] اهتزت الارض بها بمن عليها. وفي هذه السنة كانت كائنة أجناد النصارى الذين أرادوا أن يقوموا على الامير ابي يحيى يغمراسان ببلد تلمسان ، وذلك انه لما أراد ابو يحيى يغمراسان بن زيان أن يظهر بما[150] عنده من العساكر والأجناد[151] على تجين ومغراوة وبني عبد الود فأمر بخروج أجناد المسلمين والنصارى مدرعين ، فخرجوا على باب القرمادين كلهم أجمعين ، وكان قد اجتمع عنده بتلمسان على ما ذكره الثقات من أهلها نحو ألفين من الرجال والفرسان ، وقال بعضهم ثلاثة آلاف ، ووقع بينهم في ذلك الخلاف . فلما خرج يغمراسان برسم الميز من تلمسان واجتمع عليه الانجاد من بني عبد الواد والأجناد[152] والقواد فوقف هناك بمقربة من موضع كان يعرف بقصر الشعراء ووقف تجين ومغراوة قريباً منه بحومةِ اخرى ووقف اجناد المسلمين ناحية واجناد الروم ناحية أخرى وقوفاً قد عملوا صفوفاً صفوفاً[153] إلى أن كان آخر وقوفهم وصفوفهم فأرادوا غدر المسلمين فعجل الله منونهم وحتوفهم. وذلك أنه لما وقف أبو يحيى للميز قدم المسلمين وميزهم ، والى جانبه الايمن جوزهم ، وأمر بميز الروم وكانوا مدرعين مجتمعين ، وكان المسلمون متفرقين غير مجتمعين ولا مدرعين ، ولم

---

(147) فراغ بقدر كلمة .

(148) في ط : جماعة أجناد .

(149) في ت : المغرب .

(150) في ط : ما :

(151) في ط : الانجاد .

(152) من فأمر بخروج إلى . . . . والأجناد مضطرب في ط وقد صححناه من م .

(153) في ط : صفوفاً ، مرة واحدة ، وفي ت : مكرر ، وهو أبلغ .

يتأهبوا لقتال، ولا خطر لهم ذلك ببال ، فلما شرع في تمييزهم وقف قوادهم امامه وكانوا عشرة الى أن ميز أكثرهم فارساً بعد فارس وقائدهم الكبير المسمى بدنجيل يجتهد في تمييزهم وتجويزهم واقف بعلامه إلى أن أقبل إلى الامير يغمراسان وهو مدرع بدرعه مع جماعة من جمعه برسم لقائه له واجتماعه فجاء يعانقه بذراعه فأدخل رأسه تحت ذراعه ، فهمز أبو يحيى فرسه ، وأخرج من تحت ذراعه رأسه ، بعدما ترك بيده عمامته وجد في اتباعه ، حين افتراقه منه وانتزاعه فدخل المخزي الكافر ، الغادر الماكر ، في جملة أصحابه الروم ، وحرمه الله ما كان من الغدر يروم ، وقامت هوشة عظيمة في ذلك اليوم المعلوم ، وعمل أبو يحيى المذكور احرامه على عصاه وصاح في الناس يا آل عبد الوادي غدرتم يا زناته إلى أن ميزوا كلامه ، فقد كان الناس اشاعوا انه قتل وذاق حمامه ، وكان في ذلك اليوم هول يوم القيامة ، وفر تجين ومغراوة حين رأوا ذلك إلى أن وصلهم الخبر بكلامه وحياته فكروا راجعين ، وتراجعت الناس اليه من كل مكان فحفوا به خلفه وأمامه ، وانعقدت الساقة عليه حينئذ بعساكره وطبوله وأعلامه ، وكان تجين ومغراوة قد قدروا[154] حين قامت تلك الاهوال ، والتحم بين المسلمين والروم لقتال ، أنها حيلة عليهم حتى بعث ابو يحيى يغمراسان من اعلمه بالخبر اليهم ، وكان ظن النصارى دمرهم الله أن الفتنة تقوم بينهم ، فدبروا غدرهم ومكرهم سبباً لحينهم ، فلما اجتمعت الفرسان على أبي يحيى يغمراسان بن زيان أمر بغلق باب تلمسان ، وأطلق أيدي الفرسان الأحرار على قتل الاعداء الكفار فروى من دمائهم غلل الاسنة والشفار واستأصلوهم بالقتل طول النهار ولم يتأت للكفرة في ذلك اليوم الفرار بل حصروهم في موضع وداروا عليهم دور السوار ، وقتل الحضر في البلد عيالهم وأطفالهم الكبار منهم والصغار، واستأصلوهم بالقتل والنهب والسلب في دواخل الديار ، واستغنى في ذلك بعضهم ولم يبق من الكفرة في ذلك اليوم في داخل البلد وخارجه ديار ، واستشهد في ذلك اليوم جملة من المسلمين الفرسان أولهم اخو يغمراسان محمد بن زيان وقتل كاتب أبي محمد ابن غالب عن غلط ولم يقتل من الحضر الا هو فقط .

وفي سنة اثنين وخمسين وستماية تفاقم أمر علي بن يدر بالخلاف في بلاد السوس وانقادت له بعض عرب الشبانات وبني حسان واجتمع عليه اعداد من

(154) في ط : قرروا .

الفرسان ، وطاع له بعض أهل البلاد يغرمهم ، وكان يعطي بعض العرب ويكرمهم وكان العامل بتارودانت من قبل المرتضى ، وهي كانت حاضرة تلك البلاد فيما تقدم ومضى ، فخرج اليه في هذا العام عسكر من الموحدين فوسع أمامهم حين قدموا عليه ، ثم رجع بعد انفصالهم منها الى حاله وتغريمه . وكان بين المرتضى وبين الامير ابي يحيى بن عبد الحق في هذه السنة مخاطبات ومجاوبات فكان للموحدين في ذلك بعض التسكين والتهدين وكان عازماً على الحركة فاضرب عنها . وفي هذه السنة كان مقتل ابن يونس الذي كان وزيراً للمرتضى قبل ذلك : وسبب قتله على ما ذكر العارفون بأمره سوء معاملته مع خليفته في أعمائه ، فأول فعل فعله انه اشترط عليه شروطاً حين كتبت البيعة منها الا يقدم اخاه وزيراً فكان هذا وأمثاله من ضعف عقله وتدبيره أن يترك السلطان أخاه ويسند أمره اليه ، فلما وصل السيد أبو إسحاق من سجلماسة بعد أشهر من خلافة أخيه قدمه وزيره وأسند إليه أموره ، فكان في كل أمر يمضيه وكان ابن يونس معه وزيراً يقعد معه في جملة الوزراء والموحدين الكبراء فكان السيد يختبر في كل وقت أفعاله وأعماله إلى أن قال يوماً في جملة مقاله : فعل المخلوع كذا وصنع المخلوع كذا، وهو عم السيد المذكور وعم الخليفة فانزعج السيد لمقاله وقال خلع الله عين الذي خلعه وخرج عن موضعه ذلك وكان سبباً لتأخيره عن الوزراة . ولقد قال يوماً بمحضر خليفته المرتضى حين وقع ذكر سكين مفلول أخرجه من كمه مسلولاً وقال: والله ما خرجت يوماً قط إلا بهذا هكذا، وأشار به إليه فتعجب الحاضرون من أمره وقام المرتضى في الحين مغضباً ودخل الى قصره فكان ذلك أيضاً مما انتقد عليه . وكان مع ذلك المرتضى يعامله بالقبول والرضى ، إلى ان قيل عنه انه يكاتب علي بن يدر ويراسله ، ويشاركه في بعض الامور ويداخله ، يتكفل له شراء السرج وغيرها ، وثبت عند السيد امرها الى ان حصلت كتبه بخط يده لعلي بن يدر المذكور ، يعرفه فيها بالاحوال والامور ، فانكشف سره وحاله ، وامر المرتضى باعتقاله ، فاعتقل بداخل القصبة بدار الحكماء وخرج الحاكم بن اصلماط الى موضعه برسم ثقاف ماله وحاله مع الخيل والرجال والامناء فاستاق الى مراكش اولاده فسجنوا بها وعمل عليهم وعلى أبيهم جملة من العدوتين[155] والرقباء، وخرجت من المرتضى بطاقة بالتوقيع عليها فيها مكتوب جميع ما انتقد عليه فحملت اليه ووقف على ما فيها ورماها حين نظر إليها

(155) كذا بالاصل .

وسيقت له الكتب التي بعثها لعلي بن يدر فحلف بايمان مغلظة انه ما كتبها فما صدق في إيمانه ولا مقاله بل حقق عليه جميع ما ذكر عنه فأمر بقتله في موضع سجنه واعتقاله وبقي اولاده مسجونين في هذه السنة الى ان اخرجوا بعد ذلك .

اختصار الخبر عن مقتل اشياخ الخلط

وذلك لما اراد الله بقتل السعيد في عام ستة وأربعين ، وتفرق أهل عساكره أجمعين ، كان اشياخ الخلط احد اسباب تلك الوقيعة ، ولهم فيها أخبار شنيعة ، لانهم في اول الحال تأخروا عنه حين عزم على القتال واجتمعوا بجمعهم حين سمعوا بقتله ورجعوا لمحلته فأكلوا وقتلوا ، ونهبوا وسلبوا لجملته واهل دخلته وبعض اهله وقبضوا على أخت السعيد الحرة نجمة زوجة الوزير السيد أبي إسحاق واستولوا على مالها وحالها وكان قد حصل بأيديهم في تلك الكائنة شيء كثير من السقط العظيم الخطر الكبير القدر فقد كان احتواؤهم على تلك المحلة واستيلاؤهم مع بني عسكر عليها قبل وصول بني عبد الوادي اليها . وقيل انهم كانوا متفقين معهم علي بيعها منهم على ما ذكر في ذلك عنهم ، فحبس ذلك الفعل الذميم المنسوب اليهم ، إلى ان احتيل بالحيلة بعد ذلك عليهم ، فلما وصلوا الى مراكش أذن لهم في الدخول الى القصبة حين وصولهم ، وكان عبيد المخزن وبعض المتجندين مستعدين لهم عند دخولهم فادخلوا لدار الكرامة برسم الاكرام والانعام ، فحاق بهم الانتقام بالقتل لهم والاعدام ، وقيل بالسم في الطعام فماتوا في الحين اجمعين ، وكان عددهم سبعين .

وفي اثناء ذلك اعتقل يعقوب بن محمد بن قيطون الجابري : فقد كان الشيطان استهواه لعصيان خدمة السلطان ، وكان المرتضى رحمه الله انعم عليه بجزيل الانعام واعطاه بحوز مراكش الاملاك والاسهام ، وأعطى يعقوب بن جرمون السفياني مثل ذلك فظهر منه النصح والاجتهاد وظهر من ابن قيطون البغي والفساد ، بعث المرتضى عسكراً الى تامسنا مع ابي الحسن يعلى[156] ليتشوف منها متزيدات الاخبار من البلاد الغربية ، وغيرها وليتعرف احوال العرب هنالك وامرها ، وليدبر مع يعقوب بن جرمون في أمر يعقوب بن قيطون كيف يكون القبض عليه وينظر وجه الحيلة في ذلك اذا وصل اليه .

---

(156) في ت : يعلو .

فلما وصل ابن قيطون الى ابي الحسن المذكور واجتمع معه في جملة اشياخ العرب وغيرهم تكلموا معه في حالهم وامرهم ، اخرج يعلى ليعقوب بن جرمون ظهيراً كريماً بالتنويه له والتكريم ، وقدمه على جميع العرب بأنوه التقديم ، فسقط في يد ابن قيطون حين سمع التقديم والتعظيم وتكلم بما معه من الكلام ، واراد الانفصال عنه بسلام ، فتكلم يعلى مع ابن جرمون سراً بما تكلم ، ثم أمر بالقبض على المذكور وعلى وزيره[157] ابن مسلم ، فأكبلا بكبلين ثقيلين وقفل ابو الحسن يعلى الى مراكش حرسها الله تعالى بهما معتقلان وفي هذه السنة وهي سنة اثنين وخمسين كان ابو عبد الله المستنصر بالله مستوطناً بحضرته التونسية قد طاعت له تلك البلاد الافريقية وعماله ورجاله بمدينة مليانة والجزائر وغيرها من تلك البلاد الراجعة الآن إلى تلمسان وكان ليمغراسان في هذا العام وبعده بحوز تونس أملاك وأسهام ، احسان عليه من المستنصر بالله وانعام ، وفي هذه السنة كان الامير ابو عبد الله بن الأحمر أمير البلاد الاندلسية في غاية الهدنة مع امير الملة النصرانية اذفونش بسبب صلحهما المنعقد بينهما في سنة ثلاث واربعين فتوجه اليه في هذه السنة واجتمع معه بخارج مدينة اشبيلية بجمعه ووافقه على ما كان وافقه عليه ودفع هديته اليه وانصرف الى اغرناطة بعد موافقته اياه ورباطه معه وما زال من هذا العام يجتمع معه في كل عام او في بعض الاعوام الى أن أراد أن يغدره حين وصل اليه في عام اثنين وستين على ما ما يأتي ذكره في موضعه ان شاء الله تعالى .

وفي سنة ثلاث وخمسين وستمائة

كان الامير ابو يحيى بن عبد الحق مستقراً بمدينة فاس ، وصلحت ببلاد الغرب احوال الناس ، وتهدنت الاحوال من الفتن والاهوال ، وصار ملك تلك البلاد اليه ، واجتمع جميع من فيها من القبائل عليه ، فغص المرتضى بأمره وحالـه حين بلغه من خدامه ورجاله جميع أموره وأحواله ، وهونوا عليه تجديد الحركة اليه ، فقدم المواعد ، وأخر العزّائم والمقاصد ، وتأهب لها بالاستعداد والاستكثار من العدد والاعداد ، والفرسان الانجاد ، من العرب والاجناد ، برسم الاستقبال الى تلك البلاد .

---

(157) في ت و م : وزير .

ذكر حركة المرتضى الى الغرب برسم القتال
مع بني مرين في تلك البلاد والحرب

وذلك انه لما شرع المرتضى في الحركة الى البلاد الغربية برسم مقابلة الأمير المعظم أبي يحيى ابن عبد الحق وقبائله المرينية خرج من مراكش مع خاصته على عادته الى مدينة تينمل بعد الاستخارة وتقديم النية في زيارة قبر إمامه ، وعقده فيه لبنوده واعلامه ، استفتاحاً بعوائد اسلافه ، واستنجاحاً بمقاصد احلافه ، بتسديد رأيه في مقاصده السنية وسعيه فلما كمل الزيارة تحرك من مراكش في أبهى زي وأكمل صورة بما تأهب لهذه الحركة من استعداده ، واستكثاره من عدده واعداده ، وحشوده وامداده ، واجتمع من قبائل الموحدين قبائل وافرة ، وجموعاً من العرب متكاثرة ، وتمادى مشي العساكر على المنازل المعلومة ، والمراحل المعهودة المعروفة إلى جهة مدينة سلا ومنها جدد الحركة للقاء بني مرين والحروب معهم ، وكانوا مستعدين للقائه .

ذكر هزيمة المرتضى بموضع بني بهلول
وقفوله الى مدينة مراكش مهزوم مفلول

ولما ورد المرتضى الى تلك الجهات بعساكره وجنوده ، وعربه وحشوده كان الأمير ابو يحيى ابن عبد الحق قد استعد ايضاً باستعداده بقبائله المرينية ومن انضاف اليهم من القبائل الغربية وبجياده وانجاده ، فتأهب لقتالهم ونزالهم بجموعه المتكاثرة واجناده ، فوقعت بينه وبين المرتضى رحمهما الله مراسلات ومراددات في احوالهما واحوال المسلمين المتعلقين بهما فلم يقدر الله صلحاً بينهما الى أن كانت مقاتلتهما ومقابلتهما بموضع يعرف ببني بهلول ، فكان سيف أبي يحيى عليه بالنصر مسلولاً ، فالتقى الجمعان بالضرب والطعان ، فنصر الله بني مرين على عساكر الموحدين فهزموهم وقتلوهم واستأصلوهم اعظم استيصال ، بعدما دام بينهم القتال ، فلم يك الا لمحة لامح او صيحة صائح ، الا وقد انهزمت جيوشهم المتكاثرة ، وصارت بعد انتظامها متناثرة ، واستولت بنو مرين على اثقال عساكر الموحدين وعلى مضارب المرتضى وجماعته ، وعلى ما كان من الأطعمة وغيرها في خزائنه ، وعلى الاحمال والبغال والجمال ، ومن الاموال ما تخالفت في كثرته الاقوال ، فقيل ان جملة ما اخذ له في تلك الحركة المذكورة والوقيعة المشهورة من الدنانير الفضية العشرية سبعمائة

ألف مثقال ، واما من الخيل والبغال فكثر فيه المقال ، وكذلك من المضارب والاسباب وأكثر الأثاث انتهبها المنتهبون اي انتهاب ، فحصل بأيدي بني مرين ومن كان معهم من اشيائهم ومتاعهم شيء كثير ، وكان امر هذه الهزيمة امر كبير ليست كهزيمة امن ملولين ، التي خرج الناس منها من غير كسرة مفلولين ، بسوء التدبير من الوزير ، والرأي الفاسد والتدبير[158] ، نسأل الله العافية من الادبار ، وحسن العاقبة في دار القرار .

وكانت هذه الهزيمة الشنيعة من بعض قبائل العرب فقيل انهم اتفقوا مع بني مرين وباعوا المحلة منهم فلما اصطفت الصفان ووقعت الحروب بين الفريقين اعطى العرب ظهورهم منهزمين،فتبعهم بنو مرين، وانكسرت عساكر الموحدين ، فانهزموا بجملتهم اجمعين ، وفر المرتضى رحمه الله بنفسه، وقتل من قدر الله له بحلول رمسه ، وقصد الفارين مع خليفتهم مدينة أزمور ، ومنها نظر في تجديد الامور ، فقد كان بنو مرين حملوا ساقته وعلامته وطبوله فبعث الى مراكش وكان ترك بها ابا سعيد ابن تيجا مع من كان ترك بها من السادة وأشياخ الموحدين وأمرهم ان يلقوه بطبول وعلامات برسم قفوله الى مراكش ودخوله فخرجوا منها بذلك للقائه ، وحمدوا الله على سلامته وبقائه ، فلقوه بموضع راط بجهة دكالة بالخيل والبغال والطبالة والبنادة فانعقدت عليه الساقة هناك ، وتمادى مشيه الى حضرته كذلك ، فدخلها بزيه المعلوم ، وقلبه مما دهاه مكلوم ، ولما حصل في حضرته ، واستقر بموضع خلافته ، حمد الله تعالى على ما منَّ به عليه من سلامته ، وألزم نفسه أنه لا يعود[159] الى حركة ابداً ، فما خرج بحركة بعدها حتى خرج فاراً بنفسه وحصل في شراك الردى .

ومما انكر عليه ونسب من الأمر اليه من ذلك ما اخبرني به أبو عمران بن تيجا انه قال كتب لابنه من أزمور حين وصل اليها من كسرة بني بهلول وهو مهزوم مفلول ، يوصيه ان يعمل له مرحاضاً في حمام المخالص ويجدد بناء الحمام ويزيل منه الرخام لاجل الزلق الذي كان فيه ، ويجدد فيه حتى يستوفيه ليجده خالصاً حين يبيت في المخالص ، وكتب له ايضاً ان يصرف له صرفاً من جملة ارطال من الفضة برسم التفريق على الاولاد الاصاغر وخدم قصره فامتثل في ذلك أمره ، وكتب ايضاً من

---

(158) كذا في الاصل ولعله الدبير .

(159) في ط : يعيد .

حضرته حين وصوله اليها وقدومه عليها الى الأمير المعظم ابي يحيى ابن عبد الحق راغباً اليه أن يجبر عليه خادماً كانت قد اخذت له حين هزيمته واستيلاء بني مرين على محلته فأمر الامير ابو يحيى بالبحث عليها في دواوير العرب وزناتة وغيرها بغاية البحث والطلب الى ان وجدها في بعض احياء العرب فَدفعها للواصل اليه بسببها وهو ابو محمد جابر فقبضها منه مقضي الارب ، فيما رغب وطلب ، فتوجه بها الى الفقيه المعظم ابي القاسم العزفي صاحب سبتة برسم مآرب ايضاً يستقضيها له فقضاها وكسا الخادم المذكورة(160) بكسوة عظيمة واعطاها دابة واكرمها وارضاها ، وصرفها مع موصلها إلىّ ان وصلها لسيدها المرتضى فقبلها وارتضاها ، وكانت حاجة في نفسه قضاها ، فولدت منه الأولاد بعد ذلك بعدما رآها من كل فريق من رآها .

وفي سنة اربع وخمسين وستماية

شرع المرتضى في بناء الديار لاولاده الكبار ، مثل دار العرائش ودار البلار ، وما جاورها من القصور بأبي دانس وبنى داخل القصبة دياراً كثيرة ، وانفق فيها اموالاً خطيرة ، ولم يزل من هذه السنة وقبلها وبعدها يشتغل بالبناء والتسديد والاصلاح ، فأول ما ابتدأ ببناء جامع علي بن يوسف وآخر بناء بناه الموضع الذي سماه بالفاتحة التي كانت لاموره غير ناجحة ، وكانت البلاد في هذه السنة هادنة ومهدنة ، اما المرتضى فكان بينه وبين الامير ابي يحيى مهادنة ومصالحة فتهدن الموحدون في بلادهم والمرينيون كذلك ، واما ابن الاحمر فكان في مصالحة مع الروم لكنه فجع في موت ولده ولي عهده يوسف . وأما الفقيه أبو القاسم العزفي فاستبد ببلده وضبطها لنفسه باشتداده وجده في مصالح اهلها بغاية جده واجتهاده ، فبلغه الله غاية قصده ومراده ، لكنه كان يخاطب المرتضى في كل الأوقات ، ويخطط بما يجب له من التخطيطات ، والبر والكرامات ، ويعرفه بجميع الأمور والمتزيدات ، وكان في اول حاله وامره طلب منه ان يبعث له شخصاً من الموحدين أو سيداً من السادة فبعث اليه ابن أشرقي فأخرجه بعد أشهر وكتب للمرتضى بما كان من افعاله ولعماله ، فصدق المرتضى في ذلك مقاله وبقي الفقيه مستبداً بأحواله .

وأما أبو الحجاج يوسف بن الأمين فاستبد أيضاً بطنجة وقد كان تركه أبو الفضل

---

(160) في ط : المذكور . وكلمة خادم تشير ـ حسب السياق ـ إلى امرأة .

بقصبتها مقدماً على الزماميين المرتبين فيها ساكناً مثل أمين ، وذلك أن أهل طنجة لما رأت أن المرتضى ضعفت أحواله عن الحركات الى تلك الجهات ، وقويت أحوال بني مرين فيها بالظهور والبركات في السكون والحركات دخلوا تحت طاعة الفقيه العالم أبي القاسم العزفي فبعث اليهم القائد أبا الفضل العباس وكان شيخاً من فضلاء الناس فتوجه صحبة هذا يوسف بن محمد بن الأمين في جملة من توجه معه اليها فقدم أبو الفضل المذكور من سبتة مع جماعة كبيرة من الرماة والرجال عليها فاستوطن مدة قصبتها ثم ترك فيها ابن الأمين المذكور عوضاً منه ونائباً فيها عنه بخلال ما يغرم بعض القبائل الغمارية ويجتمع بالفقيه بسبتة ويقضي اشغالاً فيها ويعود الى طنجة بعدما يخلص أشغاله كلها ويستوفيها فلما طالت غيبة أبي الفضل المذكور عنها واستأنس أهلها بابن الأمين المذكور وقد كان بسبتة مقدماً على جماعة كبيرة من الرجال فكانوا يسمعون من قوله ويرجعون لفعله فدبر معهم أن يقوم بطنجة فوافقوه على ذلك ورافقوه فقام فيها وضبطها لنفسه الى أن قتله أولاد الأمير أبي يحيى وأدخلوه في رمسه فقتلهم رجاله مع من كان معهم أجمعين على ما يأتي .

وفي سنة خمس وخمسين وستمائة

بعث أمير المؤمنين أبو حفص عمر المرتضى عسكراً من الأجناد والموحدين قدم عليه أبو محمد بن اصناج وأمره أن يتوجه الى بلاد السوس لينظر في مصالحها وحسم عللها الطارئة عليها من أهل الضلال والفساد والخلاف والعناد فلما وصل اليها استوطن بتارودانت منها وكان القائم بتلك البلاد علي بن يدر قد تحصن بتيونوين مع من كان معه من المفسدين والمعتدين من العرب وغيرهم مدبرين في حالهم وأمرهم فخرج اليه بالعسكر اصناج فقابله علي بن يدر وقاتله وقتل من الأجناد جملة كبيرة وعاد ابن اصناج الى مراكش وقد نقص من عسكره ناس كثير وبقي ابن يدر في سوسه بشديد بأسه فيه ودروسه .

وفي هذه السنة ولى الأمير أبو عبد الله محمد بن يوسف بن نصر ولاية عهده لأبي عبد الله ولده وكان يسمى بالفقيه ، وكان التقديم قبله لأخيه الى أن توفي كما تقدم ذكره . وفي هذه السنة استولى الأمير المعظم أبو يحيى بن عبد الحق على مدينة سجلماسة ودخلها وقبض على واليها حسبما يأتي ذكره مختصراً ، وذلك أن الوالي بسجلماسة في هذه السنة كان الشيخ أبو محمد عبد الحق الجنفيسي وكان رجلاً

مقعداً[161] لكنه يركب على الدابة وينزل عنها برجال مستبدين لذلك وعبيد، وكان قدمه عليها المرتضى وأسند له أمرها وأمر درعة وغيرها فاستوطن قصبتها مع من كان معه فيها من الخيل والرماة والرجال، فنظر بنظره وأمر بأمره في جميع الأشغال والأعمال ، غير أنه كان يصرف المقال ويتصرف بالانتقال ان كان بالاستعجال فينقل على ظهور الرجال وان كان على مهل واستمهال فعلى الخيل والبغال، وكان السبب في دخول الأمير أبي يحيى اليها واستيلائه في هذه السنة عليها رجل يقال له محمد القطراني كان أبوه شخصاً حيراناً[162] يبيع في زمن شبيبته وكهولته القطران لكنه كان أبوه يعرف مقداره، ليس كابنه هذا الذي عدا طوره وطلب الثيارة، وكانت له نفس خبيثة غدارة، وذلك أنه كان عند ابن زجوا مقرباً من بين رجاله يصرفه في أشغاله ، ويفيض عليه من إحسانه ونواله ، فصار أكبر خدامه ورجاله، فعرف أشياخ عرب المعقل وغيرهم ، وأدخل نفسه معهم في جميع حالهم وأمرهم وجعل مخدومه ابن زجوا اذا وصلوا اليه يقبل عليهم ، ويعطي العطاء الجزل اليهم ، ويكرمهم بغاية اكرامه ، وجزيل احسانه لهم وانعامه ، حتى مالوا بكليتهم اليه ، ونالوا الخير عند مخدومه باعتمادهم عليه ، فكانت أمورهم وأحوالهم تنقضي كلها على يديه الى أن حدث نفسه بالثيارة وبطلب الامارة ، فلم يتأت له ذلك إلا بالحيل[163] الادارة ، فخاطب الى الأمير المعظم أبي يحيى ابن عبد الحق، وفي طي مخاطبته إياه غير الحق ، الذي هو محض الباطل ، بتزيين الفجور والبواطل ، لكن الأمير المذكور لما وصل خطابه اليه أخذ بالحزم والعزم فكان جوابه قدومه بالعسكر اليه بعدما قدم جملة من بني مرين اليهم كأنهم الى ابن زجوا إرسالاً، فأدخلهم القطراني عليه إعظاماً وإجلالاً ، وكان معه حينئذ جملة خيلاً ورجالاً ، فما استقر قرارهم مع ابن زجوا المذكور ، وتكلموا معه في بعض الأمور ، الا والأمير أبو يحيى قد وصل الى سجلماسة فقبض القطراني على ابن زجوا مع من كان معه من ناسه وأخرجه على باب الغدر الى الأمير أبي يحيى بعثه القطراني اليه وبقي بالقصبة واجتمع جميع من كان فيها عليه ، فلما وصل ابن زجوا للأمير أبي يحيى ومثل بين يديه بقي متعجباً من حاله وبطلانه ، ومن حال القطراني الغدار وخذلانه ، فقال في جملة كلامه لفرسانه ورجاله : كيف يتولى أمر البلاد والعباد عجوزة مبطولة، ترفع وتوضع على الأعناق منقولة.

---

(161) في ط معقوداً .

(162) كذا بجميع النسخ .

(163) في ط : بالخيل .

وكان القطراني لما عزم على الغدر والمكر، عاهد الأمير أبا يحيى أن يتركه بسجلماسة والياً من قبله للنهي فيها والأمر، فوفى له بالعهد وأنجز له في الوعد، وجعل معه شخصاً من بني مرين يسكن في القصبة مع جملة من الرجال والفرسان لكن القطراني أكثر منه[164] جملة وعصبة، وأمر الأمير أبو يحيى للقطراني كما كان الوفق معه أن يدفع له المال المختزن بالقصبة فدفعه له واستصفى حال ابن زجوا وماله. وتلوم الأمير أبو يحيى هنالك أياماً وعاد إلى حضرة فاس بعدما ارتبط مع القطراني المذكور واشترط عليه بعض الأمور، وجعل معه ثقته يشاركه في التدبير، والقليل من أمره والكثير. ولما وصل الأمير أبو يحيى الى حضرته حبس ابن زجوا في مال كان قاطعه به على نفسه خيفة أن يدخله في رمسه فبعث الى أهله وأولاده وعياله لينظروا منه وليعرفوا للمرتضى بذلك وبأمره وحاله فبلغه خبره وأمره وما كان فعل القطراني وغيره فاغتاظ على ابن زجوا وولده، ونسبه للتفريط حتى أخذ البلد من يده، فانحرف غاية الانحراف على هذا الأمر، وأقسم أنه لا يفديه من ذلك الأسر، إلا أن يفدي نفسه من ماله، فكتب ابن زجوا إلى أهله وعياله، ليدبروا في أمره وحاله، فبعثوا إليه بعض ما كان عليه وأعطى حفيده رهينة في الباقي وخرج من السجن يدبر فيه وخلص ما كان بقي عليه، ووصل حفيده إليه.

اختصار الخبر بقيام القطراني بسجلماسة بالدعوة المرينية ثم نكثه عليها وقيامه فيها لنفسه بالدعوة الموحدية بعد خروجه عنها ونبذ من أحواله الى أن مكن الله منه

وذلك أنه لما قام فيها بالدعوة المرينية كما تقدم ذكره وخاطب الأمير أبا يحيى معلماً له بحاله وأنه يدخل في حزبه وطاعته وغدر ابن زجوا وأخرجه من القصبة اليه فاجتمع من كان بها من الأجناد والعرب عليه، وأسكن معه الأمير أبو يحيى في القصبة من يشاركه في الأمور المخزنية فقد كان الأمير المذكور تركه على حاله ناظرا في أشغاله مع خدامه ورجاله وجعل معه قائداً من أعيان بني مرين مع رجاله ايضاً وخدامه، والقطراني المذكور يتصرف في الأمور بين يديه ويعرف بجميعها اليه حتى لا يخفى منها شيء عليه واستمر ذلك الحال

---

(164) في ت : منهم .

بقية هذه السنة المؤرخة الى أن اشتهر أمره وكبرت دائرته ومرحلته وكثرت خيله وجملته وبلغه الخبر في أثناء ذلك بوفاة الأمير أبي يحيى في السنة الآتية على ما يأتي ذكره إن شاء الله تعالى .

فقام القطراني فيها بأمره ثائراً وزحف القائد المريني مع من كان معه من خيل ورجال اليه غادراً يريد فيما زعم ان يقتله فخلصه الله منه وخرج من القصبة برجاله وخيله وولده وأهله وانصرف الى الحضرة العلية الفاسية فوجد التنازع وقع بها بعد موت الامير ابي يحيى بين ابنه واخيه ، وهو الذي جسر القطراني على القيام بسجلماسة حين وجد فترة لتراخيه، فطلب لنفسه الاستبداد واستبد برَأيه أي استبداد [165] فجند الأجناد ووصلته من العرب الأمداد ، وجاهر على أمراء الدولتين الموحدية والمرينية بالخلاف والعناد ، وخاطب للمرتضى معتذراً عن حاله في ابتداء امره حين دخول بني مرين الى سجلماسة وحال ابن زجوا معهم وغيره وانه قائم فيها بدعوته وداخل تحت طاعته ، غير أنه إشترط عليه الاستبداد فيها ، وان يكون عاملها وواليها ، فوصله من المرتضى خطابه الكريم ، يقتضي البر والتكريم ، وقدمه على تلك البلاد أعظم التقديم ، وقدم له ذلك مقدمات يتعلل بها ، ويجعل في الشرك بسببها ، وكان قد طلب له في جملة مطالبه أن يبعث له قاضياً من عنده ، وأن يعينه بجمع كبير من جنده ، فبعث إليه الفقيه أبو عمرو بن حجاج قاضياً ، وكان في أمره حازماً ماضياً ، وبعث سيداً يسكن في القصبة من غير استبداد ، وقائداً من النصارى مع جملة وافرة من الاجناد ، واوصى المرتضى للقاضي المذكور ولقائد الروم مشافهة لامر يكون عليه محفوظاً ومكتوماً فلما وصل العسكر اليها ، ادخل القطراني القاضي واجناد النصارى اليه وصرف السيد ومن كان معه من الموحدين والمتجندين وامتنع لهم أن يدخلوا عليه ، فانصرفوا جميعاً عنه ، وقيل انهم تلوموا في تلك الجهات الى أن أمكن الله منه ، وذلك أنه لما استقر القاضي الفقيه أبو عمرو بن حجاج بسجلماسة وحكم بين الناس بالشرع وكان فاضلاً بالطبع استمال محبة الناس كلهم اليه ، واحال القطراني في الأمور كلها عليه ، وتقرب الرومي للقطراني المذكور وتهيأ

---

(165) في م : استعد برأيه أي استعداد .

للقاضي ما رامه مع قائد الروم وكان الرومي المخزى من طبعه محاولا للأمور مـبرماً فدبر وجه الحيلة في قتل القطراني فصار يدخل اليه من غير مشورة عليه إلى أن ظفر به في بعض الأيام وقتله، وركب في جماعته ليوري للناس زعامته وشهامته فيما فعله، فقامت هوشة في البلد وقبض على والد القطراني فطلب العفو من القاضي وقال هو ليس لي بولد ، وذكر عنه ما كان له منه من العصيان ، وما كان فيه من الجهل والطغيان ، وأبان القاضي المذكور للناس ما خفي عنهم من تلك الأمور ، وأن ما قتل الرومي القطراني إلا بأمر أمير المؤمنين المرتضي عقاباً على ما فعل من جميع فعله ، وهو الذي أوجب أمره للقائد بقتله ، وركب القاضي في البلد مسدداً ومصرفاً ورفع رأس القطراني على رمح فنودي عليه هذا جزاء الغادر متطوفاً أسواق البلد وبقي أبوه خائفاً مرتقباً أن يقتل معه ، فأمن الفقيه القاضي أبو عمر روعه وكتب الى المرتضى يعرفه ببراءة ساحته مما جناه ابنه فعند وصوله الى مراكش امر بسجنه وعلق رأس ابنه على السور واستقامت بسجلماسة الأمور وعاد الفقيه أبو عمر بعد ذلك الى مراكش فقدمه المرتضى على جميع اشغالها فقام خير قيام بأحوالها ، وكتب المرتضى بخبر القطراني الى الفقيه ابي القاسم العزفي .

وفي سنة ست وخمسين وستمائة كانت وفاة الأمير المعظم أبي يحيى ابن عبد الحق رحمه الله

فكانت دولته من حين استيلائه على رباط تازى نحو عشرة أعوام وكان قبل دخوله اليها واستيلائه عليها اميراً على القبائل المرينية وغيرها وقائماً بأمرها وحالها نحو اربعة اعوام وذلك من حين وفاة اخيه الأمير ابي عبدالله محمد بن عبد الحق رحمه الله في سنة اثنين واربعين وكانت ايضاً امارته نحو من ستة اعوام . واخبرني من اثق به عن وفاة هذا الامير ابي يحيى وسببه ان احد الصلحاء نفع الله بهم عض بيده على اصبعه حين دله على ما ينفعه فما قام من موضعه الا وقد تألم اصبعه فخرجت فيه حبة صغيرة فما زالت تزيد وتكبر من حين اوصاه الصالح بوصيته ، الى أن قضى الله في هذه السنة بمنيته ، وقيل ان ذلك الرجل الصالح هو الحاج التاهرتي حين اجتمع معه بسجلماسة وقيل غيره والله اعلم بحقيقة امره . وكان الامير ابو يحيى رحمه الله فارساً

شجاعاً لم يكن في زناتة اشجع منه وبذلك كان يزيد على يغمراسان بن زيان . ولما توفي هذا الامير ابو يحيى قام من بعده ولده الاكبر ابو علي عمر فبايعه بعض القبائل المرينية وتأخر عنه آخرون من وجوه أشياخ بني مرين واتفقوا على تقديم عمه الامير الاعلى ابي يوسف وقالوا هذا أحق بالتقديم ، والتوقير له والتعظيم ، لما علموا من دينه وصلاحه وتقاه في الحديث والقديم ، فوقعت بينه وبين ابن اخيه منازعة بل مقارعة على مدينة فاس الى ان استوطن الامير ابو يوسف رباط تازى مع ناسه وأهله فكان بنو مرين يسيرون اليه يوماً بعد يوم ويفدون عليه قوماً بعد قوم الى أن استوفى عليه أكثرهم فقصد بهم الى مدينة فاس ودخلها وخرج أبو علي عمر الى مكناسة فتحصن بها اشهرا ، وكان يعقوب بن عبدالله في أولاد بني عبد الحق كبيراً عندهم فما يزال يحاول أمر الامير أبي علي المذكور ، الى ان انقاد لعمه ابي يوسف وسلم له في الامور ، وقيل انه وصل معه اليه حتى بايعه واجتمعت كلمة بني مرين عليه ، وفي اثناء ذلك قدر الله بموته في هذه السنة المؤرخة وقيل في أوائل سنة سبع وخمسين وستمائة .

رجع الخير .

وفي هذه السنة وهي سنة ست وخمسين بويع أمير المسلمين وناصر الدين أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق وصل الله أيامهم ونصر أعلامهم .

فكانت بيعته أولاً برباط تازي بيعة الخاصة والعامة وطاعت له أكثر البلاد الغربية وانقادت لحكمه جميع القبائل المرينية فاستوزر منهم شيخ بني علي أبا زكريا بن حازم وشيخ بني عسكر أبازكرياء بن أبي منديل وهما أول وزراء هذه الدولة وكبرائها وكبر منهم شيخ كل قبيل وكرمه وعظمه فكل بذل جده وجهده حين قربه وأكرمه وعظمه . واستكتب أبا عبد الله بن القراق في أول أمره ثم استكتب بعد ذلك جملة من الكتاب واستوزر جملة من الوزراء وكذلك أولاده[166] الأمراء الكبراء ، وكان استيلاؤه على الحضرة المراكشية عاشر محرم من سنة ثمان وستين وستمائة ، فعظمت مملكته في البلاد الغربية وضخمت دولته السعيدة المرينية ، إلى أن توفي بالجزيرة الخضراء وهو على قدم الجهاد بالبلاد الأندلسية في سنة خمس وثمانين وستمائة ، فكانت مدة دولته ثمان وعشرين سنة .

---

(166) في نسخ اخرى : أولاد .

وفي سنة سبع وخمسين وستمائة

رحل يعقوب بن عبدالله بن عبد الحق من بلاد عمه أبي يوسف الى جهة تامسنا برسم الاستيطان بها والسكنى وبرسم المرعى والكلا ، وقد اضمر التغلب على سلا ، فعبر الوادي من مجاز الرمان ، وذلك في اقبال الزمان واجتمع عليه جملة كبيرة من رجاله وخدامه ، وبعض من بني اعمامه أولاد بني عبد الحق أعزهم الله تعالى وذلك بعد موت أبي علي عمر ابن عمه ابي يحيى رحمه الله تعالى فنزل بمقربة من غبولة بدواره ، وما زال يحاول هنالك ما اضمره في ليله ونهاره ، وكيف يكون دخوله الى رباط الفتح من حين نزوله هنالك واستقراره ، إلى أن دخل اليها واستولى بكيد عليها ، وذلك أن واليها الساكن بقصبة رباط الفتح هو ابو عبدالله محمد ابن ابي يعلى الكومي كان قدمه على ولايتها وجبايتها المرتضى وامره بالحفز عليها من طارق يطرق أهلها (167) ، أو حادث يحدث فيها من أهلها خوفاً من ان يخاطبوا الأمير ابا يوسف ويدخلها فحفزها غاية الحفز ، بالسمار في الأسوار وبما امكنه من الحرز ، وعمل المعارض على كل باب من أبواب العدوتين المذكورتين وجعل الرماة والرجال يحرسونها ، ولا ساعة من ليل او نهار يفارقونها ، فما افادهم حفزهم في نهارهم ، ولا حرزهم ليلاً بسمارهم .

ذكر فتح رباط الفتح ليعقوب بن عبدالله

وذلك لما أراد الله بفتح رباط الفتح وعدوتها سلا ، بعد ما ضبطها وربطها ابن ابي يعلى ، أراد الله بتعجيزه وضعفه فطرقها ابو عبد الرحمن يعقوب بن عبدالله بن عبد الحق في ليلة من الليالي ، في جملة كبيرة من الخيل والرجال ، فقصد الى باب سلا مع من كان معه خيلا ورجلا ، فقصد بعض رجاله على سلالم استعملوها الى السور فملكوهُ(168)، وقصدوا الى برج الباب فمن وجدوا فيه اهلكوه ، فمنهم من قتل ومنهم من رمى بنفسه في الأرض من السور ، فانكسر أو هلك فكانوا بين قتيل ومكسور ، فملك رجال

---

(167) في م : إليها .

(168) في ط فملكوها .

يعقوب بن عبدالله الباب المذكور ، فكسروا اقفاله ، ودخل فيه خيله ورجاله ؛ فصعدوا على اعلاه ورفعوا العلام ، وقام الضجيج في البلد وضجت الناس من كل ناحية الى الباب فوجدوا العلام عليه فارتفع الاشكال وانقطع الكلام ، وعاد كل من وصل الى موضعه يبغي النجاة برأسه والاستسلام ، لئلا يصل الخيل اليهم حين يدخلون البلد عليهم فقد كانوا كسروا اقفال البلد البراني وبقي الدخلاني يحاولون كسره او حله ففر الناس من هنالك حين رأوا ذلك راجعين الى ديارهم ، واقتحم اكثرهم الجواز الى العدوة الاخرى مواضع قرارهم ، وتركوا سلاحهم وأثوابهـم وعبروا الوادي بالعوم فأخذت اسلابهم ودخل رجال ابي عبد الرحمن يعقوب بن عبدالله بن عبد الحق وغيرهم في اثرهم ، فسلبوا ونهبوا في ليلهم ذلك ونهارهم ، ثم امر الامير المذكور بالكف عن الناس وعن اضرارهم ، فتهدنت الاحوال والامور ، وخرج ابن ابي يعلى في جفن صغير من القصبة الى ازمور ، وملك يعقوب بن عبدالله مدينتي سلا وضبطها لنفسه مضاهيا لعمه وحدثته نفسه امورا عنه غائبة ، وأحوالاً كلها كاذبة خائبة على ما اصفه ان شاء الله تعالى .

وفي سنة ثمان وخمسين وستمائة

أراد يعقوب بن عبد الله أن يقوم على عمه أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق ويخالف في سلا عليه وطمع أن يصير ملكه فيما زعم إليه، فهدن أهل سلا وأبدى لهم اعتقاده فيهم ووداده ، ونفاقه على عمه وعناده ، وضم عليه عسكراً من بني مرين وغيرهم من أجناده ، وكتب إلى ملك قشتالة أن يبعث له بمئتين من الروم ، يركبون ويسيرون معه ويستعين بهم فيما يروم ، ثم انه إتهم أشياخ سلا أنهم خاطبوا إلى عمه(169) وكاتبوه فخاف أنهم يبايعون له ويقومون عليه فطلبهم في الميز فجازوا إليه إلى رباط الفتح فميزهم وأخذ سلاحهم منهم وجوزهم ، وعادوا إلى عدوتهم دون شيء من السلاح ، وكان تدبيراً خالياً من السداد والصلاح ، مع قضاء الله تعالى وقدره .

---

(169) كذا بالاصل ، والصواب : خاطبوا عمه .

اختصار الخبر عن كائنة مدينة سلا
الذي كل قلب عن همها ما تسلى ولا سلا

وذلك لما بعث يعقوب بن عبد الله للنصارى أهلكهم الله أن يصلوا إليه[170] برسم أن يكونوا أجناده كان منتظراً إليهم ومعتمداً عليهم لينال بهم مقصوده ومراده ، ولما وصل إلى ملك قشتالة أهلكه الله كتاب يعقوب بن عبد الله أدركه الطمع في دخول كفرته إليها واستيلائهم عليها فاشتغل بتعمير الأجفان في وادي إشبيلية، ولا علم أحد من المسلمين ولا من الكافرين إلى حيث يتوجهون من البلدان، فكتب الفقيه أبو العباس[171] العزفي من سبتة يعرف بخبر تلك العمارة إلى كل جهة من المراسي ومكان ، ويحذر من غدرهم ومكرهم كل إنسان ، فمن قدر ذلك وظهرت له الدلائل من أهل سلا والقبائل ، خرج منها قبل الكائنة بأيام قلائل ، وهم قليل من الناس ، ومن تأخر بالخروج ولا صدق الحال ، وظن أنه عين المحال ، قتل أو أسر لأمر قدر ليس لأحد عنه محيد ولا انتقال . فلما كان في آخر شهر رمضان المعظم من هذه السنة ظهرت في البحر قرقورة بعد قرقورة فظن أهل سلا أنهم تجار إلى أن وصلوا شيئاً بعد شيء مراراً ، واجتمعت من القراقر اثنى عشر ومركبان اثنان وأساطيل وشلالير[172] إلى أن انتهى عدد الأجفان سبعة وثلاثين وكلهم مملوء من الكفرة النصارى ، فبقي الناس في أمرهم حيارى ، فلما كان يوم الجمعة ثاني عيد الفطر أظهر العدو ما أضمر من الغدر فدخلت الأجفان الغزوانيات إلى الوادي ، بعدما امتلأت بالرماة والبغاة الأعادي ، وكانت ناحية الوادي ليس لها سور ، ولا يتأتى لأحد أن يكون فيها محصوراً ، فهبط الكفرة من أجفانهم والمسلمون يعاينونهم بأعينهم وأجفانهم ، حتى صففوا صفوفهم ، وجمعوا جموعهم ، وكلهم مدرعون بدروعهم ، والمسلمون مجتمعون غير مسلحين ولا مدرعين ، مستبسلين[173] للقضاء وقوفاً صفوفاً صفوفاً ، والنصارى يزحفون لهم وجموعهم مرتبة وصفوفهم ، وقدموا أمامهم رماتهم وطغاتهم مستعدين للقتال ، وليس عند المسلمين شيء من السلاح ولا من النبال ، لكن بعض أقوام اغتنموا الشهادة فمات

(170) في ط : يصلوه .

(171) بل أبو القاسم ـ كما يأتي ـ أما أبو العباس فقد حدث عنه منصور بن خميس الأنمري من رجال القرن السادس، وهو من شيوخ ابن الابار ، ويستبعد أن يكون قد أدرك هذا الحادث . وهو صاحب الدر المنظم.

(172) في ت سلالير .

(173) كذا بالاصل ، ولعلها مستسلمين .

منهم أعداد وآخرون قاتلوا بالقصب المستجودة وكان بها نحو عشرين فارساً فقاتلوا حتى قتلوا رحمة الله عليهم بعد ما صبروا صبراً عظيماً،وفي أثناء ذلك تزاحمت الخلائق في الخروج على الباب فخرج من خرج منهم بالجهد العظيم ، ومات في الزحام عدد لا يحصيهم إلا السميع العليم ، والنصارى مع ذلك يقتلون من وقف إليهم حتى دفعوا دفعة واحدة عليهم ودخلوا البلاد[174] بعدما قتلوا خلقاً كثيراً ، وكان موقفاً جسيماً وأمراً كبيراً ، ويعقوب بن عبد الله يعض يديه على قبيح ما جرى ويشاهد ما تسبب فيه فعله ويرى ، ولا يقدر أن يجوز إليهم ، بل ينظرهم من قصبته وقد حل بهم من القتل والأسر ما قدر عليهم ، فبقي يذوب تلهفاً ، ويعض بنانه ندماً وتأسفاً ، حين عاين ما عاينه من البلاء الذي أحاط بأهل سلا . ولما دخل النصارى إليها ، واستولوا بالغدر عليها ، قتلوا من وجدوا من الرجال ، وأسروا النساء والأطفال ، وحصروهم في الجامع الكبير مأسورين ، وفي نفوسهم مقهورين ، فكانوا يعبثون في النساء والأبكار ، ويقتلون الشيوخ والعجائز الكبار ، فسفكوا الدماء وهتكوا الأستار ، وخربوا المساجد والديار ، وعمروا بالتراس والقسيّ الأسوار . وكتب المرتضى رحمه الله تعالى للفقيه أبي القاسم العزفي حين وقع هذا الأمر الفظيع والتدبير السيء الشنيع كتاباً يشكره فيه على ما كان يحذر من أمر[175] النصارى ، ويسأله أن يستشعر أمورهم ليحذر منها استشعاراً .

فصول من الرسالة التي وجهها المرتضى للفقيه أبي القاسم العزفي حين كائنة مدينة سلا

وإنا كتبناه إليكم كتب الله لكم أحمد عاقبة وأجملها وأكنف كلاءة واكلأها ، وان تعلموا انا نعتد بولائكم الخالص ، ونحفظ ما لكم ولسلفكم من السوابق والخصائص ، ونشكر نصائحكم التي ما زلتم اياها تبذلون ، وخدمتكم التي توالون وتصلون ، ونستمد منكم الى العلم الذي أنتم له مخلصون ، والدين الذي عن سننه القويم لا تعدلون ، والله يتولاكم بحفظه وصونه ، ويجزل حظكم من انجاده وعونه . وقد طرأ في مدينة سلا جبرها الله سبحانه واستنقذها ما قد اتصل بكم مما كنتم ابدا منه تحذرون ، وبه لعلمكم

(174)في ت : الباب .

(175) في ط من أمره النصارى .

بالعدو الكافر[176] تنذرون ، ولكن لم تزد الاقدار لمن فيها الا انهمالا في الاضاعة واذهالا لمن محل في اعماله الساعة بعد الساعة ، حين نفذ المقدور ، ووقع المحذور، ولا حول ولا قوة الا بالله الذي تصير اليه الامور ، والله سبحانه يجري دينه القيم من النصر والظفر ما عوده ، ويجمع أيدي عباده المؤمنين على من اتخذ الاها غيره وعبده، وهو سبحانه يكافي سعيكم على ما عرفتم وحذرتم لأهل السواحل ، وخوفتم من فجأة العدو المخاتل ، لما ظهر من استعداده ونبهتم في ذلك اقصى مبالغة بنيتكم الصالحة الصريحة، ووفيتم منه اوجب حق للمسلم على اخيه من النصيحة ، لكن ينفذ حكم الله تعالى فيما ثبت في الكتب مسطورا ، فلم يحذر التحذير محذورا ، وكان امر الله قدرا مقدورا ، وثوابكم على الله سبحانه فيما من ذلك توليتم ، وقضيتم به حق الاسلام وأديتم ، وانا لنشكر لكم ذلك[177] ، كما رأى الله عز وجل فيه منابكم وشكر اليه انتدابكم ، فما قصرتم في عمل سديد ، ولا تأخرتم في الجد والنصح عن شأو بعيد، فعرفوا بكل ما تتعرفون من إرادات الاعداء بعد وطالعوا من محاولاتهم الذميمة ما نتأهب لدفعه بحول الله تعالى ونستعد، وهو سبحانه يتدارك بمعهود لطفه ومعتاده ، ويمد الاسلام واهله بنصره وانجاده، ويعينكم على افضل ما أنتم عليه من صواب العمل وسداده بمنه ، وكتب ثالث ذي القعدة من عام ثمانية وخمسين وستماية .

ذكر فتح سلا أمنها الله وانتزاعها من أيدي الروم على يد أمير المسلمين أبي يوسف رحمه الله

وذلك انه لما بلغ الامير المعظم ابا يوسف خبر أهل سلا ، واستيلاء النصارى عليها ، بادر بعساكره اليها ، فحاصر الكفرة فيها اعظم حصار ، واجتمع المسلمون عليها من البلاد الغربية وما والاها من الأقطار ، فكانوا يقاتلونهم بالليل والنهار ، بالنبال والاحجار ، ودام القتال مدة من ثلاثة عشر يوما من شوال ، إلى أن خرج منها الكفار بما حصل في ايديهم من المسلمين الصغار والكبار ، وبما ألفوه في المدينة من الاموال والاسباب والامتعة ما لا

(176) في ط بزيادة العدو .

(177) في ط : ذلكم .

يحصره حاصر ولا يصفه واصف وذلك شيء تحار فيه الافكار والاقوال. وبطول مقامهم في تلك الايام المذكورة كان الطغاة الكفرة يطلعون المسلمين لاجفانهم ، وما وجدوا بالمدينة من أحوالهم وأموالهم ، وحينئذ اسرعوا للفرار ، وتقحموا لجج البحار ، ولو اقاموا فيها بعض الايام لأخذ المسلمون منهم بالثار ، واقتحموها بالدخول عليهم وقتلوهم ما بين الجدرات ولكن الامور تجري بحكم الاقدار ، ولكن هون هذا الخطب الذي استنفر الاحلام ، وذاد عن الجفون لذيذ المنام ، خروج الطاغية منها وعودتها عن قريب للاسلام ، فعادت للجفون لذيذ منامها وغمضها، وبعض الاشياء بالجملة اهون من بعضها ، وملك الامير ابو يوسف مدينتي سلا ورباط فتحها ، وعود الله سبحانه المسلمين عوائده الجميلة حين فتحها، وكان فتحا ميسرا بالاضافة لما كان يتوقع من استيطان عبدة الاصنام بين ظهور الاسلام، ولو كان عاما واحدا من الاعوام . واما جلية أمرها فان العدو اهلكه الله لما كان قد نزل بجزيرة قادس كانت الاقوال تختلف في أي موضع يقصده إلى أن كان من الامر الفاجع والحدث الصادع ما تقدم ذكر وخبره وامره وكان في ذلك ما احتسبه الامير أبو يوسف من مصالح المسلمين شغلا ، واكتنف بحراسة هذا الثغر قولا منه وفعلا ، فأجمع من اخلاط الناس واشتات القبائل المرينية وغيرها آلافا من الاعداد يستنهضهم للجهاد بالجد الخالص في ذلك والاجتهاد الى ان من الله تعالى بهذا الفتح للعباد ، فسر المسلمون به في جميع البلاد وبصنع الله الذي لا كفاية لهم بشكره وانسوا بعنايته الدافعة في صدور العدو ونحره ، الرادة عليه عاقبة كيده ومكره ، وذلك لما رأى العدو أهلكه الله تكاثر المسلمين على المدينة المذكورة وتواردهم عليها مع الساعات وخلال الآناء والاوقات ، ولا يفتر لهم ليلا ونهارا ورود والمام، ولا يمضى زمن فرد الا وفئام تتبعها فئام ، اوقع الله تعالى الرعب في قلوبهم ، وكان طلوع عشائر المسلمين إذنا[178] بهروبهم ، فأصبحوا يوم الأربعاء الرابع عشر من شوال المذكور وقد طهر الله تعالى الارض من الحادهم ، وركبوا لجة البحر على اعوادهم ، وأمر الله الريح فلم تساعدهم ، فصارت الامواج تسري بهم يمينا وشمالا ، وجنوبا

---

(178) يريد : إيذاناً .

وشمالا ، ولانحفازهم الى الفرار لم يتزودوا كثيرا من الماء ، ولا قدروا حكم قاضي السماء، فطال مقامهم في البحر ولا يسيغون جرعة ، ولا يستطيعون الى اهليهم رجعة ، فصاروا يقصدون السواحل رجاء في الظفر بمنهل يعلل غللهم ويبلغ نهلهم وعللهم ، فكلما يمموا جهة تلقاهم المسلمون رجالا وفرسانا يذودونهم ذياد البعير الضال فيرجعون وحرقهم تتوهج ، وغللهم تتأجج ، بل انهم في بعض تلك المواطن قصدوا فأقصدهم الحتف والحيف ،وتقسمهم الرمح والسيف ، ففقدوا عدة رجال ، وتركوا دون موارد الماء جملة حماة وابطال ، ولقد وصلت منهم قرقورة الى جهة العرائش فراموا أخذ الماء فعجزوا عنه فحاولوا شراءه ببعض من عندهم من الاسرى فأجيبوا الى ذلك ، وأظهر لهم الاسعاف فيه هنالك ، فاستنقذ من الاسرى المسلمين المذكورين ثلاثة وخمسون شخصا اكثرهم نساء واطفالا ، وذكروا ان طاغيتهم القشتالي عزم على تحريق رؤسائهم حنقا غليهم لما افتوه ، واسفا على ما حصل بأيديهم فأفلتوه، ولذلك طلب منهم جماعة نحو عشرين شخصا الامان فاعطوه ونهضوا الى الامير المعظم المجاهد ابي يوسف بن عبد الحق ليركنوا ويخدموه وأخبر ابو الحجاج يوسف بن الامين انه وجه من ثقاته الى الاندلس حين ذلك من وثق بنقله، واستند الى فهمه وعقله ، ليتعرف حقيقة الاخبار هنالك ، ويعرفه بجلية ذلك ، فقال ان الطاغية اهلكه الله كان قد اعد جموعا وافرة العدد ظاهرة العدد ليكونوا مددا للكفرة المستولين على سلا فعند وصول نبأ الفتح الذي سد دونهم باب الرجاء ، وضيق عليهم فسيح الارجاء، كاد العدو تفيض نفسه ، ويطويه اسفا رمسه ، فأقسم ايمان كفره ليعاقبن اشياعه الخاسرة وليطبخن مقدمهم جوان غرسية على فعلته الصادرة ، فاتصل ذلك بجوان المذكور ففر في ثلاثة قراقر الى الاشبونة فبقي مقيما بها ولم يرجع الى قادس حيث كانت تتجهز الاجفان المذكورة الا نحو خمسة وعشرين جفنا وسائرها تفرق أي تفريق ، وتمزق شمله خوفا من الطاغية أهلكه الله أي تمزيق.

وأهبط من أسرى المسلمين ثلاثمائة وثمانين شخصاً فداهم المسلمون من أهل شريش وغيرهم طالبين الأجر من ربهم ، إلى أن وصلوا بعد ذلك إلى بلدهم ، وقيل إن جملة ما اجتمع بإشبيلية من أسرى أهل سلا نحو ثلاثة آلاف نفس بين ذكر وانثى صغير وكبير أكثرهم أطفالاً صغاراً وعجائز وشيوخاً

كباراً . وبعث الأمير أبو يوسف رحمه الله تعالى أبا بكر بن يعلى[179] في أواسط شهر ذي القعدة من العام المؤرخ برسم افتكاك الأسرى المذكورين ففك الله أسرهم على يديه وافتدى أكثرهم وكان قد أسر في جملتهم قاضي سلا أبو علي ابن عشرة ففداه الأمير أبو يوسف في جملة من فداهم ، واستنقذهم من أيدي أعاديهم وكل مأسور له أهل أو مال فدي من أسره ويسر الله له في أمره ، وكل فقير معسر سبب الله في صدقات المسلمين فافتك من الأسر إذ ليس بعد العسر إلا اليسر وبقي عند الروم آخرين مأسورين من أهل سلا المذكورين وآخرين متلوفين لا يعلم لهم خبر ولا وقع لهم على أثر هل كانوا مقتولين أو محمولين ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم . ولما دخل الأمير المعظم أبو يوسف إلى مدينة سلا بعدما استولى عليها العدو وخرب ديارها ومساجدها أمر ببناء سورها ، وتجديد مساجدها المعظمة ودورها فأول ما شرع من تلك الأمور في ابتداء بناء السور فرفع الحجر بيده يوصله إليه برسم البناء المذكور وفعل ذلك مراراً يبتغي الأجر والثواب عليه من الله سبحانه ، فعندما عاينه جميع الطوائف الحاضرين من وجوه بني مرين الزعماء إخوانه، ومن أشتات القبائل وأخلاط الناس رفعوا الأحجار على كواهلهم من غير تأن في ذلك ولا اختلاس ، حتى رفعوا جميع ما كان من الحجر في المقابر والكدان، وحصل ذلك كله في بناء السور المذكور، وذلك في أيام قلائل .

وحينئذ تفرق من هنالك من حضر من القبائل . ولقد بادر إلى الأمير المعظم أبي يوسف جماعة من الصلحاء حين سمعوا أنه رفع الحجر بيده إلى ذلك البناء ، مسرعين إليه بالشكر والثناء ، راغبين منه ألا يفعل ذلك وقالوا إن السلطان لا يكون كذلك فقال لهم ما ابتغيت إلا الأجر والثواب هنالك ، فدعوا له وانصرفوا عنه شاكرين وبالثناء عليه ذاكرين ، فاجتهد رحمه الله في كائنة سلا غاية الاجتهاد ، وما زال يحدث نفسه من هذه السنة المؤرخة بالغزو والجهاد ، إلى أن بلغه الله في ذلك أقصى المراد ، فجاهد في سبيل الله مع إخوانه وأولاده الفرسان الأنجاد ، فأعز الله به الدين ، وأذل به الكافرين ،

---

(179) في ت : بن معلى .

وتسمى بأمير المسلمين ، وبلغ القصد والمراد ، ومات على قدم الجهاد.

وقدم على مدينة سلا في هذه السنة المذكورة أبا عبد الله بن أحمد الفنراري وأمره أن يشتغل فيها بالبناء والتسديد ، والاصلاح والتجديد ، فامتثل المذكور أمره الرشيد فجدد وسدد وبنى وشيد ، فقد كان الكفار خربوا الديار وحرقوها بالنار ، وأشعلوا في كل ما وجدوه في ديار المدينة وأسواقها من الأثاث والأسباب والأمتعة والأوعية والفرش وغير ذلك من السلع قطناً كان أو صوفاً أو كتاناً مما لم يتأت لهم حمله لسرعة فرارهم وثقله أشعلوا فيه في كل موضع النيران ، فكانت تلتهب فيها بكل مكان ، فحرقوا ومزقوا ونهبوا وسلبوا ، ثم فروا وهربوا ، وتركوها حين خرجوا منها خالية خاوية، والنيران تشتعل في أسواقها وديارها وبعض علامات مرفوعات على سورها ، وعملوا تخيلات ما بين شراريف السور بداخلها ، وأقلعوا في أجفانهم بالليل شيئاً بعد شيء فما علم أحد من الحاضرين هل كانت عامرة أو خالية حتى باع نفوسهم من الله بعض المطوعة وطلعوا بسلاليم عملوها إلى السور ، وحينئذ تبينت لهم الأمور . ودخل الأمير أبو يوسف رحمه الله إليها في يوم الأربعاء الرابع عشر لشوال من عام ثمانية وخمسين وستمائة .

ووصلت في شهر ذي القعدة من هذا العام إلى نظر شريش مائة فارس برسم إخلاء موضع القناطر وإخراج المسلمين منها ووصول الطاغية إليها وقد اعتمدوها لسكناهم ، وعدوها مثواهم واخليت أيضاً ديار بشريش برسم الطاغية لما عزم عليه من الإقامة بها توغلاً في ضلاله ، وارصاداً لمواقع كيده واحتياله ، وتجرداً لما أظهره ونطقت به شيعته من قصد ذلك الثغر في مستقبل حاله ، على ما يأتي إن شاء الله تعالى . وأول من بادر بوروده إلى الأمير أبي يوسف بمدينة سلا في أشياخ قبائل المصامدة وكبرائهم شيخ بني تامردا الصنهاجي أبو فارس عبد العزيز بن يبورك فأقبل إليه أبو يوسف بغاية إقباله ، حين ورد عليه بخيله ورجاله ، فأنجح الله سعيه الحميد ، ورأيه السديد ، في مقاصده ومصادره وموارده ، فولاه أبو يوسف المدينة المذكورة بعد هذه السنة المؤرخة ، فاستقر فيها بأولاده وعياله ، وصاهر لطلحة وزير السلطان وابن خاله ، ووصله بها بعض قبائله من إخوانه وخدامه وعاد إلى المدينة المذكورة من أهلها ومن غيرها حين صلح حالها وأمرها . وقد كان الفقيه أبو القاسم

العزفي رحمه الله يحرض على التفقد لتلك الأشياء والتيقظ للأعداء ، فلما وقع ما وقع كتب المرتضى له كتاباً بالشكر ، وفي هذه السنة في يوم الثلاثاء المتوفي عشرين من شهر محرم أمر أبو عبد الله المستنصر بالله صاحب تونس بقتل الكاتب الجليل أبي عبد الله ابن الأبار ولا يعلم لأي شيء كان ذلك ، ثم ندم على قتله بعد ذلك .

وفي سنة **تسع وخمسين وستمائة** كان من قضاء الله تعالى وقدره على أهل شريش ما كان، من دخول الروم القصبة صلحاً معهم برسم السكنى بها والاستيطان، ثم استهوى الروم غويهم والشيطان، وأرادوا القيام فيها على المسلمين ، فأخرجوهم منها خاسرين ، واستعانوا عليهم بعسكر من بني مرين ، حين كان جواز محمد بن إدريس بن عبد الحق في سنة اثنين وستين ، وفي هذه السنة كان بين الفقيه أبي القاسم العزفي وبين الأمير عبد الله[180] بن الأحمر شنآن وفتنة وعداوة في القلوب متمكنة فأمر صاحب الأندلس القائد ظافر أن يخرج بالأجفان الغزوانية فيضيق على سبتة ويحاصرها فاجتمعت ونزلت بالجزيرة الخضراء فكانوا يدخلون مرسى سبتة مرة بعد أخرى ويضيقون عليها ويقطعون المرافق الواصلة إليها ، فأمر الفقيه العزفي القائد أبا العباس الرنداحي أن يعمر جميع أجفان سبتة كباراً صغاراً فعمرها وخرج بها إليهم فكان الغالب عليه والظافر بما لديهم فعكسهم ونكسهم وساقهم إلى سبتة ولم تفلت منهم إلا الأقل وقتل في جملة من قتل منهم القائد ظافر وعلقت جثته في البحر على حجر السودان وطيف برأسه سبتة ثم علق ، وبعد ذلك تهدنت الأحوال وسكنت الأقوال ، ويسمى هذا العام بسبتة عام ظافر .

ومن أخبار العرب الداخلّين تحت طاعة الموحدين على الجملة من غير سنة معينة

وذلك أن المرتضى رحمه الله تعالى قدم يعقوب بن جرمون أميراً على قبائل سفيان كلها ليقوم بأمورها قليلها وجليلها وكان يضاهيه ابن اخيه في العقد والحل فأمر عليه بالقتل ثم أن اخوة المقتول من أولاد كانون أخذوا

---

(180) في ت : أبي عبد الله .

ثأرهم بعد سنين دخلوا على عمهم واسقوه كأس المنون ورحلوا إلى بلاد بني مرين ودخلوا تحت طاعتهم وفي حرمتهم كما تقدم ذكره حين وفاة السعيد رحمه الله . ولما وصل الخبر إلى المرتضى رحمه الله بقتل يعقوب بن جرمون المذكور قدم ولده عبد الرحمن على قبائل سفيان فاستوزر يوسف بن اوززج ويعقوب بن علوان وكان المذكور يستخف بالأمور ، ولما نزل في بعض الأيام على وادي تانسيفت بدواره خرج يوماً منه متنزهاً على شاطىء الوادي ، ليبصر الرائح والغادي ، فما استقر به هنالك القرار ، إلا وقافلة قافلة بجملة من التجار ، فأمر عليها بالنهب والدمار ، فاستولوا[181] على ما أبقوه من المال والأثقال ، ولم يعبأوا بمن سكت ولا من قال ، وكان في حال سكر هنالك ، فلما أفاق من سكره وفات الأمر في ذلك ، ورأى أن الجرأة عظيمة في قطع السبل والمسالك، أخذ في الحين في فراره ، ورحل من هنالك بدواره ، ونكث عن الطاعة الموحدية ، ودخل تحت الطاعة المرينية، وخسر التجار جميع أموالهم ، ولا قدر لهم في الوقت إلا ببسط آمالهم . ثم بعث المرتضى رحمه الله إلى عبيد الله بن جرمون فوصل مع إخوانه الجرامنة المعروفين بأولاد مرية وكانوا في نحو مائة فارس بين ولد وحفيد يعدون ، بل بنيفٍ عليها يـزيدون ، ولمـا وصلوا إلى الحضرة المـراكشية قعـد لهم الخليفـة في بعض الأيام وقدم عليهم وعلى قبائل سفيان عبيد الله المكني بأبي زمام تقديم إنعام وإكرام ، لكن كان المذكور عبيد الله غير مُنَجَّذٍ[182] في الأمور ولا في الرأي والتدبير فعجل له بالتأخير وقدم بعده على سفيان مسعود بن كانون فصلحت الأحوال على يديه ، واستقامت الأمور الراجعة إليه .

ثم إن عواج بن هلال أحد أمراء عرب الخلط وعظيمهم وزعيمهم عاد إلى الحضرة الموحدية وخرج عن الدولة المرينية فوفد على الخليفة بعسكر كبير من إخوانه ، فأفاض عليهم جزيل إحسانه ، وأمر أن يقام بحقهم وبإكرامهم فأقيم بهم خير قيام ، وأكرموا غاية الإكرام ، واتصل خبر كرامتهم بعبد الرحمن بن يعقوب المتقدم ذكره فخاطب يعتذر في أمره ويرغب في

---

(181) في الاصل : فاستولوه ، والتصحيح منا .

(182) في ط : مبخت ، والمنجذ : المحلك المجرب .

العفو والصفح من الخليفة المرتضى وأن يعود كما كان إلى خدمته، فأسعف في مطلبه وبغيته، ووفد على الحضرة المراكشية في جماعة من جملته، فأنزل على عادته بدار الدالية ، واعمل الكلام فيما جرى منه في الأيام الخالية ، فعجل باستدعائه، ودخل مع وزرائه، فعند خلوه معهم[183] ثقفوا بدار الحكماء فحصل في الشرك الذي نصبه له من نصبه، عقوبة من الله على ما تقدم من فعله في شأن من أكل ماله وغصبه ، وكان علي بن أبي علي الخلطي غار بوصول عواج إلى الحضرة فزرع فيه كل قبيح عند الخليفة، وكان المذكور عند المرتضى ثقة وعدلاً يرتضى فجدد الكلام في شأن عواج المذكور، وقال عنه انه ما وصل للحضرة إلا بالخداع للأمر والفجور ، فأمهل ولا أهمل بل أكرم وأنزل حتى حصل عبد الرحمن بن يعقوب في الشرك، فأمر عليه علي ابن أبي علي الخلطي المذكور الذي كان معه في الإمارة مشترك، فقتل وقتل عبد الرحمن مع وزيريه المذكورين وحزت رؤوسهم أجمعين وعلقوا على باب دكالة وبقي أمير سفيان مسعود بن كانون بن جرمون وأمير بني جابر إسماعيل ابن يعقوب[184] بن قيطون وأمير الخلط علي بن أبي علي المذكور، فصلحت بهم في ذلك الوقت الأمور .

وفي هذه السنة كانت هزيمة الموحدين مع ابن وانودين في الموضع المعروف بأم الرجلين

وذلك أن أمير المسلمين أبا يوسف خرج من حضرته متوجهاً إلى بلاد تامسنا برسم الرعي والكلأ والتهدين لمن هنالك من عرب وغيرهم، فبلغ الخبر المرتضى بمراكش بوصول عسكر بني مرين إلى بلاد تامسنا فأمر في الحين بخروج العساكر الموحدية والعربية[185] والجندية وقدم على الموحدين والمتجندين أبا زكريا يحيى بن وانودين فرحل بمحلته إلى مقربة من وادي أم ربيع وهنالك اجتمع الجمعان وأوقع الحرب الفريقان ، ثم صدرت العساكر المرينية إلى جهة الوادي المذكور ، فطمع الموحدون في العلو والظهور ،

---

(183) في ط : معهما .

(184) في ت : يعقوب بن يعقوب .

(185) في ت : والغربية .

فعجل ابن وانودين بالكتب بذلك، وما ظهر له من النصر هنالك . ثم بعد ذلك رجعت عساكر بني مرين على عساكر الموحدين فهزموهم أجمعين وقتلوا منهم خلقاً بموضع أم الرجلين وعاد ابن وانودين مع الموحدين إلى مراكش مفلولين خاسرين بعدما كان المرتضى رحمه الله بكتبه في غاية السرور ، ولكن تحدث من بعد الأمور أمور . ولما دخل ابن وانودين على الخليفة قال العفو يا أمير المؤمنين ، لما غدر بنو جابر وانكسروا من ناحيتهم انكسر الناس بجملتهم وكان أول من بادر وفر إلى المرينيين علي بن أبي علي الخلطي ودخل تحت طاعة المقام اليوسفي . ولما وصل ابن وانودين تفاوض في أمر الهزيمة الخليفة مع وزرائه وأشياخ الموحدين فأشار عليه ابن عزوز أن يخرج وكان إفراج قد أمر به وأخرج. ثم أن ابن بخيت قال: بئس الرأي يا سيدنا بئس الرأي الذي أشار به عليكم وذكر من أمر الخروج إليكم، فعلم أن قوله قول محب خالص ، وأمر أن يدخل افراك من المخالص ، فادخلت المضارب واضرب عن الحركة أي إضراب ، وأمر بغلق أبواب مراكش ما عدا ثلاثة أبواب ، وقامت في الناس هوشة وتشويش وكثر القال والقيل، إلى أن وصل الخبر بأن بني مرين صادرون إلى بلادهم بالرحيل .

وفي هذه السنة بعد انقضاء وقعة أم الرجلين خرج عسكر كبير من الموحدين مع محمد بن علي بن آصلماط إلى بلاد السوس وظنه أن علي بن يدر في قبضته وكان يحدث نفسه بذلك ويزعم أنه يظفر به عند لقائه له ورؤيته، وكانت حركته في زمن الخريف وحركة أم الرجلين في زمن الصيف ولم يكن بينهما إلا أوان الحصاد، وإذا بالخبر وصل للمرتضى بالوقعة السوسية وعلي بن آصماط ومن كان معه من الموحدين والأجناد، وقتل في هذه الكائنة ابن آصلماط قائد العسكر المذكور المدعي بالشهامة في الأمور ، فعظمت المصيبة على الموحدين بفساد محلتين اثنتين ، ووقيعتين كبيرتين في أقل من شهرين، فكان ذلك من علامات الادبار للدولة الموحدية . ومن الاتفاق الغريب ان ابن آصلماط قال قبل موته بأمد قريب ترى هل يرى المصلوب منكراً ونكيراً أم لا ، وبعد أيام قلائل قتل وصلب فما خالف قولاً . ولما كان من قتل ابن آصلماط وهزيمة عسكره وظهور ابن يدر عليهم ما كان قدم المرتضى على بلاد السوس أبا زيد بن بخيت أحد وزرائه وأجلد نظرائه وتوجه معه قائد

النصارى المعروف بذي اللب بجمع وافر من الروم إلى السوس وكان كما وصل من الأندلس، وكان قائد آخر قد تقدمه اسمه فرسية بجمع آخر من الروم، فوقعت الحرب بين عسكر الموحدين وعسكر ابن يدر هنالك ، إلى أن افترق الجمعان بين قتال كثير ومعارك وكان القائد ذو اللب المخزي متكاسلاً فيما وقع من الحرب بين يديه ليس له نهضة ولا نجدة في ذلك إلا يطلب مياومته جارية في كل يوم عليه ، ويطغى بكلامه وملامه إذا لم تصل يوماً إليه ، وكان لأبي زيد بن بخيت أمير العسكر غير سامع لأمره ولا عارف بقدره فكتب بذلك كله للخليفة وعرفه بحاله ومقاله ، فأمر في الحين بوصوله من السوس وانتقاله ، فكان من أمره ما أذكره إن شاء الله تعالى .

وفي سنة **إحدى وستين وستمائة** كان مقتل القائد ذي اللب النصراني وذلك أنه لما أمر بالوصول إلى الحضرة المراكشية نظر المرتضى رحمه الله من يتولى قتله من أشياخ الدولة الموحدية فوقع رأيه على الشيخ أبي زيد بن أبي زكرياء الجدميوي فبعث عنه وأمره بقتل القائد المذكور إذا وصل من السوس إلى تاجانرت[186] مجتازاً عليه، وأمر النصراني أن يدفع إليه براءة بالإنزال والإكرام إذا وصل لموضع أبي زيد، فلما وصل المذكور ووقف عليها دبر وجه الحيلة على أحسن صورة ، وكان من القدر المحتوم في هذا الأمر المكتوم أن وصل قائد الروم رمد العين فطلب منه أن ينزله في بعض الدور ، فسهل الله على أبي زيد المذكور ما كان يبغي ويروم ، فأنزله في دار عنده واشترط عليه أن يكون وحده فما أمكن إلا أن دخل مع ستة من الروم خدمته وبقي بالفحص جميع محلته فقام بهم أبو زيد وسقاهم وأكرمهم فلما جن الليل حل بهم الويل ، والقائد ساهر العين إلى أن جاءه الحين ، فدخلت عليه سبعة من العبيد معدين ، ولقتله مستعدين ، فأخذوهم واحداً واحداً وقتل من كان ساهر العين منهم ومن كان راقداً ، وأبو زيد المذكور مع جماعة من إخوانه وعبيده خلف الباب ناظرين ولحتف الكفرة منتظرين إلى أن تخلص حالهم وربطت الحبال في أرجلهم وجعلوا في قعر بئر عميق وبعث أبو زيد في الحين لجميع أهل نفيس أن يصبحوا عليه ويقبلوا بسلاحهم إليه فأصبحوا عليه كذلك وكان

(186) في إحدى النسخ : تجابرت .

قد جمع الساكنين هنالك ، لئلا يقع بينه وبين الكفرة معارك ، فلما أصبح دخل عليه الترجمان الحكيم فوجد الجموع الواردة كالسحاب المتراكم ، فبادر بسلامه على أبي زيد وكلامه فنجهه أبو زيد وصاح عليه ، وجبهه بشتمه إليه ، وقال له قد فعلت معنا العار ، حين جعلتنا أنزلنا القائد في الدار ، فها هو قد هرب ولم نعلم حيث استقر به القرار فكيف يكون أمرنا مع الخليفة وحالنا بسبب هذا الفرار؟ فعاد الترجمان إلى جماعته النصارى الكفار فأعلمهم بهروب قائدهم من الدار ، فدخل بعضهم في السلاح وقام العويل والصياح ، وايقنوا أن قائدهم قد مات ، وأن الأمر فيه قد فات ، فأخذوا في رحيلهم بصياحهم وعويلهم ، ودعوا أهل تاكانرت للمرتضى ، فلما دخلوا مراكش علموا أن الأمر في قائدهم قد انقضى ، وشكر الخليفة لأبي زيد المذكور ، على ما فعل في تلك الأمور .

وفي هذه السنة دخل الروم أبادهم الله مدينة لبلة بعد حصار عظيم وأمر جسيم، وكان صاحبها ابن محفوظ لم يدخل في الصلح المنعقد بين ابن الأحمر والروم ، بل قاطع على نفسه في العام بمال معلوم ، يعطيه في بعض السنين ، وفي بعضها يجاهد في سبيل رب العالمين مع جماعته بزعامته وشهامته إلى أن حاصره الروم فيها في هذا العام، فلما اشتد حاله ، وانقطعت آماله، أعطى البلد النصارى وأخرج منها المسلمين أهلها ودخلت الروم إليها وقيل بل كان ذلك في آخر السنة التي قبل هذه المؤرخة، ووصل ابن محفوظ إلى المرتضى مع جماعته ، فكان بمراكش يركب معهم فيها في جملة الأجناد ، كأحد رؤساء القواد ، إلى أن مات رحمه الله تعالى .

وفي **سنة اثنين وستين وستمائة** جاز الأمير أبو عبد الله محمد بن إدريس مع أخيه عامر وجملة من بني مرين الأكابر في نحو ثلاثمائة من الفرسان الأنجاد برسم الغزو والجهاد ، وكان قد بقي من امد الصلح المنعقد بين ابن الأحمر والروم بقية هذه السنة فقد كان عقده معهم في سنة ثلاث وأربعين إلى عشرين سنة وكان السبب في هذا النفاق قبل تمام أمد الصلح أن الأمير أبا عبد الله ابن الأحمر توجه إلى إشبيلية برسم الاجتماع مع أذفونش ليجدد معه الصلح على ما يقع الاتفاق عليه فلما وصل ابن الأحمر إلى إشبيلية نزل بخارجها بالصهريج الأحمر وكان معه خمسمائة فارس من الفرسان الأنجاد

والرؤساء والقواد، فخرج أذفونش إليه وحلف عليه أن يدخل إليه فدخل ونزل بالعبادية منها ودخل معه الرئيسان الزعيمان ابنا اشقيلولة أبو محمد وأبو إسحاق ونزلا معه في ذلك الزقاق مع من كان دخل معهم من الرجال والفرسان إلى ذلك المكان وبقي سائرهم حيث نزولهم الأول . وحين دخول ابن الأحمر ونزوله،عمل النصارى على الزقاق الذي نزل فيه خشباً مسمرة حين دخوله إليه وحصوله،وكانوا عملوها عليهم بالليل فأصبحت مسمرة على الدروب تمنع جواز الخيل فلما اتصل بالأمير المذكور ذلك الحال خاف أن يتوغل في الأوحال ، فدبر على نفسه في الخروج والارتحال ، حين عاين أسباب الحيلة عليه والغدر إليه ، فخرج بجماعته ، بما علم من زعامته ، وأمر رجاله أن يكسروا ذلك الخشب المعمولة، وخرج فحصل بمحلته مع جماعته وبني أشقيلولة ، وأمر في الحين بالرحيل منصرفاً إلى بلاده مع قواده وأجناده ، ثم خرج أذفونش إليه وحلف[187] إنه ما عملت تلك الأطرنكات إلا احتياطاً من النصارى السراق عليه ، فأظهر له أنه صدقه ، وقد علم الأمر وحققه ، وحصل ما حصل في النفوس ، فما نفعت أيمان الغموس ، فانصرف عنه دون اتفاق ولا ارتباط وبسبب ذلك وقع في الأندلس ما وقع من النفاق . وأخبرني من حضر ذلك الوقت بإشبيلية المذكورة أنه ما كان فيها مع أذفونش من الفرسان إلا أقل مما كان مع ابن الأحمر هنالك أو قريباً من ذلك ، وحلف ابن الأحمر بأيمانه حين ذلك ، أنه لا يراه أبداً ولا يلقاه إلا في قتال أو جلاد فكان الأمر كذلك . ولما وصل إلى مدينة ابن السليم ، بقلب منشرح وصدر سليم ، فإنه كان عاين هلاكه ثم خلصه الله وسلم فأوصى أهلها وأهل تلك الجهات بالتحصن والإحاطة ، وانصرف مجتازاً عليه إلى أغرناطة ، فعلم المسلمون أنه انفصل من أذفونش من غير اتفاق ولا ارتباط ، فأخذوا في التحصن على أنفسهم والاحتياط ، وأخرج أهل شريش من كان معهم في القصبة ساكنين فقد كانوا سكنوا بها نحواً من أربع سنين ، وضبطوا مدينتهم وقصبتهم بقية هذه السنة فكانوا بها هادنين ، لأنهم كانوا بايعوا ابن الأحمر ودخلوا تحت طاعته وكان اشترط على أذفونش اللعين أنه من يدخل تحت طاعته من بلاد المسلمين

---

(187) في ط : حلف إليه .

يدخل في صلحه ، فكان بقية هذه السنة انصرامه وتمامه .

وكان أيضاً أهل شرق الأندلس صالحوا الروم بمال معلوم يدفعونه لهم في كل عام وأعطى أهل مرسية قصبتهم للروم الذي هو قصرهم إلى أن وصلهم الروم الساكنون فيه بأذاهم وضرهم فأخرجوهم . في هذه السنة منه بالقتال لهم والحصر ، وسموه عندهم ،قيمة القصر ، فقاموا على النصارى وضيقوا بالحصار عليهم ، وحينئذ أخرجوهم بعد ما ألقوا السلاح إليهم[188] ، وكتب أهل مرسية إلى الأمير ابن الأحمر ببيعتهم فبعث الرئيس أبا محمد ابن اشقيلولة إليهم والياً عليهم فزحف النصارى إليها ، ونزلوا عليها فبقي الرئيس فيها محصوراً ، وفي نفسه مقهوراً ، فخرج منها ورجله فراراً، فلم يجد أهل مرسية بعده حماة ولا أنصاراً ، فضاقت عليهم أحوالهم ، بما أصابهم من العدو ونالهم ، وطال عليهم حصارهم وعدموا حماتهم وأنصارهم ، فأعطوا مرسية للنصارى وخرجوا منها بأمان إلى الرشاقة فسكنوا بها مدة من عشرة أعوام إلى أن كان من أمرهم ما كان حين أخرجوهم في سنة ثلاث وسبعين ، وغدروهم في الطريق أجمعين وذلك بموضع يعرف بوركال ، فسبوا النساء والأطفال ، وقتلوا جميع الرجال ، وقد كانوا أخرجوهم بالأمان دون سلاح ، فتحكموا فيهم كيف شاءوا بالسيوف والرماح ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

ولما جاز الامير ابو عبد الله محمد بن ادريس وأخوه عامر ومن كان معهم من الفرسان الأنجاد برسم الغزو كما ذكرنا والجهاد كان الأمير أبو عبد الله ابن الأحمر استصرخهم يرغبهم في ذلك فوصلوا إليه فاستعد لهم بظريف ضيافات وكرامات حين جوازهم ، وأمر لهم بكل ما يحتاجون لجهازهم ، ثم استقروا بعد ذلك بمالقة بقية هذه السنة وانتقلوا الى شريش في السنة التي بعدها، حين اشتعلت نيران الحروب بعد خمودها واقتدح زندها، فنالت الغزاة المذكورون[189] في غزوها وجهادها مناها وقصدها ، ودامت الحروب مدة من ثلاثة اعوام من هذا العام ، الى أن عقد الصلح ولد الامير ابن الاحمر بعد

(188) في ت : السلاح عليهم .

(189) في ط : المذكورين .

ذلك على ما يأتي ذكره ان شاء الله تعالى .

اختصار الخبر عن مقتل اولاد الامير أبي يحيى وكيفية أمرهم

وذلك ان هؤلاء الامراء أبا مطهر(190) وأبا سالم وأبا حديد كان قد وصل معهم الى طنجة ثلاثمائة فارس من بني مرين وغيرهم فخرج إليهم صاحب طنجة ابن الامين ، وحلف عليهم في الدخول باعظم اليمين، فدخلوا معه فانزلهم بالقصبة وبالغ في اكرامهم وبرهم فطلبوا دخول الحمام فاجابهم فلما حلوا بالقصبة غدروا ابن الامين وجرعوه كأس الحمام ، وكان قد قام بحقهم خير قيام ، واعتنى بهم وبرجالهم غاية الاعتناء التام ، ودخل بعضهم الى القصبة والآخرون تفرقوا في البلد لقضاء حوائجهم، ثم ان رجال ابن الامين المرتبين الذين كانوا تحت إحسانه وإنعامه اجتمعوا اجمعين ودخلوا على من كان بالقصبة من بني مرين ورجالهم فقتلوهم صبراً وقعدوا بسلاحهم على أبواب القصبة واستدعوا ما بقي منهم الى القصبة فظنوا ان استدعاءهم كان برسم الطعام والكرامة فيقتلون واحداً بعد واحد إلى ان لم يبق منهم عين ولا أثر ولا من يخبر بخبر الا ان شخصاً واحداً ذكر انه دخل في سرب وخرج بعد أيام على شاطىء البحر ، فسلم من الطعن والضرب . ولما كان من قتل بني مرين وبني عبد الحق ما كان خاف أهل طنجة أن يعاقبهم السلطان أشد عقاب ، ويولجهم من القتل كل باب ، فخاطبوا صاحب سبتة أبا القاسم العزفي وبعث إليهم القطائع الغزوانية وبعث اليهم القائد أبا القاسم الرنداحي وابن حمدان فملكوا طنجة وقبضوا على اولاد ابن الامين ورجالهم واستاقوهم الى سبتة بأولادهم وعيالهم ، وولي طنجة ابن حمدان من قبل الفقيه واستقر بقصبتها وأعطى الحفز في أبوابها الى ابي عبد الله ابن الغماد(191) وبعث إلى سبتة بجماعة كبيرة من أعيان أهل طنجة ورجع حكمها الى صاحب سبتة . ولما كان هذا الحال الموصوف والنبأ المعروف وصل خبره إلى أمير المسلمين أبي يوسف فتحرك بعساكره إليها ونزل بمحلته عليها ، فقاتلوه من أعلى السور ، فلم يقدر لها بأمر من الامور .

---

(190) في م و ت : أبا مظفر .

(191) في ت : بن العماد .

ذكر مقابلة أمير المسلمين ابي يوسف للموحدين ومقتل ولده عبد الله بالمخالص

وقيل ان هذا كان في السنة الفارطة . ولما تحرك أمير المسلمين رحمه الله من بلاد الغرب الى مراكش برسم حصارها والتضييق عليها نزل بمحلاته بظاهرها بمقربة من جبل ايجليز وكان القتال بين بني مرين والموحدين بفحص المخالص ، فانقبضت النفوس بمراكش وارتعدت الفرائص ، وغلت الاسعار وعاد كالليل الحالك النهار ، وكانت الحرب بينهم توقد نارها وتجدد رسومها ، والقواضب والاسنة تومض بروقها وتطلع نجومها ، فقدر الله بوفاة عبد الله ابن أمير المسلمين فحال ذلك بينهم وبين الحروب ووجه المرتضى إثر ذلك رسوله يعزيه في ابنه ويعزي في اخوته واستلطفهم واسترضاهم واستعطفهم ثم وافقهم على مال معلوم يصلهم في كل عام، فرحل أبو يوسف رحمه الله ووقع بينهم التراضي والانعام . وفي سنة **ثلاث وستين وستمائة** كان فرار السيد أبي العلى الملقب بأبي دبوس من مراكش فقصد السلطان أبا يوسف وهو بحضرة فاس يطلب منه أن يعينه على حصار مراكش وعرفه انه اتفق على ذلك مع جماعة من الناس فعجب الامير أبو يوسف من مقاله واستخف قوله واستحقر أن يكون ذلك من فعاله ثم أعطاه خمسة آلاف دينار وطبول وعلامات بعد أن عاهده أن يكون في خدمته وان يقاسمه ما يجده من الأموال والذخائر المثمنات وانصرف إلى مراكش .

ذكر فرار أبي دبوس من مراكش الذي كان السبب في دخوله إليها واستيلائه عليها وما كان من أمره ، وخروج المرتضى له من قصره

كان السبب في فراره اهتضام جانبه في احواله ، فمن ذلك انه منع الجواز على الوزراء بنعاله ، وكان ذا همة عالية ، فأمر ان ينقص منها على غير عوائد الجارية ، فخرج لبحيرة يطى باولاده وعياله ، وقد ساءته جميع احواله ، فرفع الى المرتضى يعرفه بقلة ذات يده تعريفاً ، ويستأذنه في تطهير أولاده ببحيرة يطى ليكون عليه الامر خفيفاً ، فامره بذلك وأمر بالاحسان إليه والانعام عليه، فعند خروجه الى البحيرة المذكورة قطع أولاده من حينه في

ليلته ، ونظر لاهله وعشيرته، وقال لما بدا التحقير زال التوقير ، والله لاذهبن فاراً بنفسي ، خيفة على رأسي، فودعهم وخرج مع ابن عمه السيد ابي موسى إلى فـاس وبها استقر فلما كان في غد تلك الليلة التي فرّا فيها وعدم حضورهما بالقصبة لم يوقف على خبرهما بل علم تحقيق الفرار ، ولم يعلم حيث استقر بهما القرار ، فعند ذلك أمر المرتضى بثقاف ديارهما وأولادهما ، وطلب كل من تعلق باذيالهما ، ولما وصل السيد ابو العلي إلى حضرة فاس انصرف منها مقضي المآرب ، مرضي الاغراض والمطالب ، بعد عهود مؤكدة ، وأيمان كما تقدم مرددة ، وكتب له أمير الميسلمين أبو يوسف الى علي بن أبي علي الخلطي أن يعينه بكل ما يحتاج اليه ، ولما خرج من فاس أمر أبو دبوس بنشر علاماته وضرب طبوله، واجتمعت عليه اوباش عند قفوله، وتوجه معهم بالعلامات والطبول ، الى حيث النزول فضربت له هناك خباء[192] وقياطين كأحد السلاطين ، ولما علف قام في أول الليل ورحل مجداً في السير خوفاً أن يندم الامير على ما فعل معه فيعقب عليه بالغدر ، ووصل الى علي الخلطي فاسعد واسعف ، واقام عنده بعض أيام ثم انصرف وتوّجه الى مسعود بن جلداسن الهسكوري فاعانه ولم يمنع عنه احسانه، وكان فراره من مراكش في العشر الوسط من شهر محرم من عام ثلاثة وستين واستقراره بالجبل عند ابن جلداسن المذكور في أواخر صفر من العام المذكور.

وفي هذه السنة كان بالأندلس غلاء مفرط أكثره بمالقة فكان فيها المأكول غال ونيله عويص ، وبيعت فيها الحاجة المثمنة بالثمن الرخيص ، عصم الله من مثله بمنه .

وفي سنة أربع وستين وستمائة .

تمكن السيد ابي العلى بجبل هسكورة ، وأخبار ظهوره في كل مشهد مذكورة ، والناس ترد عليه في كل الايام ، فيعدهم بالاحسان والانعام، ولما تحقق ذلك المرتضى تقلب كأنه على جمر الغضا واتهم شيخ عرب سفيان مسعود ابن كانون انه ينقض عهده ويرتكب الطغيان ، فأمر باعتقاله بعد أن رادده فيه من رادده فلم يسمع من مقاله ، فبقي في السجن معتقلاً الى ان دخل أبو

---

(192) في الاصل : خباة وقد صححناه .

العلى مراكش فأطلقه وكرمه ثم اقتضى نظر المرتضى ان يثقف شيخ بني جابر وقائد الروم ، واتهم أن كل واحد منهما يروم الفرار . ولما استقر أبو العلي بالجبل مع الهسكوري ورد عليه حبيب ابن يوسف الصودي فأعطاه ثلاثة من الخيل الجياد ، فقبله منه وشكره على ذلك وابدى له جميل الاعتقاد ، وطاعت له في هذه السنة هزرجة وجميع قبائل هسكورة ، واحواله تلوح سنية مشهورة ، ووصله في هذه السنة من قبل عزوز بن يبروك[193] هدية ايضاً لكنه لم يصل بنفسه إليه ولا وفد عليه بل كان في خدمة الدولة السنية المرينية لكنه لأجل خروجه عن مبايعة المرتضى وطاعته ، أوجب أن يخاطب هذا السيد ويهاديه ولم يدخل تحت مبايعته . ووفد على السيد أبي العلى في الجبل جماعة من المساحة[194] والموحدين وجمع كبير من المتجندين فعظمت شوكته في الجبل المذكور ، وأصبح لديه جمع مأمور ، والمرتضى في قصره عن أمره غافل والحين[195] عنه غير متغافل وهب عليه ـ نعوذ بالله ـ ريح الادبار، واقبلت الفتوح على أبي العلي بموافقة الاقدار ، ومن المقادير ان المرتضى لم يدع بحضرته جندياً الا وجهه لرجراجة وحاحة ، فعدم في ذلك سداده وصلاحه ، وثقف كما تقدم شيوخ العرب، فلم يتأت له بلوغ الارب ، ومر جمع كبير من عرب سفيان ، مع شيخ من شيوخهم الاعيان ، وكذلك ابن قيطون ثائر مع جمع كبير من بني جابر ، وقصد جبل أبي دبوس ليكون من انصاره وحماته ، ودخل تحت طاعته ، وكذلك جمع من الروم اخذوا له في الفرار ، مع القائد زنار ، فقوي امر أبي دبوس بالجبل وزاد ، وظهوره في كل يوم يزداد .

والموحدون في كل وقت يكتبون اليه ويقدمون عليه ، ويخبرونه من أحوال المرتضى بالقليل والكثير ، وان سلك مملكته نثير ، ولقد قال لهُ وزيره وصهره أبو موسى بن عزوز: يا سيدنا رضي الله عنكم، حضرتكم المباركة خالية من الأجناد، والعدو في الجبل قد ظهر أمره وزاد ، فابعثوا لابن وانودين وابن

---

(193) في ت : يبورك .

(194) في ط : المساطة .

(195) في ط : الحيز .

عطوش ليصلا إلى الحضرة، فنظره بأقسى نظرة، وقال له لا تدخل نفسك في شيء من ذلك، إلا ان كان وتنفق عليهم من مالك، فيصلوا جميعاً من هنالك، فصمت أبو موسى الوزير، ثم قال لمن قال ضرب الله القلة بالزبد[196] ، وكان أبو محمد بن زجوا في قلق عظيم من ذلك ومن تدبيره انه أمر بقتل إسماعيل بن قيطون المسجون وقيل بل مات مسموماً، فاورث في قلوب اخوته هموماً، فاغتاظ لموته أخوه ثائر، وكان في جمع كبير من بني جابر، واغتاظ أيضاً علوش بن كانون، وخاف ان يفوت الامر في أخيه مسعود المسجون، مثل ما فات في ابن قيطون. ولما استوفت على أبي دبوس العساكر، واجتمعت عليه جميع الهساكر، طمع في فتح البلاد، وعزم على الضرب والجلاد، فقصد الى جهة اغمات فخرج إليه من مراكش ابو زيد بن بخيت برسم حراسة اغمات وتلك الجهات فانقضت عليه خيل ابي دبوس فهزموه وقتلوا من كان معه فكان أول الفتح ودليل النجح، فقامت قيامة المرتضى من أجل ذلك ولكن اذا أراد الله بالحين، صمت الاذن وعميت العين.

وكان بمراكش أقوام يبحثون على الاخبار، ويكتبون المتزايدات بالليل والنهار، والمرتضى لا يسمع قول قائل، ولا يعبأ بتلك الدلائل، وخاطب ابا دبوس شيخ من أشياخ الموحدين، وقال له ان البلد خال من المتجندين، وحرضه على النهوض، وان يعوم في بحر العزم ويخوض، قبل ان تصلها الاجناد، المتوجهون لغرامة البلاد، فحلف علوش شيخ عرب سفيان ليسبقن[197] الى مراكش وليضربن برمحه في باب الشريعة أحد أبوابها، ويقاتل كل من يخرج إليه من أربابها، فلما كان يوم الجمعة الحادي والعشرين لشهر محرم وصل علوش بن كانون السفياني المذكور مع جماعة من العرب، برسم ما حلف عليه وله انتدب، والناس بمراكش في صلاة الجمعة فقصد باب الشريعة وركز فيه رمحه، فقامت في البلد رهجة وصيحة، فخرج الناس من الجامع وطلعوا إلى السور، فعاينوا علوشاً المذكور، وهو راجع من الباب مع

---

(196) في ط : بالزيد.

(197) في ط : ليستبقن.

اشياعه ، ولم يخرج أحد من البلد لاتباعه ، وبات الناس في تلك الليلة خائفين مترقبين ، ولما يصدر في أثر ذلك متأهبين ، فساءت حالهم ، وترادفت أوجالهم،واودعوا بالقيسارية أموالهم ، والمرتضى غير متأهب لحرب ، ولا مفكر في طعن ولا ضرب ، فلما كان يوم السبت بعده طلع إلى القصبة ارباب الدولة على العادة فخرج اليهم على عادته وسألهم عن تلك الخيل المغيرة الى باب الشريعة فأخبروه انه علوش المذكور فما أطال ساعة الجلوس، وقام بوجه عبوس ، بعد أن قال: تخرج المضارب في غد وتضرب بحومة المصلى ان شاء الله تعالى .

كيفية دخول أبي العلى المدعو بأبي دبوس مدينة مراكش

ولما كان يوم السبت اقبل الى مراكش بمن معه من الحشود ووصله من الجنود ، فتوجه قاصداً الى باب اغمات أحد أبوابها ، فأمر بتفقد الاسوار هل هي خالية من حراسها ورقابها ، فتطلع أحدهم على السور ، فلم يجد شيئاً في تلك المسافة كلها إلى الباب المذكور ، فاعلم الناس بذلك وحينئذ تعلقت بعض رجال من هسكورة بالسور وطلعوا على الباب من هنالك ثم هبطت جماعة منهم إلى الباب فكسروا قفله، وهدموا الستارة التي كانت حوله، ودخل أبو العلى مراكش ونصبت الراية عليه واقبلت الحشود إليه فما اوقفهم أحد من أهل البلد فبلغ الخبر إلى المرتضى فوجه ولده ابا عبد الله فركب على جواد ، وليس معه أحد من أجناده الا نحو عشرة من العبيد وفارس واحد فتوجه الى باب الصالحة. فعاين الخيل وسمع الطبل فولى نحو القصبة خائفاً وجلا ، وان رأى غير شيء ظنه رجلاً ، وقد عاين كثرة الرجل والخيل ، وتركهم يميلون خلفه مثل السيل ، وذلك بمقربة من باب الصالحة فعاين أحوال أبيه غير ناجحة ولا راجحة ، ولما وصل إلى البويبة وجد فيها ابن يعلى[198] واحد الوزراء فاخبره بما عاين من دخول الاعداء ، فسقط ابن يعلى إلى الأرض مغشياً عليه وفر راجله الى أبي دبوس قاصداً اليه فأمر السيد أبو عبد الله بغلق البويبة وباب الطبول ، وأذن لمن كان هنالك من الخدام بالدخول ، فدخل

(198) في ت : ابن يعلو .

معه أبو زيد بن يعلى الكومي وأبو موسى بن عزوز الوزيران وحضر معهما في الوقت أبو عبد الله المشرف ابن أبي البركات وأبو عبد الله التلمساني وابن عباد الاندلسي وموسى الحافز الهرغي والقائد سعد الحاجب ، ولما وصل أبو العلى مع من كان معه من الاجناد الى البويبة وجدها مغلقة وحينئذ حفز بعض الرجال الواصلين معه في حرم الجامع الكبير إلى اساراج الاول وحطوا(199) فيه وكسروا قفل باب البويبة، وحينئذ دخل أبو العلى مع بعض من كان معه فعرف السيد أبو عبد الله والده المرتضى بما عاين وحينئذ حمل ذلك على التصديق ، فركب جواده الى باب الطبول وعاين ذلك بالتحقيق ، وذلك من بين الابواب وهو راكب على جواده ، فقام اللهب في فؤاده ، فطلب الماء ليشرب منه فأتي باناء فشرب منه وشرب أبو دبوس باقيه فكان ذلك من اغرب الاشياء أن ملكين شربا في ذلك الاناء من ذلك الماء ، فلما عاين ذلك الامر المرتضى ، سلم الامر للقضا ، وامر ابنه عبد الله ان يصعد على برج الباب فصعد وصاح على كل من كان فيه فابرق وارعد ، وكان فيه علج مسجون فعاينه يتكلم مع قائد الروم ، زنار ، فاختطفه ورماه من أعلى البرج فسقط ميتاً ، ولما رأى أبو دبوس سقوط العلج إلى الارض من البرج قدر انه معمور بالرجال ، فخاف من الرمي عليه بالنبال ، فتحول من أمام باب الطبول الى حومة باب الكحول ، فوجده مفتوحاً لأن أبا موسى ابن عزوز حين غلقت الابواب بقي في أساراج فمن خوفه ووجله أمر رجاله أن يكسروا قفله فكسروه وفر منه إلى جبله، فسر أبو العلى من أجله، ووقف امامه مع قوم قلائل من خيله ورجله، وتفرقت عنه جموع هسكورة ودخلوا القيسارية ونهبوها اي انتهاب، واستولوا على جميع ما كان فيها من الامتعة والاسباب ، واشعلوا النار فيها وحرقوها ، وسلبوا الحوائج من الديار واستاقوها ، وبقي ابو دبوس في أساراج الاول يوم دخوله من الظهر الى بعد العصر ثم أمر بفتح دار الاشراف ففتح ونقب منها الى القصبة ودخل الرجال إليها من تلك الانقاب ، وحصلوا منها باساراج القباب . وكان المرتضى رحمه الله أمر باطلاق غرسيا طالس من ثقافه فأطلق وأزيلت عنه الكبول، وأعطاه حصاناً ودرقة فزاد ونقص في كلامه ولم يفهم عنه

---

(199) في ت : وحصلوا .

ما يقول ، ثم اشتد الامر على المرتضى فوجد النصراني غفلة وفلتة فكان أول من صعد باب الطبول فوجد فيه أبا عبد الله بن زجوا والنصراني القطلاني وبعد ذلك وصلهم المشرف بن ابي البركات والكاتب التلمساني وفيه كان اجتماعهم بعدما خارت طبائعهم فطلبوا العفو من أبي العلى فعفا عنهم وحلوا الباب فبايعوه ودخل بعد صلاة العصر وبقي تلك الليلة لم يدخل القصر حتى صح عنده هروب صاحبه وفراره ، وحينئذ اطمأن واستقر به قراره .

كيفية فرار المرتضى من قصره ، وما آل إليه أمره في آخر عمره

ولما رأى المرتضى أموره غير ناجحة ، توجه إلى بنيته التي سماها بالفاتحة ، فقصد إلى بابها المسمى باب النحل ، فأمر عليه بالحل ، وكانت مفاتحه عند وكيل القائد سعد الحاجب ، وكان الوكيل غائباً في الوقت وكان سعد المذكور يريد الرجوع عنه فوجد العذر بالمفاتح لأن يرجع ويحضرها فقبل ذلك منه فانصرف ولم يعد اليه بعد ذلك وبقى المرتضى ساعة كبيرة ينتظره فلما صلى المغرب أمر بكسر باب النحل وخرج منه فاراً بنفسه ، لا يعلم يومه من أمسه ، وهو راكب على جواده ، ومعه الوزيران المذكوران وبعض أولاده ، فأخذ في التدبير مع وزيريه والفرار ، الى حيث يكون الاستقرار فقال له أبو موسى ابن عزوز: عسى يا سيدنا يكون استقرارك بالجبل عندنا وفيه يقع التدبير ووجه العمل، وذلك منه إليه أكبر الحيل ، لأنه كان في اختياره ، أن يصل الى جبله وأهله ودياره ، وكان بعض العرب قد نزلوا بواونزارت فأخذ المرتضى مع أصحابه على تانششت وتوجهوا إلى بلد كيك وفي نصف الليل وصلوه فاجتمع مع أبي بكر بن ياللتان النيمغري وبعض أخوانه فحملوه الى موضع أبي موسى بن عزوز وأوصلوه، فلما وصل أبو موسى إلى قبيله وجد ابنه أبا سعيد قد سبق اليهم وعرفهم بالخبر قليله وكثيره ، فقال له بعض قبيله: قد كتبنا لأبي دبوس بمبايعته والدخول في طاعته ، فكيف يقيم هذا عندنا بعد ذلك، فامتنع أبو موسى من الرجوع إليه وبقي المرتضى رحمه الله واقفاً إلى أن تبين له الأمر فتنقل هو وولديه والوزير ابن يعلى[200]

---

(200) في ت : أبو يعلى .

الكومي فمروا على دوار علي بن زجدار الونجاسني المريني وكان قد وصل برسم خدمته، فلم يقض الله له أن يراه في سلطانه وحضرته ، وكان المرتضى قد أذن له في الوصول اليه والقدوم عليه ، فأبى الله ذلك الا ما قدم من فراره ، وأن يكون اجتماعه معه في داره ، فلما وصل مع أولاده اليه ، بالغ في الاكرام والاقبال عليه، وصار يذكره ويصبره فقال له المرتضى: يا أبا الحسن أردنا أن تكون من أضيافنا فكنا نحن من أضيافك. فبكى ابن زجدار من كلامه ، وتفجع لأمره وحاله .

ورحل معه بجمعه إلى جدميوة ، وكان فيها وزيره أبو زيد الجدميوي فبعث اليه المرتضى أن يصله فمنعه ابن سعد الله فتوجه إلى شفشاوة وكان له بها جملة كبيرة من البغال فأعطاها لعلي بن زجدار ، وكتب الى ابن وانودين ليصله بالأجناد من حاحة والقواد، فبقي ينتظره الى أن قيل له قد جاز ، وأن ابن عطوش قد توجه أيضاً من رجراجة بمن كان معه من الأجناد ، ولما بلغ الى المرتضى رحمه الله خبر قواده، وأنهم توجهوا الى مراكش انقطع أمله وأمل أولاده، وبلغه أيضاً أن الكتب وصل إلى ابن زجدار من أبي دبوس بالتوكيد في الوصول اليه فخاف المرتضى على نفسه أن يقبض عليه فتوجه مع أولاده والوزير المذكور الى مدينة آزمور ، وقصد إلى عبد العزيز بن عطوش الوالي من قبله عليها الذي فداه من بني مرين بمال كثير ومن أجل ذلك توجه إليها، ولما وصل إلى مدينة أزمور قصد إلى قبر الشيخ الصالح المبارك أبي شعيب نفع الله به برسم الدعاء والتبرك وعند فراغه من الدعاء بعد صلاة المغرب قال تنصرفوا الى باب أزمور ، وتعرفوا بوصولنا البواب الذي في السور، ليعرف بذلك عبد العزيز المذكور ، فقال له أبو زيد بن يعلو: يا سيدنا عبدكم أعلم منكم بعبد العزيز وقلة دينه وعدم وفائه وعبدكم يعرف حاله في قبح أعماله الدنية وأفعاله، فنخاف يا سيدنا عليكم من قبح فعله اليكم، فقال: حاشى لله أن يفعل ذلك معنا ونحن فديناه بأموالنا وقدمناه على بلادنا فلما سمع أبو زيد ذلك منه ودعه وانصرف عنه وتركه منفرداً مع أولاده ، وحيداً من رعاياه وأجناده ، فوصل أولاده الى الباب المذكور، وكلمهم البواب من أعلى السور ، فقال له أحدهم تعرف أبا فارس بوصول سيدنا اليه ، فتوجه البواب ودخل عليه ، فعرفه بذلك الخبر وأن الخليفة له منتظر ، فبعث الى أبي عبد الله ابن

القاسم من حينه إليه، فوجد البواب قاعداً بين يديه، فأخبره أبو فارس بالقضية فأخذا في التدبير ، وبقيا متحيرين في هذا الأمر الكبير ، والمرتضى رحمه الله خلف الباب ينتظر البواب بالجواب الى نصف الليل فانقطع أمله وانفصل صادراً من هنالك ، لا يعلم مسلكاً من تلك المسالك ، فبقي يتخبط لا يعلم طريقاً ، ولا يألف خلا ولا صديقاً ، وأما ابن غطوش فلم يجد له حيلة لأنه قد كتب مع أشياخ صنهاجة البيعة لأبي دبوس وأنهم منتظرون في حزبه وجماعته،وكان أبو دبوس قد أمر بالبحث عليه في جميع طاعته فوصل الجوزهر الى أزمور ، برسم البحث على المذكور ، فلما أصبح صباح تلك الليلة التي وصل فيها إليه أخرج في طلبه جماعة من الخيل والرجال للقبض عليه ، فخرج المذكورون والجوزهر معهم وبعض أشياخ صنهاجة في طلبه فوجدوه قد دخل في غار على شاطىء الوادي، خيفة أن يبصره الرائح والغادي ، وذلك بمقربة من الموضع المعروف بورتوصوف فقبضوا عليه وأكبلوه ، وركبوه على زامل وحملوه ، وركب أولاده على زوامل معتقلين وثقفوهم في دويرة صغيرة بازاء دار الوالي المذكور ، فطلب من الوالي أبو الحسن القرطبي الذي كان مشرفاً بازمور أن يكون طعامه من عنده ما بقي هنالك مثقفاً فأبيح له ذلك وكتب ابن عطوش الى أبي دبوس يعرفه بثقافه ليأمره بما يفعل به وبأولاده فلما ورد كتابه عليه سر بذلك سروراً عظيماً ، ولما تحقق أبو العلى الواثق بالله ثقاف المرتضى بازمور وكتب له ابن عطوش بكيفية حاله فيها واعتقاله ، أمر وزيره أبا موسى أن يكتب له يسأله عن بيت مال المسلمين حيث هو ليعلمه بذلك في جوابه إليه .

فكتب السيد أبو موسى عن أمر أبي العلى الواثق بالله الى أبي حفص المرتضى بهذا النص

اقتضى نظر سيدنا ومولانا الخليفة الامام الواثق بالله تعالى المتعمد عليه أمير المؤمنين أبي العلى بن سيدنا ومولانا الخليفة الامام أبي عبد الله بن سيدنا أبي حفص بن سيدنا الخليفة عبد المؤمن أيده الله تعالى ونصره وأعانه وظفره ، الوصول إلى هنا برسم الاجتماع بك وسؤالك عن المال الذي كان بيدك بعد أن تعرف من طرق صحيحة كثرته وأنه مال المسلمين ولم تزل أبداً تنتمي الى الزهادة وتتصف بالورع ومن يكون كذلك فلا يليق به كنز الذهب

ولا الفضة حتى يدفنه في الأرض وقد قال الله تعالى في الذين يكنزون الذهب والفضة ما قال، فان كان ما بيدك مدفوناً فعرف حيث هو أو مودعاً فعرف عند من هو، واذا أقررت بأحد هذين الوجهين يرجى لك عفو سيدنا ومولانا الخليفة أمير المؤمنين والا فلم تلم الا نفسك وأنت المسؤول عنها، وأنا الآن ارتقب جوابك لنطالع به الباب الكريم أسماه الله تعالى ، وكتب عمران بن عبد الله بن سيدنا الخليفة .

فكتب المرتضى جوابه بخط يده : حفظكم الله تعالى وأبقاكم رحمة للرحم والله وحق هذا المقام ما نغادر ـ ولا نرضاه لحشري ونشري أن نغادر ـ صغيرة ولا كبيرة، فالذي كان في مواضع مختلفة في بيوت وخزائن بل خزانة واحدة وزوج صناديق والحلى والقلائد متفرقة فلا أعرف ما وجد وما لم يوجد وما تحت الأرض، الله يعلم أني ما دفنته ولا أودعته، ونعلم[201] ما يلزم عند الله في ذلك ، اللهم وقت وصول المريني كان الشيء كثيراً حتى خرج لما وصل الزعيم بن سجن بمعرفة الخدمة كلهم والله تعالى على ما نقول وكيل، وبفضلكم يا أخي وبحق الدم والرحم ،الابقاء عليّ واعملوا ما يجازيكم الله تعالى عليه ان شاء الله والسلام يخصكم والرحمة والبركة .

وكتب المرتضى أيضاً في بطاقة مدرجة مع كتابه يا أخي حفظكم الله عسى بفضلكم تتلطفوا عند مقام الرحمة وغياث الأمة[202] رضي الله تعالى عنه وأبقاه رحمة لصلة الأرحام وعزة للاسلام ، في الذي وعدتم من التأمين والأمان والابقاء مع الأصاغر والأحفاد بقية العمر، فأخوكم شيخ ينتظر ما لا بد منه وكثير العلل، فبالله رحمة وحناناً واشفاقاً فيما سألتكم، فنضرع لكم فيه بحرمة مولانا المصطفى ﷺ تسليماً والله سبحانه يبقي عليكم نعمه ، ولا ينسى لكم هذه المكرمة ، ومولانا المقام الأرحم الأعطف فقد عمل فالله تعالى يجازيه بفضله ويخلد ملكه آمين آمين آمين . ولما وقف أبو العلى الواثق بالله على كتابه شفق وحن عليه وبعث السيد أبا موسى عمران مع أبي سرحان بن كانون وجماعة من سفيان برسم توصيله الية وتمثيله بين يديه، ثم بعد انفصالهم وقع

---

(201) في ط : ويعلم .

(202) في ط : الأرمة ، والتصحيح من اجتهادنا .

الرأي والتدبير في أن يقتل قبل وصوله فانه لا يعلم ما يكون عند قدومه لحضرته على أجناده وخدامه ، أشار عليه بذلك السيد أبو زيد الأعرج لأنه قام في ذلك وقعد وانزعج وحرج ، فكتب السيد أبو العلى ادريس براءة بخط يده الى السيد أبي موسى المتوجه لايصاله اليه وحمله ودفعها لعمر بن آصلماط السنون[203] تتضمن قتل المرتضى في أي موضع يلقاه فالتقاه بفرزغون، وثم جرعه كأس المنون. وكان رحمه الله تعالى على بغل مكبولاً، وفي العمارية محمولاً ، وكذلك أولاده مكبولين على الدواب، وكل واحد منهم بنقاب، ولما وقف السيد عمران على الكتب الواصل إليه أوقف أبا سرحان مسعود بن كانون عليه وأمر الرجال أن يقفوا بالدابة التي كان عليها المرتضى هنالك بجانب ودارت الخيل والرجال عليه من كل جهة بخلال ما يحفر له القبر وينقضي فيه الأمر ، وتقدم بأولاده بعض الفرسان من ذلك المكان ، وقد تبين لهم من حتف والدهم وفقدهم اياه حين اخر عنهم كل التبيان ، ثم جبذ البغل بالمرتضى رحمه الله الى الموضع الذي قدر الله عليه بالموت فيه فأهبط عن الدابة وعاين القبر الذي حفر له فقال للحاضرين: هذا هو قبرنا؟ فقيل له: نعم يا سيدنا فقال: اتركوني أصلي ركعتين، فصلاهما خفيفتين ثم تأهب للموت وقال للواصل اليه بالسيف: أتطوع هذا منك أو أمر به؟ فقال له بالأمر ، ثم استشهد واستشهد وقضى نحبه رحمه الله ، وقبره الآن مشهور بفرزغون فانا لله وإنا إليه راجعون ، ودفن يوم الثلاثاء الثاني والعشرين لصفر من العام المؤرخ بعد شهر كامل من خروجه من قصره، رحمه الله وعفا عنه برحمته .

وكان الخليفة المرتضى رحمه الله يتوقى شر من اسمه ادريس لأنه كان في علمهم أن دولتهم على يد من اسمه أدريس تنقرض وتندرس فلما ولى الخلافة ادريس الملقب بالمأمون قتل أشياخ الموحدين وقطع دعوتهم وأزال اسم مهديهم من سكتهم وخطبتهم فقالوا هذا هو ادريس المذكور الذي يدرس دعوة التوحيد، ثم أعاد الدولة والدعوة ولده الرشيد، فلما ولى الخلافة أبو حفص المرتضى من بعد السعيد كان في أيام دولته شخص اسمه ادريس من أولاد المنصور يريد العلو والظهور ، فظن أنه هو ادريس المذكور ، فقيل انه قتله

---

(203) في ت : النسنون .

بالسم والله أعلم بخفيات الصدور ، وأما ادريس هذا الملقب بأبي دبوس فكان عنده أبداً محقوراً ، فأراد الله أن يخرجه على يده من قصره مفؤوداً مقهوراً ، يسري ليله ويختفي نهاره ، لا يأوي الى معمور ، الى أن غلبه القدر المقدور ، فكان من أمره ما ذكر رحمه الله . وكان رحمه الله اماماً عادلاً وملكاً فاضلاً وفقيهاً عالماً وبالسنة والكتاب حاكماً لم تعلم له صبوة في صباه ولا سطوة تتقيها أعداه ، بل كان يأخذهم بارادته ، فكم له فيهم من قتيل في أيام دولته . وكان أديباً عفيفاً شاعراً ظريفاً غير أن شعره كان ضعيفاً . ووقفت له على سفر مجلد من شعره بنظمه ونثره ، فمن ذلك قوله في شهر ربيع :

وافى ربيع قد تعطر نفحه ... اذكى من المسك العتيق[204] نسيما
بولادة المختار أحمد قد بدا ... يزهو به فخراً وحاز عظيما
بشرى بشهر فيه مولده الذي ... ملأ الزمان علاؤه تعظيما
ضاءت به شرق البلاد وغربها ... وتأنقت أرجاؤها تنعيما
فاعتز أمر الله يوم طلوعه ... وغدا به دين الالاه قويما
فاعرف لهذا الشهر حقا قدره ... فلقد غدا بين الشهور كريما
شهر كريم جاء فيه محمد ... صلوا عليه وسلموا تسليما

ومن قوله في معنى الزهد :

ولما مضى العمر الا الأقل ... وحان لروحي فراق الجسد
دعوت إلاهي مستعطفاً ... ليصلح مني ما قد فسد
ويصلح نفسي وأخلاقها ... ويذهب عنها الريا[205] والحسد
فسوق الرياء بها نافق ... وسوق العفاف بها قد كسد

ومن قوله معتذراً عن لقبه :

يدعون عبدك سيدي بالمرتضى ... هيهات أين وأين مني المرتضا
ما لي على ما لقبوه قدرة ... الا بما أرجوه منك من الرضا

ولما رد ولد ابن الصقر على الخطيب في خطبته كذبه حين فاه بعصمة

---

(204) في ل : الفتيق .

(205) في ط : الرياء .

المهدي أراد المرتضى رحمه الله أن يسجنه ولا يقتله على قوله فأبى الأشياخ والوزراء إلا وقوع قتله إلى أن غلبوا عليه فآل أمره الى القتل خوفاً من أن يقول ذلك غيره فأمروا عليه فقتلوه ظلماً قبحهم الله. وكان يقوم بليلة المولد خير قيام ويفيض فيه الخير والانعام وكان أشار له بذلك الفقيه أبو القاسم العزفي لأنه لما ألف كتابه «الدر المنظم في مولد النبي المعظم» بعث به إليه وأشار بذلك الرأي عليه. وكان محباً في مطالعة الكتب وتواليفها وتصانيفها فألف له الفقيه أبو محمد ابن القطان جملة من الكتب الحفيلة الجليلة وأمده بالدواوين العظيمة والخيرات الجليلة، فمنها: «كتاب نظم الجمان، وواضح البيان، فيما سلف من أخبار الزمان»، و«كتاب شفاء الغلل، في أخبار الأنبياء والرسل»، و« كتاب الأحكام » لبيان آياته عليه السلام ». و« كتاب المناجاة»، و«كتاب المسموعات فيه قصائد متخيرات فيما يخص بالمولد الكريم وشهر رجب وشعبان ورمضان» وغير ذلك. وكان رحمه الله غير مبخت في حركاته يخرج للحركة من الحضرة بالعساكر الضخمة والاعداد الجمة فما يسلم فيها من بوس ولا من يوم عبوس، ولا تحدث عليه فيها حوادث وخطوب كوارث حتى يجفل عسكره بالهروب من غير قتال ولا حروب، وطول ثقافه بازمور يرثي نفسه ويبكي على فقد إلفه وطول محنته وغربته فمن ذلك ما قاله:

قهر المنية تحت الترب اسكنني   وما أخذت من الدنيا سوى كفن
فيا بني ويا إلفي ويا سكني   تالله لو كان لي حكم على زمن

يوماً من الدهر ما فارقتكم أبدا

تركتهم بين تشتيت ومجتمع   وبين باك من اللذات ممتنع
ونسوة بالفنا يبكون من جزع   البست من بعد عريٍ أهون الخلع

وما مددت لهم يوم الوداع يدا

أنا الغريب بارض ضاق مسلكه   مع البنين ولكن كنت أملكه
ما كان ظني صغير القوم أتركه   في حجر مرضعة يحبو فتمسكه

بالرغم مني تركت المال والولدا

طمعت في الروح أن يبقى معي فأبى　　لما تحقق أن الأمر قد وجبا
ونال صرف زماني كل ما طلبا　　وصرت مستوحشاً من جملة الغربا

وعند قطع رجائي لم أجد أحدا

عين الزمان أصابتني بنظرتها　　واذهبت عزتي في طول مدتها
عجبت من بطئها عني وسرعتها　　وكيف مازجني تلوين صبغتها

في حين فارق مني روحيَ الجسدا

وأما أولاده فثقفهم أبو دبوس طول مدته الى أن أخرجهم الأمير أبو يوسف من ثقافهم في عام ثمانية وستين الا كبيرهم أبو محمد عبد الله فان أبا دبوس قتله في السجن بمسلة أدخلها تحت ابطه مات منها رحمه الله تعالى ، ولما أخرجهم أبو يوسف رحمه الله من السجن توجهوا الى الأندلس وحصلوا عند الفنش باشبيلية أعواماً عديدة ثم انتقلوا منها الى أغرناطة وحصلوا تحت طاعة أميرها، وهم الآن بها في عافية بمرتبات شهرية يقبضونها في كل شهر وكبيرهم أبو عبد الله فيها معهم . وأما أخوهم أبو زيد فوصل من الأندلس الى السوس على حمارة فسمته العوام أبو حمارة وذلك في عام أربعة وثمانين وستمائة، وهو الآن بقيد الحياة في جبل سكساوة يعيش من النسخ، وأخوه محمد بغرناطة في وقتنا هذا وهو عام اثنى عشر وسبعمائة .

ذكر خلافة الواثق بالله أبي العلى ومدته وبعض الأخبار في أيام دولته

نسبه : هو ادريس بن أبي عبد الله بن أبي حفص عمر بن عبد المؤمن.

كنيته: أبو العلى، **شهرته:** أبو دبوس لأنه كان ببلاد الأندلس في الجهاد وغيره لا يفارق الدبوس فاشتهر به ، وتسمى من أسماء الخلفاء باسمين في نسق الواثق بالله والمعتمد عليه .

صفته : ازرق العينين أشقر الرأس واللحية ساطع البياض مربوع القد وكان شجاعاً فارساً عازماً حازماً .

أولاده: جماعة منهم عبد الواحد بايعه بمراكش بعض القرابة والموحدين بعد موت أبيه .

اخوته: كانوا تسعة وهو عاشرهم وهم المشهورون بالبياسيين .

وزراؤه : السيد ابو زيد عبد الرحمن بن السيد أبي عمران وأخوه لابيه السيد أبو موسى عمران بن ابي عمران والمتقربون عنده من أشياخ الموحدين أبو محمد بن زجوا وابو زيد بن عبد الكريم ومن الحضر أبو الحسن المغيلي .

وكتب له أبو الحسن الرعيني وأبو عبد الله التلمساني من كتاب الخلفاء قبله وكتب له غيرهما .

مشرفه: أبو عبد الله بن أبي البركات كما كان مع من تقدم قبله .

قاضيه : أبو إسحاق بن القشاش .

وكانت دولته من حين استقراره بدار الخلافة مراكش حرسها الله تعالى عامين واحد عشر شهراً وثمانية أيام أولها يوم السبت الثاني والعشرين لشهر محرم مفتتح خمس وستين على الرواية المتقدمة في دخول القصر على المرتضى واستيلائه على مراكش، وآخرها يوم الجمعة منسلخ شهر ذي الحجة من عام سبعة وستين وستمائة، وقيل ان قتله كان في محرم من عام ثمانية وستين ، ومن الغريب ان فراره من مراكش كان في محرم وفتحه لها في محرم وقتله في محرم .

ولما استقر الواثق بحضرة مراكش وفر المرتضى من باب فاتحتها اشتمل الناس على طاعته، وتواردوا من كل مكان على حضرته ، فرفع عنهم الكلف والمحدثات بالبوادي والحواضر ، واقتصر على الحقوق الواجبة التي جرى عليها قديما العمل المتواتر ، وذلك مع تصرف القواد ، وكثرة المؤن للاجناد ، وليس ببيت المال مال ولا طعام ، فاستولى عليه الاحتياج الشديد والاعدام ، الا صبابة[206] معروفة القدر قليلة الخطر فاقتصر على ذلك القدر اليسير واوسع الاجناد العطاء للكبير والصغير وعفا عن المجرمين وصفح، وبذل العطاء ومنح، وأمر بالقبض على بعض المشتغلين فاغرمهم ، وقدم بعضهم على الاشغال والاعمال وأكرمهم ، وسرح الابواب للداخل والخارج دون غرم شيء من

---

(206) في ط : صبابته .

الأشياء لا في سلاع ولا في زرع ولا غير ذلك مما كان يغرم قبل ذلك من مدد الامراء ، وكما أمر برفع غرم الابواب كذلك أمر برفع المعونة في الرحاب ، وأمر بحل باب نفيس وباب المخزن وباب الفتح الذي دخلت منه مراكش وهو باب اغمات فسماه باب الفتح لما فتح منه مراكش وعند دخوله اليها وحلوله بها رفع اليه بعض الكتاب والطلبة اشعارا بالتهنية والاستعطاف فمن قول أبي الحسن الرعيني :

اسيدنا ومولانا والاولى ... بنا وخليفة الرحمن فينا
وظل الله من يأوي اليه ... ينال أمانه دنيا ودينا
اتيتك مستغيثا مستعينا ... وشأنك ان تغيث وأن تعينا
فانك رحمة الله التي قد ... تعارفها جميع العالمينا
وما لي ملجأ الا أياد ... تعاهدنا بها حينا فحينا
اذا ما الخطب اعضل منه داء ... وكاد الامر يقطع بي الوتينا
رجوت الله عز وجل فيه ... وفضلك يا أمير المؤمنينا

وكان الواثق بالله يوم فتح مراكش حين حل له باب الطبول، وبايعه كل من كان فيه من الطلبة والمشتغلين تلقاهم بالقبول، وأول ما قدم الدخول الى المسجد الجامع تيمنا به وشكرا لله على جميل مواهبه، فظهر عليه فيه اثر الخشوع والتواضع لله والخضوع ، فلما قضى حق الشكر لله خرج من الجامع وركب ببابه ودخل القصر في ذلك اليوم بعد صلاة العصر، ووقف هنالك لتهنية الناس له ولثم يمناه وذلك ممن حضر في الوقت معه والذين سرحهم من السجن كمسعود بن كانون وغيره وصرف الناس عشية ذلك اليوم . وقيل انه لم يدخل القصر تلك الليلة . ولما كان في غد ذلك اليوم المذكور ركب بنفسه ودار في البلد لردع المفسدين والمعتدين وأمر بضرب رقاب شخصين فكفت ايدي التعدي عن الناس . وبعث الى الأمير الأجل أبي يوسف أرساله وشرح له أحواله، وقيل انه بعث له بشيء ما تصير في ملكه ، لأنه كان السبب مع قضاء الله تعالى في ملكه ، وقيل انه لم يف بما وعده ، ولا بما عليه عاهده ، فتحرك اليه واستقر ببلاد تامسنا وكانت المخاطبات بينهما كل حين والمراددات وكان أيضاً بين الواثق بالله وبين ابن جلداسن وحشة اوجبت الحركة من مراكش لتحسيم ذلك كله فقصد إلى هسكورة على ما يأتي ذكره إن شاء الله تعالى .

وفي هذه السنة تحرك الواثق بالله إلى هسكورة

كانت حركته يوم الخميس الخامس لشعبان من العام المؤرخ وكان نزوله يوم خروجه من مراكش بالبحيرة الشهيرة بولحرب، فكان فألا له ذلك الموضع فانه لم يزل طول مدته في هول وحرب، فأقام به اياما ليخلص اجناده من ازودتهم ومرتباتهم وكان الرحيل من هذا المنزل في الثاني عشر من شعبان من السنة الى الموضع المعروف بدار الرماك من بلاد هيلانة وبمقربة منه وادي اغمات وكذلك وادي الزات وفيه ترتب نزول العرب في مرج بازاء المحلة على عادة الترتيب المعتاد، وفيه تخلصت أمور الأجناد من أعطياتهم برسم الزاد وفي التاسع عشر من شعبان المذكور نزلت المحلة المنصورة بموضع تادارت[207] معطاسة [208]وفيه وصل بعض أشياخ قبائل هسكورة، وكان الشيخ الصالح أبو العباس حميدي ابن مخلوف الهسكوري قد توجه إلى الأمير الأجل أبي يوسف رسولا من قبل الخليفة الواثق بالله أبي العلى في مطالب قد كان وصل فيها قبل اليه وشرط عليه ثم وصل حميدي المذكور أيضا في هذا المنزل من قبل الامير ابي يوسف وعاد ايضا اليه من هذا المنزل بما وقع الاتفاق عليه ، وفي هذا المنزل كان تقديم الواثق بالله لابي موسى بن عزوز على بلاد حاحة لتغريم جبايتها والنظر في اشغالها واعمالها كما جرت عادته في ولايتها، وتوجه رسولا من قبل الخليفة الواثق بالله أبو فارس عبد العزيز بن عطوش إلى أبي عثمان مسعود بن جلداسن الهسكوري في مصالح ومهمات ثم عاد من عنده المذكور بأمور وأحوال بلغها للخليفة مشافهة ، وربما كان في ذلك من مسعود بعض العتب بالمناجهة ، فعلم منه بعض الحق في كلامه وأضرب عن مقاله وملامه ، وتركه على حاله مقرا بالسمع والطاعة في جباله ، فقنع منه بذلك ولم يطمع في نزوله من هنالك .

ثـم شاع الخبر بمحلة الواثق بالله بانفصال بني مرين وإجازتهم وادي أم ربيع وأنهم قد خامرهم من الجزع ما اقتحموا بسببه الوادي المذكور حتى هلك فيه كثير من أموالهم، ورأوا أن النجاة بنفوسهم نهاية بغيتهم وآمالهم، فسر

---

(207) في ت : تادرت .

(208) في ل : مغطاسة .

بذلك الموحدون وأتباعهم ، وأشاع ذلك الخبر أشياعهم ، حتى تملأت منه أسماعهم ، وليس الأمر والله أعلم كذلك وإنما كان انفصال السلطان ابي يوسف مع بني مرين من هنالك بعهود ومواثق وهدية قبلها من الواثق ، فلم يتم ذلك العهد المعهود ، ولا العقد المعقود إلى أن كان ما كان بينهم من الضرب والطعان، على ما سيأتي ذكره بعضه مختصرا إن شاء الله تعالى . وفي الخامس والعشرين لشعبان من السنة انتقلت المحلة من تادارت الى الولجة في الجهة الشرقية منها . وفيها عاد الشيخ الصالح المبارك ابو العباس حميدي المذكور بتصحيح الخبر بانصراف بني مرين الى الغرب دون طعن ولا ضرب . ولما تواترت الاخبار بانصراف بني مرين الى بلادهم ، وارتحالهم بأموالهم وأولادهم وصل أبو فارس عبد العزيز بن عطوش من عند مسعود بن جلداسن بكل خير وأنه تحت السمع والطاعة فاقتضى نظر الواثق أن يتنحى عن بلاد هسكورة لئلا تلحقها معرة العرب بانتساف زروعها والاقتحام بالغارة عليها وأن يكون التوجه الى جهة وادي الديل ثم إلى وادي تانسيفت ليكون بمقربة من مراكش .

وكان السبب ايضا في استعجال وصول الواثق بالله إلى مقربة من حضرته ما ذكر له عن عبد العزيز بن السعيد مما أوجب حتفه ومنيته قبل أن يبلغ امنيته . ولما نزلت المحلة بموضع تاونزرت بموضع من مواضع تانسيفت شرع الواثق بالله في التجهيز من هنالك عسكرا لتغريم الجباية الحاحية والركراكية وشرع في تجهيز العساكر الموحدية والعربية ليتحركوا معه إلى بلاد السوس لاستيصال شقيها وإبادة غويها علي بن يدر واخوانه، فأصرف من هذا المنزل إلى دكالة عرب سفيان ، ولم يبق معه إلا شيخهم أبا سرحان ، في حصة من اخوانه وتوجه الغير برسم تجديد حركاتهم ، وبقي آخرون برسم أخذ أعطياتهم وبركاتهم .

ذكر القبض على ابن السعيد ، وما جرى عليه من الخطب الشديد

قال المؤلف : أخبرني بعض العارفين بأموره أنه لما رأى ما تصور لأبي العلى الواثق بالله من تصيير الخلافة إليه وليس هو من بني المنصور أنه أحق بها منه ففهم بعض أصحابه ذلك عنه فهونوا عليه الامور ، لينالوا معه العلو

والظهور ، واستكتم ذلك الأمر من بعضهم خيفة ان يظهر كأبي الشرف عبد الرفيع ، وكان عنده ارفع من كل رفيع ، ومن ابن عبد القاهر ، وكان عنده كالطبيب الماهر، لعلمه انهما لا يوافقانه على ذلك التدبير، ولا على ذلك الرأي الدبير ، وممن وافق على ذلك ابن بخيت وابن جلداسن وغيرهما ، فبعث السيد المذكور لابن جلداسن علي بن منصور بتهليل وبراءة بخط يده تتضمن العهد والنجاز في تلك الامور ، فتكلم ابن منصور مع ابن عبد القاهر واخبره بذلك ، ولما رأى منه عدم الموافقة وخاف أن يظهر الامر بادر باظهاره ، وعرف الواثق بالله بأمور السيد وأخباره ، وكان علي بن منصور عند الواثق صادق القول فعند وصوله إليه وقدومه بمغطاسة عليه عرفه بذلك اثر سلامه ودفع له التهليل والبراءة ، وتبرأ من تلك الامور أتم براءة ، وكتم الواثق بالله ذلك الامر عن وزرائه وارباب دولته الى أن وصل تانسيفت بمقربة من حضرته ، فخرج إليه منها السيد ابو زيد عبد الرحمن بن السيد ابي عمران ، وكان واليها وخليفته فيها وهو ابن اخته وصهره ، فعرفه بحال السيد عبد العزيز ابن السعيد وما كان من امره ، وانه كان قد عزم على القيام بمراكش علينا وأراد أن يقبض عليك ويعجل بالقتل إليك، وأنت غافل عنه هنالك ، ليس لك خبر بذلك ، فذمه غاية الذم وأمره أن يحتال عليه ويحصله حتى يأخذه باقراره ، ويقرر لديه ما اضمر من أسراره ، وحينئذ يكبله ويقتله . وكان السيد عبد العزيز بن السعيد لا يخرج من داره ، بل يقعد مع اخوانه ، ورجاله وأخدانه ، في رحبة اسطوانه ، فنظر السيد أبو زيد في شانه ، ودبر وجه الحيلة في أخذه من غير أن يعلم أحدا من إخوانه، خيفة أن يشعر المذكور ويفر ، ولا يعلم حيث يستقر، فأخذ السيد ينظر فيمن يكرم عليه من وجوه الناس ومن اذا توجه اليه استدعاه يخرج من حينه إليه وكان الشيخ الفقيه أبو العباس السقطي يشهد له في بيعه وشراه ، ويجتمع معه في ذلك كل وقت ويراه ، وكانت له عنده شهادات في مبيعات لأنه كان اشتغل ببيع املاكه كأنه قد علم بقرب هلاكه، فبعث إليه السيد أبو زيد الفقيه أبا العباس المذكور ، ولم يذكر له شيئا من تلك الامور ، إلّا ليجتمع(209) معه في مصالحه وأموره

(209) في طـ : ولا يجتمع .

فتوجه اليه وبعث عنه فلما خرج إليه السيد من داره وقعد معه في رحبته أقبل ابو الحسن بن أبي يعلى وهو وزير السيد ابي زيد فبادر بالسلام عليه وقال: يا سيدنا رضي الله عنكم السيد ابو زيد بعث عبدكم إليكم وأكد عليكم في الوصول إليه برسم الاجتماع معكم فيما يخصه ويخصكم. فطلب السيد عبد العزيز ان يدخل إلى داره ليأخذ احرامه وعمامته[210] ويخرج على العادة بهيئته فقال له المذكور: يا سيدنا هذا احرام عبدكم وعمامته فما قبل منه عذرا حتى قدمه امامه ، ولما وصل المذكور الى السيد أبي زيد وهو مع بعض أشياخ الموحدين قرر عليه ما فعل فأنكر ولما أخرج اليه تهليله وبراءته ، تغير وتحير ودهش وارتهش ووقع مغشيا عليه فصح الخبر المنسوب اليه ، وادخل في دويرة هنالك وقتل كما قتل ابن المرتضى بمسلة ، والصحيح انه مات مسيفا رحمه الله تعالى .

اختصار الخبر عن حركة الواثق بالله الى السوس

ولما تخلصت اشغاله من حضرته رحل من تانسيفت على عادته وهيئته فحين وصوله الى تامزاورت نزل بعسكره[211] وجماعته ، وهنالك وصل كتاب الامير أبي يحيى يغمراسان وهديته مع رسله وشاع الخبر بطاعته ومبايعته ، فعم السرور ، وانشرحت الصدور ، وقدر انه عنوان الفتح ودليل النجح، وقالوا الآن نستظهر على بني مرين ، ويستتم الصنع الجميل للخليفة والموحدين . ولما حضر جميع الموحدين والعرب في افراك بين يدي خليفتهم قرىء الكتاب المذكور عليهم وعمت به الافراح وظهر به الافتتاح والارتياح ، وانطلقت الالسنة بالدعاء لله تعالى في أن يشفع هذا الفتح بمثله ، ويوالي للمقام الواثقي ما عوده من عميم فضله ، وأخذ الناس في التهنئة له بجملتهم وضربت الطبول على ذلك. ومن هذا المنزل كان انفصال الشيخ ابي زكرياء بن وانودين ليتوجه منه إلى بني واوزجيت الذين ببلاد السوس ليستنفرهم ويستدعيهم للخدمة والحركة مع المحلة في استقبال علي بن يدر السوسي، ورحلت المحلة من هذا المنزل بعد ثلاثة أيام وتمادى المسير إلى مسكروطن

---

(210) في ط : كلمة لا معنى لها .

(211) في ت : هكسورة .

وهو سفح الجبل وأول بسيط السوس ، فارتاحت عند معاينته النفوس ، وذهب عنها ما كان قد استولى عليها من الخبال وملاقاة الاهوال ، واستبشروا بالخروج إلى هذا البسيط المذكور ، وانتشروا فيه كأنهم في يوم النشور ، وبه أهل هلال شوال فأقامت المحلة غرته هنالك لاداء سنن عيد الفطر وتوجه قاضي المحلة وخطيبها أبو يحيى ابن عبد الحق في يوم العيد الى موضع في آخر السوق يصلح لمصلى الناس فيه .

فلما كان بكرة اليوم المذكور رتبت الامور ، وحضرت الكافة من الخاص والجمهور ، ووصل الواثق بالله إلى قبلة المصلى وكان دخوله اليها من باب مصنوع من الحجر بازاء المحراب، فتقدم الخطيب أبو يحيى وربما لم تجر عادته بذلك فيما سلف فأدركه الخجل وكبر أولا ثم قرأ الفاتحة وسورة من المفصل ثم كبر بعد القيام ونقصته تكبيرة ولما فرغ من التكبير نسي فاتحة الكتاب وابتدأ بقراءة والضحى، فلما فرغ من الصلاة خرج من المحراب يخطب فجلس إلى الارض ثم قام فخطب فأدركه أيضا وهم وحق له(212) فان العيون اليه ناظرة والناس منصتون سامعون فنسي أيضا اسم الخليفة الأول عبد المؤمن وابتدأ بالخليفة أبي يعقوب وربما جرى في أثناء هذا كلام الاضراب عنه أولى . ولما كملت الخطبة وعاد الخليفة الواثق بالله إلى محله ومقعده من القبة الحمراء دخل(213) الناس بالتهنية بالعيد السعيد ثم دخل إلى افراج وأحضرت أنواع من الأطعمة للعرب وزناتة والفرح ظاهر والسرور باهر .

ورحلت المحلة في الثاني من شوال إلى منزل بني باداس وهم اخوة الشقي ابن يدر، وهذا الموضع على وادي السوس وهو على ستة أميال من حصن تيوينوين واتسع الناس بهذا الوادي وسروا بطيب هوائه وكثرة مائه، والتفاف اشجاره ، واتساع اقطاره ، والفى الناس به زرعا كثيراً وأقامت المحلة بهذا المنزل الفسيح الارجاء المعتدل الهواء ثلاثة أيام ومنه نفذت الظهائر لقبائل جزولة وغيرها وذلك نحو أربعين ظهيراً ومنها لبعض قبائل هذا البسيط وان كان به من الامم والطوائف ما لا يحصيهم إلا خالقهم . وتضمنت الظهائر

---

(212) في الاصل : وحق إليه .

(213) في الأصل : ودخل ، في حين أن الجملة جواب لسابقتها .

الاعلام بالعزم على الاقامة بالبلاد والاستيطان بها. واستيصال شقيها ابن يدر وتأمين ارجائها واعادة أحوالها إلى أحسن معهود ، وفي السادس من شوال نزلت المحلة على بني تيزغت واقامت به يوم السبت لاحكام الرأي بما فيه النجح وكانت طائفة من الوافدين اشارت بقصد تورغت فانها ذات زرع وبمقربة من العدو وطائفة أخرى اشارت بقصد تيزغت[214] فان اكثر زرع هذا البسيط قد ارتفع إلى حصن بها فاجتمع الرأي واقتضى النظر قصد تيزغت للاحتواء على زرعها والاستيلاء على جميع ما فيها، فخوطب مشتغل جنفيسة بقطع الماء عن أهل تيزغت وتسريبه الى الجهة التي يكون حلول المحلة بها .

وفي الثامن من شوال رحلت المحلة الى بني مقر وهو نصف المسافة من بني تارغت الى تيزغت وكان مرورها على تارودانت الشهيرة ذات الخيرات الكثيرة لـكنها استولى عليها الخراب من ابن يدر حتى صيرها كالقفر درسا وعفاء فانه كان منها شجى الصدر ولم يبق بها الا جامع الخطبة في قصبة الحصن المذكور ، واما ما هو خارج عن الحصن فان الديار باقية على حالها والمنازل لم يتغير شيء[215] من أشكالها وجميع ذلك من الربض معمور آهل ، لم يخل شيء من ذلك إلا في أيام قريبة التاريخ قلائل، وعاينت الناس من هذا الخراب والمعتمر منظراً عجيباً وشاهدت وضعا حفيلا وبلدا خصيبا، وذلك أن ساقية كبيرة ارتفعت من وادي السوس الى تارودانت وعليها العمارة والسكنى والرياضات وكل دار بازائها رياض وفيها من الاشجار أنواع واتصل هذا المجموع بعضه ببعض في بسيط معتدل الهواء فسيح الارجاء واسع الطرقات كثير الخيرات قد احتوت تلك الرياضات على اشجار اختلفت ألوانها وحدائق ملتفة أغصانها وماء في تلك الانهار ينساب كأنه الكوثر وناهيك من واد ينعقد من مائه السكر قد صفا زلالا وزهت به هذه البلاد جمالا. وحديث هذا الوادي في خصبه أكثر من أن يحصى فإنه كله روضة رائقة وبهجة فائقة ، ومن عجائبه انه يجري من الشرق إلى الغرب وليس في الانهار من يجري هكذا سواه ،

---

(214) في م : تورغت .

(215) في ل : شكل .

فنزلت المحلة على هذا الوادي الغريب شأنه العجيب أمره ، فألفى الناس زرعا وخيرا واتسعت بذلك أحوالهم ، وتجددت باستقبال المسرات آمالهم .

وفي التاسع من شوال رحلت المحلة منه إلى حصن تيزغت وهذا الحصن كان لصنهاجة تيزغت المذكور فتغلب عليه ابن يدر وأخرج أهله منه وأقطعه ربيبه وابن عمه حمدين فاحتشد كل من يليه من القبائل السوسية وأهل طالعة الوادي وكل من جاوره من البوادي وهذا الصحن من الصحون الشهيرة الاتساع وكثرة الوعر في مسالكه والارتفاع وذلك أنه حصن في جبل وهو من ثلاثة وجوه لا يرام والوجه الرابع فسيح الا أنه فيه شعراء كثيفة وله ستارة وله باب يقابل باب الحصن وفيه قصبة مرتفعة وفي أسفل السفح الفسيح في الشعراء المذكورة خندق وفيه حفير كبير وعلى الحفير حائط ممتنع ، ودون هذا ثلاثة ديار منتظمة متصلة بعضها ببعض وعليها سور بشرافات في بعضها ودون هذه الديار حائط كبير دائر من جبل الى جبل يخرج المقاتلون الشقيون[216] وراء هذا الحائط الذي يلي الحصن وأظهروا فيه قوتهم وعدتهم وشوكتهم فاقتحم عليهم اللمطيون وأخرجوهم عن ذلك كله وقتلوا منهم جملة ، فانجلوا عن الديار وتركوها وما فيها من ماشية وزرع وأثاث ولجأوا الى الخندق والحفير الذي بازائه والحائط الذي عليه وكل ذلك في أسفل سفح الجبل الذي عليه الحصن فاحتوى الناس على ما في أكثر تلك الديار .

فلما كان بعد صلاة العصر أو أوان ارتقاب النصر جلس الخليفة الواثق بالله بالقبة الحمراء وحضر لديه شيخ العرب أبو سرحان وزناتة ووجوه الأجناد وضربت الطبول اشعاراً بالقتال ، فلما أخذ الناس في اجتماعهم وشرعوا في بروزهم واحتفالهم ركب الواثق بالله ورفعت أعلامه واجتمعت الناس عليه وقصد الحصن المذكور وطاف عليه من جميع نواحيه بجيوشه وعساكره ، واشتد القتال في هذا العشي على الأشقياء وعاينوا ما هالهم وراعهم واستمر الحال على مضايقتهم الى آخر النهار ، وفي العاشر من شوال تأهب الناس للمناضلة والمقاتلة وركب الخليفة الواثق بالله فرسه القرطاسي الغازي وقوتلت الأشقياء على الخندق واستمر الحال على قتالهم الى الظهر ، ثم وصل آخر النهار عبد الله ابن محمد الجنفيسي في جمع كبير من اخوانه واستبشر الناس بقدومهم عليهم . وفي الحادي عشر من شوال أحس الناس بفرار بعض الأشقياء فاحترسوهم طول ليلتهم ولم يفلت أحد منهم ، وجلس الواثق بالله بكرة اليوم المذكور ، ثم ركب الفرس الغازي ورفعت

---

(216) في ت : المتقبون .

الراية وتوجه الى جهة الحصن على عادته فقوتل أشد قتال واستمر القتال الى الظهر ثم عاد الى معسكره . وفي الثاني عشر منه شرع أيضاً في الحركة اليهم والنزول عليهم ورأى أن تكون رايته بازاء الحصن جهة غربه ونزول لمطة برحائلهم من جهة شرقة ونزول المحلة مع العرب في قبلته، فركب الواثق بالله ورتب أجناده على هذه الهيئة، فرأى الأشقياء من عزماته[217] ما هالهم وعاينوا من الجنود ماراعهم،واستمرت الحال على هذا الترتيب من بكرة الى نصف النهار ولم يركن فيها الى راحة بل يتردد الى الموضع الواحدمرات،وبعد المحاولة في ترتيب النزول على الحصن عاد الى معسكره واشتد القتال على الحصن والحصار ، ورأى أهله أنه لا نجاة لهم ولا فرار ، ولا إقامة بجهة ولا استقرار،وصاروا لاسود هذه الجيوش ثعالب ، ولقد كانوا يظنون باغترارهم أنهم لا مناضل لهم ولا مغالب ، فلما كان مع الزوال زال عنهم سرادق الحياة ، وأيقنوا بالهلكة ولا نجاة ، فوجه حمدين[218] زعيم الأشقياء الى أبي الحسن بن زجدار نصيح الدولة الواثقية في أن يتلافى قضيته ويظهر له توبته وأنه يخرج على عهد ، ويخدم خدمة نصح وجد،وأن ابن يدر يعود الى الطاعة وجميع البلاد السوسية ومن والاها من أصناف القبائل[219] القبلية،فلما وصل أبو الحسن بن زجدار[220] أوضح عذره وبين كلامه الى الواثق بالله وأمره،فكان جوابه تقبل توبته وتقضى رغبته بشرط التعجيل في هذا اليوم المذكور على البديه بالتخلي عن الحصن وجميع ما فيه،فلما عاد اليه بذلك أبو الحسن المذكور كان وقت العصر فقضيت صلاته وكان القتال على هذا الحصن عاماً من كل جهة، ولقي الأشقياء منهم أمراً شديداً لا يطاق، وأيقنوا بالحال التي أذنت لهم بالمحاق،فانهزم الأشقياء من جهة لمطة واشتد القتال من كل حومة واقتحم الناس عليهم الحفير والخندق من كل مكان وكانت الهزيمة الشنعاء وركب الواثق بالله فرسه الغازي ولم يقتض الحزم عنده انتظار ركوب وزرائه وخدامه،ثم انه أرسل عنان فرسه ماراً كالبرق الخاطف قاصداً نحو رحائل زناتة وليس معه فارس ولا راجل،وبعد حين تداركه الوزراء والقرابة والأجناد والخدام وغيرهم وهو قد لحق بموضع زناتة يحضهم على أخذ الجبل الذي فيه الحصن واقتحام خندقه،فلما ارتقى أولياء الأمر الجبل من كل جهاته توقد نار الحرب الشديد ، وصبر الأشقياء صبراً ما عليه من مزيد ،

---

(217)في طـ : من عزامته ، والتصحيح من م و ت .

(218) في ت : حميدين .

(219)في طـ : أشياخ قبائل .

(220) في طـ : زجداز .

والحرب تطاير شرارها ، وتترامى في ميدانها أبطال الفرسان وشرارها ، فلما دنا الليل وامتد سرادقه انكشف الحال عن هزيمة الأشقياء ولجأوا الى الحصن وكانوا في خارجه بأموالهم وأولادهم وعيالهم، فمات منهم في ذلك الوقت ما لا يحاط بالحصر والاحصاء من رجال ونساء وأولاد وبهائم، واستولى الناس على جميع ما كان بخارجه .

ولما كمل الفتح وأضاء بأنواره الدجى وكأنه الصبح وبدت مخايل النجح، رتب المقام الواثق بالله على الحصن من كل جهاته الأجناد لاحتراسه واحتراس جميع مافيه، ولما كمل هذا الترتيب على الحصن المذكور وظهر النجح في الأمور، عاد الواثق بالله الى مضاربه والسعد يسايره والنصر يوازره، فهنأه بعض الناس وأخذوا بيده عند باب أفراج وترادفت البشرى والابتهاج بالبلاد السوسية التى حصلت في سلك[221] الانتظام بأهل الطاعة، واستولى الناس على ستارة الحصن في هذه الليلة وعلى كل من كان فيها وما فيها ثم على الحصن والأصوات في جميع الطوائف ترتفع ، وكل جهة من جهة القوم لا ترد يداً ولا تمتنع ، والضجيج قد علا حتى لقد صمت منه الأذنان فلما رأى الشقي حمدين أن المنايا قد كشرت عن أنيابها ، وعاين ما لا طاقة له به من تمكن أسبابها ، دخل دخيلاً على ابن زجدار وهو مع جماعة من اخوانه ونسائه واخذت في جملة الماسورين أخت علي بن يدر. فلما اشرق نور الفجر في الثالث عشر لشوال جلس الواثق بالله في أسطوان أفراج واستدعى وزراءه في تدبير الأمور واحكامها ، والنظر في مصالح الجمهور والتئامها ، وأمر بالكتب بهذا الفتح الى الحضرة وركب الى الحضرة والفتح تروق عليه أنواره ، والنصر قد ظهرت آثاره ، ورفعت الراية في أعلاه وكان مركزها في داره[222] وأخذ من الحصن بطول الليل ما لا يحيط به حصر ولا تقدير ، وقتل ممن كان فيه عدد كثير ، وأكثر ذخائر هذا الحصن تصيرت للمرينيين ، وحصل في أيديهم حمدين[223] فكان سبباً لما استحوذوا عليه وانفردوا به وطلب أبو الحسن بن زجدار باحضار حمدين[223] الماسور عنده فتأكدت رغبته في تتميم ما كان بيده أمره من الفدى فقد كان ارتهن في سبعين ألف دينار فاقتضى نظره ان ابقاه بيد أبي الحسن بن زجدار معتقلاً مصفداً في الحديد الثقيل ورتب عليه ثقاة من عبيد

(221) في ط : بسلك .

(222) لعله : في ذراه كما ورد في ل .

(223) في ت : حميدين .

المخزن مع حافظ من الموحدين، وأخذت أخت علي بن يدر معتقلة ماسورة، والفي في الحصن جماعة من عبيده قتلوا صبراً، وعين للاقامة في الحصن أحد القرابة لحياطته ورحلت المحلة ضحى يوم السبت الرابع عشر لشوال واستقرت في المنزل الأول وفي الخامس عشر منه كتبت الكتب بهذا الفتح الى البلاد ، وبهلاك أهل الضلال والعناد ، وفيه صدرت مخاطبة لأبي سرحان بن كانون والتوكيد عليه في حراسة البلاد من فساد العرب ، وفي عاشر شوال ودع أشياخ الساقية الحمراء والوافدون من بني واوزجيت وغيرهم وانصرفوا بحفاظهم الى بلادهم ، وفي الحادي والعشرين رحلت المحلة من المنزل المتقدم ذكره الى بني داود على وادي السوس وفيه ورد الخبر بوصول أبي زكرياء بن وانودين مع الوفد الكبير من بني واوزجيت ورغب في لقاء الوافدين والاعتناء بهم لوفودهم وقوتهم وكثرة اعدادهم ومثابرتهم لعلي بن يدر ونيلهم منه .فأقامت المحلة بهذا المنزل الثاني والعشرين منه وخرج للقائه كل فريق من أنصار الدعوة الواثقية ووصل الوافدون بجملة من الأعلام الكبيرة والعدد الوافرة الكثيرة،ولقد كان في هذه العلامات ما زاد على ثلاثين ذات ألوان وصنائع مختلفة ولا يرتاب أنها من الذخائر القديمة التي كانت بدار الموحدين فيما مضى من السنين ، ولما قضوا فرض الاستسلام والسلام ورأوا البقية التي سمحت لهم بها الأيام انصرفوا الى منازلهم .

وفي الثالث والعشرين منه نزلت المحلة بمقربة من تارودانت وركب الواثق بالله الى حصن تارودانت الذي كان قاعدة البلاد السوسية ودار الولاة ومستقر أمرهم ومأوى كل غريب من التجار وغيرهم ، ولما كان انتزاء الشقي ابن يدر الى الفتنة لم يكن أهم أموره الا تخريب هذا الحصن لأنه كان محلاً لاستقرار الأجناد ومنه كان استيلاء الولاة على تلك البلاد،فلماعصفت ريح ابن يدر في نفاقه وشقاقه لم يكن أمله الا هدم هذا الحصن الذي اتخذه خلفاء الموحدين معقلاً ومحلاً لولاتهم ومنزلاً،فأباد آثاره وزلزل قواعده وأزال أسوره واستأصل جميعه وهدم دياره ولم يتعرض الى شيء مما جاوره من الديار والاملاك التي بخارجه فانها كانت مساكن الرعية وكل من كان بهذه البلاد يكابره ويعانده لم يبق له اسماً ولا لدياره وأملاكه رسماً ، ولقد بنى هذا الحصن مرات ووجه اليه الصناع من الحضرة وعملت عليه أبواب الحديد التي كانت بباب السراجين من داخل مراكش فمتى خلا من الأجناد انتهز ابن يدر الفرصة اليه وحشد القبائل غليه حتى صار طللاً دارساً فطاف به الواثق بالله وبجميع جهاته كلها وساحاته ووقع التفاوض في اعادته والشروع في

تجديد[224] رسمه وأقامته ولو ساعده الزمان لوقع التدبير في هذا الشأن . وفي السابع والعشرين من شوال بعث الواثق بالله الى مراكش عما يحتاج اليه من آلة الحرب الذي لم يزل عزمه عليه قائماً ، وكان عزم من تقدمه عنه نائماً .

وفي غرة ذي القعدة رحلت المحلة إلى حصن تيوينوين الظالم أهله المتأصل على النفاق وضعه ، فلما انتهى الواثق اليه رتب الجيوش عليه ، وأهله مصرون على النفاق معلنون بالشقاق ، وقد أخذوا أهبتهم وأعدوا عدتهم ، وأظهروا التعرض للقتال ، وابدوا صفحة المجاهرة بالعصيان ، فاشتغل الناس عن قتالهم بطلب الماء وهو على ثمانية أميال ، وبعد ذلك اشتغلوا بحفر الآبار وظهرت العيون بكل مكان . وفي الثاني منه قوتل أهل الحصن قتالاً شديداً من كل جهة وهو من الحصون المرتفعة المنيعة وأصبح الأشقياء لهدم ما يلي السور من هذا العريض توقياً من الصعود عليهم منه وهذا الحصن شأنه شهير وأهله أولو قوة وأولو بأس شديد ، فكم أعيى الولاة داؤه وأعوز[225] بهذا الطلب جهد الامكان دواؤه ، وقد كان به من الخلق كثير من جميع البلدان ، واجتمع به كل ثائر وسارق ومتماد في الطغيان ، وقد كان حمدين[226] المعتقل تكلم مع بعض الناظرين عليه من حراسة بأنه يستميل نفوس هؤلاء الأشقياء الى الطاعة وقدر أن له أمراً يستبصرون به ويرجعون اليه ، فأجابوه بالرد والطرد والبعد ، الا أنه وصله عن شخص بعده أنه يجتمع مع اخوانه ويواددهم[227] فعاد حمدين الى حبسه واعتقاله . وشاع الخبر في هذا اليوم بوصول علي بن يدر الى جهة المحلة فركب مسعود بن كانون مع أخوانه وأبو الحسن بن زجداز كذلك وطلبوا أثر الأشقياء وانقضوا عليهم كالعقبان من جو السماء .

وفي الثالث من ذي القعدة وصل كتاب من مراكش من قبل واليها السيد أبي زيد بجواب فتح ، ووصل معه كتاب أبي الحسن علي بن أبي علي الخلطي وبيعته للمقام الواثقي المعتمدي ودخوله في طاعته فعظمت ، المسرة باجتماع الكلمة وشملت النعمي لأهل المحلة وبقي الحصن المذكور على حاله من النفاق والاستعصاء ، وشرع الواثق في عمل المنجنيقات برسم الأشقياء . وفي الخامس من شهر ذي القعدة بعث الواثق عن

---

(224) في ت : إعادة .

(225) في ط : وأوعز .

(226) في ت : حميدين .

(227) في م : ويراددهم .

شيخ العرب ووجوههم وعن أبي الحسن بن زجذار ووجوه من كان معه من زناتة ولمطة وبني واوزجيت وغيرهم وأخذ معهم في التدبير في فتح الحصن، وجلس الواثق بالله بالقبة الحمراء وجلس الناس على أصنافهم وطبقاتهم، فلما استقر بالناس مستقرهم قرئ الكتاب المتضمن بيعة أبي الحسن المذكور وإخوانه الخلط وتوجه معهم أبو فارس[228] الخلطي وضربت الطبول على ذلك .

وفي التاسع من شهر ذي القعدة توجه الوافدون ببيعة أبي الحسن المذكور واخوانه الخلط وتوجه معهم أبو فارس بن المعر الكفيف إذ كان المقرب عند الواثق لفصاحته، فبعثه إليه برسم الاجتماع به وبجماعته. وفي الثالث عشر منه تأهب الناس لقتال الاشقياء بما يجب من اهبتهم، وركب الواثق بالله ورفعت الراية ورمي حجر المنجنيق ، فجاء إلى الحصن على تقدير وتحقيق ، وأهل الحصن على ضلالهم لا يرعوون ولا يزدجرون كما قال الشاعر :

لقد نودوا فما سمعوا المنادي	ولا اصغوا إلى داعي الرشاد
وجاءت نحوهم من كل أوب	جيوش ما تمل من الطراد
ولكن الضلال بهم تمادى	فلجوا في العتو وفي العناد

وفي شهر ذي الحجة حفرت مطمورة لمبيت حمدين لأن الخبر شاع ان اشياع علي بن يدر عزموا على انتهاز الفرصة في استنقاذه[229] ليلا، وقد كان في كل ليلة يبيت في آلة من خشب مسمرة على عنقه واحدى يديه مضطجعا على جنب واحد الى الصبح، زيادة على تصفيده بالحديد الثقيل وتبيت عليه رجال يحرسونه، فكان ذلك الخبر زيادة في امتحانه نعوذ بالله تعالى ، وفي عيد الاضحى صلى بالناس أبو الحسن ابن قطرال[230] ثم خطب خطبة من إنشاء البديع بهر بسماعها الالباب واتى من الفصاحة والبلاغة بالعجب العجاب وفي الحادي والعشرين وصلت أرسال ابن يدر خاضعين قد غلب عليهم الاستيحاء، ورغبوا في إقالتهم والتجاوز عن شهوتهم، ونما خبرهم إلى الواثق بالله فاستحضرهم وعتبهم فوعدوا ببيعة ابن يدر وطاعته وانهم يعودون بذلك ويرجعون إلى الحق والتمسك بدعوة التوحيد، فصرفوا إلى صاحبهم بما

---

(228) ما بين المعقوفتين زيادة من م .

(229) في الاصل استقاده .

(230) في ط : قطران ، وهو تحريف .

ذكروا من رغبتهم وفي السابع[231] والعشرين منه وفد على الواثق بالله خلق كثير من المعقل بأموالهم وعيالهم وخرج أكثر العسكر للقياهم صحبة الوزير ابي موسى، فلقيهم وقد رتبوا مصافهم وقدموا فرسانهم بعلامات ووراءهم هوادج حسنوها بأنواع الثياب، ونساؤهم قد برزن فيها ظاهرات غير محتجبات. وفي أثناء توجه السيد أبو موسى لهذا اللقاء جلس الواثق بالله بالقبة الحمراء إلى أن جاء الوافدون يقدمهم في الصدر الأول منهم شيخهم عبد المؤمن بن أبي الطيب، والسن قد أزالت رونقه وأطلعت كالصباح مفرقة، ولكنه متجلد صبور، حنكته التجارب في الدهور، وتلقاه الواثق بما سره وأنسه وبسط خاطره ونفسه وبعد الذهاب حسه ونزله في أقرب المواضع وأحظاها واشرف المنازل وأسناها، ثم استدنى الوافدين ووصلوا بعلاماتهم وعددها سبعة من الحرير المختلف الألوان برشوم من ذهب، فقضوا آمالهم من السلام وانصرفوا إلى منازلهم في غاية الاكرام، وأخرج المعتقلين من اعتقالهم وعاينهم إخوانهم ثم ردوا إلى محبسهم ووعدوا بتسريحهم عند انفصال الصلحاء الذين تطوقوا أمانة البيعة في أعناقهم، وضربت الطبول إشعارا بالاقبال عليهم واجزل الاحسان اليهم فعمت المسرات النفوس جميعا ومما قيل في ذلك :

أهــلا وسـهــلا وحيــا الله مـن وفــدا	قــومــا أرادت بـهم أيــامـهـم رشــدا
كـانـوا كمـوسى أتى نـاراً ليقبسهـا[232]	بــأهـله فــأصــاب الـنــار نــور هدى
شــدوا المــطيَّ وأمّوا[233] طايعين وقــد	نــالـوا من الصفـح أقصى غـايـة وجـدا

وفي هذه السنة وهي سنة خمس وستين وستمائة صالح الأمير أبو عبد الله ابن الأحمر ملك النصرانية أذفونش على يد ولده الامير أبي عبد الله وقيل ان الصلح انعقد بينهما على نحو أربعين مسوراً من بلاد المسلمين - أعادها الله - وقيل ان اكثرها بغرب الأندلس، ومن جملة تلك البلاد مدينة شريش والمدينة والقلعة وبجير وغير ذلك. قال المؤلف تسمح الله له :

اخبرني من اثق به من بني مسلمة أن الفقيه أبا القاسم [العزفي قال له عند

---

(231) في ت : التاسع .

(232) في الأصل : بياض ، والتتمة من م .

(233) في ط : وحلوا .

خروجه من][234] . . شريش ان جملة ما أعطى ابن الأحمر للفنش من المدن وللحصون [المسورة بما احتوت عليه من الأقاليم][235] . . الواسعة والارجاء الفسيحة اليانعة مائة وخمسة صحح ذلك عندي [العزفي رحمه الله . وقيل إن أكثرها كان في شرق الأندلس ، وفي غربها كان الأقل ، أحدهم][236] بلدكم شريش وهذا شيء تعافه القلوب والاسماع [وتضطرب لفظاعته الأصقاع ،][237] وقد رثى الاندلس كثير من الادباء فمن ذلك قول صالح بن شريف من قصيدة :

لكل شيء اذا ما تم نقصان	فلا يغر بطيب العيش انسان
هي الأمور كما تدري لها دول	من سره زمن ساءته أزمان
وهذه الدار لا تبقي على أحد	ولا يدوم على حال لها شان
يمزق الدهر حتما كل سابغة	اذا نبت مشرفيات وخرصان
وينتضي كل سيف للفناء ولو	كان ابن ذي يزن والغمد غمدان
اين الملوك ذوو التيجان من يمن	وأين منهم أكاليل وتيجان
واين ما شاده شداد في ارم	واين ماساسه في الملك ساسان
فخلفوا عبرا واصبحوا خبرا	كما حكى عن خيال الطرف[238] وسنان
فجائع الدهر أنواع منوعة	وبعضها فوق بعض وهي ألوان[239]
دهى الجزيرة خطب لا عزاء له	هوى له أحد وانهد ثهلان
اصابها العين في الاسلام فامتحنت	حتى خلت منه أوطان[239] وبلدان
فسل بلنسية ما شأن مرسية	واين شاطبة[241] أم أين جيان
وأين حمص وما تحويه من نزه	ونهرها العذب[242] فياض وملآن
قواعد كن اركان البلاد وما	عسى البقاء إذا لم تبق أركان

(234) ما بين المعقوفيتن زيادة من م .
(235) ما بين المعقوفتين زيادة من م .
(236)ما بين المعقوفتين زيادة من م .
(237) ما بين المعقوفتين زيادة من م .
(238) في ط : النوم .
(239) في م : أشجان .
(240) في م : أقطار .
(241) في م : قرطبة .
(242) في م : وبحرها البحر .

تبكي الحنيفيـــة البيضـــاء من أسف	كمــا بكـت لــرســـول الله أجفـــان
على بيــوت مــن الاســلام عـــاطلة	كــأنهـا لم تكن بــالـذكــر تــزدان
صارت كنائس قد صال الضـلال بها	فـــليس الا نـــواقـــيس وصـــلبـــان

وفي الثامن وعشرين المحرم ركب الواثق بالله فرسه القرطاسي وقد تأهب الناس للبروز وخرجوا للقائه من الحضرة بالطبول، وتوجه إليه العرب من كل مكان فلقيهم بأحسن القبول، وأمر بحمل المصحف الكريم بما جرت به العادة من الزينة ورفعت الاعلام الصغار مع [جوانب][243] الغشاء المحتوي عليه وجعلت قلائد من فضة في عنقه قد أعدت له وللبغل[244] أيضا كسى فجعل عليه من الزينة مثل ذلك، وتزيا العبيد الذين يخدمون الجمل والبغل بالثياب البيض. وتمثلت[245] لهم اكمام الاوصال فحبسوها وتقدموا بها امامه فكانوا في غاية الجمال والاحتفال و[أولاد][246] الواثق بالله مع حاشيتهم وقرابتهم يتلونه والوزراء وراءهم في الساقة الكبيرة ومعهم الاعلام السبعة الخلافية وعلامات قبائل الموحدين على العادة المعتادة [وكذلك سائر العلامات][248] فكان المشي على هذا الوضع المذكور وكان التوجه إلى مراكش [حرسها الله تعالى على طريق القبلة. وخرج أهل مراكش][249] لهذا البروز رجالا ونساء ولم يبق بها فارس[250] [ولا راجل إلاّ خرج. وكان لقاء السيد أبي زيد بالقرابة والطلبة وأهل الخدمة بباب الكحول، وكان هذا اليوم في هذه الدولة الواثقية من أعظم الأيام احتفالا وأحسنها جمالا، والناس يقبلون بعضهم على بعض، وكل يصافح صنفه ويهنيه بهذا القدوم السعيد والإياب الحميد.

ولما دخل الواثق بالله مدينة مراكش، قصد إلى الجامع تيمنا به وشكر الله

---

(243) ناقصة في ط.
(244) في ط: للبغال.
(245) في م: وغسلت.
(246) في ط: والواثق.
(247) في ط: حاشيته وقرابته.
(248) ما بين المعقوفتين من م.
(249) ما بين المعقوفتين، زيادة من م.
(250) من هنا يبتدىء النص المفقود في ط وغيرها من المخطوطات، ويستمر إلى آخر الكتاب. وهو منقول من مخطوط المكتبة الملكية بالرباط وقع 336.

تعالى على جميل مواهبه ، وتجدد له الدعاء بذلك وركب من باب الجامع إلى باب رياض الحزب ، ووقف هنالك فهنأه الحاضرون ولثموا يُمْنَاه ، ودخل إلى قصره وقد قرت عيناه بما كان يتمناه .

وكملت هذه الحركة السوسية التي كانت إثر حركته الهسكورية ، ولم يكن فيهما معا من كبير معنى يذكر ، وإن كان فضله لا ينكر ، غير بعض التسكين والتهدين ، والقبض على الشقي ابن حمدين . وأما ابن جلداسن مسعود فامتنع في جبله ، ونقض العهود ، وقطع المواصلة ، وما كان تقدم له من المجاملة . وذكر عنه أنه قال في جملة كلامه ، وسبب مقاطعته وملامه : « كما نقض الواثق لملك المغرب عهده ولم ينجز له وعده ، فكيف أنا الذي قد رأى في عبده ؟ ! » وكان في ذلك ، على ما قيل ، كلام له في هذا المعنى طويل ، أضربت عنه خيفة التطويل . وقيل إن الواثق بالله كان بينه وبين المقام اليوسفي عهود مؤكدة ، وأيمان مرددة ، فلم يف له إلا بالبعض ، وآثر على الإبرام النقض . فكانت بينهما أنكاد ، ودار بينهما حرب وجلاد ، على ما يأتي .

ولبعض الطلبة في الواثق بالله إثر حركته جملة أشعار بالتهنئة على تلك الحركة رفعوها إليه ، فقرئت بجملتها عليه . فأحسن إليهم وأنعم عليهم ، ورفع له بعض خدامه وهو بالسوس أبياتا ، هي :

قالت لنا الأيامُ بعد صموتها	من ذا الذي يرضى العلا والمنهلا
يحمي الورى ويذود عن حرماته	يروي سيوف الهند من بري الطلا
من همه قرع العدا وصلاح ما	قد كان عن نهج السداد تحولا
من لا يرى يصبو إلى دنيا وما	يرنو لزهرتها إذا ما تجتلى
قلنا لها ذاك الامام الواثق الـ	ـهادي أمير المؤمنين أبي العلا

ولما استقر الواثق بالله بحضرته المراكشية بعد حركته السوسية ، بلغه الخبر أن أبا يوسف توجه بعساكره لمحاربة يغمراسن ، فبقي رسوله بمراكش حتى عاد أبو يوسف إلى مدينة فاس . وبعث الواثق هدية حفيلة إلى أمير تلمسان يغمراسن بن زيان ، فتوجه الفقيه أبو الحسن بن قطرال ببعضها في البر ، وتوجه أبو عبد الله البكري بأثقالها في البحر ، دخل من آسفي وخرج في هنين ، وأخذ أبو الحسن بن قطرال على طريق سجلماسة مع رسول يغمراسن ، وهو ابن أبي عثمان ، مع ابن

أبي مدين الونجاسني . فوصلوا إلى سجلماسة ، فوجدوا بها عثمان بن يغمراسن ، فبعثهم مع بعض أشياخ المعقل فوصلوهم إلى تلمسان ، فوجدوا بها أبا عامر بن يغمراسن ، وأبوه قد توجه إلى جهة مليانة وغيرها . وبها وصله رقاص ابن قطرال بكتب أبي دبوس وبما وصله من عنده من هدية [فوصله جوابه لأبيه يأمره] بإجراء كرامة أبي الحسن [وضيافته حتى تنقضي حركته من تلك البلاد الشرقية ويعود إلى البلاد] الغربية ليشغل بني مرين عن التوجه لجهة البلاد المراكشية . فبقي أبو الحسن ابن قطرال تحت كرامة يغمراسن مدة من عام كامل وأشهر يعده وعدا بعد وعد ، وهو مع ذلك ييسر له خيولا وغير ذلك برسم الهدية لأبي دبوس ، وبنو مرين في أثناء ذلك قد توجهوا لحصار مراكش ، وحفوا بها، فخرج إليهم الواثق بالله بجيوشه ، فكانت محاربات ومقاتلات ومواقفات ومقابلات أجلت عن هزيمة الواثق بالله وقتله، فبلغهم بتلمسان أنه قد مات مقتولا ، وتفرقت جيوشه وعساكره ، وانقرضت دولته ، وانقطعت أوامره . فرجع أبو الحسن ابن قطرال على طريق سجلماسة ، ومات في جهة بلاد درعة .

ولما ظهر للفقيه القاضي أبي إسحاق بن القشاش اختلال الامور والاحوال ، وكثرت فيه وفي غيره من بعض الناس الاقوال ، رفع هذا الرفع للواثق بالله فوقع له التوقيع بما أكتبه بعد ان شاء الله تعالى ، نقلته من خط ولده أبي عبد الله ، والتوقيع عليه بخط أبي دبوس وهو :

« رضي الله تعالى عن المقام الإمامي الواثقي المعتمدي المؤيد المظفر الاسعد المبارك ، وأطال للمسلمين أيامه ، ونصر ألويته الكريمة وأعلامه . عبد نعمته ومملوك منته إبراهيم بن أحمد الأوسي يسلم على المقام الامامي أيده الله تعالى ويقبل اليدين الكريمتين المباركتين ، ويهنىء العبد مولاه أعز الله مقامه بما سناه له من البشائر المتناسقة ، والفتوح المتلاحقة ، والحمد لله ، وهو سبحانه المسؤول أن يشفع هذا الصنع الجميل بأمثاله ، ويوزع العامة الشكر على إنعامه بذلك وإفضاله .

« ويعرف العبد مولاه أنه لم يزل محبا في هذه الدولة السعيدة من أول بدئها إلى حين كمالها وانتهائها ، راغباً إلى الله تعالى في تتميم أمرها وموالاة نصرها . فله الحمد سبحانه على أن رحم المسلمين بدولته السعيدة ، وامتنَّ عليهم بأيامه الصالحة السديدة. وإن المقام الامامي الواثقي صدر عنه في أول الفتح المبارك من

تقدم العبد للنظر في الخطة الشرعية والاعتناء بمعالم الدين ما تكفل الله به تعالى لمقامه المؤيد (عظيم) الأجر وجزيل الذخر ، فشكر العبد الله تعالى والمقام الكريم على هذه الالتفاتة الكريمة ، وشرع في النظر في هاته الخطة بعد أن أتته عفواً دون أن يتقدم له فيها رغبة ولا طلب ، واستخار العبدُ الله وتوكل عليه والمسلمين نصحا واجتهادا بمبلغ قدرته إلى أن بلغت العبد عن بعض (الذين كانوا) في المدد السالفة خاملين مهتضمين أمور وأقاويل غيرت نفس العبد وكدرت خاطره [فتحمل العبد] ما بلغه عنهم وطواه ولم يلتفت إليه ، فلم يزالوا بعد هذا مستمرين على عادتهم طاعنين (في الخطة) معترضين بالأقاويل حتى ضاق بهم ذرع العبد وصاروا بحيث يتفكهون في الأحكام والنوازل ، وينظرون في العقود التي بها تقطع الحقوق في مجالس الخصام ويقدحون فيها . فوجب على العبد إنهاء هذا كله إلى المقام الإمامي أيده الله ونصره ، والرغبة إلى الله تعالى وإليه في أن يكف هؤلاء القوم ويدفع ضرر ألسنتهم حتى يعلم جميعهم أن للخطة من يقيم رونقها ويعضد المشتغل بها ، أو الإنعام على العبد بصرفه عنها وتأخيره [وإعفائه منها] ، ففي ذلكم لعلل العبد وأدوائه أكبر شفاء ، إذ فيما تكلموا به أمر كبير وخطب شنيع (ولو صدر شيء من هذا يا سيدنا عمن له تخصص بالفقه أو أدنى ملابسة) للعلم لسكت العبد عنه واحتسبه لله تعالى ولكن حرك العبد أن ذلك صادر عن قوم جهلة .

(أحداث لم يشموا قط) رائحة العلم ، فكيف أن يتعرضوا (للاحكام) التي هي ثمرة الفقه . وقد بلغ العبد من سنه نيفا وثمانين سنة ، والرغبة من المقام الواثقي أن يأمر العبد بأحد شيئين ، إما بصرفه وإراحته بالاعفاء ، وإما بنصره وشد أزره . وفي كريم علم . . . الكريم . إن الخليفة بوجوده يكون نظام العالم ، والقاضي نائب عنه في أهم أموره ، فإن لم يكن منه (نظر) وتطلع لاموره تعرض إليه من لا خلاق له بمثل ما تعرض للعبد . ولمولانا رضي الله عنه الفضل الأتمّ في النظر فيما شرح له عبده . وقطع هذه العلل وحسم هذه الأدواء بما يقتضيه نظره المبارك العلي أيده الله . والعبد منتظر لتوقيع كريم بما يعتمد عليه بحول الله تعالى . وهو سبحانه يديم علاءه ، وينصر لواءه ، والسلام الأتمّ المبارك العميم ، يخص المقام الكريم ، ورحمة الله وبركاته » .

فوقع له بهذا التوقيع :

« هذه جرأة كبيرة علينا ، واحتقار مفرط لجانبنا ، والكلام في هذه الخطة

وفيمن اختير لها ليس بهين ، ولا يقع فيه إلا مختل العقل غالط في نفسه وفينا ، جاهل قدره ، متعد طوره ، والخطة أكبر من أن يسلك فيها أولو العلم والعقل هذا المسلك الصعب ، فكيف بمن سواهم ؟! فيبحث عن المتكلم بهذا ويعرف بهم فننظر في قضيتهم بما يظهر لنا إن شاء الله تعالى » .

ولما قتل أبو دبوس كما تقدم ، تفرقت أجناده ، فلم يصل أحد من الموحدين ولا من رجالهم إلى مدينة إلا من وصل اليها منهم . . ذلك . فلما وصل إلى مراكش بعض أشياخ الموحدين ومن وجد السبيل للوصول إليها من المتجندين ، قدموا أميراً على أنفسهم أبا محمد عبد الواحد بن أميرهم أبي دبوس ، وسموه المعتصم بالله ، وقرعوا الطبول على مبايعته مدة من خمسة أيام ، وذلك إشغالاً للناس بخلال ما يدبرون لأنفسهم في النجاة برؤوسهم .

وكان مقتل أبي دبوس يوم الأحد الثاني لمحرم مفتتح عام ثمانية وستين وستمائة ، ووجه (أمير المسلمين أبو) يوسف وزيره أبا زكريا بن حازم مع بعض الفرسان ليتشوف أخبار أهل مراكش . . . . بوادي تانسيفت بيعتهم للسلطان المؤيد أبي يوسف ، بعثها له قاضيهم . . . . ولده أبا عبد الله وصهره تمام ، وأبي عمر حجاج ، وأخبروا لأبي زكريا بن حازم . . . . أبي دبوس جبالهم بأولادهم وعيالهم وبعض خيلهم ورجالهم .

وخرج الناس . . . المنصور أبي يوسف ، فدخلها في يوم عاشوراء العاشر لمحرم من سنة ثمان (وستين المؤرخة المذكور) وانقضت دولة بني عبد المؤمن ودرست . . . . منارها ، فسبحان من لا يبيد ملكه ، ولا يفني دوامه .

في منامه هذين البيتين فورخ ذلك اليوم (فكان يوم مقتل أبي دبوس الواثق :

ملك بني مؤمن تولى ... وكان عند السماك سمكه
فاعتبروا وانظروا وقولوا ... سبحان من لا يبيد ملكه)

انتهى بحمد الله تعالى وحسن عونه وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم .

وكان الفراغ منه بين صلاة الظهر من يوم الاثنين الموفي عشرين للشهر المبارك شعبان سنة خمس وستين ومائة وألف1165 والحمد لله رب العالمين .

فهرس أعلام
الأشخاص والقبائل والأمم

الأبناء

الآباء

سائر حرف الألف

حرف الباء

حرف التاء

حرف الثاء

حرف الجيم

حرف الحاء

حرف الخاء

حرف الدال

حرف الذال

حرف الراء

حرف الزاي

حرف السين

حرف الشين

حرف الصاد

حرف الطاء

حرف الظاء

حرف العين

حرف الغين

حرف الفاء

حرف القاف

حرف الكاف

حرف اللام

حرف الميم

حرف النون

حرف الهاء

حرف الواو

حرف الياء

فهرس الأماكن

حرف الألف

حرف الباء

حرف التاء

حرف الجيم

حرف الحاء

الخاء

حرف الدال

حرف الراء

حرف الزاي

حرف السين

حرف الشين

حرف الصاد

حرف الطاء

حرف العين

(*) يطلقها الاندلسيون على المغرب ويطلقها المغاربة على الاندلس ، فالمغرب عدوة الاندلس والاندلس عدوة المغرب ، فكل يضاف إلى ما قبله ، وكذلك عدوة سلا هي الرباط بخلاف المجاز فينسب إلى محله ، لأنه منه ، لا إلى مقابله ، فإنه إليه .

حرف الغين

حرف الفاء

حرف القاف

حرف الكاف

حرف اللام

حرف الميم

حرف النون

حرف الهاء

حرف الواو

حرف الياء

فهرس الكتب

فهرس
موضوعات الكتاب

مطبعة النجاح الجديدة
الدار البيضاء

الإيداع القانوني رقم 1985/196

Dup

Dup